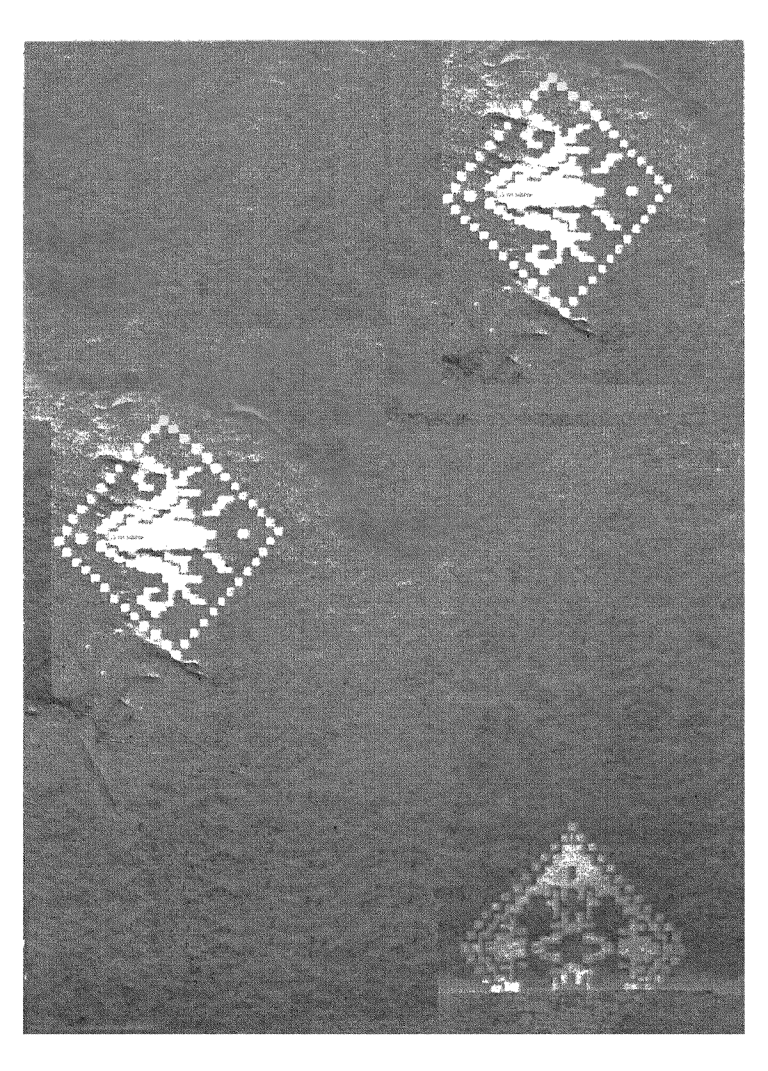
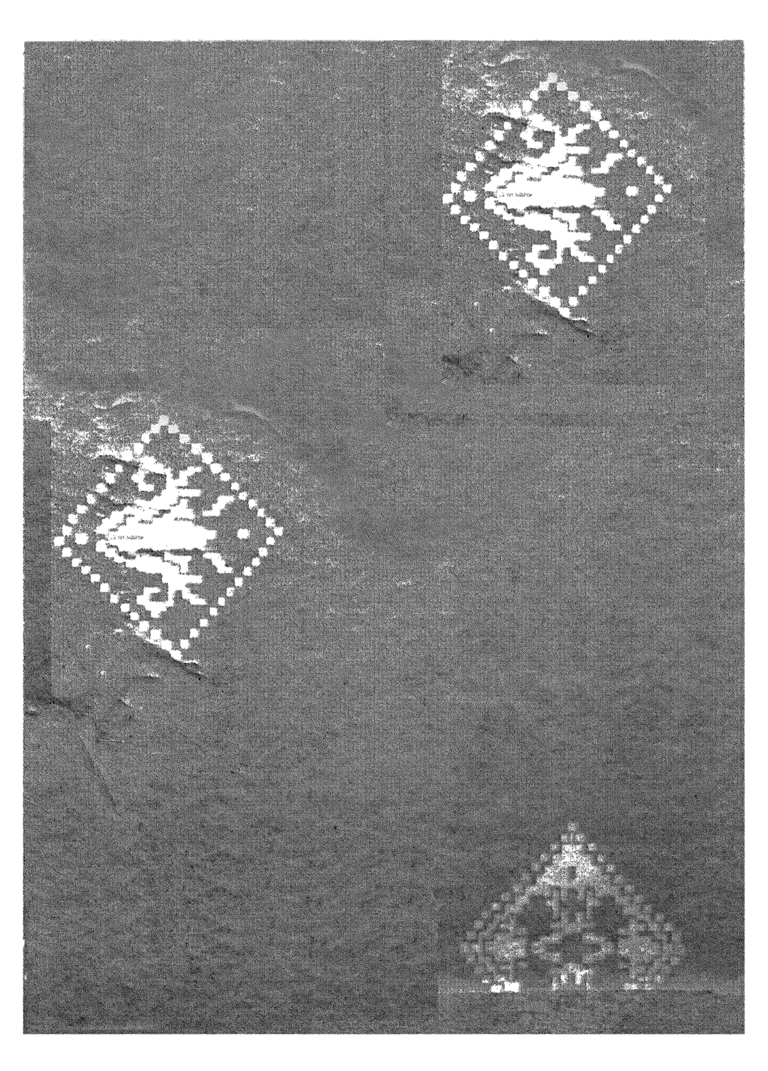
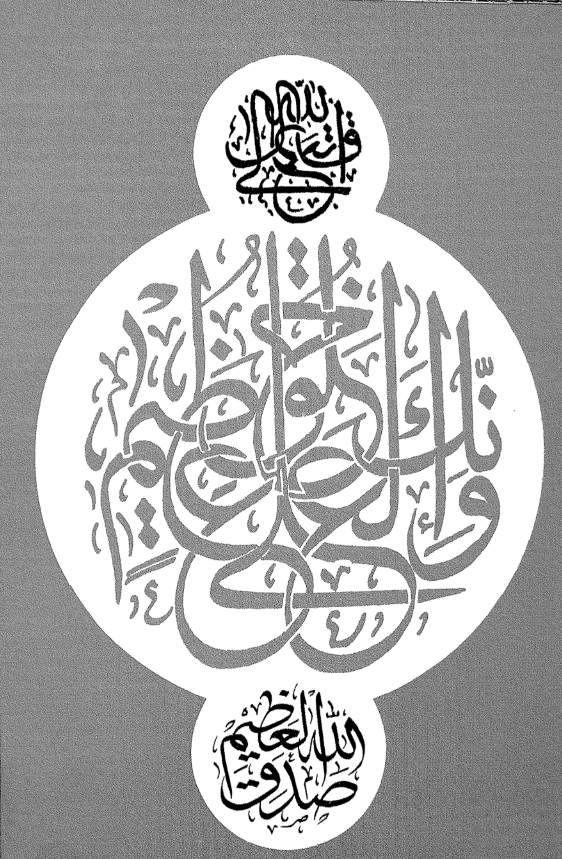








العدد الأول • السنة الثانية عشرة • شوال ١٤٠٦هـ • يونيو ١٩٨٦م



سورة القلم آية «٤»





مجلة فصلية مُحَكَّمَة

تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز

العدد الأول ● السنة الثانية عشرة ● شوال ١٤٠٦هـ ● يونيو ١٩٨٦م.

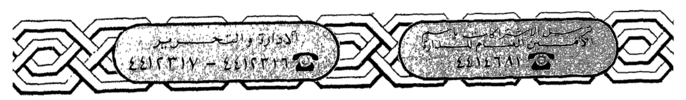
دارة الملك عبد العزيز:

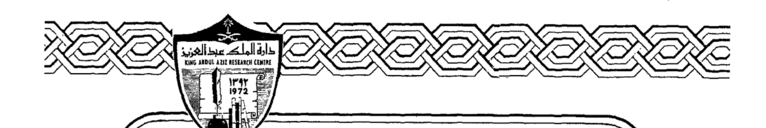
أنشئت بمقتضى المرسوم الملكي الكريم رقم م/[illegible]
في ٥/٨/١٣٩٢هـ كهيئة مستقلة ذات شخصية اعتبارية، يديرها
مجلس إدارة له كافة الصلاحيات اللازمة لتحقيق أهدافها،
والغرض من إنشائها: خدمة تاريخ المملكة، وجغرافيتها،
وآدابها، وآثارها الفكرية والعمرانية بخاصة، والجزيرة وبلاد العرب
والإسلام بعامة، وذلك عن طريق إنجاز البحوث ونشرها، وطلب
الوثائق والمخطوطات وتحقيقها، وإصدار مجلة تحمل اسمها. كما أنها
المركز الوطني للوثائق والمخطوطات، بمقتضى الموافقة السامية
رقم ٥/٨/١٢٦٠ في ٢٠/٥/١٣٩٦هـ

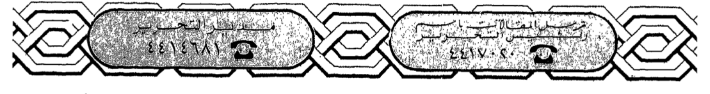
ص.ب ٢٩٤٥ الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية

رقم الفاكسيميلي: ٤٤١٧٠٢٠/١/٩٦٦/٠٠




ترسل الاشتراكات باسم الأمين العام للدارة
☎ ٤٤١٤٦٨١
الإدارة والتحرير
☎ ٤٤١٢٣١٦ - ٤٤١٢٣١٧


دارة الملك عبدالعزيز
KING ABDUL AZIZ RESEARCH CENTRE
١٣٩٢
1972


مدير التحرير
٤٤١٤٦٨١
ترسل المقالات باسم رئيس التحرير
٤٤١٧٠٢٠

* آراء الكتّاب لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة *

- ترتيب البحوث داخل العدد يخضع لأسباب فنية لاعلاقة لها بمكانة الكاتب ..
- لاترد البحوث الى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر ..
- ترسل البحوث سرياً الى محكمين ويتم نشرها بعد النظر في صلاحيتها للنشر .

* الاشتراكات السنوية *

- ٢٠ ريالا للاشتراك السنوي داخل المملكة العربية السعودية
- وفي البلاد العربية مايعادل القيمة لأربعة أعداد في كل بلد .
- ٦ دولارات خارج البلاد العربية

قيمة العدد

السعودية : ثلاثة ريالات - الإمارات العربية أربعة دراهم
- قطر : أربعة ريالات - مصر ٣٥قرشاً - المغرب خمسة دراهم - تونس ٤٠٠ مليماً
خارج البلاد العربية : دولار للعدد

الموزعون

* **السعودية** : مؤسسة الجريسي للتوزيع
ص.ب ١٤٠٥ الرياض - ت ٤٠٢٢٥٦٤
* **أبو ظبي** : مكتبة المنهل
ص.ب ٣٧٧٨ أبو ظبي - ت ٣٢٣٠١١
* **دبي** : مكتبة دار الحكمة
ص.ب ٢٠٠٧ - ت ٢٢٨٥٥٢
* **قطر** : دار الثقافة
ص.ب ٣٢٣ - ت ٤١٣١٨٠
* **البحرين** : مؤسسة الهلال للتوزيع
ص.ب ٢٢٤ المنامة - ت ٢٦٢٠٢٦
* **مصر** : مؤسسة الأهرام للتوزيع
شارع الجلاء - القاهرة ت ٧٥٥٥٠٠
* **تونس** : الشركة التونسية للتوزيع
٥ نهج قرطاج
* **المغرب** : الشركة الشريفية للتوزيع
ص.ب ٦٨٣ الدار البيضاء ٥



صـورة الغـلاف

● صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد، ورئيس الحرس الوطني، ونائب رئيس مجلس الوزراء، يسلم أحد الفائزين بجائزة الملك فيصل العالمية جائزته.

في هـذا العـدد



التاريخ المجغرف

بقلم رئيس التحرير

وجرى حديث بيني وبين الأخ الدكتور / سامي خماس الصقار، عن معرفة مكان الحدث التاريخي؛ فأكثر تاريخنا الذي كتب واتسعت له الأمهات من تلك الموسوعات، كان مقتصراً على شرح الحوادث لا يجغرفها ـ لا يصف المكان ولا يحدده ـ.

غزوة بدر مثلاً، فصّلتها الرواية، وسجلتها كتب السيرة، وحفلت بها موسوعات التاريخ، ولكن أين المكان ؟ .. أين الوصف للأرض وطبيعتها ؟ .. وغزوة الأحزاب شأنها شأن بدر .. الخندق .. النسوة على الجبل .. الأحزاب في مجمع الأسيال .. كل هذا تعريف في الغزوة لا يحتاج إلى كتابة جديدة، ولكن الحاجة تدعو إلى الجغرفة الجديدة.

بدر في المنحنى لمجرى وادي الصفراء، يسير مغرباً حتى إذا حجزته التضاريس من تلال الرمل والجبل، استمال منحدراً ليستميل مغرباً بعد .. المكان أوحى ـ كموقع «استراتيجي» ـ بالتكتيك لإدارة الحرب، فالحباب بن المنذر كان عسكرياً بمعنى الكلمة، سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيه، فإذا هو على التل في أعلى الوادي لا يناله هذا السيل، فألزموا المشركين من قريش أن يكونوا في أسفل الوادي، وتأتي رمية الله (ومارميتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى) ينزل المطر غيثاً، أغاث النبي وجيشه، وتعويقاً لقريش؛ لأنها في أسفل الوادي، تتلبد الأرض تحت البعير والحصان، كأنما الحصان والجمل يتعثران في الطين، يعجز المشرك عن الغارة فإذا هو النصر، القلة تنتشر على أرض صلبة، والكثرة تتعثر علي أرض رخوة .. كان هذا التكتيك، وكانت تلك الاستراتيجية رأى البشر، ولكن التوفيق من الله.

ألف بعير، سبعون فرساً .. ألف فارس .. هزموا؛ لأن المكان كان طليعة الهزيمة ولنقل إنه الميدان .. ثلاثمائة وثلاثة عشر فارساً تحت قيادة رسول الله، وفرسان وسبعون بعيراً، أعطاهم المكان الصلب قمة النصر، أفلا يحتاج ذلك إلى جغرفة؟ فالتاريخ لا يتسع فهمه إلا إذا جغرف.

وغزوة الأحزاب .. كانت الحماية في الخندق .. هكذا الرواية .. بينما الحماية أكثر .. كانت بالجبل سلع، كان الرسول وأصحابه غرب سلع، والخندق أمامهم، يحجز الكثرة أن تغير .. فالجبل سلع يصد الصبا .. لأن هذه الغزوة كانت في أيام شاتية، وعندما تهب الصبا من المشرق تتعب وتكره، لكنها ـ أعني الصبا ـ وقد صدها الجبل سلع، كانت من أسباب الراحة للجيش المسلم، وهذا يفسره قوله صلى الله عليه وسلم :
﴿ نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور ﴾.

أما الصبا فكانت جالبة النصر على صورتين، راحة النبي وأصحابه، والكرب الكارب على المشركين؛ لأنهم كانوا في فسيح من الأرض .. في مجمع الأسيال .. بروما البئر التي تجتمع حولها الأسيال .. قناة من الشرق وأبطحان من الجنوب وسط المدينة، والعقيق من الجنوب بين الجماء وحرة واقية.

وهبت الصبا تزعج المشركين .. تكفأ قدورهم .. تقلع خيامهم، فإذا هي الراجفة .. حتى إذا أرجفوا وخذلهم اليهود أجمعوا أمرهم .. يصرفهم الله بالخندق .. أعجزهم صنع البشر، كما أزعجتهم الصبا .. تدبير الذي أتقن كل شيء ..

إن قارىء الحدث لكتب التاريخ لا يعرف الموقع وما جرى للواقعة، لأن الرواية لم تجغرف لها.

وهناك ملاحظة أخرى في تحديد الأيام، فالرواية تقول : خرج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بدر، وصل بدراً، استعد للقتال .. لكن كم هي الأيام .. قبل السابع عشر من رمضان .. متى علم أبو سفيان بنواضح يثرب ؟ .. متى وصل الخبر إلى مكة ؟ .. كم يوماً مضى حتى استعد المشركون ؟.. وماهي عدد الأيام ؟ .. التي أوصلت الخبر، والتي جمعت فيها قريش أمرها .. كم يوماً مضى على نجاة العير .. إذ نجت، وهي غير ذات الشوكة .. وكم يوماً مضى على النفير .. حتى وصل ؟ .. وهل رسول الله وصل بدراً قبل السابع عشر من رمضان ؟.. وكم هي الأيام ؟ .. وما هو وصف الطريق الذي سلكه رسوله الله؟.. وهل هو الطريق الذي سلكته قريش؟.. كل ذلك يحتاج إلى جغرفة وصفاً وتصويراً، وقل مثل هذا في اليرموك، والقادسية والغزوات الأخرى وحتى السرايا، ونحن إلى اليوم.. بح صوتي.. أطالب وزارة الزراعة، والجامعات، وصاحب كل شأن في ذلك، أن يجغرف لنا الوديان والواحات.. فهذا كتاب «صحيح الأخبار» لابن بليهد، ما أحسن أن يجغرف، يطبع بجغرفة الخرائط.. أعرف اسم الوادي ولكني لا أعرف مسيلها الأول، ومجراه بعد، ومصبه، وروافده.. كل شيء أصبح مكشوفاً، وأرض الكيان الكبير قد مسحت من الجو، فجغرفونا لنرفع عنا الجهل، بعلم نعرف به كل أرضنا.

ولم يطل الحوار بيني وبين الدكتور سامي، حين زارني في الدارة، إلا على أبسط صورة مما كتبت، وقد سره مني حين ذكرت شعر سديف مولى بني العباس حين قال :

... وقتيلاً بجانب المهراس ...

ـ قال :

محمد بن الحسن، النفس الزكية : لا أظن ذلك، فما المقصود إذن؟

ـ قلت: لا .. ولا .. لم يكن حين قتل بجانب المهراس، فقاتله المنصور تولى الخلافة بعد قول سديف بسنوات، مدة أخيه السفاح، إن القتيل بجانب المهراس أكاد أظن أنه (حمزة بن عبد المطلب) فالمهراس داخل أحد، ولعلى أميل على ثقافة أستاذنا حمد الجاسر .. لعلى أجد عنده التصويب .. أو التخطئة لأعرف اليقين منه، كما عرف اليقين عن جبل رضوى، وكما عرفت اليقين منه حين أخطأت فصوبني؛ فقد سمعت حسن الكرمي في إذاعة لندن في برنامجه « قول على قول » سألوه عن هذا البيت «لتأبط شراً» وعن الجبل سلع، في قوله :

إن بالشِّعب الذي دون سلع لقتيل دمه مايطل

الكرمى أجاب : بأنه سلع البتراء في البلقاء (الأردن) وأخذت نفسي أخطىء الكرمى أقول :

إن تأبط شراً.. هذا الهذلى، ماشأنه والبتراء في الأردن، لابد أنه أراد سلع المدينة وسألت أستاذنا حمد الجاسر عن هذا الذي قلت، فقال الجاسر بجسارة العالم ..

الكرمى أخطأ وأنت أخطأت .. إن تأبط شراً، ذكر سلعه، الجبل في هذيل .. كأنما عندنا السلع المثلث (البتراء ـ المدينة ـ هذيل).

لو كانت لدينا جغرفة لأرضنا، أيضيع اسم رضوي .. وهو أمامه في ينبع .. من معرفته؟ .. ولا أعرف أن في هذيل جبلًا اسمه سلع؟.

إنني أدعو أساتذة الجغرافيا أن يجغرفوا التاريخ .. الأرض، والوادي، والجبل، والواحات، والعيون والآبار التي حفرت بالأزميل وماأكثرها حزينة، لأنها مازالت مجهولة لا نعرف مجد من حفرها، وهم من أهل هذه الأرض، ولعل مهرجان التراث في الجنادرية ينتصب لهذه الجغرفة.

● **محمد حسين زيدان** ●

الملك عبدالعزيز

ووضع قواعد التنظيم القضائي في المملكة

د. سعود بن سعد الدريب

تمهيد:

أولت المملكة العربية السعودية منذ قيامها ممثلة في شخص الملك عبدالعزيز القضاء الكثير من الاهتمام والرعاية وقد أقامه على تحكيم الشريعة الإسلامية في كافة الأمور والأحوال الشخصية منها والمدنية والجنائية وأنشأت المملكة المحاكم على اختلاف أنواعها ودرجاتها، وأصدرت الأنظمة التي ترتب هذه المحاكم وتبين وظائفها، وتحدد اختصاصها وسلطاتها، وتنظيم سير العمل بها على ما سنعرفه في المباحث التالية.

وكان القضاء في الحجاز ومنطقة عسير والإحساء قد ناله شيء من التنظيم فيما يتعلق بترتيب المحاكم، وسير الاجراءات فيها، وكان قد تأثر كثيرا بالنظام القضائي العثماني وطول اجراءاته المتسمة بالرتابة والبطء بالإضافة إلى ما انتابه من ضعف ضمائر بعض القائمين عليه، فعلى الرغم من كون الباب العالي يرسل رئيس القضاة إلى مكة كل مدة معينة لضمان العدل، وحتى يكون القضاء مستقلاً عن الحكم فلا يكون للأشراف نفوذ أو تأثير في قضاء القاضي، لكن هذا الغرض لم يحصل إلا نادراً، وكان أكثر القضاة آلة في يد شريف مكة، وفي الغالب لا يحكم في الدعوى قبل أن تقدم الهدايا للقاضي(١).

وإلى جانب هذا يوجد نظام العشائر، إذ اتبعت القبائل في البوادي نظامها القبلي القائم على السوابق، والعرف، ذلك لأن الشريف حسين حينما أعلن الثورة على الخلافة العثمانية أصدر قراراً بإلغاء الأنظمة العثمانية والرجوع إلى النظام القبلي القائم على العرف، إلى جانب تعيين موظفين خاصين للفصل في منازعات البدو السريعة(٢).

هكذا كان وضع القضاء في الحجاز عند بدء أيام الملك عبدالعزيز.

١ ـ تنظيم قضائي قد تأثر كثيرا بالنظام القضائي العثماني والمذهب السائد في المدن هو المذهب الحنفي إلى جانب باقي المذاهب الأربعة ـ وخاصة المذهب الشافعي ـ في غير الحواضر.

٢ ـ قضاء عشائري قائم على النظام القبلي.

٣ ـ وكان من نتيجة ذلك تضارب في الاختصاص، وتنافر في الأحكام أو تعليق لها، لاعتماد الخصوم على استصدار اعلامات شرعية من قضاة ينتمون إلى مذهب معين في الفقه.

وكان على الملك عبدالعزيز أن يسعى جاهداً لتحقيق التوافق بين هذه الأنظمة القضائية لما يجب أن يكون عليه نظام العدالة في الإسلام، ووضعه في إطار يقبله الجميع ولكنه كان من الحكمة بمكان فلم يقم بتغيير جذري مباشر، بل أوكل النظر في نظام المحاكم وترتيبها إلى المجلس الأهلي (مجلس الشورى) الذي أنشيء بمكة المكرمة عام ١٣٤٤هـ فقد جاء في البيان الذي أصدره أن من اختصاصات المجلس النظر في نظام المحاكم، وترتيبها بصورة تضمن توزيع العدل، وتطبيق الأحكام الشرعية تطبيقاً لا يجعل مجالاً للهوى[٣].

وكان الوضع يحتم هذا المسلك تحسباً لردود الفعل المتوقعة على مستوى الصعيدين الداخلي والخارجي، فقد كان العالم الإسلامي يتابع ما يجرى في الحجاز بعد سقوط الدولة العثمانية والنزاع مع الشريف حسين[٤]. وعلى المستوى الداخلي، فقد كان هناك اتجاهان متعارضان في ظاهر الأمر، ذلك لأن هذا التنظيم قد تأصل في نفوس أهل الحجاز خاصة سكان المدن منهم، ومن جهة أخرى فإن ما يسمون بالإخوان من أتباع عبدالعزيز يطالبون بإلغاء كل تنظيم حديث خاصة ما يتعلق منه بأمور القضاء، دون النظر لما تقتضيه الأمور المصلحية، وكان رد الفعل الداخلي أهم من رد الفعل الخارجي، فالعالم الإسلامي في ذلك لم يكن في وضع يمكنه من ممارسة الانتقاد، بل ممارسة ضغط فعال مؤثر على سير الأحداث في الحجاز، وذلك بسبب تأخره، وخضوع معظمه للسيطرة الأجنبية.

وإزاء رد الفعل الداخلي اضطر الملك عبدالعزيز إلى إحالة المسألة برمتها إلى العلماء للفصل فيها، وكانت الفتوى التي أصدرها العلماء في ٨ شعبان ١٣٤٥هـ - ١١ فبراير ١٩٢٧م مؤيدة بصورة عامة للمفهوم العام، إذ جاء فيها (وأما القوانين فإن كان موجوداً منها شيء في الحجاز فيزال فوراً، ولا يحكم إلا بالشرع المطهر)[٥].

وبالرغم من قوة المعارضة، وصدور الفتوى سالفة الذكر، إلا أن ذلك لم يغير شيئاً من الوضع، ذلك لعدم وجود ما يتعارض مع الفتوى أساساً، ولمزيد الايضاح ينبغي أن نفرق بين القوانين التي تنبني على قاعدة المصالح المرسلة، التي تكون حيث لا يكون ثمة دليل من نص من الكتاب والسنة أو الاجماع يقضي بالجواز أو المنع في المسألة التي نقول فيها بالمصلحة، نفرق بين هذا النوع من القوانين، وبين القوانين الأخرى التي تعارض وتخالف نصوص الشريعة، فالأول استصلاح محض لأمور مصلحية، وهو ما يعرف بأحكام السياسة الشرعية، والثاني خروج عن أحكام الشريعة الإسلامية.

وانطلاقاً من ذلك المفهوم، فقد نصت الإرادة السنية الصادرة برقم ١١٦٦ وتاريخ ١٣٤٥/١٢/٢٧هـ الموجهة إلى النيابة العامة في مكة المكرمة على (أن أحكام القانون العثماني الخاص بتملك العقار - ما زالت جارية إلى الآن، لأننا لم نصدر ارادتنا بإلغائها ووضع أحكام جديدة مكانها. ولذا نوافق على اقتراحكم بشأن استمرار ذلك القانون، ونطلب منكم أن تبلغوا رئاسة القضاة والحكام الإداريين بالملحقات بضرورة الامتناع عن اجراء إفراغ العقار إلى الأجانب، وتوقيف الاجراءات المعروضة الآن أمامها، أما المعاملات التي جرت سابقاً فمن الضروري إحضار كشف مفصل يحتوى موقعها وأسماء أصحابها، وتواريخ افراغها، لنرى ما يجب اتخاذه بشأنها)[٦].

ومما يؤيد أن المحاكم تسير في أحكامها الموضوعية وفق أحكام الشريعة الإسلامية ما جاء في حديث عبدالعزيز حيث قال: (أما المذهب الذي تقضي به المحكمة الشرعية فليس مقيداً بمذهب مخصوص، بل تقضي حسبما يظهر لها من أي المذاهب كان، ولا فرق بين مذهب وآخر)[٧]. وأوضح هذا المعنى في حديث له آخر حول الموضوع

فقال: (لا نتقيد بمذهب دون آخر، ومتى وجدنا الدليل القوي في أي مذهب من المذاهب الأربعة رجعنا إليه وتمسكنا به، أما إذا لم نجد دليلاً قوياً أخذنا بقول الإمام أحمد فهذا كتاب الطحاوية في العقيدة الذي نقرؤه وشرحه للأحناف، وهذا تفسير ابن كثير وهو شافعي)(٨).

تشكيلات المحاكم وتحديد اختصاصاتها

لقد ترك الملك عبدالعزيز المحاكم على حالها ولم يصدر سوى تشكيل مؤقت لقضاة مكة بخصوصها وكان ذلك سنة ١٣٤٤هـ - ١٩٢٦م(٩) وذلك في محاولة إيجاد نظام قضائي موحد تنضوي تحته سائر المحاكم في جميع أنحاء المملكة، وكانت الخطوة الأولى في هذا السبيل صدور المرسوم الملكي بتاريخ ٦ صفر ١٣٤٦هـ - ١٢ أغسطس ١٩٢٧م بتشكيل المحاكم في الحجاز على ثلاث درجات(١٠) هي:-

١ - محاكم الأمور المستعجلة (محاكم جزئية).
٢ - محاكم كبرى، ومحاكم ملحقات، وهما عبارة عن محاكم عامة.
٣ - هيئة المراقبة القضائية (محكمة نقض وإبرام).

وقد تضمن المرسوم النص على اختصاصاتها بما يلي:-

١ - في مكة المكرمة:

(أ) **محكمة الأمور المستعجلة الأولى:** وهي من قاض واحد، وقد حددت اختصاصاتها بالنظر في الجنح، والتعزيرات والحدود الشرعية التي لا قطع ولا قتل فيها، وفي الدعاوي المالية التي لا تزيد عن ثلاثين جنيها - وقد حددت بثلاثمائة ريال فيما بعد - واحكامها لاتقبل النقض ما لم تخالف نصاً أو إجماعاً، وقد عدل هذا النص بتكليف المحكمة المستعجلة بأن ترفع الحكم الصادر إلى

هيئة المراقبة القضائية إذا صرح المحكوم عليه بعدم اقتناعه بالحكم، وذلك لحماية المحكوم عليه بإعطائه ضماناً أكثر(١١).

(ب) **محكمة الأمور المستعجلة الثانية**: وهي من قاض واحد، وتنظر في أمور البادية وما يتعلق بها، وتكون صلاحياتها كالمحكمة المستعجلة الأولى، وذلك فيما عدا العقار حيث أنه من اختصاص المحكمة الكبرى.

(جـ) **المحكمة الكبرى**: وهي مؤلفة من ثلاثة قضاة أحدهم رئيسها وتنظر في جميع الدعاوى التي تقدم لها مما هو خارج عن اختصاص المحاكم المستعجلة، وهي قضايا العقار والقضايا المالية التي تزيد عن ثلاثمائة ريال، والقضايا الجزائية التي تخرج عن اختصاص المحاكم المستعجلة، ومسائل الأحوال الشخصية، والقضاية الزوجية، والطلاق، وإقامة الأوصياء، واثبات وقفية العقار ونحو ذلك، وتوزع الدعاوي فيها على القضاة لينظر كل منهم الدعوى منفرداً ثم يجتمعون كلهم قبل الحكم لإصداره بإجماعهم أو بالأكثرية، وذلك في غير الدعاوي التي فيها قطع أو قتل أو رجم، والتي تستوجب ابتداء حضور هيئة المحكمة.

٢ - في جدة والمدينة المنورة:

(أ) **محكمة الأمور المستعجلة**: وهي من قاض واحد في كل منهما ويختص كل واحد منهما بما تختص به المحكمتان المستعجلتان الأولى والثانية في مكة.

(ب) **المحكمة الشرعية الكبرى**: في كل منهما قاض واحد، ونائب له وينظران في جميع الدعاوي الخارجة عن اختصاص المحكمة المستعجلة بجهتيها، باستثناء ما كان داخلاً في اختصاص المجلس التجاري بالنسبة لمحكمة جدة كما سيأتي ولا ينفذ أحكامها إلا بعد اقرارها من أكبر قاض في البلد ما عدا قضايا القطع والقتل والرجم، فتعرض على رئيس القضاة وهيئة التمييز، غير أن ذلك تعدل بالأمر السامي الصادر في سنة ١٣٧٤هـ، إذ نص على أن كل حكم يصدر من قاض معين ينفذ في الحال باستثناء أحوال التظلم وقضايا القتل والقطع والرجم(١٢).

وفي سائر الملحقات يقوم بسائر الأحكام قاض واحد، ومن الملحقات التي عددها المرسوم، ينبع، والطائف، الوجه، وأملج، والليث، وما ماثل هذه البلدان من سائر الملحقات.

٣ ـ هيئة المراقبة القضائية:

وتتألف من رئيس، ومعاون، وثلاثة قضاة أعضاء يختارهم الملك من كبار العلماء، ولما كانت مكة المكرمة مقرا لنائب الملك، وأهم مدينة في الحجاز، فقد اختيرت مقراً للهيئة.

ولهذه الهيئة صلاحيات ومهام واسعة، فهي تقوم بتمييز الاعلامات والأحكام التي لم يقنع بها المحكوم عليه، وأحكام الحدود (القطع والقتل والرجم). والتعزيرات الصادرة من محاكم مكة، وتدقيق أحكام القطع والقتل الصادرة من بقية المحاكم، وفي حالة تأييدها للحكم تكتسب الأحكام درجتها القطعية، وفي حال وجود ما يستدعى الملاحظة تعاد إلى المحاكم التي أصدرتها لإعادة النظر فيها، وقد نص المرسوم على أن تشرح الهيئة أسباب نقضها بالأدلة، وإذا صدر حكمها بالأكثرية فلابد من أن تسجل الآراء المخالفة، وهي بالإضافة إلى ذلك تقوم بما يلي:ـ

(أ) الإشراف الإداري على المحاكم، والتفتيش عليها، ورئيس الهيئة بحكم منصبه صلة الوصل بين رئاسة الحكومة والمحاكم.

(ب) الإفتاء في المسائل التي لا يرجع النظر فيها إلى المحاكم الشرعية.

(جـ) الإشراف على المعارف عن طريق مراقبة التدريس والمناهج، وملاحظة انسجامها مع التعاليم الشرعية.

(د) الإشراف على هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتأكد من عدم تجاوزها العرف الشرعي[١٣].

وقد سميت هيئة المراقبة القضائية في نظام تركيز مسئوليات القضاء الشرعي الصادر عام ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م باسم (هيئة التدقيقات الشرعية). وأصبحت

تتألف من رئيس القضاة (رئيسا) ومن أعضاء الهيئة وهم أربعة وجعل من صلاحياتها محاكمة القضاة، بالإضافة إلى تدقيق الأحكام.

٤ ـ المجلس التجاري:

وإلى جانب هذه المحاكم يوجد نوع من المحاكم المتخصصة، وهي المجلس التجاري حيث تألف سنة ١٣٤٥هـ ـ ١٩٢٩م مجلس تجاري بجدة للنظر في القضايا الناشئة بين التجار، وفي الشئون التجارية التي تستدعى سرعة البت فيها، ويتألف هذا المجلس من رئيس وستة أعضاء، نصفهم فخريون، والنصف الآخر دائمون ينتخبون من الأشخاص الذين لهم خبرة تامة بالشئون التجارية والمشهورين بالديانة والشرف والاستقامة، وينضم إليهم عضو شرعي، ويعينهم جلالة الملك جميعاً لمدة سنتين مع جواز تجديدها من الذين لا تقل أعمارهم عن الثلاثين، وتتخذ قرارات المجلس بالأغلبية، وتكون قابلة للتمييز في مهلة ثلاثين يوماً من تاريخ التبليغ، ونص النظام على التمييز يقدم مؤقتا إلى مجلس الشورى بواسطة النيابة العامة (**نائب جلالة الملك في مكة**)، وعن طريق الحاكم الإداري في الملحقات(١٤).

٥ ـ مجلس إدارة ينبع:

وفي ينبع ـ بحكم وجود ميناء بها ـ تألف مجلس تجاري من قاضي البلد، وأمين المالية وأعضاء منتخبين برئاسة الأمير، ويقوم بمهام المجلس التجاري في ينبع، وتستأنف أحكامه أمام المجلس التجاري في جده(١٥).

ولم يعد للمجلس التجاري في جدة وينبع أي دور، إذ تحولا فيما بعد إلى ما يسمى اليوم بهيئات حسم المنازعات التجارية، ونخرج من هذا، ان النظام السعودي أخذ:

أولاً: بنظام تعدد القضاة.
ثانياً: وأجاز الحكم بالأغلبية أو بالاجماع.



ثالثاً: وأوجد ما يسمونه بنواب القضاة.

رابعاً: كما تعرض لتحديد الاختصاص بالنوع وبالأشخاص.

خامساً: وأوجد نوعا من القضاء المتخصص.

سادساً: واستئناف الحكم إلى محكمة أعلى.

بقي أن نعرف، ونحن في ختام حديثنا عن هذا الموضوع أن هذا التشكيل خاص بمنطقة الحجاز، كما هو ظاهر، وقد شمل فيما بعد جميع مناطق المملكة بما في ذلك الإحساء ما عدا المنطقة الوسطى (نجد وملحقاتها) فقد بقي القضاء على ما كان عليه يقوم به قضاة منفردون دون وجود تشكيل ينظم عقدهم حتى وقت متأخر على ما سنعرف.

القضاء في نجد وملحقاتها:

أشرنا فيما سبق أن التنظيم القضائي ـ الذي تحدثنا عنه ـ قد شمل جميع مناطق المملكة، ما عدا المنطقة الوسطى (نجد وأقاليمها) فقد حظي الحجاز بشيء من التنظيم القضائي قبل الحكم السعودي، ثم حظي بشيء من ذلك في العهد السعودي ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك أما نجد وملحقاتها فلم تعرف أي تنظيم قضائي، واستمرت على هذه الحال مدة ليست بالقصيرة.

فقد بقي القضاء في قلب الجزيرة العربية (نجد وملحقاتها) يقوم به قضاة منفردون في أمهات المدن، في كل مدينة قاض وأمير (حاكم إداري) يستعرض القاضي ما بين الخصمين ثم يحكم بما يظهر له من الوجه الشرعي في القضية، فإن رضي الطرفان بالحكم نفذ من دون عناء وان أبياه أو أباه أحدهما رفع إلى الأمير ليتولى تنفيذه، ومحكمة القاضي بيته، أو المسجد أو أي مكان وجد فيه، وربما في الطريق.

وكان القاضي ينظر في جميع القضايا وعموم الأحداث التي تحصل في البلاد التي يقيم فيها، وما قرب من محل إقامته من القرى والتوابع، ولم يكن هناك قضاء

متخصص بنوع من القضايا المحددة وأول محكمة من هذا النوع في نجد وملحقاتها (مستعجلة الرياض) وهي محكمة جزئية تنظر في قضايا ومبالغ من الحقوق محددة لا تتجاوزها إلى غيرها، أنشئت في سنة ١٣٦٩هـ.

وكان القاضي يقوم إلى جانب القضاء بالإمامة في الصلوات، والخطبة في الجمع والأعياد والوعظ والإرشاد وعقود الأنكحة والافتاء في المسائل التي ليس فيها أطراف متنازعة، وأعمال التوثيق (كتاب العدل) ومأمورية بيت المال من حفظ المبالغ العائدة لناقصي الأهلية والتركات وغيرها مما كان محلاً للنزاع حتى إجراء الايجاب الشرعي(١٦).

وكان القضاء في هذه المنطقة يتسم بالبساطة في الاجراءات، وعدم التعدد في الدرجات، فلا محاكم ذات درجات، ولا محامون ولا مذكرات بالدفوع والمرافعات، وكل شيء يتم شفوياً حتى الأحكام لا تكتب بخلاصتها اعلامات (صكوك أحكام) إلا فيما ندر وقل، وكانت الأحكام تصدر في نفس اليوم، بل في نفس اللحظة التي يجلس فيها القاضي والمتقاضي فلا مواعيد مؤجلة، ولا جلسات متكررة إلا في النادر القليل.

وكان مذهب الإمام أحمد بن حنبل هو المذهب الذي عليه أهل نجد كلهم، مع الأخذ في الغالب باختيارات وترجيحات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ومن بعدهما أئمة الدعوة في هذه البلاد (الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأولاده وأحفاده وتلاميذه)، والأخذ بالقول الذي يسنده الدليل القوى في أي من المذاهب الأربعة(١٧).

وكان يتم تعيين القضاة من قبل الملك عبدالعزيز، ويختارهم من أعظم الناس وأنزههم، ويجرى عليهم الأعطيات والارزاق من بيت المال(١٨).

وقد بقى الوضع في تعيين القضاة واتصالهم بالملك رأسا إلى حين صدور المرسوم الملكي في عهد الملك سعود بن عبدالعزيز عام ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م باعتبار الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبداللطيف آل الشيخ مفتى الديار السعودية في زمنه (ت ١٣٨٩هـ ـ ١٩٥٩م) مرجعاً عاماً لعلماء المسلمين في المملكة(١٩) وصار بذلك مرجعا مباشراً لقضاة نجد، وكان سماحته ـ رحمه الله ـ من قبل مرجعاً للاختيار

والترشيح، ومن قبله عمه الشيخ عبدالله بن الشيخ عبداللطيف ١٣٣٣هـ كان مرجع ترشيح قضاة نجد في زمنه.

وكان القضاة متمركزين في حواضر المدن وما حولها، وكان أهلها أسهل انقياداً من غيرهم، فإن لجأ أفراد منهم إلى القضاء، فإنما يريدون الاحتكام إلى الشرع ليقول كلمته، فيخضع لها المحكوم عليه في استسلام ورضاء من دون لدد أو مجادلة، حتى كاد القضاء يكون أشبه بالفتوى.

أما في البوادي - أيام ابتداء حكم عبدالعزيز - لقد كان هنا عندهم ما يسمى بحكم العارفة، والعارفة عندهم كالقاضي عند الحواضر والعارفون أفراد مشهود لهم بالحكمة والاطلاع على العرف والعادات القبلية، كما تلجأ هذه القبائل إلى التحكيم في حالة المنازعات التي تنشأ بين قبيلة وأخرى[٢٠].

إلا أن العارفة في قبائل نجد انطوت صفحته وحل محله الاخوان من طلبة العلم الذين عينهم الملك عبدالعزيز، إذ وكل - رحمه الله - إلى الشيخ عبدالله بن عبداللطيف أمر اختيار الدعاة والمرشدين من أهل العلم وابتعاثهم إلى بوادي العرب وهجرهم لتعليمهم واجبات الإسلام، والفصل فيما يعرض بينهم من خصام[٢١].

الجهات الملحقة بالمحاكم

هناك دوائر ليست قضائية بالمعنى المعروف، إذ ليس من اختصاصها الفصل في القضايا، وإنما هي ملحقة بالمحاكم بمثابة أجهزة مساعدة للقضاء وهي، كتاب العدل، وبيوت المال.

١ - دوائر كتاب العدل:

في طور من الأطوار التاريخية للقضاء اتخذ بعض القضاة اشخاصاً لتحمل الشهادة وأدائها أمامهم، بحيث لا يقبل غيرهم وقد انتقدت هذه الطريقة من قبل



العلماء المحققين. وقد آل أمر هؤلاء الشهود من توسع اختصاصهم ـ غير القضائي ـ حتى شملت توثيق بعض العقود، وصاروا يسمون بالشهود العدول، أو العدول واختصاص كل جهة بعمل دون أخرى، وكان لهم دكاكين تسمى بالمصاطب حسب اصطلاح أهل المشرق ـ أو سماط العدول حسب الإصطلاح لدى أهل المغرب، وهما يعنيان مكان الجلوس وعملهم لا يخرج عن عمل ما يسمون اليوم بكتاب العدل، وكان العثمانيون قد نظموا هذه الناحية، وأوجدوا ما يسمى (كاتب العدل) لتسجيل المعاملات التجارية، كعقود الشركات ـ وعقود المبايعات والاتفاقيات والوكالات. الخ وأصل هذه التسمية ـ فيما يظهر ـ مأخوذة من قول الله تعالى: (... وليكتب بينكم كاتب بالعدل...) الآية[٢٢].

فدوائر كتاب العدل في العصر الحاضر ليست جديدة في تنظيمنا القضائي، وليست غريبة أو دخيلة عليه، فتسميتها مأخوذة من المصدر الأول للتشريع الإسلامي وأصولها عريقة في تاريخ القضاء في الإسلام.

وأول تنظيم لدوائر كتابات العدل في المملكة ما تضمنه مرسوم صفر سنة ١٣٤٦هـ في فصله الرابع[٢٣] وخلاصة ما جاء فيه أن وظائف كتاب العدل هي تحرير الوثائق التجارية والسندات المالية، وكذلك تحرير الوكالات والوصايا والعقود العقارية والتصديق عليها، وتحريرات الانذارات بحلول الديون المؤجلة وكذا تحرير الهبات والرهونات، وغير ذلك مما هو في معنى الاقرار، وقد استثنى من الاقرارات الإقرار الخاص بإنشاء الأوقاف، والطلاق حيث أن ذلك من اختصاص المحاكم.

وأول نظام متكامل صدر لكتاب العدل بالأمر السامي بتاريخ ٢٦ صفر ١٣٤٦هـ متضمنا ثلاثين مادة، وفي سنة ١٣٥٧هـ، صدر نظام تركيز مسئوليات القضاء، الذي هو عبارة عن قانون السلطة القضائية في اصطلاح أهل العصر، إلا أن غالبه خاص بإجراءات سير العمل داخل المحكمة، وواجبات أعوان القضاة.

وقد تضمن الباب السادس منه تعليمات لكتاب العدل أشبه بكونها لوائح منها بنظام، حيث تضمن شرحاً لوظائف كتاب العدل، وكيفية القيام بها، وواجبات بقية

أعضاء كتابات العدل، مثل: معاون كاتب العدل، والمسجل، والمبيض الخ.

ثم صدر النظام الخاص بكتاب العدل مرة أخرى سنة ١٣٦٤هـ في (٤٨) مادة وكان أكثر تنظيماً وأدق مما سبقه.

ثم أعيد إصدار نظام تركيز مسئوليات القضاء بهذا الاسم أيضا بالتصديق العالي رقم (١٠٩) في ١٣٧٢/١/٢٤هـ، يحوى الباب السادس، الخاص بكتاب العدل، ولم يطرأ في مواده تغيير عن سابقه (تركيز المسئوليات) سوى تعديل طفيف لا يستحق الذكر وهو الذي يطبق حالياً إلى جانب نظام كتاب العدل لسنة ١٣٦٤هـ بالنسبة لسير العمل واجراءات التوثيق.

تعيين مقار إدارات كتابة العدل

تضمن مرسوم ٤ صفر ١٣٤٦هـ تشكيلات لكتابات العدل في كل من مكة، وجدة والمدينة كما تضمن النص على تولي القاضي في الملحقات أعمال كتاب العدل.

ثم صدر أول نظام لكتاب العدل مقتصراً على ثلاث الدوائر المذكورة، ولم يفسح المجال لإنشاء دوائر كتاب عدل أخرى عند الاقتضاء أما وبعد أن ازدهرت الحركة الاقتصادية والعمرانية في المملكة، فقد بدىء في توسع في الاحداثات في المدن الكبرى والمتوسطة، وقد نص نظام القضاء الجديد على أن يكون تعيين مقار إدارات كتاب العدل، وتحديد دوائر اختصاصها، وانشاء إدارات كتابة عدل جديدة بقرار يصدر من وزير العدل، وقد تم إنشاء العديد من ذلك، وبلغ مجموعها ـ كما في آخر احصائية ـ (١٠٩) دائرة كتابة عدل موزعة على أنحاء المملكة، وتحددت دوائر اختصاصاتها المكانية، وهي لا تعدوا ـ في الغالب دائرة اختصاص المحكمة التي توجد بجانبها كتابة العدل.

وقد قسمت كتابات العدل في المدن الكبرى إلى كتابتي عدل، إحداهما تختص بتحرير العقود العقارية، وجميع التصرفات المتعلقة بها من بيع وهبة والثانية: تختص بإصدار الوكالات العامة وتوثيق الأمور الأخرى غير المتعلقة بأمور العقار.

ولهذا التنظيم أثر في تاريخ التوثيق في العصور الإسلامية الماضية فقد مر بنا تقسيم الموثقين في بعض الأقطار الإسلامية إلى مبرزين وغير مبرزين، فالمبرزون يحررون عقود البيع في العقارات والأحباس والهبات، والوصايا، وجميع ما له صلة بالعقار، وغير المبرزين لا يتولون شيئا من ذلك، وإنما يكتبون المعاملات التجارية كالبيع في المنقولات وتحرير الوكالات المطلقة.

٢ - بيوت المال: ونظيرها في القديم والحديث:

يوجد إلى جانب المحاكم الكبرى العامة دائرة تسمى (بيت المال) يقوم بإدارتها موظف يسمى (مأمور بيت المال)، والاختصاص الموضوعي لهذه الإدارة: قيد الوفيات من الأهالي والمجاورين، والحجاج وغيرهم، وفيها تركاتهم إذا لم يكن للميت وارث، أو كان في الورثة قاصر أو غائب لا وكيل له، ويقوم مأمور بيت المال ببيع المخلفات وتصفية التركة وحصرها وقسمتها بالوجه الشرعي، وتسليمها لأصحابها، والوفاء بالالتزامات والديون المترتبة على المورث، وذلك بعد صدور حكم كنسب للقطعية، ويقوم - أيضا - بحفظ أموال الغياب الذين لا وكيل لهم، والقصار الذين لا وصي لهم، ومن لا وارث لهم والمجهولين، كما يقوم بالدفاع عن مصالح هؤلاء واجراء المرافعة في ذلك حتى صدور الحكم... إلى غير ذلك مما هو داخل في اختصاصه.

وإنشاء بيوت المال يعود إلى تاريخ مرسوم ٤ صفر ١٣٤٦هـ الخاص بتشكيلات المحاكم، إذ نصت الفقرة (ب) من الفصل الخامس على إنشاء إدارة بيوت مال في كل من محاكم مكة، وجدة، والمدينة، كما نصت الفقرة (ج) من الفصل المذكور على تشكيلات معينة لها، وهي مرتبطة من الوجهة القضائية بالمحاكم، ويتولى كاتب المحكمة في الملحقات التي ليس فيها دائرة لبيت المال أعمال هذه الوظيفة حسبما قرره النظام(٢٤).

وهذه الوظيفة شبيهة بوظيفة مدير إدارة أموال الأيتام في القانون العثماني الصادر في ٤ ربيع الأول ١٣٢٤هـ (الذي لا تزال بعض أحكامه نافذة في سورية إلى اليوم)(٢٥).

وشبيهة أيضا بإدارة شئون القصر في الكويت، ولكن هذه أوسع اختصاصا فيما يظهر من المقارنة، حيث لم تقتصر رعاية شئون القصر على الأيتام فحسب مثل ما جاء في القانون العثماني، بل شملت رعايتها بالنسبة للأشخاص جميع ناقصي الأهلية سواء كان ذلك بسبب القصر في حال عدم وجود واحد من ثلاثة: الأب الوصي المختار، الجد من قبل الأب، وسواء بسبب الجنون أو العتة أو الغفلة، فقد نص النظام على إقامة الإدارة وصيا على المذكورين في حال عدم وجود واحد من الأولياء المذكورين ما لم تعين المحكمة وصيا آخر.

وهي أوسع اختصاصاً - أيضاً - بالنسبة للتصرف: فإن لهذه إدارة - ممثلة في مجلسها - حق التصرف في الأموال واستثمارها بما يعود بالنفع على المشمولين برعايتها، والقيام بالأعمال التجارية أو الصناعية، وتصفيتها وأجور العقارات وبيعها والوفاء بالديون والالتزامات الثابتة بموجب أحكام واجبة النفاذ[٢٦].

وكل ذلك - ما عدا الفقرة الأخيرة - من اختصاص إدارة بيت المال في المملكة.

وإدارات بيوت المال شبيهة - أيضا - بوظيفة ما يسمى بالمجالس الحسبية في النظام المصري، المنظمة بقانون ١٣ أكتوبر سنة ١٩٢٥م وما قبله[٢٧] فيما يختص بإسناد حصر التركات وكشوف الحسابات إلا أنه ليس لهذه الإدارات دخل في تعيين الأوصياء أو القوم أو وكلاء عن الغائبين لأن ذلك من اختصاص القاضي الشرعي[٢٨].

رئاسة القضاء بالمنطقة الغربية

نستطيع أن نستخلص من صفحات التاريخ أن الملك عبدالعزيز حينما دخل مكة سنة ١٣٣٤هـ - ١٩٢٤م، لم يحدث أي تغيير في دوائر الحكومة بالحجاز القائمة آنذاك وبقيت هذه الدوائر، ومنها دائرة القضاء تعمل كل منها في حدود اختصاصاتها.

وقد استمر الوضع زهاء سنة تقريباً إلى حين تولى الأمير فيصل بن عبدالعزيز

إدارة جميع الأمور عندما عينه الملك نـائباً عـاماً لـه في الحجاز، وكـان قد عـين بضعة مـديرين للـدوائر الهـامة بعضهم مـرتبط مع الملـك رأسـاً، وبعضـهم مـرتبط بنـائبـه العام(٢٩).

ومن بـين مـا تم اشغـالـه من الـدوائـر (إدارة القضـاء) في عـام ١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٤م(٣٠).

ونخلص من هذا إلى القول بوجود مصلحة ترعى شئون القضاة، وكـان يطلق على هذه المصلحة ـ في أول عهد المملكة ـ إدارة القضاة.

بقي أن نعرف متى تحول مسمى هذه المصلحة من إدارة إلى رئاسة للقضاء، إنني لم أقف على شيء يوضح ذلك على وجه التحديد سوى ما ورد في كتاب (جزيرة العرب في القرن العشرين) ما يدل على أن إدارة القضـاء قد أطلق عليهـا اسم (رئاسـة القضاة) فقد ذكر المؤلف في معرض حديثـه عن المؤتمر الإسـلامي الذي دعـا إلى انعقاده الملـك عبدالعزيز في أواخر سنة ١٣٤٤هـ بمكة المكرمة ما يفيد بأن:ـ

الشيـخ عبدالله بن سليمـان بن بليهد (ت١٣٥٩هـ) كـان رئيساً للقضـاء في ذلك الوقت أي سنة ١٣٤٤هـ وذكر في موضع آخر أنه كان في سنة ١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٨م مع الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ (ت١٣٧٨هـ) في زيارة للتفتيش في المدينة المنـورة، وقال عن الشيخ (**كبير علماء نجد ورئيس القضاة**)(٣١).

من هذا نستطيع أن نقول أن إنشاء رئاسة القضاة وتشكيلاتها جاء مواكباً لقيـام النيابة العامة في مكة المكرمة سنة ١٣٤٤هـ، إذ كانت الأمور الشرعيـة مرتبطـة إدارياً بنـائب الملك في الحجـاز قبل إنشـاء مجلس الوكـلاء بمـوجب التعليمـات الأسـاسيـة للمملكة(٣٢).

وقد جاء في كتاب (مشاهير علماء نجد وغيرهم) ما يؤكد لنـا ذلك، حيث قـال مؤلفه في ترجمة الشيخ عبدالله بن بليهد ما نصه. ولما دخل الملك عبدالعزيـز الحجاز واستتب له الأمر نقله ـ أي: الشيخ عبدالله ـ من قضاء حـائل إلى رئـاسة القضـاة بمكة سنـة ١٣٤٤هـ(٣٣).

وفي نظـام سـير المحـاكمـات الشرعيـة الصـادر بـالأمـر السـامي رقم (٢١) في ٢٩/٢/١٣٥٠هـ، إذ نصت المادة (٣٢) على قيام هيئة تـدقيق الأحكام (تحت رئـاسة رئيس القضــاء) وعنــدمـا صـدر نظـام مجلس الـوكـلاء في ١٩/٨/١٣٥٠هـ ـ ٣٠/١٢/١٩٣١هـ عـدد الـدوائـر المـرتبطـة بـالمجلس وذكـر من بينهـا (**رئـاسـة القضاء**)[٣٤].

وظائف رئاسة القضاة:

لقـد قضى مرسـوم ٤ صفر ١٣٤٦هـ الخـاص بتشكيل المحـاكم بانشـاء، (هيئـة المراقبة القضائية) التي أصبح اسمها فيما بعد (هيئة التدقيقات الشرعية) ومركزها في مكة المكرمة، وقد عرفنا المهام المنوطة بها وهي الإشراف على جميع المحـاكم وتفتيشها. وتدقيق الأحكام الصادرة من المحاكم وإبرامها أو نقضهـا، وفي الحالـة الأخيرة إعـادة القضية للمحكمة لإعادة النظر فيها مرة أخرى.

وفي عام ١٣٥١هـ كانت قد أنشئت دائرة تفتيش مؤلفـة من مفتش عام ومفتشـين وعدد من الكتاب، ووظيفتها التفتيش على عموم المحاكم، والكتاب بالعدل، وبيوت المـال من الـوجهة الشرعيـة والإدارية، وتنظيم بيـان أسبوعي بكـل ذلك ورفعـه إلى رئاسـة القضاة.

وجاء نظام تركيز مسئوليات القضاء الشرعي لعام ١٣٥٧هـ وأنـاط وظائف هيئـة المراقبة القضائية برئاسة القضاة، وكان تأليفهـا من رئيس القضاة رئيسـا، ومن هيئة التدقيقات وعددهم أربعة أعضاء، ونظم تفتيش المحاكم بـاجراء دورات تفتيشيـة على المحاكم من وقت إلى آخر، ووضع التقارير عن سير الأعمـال، وتنظيم الشئون الإداريـة بها، كما نظم الديوان العـام لرئـاسة القضـاة الذي من بـين أقسامـه قسم القضايـا، وكانت رئاسـة القضاة هي الـدائرة الـرئيسية من حيث الـرقابـة التامـة على المحـاكم وكتـاب العـدل وبيـوت المـال، ودوائـر تفتيش المحـاكم، وعـلى أعمـالهـا وواجبـاتهـا وصلاحياتها وموظفيها وهي مرجع الافتاء وتدقيق الأحكام، وحركة القضاة وتنقلاتهم، والنظر في جميع الشكاوي المقدمة على الدوائر المذكورة وموظفيها.

وترتبط المحاكم برئاسة القضاة ابتداء.

وكان نظام مجلس الوكلاء الصادر عام ١٣٥٠هـ ـ ١٩٣١م ينص على أن مرجع المحاكم هو وزارة الداخلية في حالة عدم مراجعتها لرئاسة القضاة، وكان هذا لما تحولت النيابة العامة إلى وزارة للداخلية(٣٥).

أما هيئة التدقيقات فكانت تقوم بوظيفة هيئة التمييز فهي تختص بتدقيق الأحكام المعروضة على (رئاسة القضاة) التي لم يقنع بها المحكوم عليه، والأحكام التي نصت النظم والتعليمات على تدقيقها من رئاسة القضاة، وهي الأحكام الصادرة على بيت المال والأوصياء، وناظر الوقف، وما شاكل ذلك ممن لا تعتبر قناعتهم، وتدقيق الأحكام الصادرة بالقطع أو القتل أو الرجم، وكانت الهيئة تختص بمحاكمة القضاة، والتدقيق في الشكاوي المقدمة ضد الصكوك الصادرة من كتاب العدل.

وما رئاسة القضاة إلا تطوير لما عرف لدى فقهاء الإسلام بديوان القضاة، إذ كان لقاضي القضاة ببغداد ديوان يعرف بـ (ديوان القضاء).

ومن بين وظائف رئاسة القضاة إلى جانب الإشراف على المحاكم ما يلي:ـ

١ ـ الإشراف على هيئة المعارف عن طريق مراقبة التدريس، والكتب، وسائر المناهج التي يقررها مجلس المعارف، وتنبيه المجلس إلى المسائل التى يكون فيها مخالفة للتعليم الشرعي.

٢ ـ مراقبة (هيئة الأمر بالمعروف) في سير أعمالها، وحثها على القيام بواجباتها، وتنبيهها في حالة تجاوز العرف الشرعي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكان موظفو الهيئة ـ بما فيهم الوعاظ والمرشدون ـ مربوطين برئاسة القضاة، وقد أصبحت لهذه الولاية رئاسة عامة ورئيسها بمرتبة وزير.

٣ ـ تعيين أئمة المساجد والمؤذنين وفصلهم وترقيتهم واحالتهم للاستيداع، ومجازاتهم.

وقد نقل هذا الاختصاص لوزارة الحج والأوقاف بعد إنشائها سنة ١٣٨١هـ.

٤ ـ تعيين جميع المدرسين الرسميين في المساجد وفصلهم وتنقلاتهم وإجازاتهم وغير ذلك في حدود نظام الموظفين العام، ومن حق رئاسة القضاة مراقبة الدروس التي يلقونها، بحيث لا يقرر فيها ما يخالف العقيدة، ويتنافى مع الشرع الشريف. وقد

أنيط هذا الاختصاص فيما بعد بالرئاسة العامة للإشراف الديني بـالحرمـين بعد إنشائها سنة ١٣٨٤هـ.

٥ ـ وكـانت رئاسـة القضـاة مـرجـع الفتـوى فيمـا يتعلق بـالمصـالـح الحكـوميـة والاستفتاءات المقدمة من الأشخاص في المسائل التي لا نـزاع فيها ولا تؤول إلى المنازعة والمحاكمة، والنظـر في جميع الأمـور التي تحال إليهـا من المراجـع العليا لإبداء الرأي فيها(٣٦).

وقد أصبح ذلك من اختصاص الرئاسة العامة للبحوث العلميـة والافتاء والـدعوة والإرشاد، التي تأسست سابقا باسم دار الافتاء سنة ١٣٧٥هـ(٣٧).

فرئاسة القضـاة ـ بحق ـ أم الوزارات والرئاسات، وكان رئيس القضاة يقوم بدور وزير العدل، ورئيس المحكمة العليا ـ في آن واحد ـ على نحو ما شرحناه، وهذا هـو عمل قاضي القضاة(٣٨) في الخلافات الإسلامية، إذا كانت له الرقابـة على الحكـام والأحكام جميعا.

الأنظمة والتعليمات القضائية:

إن المستوى الذي يصل إليه القضاء في أية دولـة يعكس مدى تطـور شعبها حضارة ومدنية، ومستوى العدالة والأخلاق فيها، وتبـرز العدالـة والمساواة في أجـلى مظهر وأوضـح صورة في بلـد تحكم الشريعة الإسـلامية في كـافـة الأمـور والقضايا، لا فرق بين قضايا الأحـوال الشخصية والحقـوق المدنيـة والجزائيـة والتجارية.

ان المملكة العربية السعودية ـ ودستورها الإسلام ـ لتفخر أن يكون كتـاب الله وسنة رسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) مصدر إلهام وتشريع هذا القضـاء لما يمليه من تحقيق للعدالة والمساواة، ومحافظة على القيم الدينية والأخلاقية

ولما كان هناك أمور مصلحيـة، ومنها مـا يتعلق بالمجـال القضائي ـ عـلى نحو مـا

أشرنا إليه سابقاً ـ والدولة مكلفة برعايتها، فقد اقتضت الضرورة وضع أنظمة تنظمها، دون المساس بجوهر التشريع والأحكام الموضوعية المستمدة من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وما أجمع عليه المسلمون وذلك لضمان حسن سير العدالة وتطبيقها، فسنت الدولة الأنظمة والتعليمات الإدارية لتنظيم القضاء من ناحية اجراءاته وتركيز مسئولياته، وتحديد اختصاصاته، مما سنعرض له في المطلبين الآتيين:ـ

المطلب الأول: في التنظيمات القضائية والإدارية.
المطلب الثاني: في الاجراءات وأصول المحاكمات.

المطلب الأول
في التنظيمات القضائية والإدارية

١ - أوضاع المحاكم وتشكيلاتها:

صدر لأول مرة في تاريخ القضاء في المملكة المرسوم الملكي في ٤ صفر ١٣٤٦هـ/ أغسطس ١٩٢٧م بنظام تشكيلات المحاكم ويحتوى على خمسة فصول، الفصل الأول في تشكيل المحاكم ووظائفها والفصل الثاني: خاص بهيئة المراقبة القضائية (هيئة التمييز) وتأليفها ووظيفتها ـ على النحو الذي سبق أن نوهنا عنه. والفصل الثالث: يتضمن تعليمات لإسراع البت في القضايا، والرابع: خاص بكتاب العدل، وتشكيلاتها ووظائفها والفصل الخامس: خاص بدوائر العدل، واختصاصاتها. وقد احتوى على تشكيلات معينة لها[٣٩].

لقد عالج هذا المرسوم ما يتصل بالمحاكم واختصاصاتها وتصنيفها وبعض اجراءات سير التقاضي بها، والأجهزة الأخرى المتممة لها فيما لا يزيد عن تسع عشرة مادة.

ومن أهم المبـادىء التي تضمنها هـذا المرسـوم مبدأ مجـانيـة التقـاضي، إذ نصت المادة (١٦) من المرسوم المذكور على إعفاء معاملات المحاكم من الرسوم على اختلاف درجاتها.

ان هـذا المرسـوم ـ الذي مـزج بين درجـات المحاكم، وتشكيـلاتها، وبـين سـير اجـراءات التقاضي بهـا ـ يعتبر وثيقـة من أهم الوثـائق في تـاريـخ التنظيم القضـائي وأصول المحاكمات في المملكة، فبالإضافة إلى كونه أول خطوة في طـريق توحيـد القضاء في الجزيرة العربية بعد توحيـد أجزائهـا، فقد بقي ـ ومـا لحقه من تعـديلات كثـيرة ـ أساساً للتنظيم اللاحق لما قبل صدور نظام القضاء الجديد لسنة ١٣٩٥هـ.

٢ ـ الترشيد إلى المراجع في الأحكام:

ومن أهم الأعمال التي تمت بعد مرسوم ٦ صفر ١٣٤٦هـ نحو توحيد القضاء هو قرارا هيئة المراقبة القضائية رقم (٣) في ١٣٤٧/١/٧هـ ـ المقتـرن بالتصـديق العالي بتاريخ ١٣٤٧/٣/٢٤هـ، وقد نص هذا القرار على أن تكون الأحكام في جميع المحاكم منطبقاً على المفتى به من مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وقد برر هذا الاختيـار بسهولـة مراجعة كتبه. والتزام المؤلفين على مذهبه بـذكر الأدلـة أثر مسـائله، وقـد تضمن هذا القرار تعيين المصادر التي يرجـع إليها القضـاة في أحكامهم عـلى هذا الأسـاس، كما تضمن إمكانية الرجوع إلى المذاهب الأخرى إذا رئى أن في تطبيق المفتى به من مذهب الإمام أحمد يؤدي إلى مشقة ومخالفة لمصلحة العموم(٤٠).

وقد تأكد هذا الاتجاه في موضوع آخر، إذ صدر أمر ملكي بعد ذلك بسنتـين حول مـا يستدعى اجتمـاع أعضاء المحكمـة، ونص على أن مـا ورد في كتب مـذهب الامـام أحمد بن حنبل يعمل به دون الحاجة إلى اجتمـاع أعضاء المحكمـة، أما مـا لم يرد بـه نص في كتب هــذا المـذهب، واستـدعى الاجتهـاد، فيتم ذلـك بـاجتمـاع الأعضــاء المذكورين(٤١).

أما المصادر التي جاء ذكروها في قرار هيئة المراقبة القضائية فهي:ـ

(أ) شرح منتهى الإرادات، المتن للشيخ الفتوحي المتوفى سنة ٩٧٢هـ، والشرح للشيخ منصور البهوتى الحنبلي، المتوفى سنة ١٠٥١هـ.

(ب) شرح الاقناع، كشاف القناع عن متن الاقناع، المتن للشيخ موسى الحجاوي المتوفى سنة ٩٤٨هـ والشرح للبهوتي.

فما اتفق عليه الشرحان أو انفرد به أحدهما، فهو المتبع وما اختلفا فيه فالعمل بما في المنتهى.

وإذا لم يوجد بالمحكمة الشرحان المذكوران، يكون الحكم بما في:-

(أ) شرح الزاد، زاد المستقنع مختصر المقنع للحجاوى، وشرحه الروض المربع للبهوتى.

(ب) شرح الدليل، دليل الطالب لنيل المطالب، للشيخ مرعي بن يوسف المقدسي الحنبلي، المتوفى سنة ١٠٣٢هـ وشرحه منار السبيل للشيخ إبراهيم بن محمد الضويان، المتوفى سنة ١٣٥٣هـ.

وإذا لم يجد القاضي نص القضية في الشروح المذكورة، طلب نصها في كتب المذهب المذكور التي هي أبسط منها، وقضى بالراجح.

وعلى العموم كان هناك بالإضافة إلى هذه الكتب الأربعة كتابان هما:-

١ - المغنى لموفق الدين عبدالله بن قدامه، المتوفى سنة (٦٢٠هـ).
٢ - الشرح الكبير، المسمى بالشافي شرح المقنع في الفقه الحنبلي، لمؤلفه عبدالرحمن بن قدامة، المتوفى سنة (٦٨٢هـ)[1].

وينبغي ألا يغيب عن الأذهان بأن هذه الأسبقية التي أعطيت للمذهب الحنبلي لم تكن أسبقية مطلقة فهي:-

أولاً: مقصورة على ما يخص المعاملات فقط دون العبادات بطبيعة الحال.

ثانياً: وحتى في مجال المعاملات هناك استثناءات، فقد صدرت الإرادة السنية رقم (٥) /٩/ ٢ في ١٣٥٣/٧/١٣هـ وما لحقها برقم (٥) /٩/ ٤ في

٢٦/٧/١٣٥٣هـ، بأن الأحكام التي تتعلق بالمساقاة واجارة النخيل والمسائل الارثية والأوقاف يحكم فيها على مذهب أهل البلد التي فيها الدعوى، سواء كانوا أحنافا أو شوافع أو غيرهم.

وكذا اجراء العقد الجاري قبل منعه على ما كان دون نقض له، كبيع الوفاء[٤٣]، وهذا موافقة للقاعدة الشرعية أن العادة محكمة، وأن المعروف عرفا كالمشروط شرطا.

ثالثاً: وهناك دائماً مبدأ (**مصلحة العموم**) الذي جاء في قرار تعيين المراجع، وهذا المبدأ يتيح للقاضي مجال الاجتهاد في اختيار الحكم المناسب لكل قضية على ضوء الظروف والملابسات وعدم تقييده بمذهب واحد دون غيره، وفي هذا خروج عن الخلاف في مسألة تعيين الحكم بمذهب معين. وعلى هذا فإن هذا القرار لم يخرج عن كلام أهل العلم من أئمة الدعوة الذي تضمنته أحاديث الملك عبدالعزيز السابقة المتضمنة عدم التقيد بمذهب دون مذهب آخر، ومتى وجد الدليل القوي الذي يسند القول في أي مذهب من المذاهب الأربعة أخذ به، وإذا لم يوجد دليل أقوى أخذ بقول الإمام أحمد[٤٤] والعمل جار بهذا في المحاكم في الوقت الحاضر. والشيء الجديد في هذا القرار، وما لحقه هو ترشيد للمصادر المتسمة بسهولة العبارة مع ذكر الأدلة، وفيه بيان لكيفية سلوك الطريق لمعرفة الرأي الراجح في حال تعارض أقوال الفقهاء وكيفية العمل في حال عدم وجود نص في كتب المذهب يحكم المسألة العارضة، ويلحق بهذا مسألة العدول عن اجتهاد سابق للمحكمة، وأن ذلك يتم عن طريق الاجتهاد الجماعي، بدلاً من الاجتهاد الفردي في الاختيار والترجيح، ذلك لأن رأي الجماعة خير من رأي الفرد.

٣ ـ تركيز مسئوليات القضاء الشرعي لسنة ١٣٥٧هـ:

وفي عام ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م صدر نظام تركيز مسئوليات القضاء الشرعي وهو



أول نظام مفصل عالج ما يتصل بتسمية القضاة ونوابهم، والمحاكم، واختصاصاتها الموضوعية، وتصنيفها ودرجاتها، والدوائر المرتبطة بها: كتاب العدل وبيوت المال.

وبالرغم من أنه أوسع تفصيلاً من سابقه، حيث جاء في (٢٨٢) مادة: إلا أنه لم يخرج عن الإطار الذي رسمه المرسوم السابق في أقل من (٢٠) مادة إلا فيما يتعلق بإجراءات التقاضي، حيث أفردت بنظام خاص سمى بنظام المرافعات صدر في عام ١٣٥٠هـ، سنأتى إلى الحديث عنه فيما بعد إن شاء الله.

وفي مجال تصنيف المحاكم لم يتغير شيء من ذلك فيما عدا تسمية هيئة المراقبة القضائية باسم جديد هو: هيئة التدقيقات الشرعية وإضافة بعض إصلاحيات إلى اختصاصاتها، ومن أهمها محاكمة القضاة كما نص النظام الجديد على إناطة الرقابة على المحاكم، وكتاب العدل، وبيوت المال، من الوجهة الشرعية والإدارية، وكذلك دائرة تفتيش المحاكم وأعمالها وواجباتها وصلاحيتها وموظفيها أناط كل ذلك برئاسة القضاة بدلا من هيئة المراقبة القضائية على ما جاء في النظام السابق.

وفي مجال التفاصيل توسع في النواحي الإدارية للقضاء، فهو وان كان شبيها بقانون السلطة القضائية في الدولة الحديثة، الآ أنه مزج بين التنظيم القضائي والتنظيم الإداري، ويتضح ذلك من القاء نظرة على العناوين التي حواها هذا النظام وهي:ـ

١ ـ رئاسة القضاة.
٢ ـ تفتيش المحاكم.
٣ ـ قضاة المحاكم.
٤ ـ كتاب المحاكم.
٥ ـ المحضرون للخصوم.
٦ ـ كتاب العدل.
٧ ـ دوائر بيت المال.
٨ ـ مواد عمومية.

كما توسع في مسميات تصنيف القضاة حيث جاءت المسميات الآتية:ـ

(أ) رئيس المحكمة، وهذا اللقب يطلق على القاضي الأول في كل محكمة فيها نائبان فأكثر.

(ب) قاضي، وهذا اللقب يطلق على المحاكم لكل محكمة فيها قاض واحد، أو قاض ونائب.

(جـ) المعاون وكل محكمة فيها نائبان فأكثر يكون عنوان النائب الأول، (معاون رئيس المحكمة).

(د) نائب القاضي وهو القاضي الثاني أو الثالث في كل محكمة فيها قاضيان فأكثر.

(هـ) قاضي المستعجلة الأولى، وهو القاضي الذي يقوم باختصاصات المحكمة المستعجلة الأولى طبق نظام المرافعات.

(و) قاضي المستعجلة الثانية، وهو القاضي الذي ينظر في أمور البادية في كل بلدة فيها مستعجلتان.

(ز) قاضي المستعجلة. وهو اللقب المعطى للقاضي في البلدة التي ليس فيها مستعجلتان وفيها قاضي محكمة عامة.

٤ ـ تركيز مسئوليات القضاء لسنة ٧٢هـ ـ ١٩٥٢م.

أعيد إصدار نظام تركيز المسئوليات الذي تحدثنا عنه في السابق سنة ٧٢هـ/٥٢م، وهو لم يختلف عن النظام السابق سوى في صياغة بعض المواد، وحذف بعضها، حيث جاء مشتملاً على (٢٥٨) مادة بدلاً من (٢٨٢) في الإصدار القديم، وكان مما حذف المادة (٢٠) فيما يتعلق بصلاحيات واجراءات هيئة التدقيقات بشأن ما إذا بدا ما يستوجب إعادة النظر في حكم صدقته الهيئة أو نقضته في حال ما إذا عرض القاضي ـ الذي صدر عنه الحكم ـ أوجها تستلزم النظر فيها، أو بين أحد الطرفين ما يوجب ذلك، فإن على الهيئة درس ما يعرض في ذلك وتقرير ما يلزم.

وهذه المادة وان حذفت في الاصدار الجديد، إلا أن العمل لدى هيئة التمييز ـ

الآن ـ يجرى بمقتضاها استناداً على صلاحية تدارك الخطأ البين لتصحيح القرار المكسب للقطعية.

كما حذفت المادة (٣٧) من الاصدار القديم التي تقضي بأن على من انعقدت الجلسة بحضوره من أعضاء الهيئة حين عرض حكم (ما) لتدقيقه واقتضت الضرورة إعادة النظر فيه بعد اتخاذ قرار بالتصديق أو النقض، فإن على من انعقدت الجلسة بحضوره حين عرضه ثانياً النظر في ذلك، باعتباره معاملة جديدة، سواء من انعقدت بهم الجلسة ممن وقع القرار السابق أم لا... الخ، وقد صدر الخطاب السامي مؤخراً برقم ١٤٠٢٨ وتاريخ ١٥/٥/١٣٩٤هـ بالتقيد بالمادة المذكورة في هذا الخصوص.

كما حذف الفصل الثالث والرابع والخامس من الباب الأول في إصدار عام ٥٧هـ ـ ٣٨م، الخاصة برئيس كتاب رئاسة القضاة، واختصاصاته، واختصاص الكاتب الأول وهو المسجل، واختصاص الكاتب الثاني، وتمثل هذه الفصول (١٩) مادة من المادة (٣٨ ـ ٥٥) واستعيض عنها في الإصدار الجديد بما يتعلق بتنظيم ديوان رئاسة القضاة في أربع مواد فقط من المادة (٣٣ ـ ٣٦).

كما حذف من الباب الثاني الخاص بالتفتيش على المحاكم المادة (٦٨) من الإصدار القديم، التي تنص على مسئولية المفتش عن كل تقصير يقع منه داخل صلاحياته واستعيض عنها بالمادة (٤٢) في الإصدار الجديد، الخاصة بتخصيص كاتب في المحاكم الكبرى لتقييد الدعاوى التي تم النظر فيها شهرياً في دفاترها المعدة لذلك وتنظيم كشوف بالقضايا المنتهية والمتبقية، وبعثها في حينها إلى المفتش.

ويظهر أن هذا ليس محل هذه المادة في الترتيب والتبويب وإنما مكانها في الباب الرابع الخاص بكتاب المحاكم من النظام المذكور، ولكن لما كان أمر هذه الكشوف ونهايتها إلى التفتيش صار لها وجه مناسبة في وضعها هنا.

وعلى كل فهذا النظام أنظم من سابقه، ولا يزال ساري المفعول حتى اليوم، على الرغم من صدور (نظام القضاء) الجديد في المملكة، وذلك لعدم اشتماله على ما

يتعارض معه سوى:ـ

١ ـ ما يتعلق بمسميات درجات السلك القضائي التي استعرضناها في حديثنا عن نظام تركيز المسئوليات القديم، إذ نصت المادة (٣٨) معدلة من نظام القضاء على أن درجات السلك القضائي هي، ملازم قضائي، قاضي ج قاضي ب قاضي أ، وكيل محكمة ب، وكيل محكمة أ، رئيس محكمة ب، رئيس محكمة أ، قاضي تمييز، رئيس محكمة تمييز، رئيس مجلس القضاء الأعلى (برتبة وزير).

٢ ـ وفيما يتعلق بمسميات المحاكم، فقد نصت المادة (٥) من نظام القضاء على أن المحاكم تتكون من:ـ

(أ) مجلس القضاء الأعلى، وهذا درجة قضائية جديدة.

(ب) محكمة التمييز، وهذه التسمية في مقابل هيئة التدقيقات الشرعية ثم هيئة التمييز بعد ذلك.

(جـ) المحاكم العامة، وهذا التسمية في مقابل المحاكم الكبرى، ومحاكم الملحقات.

(د) المحاكم الجزئية، في مقابل المحاكم المستعجلة.

٣ ـ وكذلك ما عدا ما يتعلق ببعض الاختصاصات الإدارية الأخرى التي أنشئت لها مصالح حكومية على ما سبق ذكره.

٥ ـ نظام كتاب العدل:

صدر مرسوم ٤ صفر ١٣٤٦هـ الخاص بتشكيلات المحاكم واختصاصاتها: ونصت الفقرة (ب) من الفصل الرابع بأن (يسير كاتب العدل في الأعمال الداخلة في اختصاصه طبقا لنظام يضعه مجلس الشورى[٤٥].

ثم صدر الأمر السامي بالموافقة على أول نظام لكتاب العدل بتاريخ ٢٦ صفر ١٣٤٦هـ في ثلاثين مادة[٤٦] وقد حدد واجبات كتاب العدل نحو عملهم من عدم إفشاء

سر المعاملات الموجودة لديهم إلى غير ذلك، كما حدد وظائف كتاب العدل (اختصاصاتهم الموضوعية) بما لا يخرج عما تضمنه مرسوم ٤ صفر ١٣٤٦هـ، كما تضمن النص على قوة الأوراق ـ من الناحية الثبوتية ـ الصادرة من كتاب العدل وفقا للشرائط المحررة بالنظام المذكور، كما تضمن شيئا من التنظيم والاجراءات للمعاملات الداخلية في الاختصاص، وبيان كيفية تنظيم العقود والسندات، وكافة الصكوك، وأن يكون ذلك كله باللغة العربية، وبعبارة صريحة وواضحة على أوراق جيدة، وتجنب الشطب والمسح للكلمات، وعدم الكتابة بين السطور، وذلك لكى تكون سليمة، وبعيدة عن الطعن بدعوى التزوير، وفي حال وجود معاملة لمن لا يحسن العربية لدى كتاب العدل يجب أن تترجم لغته بواسطة ترجمانين حسب المنصوص عليه، وبحضور معرفين، ويشترط أن يكون الترجمانان والمعرفان من أهل العدالة، وكذا التثبت من هوية كل من يريد تنظيم أو توثيق المقاولات والمستندات وسائر الأوراق.. الخ.

وقد أعيد إصداره مرة أخرى سنة ١٣٦٤هـ في (٤٨) مادة، ولم يضف على سابقه سوى ما يتعلق بتنظيم الرسوم المقررة آنذاك لأعمال كتاب العدل والمعفو منها (م٢٢ ـ ٣٥) التي ما لبثت وقتا حتى صدر الأمر بإلغاء الرسوم جميعا، وأصبحت خدمات كتاب العدل مجانية إلى جانب مجانية التقاضي حسبما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

ولا تزال نصوص هذا النظام إلى جانب ما تضمنه الباب السادس من تركيز مسئوليات القضاء الشرعي ـ الخاص بكتاب العدل ـ سارية المفعول فيما عدا النصوص الخاصة بالرسوم كما ذكرنا، وشروط تعيين كتاب العدل، حيث حل مكانها الشروط الواردة في نظام القضاء الجديد.

المطلب الثاني
في الاجراءات وأصول المحاكمات

ولم يغفل النظام القضائي السعودي جانب الاجراءات، وأصول المحاكمات القضائية، فقد عالج هذا الموضوع في الفصل الثالث من مرسوم ٤ صفر



١٣٤٦هـ - ١٩٢٧م إذ تضمن تعليمات لاسراع البت في القضايا، وقد عالجت هذه التعليمات الاجراءات القضائية بصورة مختصرة في عشر مواد فقط تناولت بعض الأمور الموضوعية ونصت بأن على القاضي أن يستفسر ويستوضح من المدعى عن نقاط تصحيح الدعوى إذا كان فيها نوع جهالة أو ما في معناها حتى تستكمل شرائطها الشرعية، كما تضمنت بعض الأمور الاجرائية مثل: الحكم في حال حضور أو غياب أحد الخصوم وترتيب النظر في الدعاوي حسب أهميتها.

٢ - نظام سير المحاكمات الشرعية:

صدر هذا النظام في سنة ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م، ويتكون من (٣٦) مادة(٤٧) عالجت نفس المواضيع التي عالجها مرسوم ١٣٤٦هـ - ١٩٢٧م، لكن بشيء من التفصيل، وتطرق إلى أمور لم يتطرق إليها المرسوم المذكور، ومن هذه الأمور ما يتصل بالشهود وطعنهم وتعديلهم.

وقد اهتم هذا النظام بضمان سرعة البت في القضايا المعروضة على المحاكم، فنصت المادة الأولى منه على أن القاضي يجب أن ينظر في القضية خلال عشرة أيام من تاريخ استلامها، مع المباشرة بالنظر في قضايا المسجونين، واصدار الحكم من حين وصول الأوراق إليها.

وحدد مدى سلطة القاضي في تأجيل إصدار الحكم، وذلك في حالتين:

أحداهما: إذا كان غير واثق من مطابقة القرار الذي سيتخذه - حسبما يقتضيه الوجه الشرعي - على القضية المعروضة عليه، وفي هذه الحال يكون القاضي بحاجة إلى مزيد من الوقت، لاستجلاء وجه الحكم بالبعث في المصادر ومشاورة العلماء.

ثانيهما: إذا كانت المحاكمة بين الأقارب، ويرى القاضي أن اعطاءهم مزيداً من الوقت قد يتيح فرصة للتوفيق والإصلاح، خشية استحكام النزاع المؤدى إلى قطيعة الرحم.

وفي غير تلك الحالتين لا يجوز تأخير الحكم أكثر من أربعة أيام.

كما أجاز هذا النظام قضاء الفرد، وكانت التعليمات في المرسوم السابق تقضي بصدور الأحكام من جميع القضاة أو بالأكثرية.

كما نظم بعض الاجراءات المتعلقة بتمييز الأحكام، وكون قناعة المحكوم عليه تسقط حق تمييزه وينفذ الحكم بدون عرضه على هيئة التمييز، ما لم يكن المحكوم عليه وصيا أو ناظر وقف أو مأمور بين مال المسلمين، وغيرهم ممن لا تعتبر قناعتهم مكسبة القطعية للحكم، فإن الحكم لا ينفذ في حق هؤلاء إلا بعد تصديقه من مرجعه صيانة لحقوق القصار والوقف والمستحقين فيه والغائبين.

أما فيما يتصل بوكالة أحد المترافعين في الخصومة، فقد جاء هذا النظام مخففاً للقيود على الوكيل (المحاماة) إلى حد ما بالنسبة لما قبله، إذ سمح للموظفين بأن يوكلوا غيرهم ـ ولو كانوا حاضرين في البلد ـ كما خفف في مسافة الغيبة عن البلد في جواز توكيل أحد المتحاكمين لغيره، حيث حددها بدون مسافة القصر، كأهل الضواحي، بالإضافة إلى المسموح لهم بالتوكيل في حالات المرض.

٣ ـ نظام المرافعات:

صدر هذا النظام سنة ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦م، ويعتبر أكثر من سابقه تفصيلا في معالجة الاجراءات القضائية، حيث يتكون من (١٤٢) مادة[٤٨] وقد أعيد إصدار هذا النظام سنة ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٢م بعد اجراء بعض التغييرات عليه تحت عنوان (تنظيم الأعمال الإدارية في الدوائر الشرعية)..

٤ ـ تنظيم الأعمال الإدارية في الدوائر الشرعية:

لقد أعيد إصدار نظام المرافعات السابق ـ كما ذكرنا ـ باسم تنظيم الأعمال



الإدارية في الدوائر الشرعية، وبالمقارنة بين النظامين يظهر أن تنظيم الأعمال الإدارية مجرد إعادة صياغة نظام المرافعات السابق مع حذف بعض المواد: فقد جاء هذا النظام في (٩٦) مادة بدلاً من (١٤٢) مادة، وهذا النظام هو المعمول به ـ الآن ـ لدى المحاكم، وما لحقه من القرارات والتعليمات الصادرة من المقام السامي، ومن رئاسة القضاة سابقا ووزارة العدل ـ حاليا[٤٩] بالإضافة إلى ما تتعلق بالاجراءات القضائية من نظام (تركيز مسئوليات القضاء الشرعي).

وبإلقاء نظرة عامة، نجد أن نظام (تنظيم الأعمال الإدارية) يشتمل على الموضوعات التالية:ـ

١ ـ تحديد موعد سماع الدعوى، وإعلانها للخصوم.
٢ ـ تنظيم ملفات القضايا المعدة للنظر قبل موعد الجلسة من قبل الكاتب المختص.
٣ ـ سماع الدعوى واستجواب الخصوم.
٤ ـ غياب الخصوم أو أحدهم.
٥ ـ الأحكام الغيابية.
٦ ـ اعلام الحكم وتمييزه.
٧ ـ التنفيذ المؤقت.
٨ ـ الوكالات (المحاماة).
٩ ـ أحكام عمومية.

وزارة العـــدل[٥٠]:

ولما كان الحديث عن العدل من الأهمية بمكان، لأنه مطلب كل إنسان حينما يشعر بالظلم من بني جنسه في هذه الحياة، وبه قامت الأرض والسموات ـ كان لابد من وصل الحديث عن الماضي بالحاضر في هذا المرفق.

ففي صيف عام ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٢م أكد رئيس مجلس الوزراء الملك فيصل ـ

رحمه الله ـ في بيانه الذي أذاعه عزم حكومته على إنشاء وزارة العدل، تشرف على الشئون الإدارية للقضاة(٥١).

وفي السنة المالية التالية لإصدار البيان ظهرت الميزانية العامة للدول تحمل فصلاً خاصاً باسم، وزارة العدل، وبالرغم من أن الميزانية العامة للدولة ظلت تحمل كل سنة هذا الفصل، الاّ أن إنشاء الوزارة بتعيين وزير لها لم يتم إلا في عام ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

لقد أنشئت وزارة العدل في هذا العام، وحلت محل رئاسة القضاة، وأنيط بها المهام التي كانت تضطلع بها الرئاسة، من حيث الإشراف الإداري والمالي على المحاكم، والدوائر القضائية الأخرى، ما عدا تدقيق الأحكام فقد نيطت بجهة قضائية، أسميت بالهيئة القضائية العليا.

وكان من حق وزارة العدل اتخاذ التدابير أو التقدم إلى الجهات المختصة بما تراه من المقترحات أو المشروعات التي من شأنها ضمان المستوى اللائق بمرفق العدالة في المملكة، كما تقوم بدراسة ما يرد إليها من مجلس القضاء الأعلى من مقترحات أو قرارات وترفع إلى المراجع العليا ما يحتاج منها إلى إصدار أوامر أو مراسيم ملكية(٥٢).

ولقد عنيت الدولة بمرفق القضاء إيماناً منها بأن العدل، واشاعته بين الناس من أسمى الغايات وأنبل الأهداف، فاهتمت وزارة العدل بدعم المحاكم من ناحية الأعمال المكتبية والوظيفية، كما عنيت ـ أيضا ـ بالسكن الإداري، ببناء الدور للمحاكم وكتاب العدل والمجمعات الشرعية، وخطت في هذا المجال خطوات واسعة تكاد تكون شاملة، لقد شهدت وزارة العدل خلال السنوات الماضية تحولات كبيرة تتفق مع المسئولية الجسيمة للأجهزة القضائية، والدوائر العدلية في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية والقواعد المرعية، وتوخي تحقيق العدالة بروح تستوعب طبيعة التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي تمر بها المملكة.

وأن المتتبع لتاريخ القضاء في المملكة العربية السعودية يدرك أن ولاة الأمر يولونه اهتماماتهم وعنايتهم، فمنذ قيام الدولة السعودية الأولى في عهد الامام محمد بن سعود الذي قام بنصرة الدعوة السلفية، التي دعا إليها الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب، حامل راية الإسلام في القرن الثاني عشر إلى أن وحد عبدالعزيز هذه المملكة، وحتى وقتنا الحاضر، وهي تحكم بالشريعة الإسلامية.

لقد علّم عبدالعزيز أعراب الجزيرة الخضوع للشرع، والمحافظة على النظام العام، والاحتكام في خصوماتهم إلى القضاء بدلاً من الأخذ بالثأر والخصام، وتحكيم الحسام بإرساء قواعد التنظيم القضائي.

وجاء سعود فأتم عمل أبيه وتوسع فيه، فاستكثر من القضاة، وبعث بهم إلى مختلف المدن والقرى والهجر.

وجاء فيصل ـ رحمه الله ـ فنظم القضاء، وقعّد قواعده، وجسم مبادىء وأسس استقلاله.

وفي عهد الملك خالد بن عبدالعزيز رحمه الله ومن بعده الملك فهد حفظه الله يحظى بالعناية والدعم المتواصل، وخير دليل على ذلك ما أصدرته الدولة من المراسيم الملكية والقرارات والنظم واللوائح التي تدعم مركزه والمنتسبين إليه مادياً وأدبياً ومعنوياً...



الهـوامـش

(١) ـ (٢) حافظ وهبه، جزيرة العرب في القرن العشرين ص١٥١، ١٥٦.
(٣) جريدة أم القرى، العدد ٣٢ الصادر في ١٦/١/١٣٤٤هـ ـ ٨/٨/١٩٢٥م.
(٤) الدكتور السليم، التنظيم القضائي في المملكة، محاضرات بمعهد الإدارة العامة ص٥.
(٥) نص الفتوى في كتاب حافظ وهبه، جريدة العرب في القرن العشرين ص٣٠٠.
(٦) مجموعة النظم ـ قسم القضاء الشرعي ـ طبع معهد الإدارة العامة بالرياض ص٥.
(٧) جريدة أم القرى العدد ١٢٨ في ٧/٢/١٣٤٦هـ ـ ٥/٨/١٩٢٧م.
(٨) جريدة أم القرى العدد في ٧/٢/١٣٤٦هـ ـ ٢٤/٢/١٩٣٤م.
(٩) جريدة أم القرى العدد ٦٤ في ٥/٩/١٣٤٤هـ ـ اذار ١٩٢٦م.
(١٠) مجموعة النظم المصدر السابق ص٦ ـ ٩.
(١١) مجموعة النظم المصدر السابق ١٣.
(١٢) مجموعة النظم المصدر السابق ص١٣، ١٤، ١٦، ١٧.
(١٣) انظر في الفقرتين (جـ، د) المرسوم الملكي الصادر في ٢٤/صفر ١٣٤٦ مجموعة النظم ـ قسم القضاء الشرعي ص٩، ١٠.
(١٤) المادتان ٥٤٤، ٥٥٧ من نظام المحكمة التجارية لسنة ١٣٥٠هـ.
(١٥) المادة ٥٥٩ من نظام المحكمة التجارية، المصدر السابق.
(١٦) تقريرنا المقدم لوزارة العدل سنة ١٣٩١هـ ص٣.
(١٧) انظر الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٣/٨).
(١٨) انظر الفرق بين العطاء والرزق فيما سبق ص١٨٢.
(١٩) جريدة البلاد السعودية العدد ١٤٢٧ بتاريخ ٢٠/٤/١٣٧٣هـ ١٥/١/١٩٥٤م.
(٢٠) صبحي المحمصاني الأوضاع التشريعية والقضائية في الدول العربية.
(٢١) انظر مشاهير علماء نجد وغيرهم المصدر السابق ص١٠٥ ـ ١٠٦.
(٢٢) الآية ٢٨٢ سورة البقرة.
(٢٣) مجموعة النظم المصدر السابق ص١٢٤.
(٢٤) انظر المادة (٢٥٤) من تركيز المسئوليات لعام ٧٢هـ والمادة (٢٧٨) في إصداره السابق سنة ١٣٥٧هـ.
(٢٥) مصطفى الزرقاء المدخل الفقهي العام (٢/ ٧٧٩ ـ ٧٩١).
(٢٦) قانون رقم ٤ لسنة ١٩٧٤م، مجلة الكويت اليوم. العدد (٩٧٦) الصادر بتاريخ ٢١ ربيع أول عام ١٣٩٤هـ. الموافق ١٤ أبريل (نيسان) ١٩٧٤م ص٣ ـ ٥.
(٢٧) أحمد إبراهيم بك، (الالتزامات في الشرع الإسلامي) هامش ص١١٤، ١١٥، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٦ فقد نقل في هذه الهوامش بعض أحكام هذه المجالس.

(٢٨) وقد كانت هذه المجالس محل انتقادات من الفقهاء والعلماء في مصر حتى انتهى الأمر بالغائها في عام ١٩٤٧م وضم اختصاصاتها إلى المحاكم الأهلية.
(٢٩) حافظ وهبه، جزيرة العرب في القرن العشرين ص١٥١.
(٣٠) نشرت هذه التعيينات في جريدة أم القرى عدد ٣ في ٢٩/٥/١٣٤٣هـ.
(٣١) حافظ وهبه، المصدر السابق ص١٣٤، ٢٨٢، الطبعة الرابعة.
(٣٢) نشرت التعليمات الأساسية للمملكة الحجازية في جريدة أم القرى عددي ٩٠ و٩١ في ٢/٢٥، ٣/٣/١٣٤٥هـ، ٣، ١٠/٩/١٩٢٦م.
(٣٣) ص ٢٢٦.
(٣٤) مادة (١٩) من نظام مجلس الوكلاء جريدة أم القرى عدد ٣٧٠ في ٧/٩/١٣٥٠هـ.
(٣٥) المواد ١٧ و١٨ و١٩ و٢٠ من نظام مجلس الوكلاء، المصدر السابق.
(٣٦) المرسوم الملكي الصادر في ٢٤ صفر ١٣٤٦هـ مجموعة الأنظمة ص٩ و١٠ وانظر المواد ٣ و٤ و٥ و٧ و٩ و١١ من نظام تركيز مسئوليات القضاء الشرعي لعام ١٣٧٢هـ.
(٣٧) وقد تأسست هيئة كبار العلماء عام ١٣٩١هـ بموجب أمر ملكي رقم أ/١٣٧ وتاريخ ٨/١١/١٣٩١هـ وتتلخص مهام الهيئة ـ كما نص عليها أمر انشائها فيما يلي:ـ
أ ـ ابداء الرأي فيما يحال إليها من ولى الأمر من أجل بحثه وتكوين الرأي المستند إلى الأدلة الشرعية فيه.
ب ـ التوجيه في القضايا الدينية المتعلقة بتقرير أحكام ليسترشد بها ولي الأمر وذلك بناء على بحوث يجرى تهيئتها واعدادها طبقاً لما نص عليه في هذا الأمر.
(٣٨) وهذا اللفظ غير مرضي عند عامة أهل العلم.
(٣٩) مجموعة الأنظمة، المصدر السابق ص٦ ـ ٩ و٠٧ = و١٢٤.
(٤٠) مجموعة النظام، قسم القضاء الشرعي ص١١ طبع معهد الإدارة العامة.
(٤١) مجموعة النظم، المصدر السابق ص١٥، ١٦.
(٤٢) فؤاد حمزة، البلاد السعودية ص١٩٧ط ثانية.
(٤٣) مجموعة النظم، المصدر السابق ص٣٩.
(٤٤) أنظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٣/٨).
(٤٥)، (٤٦) مجموعة الأنظمة، المصدر السابق ص١٢٤.
(٤٧) مجموعة الأنظمة، المصدر السابق ص٢١ ـ ٢٥.
(٤٨) مجموعة الأنظمة، المصدر السابق، طبع معهد الإدارة العامة ص٤٣ ـ ٥٨.
(٤٩) انظر في ذلك مجموعة الأنظمة واللوائح والتعليمات التي أصدرتها وزارة العدل في سنة ١٤٠٠هـ.
(٥٠) التنظيم القضائي في المملكة ص٣٣٦ ط أول ج/ص طبعة ثانية للكاتب.
(٥١) جريدة البلاد العدد ١١٤٩ الصادر بتاريخ ١٠/٦/١٣٨٢هـ ـ نوفمبر سنة ١٩٦٢م.
(٥٢) المادة (٨٧) من نظام القضاء.

تأثير جنسية وجنس الحجاج إلى بيت الله الحرام في ميزان المدفوعات السعودي أواخر القرن الرابع عشر الهجري

د. محمد شوقي بن إبراهيم مكي

تقديم:



يكثر الحديث من آن لآخر عن اهتمامات الحكومة السعودية بالحج وصرفها الملايين من الريالات على مشاريع الحج لتسهيل أداء الحجاج المسلمين لشعائرهم الدينية. وكثيراً أيضاً ما تثار التساؤلات عن الفائدة الاقتصادية التي قد تعود على المملكة العربية السعودية مقابل صرف تلك الملايين من الريالات. ويكون الجواب دائماً بأن المملكة لا تفكر في المردود الاقتصادي مقابل أداء واجبها تجاه حجاج بيت الله الحرام. ولكن تثار تساؤلات أخرى: ألا يمكن قيام الدولة بواجبها تجاه حجاج بيت الله الحرام، وفي الوقت نفسه ترشيد الصرف الحكومي على مشاريع وخدمات الحج بحيث تخلق أكبر مردود اقتصادي ممكن من هذا الصرف.

ومن هنا ظهر هدف البحث في دراسة جنسية وجنس الحجاج المسلمين إلى مكة المكرمة في القرن الرابع عشر الهجري. ويقود هذا الهدف إلى هدف آخر وهو تحليل العلاقة بين هذه التركيبات والدخل الاقتصادي في المملكة. وقد وضعت لهذه الدراسة عدة فرضيات يمكن تلخيصها فيما يلي:

١ ـ يرتبط ازدياد الدخل القومي من الحج في المملكة العربية السعودية بازدياد عدد الحجاج القادمين من جنسيات تتمتع بارتفاع مستوى الدخل الفردي.

٢ ـ تقل نسبة الزيادة السنوية في الدخل القومي في المملكة من الحج مع تناقص قدوم الجنسيات صاحبة الدخل الفردي المرتفع.

٣ ـ تقارب نسب الجنس بين حجاج الدول ذات الدخل الفردي المرتفع أكثر منه بين الدول ذات الدخل الفردي المحدود.

ولتحقيق هذه الأهداف فقد استخدمت بيانات وزارة الداخلية في المملكة العربية السعودية عن أعداد وجنسية وجنس الحجاج القادمين إلى المملكة وكذلك بيانات مؤسسة النقد العربي السعودي عن متحصلات الحج. وفي الواقع يواجه الباحث لهذه البيانات مشكلة عدم تطابق كل سنوات عدد الحجاج مع السنوات التي تتوفر عنها بيانات الواردات من الحج. ولهذا فستقتصر الدراسة المقارنة في هذا البحث على الفترة التي تتوفر عنها مثل تلك البيانات وهي الفترة الممتدة بين ١٣٨١هـ ـ ١٣٩٩هـ. أما الفترة التي تلت هذا التاريخ فقد أصبحت متحصلات الحج لا تظهر في التقارير الرسمية منفصلة وإنما تدخل ضمن مجموع متحصلات أخرى خارج نطاق الزيت. كما ستقتصر تحليلات الجنس على الفترة الممتدة بين سنة ١٣٨٥هـ وسنة ١٣٩٥هـ لأن مثل هذه البيانات توقفت عن الصدور بعد هذا التاريخ ولم تعد إلا في سنة ١٤٠٤هـ. أما البيانات العامة للحجاج فيمكن أن تصل إلى سنة ١٤٠٤هـ. وسوف تستخدم لغرض مقارنة النسب الحسابية البسيطة.

الجنسية:

إن من أقدم التقديرات الكمية المتوفرة عن عدد الحجاج المسلمين وجنسياتهم المختلفة تعود إلى ما كتبه كين J. Keane في سنة ١٢٩٤هـ ((١٨٧٧م)) وإلدن رتر E. Ritter في سنة ١٣٤٧هـ (٢٨/ ١٩٢٩م). لقد قسم كل من كين ورتر الحجاج إلى ١١ تقسيما و١٠ تقسيمات واسعة تبعاً لأصل الحجاج. وقد حاول الباحث إظهار الفرق بين نسب الحجاج من الجنسيات المختلفة التي ذكرها كل من كين ورتر ونسب الحجاج من نفس الجنسيات في الفترة الحديثة (١٤٠٣هـ). ولتحقيق هذا الغرض كان لابد من ضم بعض الجنسيات مع بعضها البعض لتقارب تصنيف كين أو رتر. ولهذا تم مثلاً ضم حجاج أفغانستان وباكستان وبنغلاديش وسيرالانكا إلى حجاج الهند، وكذلك ضم حجاج لبنان وفلسطين والأردن إلى حجاج سوريا (جدول رقم ١). ونظراً لأن تقسيم كين شمل الحجاج غير المحليين فقط فقد اقتصر تقسيم سنة ١٤٠٤هـ على الحجاج غير السعوديين فقط لتسهيل عملية المقارنة. أما تقسيم رتر فقد اشتمل على الحجاج من مختلف أنحاء الجزيرة العربية. ولهذا فقد ضم للمجموع العام للحجاج في سنة ١٤٠٤هـ الحجاج من مختلف مناطق المملكة.

جدول (١)

النسبة المئوية للحجاج حسب الأصل لسنوات ١٢٩٤هـ و١٣٤٧هـ و١٤٠٤هـ

الجنسية	٪ من المجموع	٪ من مجموع سنة ١٤٠٤هـ (٨٣/ ١٩٨٤م)
تقسيم كين ١٢٩٤هـ		
الهنود	٢٠,٨	*١٣,٨٨

الجنسية	٪ من المجموع	٪ من مجموع سنة ١٤٠٤هـ (٨٣/١٩٨٤م)
العرب	١٥,٠	٣٢,٠٥
الأفريقيون	١٥,٠	٨,٥٧
الشماليون	١٠,٠	٥,٥٤
الزنوج	١٠,٠	٥,٥٤
الفرس	٦,٠	٣,٩٢
الترك	٦,٠	٤,٧٠
السوريون	٥,٠	٨,٣٠
مالاويون	٥,٠	٠,١٠
التتار	٣,٠	-
البدو	٥,٠	٦,٠٩
البقية		
تقسيم رتر ١٣٤٧هـ		
حجاج من وسط أفريقيا والسودان.	٢٣,٣*	٦,٩١ *
حجاج الملايو وبورنيو.	١٧,٤	٥,٢٧
حجاج من شبه الجزيرة العربية.	١٧,٤	٤٣,٧٢
حجاج من الهند	١٤,٦	٨,٤٤
حجاج من مصر	٨,٧	٩,١٩
حجاج من مراكش والجزائر وليبيا.	٥,٨	٤,٥٠
حجاج من سوريا وتركيا والبلقان.	٥,٨	٥,٥٣
حجاج من أفغانستان وبلوخستان.	٣,٥	١١,٠٧

الجنسية	٪ من المجموع	٪ من مجموع سنة ١٤٠٤هـ (١٩٨٤/٨٣م)
حجاج من كردستان وبخاري ووسط آسيا.	٢,٩	٠,٠١
حجاج من الصين	٠,٦	٠,٠٦
البقية	–	٤,٩٣

يتضح من الجدول السابق أن هناك جنسيات معينة كانت تشكل نسبة كبيرة من الحجاج في تقديرات كين ورتر ومازالت تحافظ على هذه النسب الكبيرة مثل الهنود والمالاويين والعرب، كما أن هناك جنسيات معينة انخفضت نسبة مشاركتها في الحج مثل حجاج شمال أفريقيا والصينيين. وربما يرجع ارتفاع نسبة المجموعة الأولى إلى سهولة وتطور وسائل النقل الحديثة للمسافات البعيدة مما شجع على زيادة أعداد الحجاج من المناطق البعيدة. أما نقص نسب الحجاج من شمال أفريقيا فيعود إلى زيادة مشاركة الحجاج من الجنسيات الأخرى، مع أن أعداد الحجاج من شمال أفريقيا قد ازدادت فعلاً مقارنة بأعداد الحجاج في بداية القرن العشرين. أما النقص في اعداد الحجاج من الصين فيعود إلى صعوبة انتقال المسلمين إلى خارج الحدود التي يسيطر عليها الشيوعيون.

وهناك كتاب آخرون ذكروا تفاوت أعداد الحجاج المسلمين من جنسيات مختلفة ولكنهم لم يعطوا تقديرات دقيقة لهذه الجنسيات. ومن أمثلة هؤلاء ماكتبه رتر (Rutter, O.P.15) وغفور (Ghafur, A. PP.14-33). ولم تظهر المحاولة الدقيقة لتصنيف الحجاج حسب مناطق قدومهم إلا في سنة ١٣٧٩هـ - (١٩٦٠/٥٩م) - حينما أصدرت وزارة المالية والاقتصاد

الوطني أول كتاب إحصائي في المملكة لسنة ١٣٨٥هـ (٦٥/١٩٦٦م). لقد تضمن هذا الكتاب بعض المعلومات عن جنسيات الحجاج لست سنوات سابقة.

وقد صنف الحجاج في هذا المصدر حسب القدوم تبعاً لستة أقاليم وهي الشرق الأوسط، وشمال أفريقيا، وبقية أفريقيا، وآسيا والشرق الأقصى، ودول أوروبا، ودول أمريكا. وفي الواقع فإن هذه المعلومات، وان كانت مفيدة، لم تكن ذات جدوى كبيرة لمن يريد التعمق في معرفة ودراسة أصل أقطار كل الحجاج. ولهذا فقد بدأت منذ سنة ١٣٨٧هـ (٦٧/١٩٦٨م) الجهات المختصة تجمع المعلومات عن أعداد الحجاج إلى مكة المكرمة عن كل دولة على حدة. وقد قسمت أقطار الحجاج أيضاً إلى ست مجموعات وهي الدول العربية، وبقية دول آسيا، وبقية دول أفريقيا، ودول أوروبا، ودول أمريكا، واستراليا. وفي سنة ١٤٠٤هـ ـ (٨٣/١٩٨٤م) ـ قسمت دول مصادر الحجاج إلى ثماني مجموعات وهي دول مجلس التعاون وبقية الدول العربية، وبقية دول آسيا، وبقية دول أفريقيا، ودول أوروبا، ودول أمريكا، واستراليا، ومناطق أخرى غير مصنفة. وقد بدأت بعض الخرائط تظهر لتوضيح دول مصدر الحجاج المسلمين في الستينيات والسبعينيات (Prothers, R., P. 34) (Shair, I.P. 602; King, R.P.70).

ولقد كان للتنوع في جنسيات الحجاج أثر في تنويع قوة مصدر الدخل من الحج الذي كان يعتبر من أهم مصادر العملة الصعبة للمملكة، وذلك قبل اكتشاف الزيت في الخمسينيات من القرن الرابع عشر الهجري. وقد قدرت بعض المصادر دخل الحكومة السعودية من الحج قبل تدفق موارد الزيت فيما بين ١٥ (Shair, I.P. 602) و٢٤ (Wal- pole, N, P. 300) أو ٣٠ (Crary, D., P. 366) مليون ريال سعودي. ويشكل الحج للمدن المقدسة مصدر دخل هام لسكانها لأنه قد يغطي مصاريف بقية السنة لبعض المشتغلين بخدمة الحجاج. وفي دراسة حديثة للمؤلف ثبت أن الحج كان حتى التسعينيات من القرن الرابع عشر الهجري يشكل نسبة هامة من مصدر الدخل الاجمالي لهذه المدن المقدسة. فقد كان هذا الدخل

يشكل نحو ٨٦٪ من الدخل اليومي للمدينة المنورة خلال موسم الحج وإلى نحو ٦٦٪ من إجمالي دخل المدينة في سنة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م (Mecci, M.S., P. 267). ولكن أهمية الحج الاقتصادية بالنسبة للمملكة ككل ضعفت حديثاً بحيث أصبح الحج يشكل المصدر الثاني أو الثالث للدخل الوطني. كما أن نسبة مساهمة دخل الحج في الدخل الوطني أصبحت ضئيلة جداً إذ لم تتجاوز ١,٩٪ في سنة ١٣٩٩هـ (٧٨/١٩٧٩م). وقد نتج عن هذه الزيادة السريعة في الدخل العام من قطاع الزيت، بالإضافة إلى إلغاء الحكومة في سنة ١٣٧٢هـ (٥٢/١٩٥٣م) ضريبة الحج على الحجاج واكتفت فقط بتحصيل مبلغ ٦٠ ريال سعودي للحجر الصحي مما جعل الفائدة الكبرى من الحج تذهب للقطاع الخاص، وخاصة للعاملين في خدمة الحجاج (Mecci, P. 264).

ويؤدي اختلاف المستويات الاقتصادية للدول المرسلة للحجاج إلى تنوع قوة مصادر دخل الحج. فالدول ذات المستوى الاقتصادي الجيد لا تضع الكثير من العقبات أمام حركة حجاجها ومقدار ما يحملونه من مال إلى المملكة. ومثل هؤلاء الحجاج يكونون مرغوبين من قبل العاملين في خدمة الحجاج في أماكن الحج كالمطوفين والأدلاء، ولهذا كان بعض المطوفين والأدلاء، حتى أوائل التسعينيات، يرسلون وكلاء عنهم أو يقومون بأنفسهم بزيارة الأقطار الإسلامية المختلفة لجذب أكبر عدد من الحجاج، وخاصة الأثرياء منهم.

ولكن تتدخل أحياناً، حتى مع وجود الإمكانيات الاقتصادية لأداء فريضة الحج، بعض العوامل المحددة لعدد الحجاج من جنسيات معينة. ومن هذه العوامل الحروب والنزعات الداخلية والخارجية. ومن الأمثلة على ذلك الحرب الداخلية في شبه الجزيرة العربية نتيجة للغزو التركي في بداية القرن الرابع عشر الهجري وفي الأربعينيات منه مما خفض عدد الحجاج من كثير من الدول (Armstrong, H., P. 255) ولا زالت القلاقل السياسية، حتى في الفترات الحديثة، تؤثر على عدد الحجاج من بعض الدول. فمثلاً لو تتبعنا احصائيات الحجاج

حـول سنــة ١٣٩٣هــ (٧٣/١٩٧٤م) وهي السنـة التي نشبت فيهـا الحــرب الرابعة بين العرب واسرائيل لوجدنا أن هناك انخفاضاً في عدد الحجاج من كثير من الـدول مقارنـة باحصـائيـات سنـة ١٣٩٢هـ (٧٢/١٩٧٣م). ولكن في سنة ١٣٩٤هـ (٧٤/١٩٧٥م) ازداد عـدد الحجــاج كثيـراً مـن الـدول نفسهـا لتعويض بعض النقص الذي حصـل في السنة لسابقة (جدول رقم ٢).

جدول (٢)

تغير عدد الحجاج في بعض الدول بين عامي ١٣٩٢هـ و١٣٩٤هـ (٧٢/١٩٧٣م - ٧٤/١٩٧٥م)

الدولة	العدد في ١٣٩٢هـ (٧٢/١٩٧٣م)	العدد في ١٣٩٣هـ (٧٣/١٩٧٤م)	نسبة التغير بين ١٣٩٢هـ و ١٣٩٣هـ	العدد في ١٣٩٤هـ (٧٤/١٩٧٥م)	نسبة التغير بين ١٣٩٣هـ و ١٣٩٤هـ
الأردن	٢٥٨١٩	١٢٨٥١	٥٠,٢٣-	١٩٣٩١	٥٠,٩٠+
باكستان	٨٩٣٧٢	٦٠٦٨٨	٣٢,١٠-	٦٦٥٢٤	٩,٦٣+
سوريا	٣١٧٧٧	١٠٤٨٤	٦٧,٠١-	٣١٥٨٣	١٩٩,٥٥+
العراق	٢٤٦٨١	٣٥٥٦٧	٤٤,١١+	٥٨٩٨٣	٦٥,٨٠+
فلسطين	١٥٥٦	١١٣٥	٢٧,٠٦-	٢٥٩٦	١٢٨,٧٢+
لبنان	٦٧١٥	٥٣٥٥	٢٠,٢٥-	٩٥٢٥	٧٧,٩٠+
ليبيا	٢٣٧٧٤	٣٠٧٠٤	٢٩,١٥+	٣٠٧١٥	٠,٠٣+
مصر	٣٩٦٠٦	٣٦٤٥٢	٧,٩٦-	٨٩٦١٧	١٤٥,٨٠+
الهند	١٨٣٠٦	١٩٨٧٩	٨,٥٩+	٢١٨٧٤	١٠,٠٤+
المجموع	٢٦١٦٠٧	٢١٣١١٥	١٨,٥٤-	٣٣٠٨١٨	٥٥,٢٣+

المصدر: وكالة وزارة الداخلية للجوازات والأحوال المدنيـة، ١٣٩٥هـ، **احصائيـة الحجاج**، جدة، ص ص ٢٧ ـ ٣١.



يوضح الجدول السابق أن أكثر الدل المتأثرة بالنقص هي الدول ذات العلاقة المباشرة بالحرب مثل الأردن وسوريا وفلسطين ومصر. أما الدول البعيدة عن ميدان القتال فقد كان تأثرها محدوداً، بل إن بعضها لم يتأثر إطلاقاً إذ ازداد عدد الحجاج منها بنسب متفاوتة كما حصل بالنسبة للعراق وليبيا والهند. ويتضح أيضاً من الجدول أن زيادة عدد الحجاج في السنة التالية للحرب كانت كبيرة جداً من دول المواجهة حيث تراوحت النسبة ما بين ٥٠٪ و ٢٠٠٪. وقد انطبق هذا على كل الدول العربية فيما عدا ليبيا. ويمكن التأكيد على تأثير الحرب في خفض عدد الحجاج في سنة ١٣٩٣هـ (٧٣/ ١٩٧٤م) من النظر إلى نسبة نمو عدد الحجاج في العشر السنوات السابقة ونسبة نموهم في العشر السنوات التالية (جدول رقم ٣).

لقد ازداد كل الحجاج غير السعوديين في الفترة من ١٣٨٣هـ (٦٣/ ١٩٦٤م) إلى ١٣٩٢هـ (٧٢/ ١٩٦٤م) بنسبة نحو ١٤٪ سنوياً. ولكن في سنة ١٣٩٣هـ (٧٣/ ١٩٧٤م) نقص عدد الحجاج بنسبة ٥,٨٪ عن سنة ١٣٩٢هـ (٧٢/ ١٩٧٣م). أما نسبة النمو في الفترة من ١٣٩٤هـ (٧٤/ ١٩٧٥م) إلى ١٤٠٣هـ (٨٢/ ١٩٨٣م) فقد كانت تقارب ٩٪ سنويا. ولكن ضمن هذه الفترة كانت زيادة ١٣٩٤هـ (٧٤/ ١٩٧٥م) تعادل نحو ٥٠٪ من عدد الحجاج في سنة ١٣٩٣هـ (٧٣/ ١٩٧٤م).

جدول (٣)

نسبة التغير في عدد الحجاج غير السعوديين إلى مكة المكرمة

في الفترة من ١٣٨٣هـ (٦٣/ ١٩٦٤م) إلى ١٤٠٣هـ (٨٢/ ١٩٨٣م)

السنوات الهجرية	عدد الحجاج غير السعوديين	النسبة المئوية للتغير
١٣٨٣هـ	٢٦٦٥٥٥	٣٢,٠+

السنوات الهجرية	عدد الحجاج غير السعوديين	النسبة المئوية للتغير
١٣٨٤هـ	٣٨٣٣١٩	٨,٨+
١٣٨٥هـ	٢٩٤١٨٨	٣,٨+
١٣٨٦هـ	٣١٦٢٢٦	٧,٥+
١٣٨٧هـ	٣١٨٥٠٧	٠,٦+
١٣٨٨هـ	٣٧٤٧٨٤	١٧,٨+
١٣٨٩هـ	٤٠٦٢٩٥	٨,٤+
١٣٩٠هـ	٤٣١٢٧٠	٦,١+
١٣٩١هـ	٤٧٩٣٣٩	١١,٢+
١٣٩٢هـ	٦٤٥١٨٢	٣٤,٦+
١٣٩٣هـ	٦٠٧٧٥٥	٥,٨-
١٣٩٤هـ	٩١٨٧٧٧	٥١,٢+
١٣٩٥هـ	٨٩٤٥٧٣	٢,٦-
١٣٩٦هـ	٧١٩٠٤٠	١٩,٦-
١٣٩٧هـ	٧٣٩٣١٩	٢,٨+
١٣٩٨هـ	٨٣٠٢٣٦	١٢,٣+
١٣٩٩هـ	٨٦٢٥٢٠	٣,٩+
١٤٠٠هـ	٨١٢٨٩٢	٥,٨-
١٤٠١هـ	٨٧٩٣٦٨	٨,٢+
١٤٠٢هـ	٨٥٣٥٥٥	٢,٩-
١٤٠٣هـ	١٠٠٣٩١١	١٧,٦+

المصدر: المديرية العامة للجوازات، ١٤٠٣هـ، **إحصائية الحجاج**، جدة، ص١.

ومن العوامل التي تؤثر أيضاً في عدد الحجاج من جنسيات معينة الاضطهاد الديني كما هو الحال مثلاً في الصين والاتحاد السوفيتي حيث مارس الشيوعيون في الصين ضغوطاً كبيرة على المسلمين ضد ممارستهم لشعائرهم الدينية. وتذكر بعض المراجع أمثلة لهذه الضغوط في مذابح المسلمين بين سنوات ١٣٦٠ و١٣٦٢هـ (١٩٤١ - ١٩٤٣م) في سينكيانج (Machain, P.14). وحتى الوقت الحاضر لا يعرف بدقة عدد المسلمين الاجمالي في الصين. ومع هذا فهناك اتفاق بأن أكبر تركز لهم هو في الشمال الغربي حيث تصل نسبتهم إلى نحو ٣٤٪ من سكان الأقاليم الخمسة في تلك المنطقة (Lindeck, J., P. 473). وقد قدرت بعض المصادر الحديثة عددهم بنحو ١١٥ مليون نسمة في سنة ١٣٩٩هـ - (Chisti, S., P. 79). وربما كانت الضغوط الدينية على هؤلاء المسلمين هي السبب في قلة عدد الحجاج من تلك البقاع أو عدم وجودهم أثناء أداء مئات الآلاف من الحجاج المسلمين لفريضة الحج، مع أن التقارير ذكرت وجودهم في مكة قبل استيلاء الشيوعيين على الحكم في الصين. فمثلاً قدر إلدن رتر E. Rutter عددهم بنحو ١٠٠٠ حاج في سنة ١٣٤٤هـ (١٩٢٦/٢٥م). (Rutter, E., PP. 271-273).

وتشبه أوضاع روسيا الحال في الصين حيث تندر المعلومات الدقيقة عن عدد المسلمين. ففي سنة ١٣٧٥هـ (١٩٥٦/٥٥م) قدر قسطنطين Constantine وجود ربع مجموع مسلمي العالم (والبالغ عددهم نحو ٣٠٠ مليون نسمة في تلك السنة) داخل الكتلة الشيوعية (Constantine, J., P.7). وفي سنة ١٤٠٢هـ (١٩٨١م/١٩٨٢م) قدر عددهم بنحو ٤٥ مليون نسمة (باقادر، أبو بكر محمد، ص١٨). وقد قل عدد الحجاج المسلمين القادمين من الجمهوريات الإسلامية في روسيا منذ ١٣٥٧هـ (١٩٣٨/٣٧م) بسبب انقطاع العلاقات السياسية بين المملكة وروسيا من جهة، ولأن الروس لم يتمكنوا من كسب عطف وتأييد هؤلاء المسلمين لسياساتهم الشيوعية (مكي، محمد، ص ١١٩: Spector, I., P. 236). ولو رفعت هذه الحواجز السياسية والإلحادية لعلم الله كم من المسلمين

تدفق من تلك الأصقاع إلى مكة المكرمة ليضافوا إلى ملايين البشر المتجمعة هناك.

الجنسية والدخل:

سنحاول في هذا القسم الربط بين أعداد الحجاج من جنسيات مختلفة في المستوى المعيشي في الفترة من ١٣٨٤ إلى ١٣٩٩هـ (٦٤/١٩٦٥م - ٧٨/١٩٧٩م) وبين التغيرات في الدخل القومي في المملكة العربية السعودية من الحج للفترة نفسها.

إن قلة البيانات في هذا الجانب تقف حجر عثرة أمام المقارنة والتحليل لفترات طويلة. فالمعلومات عن متحصلات المملكة من الحج متوفرة، كما هو واضح من جدول (رقم ٤)، لنحو عقدين من الزمان (١٣٨١ - ١٣٩٩هـ (٦١/١٩٦٢ -

٧٨/١٩٧٩م) ولكن المعلومات المطابقة لها عن عدد الحجاج من جنسيات مختلفة وعن معدل الدخل الفردي لهذه الجنسيات تتوفر لتسع سنوات فقط، كما هو واضح من جدول (رقم ٦).

ومع هذا النقص فالمعلومات المتوفرة يمكن أن يكون مؤشراً للعلاقة بين المتغيرات المختلفة المذكورة آنفاً. لقد أوضح جدول (رقم ٤) استمرار زيادة الدخل من الحج باستثناء السنتين الأوليين لتوفر البيانات (١٣٨٢، ١٣٨٣هـ). ولقد تضاعف دخل الحج بين سنة ١٣٨١هـ وسنة ١٣٩٩هـ نحو ١٥ مرة. ولكن نسبة هذا الدخل كانت في تناقص مستمر مقابل زيادة الدخل من مصادر أخرى. ولهذا فإن مقارنة نسبة دخل الحج بأعداد الحجاج ومستواهم المعيشي قد لا تكون مفيدة في هذا المجال. ولكن مقارنة نسب التغير في دخل الحج بأعداد الحجاج ومستواهم المعيشي قد تكون أكثر تعبيراً لهدف الدراسة.

وتبعاً لهذا الاتجاه فإننا نلاحظ تذبذب نسب التغير كثيراً من سنة لأخرى ولكننا نلاحظ بشكل عام أن نسب التغير لبعض السنوات كبيرة جداً كما هو الحال مع سنوات ١٣٨٤هـ (٦٤/١٩٦٥م)، ١٣٨٩هـ (٦٩/١٩٧٠م)، ١٣٩٢هـ (٧٢/١٩٧٣م)، ١٣٩٣هـ (٧٣/١٩٧٤م)، ١٣٩٤هـ

(١٩٧٥/٧٤م)، ١٣٩٧هـ (١٩٧٧/٧٦م). وفي كل هذه السنوات (باستثناء ١٣٩٣هـ) تساوت أو ازدادت مساهمة الحج في ميزان المدفوعات العام مقارنة بالسنوات التي سبقتها. وفي الوقت نفسه نجد أن الانفاق الحكومي على مشاريع الحج قد ازداد بشكل ملحوظ. فمثلاً نجد أن نفقات مشاريع الحج لوكالة الحج التابعة لوزارة الحج والأوقاف (وهي المسئول الأول عن شئون الحجاج) قد تضاعفت خلال الفترة الممتدة بين السنة المالية

١٣٨٦/٨٥هـ وسنة ١٣٩٩/٩٨هـ نحو عشر مرات (جدول ٥). ولا شك أن هناك العديد من المؤسسات الحكومية الأخرى التي تقوم بمشاريع أخرى تخدم الحجاج بطريق مباشر أو غير مباشر مثل مصلحة الطرق ووزارة الصحة. ولو قارنا البيانات في جدول (رقم ٤) بتلك الموضحة في جدول (رقم ٥) أمكن الاستنتاج بأنه ليس هناك ارتباط بين مستوى التحصيل من الخارج والإنفاق على مشاريع الحج.

فقد نجد بعض السنوات التي تزداد فيها متحصلات الحج ولكن النفقات على مشاريع الحج تتذبذب بين الارتفاع والزيادة كما هو الحال مثلاً مع سنوات ١٣٨٩هـ، ١٣٩٣هـ حيث استمرت متحصلات الحج في الزيادة بينما تناقصت نفقات مشاريع وكالة الحج، ولا شك أن مثل هذا الاتجاه هو في صالح الاقتصاد المحلي، لأنه يجعل الحج مساهماً فعالاً في ميزان المدفوعات السعودي. وقد ازداد في بعض السنوات التي تتوفر معلومات المتحصلات عنها عدد الحجاج من ذوي الدخل المتوسط والمرتفع* مثل حجاج الإمارات العربية المتحدة، وإيران، وتركيا، والسنغال، وسوريا والكويت، ولبنان ونيجيريا مع الاختلاف في حجم هذه الزيادات بين الدول المختلفة. ويتضح من جدول رقم (٦) أن عدد الحجاج في الدول المذكورة قد ازداد فيما عدا سوريا والكويت في سنوات ١٣٩٤ و ١٣٩٧ و ١٣٩٨هـ.

وقد تعود نسب التناقص عن سنة الأساس في سوريا إلى استمرار آثار حرب ١٣٩٣هـ (٧٣/ ١٩٧٤م) حتى السنة التالية، ولكن السبب غير واضح بالنسبة للكويت، ومما يدعم هذا الرأي أن حجاج سوريا قد ازدادوا في سنة

جـــــدول (٤)
مساهمة الحج في ميزان المدفوعات السعودي
(بملايين الريالات)

التحصيلات	١٣٨١هـ /٦١ ١٩٦٢م	١٣٨٢هـ /٦٢ ١٩٦٣م	١٣٨٣هـ /٦٣ ١٩٦٤م	١٣٨٤هـ /٦٤ ١٩٦٥م	١٣٨٥هـ /٦٥ ١٩٦٦م	١٣٨٦هـ /٦٦ ١٩٦٧م	١٣٨٧هـ /٦٧ ١٩٦٨م	١٣٨٨هـ /٦٨ ١٩٦٩م	١٣٨٩هـ /٦٩ ١٩٧٠م	١٣٩٠هـ /٧٠ ١٩٧١م	١٣٩١هـ /٧١ ١٩٧٢م	١٣٩٢هـ /٧٢ ١٩٧٣م	١٣٩٣هـ /٧٣ ١٩٧٤م	١٣٩٤هـ /٧٤ ١٩٧٥م	١٣٩٥هـ ١٩٧٥م	١٣٩٦هـ ١٩٧٦م	١٣٩٧هـ /٧٦ ١٩٧٧م	١٣٩٨هـ /٧٧ ١٩٧٨م	١٣٩٩هـ /٧٨ ١٩٧٩م
من الحج	٢٦٢	٢٠٢	١٧٩	٢٣٩	٢٥٦	٢٦٦	٢٨٤	٣٢٤	٤٢٣	٤٥٩	٤٨٥	٦٥٣	٩٠٩	١٦٦٥	١٧٨٩	٢١٥٧	٢٩١١	٢٥١٦	٤٠١٩
٪ من مجموع التحصلات	٥,٨	٤,١	٣,٤	٤,٦	٤,٣	٣,٥	٣,٦	٣,٦	٤,٦	٤,٢	٢,٨	٢,٨	٢,٦	١,١	١,٦	١,٥	١,٨	٢,٤	١,٩
٪ لتغير متحصلات الحج عن السنة السابقة	–	٢٢,٩–	١١,٤–	٣٣,٥+	٧,١+	٣,٩+	٦,٨+	١٤,١+	٣٠,٦+	٨,٥+	٠,٧+	٢٤,٦+	٣٩,٢+	٨٣,٢+	٧,٤+	٢٠,٦+	٢٥,٠+	٢٠,٨+	١٤,٣+
مؤشر التغير لمساهمة الحج في ميزان المدفوعات*	١٠٠,٠	٧٧,١	٦٨,٣	٩١,٢	٩٧,٧	١٠١,٥	١٠٨,٤	١٢٣,٧	١٦١,٥	١٧٥,٢	١٨٥,١	٢٤٩,٢	٣٤٦,٩	٦٣٥,٥	٦٨٢,٨	٨٢٣,٣	١١١١,١	١٣٤٢,١	١٥٣٣,١

ـــ السنوات التي تتوفر عنها بيانات الحجاج حسب مستوى دخلهم السنوي (في جدول رقم ٦).

* اعتبرت سنة ١٣٨١هـ هي سنة الأساس.

المصدر: مؤسسة النقد العربي السعودي، ١٤٠٠هـ، **التقرير السنوي**، جدة (النسب والمؤشرات هي من حساب الباحث).

جــــدول (٥)

ميـزانيـة المشـاريـع لـوكـالـة الحـج للسنـوات المـاليـة من ١٣٨٦/٨٥هـ إلى ١٤٠٠/٩٩هـ

(بآلاف الريـــــالات)

	٨٥/ ١٣٨٦هـ*	٨٦/ ١٣٨٧هـ	٨٧/ ١٣٨٨هـ	٨٨/ ١٣٨٩هـ	٨٩/ ١٣٩٠هـ	٩٠/ ١٣٩١هـ	٩١/ ١٣٩٢هـ	٩٢/ ١٣٩٣هـ	٩٣/ ١٣٩٤هـ	٩٤/ ١٣٩٥هـ	٩٥/ ١٣٩٦هـ	٩٦/ ١٣٩٧هـ	٩٧/ ١٣٩٨هـ	٩٨/ ١٣٩٩هـ
ميزانية المشروعات	٤٣٨٩	٨٠٨٤	٦٠١٠	٧٣٦٦	٢٨٤٠	٢٨٩١	٦٩٧٠	٥٨٧٨	٤٠٦٤	٢٠٩٢٧	١٦٩٢٢	٤٢١٣٣	٤٦٥٠٣	٣١١٣٩
مؤشر التغيير	١٠٠,٠٠	١٨٤,٢	١٣٦,٩	١٦٧,٨	٦٤,٧	٦٥,٩	١٥٨,٨	١٣٣,٩	٩٢,٦	٤٧٦,٨	٣٨٥,٦	٩٦٠,١	١٠٥٩.٥	٧٠٩,٥

* اعتبرت سنة ١٣٨٦/٨٥هـ هي سنة الأساس لأنه قبل هذا التاريخ كانت بيانات الميزانية تصدر غير مفصلة لوزارة الحج والأوقاف أي أنها تصدر في قم واحد.

المصدر: مصلحة الاحصاءات العامة، ١٣٨٩ ـ ١٤٠٠هـ، **الكتاب الاحصائي السنوي**، وزارة المالية والاقتصاد الوطني، الرياض.



١٣٩٨هـ (١٩٧٨/٧٧م) أي بعد زوال آثار الحرب.

ولو أمعنا النظر في جدول رقم ٦ نجد أن زيادة عدد الحجاج أو الدخل ليست مضطردة في كل الدول وبصورة مستمرة فقد يعتريها بعض التناقص في بعض السنوات ولكنه لا يصل إلى مستوى سنة الأساس أو دونها إلا في حالات نادرة. وعلى سبيل المثال نجد أن مستوى الدخل انخفض في دولة الإمارات في سنة ١٣٩٨هـ عن السنة السابقة ١٣٩٧هـ)، ولكنه كان أعلى بكثير من سنة الأساس (١٣٩٠هـ).

وبالرغم من هذا الانخفاض في مستوى الدخل فإن عدد الحجاج قد ازداد من دولة الامارات في سنة ١٣٩٨هـ مقارنة بسنة ١٣٩٧هـ. وفي إيران انخفض مستوى الدخل قليلاً في سنة ١٣٩٨هـ، مقارنة بسنة ١٣٩٧هـ ولكنه كان أيضاً أعلى بكثير من سنة الأساس (١٣٩٠هـ). وهنا أيضاً كان عدد الحجاج قريباً من سنة الأساس ولكنه كان أعلى من سنة ١٣٩٧هـ.

ولو قارنا هذا الوضع ببيانات الدول الأخرى ذات المستوى المعيشي المنخفض التي يقل دخل الفرد فيها عن ١٠٠٠ ريال لمعظم سنوات الفترة لوجدنا أن فجوات تناقص مستوى الدخل واعداد الحجاج كبيرة. فمثلاً نلاحظ في سيراليون انخفاض مستوى الدخل بشكل واضح في سنة ١٣٩٨هـ مقارنة بسنة ١٣٩٧هـ وفي سنة ١٣٩٧هـ مقارنة بسنة ١٣٩٤هـ وكذلك انخفاض عدد الحجاج في هذه السنوات. وفي الهند نلاحظ أن مستوى الدخل ارتفع في سنة ١٣٩٤هـ وارتفع كذلك عدد الحجاج ولكن عندما انخفض مستوى الدخل في سنوات ١٣٩٧هـ انخفض أيضاً عدد الحجاج.

ويلاحظ أن عدد مرات النقص في عدد الحجاج في الدول ذات الدخل المتوسط والمرتفع تعادل فقط ٣٥٪ من عدد البيانات المتوفرة عنها في جدول رقم (٦)، مقارنة بـ ٢٨٪ في الدول الأخرى ذات المستوى المعيشي المنخفض. أما عدد المرات التي كانت مؤشرات زيادة الحجاج فيها تتجاوز ١٠٠٪ عن سنة الأساس فقد بلغت ٤٤٪ من بيانات

مجموعة الدول ذات الدخل المتوسط والمرتفع، ونحو ٦٨٪ من بيانات مجموعة الدول ذات الدخل المحدود. أما عدد المرات التي كانت مؤشرات زيادات الحجاج تقل فيها عن ٥٠٪ فقد كانت تعادل ٨,٣٪ في مجموعة الدخل الأولى و٣,٧٪ في مجموعة الدخل الثانية.

ومما سبق يمكن أن نستنتج بأن زيادة عدد الحجاج من ذوي الدخل المحدود كانت أكثر من زيادة الحجاج من ذوي الدخل المرتفع في سنوات زيادة مساهمة دخل الحج في ميزان المدفوعات السعودي. وهذا يعني دحض الفرضية الأولى التي تربط بين ازدياد الدخل القومي من الحج وبين عدد القادمين من جنسيات يتمتع أفرادها بمستوى معيشي مرتفع. فلقد اتضح أن الزيادة في الدخل القومي تعود إلى الزيادة في عدد الحجاج من ذوي الدخل المحدود.

إن دحض الفرضية السابقة يلغي الفرضية الثانية، ويتضح هذا من بيانات سنة ١٣٩٠هـ (٧٠/١٩٧١م) وسنة ١٣٩٧هـ (٧٦/١٩٧٧م). ففي السنة الأولى انخفضت نسبة الزيادة في الدخل القومي من الحج إلى ٨,٥٪ فقط (٦٩/١٩٧٠م). وفي هذه السنة لم ينخفض من عدد حجاج الدول ذات الدخل المتوسط والمرتفع إلا حجاج السنغال فقط. أما في السنة الثانية، والتي حقق فيها الدخل القومي زيادة تصل إلى ٣٥٪ مقارنة بالسنة التي سبقتها (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م)، كان هناك خمس دول من مجموع ثماني دول من ذوي الدخل المتوسط والمرتفع حققت تناقصاً في عدد حجاجها.

ويؤكد ما سبق أن أشرنا إليه معامل الارتباط Correlation Coefficient **لتوضيح العلاقة بين مستوى الدخل في الدولة وعدد الحجاج القادمين منها (جدول رقم ٧). ففي هذا الجدول نلاحظ أن معامل الارتباط في معظم الدول ذات الدخل المحدود (الصومال ومصر والهند واليمن الشمالي) أعلى منه في معظم الدول ذات الدخل المرتفع (مثل الامارات العربية المتحدة وايران وتركيا السنغال وسوريا والكويت ولبنان). ويعنى هذا الوضع أن تحسن مستوى الدخل في الدولة يؤثر في عدد الحجاج منها ولكن في الدول**

المرتفعة الدخل بشكل عام، فإن تذبذب الدخل لا يؤثر في عدد الحجاج منها، ومن هنا كان تأثر الدخل القومي في المملكة العربية السعودية بشكل أكبر بعدد الحجاج المتزايدين من الدول (المحدودة الدخل والتي شهدت معظمها تحسنا في مستوى الدخل الفردي فيها.

معدل الدخل الفردي السنوي وعدد الحجاج لعينات من الجنسيات الإسلامية ومؤشرات التغير للدخل وعدد الحجاج*

الدولة	النوع	السنوات**					
		١٣٨٤هـ (٦٤/١٩٦٥م)	١٣٩٠هـ (٧٠/١٩٧١م)	١٣٩٤هـ (٧٤/١٩٧٥م)	١٣٩٧هـ (٧٦/١٩٧٧م)	١٣٩٨هـ (٧٧/١٩٧٨م)	١٣٩٩هـ (٧٨/١٩٧٩م)
الامارات العربية المتحدة.	أ	-	١٠٦٠٦,٥	٦٦٩١,٣	٦٣٧٧٢,٥	٥٥١٦١,٢	٤٣٨١٧,١
	ب	-	١٠٠,٠	٤٤٠,٢	٦٠١,٣	٥٢٠,١	٤١٣,١
	جـ	-	٢٢٧	٣٤٢٢	٣٥٦٠	٥١٨٣	٥٢٤٥
	د	-	١٠٠,٠	١٤٢٣,٩	١٥٠٢,١	٢١٨٦,٩	٢٢١٣,١
أندونيسيا	أ	٣٢٨,٥	٣١٥,٠	٧٠٩,٥	٧٠٣,٥	١٠٠٦,٢	١٣٠٢,٤
	ب	١٠٤,٣	١٠٠,٠	٢٢٥,٣	٢٢٣,٣	٣١٩,٤	٤١٣,٥
	جـ	١٥٢٣٤	١٤٦٣٣	٦٨٨٧٢	٣٥٧٠٣	٧٢٥٢٧	٤٣٧٢٣
	د	١٠٤,١	١٠٠,٠	٤٧٠,٧	٢٤٤,١	٤٩٥,٦	٢٩٨,٨
إيران	أ	٣٢٨١,٠	١٣٥٠,٠	٤٠٩١,٣	٥٤٦٣,٥	٥١٦٦	-
	ب	٢٤٣,٠	١٠٠,٠	٣٠٣,١	٤٠٤,٧	٣٨٢,٧	-
	جـ	١٩٠٧٣	٤٨٣٦٧	٥٧٣١٤	٣٤٩٠٩	٤٨٢٦٨	٧٤٩٦٣
	د	٣٩,٤	١٠٠,٠	١١٨,٥	٧٢,٢	٩٩,٨	١٥٥,١
باكستان	أ	٣١٠,٥	٧٣٣,٥	٦٤٦,١	٦٤٠,٥	٦٠٥,٧	٩١٥,٢
	ب	٤٢,٣	١٠٠,٠	٨٨,١	٨٧,٣	٨٢,٦	١٢٤,٨
	جـ	٢٦٠٥٣	٣٨٢٥٦	٦٦٥٣٤	٠٤٧٥٩١	٦١٩٢٤	٧٤٢٩٦
	د	٦٨,١	١٠٠,٠	١٧٣,٩	١٢٤,٦	١٦١,٩	١٩٤,٢
تركيا	أ	٨٠١,٠	١٥٧٥,٠	٣٠٨١,٧	٣٠٥٥,٥	٢٨٨٩,٦	٤٦٨١,٦

الدولـــة	النوع	السنوات** ١٣٨٤هـ (٦٤/١٩٦٥م)	١٣٩٠هـ (٧٠/١٩٧١م)	١٣٩٤هـ (٧٤/١٩٧٥م)	١٣٩٧هـ (٧٦/١٩٧٧م)	١٣٩٨هـ (٧٧/١٩٧٨م)	١٣٩٩هـ (٧٨/١٩٧٩م)
	ب	٥٠,٩	١٠٠,٠	١٩٥,٧	١٩٤,٠	١٨٣,٥	٢٩٧,٢
	جـ	-	١٣٢٦٩	١٠٦٠٤٥	٩١٤٩٧	٢٩٩٦٩	١٥١٧٧
	د	-	١٠٠,٠	٧٩٩,٣	٦٨٩,٦	٢٢٥,٩	١١٤,٤
تشاد	أ	-	٣٨٧,٠	٥٨٢,٥	٥٧٧,٥	٥٤٦,٢	٣٨٧,٢
	ب	-	١٠٠,٠	١٥٠,٥	١٤٩,٢	١٤١,١	١٠٠,١
	جـ	١٥٣٦	٢٠٣٤	٤٩٢١	١٧٢٠	٣٢٥٩	٤٧٨٥
	د	٧٥,٥	١٠٠,٠	٢٤١,٩	٨٤,٦	١٦٠,٢	٢٣٥,٣
السنغال	أ	٧٩٦,٥	٨٤١,٥	١٢٠٧,٣	١١٩٧,٠	١١٣٢,٠	١٥١٣,٦
	ب	٩٤,٧	١٠٠,٠	١٤٣,٥	١٤٢,٢	١٣٤,٥	١٧٩,٩
	جـ	٣٣١٩	٢٤٢٢	٣٤٠٣	٤٨٢٥	٣٩٣٩	٤٢٣١
	د	١٣٧,٠	١٠٠,٠	١٤٠,٥	١٩٩,٢	١٦٢,٦	١٧٤,٧
السودان	أ	٤٢٧,٥	٦٨٤,٠	١٠٧٣,١	١٠٦٤,٠	١٠٠٦,٢	١٣٠٢,٤
	ب	٦٢,٥	١٠٠,٠	١٥٦,٩	١٥٥,٦	١٤٧,١	١٩٠,٤
	جـ	١٤٠٥٠	١٤٨٦٥	٤٢٠٨٤	٣٢٣٥٣	١٧٤٠٨	١٩٧٩٩
	د	٩٤,٥	١٠٠,٠	٢٨٣,١	٢١٧,٦	١١٧,١	١٣٣,٢
سوريا	أ	-	١١٥٦,٥	٢٤٧٨,١	٢٤٥٧,٠	٢٣٢٣,٦	٣٦٢٥,٦
	ب	-	١٠٠,٠	٢١٤,٣	٢١٢,٥	٢٠٠,٩	٣١٣,٥
	جـ	٢٠٩١٨	٤٢٣٣٩	٣١٥٨٣	٢٤٨٢٩	٥٦١٣٨	٦١٩٦٩
	د	٤٩,٤	١٠٠,٠	٧٤,٦	٥٨,٦	١٣٢,٦	١٤٦,٤
سيراليون	أ	-	٦٣٠,٠	٧١٣,١	٦٩٦,٥	٦٥٨,٧	٨٨٠,٠
	ب	-	١٠٠,٠	١١٣,٢	١١٠,٦	١٠٤,٦	١٣٩,٧
	جـ	-	٣٥٣	٥٠٤	٢٠	١٩١	٣٦٥
	د	-	١٠٠,٠	١٤٢,٨	٥,٧	٥٤,١	١٠٣,٤
الصومال	أ	٣٣٧,٥	٢٤٦,٥	٥٣٣,٠	٥٢٥,٠	٤٩٦,٥	-
	ب	١٣٦,٩	١٠٠,٠	٢١٦,٤	٢١٣,١	٢٠١,٤	-
	جـ	٩٦٢	١٩٠	٣٧٦٧	٤٧٨٦	٥٤١٩	١٢٩٣٤
	د	٥٠٦,٣	١٠٠,٠	١٩٨٢,٦	٢٥١٨,٩	٢٨٥٢,٠	٦٨٠٧,٤
الكويت	أ	-	١٢٦٦٣,٠	٤٠٣٥١,٤	٤٠٣٥١,٤	٣٧٨٣٦,٦	٦٠١٩٢,٠
	ب	-	١٠٠,٠	٣١٨,٧	٣٣٨,٧	٢٩٨,٨	٤٧٥,٣
	جـ	٤٨٣٠	٨٠٧٢	٥٢٧٠	٣١٨٧	٥٩١٨	٥٤٠٧

الدولة	النوع	السنوات** ١٣٨٤هـ (٦٤/١٩٦٥م)	١٣٩٠هـ (٧٠/١٩٧١م)	١٣٩٤هـ (٧٤/١٩٧٥م)	١٣٩٧هـ (٧٦/١٩٧٧م)	١٣٩٨هـ (٧٧/١٩٧٨م)	١٣٩٩هـ (٧٨/١٩٧٩م)
	د	٥٩,٨	١٠٠,٠	٦٥,٣	٣٩,٥	٧٣,٣	٦٧,١
لبنان	أ	٣٤٤٢,٥	٤٠٥٠,٠	٤٠٣١,٣	٣٩٩٧,٠	٣٧٨٠,٠	-
	ب	٨٥,٠	١٠٠,٠	٩٩,٥	٩٨,٧	٩٣,٣	-
	جـ	٤٣٧١	٦٧١٢	٩٥٢٥	٣٨١٥	٦٦٤٨	١٠٦٧٨
	د	٦٥,١	١٠٠,٠	١٤١,٩	٥٦,٨	٩٩,١	١٥٩,١
مصر	أ	٥٥٣,٥	٩٠٩,٠	٧٠٩,٥	١٠٠١,٠	١٠١٩,٥	١٦٨٩,٦
	ب	٦٠,٩	١٠٠,٠	٧٨,١	١١٠,١	١١٢,٢	١٨٥,٩
	جـ	١٨٦٨٣	١١٤٩٠	٨٩٦١٧	٣٠٩٥١	٤١٨٢٨	٤٨٢٩٧
	د	١٦٢,٦	١٠٠,٠	٧٨٠,١	٢٦٩,٤	٣٦٤,٠	٤٢٠,٣
نيجيريا	أ	٣٣٣,٥	٥٦٢,٥	١٨٠٠,٣	٢٣٨٧,٠	٢٢٥٧,٤	٢٣٥٨,٤
	ب	٥,٩٣	١٠٠,٠	٣٢٠,١	٤٢٤,٤	٤٠١,٣	٤١٩,٣
	جـ	١٢٢٩٩	٣٥١٨٧	٥١٧٦٤	١٠٤٥٧٧	٥٦٨٤٢	٥٧٢٦٩
	د	٣٤,٩	١٠٠,٠	١٤٧,١	٢٩٧,٢	١٦١,٥	١٦٢,٨
الهند	أ	-	٤٢٣,٠	٤٨٧,١	٤٨٣,٠	٤٥٦,٨	٩١٥,٢
	ب	-	١٠٠,٠	١١٥,٢	١١٤,٢	١٠٨,١	٢١٦,٤
	جـ	١٨٦٦٦	١٦٤٧٠	٢١٨٧٤	٢١١١٣	٢٠٢٣٣	٢٤٨٦٢
	د	١١٣,٣	١٠٠,٠	١٣٢,٨	١٢٨,٢	١٢٢,٨	١٥١,١
اليمن الشمالي	أ	٢٥٦,٥	٤١٤,٠	٧٤٨,٤	٧٤٢,٠	٧٤٢,٠	١٦٨٩,٦
	ب	٦٢,١	١٠٠,٠	١٨٠,٨	١٧٩,٢	١٧٩,٢	٤٠٨,١
	جـ	٣٣٨١	٥٠٢٦٩	٧٥٥٥٧	٧٩٣٤٧	١٢٣٨٢٥	٨٩٨٦٩
	د	٦,٧	١٠٠,٠	١٥٠,٣	١٥٧,٨	٢٤٦,٣	١٩٨,٨

* اعتبرت سنة ١٣٩٠هـ سنة الأساس لحساب مؤشرات التغير التي وضعها الباحث.

** بيانات معدل الدخل الفردي تتوفر حتى سنة ١٤٠٢هـ ولكنها اقتصرت في هذا الجدول على ست سنوات لتسهيل المقارنة مع البيانات المتوفرة في جدول رقم (٤).

أ - معدل الدخل الفردي بالريال السعودي.

ب - مؤشر تغيير الدخل الفردي.

جـ - عدد الحجاج.

د - مؤشر تغيير عدد الحجاج.

جدول (٧)

معامل الارتباط بين مستوى الدخل وعدد الحجاج القادمين إلى مكة المكرمة

الدولــــة	قيمة معامل الارتباط
الامارات العربية المتحدة	٠,٧٨
أندونيسيا	٠,٦٤
إيران	-٠,٢٤
باكستان	٠,٤٠
تركيا	-٠,٠٠٤
تشاد	-٠,٠٢
السنغال	٠,١٩
السودان	-٠,٠٤
سوريا	٠,٣٩
سيراليون	٠,١٥
الصومال	٠,٩٣
الكويت	-٠,٦٩
لبنان	٠,١٤
مصر	٠,٧٠
نيجيريا	٠,٧٥
الهند	٠,٨١
اليمن الشمالي	٠,٨٩

المصدر: جدول رقم ٦.

المصادر:

١ ـ United Nations, 1981, 1979/80, **Stalistical Year Book,** Now York, PP. 698-700.

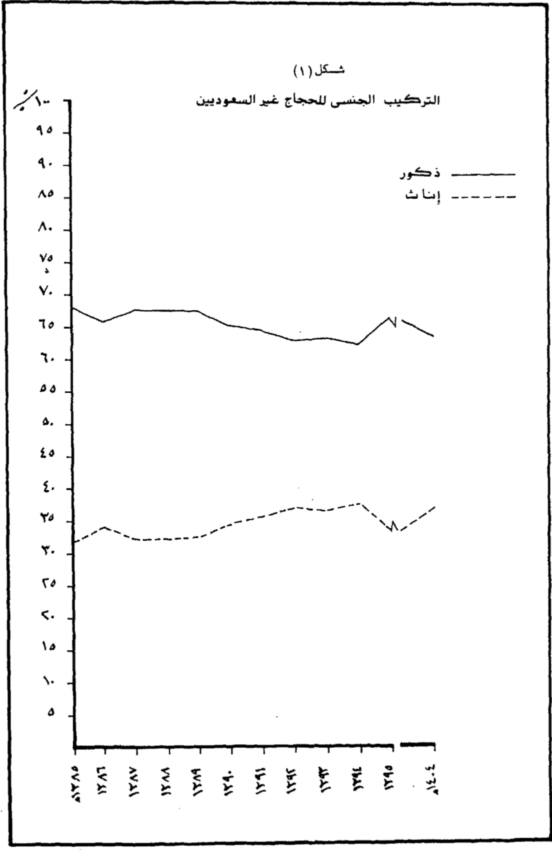
٢ ـ The Workd Bank, 1979-1984, World Development Report, Oxford University, Press, Oxford.

٣ ـ وكالة وزارة الداخلية للجوازات والأحوال المدنية، ١٣٨٤ ـ ١٣٩٨هـ، **إحصائية الحجاج**، جدة.

الجنس أو النوع:

يمكن الإشارة هنا إلى أن المعلومات الخاصة بالتركيب الجنسي أو النوعي للحجاج نادرة وغير مستمرة فيما عدا العقد ونصف العقد الماضيين. ولو أن هناك إشارات عامة من حين لآخر عن هذه المعلومات في بعض مراجع الرحلات. فمثلاً قدر على بى نسبة النساء بين الحجاج بنحو ٢,٥٪ فقط أثناء زيارته للحجاز في الفترة من ١٢١٨هـ (١٨٠٣/١٨٠٤م) إلى ١٢٢٢هـ (١٨٠٧/١٨٠٨م) (Ali Bay, p. 27). وقد عزت دائرة المعارف الإسلامية هذا النقص في نسبة النساء إلى خطورة السفر وصعوبته في تلك الفترة (Lewis, B.P. 34)، ولا شك أن كل هذه هي تقديرات شخصية لا تعتمد على احصائيات دقيقة. ولكن منذ سنة ١٣٨٦هـ (٦٦/١٩٦٧م) بدأت الحكومة السعودية بطباعة المعلومات المتعلقة بالتركيب النوعي للحجاج. ويوضح شكل رقم (١) اتجاه نمو ونسب الذكور والإناث بين الحجاج غير السعوديين للفترة من ١٣٨٥هـ - (٦٥/١٩٦٦م) إلى ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م). ويتضح من الشكل المذكور أن نسب الذكور للاناث قد استمرت متوازنة تقريباً خلال هذه الفترة لتصل إلى نحو ٢ : ١ وربما يؤكد هذا الاتجاه تقدير غفور السابق الذكر عن نسبة الرجال للنساء بين الحجاج. أن زيادة الذكور على الإناث قد ترتبط بمستوى الصرف النقدي العام للحجاج. فبين الجنسيات التي تضم عدداً كبيراً من الحجاج يمكن أن نتوقع أيضاً صرفاً كبيراً لازدياد عدد الذكور بينها. وسوف تؤثر هذه الزيادة في النهاية على الاقتصاد المحلي في مناطق الحج.

ويوضح جدول رقم (٨) عدد الذكور والإناث في الدول المذكورة في جدول رقم (٦) في سنة ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م). ومن هذا الجدول يتضح أن عدد الذكور في كل الدول ذات الدخل المتوسط والمرتفع يزيد على عدد النساء، فيما عدا لبنان، وكذلك في كل الدول ذات الدخل المنخفض فيما عدا تشاد. ولعل هذا الاستثناء يعود لظروف الحروب الداخلية التي تعاني منها هذه الدول والتي قد تؤثر نسب النوع فيها. ومع هذا فإن نسب النوع تشير إلى ازدياد الذكور كثيراً على الإناث في الدول ذات



شكل (١)

التركيب الجنسي للحجاج غير السعوديين

المصدر : الكتاب الاحصائي السنوي

جدول (٨)

عدد الذكور والإناث في عينات
من الدول الإسلامية، ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م).

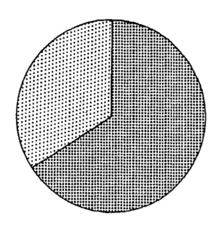
الدولة	ذكور	إناث	مجموع	نسبة النوع
الامارات العربية المتحدة	٢١٧٤	١٦٨٣	٣٨٥٧	١٢٩
أندونيسيا	٣٠٦٢١	٢٤٩٩٦	٥٥٦١٧	١٢٢
ايران	٤٩٩٣٠	٢٤١٦٥	٧٤٠٩٥	٢٠٦
باكستان	٣١٣٥١	١٣٦٧٦	٤٥٠٢٧	٢٢٩
تركيا	٩٨٥٩٨	٣٧٥١٧	١٣٦١١٥	٢٦٢
تشاد	٥٦٨	٣٩٣	٩٦٥	١٤٤
السنغال	٢٦٠٩	١٢٢٣	٣٨٣٢	٢١٣
السودان	١٤٤٧٦	٩٧٣٣	٢٤٢٠٩	١٤٨
سوريا	١٨١٩٤	١٣٠١٥	٣١٢٠٩	١٣٩
سيراليون	٢٦٧	١١٠	٣٧٧	٢٤٢
الصومال	١٨٣٨	١٢٧٤	٣١١٢	١٤٤
الكويت	٤٩٤٩	٣٨٥٩	٢٨٨٠٨	١٢٨
لبنان	٧٢٦	٤٨٢	١٢٠٨	١٥٠
مصر	٣٠٦٥٦	٢٠٥٧٤	٥١٢٣٠	١٤٩
نيجيريا	٦٠٢٥٦	٣٢٣٣٧	٩٢٥٩٣	١٨٦
الهند	١١١٥٧	٧٧٠٦	١٨٨٦٣	١٤٤
اليمن الشمالي	٩٣٠٥٨	٢٠٨٤١	١١٣٨٩٩	٤٤٦

جدول: وكالة وزارة الداخلية للجوازات والأحوال المدنية، ١٣٩٥هـ، **إحصائية الحجاج**، جدة.

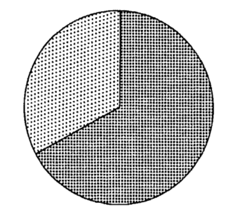
شكل (٢)

نسب النوع للحجاج المسلمين مصنفين حسب مجموعات الدخل،

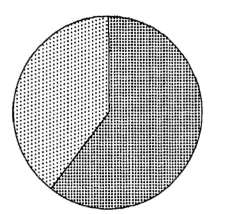
١٣٩٥ . ١٤٠٤هـ



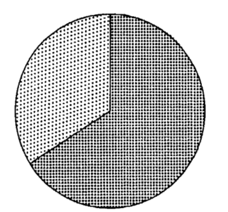
الدول المتوسطة والمرتفعة الدخل
لعام ١٣٩٥هـ



الدول المحدودة الدخل
لعام ١٣٩٥هـ



الدول المتوسطة والمرتفعة الدخل
لعام ١٤٠٤هـ



الدول المحدودة الدخل
لعام ١٤٠٤هـ

ذكور

اناث

الـدخل المنخفض منـه بين الـدول ذات الدخل المرتفع. وربما كان هذا الارتفاع في عدد الذكور هو السبب في زيادة تأثير هذه المجموعة الأخيرة على الدخل العام في المملكة مقارنة بتأثـير دول المجموعـة الأولى. ويؤكـد هـذا نسب النـوع لكـل الحجاج من الدول المتـوسطة والمـرتفعة والمحـدودة الدخـل في سنـوات ١٣٩٥، ١٤٠٤هـ (شكل ٢). ويمكن أن نستنتج من هذا صحة الفرضية الثـالثة في هـذا البحث وذلـك من مقـارنـة نسب النـوع مثـلاً في كـل من الكـويت أو الإمـارات العـربية المتحـدة بنسب النوع في اليمن أو الباكستان والهند.

ويـلاحظ أن هناك اتجـاهاً للـزيـادة الطفيفـة في نسب الحجـاج من النسـاء بشكل عام. كمـا يلاحظ أيضـاً إنسياب هذه النسب بانتظـام بالنسبـة لوسـائل قـدوم الحجاج فيمـا عدا حجـاج البحر حيث يلاحظ زيادة قليلة في نسب النساء مقارنة بحجـاج الجو والبـر (جدول رقم ٨). وربمـا تـرجـع هـذه الـزيـادة إلى استخدام هذه الـوسيلة الـرخيصة من قبل حجاج الـدول الفقيرة نسبيـاً وذات الأعـداد السكانيـة الكبيرة ممـا يشجع الكثـير منهم على الحـج مـع عـدم رفـع التكـاليف كثيـراً عن المعـدل العـام.

وتـوضح البيـانات أيضـاً قلـة النسـاء بالنسبة لحجاج البر. وربمـا يرجـع هذا النقص إلى طـول المسافـات التي تجعل السفر متعباً نوعاً ما خاصــة في الفصول الحارة، رغم أن طرق المواصلات البرية قـد تطورت كثيـراً خاصـة بين المملكـة وجيرانها من الـدُول العربيـة فيما عـدا اليمن التي تنخفض نسبـة النساء بـين حجاجها كثيراً مقارنـة بالـدول الأخرى المجـاورة. فمثـلاً في سنـة ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م) كـانت نسبة الإنـاث تشكـل ٤٣,٨٪ من مجمـوع حجـاج الكـويت، بينمـا كانت نسبتهم بـين حجـاج اليمن الشمالي تعادل ١٨,٣٪ فقط. (مصلحـة الاحصاءات العامة، ١٣٩٦هـ).*

جدول (٩)

النسب المئوية للحجاج غير السعوديين تبعاً لوسيلة السفر والجنس، ١٣٨٥ ـ ١٣٩٥هـ (١٩٦٦/٦٥ ـ ١٩٩٥م).

السنة	الجو ذكور	الجو إناث	البحر ذكور	البحر إناث	البر ذكور	البر إناث	المجموع ذكور	المجموع إناث
١٣٨٥هـ	٦٨,٣	٣١,٧	٦٣,٧	٣٦,٣	٧٢,٤	٢٧,٦	٦٨,١	٣١,٩
١٣٨٦هـ	٦٦,٣	٣٣,٧	٦٢,١	٣٧,١	٦٩,٨	٣٠,٢	٦٥,٩	٣٤,١
١٣٨٧هـ	٦٤,٠	٣٦,٠	٦٠,٠	٤٠,٠	٧٧,٣	٢٢,٧	٦٧,٧	٣٢,٣
١٣٨٨هـ	٦٢,٠	٣٨,٠	٦٠,٢	٣٩,٨	٧٧,٣	٢٢,٧	٦٧,٧	٣٢,٣
١٣٨٩هـ	٦٣,٢	٣٦,٨	٦٠,١	٣٩,٩	٧٥,٠	٢٥,٠	٦٧,٥	٣٢,٥
١٣٩٠هـ	٦٤,٨	٣٥,٢	٦٢,٠	٣٨,٠	٦٨,١	٣١,٩	٦٥,٣	٣٤,٧
١٣٩١هـ	٦٢,٤	٣٧,٦	٦٠,١	٣٩,٩	٧٠,٥	٢٩,٥	٦٤,٤	٣٥,٦
١٣٩٢هـ	٦٢,٧	٣٧,٣	٥٨,٠	٤٢,٠	٦٩,٧	٣٠,٣	٦٢,٨	٣٧,٢
١٣٩٣هـ	٦٣,٠	٣٧,٠	٥٧,٩	٤٢,١	٦٩,٨	٣٠,٢	٦٣,٣	٣٦,٧
١٣٩٤هـ	٦١,١	٣٨,٩	٥٧,١	٤٢,٩	٦٧,٢	٣٢,٨	٦٢,٢	٣٧,٨
١٣٩٥هـ	٦٣,٣	٣٦,٧	٦٠,٩	٣٩,١	٧٤,١	٢٥,٩	٦٦,٥	٣٢,٥

جدول: مصلحة الاحصاءات العامة، ١٣٨٦ ـ ١٣٩٨هـ، **الكتاب الاحصائي السنوي**، وزارة المالية والاقتصاد الوطني، الرياض.

الخاتمـــــة:

لم يظهـر في هذه الـدراسة وجـود ارتبـاط محدد للفـوائد الاقتصـاديـة للمملكة بجنسية معينة أو نوع معين مـن الحجـاج. فقـد ثبـت في هـذه الـدراسـة دحض الفـرضيـة الأولى والثانية التي تربط بين زيادة الدخـل القـومي من الحج في المملكـة وزيـادة عدد الحجاج من الـدول ذات الدخـل المـرتفـع. ولا شـك أن ضعف هـذا الارتبـاط يزيـد العبء على حكـومـة المملكـة العـربيـة السعـوديـة في الاهتمام بالعنـاية لتـوفير المتطلبـات المختلفـة للحجاج من كـل الجنسيات لأن كلا منهم مفيد ومهم بغض النظـر عـن الجنسيـة أو الجنس. وهـذا الاهتمام لا يتأتى إلا بمعرفة وتحديد الاختلافات في تركيب الحجاج القومي والنوعي مما يعنى ضـرورة العنايـة بمـعلـومـات الجنسيـة والجنس ومحـاولة تسجيـل كـل التفصيـلات المتعلقة بها. وقـد بنى الآن الكثير من الخـدمـات الأسـاسيـة التي تخـدم الحجاج في مناطق الحج. وللاستفادة القصـوى من هـذه الخـدمـات دون الحاجة إلى المزيد منها ينبغي تحديـد عدد الحجاج القـادمين للحـج سواء من داخل المملكة أو خـارجها. ويمكن أن يتم هذا عن طريق بث الـوعي بين النـاس بعدم تكـرار الحج وإتـاحـة الفـرصة لمن لم يؤد فـريضـة الحـج مطلقاً. إن مثل هذا الإجراء لا يهـدف إلى كبت حريات النـاس وإنما هـو في صـالحهم لأداء فـريضـة الحـج بمـا يتطلبــه هــذا المـوقـف العظيـم من خشـوع وروحانيـة لا تتم في الأجواء المـزدحمة المكتظـة بملايـين البشر في مكان محدود المساحة.

كمـا أن تحـديـد عـدد الحجـاج وضبط عمليـات البناء والتطـويـر في مناطق الحج يعنى تـرشيد الصـرف الحكـومـي في هــذا المجـال. ويمكن تـرشيـد الصـرف الحكـومي المتعلق بالحج أيضا عن طريق ضبط البدلات السخيـة التي تصـرف للعـامـلـين في خـدمـة الحجـاج مـن القطـاعـات الحكومية المختلفة ونشر الوعي بـين النـاس بأن مـا يقومـون بـه في هـذا المجـال هو جـزء من عملهم وواجبهم باعتبارهم مواطنين يتشرفون بسكنى هذا البلد الـذي يضم أقدس بقعـة في العالم.

● الهوامش ●

* النسب المئوية من حساب الباحث.

المصادر:

١ ـ Kean, J.F., 1887, **Six Months in the Hejaz,** Ward & Dawney London, p. 69.

Jour. Vol. 74
(3), pp. 271-273.

٣ ـ وكالة وزارة الداخلية للجوازات والأحوال المدنية، ١٤٠٤هـ، **إحصائية الحجاج**، جدة.

* الذين يزيد دخلهم السنوي على ١٠٠٠ ريال سعودي لذوي الدخل المتوسط ويزيد على ١٠,٠٠٠ ريال لذوي الدخل المرتفع لمعظم سنوات الفترة.

* لقد توقف صدور بيانات القدوم تبعاً لوسيلة النقل مصنفة حسب الجنس بعد عام ١٣٩٥/١٩٧٥م ولا ندري لذلك سبباً مع أن مثل هذه المعلومات مهمة جدا في التخطيط للمستقبل لأن معرفة اتجاه التركيب النوعي للحجاج القادمين بوسائل النقل المختلفة قد يسهل توفير الخدمات اللازمة لكل نوع عند نقاط البداية أو النهاية لكل وسيلة نقل.

(١) السيوطي، الموهر ١: ٢١٠.
(٢) انظر د/ حسن عون، اللغة والنحو ٤٢ ـ ٤٤.
(٣) من الأية ٧١ من سورة الإسراء.
(٤) من الآية ١ من سورة المؤمنون.
(٥) ابن جني، الخصائص ٢: ١٢.
(٦) انظر شيئاً من هذه الأمثلة في الثعالبي، فقه اللغة ٣٢٨ ـ ٣٢٩.
(٧) انظر الثعالبي، فقه اللغة ٣٢٨.
(٨) انظر الشنقيطي، الدرر اللوامع ١: ١٤١.
(٩) انظر ابن فارس، الصاحبي ٦ ـ ٩، ١٣ والسيوطي، المزهر ١: ٨ ومحمد الطنطاوي، نشأة النحو ١٣.
(١٠) ابن جني، الخصائص ١: ٣٤.
(١١) انظر ابن منظور، لسان العرب ١٥: ٣٠٩، وابن النديم، الفهرست ٣٥٦، ٣٥٧.

(١٢) الانباري، نزهة الألباء ٥.
(١٣) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية ١: ٢٢١.
(١٤) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية ١: ٢٢٢، ٢٢٣.
(١٥) الرافعي، تاريخ آداب العرب ١: ١٠٢، ١٠٣.
(١٦) انظر أحمد أمين، ضحى الإسلام ٢: ٢٩٣.
(١٧) انظر د/ حسن عون، اللغة والنحو ٢٠٩ ـ ٢٥٠.
(١٨) انظر أحمد أمين، ضحى الإسلام ٢: ٢٩٣.
(١٩) جوتولد فايل، مقدمة الانصاف ٣ ترجمة د/ عبدالحليم النجار نقلاً عن د/عبدالرحمن السيد، مدرسة البصرة النحوية ١٠٤.
(٢٠) انظر دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام ٤٠ ـ ٤١.
(٢١) ابن جني، الخصائص ١: ٣٤.
(٢٢) عبدالقاهر، دلائل الإعجاز ٦٤ ـ ٦٥.
(٢٣) السيوطي، الاقتراح ٦.
(٢٤) الأشموني، منهج السالك إلى ألفية ابن مالك ١٥.
(٢٥) الخضري، حاشيته على ابن عقيل ١٠.
(٢٦) ابن خلدون، المقدمة ٥١٥.
(٢٧) انظر الجاحظ، البيان والتبيين ٢: ٢١٩.
(٢٨) انظر الانباري، نزهة الألباء ١٠.
(٢٩) انظر ابن فارس، الصاحبي ٦ ـ ٩، ١٣، ومحمد الطنطاوي، نشأة النحو ١٣.
(٣٠) الانباري، نزهة الألباء ١١.
(٣١) الانباري، نزهة الألباء ٨.
(٣٢) انظر الانباري، نزهة الألباء ١١.
(٣٣) ابن النديم، الفهرست ٦١.
(٣٤) أحمد أمين، ضحى الإسلام ٢: ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٩٠.
(٣٥) انظر دائرة المعارف الإسلامية ١: ٤٢٢.
(٣٦) انظر إبراهيم مصطفى، بحثه عن أوّل من وضع النحو، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة «فؤاد سابقاً»، ديسمبر سنة ١٩٤٨م، مجلد ١٠، جزء ٢، ص ١ ـ ٦ نقلاً عن د/عبدالرحمن السيد، مدرسة البصرة النحوية ٥٣ ـ ٥٤.
(٣٧) محمد الطنطاوي، نشأة النحو ٢٢، ٢٣.
(٣٨) انظر د/ عبدالرحمن السيد، مدرسة البصرة النحوية ٥٤ ـ ٦٠.
(٣٩) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء ١٢.
(٤٠) ابن قتيبة، الشعر والشعراء ٢: ٧٢٩.
(٤١) ابن النديم، الفهرست ٥٩.

(٤٢) القفطي، إنباه الرواة ١ : ٤.
(٤٣) القفطي، إنباه الرواة ١ : ٥.
(٤٤) القفطي، إنباه الرواة ١ : ٦.
(٤٥) انظر الرافعي، تاريخ آداب العرب ١ : ٢٨٨.
(٤٦) انظر طه الراوي، نظرات في اللغة والنحو ٧.
(٤٧) د/ شوقي ضيف، المدارس النحوية ٥.
(٤٨) يعدّ هذا المصحف أقدم مصحف مخطوط في العالم وهو موجود بحالته اولى في دار الكتب المصرية «انظر د/ حسن عون، اللغة والنحو ٢٣٦.
(٤٩) انظر د/ حسن عون، اللغة والنحو ٢٣٦ ويصف جرجي زيدان هذا المصحف بأنّه مكتوبَ بمداد أسود فيه نقط حمراء اللون، فالنقطة فوق الحرف فتحة وتحته كسرة وبين يديه ضمة كما وصفها أبو الأسود لمّا أراد التنقيط وأتوه بكاتب فقال له: إذا رأيتني فتحت فمي بالحرف فأنقط نقطة فوق وإن ضممت فبين يديه وإن كسرة فمن تحته «انظر جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية ١ : ٢٢٣».
(٥٠) انظر الرافعي، تاريخ آداب العرب ١ : ٢٨٧.
(٥١) من آية ٣ من سورة التوبة.
(٥٢) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء ١ : ١٢.
(٥٣) الزُبيدي، طبقات النحويين واللغويين ١١، ١٢.
(٥٤) الانباري، نزهة الألباء ٤ ـ ٥.
(٥٥) أبو العِلب اللغوي، مراتب النحويين ٩٨ ـ ١٠١.
(٥٦) انظر: القفطي، إنباه الرواه ١ : ١٧.
(٥٧) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢ : ٣١٣.
(٥٨) من آية ٢٤ من سورة التوبة.
(٥٩) انظر السيرافي، يخبار النحويين البصريين ٢٣.
(٦٠) انظر الانباري، نزهة الباء ١٨.
(٦١) انظر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين ٣٢، والأنباري، نزهة الألباء ١٩، ٢٠.
(٦٢) انظر أحمد أمين، ضحى الإسلام ٢ : ٢٩٠، ٢٩١.
(٦٣) انظر مثلاً «هذا باب استكرهه النحويون وهو قبيح فوضعوا الكلام فيه على غير ما وضعت العرب «سيبويه، الكتاب ١ : ١٦٧».
(٦٤) المبرد، المقتضب ٤ : ٨، وانظر في ذلك سيبويه، الكتاب ٢ : ٩٥.
(٦٥) المبرد، المقتضب ٤ : ٨٠.
(٦٦) انظر المبرد، المقتضب ١ : ١٠٩ ـ ١١٠.
(٦٧) انظر المبرد، المقتضب ٢ : ٢٩٧، وانظر سيبويه، الكتاب ١ : ٤٠١.
(٦٨) المبرد، المقتضب ٣ : ١٣٢.

(٦٩) الطَّفْلَه: الجارية الناعمة «انظر الفيروزا بادي، القاموس المحيط ٤: ٧».
(٧٠) انظر الانباري، نزهة الألباء ١٢٨.
(٧١) أو عمرو الكلبي «انظر يا قوت، معجم الأدباء ١٢: ١٠٣ ـ ١٠٤».
(٧٢) أو خَرَّصُوا، أي قالوا كذباً «انظر ياقوت، معجم الأدباء ١٢: ١٠٤».
(٧٣) كبلاد فارس.
(٧٤) كبلاد الروم ونحوها. أي لست أعجميًّا.
(٧٥) انظر ابن جني، الخصائص ١: ٢٣٩ ـ ٢٤٠.
(٧٦) انظر ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢: ٣٠٨.
(٧٧) انظر ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢: ٣٠٨ ـ ٣٠٩.
(٧٨) انظر الزُّبيدي، طبقات النحويين واللغويين ١٣.
(٧٩) انظر ياقوت، معجم الأدباء ١٣: ١٩٣.
(٨٠) انظر السيوطي، بغية الوعاة ١: ٥٥٨.
(٨١) انظر ياقوت، معجم الأدباء ٧: ١١٦.
(٨٢) انظر ياقوت، معجم الأدباء ٧: ١١٦.
(٨٣) ابن خلدون، المقدمة ٥١٤.
(٨٤) انظر السيوطي، بغية الوعاة ١: ٣٩٧.
(٨٥) انظر القفطي، إنباه الرواة ١: ١٤٤.
(٨٦) انظر القفطي، إنباه الرواة ٢: ٢٥٩.
(٨٧) انظر ياقوت، معجم الأدباء ٧: ١١١ ـ ١١٢.

المراجع

أولاً: المراجع العربية:

١ ـ باقادر، أبو بكر أحمد، ١٤٠٢هـ، «الأقليات المسلمة وحقوق الإنسان، **مجلة كلية الآداب**، جامعة الملك عبدالعزيز، مجلد ٢، ص ص١٣ ـ ٣١.

٢ ـ المديرية العامة للجوازات، ١٤٠٣ ـ ١٤٠٤هـ، **إحصائية الحجاج**، جدة.

٣ ـ مصلحة الاحصاءات العامة، ١٣٨٥هـ ـ ١٤٠٠هـ، **الكتاب الاحصائي السنوي**، وزارة المالية والاقتصاد الوطني، الرياض.

٤ ـ مكي، محمد شوقي بن إبراهيم، ١٤٠٥هـ، **سكان المدينة المنورة**، دار العلوم، الرياض.

٥ ـ وزارة الحـج والأوقاف، ١٣٩٩هـ، **وزارة الحج والأوقاف ـ تاريخ وتطور: شئون الحـج**، جـ١، دار عكاظ، جدة.

٦ ـ وكالة وزارة الداخلية للجوازات والأحوال المدنية، ١٣٩٥هـ، **إحصائية الحجاج**، جدة.

ο ο ο

ثانياً: المراجع غير العربية:

1. Ali Bey, 1816, **Travels in Morrocco, Tripoli, Cyprus, Egypt, Arabia, Syria and Turkey, 1803-1807,** Garey, Philadelphia, Vol. 2.
2. Admiralty, 1946, **Western Arabia and the Red Sea,** Geographical Handbook Series, Naval Intelligence Office, London.
3. Armstrong, H.C., 1934, **Lord of Arabia: Ibn Saud,** London.
4. Chisti, S.K., 1979, "Muslim Population of Mainalnd China: An Estimate", **Jour. of Institute of Muslim Minority Affairs,** Vol. (2), PP. 75-85.
5. Constantine, J., 1955, **Hands Across the Curtain,** New Republic, No. 9, p. 7.
6. Crary, D.D., 1951, "Recent Agricultural Developments in Saudi Arabia", **Geogr. Rev.,** Vol. 41 (3), pp. 366-383.

Ghafur, A.S., 1953, "From America to Mecca on Airborne Pilgrimage", **Nat. Geogr. Mag.,** Vol. 104 (1), pp. 1-60.

8. King, R., 1972, "The Pilgrimage to Mecca: Some Geog-

raphical and Historical Aspects", **Erdkunde,** Vol. 26 (1), pp. 61-73.

9. Lewis, B., et al, (eds.), 1965, **The Encyclopaedia of Islam,** Vol. 3, Fas. 41-42, Leiden,
10. Linbeck, J.M., 1950, "Communism, Islam and Nationalism in China", **Review of Politics,** No. 10, pp. 473-488.
11. Ma Chien, 1953, "How Muslims live in China", **China Reconstructions,** 2 (March-April), pp. 13-15.
12. Mecci, M.S., 1979, **An Analysis of the Effects of Modern Pilgrimage on the Urban Geography of Medina, Ph. D. Thesis, Dept. of Geography, Durham.**
13. **Prothero, R., 1965, Migrant and Malaria,** Longmans, London.
14. Rutter, E., 1929, "The Muslim Pilgrimage", **Geogr. Jour.,** Vol. 74 (3), PP. 271-273.
15. Rutter, O., 1937, **Triumphant Pilgrimage,** Lippincott, London.
16. Shair, I.M., & Karan, P.P. 1979, "Geography of the Islamic Pilgrimage", **Geojournal,** Vol. 3 (6), pp.599-608.
17. Spector, I., 1959, **The soviet union and the Muslim World,** 1917-1958, University of Washington press, seattle.
18. Walpole, N.C. et ál, 1971, **Area Handbook for Saudi Arabia,** The American University, Washington D.C.
19. The World Bank, 1979-1984, **World Development Report, Oxford University, Press, Oxford.**

لمحة تاريخية

بطولة وفداء في مَيَّافارِقين

٦٥٦ - ٦٥٨ هـ

١٢٥٨ - ١٢٦٠ م

مقدمـــه

نظرة تاريخية خاطفة على أوضاع المنطقة المجاوره عشية أخذ المغول مَيَّافَارقين ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م.

د. سَعد بن محمد حذيفة الغامدي

جاء المغول من قلب منغوليا إلى العالم الاسلامي في أواخر العقد الثاني من القرن السابع الهجري.

الثالث عشر ميلادي؛ وذلك عندما قاد جنكيز خان سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م جحافلهم ضد الأقطار الاسلامية الشرقية[١]. وما إن شارف هذا العقد على النهاية حتى أضحت امبراطورية المغول جارة لمن تبقى من الدويلات الإسلامية في الغرب، كالخلافة العباسية في بغداد، وأتا بكيات الموصل وأربل، والإمارات الأيوبية في شمال الجزيرة وأرمينيا، والسلاجقة في آسيا الصغرى وارزن الروم؛ تلك الدويلات التي كانت الحروب الأهلية فيما بينها، شغل حكامها الشاغل، على

الـرغم من شعورهم بقـرب نهـايتهم، واحـداً بعد الآخـر، عـلى أيـدي هـذا الجـار الجديـد، فما إن رجـع جنكيـز خان، في خريف عام ٦١٩هـ/ ٢٢م من المنطقة الاسلامية إلى وطنه منغوليا، بعد حملته البركانية التي دمرت كـل شيء تقـريبـاً، حتى أصبحت الأراضي الإسلامية الممتدة من همدان وأقـاليم فارس، وكرمان، وأذربيجان في الغـرب حتى نهر سيحون في الشرق، ومن قمم جبـال القوقـاس وشمال بحـر قزوين شمـالاً إلى نهر السنـد جنوبـاً، كلهـا أمست جزءًا من أراضي الخان المغولي في «قراقروم»[٢] وقد سبق لنا في بحث حول هذا الموضوع أن ناقشناه بنوع من التفصيل[٣].

أما فيما يتعلق بأسباب الغزو المغولي للعـالم الاسـلامـي، ومـا ذهب اليـه المؤرخـون المعـاصرون لتلـك الأحـداث، والمحدثون من مؤرخي عصرنـا الحاضر، حول هذه المسألة بـالذات، فقـد تناولت ذلـك، وأبديت رأيي الشخصي، مستنـداً عـلى وثـائـق ومجـريـات الأحـداث التاريخية، في كتـاب لنا منشـور الآن[٤] أمـا مـا يتعلق بـالموقف المدهش، بـل المـذهل، والغـير متـوقـع، الـذي اتسم بـالجبـن والخـور، من قبـل سلطـان الإسـلام محمد خـوارزمشـاه (٥٩٦ ـ ٦١٧ هـ / ١١٩٩ ـ ١٢١٩ م) عنـدما هـرب أمام المغـول، رغم انه لم يقـابـل جنكيـز خـان قط في مصـادمـة، هـذا التصرف المخـزى والمشـين من قبـل من كـان يعتبر من أقـوى السلاطـين الذين عـرفهم التاريـخ الإسلامي، لا من حيث إعداد جيوشـه، ولا من حيث إمكانـاته المادية واتساع رقعة أراضية،هذا الفعل المنكر، اسبابه ونتائجه تطرقنا إليه بنوع من الإسهاب في كتابنا الآنف الذكر[٥].

عندما رجع جنكيز خان إلى بلده، بعد أن خلـف وراءه الأراضي الإسـلاميـة، وخاصة خـراسان واقليم مـاوراء النهر، وهي شبه أكوام من الـدمار جاء جلال الـديـن بـن خـوارزمشـاه (٦٢١ ـ ٦٢٨ هـ / ١٢٢٤ م) إلى الـغـرب من ممتلكات والده، وحاول أن يقيم له دولـة على أنقاض مـا خلفه المغـول، إلا أنه لم يوفق في جهوده تلك، لأسباب كثيرة، لعل من أهمها وأبرزهـا دخولـه مع الأمـراء والحكـام المسلمـين المجـاورين لـه، في تحزبات سياسية، وتكتـلات عسكريـة، وأحلاف معينة، مع البعض ضد البعض الآخـر؛ الأمر الـذي نتج عنـه صراعات دامية، وحروب فتاكة بين أولئك الحكـام

المسلمين في المنطقة لم تنته فيما بينهم إلا بعد أن جاء المغول، فأنهوا حكم الجميع، وقوضوا عروشهم العاجية، وصَفّوهم بشكل نهائي؛ فأدخلوا أراضيهم ضمن الممتلكات المغولية، على أيدي قائدين من كبار قوادهم(٦) وقد سبق لنا دراسة ذلك في كتابنا السابق أيضاً(٧)

ولكن إعصار المغول المدمر الثاني جاء في أوائل العقد الأول من النصف الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، عندما قاد جحافلهم الجرارة حفيد جنكيز خان، هولا كوبن تولي بن جنكيز خان، وذلك في حملتهم المشهورة ضد الأقطار العربية، فاستنزل الإسماعيليين من قمم جبالهم في إيران؛ وتقدم غرباً وقضى على اللور والأكراد في حصونهم العالية على جبال زاجروس؛ ثم سار إلى بغداد، فقوض عرش الخلافة العباسية، وقضى على آخر خلفاء بني العباس(٨) ثم بعد ذلك شرع في إنهاء المرحلة الأخيرة من حملته، وهي الاستيلاء على بلاد الشام ومصر.

جاء هولاكو إلى المنطقة لينفذ أوامر الخان الصادرة اليه، بعد اجتماع عام في عاصمة المغول؛ تلك الأوامر التي تنص على أن يتوجه إلى الغرب، ويفتح الأراضي فيها حتى حدود مصر الغربية(٩) وقد سارت هذه الحملة، دون أن تلقى صعوبة في انجاز مهامها، سواء في المرحلة الأولى (ضد قلاع الإسماعيليين في ايران) أو الثانية (ضد الخليفة في بغداد) أما في آخر مرحلة لها، وهي الثالثة، فقد تعثرت منذ بدايتها، وذلك لظروف داخلية، بصفة أساسية، تتعلق بوفاة الخان المغولي في الشرق(١٠). هذا من جهة، ومن ناحية أخرى فقد ظهرت علامات المقاومة لتلك الحملة منذ البداية، بل وقبل الاستعداد والسير لتنفيذها؛ عندما أعلن حاكم مسلم واحد في الغرب عداءه وتصديه للمغول، وقرر صادقاً على أن يقف في وجه هولاكو، ويتحدى قواته الضاربة، التى جاءت من الشرق، وكأنها إعصار من نار تحرق كل شيء ذلك الحاكم هو محمد الكامل، ملك «مَيّافارِقين». ولقد استطاع هذا الرجل أن يقف، ومعه أهل مدينته من خلفه، في وجه جحافل المغول وأتباعهم من المسلمين وغيرهم، قرابة سنتين، وهو يقاتلهم حتى الرمق الأخير، فقضى نحبه شهيداً، فخلد التاريخ ذكره، كواحد من شهداء المسلمين. وهنا أقول : « **انه إن كانت هناك وقفة شجاعة من قبل حكومة المماليك في**

مصر، وما تلا ذلك من بطولات في «عين جالوت» فأعقبها ذلك الانتصار الذي تردده الأجيال منذئذٍ، فقد وضع محمد الكامل من «ميافارقين» حجر الأساس لذلك الانتصار الكبير في عين جالوت. لأن موقفه المتحدي لقوات هولاكو، رغم صغر حجم مدينته، والقلة المتناهية لإمكاناته القتالية، من الرجال والعتاد، إذا ماقورنت بما لدى خصومه، جعل المماليك في مصر يقدمون على اتخاذ عين الموقف، وهو النزال للخصوم، والوقوف أمام هولاكو لرد عاديته؛ وشجعهم على نبذ الاسطورة التي تقول بأن المغول قوم لا يمكن الوقوف امامهم أو ينال نصر عليهم(١١).

بعد أن اجتاحت قوات هولاكو بغداد، وقُتل خليفتُها المستعصم، أضحت ممتلكات الدولة العباسية جزءًا من أملاك الخان في قلب منغوليا؛ وأمست امبراطوريته يحدها من الجنوب الغربي نهر الفرات. ولم يبق على هولاكو الا الشام (وقد نجح نجاحاً منقطع النظير في احتلال أراضيه) ومصر؛ ولولا وفاة اخيه منكو، لكانت الكارثة حقاً «ولكن الله سَلَّمَ». وقد سار هولاكو من اقليم أذربيجان متجهاً لتنفيذ آخر مرحلة في حملة المغول الغربية، بعد راحة دامت أكثر من سنة ونصف؛ فاجتاحت قواته شمال الجزيرة؛ إلا أنها تعثرت في «ميافارقين» وتكبدت خسائر كبيرة قبل أخذ المدينة. «ولولا الجوع لم يتمكن المغول من أخذها»(١٢).

«حصار وسقوط «مَيّافَارِقِين» على أيدي المغول وأتباعهم

جاء في الروايات التاريخية والمعاجم الجغرافية التى تسنىٰ لنا الرجوع اليها، أن مدينة «مَيَّافَارِقِين» كانت إحدى المدن التاريخية القديمة الواقعة في شمال العراق؛ حتى أن تاريخها ليبدأ من قبل ميلاد المسيح عيسى بن مريم « عليه وعلى نبينا أفضل الصلوات والتسليم »، وهي مدينة كانت محاطة بحائط رفيع البناء، وهو مبني من الصخور، وبها قلعتان حصينتان يقول عنها في هذه الفترة المؤرخ المعاصر لها ابن الأثير بأنها: «قلعة حصينة منيعة من حصون الروم القديمة»(١٣). ويقول عنها صاحب مصنف «نزهة القلوب» بأنها من ديار ربيعة، وتقع في الإقليم الرابع ....، وأنها مدينة كبيرة، ذات مناخ جيد، وبها فواكة كثيرة»(١٤). أما

صاحب كتاب «حدود العالم» فيذكر أنها مدينة تقع على الحدود بين أرمينيا والجزيرة والروم[١٥]. اما اسمها في الأوساط الغير اسلامية، فقد ورد عن الكتب السريانية واليونانية، بأن مدينة «مَيَّافَارِقِين» تسمى باللغة الأرمنية «نيفوكارد Nephugard» أما في اللغة السريانية فتسمى «ميفركت Maifarkat»[١٦]. كما تعرف في الأوساط الغربية المسيحية بـ «مارتير بوليس Martyrpolis» اي مدينة الشهداء[١٧].

كان يحكم هذه المدينة وتوابعها الملك الأيوبي محمد الكامل بن شهاب الدين غازي بن الملك العادل[١٨] وعلى الرغم من انه كان قد أعلن نوعاً من الولاء للمغول، في بادىء أمرهم، إلا أنه عندما حزب الأمر، وجاءوا ليقضوا على الخلافة العباسية، نبذ الولاء لهم، وجيش كتيبة عسكرية ارسلها نجدة للخلافة في بغداد؛ ولكن المغول وأتباعهم كانوا أسرع في إنهاء مسألة احتلال بغداد؛ فرجعت كتيبته من مكان يعرف بـ «بشيرية»[١٩]. ثم بعد ذلك قَتَلَ شحانى المغول الذين عنده، واستعد لمنازلة المغول، وآلى على نفسه بألا يأخذ المغولُ مدينته بتلك السهولة التي أخذوا بها بغداد.

على الرغم من أن مصادر مادتنا التاريخية في هذا الموضوع قد أخفقت في ذكر التاريخ الذي بدأت القوات المغولية قتالها وحصارها لأهل «مَيَّافَارِقِين»، إلا أن جميع القرائن والأحداث التاريخية تدل على أن ذلك ربما كان في أشهر النصف الثاني من عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م؛ فقد كان على رأس هذه القوات أحد قادة هولاكو، ويدعى «إيلكا نويان». الذي يبدو لنا أن قوات هذا القائد كانت طلائعية لقوات لحقت بها فيما بعد، وعلى قيادتها ابن هولاكو نفسه

لم تستطع هذه الكتيبة المغولية أن تنال من أهل المدينة، أو أن تحرز أي تقدم في عملياتها العسكرية؛ بل على العكس من ذلك فقد سيطر أهل المدينة على الموقف، اذا ما صدقنا رواية، في هذا الشأن أوردها لنا المؤرخ الشامي المعاصر لتلك الأحداث، أبو شامه، حيث يقول: « ....، وفتك فيهم صاحب ميافارقين الكامل بن شهاب الدين غازى بن العادل أيده الله بنصره لما حاصرها...»[٢٠] وقد استمرت هذا الكتيبة المغولية في حصارها لمحمد الكامل، الذي كانت كفته هي الراجحة

عليهم، حتى جاءت قوة إضافية من المغول وأتباعهم من المسلمين، كبدر الدين لؤلؤ[٢١].

كما تبع ذلك نقصان في المواد التموينية لدى أهل المدينة، وأخذت الأمراض تنتشر بينهم، حتى الاشهر الأخيرة من عام ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م. وهنا نجد هولاكو يفرد كتائب عسكرية أخرى، تعزيزية، ويرسلها لتلحق بقوات «إيلكا نويان» وهو في طريقه على رأس قواته الباقية التي سار بها إلى الشام[٢٢].

جاءت تلك القوات المغولية الجديدة يقودها «يَشْمُوت بن هولاكو» وقائد آخر، من كبار قادتهم هو «سُونْتَاي نُويَّان». لما قرب «يشموت» وزميله من «ميافارقين» سلك نفس الطريق الذي يلجه المغول، بوسائلهم وأساليبهم الملتوية، لا ستنزال خصومهم من معاقلهم المنيعة؛ فقد أرسل رسلاً إلى محمد الكامل يدعونه إلى السمع والطاعة والاستسلام لهم، ووعده الأمن والسلام. وهنا يورد لنا رشيد الدين نص إجابة هذا الأمير الأيوبي فيقول: « ينبغي على الأمير ألا يضرب في حديد بارد، وألاَّ يتوقع شيئاً مستحيلاً، لأنه لا يوثق بوعدكم، فإنني لن أنخدع بكلامكم الرقيق، ولن أهاب جيش المغول، وسأقاتل بالسيف مادامت لي نفس حية، فإنه لا يوثق بابن رجل غادر بوعده وميثاقه مع خورشاه[٢٣] والخليفة[٢٤] وحسام الدين بن عكا[٢٥] وتاج الدين (والي) أربيل[٢٦] خاصة وأن الملك ناصر الدين قد جاءكم بأمانكم فلقي في نهاية الأمر ما لقي[٢٧]، «واذا انخدعت بكلامكم» فإنني سوف ألقى مالقوه»[٢٨].

هكذا، أوضح محمد الكامل موقفه من المغول فإنْ هم أرادوا أخذ بلدته فلن يأخدونها بسهولة ويسر، بوعود واهية كاذبة خادعة، كما أخذت قلعة خورشاه، وقلاع حسام الدين في عكا، ومدينة بغداد؛ بل عليهم أن يقاتلوه لاخذها، فيكون منهم ضحايا. فأخذ يتأهب لهم؛ وهنا يقول ابن العبرى: « ... ، وبينما هو كذلك أدركته عساكر المغول وأحاطت بمدينته وفي رأس العسكر يشموت بن هولاكو. وفي يوم وليلة بنى المغول حول مدينته سوراً وحفروا خندقاً عميقاً ثم نصبوا عليها المنجنيقات، وابتدأوا بالقتال، وقاتلوا قتالاً شديداً من الجانبين»[٢٩].

استطاع هذا الأمير الأيوبي أن يقف في وجه المغول لمدة تزيد على سنة ونصف؛ كبدهم خسائر كبيرة، كان على رأس القتلى قائد كبير برتبة «نويان»(٣٠) ولعلنا نتساءل عن سبب صمود أهل المدينة الطويل ذلك، وما ألحقوه من خسائر في صفوف القوات الغازية ؟ ربما نجد الإجابة على هذا السؤال في بعض النقاط، لعل من أهمها :-

أولاً : صدق أمير المدينة في حربه ضد غزاة الأهل والوطن؛ وحبه أن ينال الشهادة، والشهادة فقط، لأنه لم يكن يأمل - على ما أظن - أن يحرز نصراً على المغول بمفرده؛ لأن هذا الأمل يعني قلب النظريات العسكرية في بديهيات الأمور. فلا أعتقد بأن أحداً يظن بأن جمهورية منغوليا الحالية في مقدروها أن تحرز النصر العسكري على جمهوريات روسيا السوفيتية، في حالة قيام حرب معها، في هذا التاريخ من القرن الخامس عشر هـ / أواخر العشرين م. فلم يكن في استطاعة ذلك الأمير الأيوبي وحده أن يهزم امبراطورية المغول الواسعة الارجاء، وبما كان تحت يدها من إمكانات، وعدة الحرب وعتاده، ولو قلنا إنه كان يهدف من وراء وقفته الشجاعة تلك هزيمة هولاكو لا تهمنا انفسنا واتهمناه بالمكابرة. فقد كان خير من عرف المغول، وخبر قوتهم وكيف حطموا عروش ملوك قبله وقوضوا ممالك ودولا، بل امبراطوريات، قبل أن يصلوا إلى مدينته الصغيرة، إذن كان يقاتلهم، هو ومن معه قتال من يسعى وراء الشهادة فقط؛ فقد كان يقول : « سأضرب بالسيف مادام فيّ رمق ينبض بالحياة»(٤١).

ثانياً : الوقفة الفذة التي وقفها إلى جانبه مواطنوه؛ فلم يكن ذلك الموقف ليدعو إلى الدهشة، فالقتال حمية للدين، ودفاعاً عن الأهل والنفس والوطن من أهم أسباب وقوفهم خلف أميرهم كيف لا ! وهو خير من يقف امرؤ خلفه فلم يبخل عليهم بماله، ولا بغذائه، أو بلباسه، أو بما تحويه مخازن مدينته؛ وقد أعلنها قائلاً : «إنني لن أبخل عليكم بما أملكه في المخازن من الذهب والفضة والغلال، فسوف أبذلها جميعاً في وجوهها وأُوثر بها المحتاجين. فإنني بحمد الله لست كالمستعصم عبداً للدرهم والدينار، حيث اطاح برأسه، وفقد مُلْكَ بغداد بسبب بخله وامساكه»(٣٢). وهنا أرى من الأنسب

إيراد أمثلة، أوردتها مصادرنا التاريخية نستدل بها على موقف أهل المدينة الذي اتسم بالبطولة النادرة، والشجاعة الفذة، وعلى قمة المدافعين بطلان عظيمان هما : عنبر الحبشي ورفيقه في الكفاح والمصير سيف الدين لوكبلي(٣٣). استبسل الرجلان وجاهدا في الله حق الجهاد؛ حيث تقول مصادرنا إن هذين البطلين كانا يخرجان من المدينة فيجالدا المغول، فيفتكان بهم، وفي كل مرة تبلغ ضحاياهما مايقارب عشرة من فرسان الأعداء، ففي اليوم الرابع في الحصاد، كانت ضحيتهما قائداً كبيراً هو «ناوري الكرجي» عندما خرج ليأخذ بثأر زملائه ممن سبقه إلى حتفه، فألحقاه بهم(٣٤) وما إن يرجعا إلى المدينة حتى يستأنفا قتال الأعداء، مع إخوانهم سكان المدينة من خلال أبراجها.

ثالثاً : حصانة المدينة ومناعتها؛ فقد كانت «ميافارقين» تتمتع بموقع حصين، وتحصينات عالية، الأمر الذي جعل أمر الدفاع عنها شيئاً ميسوراً بحيث يستطيع المدافعون عنها أن يقاموا العدو مهما طال بهم الزمن، متى توفر عندهم الغذاء والماء. وسنجد أن المدافعين لم يستسلموا إلّا عندما نفذ هذان العنصران من المدينة؛ فقد كانت المدينة يدافع أهلها عنها بمنجنيق واحد تقريباً، أقيم وأحكم بناؤه. فكان يهلك بحجارته أناساً كثيرين، مما أعجز العدو قهر المدينة؛ فوقفوا حيارى لا يدرون ماذا يفعلون.

أخذ العدو يفكر فيما يفْعَل أمام هذه المشكلة، فهداهم تفكيرهم إلى رجل مسلم من أتباعهم؛ كان ذلك هو الملك بدر الدين لؤلؤ، حاكم الموصل. كان لهذا التابع المسلم مواقف تدل على الإخلاص لأسياده المغول(٣٦) لم يتورع هذا الشيخ المسن، وقد بلغ ستاً وتسعين سنة من العمر، عن المساهمة مع المغول في المذابح التي ارتكبوها ضد إخوانه المسلمين حتى وإن كانت مشاركة ضد محمد الكامل، الذي قال عنه المؤرخون بأنه قد إشتهر بالصلاح والتقوى والزهد والتعبد والعيش من كسب يده. أرسل بدر الدين رجلاً ماهراً كان لديه، في عمل المنجنيقات وبشكل متقن. أقام ذلك الرجل الماهر منجنيقاً على مرتفع عالٍ، في مقابل منجنيق أهل المدينة؛ وبناه بإتقان ودقة متناهية، فكان من دقته أنه اذا أطلق أهل المدينة

قـذيفـة منجنيقهم أطلقت قـذيفـة منـه فتصطدم القذيفتـان في الهواء، فـأذهل النـاس من مهارة القـائمين عـلى هـذين المنجنيقين. وفي النهاية استطاع سكـان المدينة أن يسكتـوا سلاح عـدوهم، فقد التهمته النيران، وربما بقذيفة من النفط الملتهب، وقعت عليـه فـأحـرقتـه، أو أن أهل المدينة قاموا بهجوم ليلي، فأحـرقوه فأسقط في أيدي الأعداء[٣٧].

كان هولاكو قد عـاد من الشام، بعـد اجتياحه لأراضيها في طريقه إلى الشرق، بعـد أن وصلته أنبـاء وفـاة أخيـه[٣٨]. ويبدو لنا أن هذا الأمير المغولي قد أُبْلِـغَ بـأن ابنه لم يفلـح في مهمته العسكـرية ضد «ميافارقين»؛ فأرسل جيشاً تعزيـزاً يقوده «أرفتو نويان»[٣٩] وكـانت أوامره اليه بأن يمتنـع عن قتال أهـل المدينـة، لئلا يعرض جنده لخطر الموت، كما فُعِـلَ بمن سبق، إذ رأى هـولاكـو بـأنـه من المستحيل أن تؤخذ المدينة عنـوة، وهذا بعكس ماأورده مصنف كتاب «الحوادث الجامعة»[٤٠] فكانت الأوامر تقضي بـأن يحاصروا أهل المدينة من جميع جهاتها، وليمنعـوا دخول أي شيء إليهـا أو منها، حتى يموت أهلها وتنفق دوابهم، بعد أن تنفذ التموينات؛ بهذه الوسيلة الـوحيدة البـاقية لـدى المغـول، لإخضـاع أهـل «ميافارقين»[٤١].

يبـدو لنا أن يشمـوت بن هولاكـو لم يعد القائد المباشر لحصار هذه المـدينة، فقد ذكرت مصادرنا بأن «أرقتو نـويان» أُرْسِلَ لمساعدة القائـد الأول الذي قـاد طـلائع قـواتهم، «إيلكا نـويـان» ولعـل الأمير المغولي وجد من المستحيل اجتياح المدينة بـالقوة، فتـرك «ايلكا» محـاصراً لها، وذهب هنا أو هناك، ولكنه غير بعيد، فـاستُـدِعـيِ عنـدمـا استسلمـت المدينة.[٤٢].

استسلام «ميافارقين»

بعـد حصـار دام لأكثـر من سنـة ونصف، نفـذت المؤن والـذخـائـر، وأعلاف الدواب من المدينة؛ وأصبـح الناس فيها يقتـاتون عـلى كل مـا يقع تحت أيديهم، ومن أي شيء كان. دبت المجاعة إلى المدينة، من جراء الحصار الطـويـل؛ فـأكلـوا الميتـة، والـدم، والقطط، والكلاب، والفئران؛ بـل لقد أجبـرهم الجوع المـرعب والمجـاعـة المهلكـة إلى أن يقتـاتـوا عـلى لحـوم الآدميـين. أصبحت الأم تأكـل ابنها، والأب يأكل ولده، وبالعكس، الابنـاء

يأكلون الآباء والأمهات[٤٣]

ونتيجة حتمية لذلك، استشرى المرض بين الناس، فدب الموت إلى مدينة الكامل محمد، بعد أن خيمت الأوبئية على سمائهم، فلم يكن لساكني «ميافارقين» نجاة من المحتوم؛ فماتوا فوجا بعد فوج، في الطرقات، في الحوانيت، في البيوتات وفي كل مكان، « ...، لأنهم هلكوا جوعاً وماتوا. ولولا ذلك لم يتمكن المغول من أخذها ..»[٤٤].

أما ما يتعلق بهذين الفارسين، فقد قتلا جواديهما، بعد أن نفذت الأعلاف، فاقتاتا مع أصحابهما على لحم الجوادين. وقد قررا الخروج لقتال العدو حتى يستشهدا، إلا أن الكامل محمد منعهما من ذلك. وهنا أرسل بعض من الأفراد الباقين، بشكل سري كما يبدو لنا، وهم أحياء شبه أموات، إلى الأمير المغولي برسالة يطلبون الأمان ويقولون، له: «...... إنه لم يعد في المدينة أحد قادر على القتال، فلم يبق سوى عدة أفرادهُم بأرواحهم أحياء وبأجسادهم أموات، فلو قدم جيش الآن فليس هناك مخلوق قادر على النهوض لمجابهته»[٤٥].

أرسل يشموت رسولاً من عنده، هو القائد «أرقتو نويان» نفسه، ليتأكد من صحة تلك الرسالة، وليستطلع الأخبار عن كثب. دخل «ارقتو» بجنده المدينة، وفعلاً لم يجد فيها من يقوى على النهوض لقتاله؛ فمن كانت له قدرة على الحركة هرب ليبحث عن ملجأ أو مغارة أو سرداب، لينجو من سيف المغول، وأتباعهم من المسلمين أمثال بدر الدين لؤلؤ؛ ولكن أين المفر، فلم يعد هناك مفر لهارب. جاء «ارقتو» وجنده، فأتوا على البقية الباقية. اما الفارسان المسلمان، فقد خرجا لقتال المغول، ففتكا بهم فتكاً، ولكن تكاثرت عليهما جيوش الغزاة، فصعدا على سطح أحد المنازل وشرعا يرشقان العدو بسهامهما ثم نزلا يجالدانهم بسيفيهما، فتكسرت النصال، فانهال عليهما المغول، فقتلوهما شهيدين، «يرحمهما الله، ويرحم شهداء» «ميافارقين».

وهكذا استباح المغول الغزاه هذه المدينة، بعد حصار طويل، عانى أهلها معاناة، فوق طاقة البشر، وقاسوا الشدائد حتى استشهدوا جميعاً. يقول. أبو الفدا « ... ، وفي سنة ٦٥٨ (هـ / ١٢٦٠ م) استولى التتر (يعني هنا بالطبع المغول) على ميافارقين، واستمر

الحصار عليهم مدة سنتين حتى فنيت أزوادهم وفني أهلها بالوباء والقتل وصاحبها الملك الكامل محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب مصابراً وثابتاً وضعف من عنده عن القتال ...»[٤٦] وقال أبو شامة بأن الكامل محمد صبر على مجاهدتهم أكثر من سنة ونصف[٤٧]. وحول هذا الموضوع يذكر رشيد الدين، بأنه عندما دخل المغول المدينة وجدوا كافة أهلها موتى، وقد سقطت جثثهم وتراكم بعضها فوق بعض، ماعدا سبعين شخصاً كانوا نصف أموات وقد اختفوا في المنازل ... »[٤٨].

مصير محمد الكامل

ملك «ميافارقين»

قبض المغول على الملك محمد، على أثر استسلام المدينة، وعلى أخيه[٤٩]. وقد أخذا وأحضرا إلى يشموت، فأرسلهما بدوره إلى والده، الذي كان مقيماً في مكان يعرف بـ «تل باشر» على نهر الفرات[٥٠] وهنا تذكر بعض مصادر مابدتنا أن هولاكو أمر بمحمد الكامل «لِيُقَطَّع إرباً إرباً؛ فكانوا يقطعون اللحم منه قطعة قطعة ويضعونها في فيه حتى مات في سنة ٦٥٧ » (هـ / ١٢٥٩)[٥١]. الا أن ابن العبرى لم يذكر هذه الميتة الشنيعة، أو ذاك التمثيل في أبشع صوره، بل اكتفى بالقول بأنهم قتلوا «الاشرف صاحبها وبعد ذلك ندم هولاكو على قتله»[٥٢].

ولعل الذي يهمنا هنا هو : لماذا ندم هولاكو على قتل هذا الأمير الأيوبي المجاهد ؟ ربما كان هولاكو يأمل بأن يستعين بكل أمير أو مسئول يقع تحت يده لخدمة أغراضه، وخاصة فيما يتعلق بفتوحاته المستقبلية الباقية من مهمته في حملة المغول الغربية هذه، وهي أراضي مصر. كما أن هذا الفعل لم يخدم أية مصلحة للمغول، على الأقل في وقت مثل هذا، حيث لم تنقشع تلك الغمامة السوداء، التي أمست تخيم على سماء العلاقات السائدة بين أحفاد جنكيز خان، مؤسس دولتهم وباني مجدهم؛ فلم يكن قد تم تعيين خان جديد ليعتلى عرش المغول، وأمتهم ومن يستبسل في الدفاع عنهم، لخدمة أغراض المغول لإخضاع ما تبقى من أراض تقع ضمن مخططهم المستقبلي القريب.

لقد شعر هولاكو بأنه قد تسرع

عندما حكم على هذا الأمير الأيوبي بالقتل، وإن كان مصيره القتل، في أغلب الظن، كما حصل للناصر يوسف، صاحب الشام، وكبير بني أيوب(٥٣).

ولعل السبب في تسرع هولاكو ماكان يغلي في صدره من حنق وغيظ على الكامل، وذلك لما ألحقه من خسائر كبيرة في صفوف قواته، طوال سنتي الحصار؛ فندم بعد أن هدأت ثائرته، ولكن أنّى للندم من جدوى. لذلك نجده يصطنع أحد رجال محمد الكبار، ويدعى عبد الله، وينصبه خلفاً لسيده ليحكم «ميافارقين» تحت المظلة المغولية. اما الشهيد محمد، فقد قطع رأسه، وأخذ إلى مدن الشام، ليطاف به هناك. وحول هذا الموضوع يذكر أبو الفداء قائلاً : « ...، فاستولى التتر (وهو يقصد هنا بكل تأكيد المغول) عليها وقتلوا صاحبها الملك الكامل المذكور وحملوا رأسه على رمح وطيف به في البلاد ومروا به على حلب وحماة ووصلوا به إلى دمشق ...»(٥٤).

لم يكن المغول وأتباعهم من المسلمين وحدهم الذين تباهوا بمقتل رجل مجاهد، والتطواف برأسه في المدن الرئيسية في الشام، فقد كان هناك العدو اللدود الأول للمسلمين والاسلام الذي خضع وخنع لسلطان المغول، وتذلل لعبودتيه، ذلك العدو : هم الصليبيون؛ قاموا بدور فعال في حملة المغول، وعلى رأسهم «بو همند الرابع» ملك انطاكية. والملك «حايقوم» ملك أرمينيا، ناهيك عن الجرجانيين (الكرج) الذين كان لهم دور كبير في هذا الشأن.(٥٥) فقد قاموا بحمل رأس ذلك الشهيد والتجوّل به في الحارات والشوارع، في تلك المدن الشامية، ومنها مدينة دمشق، وهم يغنون ويضربون الطبول. وبعد أن شفيت فيهم الروح الصليبية الحاقدة للانتقام من المسلمين، نجدهم يعلقون رأس ذلك الأمير الشهيد داخل شبكة على أحد أسوار أبواب دمشق. وهنا يذكر أبو شامة، وهو ممن عاصر هذه الأحداث، وشاهد أحداثها، وممن رأى ذلك الرأس، مانصه : « وفي يوم الاثنين ٢٧ جماد الأول(٥٦) طيف بدمشق برأس مقطوع مرفوع على رمح قصير معلق بشعره فوق قطعة شبكة زعموا أنه رأس الكامل محمد بن شهاب الدين غازى بن العادل صاحب ميافارقين الذي دام التاتار (يعني المغول) على حصاره أكثر من سنة ونصف ولم يزل ظاهراً عليهم إلى أن فني أهل البلد فوجد مع من بقى

من أصحابه موتى أو مرضى، فقطع رأسه وحمل إلى البلاد فطيف به بدمشق ثم علق على باب الفراديس الخارج ...»[٥٧].

ظل الرأس معلقاً حتى عادت دمشق إلى سلطة المسلمين، على أيدى المماليك، بعد معركة عين جالوت: فأُخِذَ الرأس ودفن في مكان يعرف بمشهد الحسين في مسجد الرأس، داخل باب الفراديس، إلى الجهة الشرقية من المحراب في أصل الجدار، وإلى الجهة الغربية من المحراب طاقة يقال إن رأس الحسين بن علي (رضي الله عنهما) قد دفن فيها[٥٨].

اتفقت جميع مصادرنا الإسلامية، فارسية وعربية، تقريباً على أن هذا الرجل الشهيد، إن شاء الله، كان من الحكام الصالحين، وأنه كان زاهداً، وعابداً، بل وفوق ذلك كله أنه كان يعيش من تعبه وشغل يديه، فقد ذكرت تلك المصادر أنه كان يعيش على الخبز ومن أجر الحياكة[٥٩].

رحم الله ذلك البطل المظفر الشهيد، ورحم الله شهداء «ميافارقين» الذين ضربوا المثل في التحدى والصمود أمام جحافل البغي والعدوان.

قائمة الهوامش والتعليقات

(١) ولد جنكيز خان في أوائل النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، ربما في سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٥ م، واسمه «تيموچين». لمعلومات عن هذا الخان المغولي، راجع مؤرخ المغول الأول، رشيد الدين «جامع التواريخ» جـ ١ / ٢٣٣ «لمعلومات وافية عن هذا المصدر، انظر قائمة المصادر رقم (٨). وكذلك انظر الحواشي الواردة في كتابنا «سقوط الدولة العباسية» لمعلومات عن هذا المرجع انظر قائمة المراجع رقم (٢١) ص . ص : ٥٧ ـ ٥٨ ».

(٢) كلمة «قراقروم» تعني «الحجارة السوداء» وهي عاصمة الدولة المغولية التي أسسها جنكيز خان.

(٣) لمعومات أكثر تفصيلاً، أنظر كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ص . ص : ١٠٩ ـ ١٣٨.

(٤) حول هذا الموضوع، وما اورده المؤرخون في هذا الصدد، راجع ما قلناه، ورأينا في ذلك، في كتابنا «أوضاع الدول الإسلامية في الشرق الاسلامي»، ص . ص : ٢٣٧ ـ ٢٧٣.
«لمعلومات وافية عن هذا المرجع انظر قائمة المراجع رقم (٢٢) ».

(٥) راجع التفاصيل في مؤلفنا المذكور في الحاشية السابقة، ص . ص : ٢٧٥ ـ ٣٠٤.

(٦) كل ما يتعلق بالقائدين المغوليين « تشر ماغون تويان أو جرماغون

نــويــان» وزميلــه «بــايجــو نــويــان» وعمليــاتهما العسكــريــة ضــد الأراضي الإسلامية في جنــوب غرب أسيــا، يمكن الرجوع إلى كتابنا المذكور في الحــاشية رقــم (١)، ص . ص : ٢٩٩ ـ ٣٠٣، ص . ص : ٣٦٠ ـ ٣٦٨ . وفي مصنفنا المــذكــور في الحــاشيــة رقــم (٤)، ص . ص : ٣٥٨ ـ ٣٦١.

(٧) يمكن مراجعة ذلك بالتفصيل في كتابينــا الســابقين، وفي فصــول مختلفــة منهــا، ويــدلك أيهــا البــاحث الكــريم عنــوان الفصــل في محتــويــات كــل واحــد من الكتابين المذكورين.

(٨) كــل شيء يتعلق بحملة المغــول الغربيــة هــذه، ومــا جــرى فيهــا من أحــداث سياسية وعسكرية، ومــدى مساهمــات حكــام مسلمين فيهــا، وكيف قضت على ركن الدين خورشاه، اخر حكــام طائفــة الإسماعيليين؛ ثم دخول المغول بغــداد، كل ذلك ذكرناه في كتابنا «سقوط الدولــة العبــاسيــة» في الفصلــين الــرابــع، والخــامس، أي في الصفحــات من ٢٤٥ إلى ٣٨٠.

(٩) اجتمع المجلس الأعلى للمغول، برئــاسة الخــان منكــو نفســه، وهــو مــا يُــدْعَىٰ بــ «قــوريلتاى» عقب انتخــابه وتعيينــه كــ «قــاآن» جــديــد للمغــول، وقــرر أن يرسل المغــول حملتين عسكــريتين لهم، شرقيــة وغــربيــة، وذلــك في عــام ٦٤٩ هــ / ١٢٥١ م؛ فــأخــذ قيــادة حملة الشرق، واسند الى اخيــه الاصغر منــه، هــولاكــو بمهمــة قيــادة الحملــة الغربية، وأوصاه بعدة أشياء. لمعلومات وافيــة عن هذا الاجتمــاع، وعن فحوى وصــاياه لاخيــه أنظر، كتــابنا «سقــوط الــدولة العبــاسية» ص . ص : ٢٤٧ ـ وبعــدهــا، ومــا ورد في هــوامش تلــك الصفحــات من مصــادر أوليــة تتعلق بذلك.

(١٠) تــوفي منكو قــا آن (٦٤٩ ـ ٦٥٥ هــ / ١٢٥١ ـ ١٢٥٧ م) في محــرم من عــام ٦٥٥ هــ / كــانــون الثــاني ـ شبــاط (يناير ـ فبراير) ١٢٥٧ م. انظر، رشيد الــدين، «جــامــع التــواريــخ» جــ ١ / ص . ص : ٦٠٣ ـ ٦٠٤.

(١١) عقد محمد الكامل العزم على الوقوف في وجه المغول منذ أوائل سنــة ٦٥٦ هــ / ١٢٥٨ م، عندما أرسل قوة صغــيرة من عنــده، نجدة للخليفــة في بغــداد، بينمــا كــانت معركــة «عين جــالــوت» في شهــر رمضــان مــن عــام ٦٥٨ هــ / ايلــول (سبتمبــر) ١٢٦٠ م. أما بــدايــة قتــال المغول لمحمد الكامل فقد كان، كمــا يبدو لنــا، في أوائل النصف الثــاني من نفس العام، أي عام ٦٥٦ هــ / ١٢٥٨ م.

(١٢) ابن العبــرى، «تاريــخ مختصر الدول»، ص : ٢٨٠ . (عن هــذا المصــدر انظــر كشاف المصادر رقم (١٠).

(١٣) ابن الأثير، «الكامل في التاريخ» جــ ٧ / ص : ٩٢. (عــن هــذا المصــدر انظــر كشاف الصادر رقم (١).

(١٤) القزويني، «نزهــة القلوب»، ص ١٠٥ . (عن هذا المصدر انظر كشاف المصادر رقم (١٤).

(١٥) مجهول المؤلف «حدود العالم»، ص : ١٤٣. (عن هذا المصدر انظر كشاف المصادر) رقم (١٦).

(١٦) الجوزجاني، «طبقات ناصرى» الترجمة الانجليزية، جـ ٢ / ص : ١٢٧٠، حاشية ٩. (حول هذا المصدر انظر كشاف المصادر) رقم (٣) حيث نقل المحقق والمترجم لهذا الكتاب الهام من كتاب ياقوت الحموى، الموسوم ب «معجم البلدان» جـ ٥ / ص . ص : ٢٣٥ ـ ٢٣٨ (عن هذا المصدر، انظر قائمة المصادر رقم (١٨)

(١٧) فيما يتعلق بسبب تسميتها بهذا الاسم، أنظر المصدر السابق نفس الجزء والصفحات (اي كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموى).

(١٨) توفي شهاب الدين غازى سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م، وخلفه على حكم «ميافارقين» ابنه محمد الكامل (٦٤٤ ـ ٦٥٨ هـ / ١٢٤٦ ـ ١٢٦٠ م). وقد قبل حاكم هذه المدينة وتوابعها الخضوع للسلطة المغولية، لانه لم يجد من الحكام المسلمين من يعينه لايجاد وحدة تقف صفاً واحداً في وجه هذه القوة الرهيبة. وقد ذهب بنفسه إلى عاصمة المغول، وقابل خانهم هناك، ورتب معه مسألة منع قوات الخان من ان تتعدى علي ممتلكاته؛ فعاش معهم في سلام، حتى هددوا بغداد، فنبذ ولاءهم، وحاربهم. فيما يتعلق بمفهوم المغول للاستسلام انظر : Carpini, S. «History Ofthe Mongol» P.2. المعلومات عن هذا المصدر الهام انظر كشاف المصادر رقم (١٩). اما ما يتعلق برحلة محمد الكامل الى منغوليا، فراجع ذلك في : الجوز جانى، «طبقات ناصرى» جـ ٢ / ص . ص : ٢٠٠ ـ ٢٠١، الترجمة الانجليزي جـ ٢ ص : ١٢٦٥. وكذلك نفس المصدر الاخير والصفحه، حاشية رقم (٢) نقلاً عن المؤرخ والأديب «الفى» من أن الكامل كان أول الحكام المسلمين الذين ذهبوا إلى هناك : رشيد الدين، «جامع التواريخ» جـ ٢ / ٢٢٧ : الترجمة العربية، جـ ٢ / ص . ص : ٣٢٢ ـ ٣٢٣ ؛ ابن العبرى ـ «تاريخ مختصر الدول»، ص : ٢٧٧. اماما يتعلق بشهاب الدين غازى، وتقواه وورعه فراجع في ذلك : «مرآة الزمان» لسبط بن الجوزى. جـ ٨ / حوادث سنة ٦٤٤ هـ.

(١٩) تقع بشيرية (أو بشرية، أو بشارية) بالقرب من نهر دجيل. وقد جرى على أرضها معركة بين جيش المغول (ميمنته) بقيادة بايجو نويان، وبين جيش الخلافة، بقيادة الدويدار (الدواة دار) الصغير، هزم فيها الأخير، وعلى أثرها سقطت خلافة العباسيين وقتل آخر خلفائها، المستعصم. حول هذه القرية، أنظر : رشيد الدين «جامع التواريخ»، جـ ٢ / ٧٠٩ ؛ وصاف الحضره، «تاريخ وصاف»، ص : ٢٥ (لمعلومات عن هذا المصدر، انظر قائمة المصادر) (١٧).

(٢٠) ابو شامة، «تراجم رجال القرنين السادس والسابع»، ص : ٢٠١. (حول هذا المصدر أنظر كشاف المصادر) رقم (٩).

(٢١) لمعلومات أكثر تفصيلاً عن هـذا الحاكم المسلـم وبـدايـة خضـوعـه للمغـول واستمـراره في خـدمتهم، حتـى ضـد أخوانه المسلمـين»، أنظر كتابنا «سقوط الدولة العبـاسية» ص . ص : ٣٥٧ ـ ٣٦٠، والمصـادر التي وردت في حواشي هذا الكتاب.

(٢٢) هناك العديد من الكتب المعاصرة للغـزو المغـولي لبلاد الشـام، مسلمة (عـربيـة وفـارسية)، ومسيحيـة، مثـل : المكـين جـرجس، «أخبـار الأيـوبيـين»، ص . ص : ١٧١ ـ وبعـدها (لمعلـومات عن هذا المصدر أنظـر كشف المصادر) رقم (١١)؛ ابـو شامـة، «تراجم رجـال القـرنين السـادس والسابـع» من سنة ٦٥٧ هـ إلى سنـة ٦٥٩ هـ : ابـن العبـرى، «تـاريـخ مختصر الـدول»، ص . ص : ٢٧٧ وبعدها، ابن الفوطى، « الحوادث الجامعة والتجارب النـافعة في المـائة السـابعـة ـ منسـوب اليـه »، ص . ص : ٣٤١ وبعدها المعلومات عن هـذا المصـدر أنظر كشف المصـادر في آخـر البحث رقم (١٣)؛ رشيد الـدين، «جامع التواريخ»، جـ ٢ / ص . ص : ٧١٨ وبعـدها؛ وغـيرهـا من المصـادر، وخـاصـة الشـامية التي تلت الغـزو بفترات، مثل : ابو الفداء، « المختصر في أخبـار البشر » (انظـر الكشـاف رقم)؛ ابن كثـير، «البدايـة والنهـايـة»، أنظـر كشـاف المصـادر رقم (١٥)؛ الـذهبي، «العبر في أخبار من غبر» (لمعلومات عنه انظر قائمة المصادر)، «دول الاسـلام»؛ (لمعلومات وافيـة عن هذا المصـدر انظر قائمة المصـادر)؛ اليونيني، «ذيـل مرآة الـزمان» حـوادث سنـوات : ٦٥٧ هـ و٦٥٨ هـ. (لمعلومات عن هـذا المصدر، انظر قائمة المصادر رقم (٧) (٢٠).

(٢٣) حول استسلام خورشاه لهولاكو، أنظـر التفاصيل لمؤرخ معـاصر كان مصـاحباً لهولاكو في حملته تلك هـو : علاء الـدين عطا ملك الجويني. «جها لكشاي، فاتـح العـالـم» جـ ٣ / ص . ص : ٢٥٩ ـ وبعـدها، (لمعلـومات عن هـذا المصـدر الهـام الفـارسي اللغـة انظـر كشـف المصادر في نهاية البحث رقم (٤).

(٢٤) عن كيفية المراسلات بين هولاكو وآخـر خلفاء العباسيين، وماذكرته المصـادر في هذا الشأن، وعن استسلام المستعصم، راجع كتابنا «سقوط الدولة العبـاسية»، خاصة ص . ص : ٢٣٩ ـ ٢٤٣.

(٢٥) حسام الدين بن عكا طرقناه، في كتابنـا المذكور في الحاشية السابقة، بنـوع من التفصيل في الصفحات : ٢٩٢ ـ ٢٩٤.

(٢٦) كـان تاج الـدين أبو المعـالي محمـد بن الصـلايا العلـوي يحكم مدينـة «اربل» وتوابعها، إبّان الغزو المغولي. لتفاصيـل أكثـر في هذا المـوضوع، أنظـر : المكين جرجس «أخبار الأيوبيين»، ص : ١٦٧؛ رشيـد الـدين، «جـامـع التـواريـخ». جـ ٢ / ص ٧١٦، التـرجمة العـربيـة جـ ٢ / ص . ص : ٢٩٨ ـ ٢٩٩ : ابن الفـوطي، «الحوادث الجـامعة ـ ،» ص : ٢٣٧.

(٢٧) لقد جانب رشيـد الدين الصـواب هنا ؛ فمعركة «عين جالوت» لم تكن قد حدثت بعـد، فقد جـرت في ٢٧ رمضـان سنـة ٦٥٨ هـ / ٣ أيلـول (سبتمبـر) عـام ١٢٦٠ م. ومن المعـروف ان النـاصر لم يُقْتل الا في آخر شهر شوال ٦٥٨ هـ /

ايلول (سبتمبر ١٢٦٠ م)؛ ان صح لنا الاعتماد على رواية المكين جرجس، «أخبار الأيوبيين» ص : ١٦٧ ؛ ويؤيد ذلك مجريات الاحداث، لأن الكامل محمد قد طيف برأسه في المدن الشامية، والناصر ما يزال حياً.

(٢٨) انظر ذلك في رشيد الدين، «جامع التواريخ»، جـ ٢ / ص : ٧٢٥

(٢٩) ابن العبرى، «تاريخ مختصر الدول»، ص : ٢٧٧.

(٣٠) هو القائد المسيحي «ناورى الكرجي»، انظر الحاشية التالية رقم (٣٤).

(٣١) رشيد الدين «جامع التواريخ»، جـ ٢ / ٧٢٥.

(٣٢) المصدر السابق، نفس الصفحات؛ انظر أيضاً : ابن العبرى، «تاريخ مختصر الدول»، ص : ٢٧٧.

(٣٣) الجورجاني، «طبقات ناصرى» جـ ٢ / ١٢٧٢. وقد جاء في حاشية رقم (٥) سيف الدين ازكلي وعنبر حبشي.

(٣٤) يبدو لنا بوضوح أن هذا القائد هو جرجاني (كرجي) الجنسية. وبالتأكيد فإنه كان على رأس جيش من المسيحين الكرج. وقد طرقت هذا الموضوع، ومدى مساهمة هؤلاء المسيحيين في حملة المغول، راجع ذلك في كتابنا «سقوط الدولة العباسية»، ص . ص : ٣١٨ ـ ٣٢٣.

(٣٥) رشيد الدين، «جامع التواريخ»، جـ ٢ / ٧٢٦.

(٣٦) كان قد شارك بجيش كبير، وربما بكل ما يملك، ووضعه تحت قيادة ابنه الصالح اسماعيل، في جيش هولاكو ضد العراق، وبغداد. وعندما عجز المغول في محاولاتهم لاحتلال مدينة «اربل» قام هو بهذا العمل نيابة عنهم راجع كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ص . ص : ٣٥٧ ـ ٣٦٠ وماورد في هوامش تلك الصفحات من المصادر الهامة. رشيد الدين، «جامع التواريخ» جـ ٢ / ص ٧١٦، الترجمة العربية جـ ٢ / ص : ٢٩٩.

(٣٧) رشيد الدين، «جامع التواريخ» جـ ٢ / ص : ٧٢٦، الترجمة العربية، جـ ٢ /ص . ص : ٣٢٠ ـ ٣٢١ ب ابن العبرى، «تاريخ مختصر الدول»،ص : ٢٧٧.

(٣٨) فيما يتعلق بحصار وسقوط حلب، راجع : ابو شامه، «تراجم رجال القرنين السادس والسابع »، ص : ٢٠٣؛ رشيد الدين «جامع التواريخ»، جـ ٢ / ص . ص : ٧١٩ ـ ٧٢٠؛ ابن العبرى، «تاريخ مختصر الدول»، ص : ٢٧٩؛ ابن الفوطي، «الحوادث الجامعة..» ص : ٣٤٢؛ ابو الفدا، «مختصر تاريخ البشر» جـ ٣، حوادث سنوات ٦٥٧ هـ وبعدها؛ اليونيني، «ذيل مرآة الزمان»، الجزء الأول، حوادث سنوات : ٦٥٧ هـ ـ ٦٥٨ هـ، وخاصة جـ ١ ص . ص : ٣٤٩ وبعدها.

(٣٩) كان له دور كبير في حملة المغول في مجموعها. وخاصة في المرحلة الثالثة والأخيرة من حملتهم. لمعلومات عنه، انظر : المكين جرجس، «أخبار الأيوبيين»، ص : ١٦٧؛ رشيد الدين،

«جامع التواريخ»، جـ ٢ / ص . ص : ٧١٠، ٧١٦، ٧١٩، ٧٢٦؛ بناكتي، «تاريخ بناكتي» ص . ص : ٤١٨ ـ ٤٢١ (لمعلومات عن هذا المصدر أنظر الكشاف رقم (٢)؛ خواند امير، «تاريخ حبيب السر.»، جـ ٣ / ص . ٩٩، (لمعلومات عن هذا المصدر أنظر كشاف المصادر رقم (٦).

(٤٠) «الحوادث الجامعة» (المنسوب لابن الفوطي ص : ٣٤٠. وكذلك فقد جانب ابن كثير «البداية والنهاية» جـ ١٣ / ص : ٢١٥) الصواب عندما يشموت بن هولاكو وقد أخذ مدينة محمد الكامل عنوة واقتداراً.

(٤١) يقول ابن العبرى : «فمنعوا الناس من الدخول إليها والخروج عنها»؛ تاريخ مختصر الدول، ص : ٢٧٧.

(٤٢) أبو الفدا، «مختصر تاريخ البشر»، جـ ٣ / ص : ٢٠٣.

(٤٣) انظر، رشيد الدين، «جامع التواريخ»، جـ ٢ / ص : ٧٢٧. وقد ذكر مانصه : «...، بسر بدرا مي خورد ومادر فرزندرا ...».

(٤٤) إبن العبرى، «تاريخ مختصر الدول»، ص : ٢٨٠.

(٤٥) يبدو لنا ان الذين راسلوا المغول هم أناس من المسيحيين؛ فقد كان منهم عدد كبير يسكن في هذه المدينة، وخاصة ما يتعلق بالناحية الدينية ونظرة هؤلاء الناس اليها. وقد ذكرت الرويات التي جاءت في مصادر مادتنا بأن عدد الأفراد الذين بقوا أحياء، قبيل استسلامهم واجتياح المغول لمدينتهم كان يتراوح بين سبعين إلى ثمانين فرد. راجع رشيد الدين، «جامع التواريخ»، جـ ٢ / ص : ٧٢٧؛ كذلك : خواند امير، «حبيب السير»، جـ ٣ / ص : ٩٩.

(٤٦) ابو الفدا، «المختصر في أخبار البشر»، جـ ٣ / ص : ٢٠٣. وقد أورد ابو شامة، في مصنفه «تراجم رجال القرنين السادس والسابع» ص : ٢٠١ خبر أخذ المغول لهذه المدينة في حوادث سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م بينما جاءت عند رشيد الدين، «جامع التواريخ» جـ ٢ / ص : ٧٢٧، ان ذلك كان في سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م. وهذا على ما يبدو لنا خطأ.

(٤٧) ابو شامه، «تراجم رجال القرنين السادس والسابع»، ص : ٢٠١

(٤٨) رشيد الدين، «جامع التواريخ»، جـ ٢ / ص : ٧٢٧.

(٤٩) اخو محمد الكامل هو الأمير الأيوبي عمر الذي قتل أيام ابيهما في سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م. أما هذا الأخ الثاني الذي قتل معه، فإنني لم أعثر على اسمه في المصادر التي رجعت إليها.

(٥٠) تل باشر احدى القلاع الرومانية القديمة، وهي حصينة تقع إلى الشمال من حلب ليس بعيداً عنها، وكان اغلب سكانها من الارمن، وهم نصرانيو الديانة، كما نعرف. انظر : ياقوت الحموى، «معجم البلدان» جـ ٢/ ص : ٤٠.

(٥١) يبدو لنا ان هذه مفارقة تاريخية، فلعل المقصود سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م،

رشيد الدين، «جامع التوايخ» جـ ٢ / ص : ٧٢٧، وقد نقل عنه كما يظهر لنا، خواندر امير، «حبيب السير» جـ ٣ / ٩٩ . انظر الحاشية رقم (٢٧).

(٥٢) ابن العبرى، «تاريخ مختصر الدول»، ص : ٢٧٨.

(٥٣) عن مقتل الناصر، راجع ذلك بنوع من التفصيل، برواية شاهد عيان، في «المصدر السابق» ص : ٢٨٠.

(٥٤) ابو الفدا، «المختصر في أخبار البشر»، جـ ٣ / ص : ٢٠٣.

(٥٥) كل ما يتعلق بدور المسيحيين في حملة المغول الغربية، ومساهماتهم في حملة هولاكو ضد العراق والشام، أنظر كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ص ، ص : ٣١٨ ـ ٣٢٣.

(٥٦) عام ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م.

(٥٧) ابو شامة، «تراجم رجال القرنين السادس والسابع» ص : ٢٠١. أنظر أيضاً : Brent, P., « The Mongol Empire, Gonghis Khen: HisTriumph and his Legacy » London, 1976, P:140; J.J. Saunders, « The History of The Mongol Conquests » London, 1971, P:113.

(٥٨) ابو شامة «تراجم رجال القرنين السادس والسابع»، ص : ٢٠١؛ ابو الفدا، «المختصر في أخبار البشر»، جـ ٣ / ص . ص : ٢٠٣ ـ ٢٠٤؛

(٥٩) انظر المصدر السابق، نفس الجزء والصفحات؛ كذلك : رشيد الدين، «جامع التواريخ»، جـ ٢ /ص : ٧٢٧.

المصادر التي استعنت بها

أولاً: الإسلامية

(١) ابن الأثير، عز الدين على، «الكامل في التاريخ»، بيروت، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م.

(٢) بناكتي، فخر الدين ابو سليمان، «سليمان بناكتي» وهو معروف أيضاً ب : روضة أولى الألباب في معرفة التواريخ والانساب، تحقيق د / جعفر شعَّار، طهران، ١٣٤٨ هـ. ش.

(٣) الجورجانى، القاضي منهاج الدين سراج، «طبقات ناصري» تحقيق عبد الحي حبيبي، كابل، ١٣٤٣ هـ.ش. كما حققه وترجمة الى اللغة الانجليزية الميجر : هـ . ج .راقرتي، لندن، ١٢٩٨ هـ / ١٨٨١ م. وقد اعيدت طباعة الترجمة في سنة ١٩٧٠ م.

(٤) الجويني، علاء الدين عطا ملك، «تاريخ جما نكشاى» اي «تاريخ فاتح العالم» تحقيق الاستاذ الكبير المرحوم ميرز محمد بن عبد الوهاب القزونيي، طبعة ليدن في السنوات : ١٣٢٩ هـ / ١٩١١ م، ١٣٣٤ هـ / ١٩١٦ م، ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٧ م. وقد ترجم إلى اللغة الانجليزية على يد العلامة المستشرق الانجليزي الاستاذ الدكتور ج.أ.بويل، طبع في مطبعة جامعة مانشستر، ١/ ١٩٥ م.

(٥) ابن خلكان شمس الدين ابو العباس أحمد، «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان»، تحقيق م.م. عبد الحميد، بيروت، ١٩٦٨ م.

(٦) خـواند امـير، غيـاث الـدين بن همـام الـدين، «تاريـخ حبيب السير في أخبـار افـرادى بشر»، تحقيق : م.د. سيـاقي، طهران، ١٣٣٣ هــ.ش.

(٧) الذهبي، شمس الدين محمـد، «العبر في أخبار من غبر» تحقيق د/صلاح الدين المنجد، الكويت، ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦ م، «دول الاسلام» حيدر آباد، ١٣٣٧ هـ.

(٨) رشيد الدين، فضل الله بن عماد الدوله الوزير، «جامع التـواريخ» الجـزء الأول «من بداية قبائل المغول حتى نهاية حكم تيمور قاآن» والجـزء الثاني «من بـداية سلطنـة هولاكـو خان حتى نهـاية حكم غـازان خان»، تحقيق : بهمن كـريمي، طهران، ١٣٣٨ هــ.ش.
وقـد تـرجم القسم الأول مـن الجـزء الثاني إلى العربية من ترجمـة فرنسيـة قـام بهـا نشـأت وآخـرون، بـيروت، ١٩٦١ م.

(٩) سبط بن الجـوزى، يوسف بن قـزغلو، «مرآة الزمـان»، تحقيق دائرة المعـارف الـعثمـانيـة حيـدر آبـاد، الـدكـن، ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م.
ابو شامة، عبد الرحمن بن اسماعيـل، «تـراجم رجـال القـرنـين السـادس والسابع»، وهو المعروف أيضاً؛ «الذيـل على الروضتين»، القاهـرة، ١٣٦٦ هـ/ ١٩٤٦ م.

(١٠) ابن العبـرى، أبـو الفـرج كـريكـورى، «تاريخ مـختصر الـدول» ترجمـه المؤلف من اللغة السريانيـة إلى اللغة العـربية، وحققه صاليحانى، بيروت، ١٩٥٨ م

(١١) ابن العميـد، المكـين جـرجس، «أخبـار الأيـوبيـين»، تحقيق : س.كهن، نشر في مجلـة الـدراسـات الشرقيـة، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧ م، جـ ١١/ ص.ص : ٧٠٩ ـ ١٧٧.

(١٢) ابـو الفـدا، عمـاد الـدين اسمـاعيـل، «المختصر في أخبـار البشر»، القـاهـرة، ١٣٢٥ هـ.

(١٣) ابن الفوطي، «كمال الدين عبد الرزاق»، منسـوب اليـه مصنـف : «الحـوادث الجـامعة والتجـارب النافعـة في المائـة السـابعـة»، تحقيق الاستـاذ المـرحـوم مصطفى جـواد، بغـداد، ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢م.

(١٤) القـزويني، حمد الله المستـوفي، «القسم الجغـرافي من كتاب : «نـزهة القلـوب» ترجمة الى اللغة الانجليزية المستشرق : ج لـوسترنـج، طبع في ليـدن، هولنـدا، ١٩١٩ م» .

(١٥) ابن كثـير، عمـاد الـدين ابـو الفـدا، «البداية والنهاية»، بيروت ١٩٦٧ م.

(١٦) المؤلف مجهول، «حدود العالم»، ترجمـة وشرحـه في اللغـة الفـارسيـة إلى اللغـة الانجليـزيـة الاستـاذ الـدكتـور/ ف.. مينـورسكي، حرره الاستـاذ الدكتـور : س.أي.بـوزوورث ل : إحيـاء ذكـرى : إي.ج.و. جب. السلسلة الجديدة، ١١، لندن، ١٩٧٠ م.

(١٧) وصاف الحضرة، شرف الذين عبـد الله، «تاريخ وصاف» وهو معروف أيضاً ب : «كتـاب تجـزيـة الامصـار وتـزجيـة الاعصـار»، تحقيق عبـد المحمـد آيتي، طهران، ١٣٤٦ هــ.ن.

(١٨) يـاقـوت الحمـوى، «معجم البلـدان»، بيروت، ١٩٥٧ م.



(١٩) البونيني قطب الدين موسى، «ذيل مرآة الزمان»، حيدر أباد، ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ م.

ثانياً : المصادر بلغة غير الاسلامية :

(٢٠) الكربيني، جون البلانو الكربيني، «تاريخ المغول»، تحقيق : س. دوسون، تحت عنوان : «البعثة المغولية»، لندن، ونيويورك، ١٩٥٥ م.

ثالثاً : المراجع «بالعربية وغيرها» :

أ - العربية

(٢١) الغامدي، سعد حذيفة

« سقوط الدولة العباسية » ١٤٠١ هـ

(٢٢) الغامدي، سعد حذيفة، «أوضاع الدول الاسلامية في الشرق الاسلامي»، ١٤٠١ هـ.

ب - الانجليزية

(٢٣) برنت، بيتر، «الامبراطورية المغولية، جنكيز خان، انتصاره وتراثه »، لندن، ١٩٧٦ م. (وقد سبق في الحاشية رقم (٥٧) ان دونت اسم الكتاب ومؤلفه وداره التي طبع بها باللغة التي كتب بها المرجع).

(٢٤) ساووندرز، ج.ج، «تاريخ الفتوحات المغولية»، لندن، ١٩٧١ م. (وقد ذكرت في الحاشية رقم (٥٧) اسم المؤلف وعنوان مصنفه باللغة الانجليزية).

* * *

○ ○ ○

«ان خطتي التي سرت - ولا أزل أسير عليها - هي: إقامة الشريعة السمحة، كما أنني أرى من واجبي ترقية جزيرة العرب، والأخذ بالأسباب التي تجعلها في مصاف البلاد الناهضة مع الاعتصام بحبل الدين الإسلامي الحنيف».

الملك عبدالعزيز

من حديث النحو والنحاة

د. عبدالكريم محمد الأسعد

ضوء على البحث:

هذا مقال أشبه ما يكون بتاريخ النحو والنحاة منه بالنحو نفسه، وقد تطرّق بإيجاز إلى مجموعة من الأمور هي:

١ - إيراد الخلاف في وجود لهجة خاصة ممتازة ومتميّزة لقريش.

٢ - ذكر أسباب وجوب الاهتمام باللهجات الأخرى - ولاسيما لهجة تميم - إلى جانب لهجة قريش، في الدرس النحوي.

٣ - القول في الشواهد التي سمعت بلغات أخرى تتناقض مع القواعد النحوية الموضوعة وفاقاً للغة معيّنة معتمدة ومفضّلة هي لغة الحجاز، أتعدّ شاذّة تحفظ

ولا يقاس عليها، أم هي مقبولة ولكن يجب تأويلها، أم هي لغة صحيحة سليمة مطردة يسوغ القياس عليها والاقتداء بها ؟

٤ ـ الكلام عن اللغة والنحو: هل هما توقيفيان قديمان أم حادثان متطوّران؟ وهل نشأ معاً أم متعاقبين؟

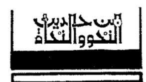
٥ ـ التحقيق فيما إذا كان النحو العربيّ قد آعتمد في أوائله على غيره من نحو الأقوام الأخرى، والحديث عن الحركات وتطورها.

٦ ـ سرد تعريفات شتى لعلم النحو من حيث هو، وبيان لصلته الوثيقة بفروع العربية الأخرى ولميدان هذه الفروع جميعاً.

٧ ـ الكشف عن أسبق هذه الفروع إلى الوضع والتدوين مع الإسهاب في تعليل ذلك بالإفاضة في موضوع اللحن في الإعراب على ألسنة العامة والخاصّة وفيما ألّف في هذا الموضوع.

٨ ـ عرض كافٍ لقضية وضع النحو وواضعه ووقت الوضع مع إظهار ما في ذلك كلّه من آضطراب في الأقوال الكثيرة وعماية في الروايات المتعددة، وقد أوردت في سبيل تجلية ذلك كثيراً من النقول وفيضاً من الاعتراضات والإجابات عليها، كذلك أبنت الاضطراب الذي أصاب الروايات المتعلقة بالسبب الذي حمل أبا الأسود في أرجح الأقوال على وضع النحو، وبأول الأبواب التي وضعها فيه، وأظهرت الميل إلى أن تكون هذه الروايات المضطربة سبباً وجيهًا يحمل على غلبة الظن بتعدّد بواعث وضعه أبواب النحو المتعددة لا بتوحّدها.

٩ ـ إيضاح للظروف التي نما النحو فيها وآزدهر في البصرة والكوفة بالذات مع بيان لكيفية نشوئه ثم لمراحل تطوره المتعاقبة ولما فيها من علامات بارزة جديرة بالتسجيل، يضاف إلى ذلك حديث سريع عن الخليل وسيبويه كاثنين من أقدم النحاة وأبرزهم على مرّ العصور، وكذلك عن كتاب سيبويه والطابع العام للدرس النحويّ فيه وظاهرة تضمّنه أقوال أستاذه الخليل.



١٠ ـ تسجيل ما آل إليه الدرس النحويّ في مرحلته الأخيرة الممتدة إلى اليوم من تأثر مفرط بالمنطق مع التمثيل لهذا، وذلك بصرف النظر عمّا تخلّل هذه المرحلة أخيراً من محاولات بعض المعاصرين غير الحاسمة في سبيل نحو ميسّر مبسّط سهل.

١١ ـ رواية شيء من مواقف بعض النحاة القدامى في رفض الاتجاه الفلسفي في الدرس النحويّ، ثم دفاع عن النحو التقليدي ودعوة إلى التوسط بين طرفي النقيض بالأخذ بهذا النحو مع الحرص على تنقية بعض مسائله التي غلبت عليها التعمية والتكلّف والتعقيد والافتعال من هذه الشوائب.

١٢ ـ إيراد مواقف طريفة وأشعار ظريفة لأناس من الخاصة والعامة في كره النحو وهجاء النحاة ثم سرد مأثورات أخرى تضادّها في الاتجاه فتدعو إلى درس النحو وحبّه والاهتمام به، وقصص لطيفة تظهر فائدته ومنزلة النحاة وتكشف عن مدى اعتزازهم بأنفسهم وعن صور من تكريم المجتمع لهم وتحثّ على الاقتداء بهم والاطلاع على آثارهم.

* * *

لابدّ ـ ليكون للكلام على علم النحو ثمرته المفيدة القائمة على أساس واضح متين ـ من التعرّض للّغة لأنها ميدانه الفسيح ومادّته التي بني عليها ودار فيها، فاللغة العربية هي اللغة التي نطق بها أفراد القبائل في شبه الجزيرة، وكانت متنوعة بتنوّع هذه القبائل، وهو ما يعرف باللهجات. وقد سادت لهجة قريش غيرها من اللهجات «لأنّ الله تعالى اختارهم من جميع العرب واختار منهم محمداً صلى الله عليه وسلّم، فجعل قريشاً قُطّان حرمه وولاة بيته، فكانت وفود العرب من حجّاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش في دارهم، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقّة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم فاجتمع ما تخيّروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب»[1].

ويبدو أنّ هذا القول حمل فريقاً من الباحثين[٢] على أن ينفي وجود لهجة خاصة لقريش، وعلى أن يعدّ ما سمّي بلهجة قريش مزيجاً من لهجات القبائل تكوّن على مرّ الزمن وآنتهى به الأمر إلى أن يكون لهجة الحجاز الذي تسكنه قريش.

وقد رُدَّ هذا بأنّ لقريش لهجة خاصة ممتازة وأنّ هذه كانت تهضم ما يفد إليها من اللهجات الأخرى، وسواء آنمحت اللهجة القرشية الأولى وحلّ محلّها هذا الخليط من اللهجات الأخرى أم لم تنمح فإننا ما نزال نجد أنفسنا أمام لهجة متماسكة ومتميّزة عن غيرها من اللهجات الأخرى ويستوى في ذلك أن نسمِّيهَا لهجة قريش أو لهجة الحجاز[٢].

وأيًّا ما كان الأمر فإنّ الاهتمام بلهجة قريش التي كانت لغة القرآن والتي أورثتنا الكثير من الآثار الدينية والأدبية ينبغي أن لا يصرفنا عن الاهتمام باللهجات العربية الأخرى التي تشترك مع لهجة قريش في الخصائص العامة للّغة العربية، فقد قرئت بعض آيات القرآن بغير لهجة قريش على ما رأيناه في قراءة عاصم وحمزة والكسائي من السبعة بكسر حاء «حج» من قوله تعالى: «ولله على الناس حجّ البيت... الآية»[٣] وهي لغة نجد[٤]، وعلى ما نراه في قراءة ورش مثلاً لقوله تعالى: «فمنُ آوتي كتابه بيمينه»[٥]، بضمّ النون[٦]، وقوله تعالى: «قدَ أفلح المؤمنون»[٧]، بفتح الدال، وذلك للنقل[٦]، وفي قراءة الحسن وزيد بن عليٍّ على لغة تميم لقوله تعالى: الحمدلله بكسر الدّال للاتباع[٦]، كذلك كان كثير من فحول الشعراء ممّن يحتجّ بشعرهم من غير قريش كالفرزدق القَائل:

ما أنت بالحكم الترضى حكومته ولا الأصيل ولا ذي الرأي والجدل

حيث لم يجعل النحاة «ما» في البيت حجازية وما بعدها اسمها وخبرها مراعاة للغة الشاعر صاحب البيت لأنّه تميميّ، وبنو تميم تهمل ما، وإنّما إعمالها لغة أهل الحجاز،[٦] ولولا المزايا الخاصة التي آنفردت بها كل لهجة ما آختلف التميميون وغيرهم مع الحجازيين الذين لا يشكّ أحد في فصاحتهم جميعاً على آختلاف قبائلهم، بل ما كانت لغة تميم أقيس أحياناً من لغة الحجاز، وتشهد صور الخلاف المتعددة بين اللهجات



العربية التي نقلها إلينا النحويون بما كان للهجة تميم خاصـة من قوة ونفـوذ في بعض المسائل ربّما فاقت قوة لهجة قريش ونفوذها، من هنا فإنّ «الناطق عـلى قياس لغـة من لغات العرب مصيب غير مخطيء وإن كان غير ما جاء به خيراً منه[٨]»، أمّاما وجدناه في بطون الكتب القديمة من شواهد سمعت بلهجات أخـرى غير لهجـة قريش وتنـاقضت لذلك مع القواعد النحويـة الموضـوعة وفـاقاً للّهجـة القرشيـة والتمس النحويـون لها تخريجات شتى كالحمل على الشذوذ أو التأويل ليقبلوها بعد أن يجعلوها منسجمة مع ماقعّدوا، فهو في الحقيقة من بقايا اللغة العربية في مراحلهـا الأولى يوم كـانت لا تلتزم تماماً طرق الأداء وعلامات الإعراب المعروفة، يتمثل هذا في القاعدة النحوية القـاضية بـإفراد الفعـل مع الفـاعل المثنى أو الجمـع، إذ رأينا أمثلـة متعددة[٩] تخـالف هـذه القاعدة، وقد سميت لغة (أكلوني البراغيث) وهي لغة قبائل من العرب هم أزد شنـوءه أوطيء أو بلحـارث، وهذا يحملنـا على الاعتقـاد بأنّ هـذه اللغـة في التعبـير أسبق من القاعدة النحوية وأنّها صحيحة فصيحة لا داعي لتخريجهـا لتتفق مع قـاعدتهم، وهي كذلك منسجمة إذْ الأليق أن يجمع الفعل مع الجمع ويثنى مع المثنى ويفرد مع المفرد، لذلك رأينا الثعالبي مثلاً يذهب إلى أنّ العرب ربّما جمعت الفعل عند تقدمه عـلى الإسم «لأنّه الأصل»[١٠] فـاللغة ينبغي أن تـدرك بالـذوق والحسّ قبل المنطق والعقـل اللذين آعتمدهما النحاة في هذه المسألة ليقيموا عليهما قولهم بأنّ حالة إفراد الفعل مـع تثنية الفاعل أو جمعه هي القياس وأنّ ترك ذلك خروج عنه[١١]

ومـردّ ما تمكّن النحـاة من تخريجـه من الشواهـد التي خالفت القـواعد، ومـا استعصى عليهم تخـريجه منهـا فسمّوه لـذلك لحنـاً، هو في الحقيقـة أنّهم لم يعـرفـوا اللهجات الأخرى غير لهجة قـريش معرفـة واسعة أو لم يطلعـوا عليها آطّـلاعاً كـافياً أو ظنّوا خطأً بـأنّ العرب أصحـاب اللغة يغلطـون أو يتكلمون عـلى غير قيـاس لغتهم، ولو لم يكن ذلك كلّه لقبلوا كلّ الشواهـد وصحّحوهـا وأسندوهـا إلى لهجاتهـا المتعددة المقبولة دون حاجة إلى التأويلات البعيدة والتخريجات العجيبة.

وقد جرى الخلاف في اللغة العربية نفسها، أهي توقيفيّة قديمـة لم تعرف اللحن في مفرادتها والخطأ في قواعدها؟ أم هي حادثة متطورة لم توجد منذ أول عهدها كـاملة

ناضجة وإنّما سارت وفقاً لقوانين التطور الطبيعي ومرّت بمراحل الطفولة والشباب ثم النضوج الذي نراه متمثلاً فيما نقرأه من آثارها التي بلغت درجة شاملة من التنوع والاتساع والدقة والانضباط والرقيّ والقدرة على التعبير عن أدقّ الأشياء وأعمقها مع الالتزام بطرق الأداء الخاصة وبالنظام الدقيق في ملاحظة علامات الإعراب من حركات وحروف.

وكما ذهب ابن فارس[١٢] وغيره إلى أنّ اللغة توقيفية قديمة صحيحة الإعراب لم تعرف اللحن ولا الخطأ في مفرداتها وقواعدها، ذهبوا إلى أنّ النحو كذلك توقيفيّ قديم نشأ مع اللغة التى لم يعرف أصحابها اللحن والخطأ فيها، والأولى خلاف ذلك في الأمرين معاً، لأنّ اللغة في حياتها تخضع لتطور المجتمع، فكلّما اتّسع اتّسعت وتعدّدت تراكيبها، وأساليبها تتشكّل في العادة وفق ما يستلزمه نموّه في جميع نواحي الحياة فيه، وحين تستطيع اللغة مسايرة المجتمع في إحساسه وتصوره وخياله وإدراكه فإنّ ثروتها في التراكيب والأساليب والمفردات تكون قد استكملت إلى حدّ كبير، وتكون بذلك قد أصبحت أرضاً صالحة ممهّدة لاستخراج الملاحظات النحوية منها ثم لاستنباط النحاة قواعدهم وأحكامهم النحوية تبعاً لهذه الملاحظات.

إنّ هذا يعني بوضوح أنّ النحو لم ينشأ مع اللغة وإنّما كان مرحلة لاحقة من مراحل نموها ومظهراً تالياً من مظاهر رقيّها، وأنّه وليد العقل في حين أنّ اللغة كانت وليدة الحسّ الذي يسبق وجوده وجود العقل على المعتاد على ما يدلّ عليه عدم وجود النحو إلاّ في اللغات الراقية بآثارها الأدبية والعلمية الواسعة.

والنحو على كل حال هو مجموعة القواعد التي تلتزم بها أساليب اللغة في طرق أدائها للمعاني مع السير على نهج هذه القواعد ووضعها موضع التنفيذ عن طريق آلتزام كل حالة من حالات الإعراب المختلفة في كل حالة من حالات الكلمة بالنسبة لموضعها من الجملة كالتزام الرفع في كل فاعل وآلتزام النصب في كل مفعول وآلتزام الجرّ والجزم في أماكنهما.

وقد سمّي هذا العلم في مرحلته الأولى زمن عليٍّ وأبي الأسود (العربية) ولم يقصد بها آنذاك القواعد التي تضبط اللغة وتعلّم النطق بها وهو المعنى الإصطلاحي

الذي أخذ يقصد من النحو أخيراً بعد أنّ مرّ بما يفيد شموله للمقصود بعلم الصرف الآن ثم سار بعد ذلك خطوات واسعة في طريق النموّ فتخصّص بمعناه الدقيق ووضعت فيه مؤلفات خاصة بآسمه اقتصرت على أبحاثه وحدها.

والمعنى اللغويّ العام للنحو هو الاتجاه والقصد، ثم سمّي هذا العلم بهذا الاسم أخذاً من هذا المعنى بعد أن خصص عمومه بالمعنى الاصطلاحي الخاص للمناسبة بينهما، وتخصيص العام أمر شائع كصرف الكتاب إذا أطلق إلى كتاب سيبويه وصرف الصلاة إذا أطلقت وهي في اللغة الدعاء إلى العبادة المعروفة، قال ابن جني عن النحو «هو في الأصل مصدر شائع أي نحوت نحواً كقولك قصدت قصداً، ثم خصّ به آنتحاء هذا القبيل من العلم»(١٣).

ويبدو أنّ لفظ النحو والنسبة إليه كان ممّا جرت به الألسنة قديماً فقد اصطلح على تلقيب يوحنا(١٤) الاسكندراني النصراني الذي عاش زمن الرسول وأدرك فتح عمرو بن العاص لمصر بيحي النحوي. ولكن المشهور انّ علم النحو إنما سمّي(١٥) بهذا الاسم لقول عليّ لأبي الأسود لمّا عرض عليه ما آستنبطه وآهتدى إليه من بعض أسسه: ما أحسن هذا النحو الذي قد نحوتَ!! أنح هذا النّحو. وهو الظاهر لأنّ كلمة نحويّ اطلقت قديماً على اللغويّ وساوتها(١٤) في المعنى مما يحمل على الاعتقاد بأنّ تلقيب يوحنا بهذا اللقب لم يقصد به أنه يدرس النحو ويضيف إليه بالمعنى الذي يفهم الآن منه.

وقد عاد فريق من الباحثين بالنحو العربي إلى أمم أخرى لما لا حَظُوه من نشوئه والاشتغال به في العراق على يد نحاة كان كثير منهم من غير العرب الذين أفادوا من لغاتهم الأصلية في وضع قواعد النحو العربيّ وتقسيمه وتبويبه حيث ظهر ناضجاً فجأة في كتاب جامع هو كتاب سيبويه، ولما وجدوه من التشابه بينه وبين النحو السرياني أو الكلداني أو اليوناني في التبويب وفي تقسيم الكلمة وفي حركات الإعراب على سبيل المثال، يقول جرجي زيدان عن النحو العربيّ «يغلب على ظنّنا أنهم نسجوا

في تبويبه على منوال السريان لأنّ السريان دوّنوا نحوهم وألّفوا فيه الكتب في أواسط القرن الخامس للميلاد... فالظاهر أنّ العرب لمّا خالطوا السريان في العراق اطلعوا على آدابهم وفي جملتها النحو فأعجبهم، فلما اضطروا إلى تدوين نحوهم نسجوا على منواله لأنّ اللغتين شقيقتان، ويؤيّد ذلك أنّ العرب بدأوا بوضع النحو وهم في العراق بين السريان والكلدان، وأقسام الكلام في العربية هي نفس أقسامه في السريانية»(١٦) ويقول عن الحركات «أول من رسمها أبو الأسود الدؤلي فإنّه وضع نقطاً تمتاز بها الكلمات أو تعرف بها الحركات.... والأرجح أنّه اقتبس ذلك من الكلدان أو السريان جيرانه في العراق.... أمّا صور الحركات التي وصلت إلينا نعني الضمة والفتحة والكسرة فلا نعلم واضعها أو واضعيها ولا الزمن الذي وضعت فيه، ولكن الغالب أنّها وضعت في القرون الأولى للاسلام.... اقتداء بالسريان»(١٧) ويقول الرافعي إنّ دلائل الحركات الخطية لم تكن عند العرب «بل اخترع أصولها السريان حينما تنصّروا وأرادوا ضبط قراءاتهم في الأناجيل، فوضعوا علامات صغيرة تدلّ على الحركات.... ولا يزال أثر هذه الطريقة في المصاحف المخطوطة في القرن الثاني للهجرة»(١٨)، ويوافق احمد أمين على أنّه حدث تأثير ضئيل من اليونان والسريان في النحو العربي في العصر الأول لوضعه وأنّه لم يلبث أن تطور بعد نقل الفلسفة اليونانية إلى العربية إلى تأثر النحو العربيّ بها في قواعده وعلله(١٩).

ويرى فريق آخر من الباحثين أنّ الصلة الوثيقة بين اللغة العربية وبين غيرها من اللغات السامية كالسريانية والعبرية التي تشعّبت جميعاً عن أصل واحد قديم لا تعني بالضرورة اعتماد العربية على غيرها، فالعكس ممكن فرضاً مادامت القضية احتمالاً، كما يرى هذا الفريق أنّ النحو العربيّ يدور على نظرية العامل وهي لا توجد في أيّ نحو أجنبي، وأنّ انبعاث النحو في العراق وتصدّر العناصر غير العربية لدراسته لا يعني أكثر من أنّ الحاجة الداعية إلى إيجاد هذا العلم إنّما كانت فساد الألسنة باختلاط العرب بالعجم، ومن الطبيعي أن يكون ذلك أكثر ما يكون في الأماكن التي يكثر فيها هؤلاء الأعاجم كالعراق، وأنّ الأعاجم الذين أقبلوا على النحو العربيّ إنّما فعلوا ذلك لحاجتهم إلى تفهّم الدين الجديد الذي اعتنقوه عن طريق دراسة قواعد لغته، وأنّ المشابهة القليلة بين النحو العربيّ ونحو اليونان في تقسيم الكلمة عند العرب إلى اسم



وفعل وحرف مثلاً أسوة بتقسيم اليونان الكلمة إلى اسم وفعل ورباط، وفي بعض المصطلحات النحوية العربية أيضاً التي أشبهت مثيلاتها في منطق اليونان مردّها إلى أنّ تأثّر العرب بمنطق اليونان وفلسفتهم إنما كان في تنظيم النحو وتهذيبه وتقسيمه وفي بعض مصطلحاته وأساليبه وفي طرق الحجاج والمناقشة فيه، ولم يكن التأثّر في أصول النحو وأسسه لأنّ هذه كانت قد وضعت قبل نقل المنطق اليوناني إلى العربية وقبل أن تزدهر حركة الترجمة إليها من غيرها، وانّ ما يقال من أنّ تأثّر النحو العربيّ المباشر بنحو الأجانب أدّي إلى الطفرة فيه وإلى آكتماله المفاجيء في كتاب سيبويه ليس دقيقاً لأنّ فكرة النحو العربيّ فكرة قديمة ترجع إلى منتصف القرن الأول للهجرة، وقد أخذت قواعده تنمو وتتطور إلى أن نضجت واكتملت في أواخر النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة وليس من المعقول أن يكون في الأمر طفرة ليس في مقدور العرب أن يفعلوها وحدهم بعد هذا الزمن الطويل من التطور من أبي الأسود المتوفى سنة ٦٩هـ إلى سيبويه المتوفى سنة ١٨٨هـ، والأمر في حقيقته لا يخرج ـ فيما أظنّ ـ عمّا يقال من أنّ نحاة البصرة الأوّلين قد عرفوا أنّ لبعض اللغات الأجنبية نحواً فحاولوا أن يضعوا للعربية نحواً مماثلاً معتمدين في ذلك على ملكاتهم العقلية التي رقيت بتأثير ما وقفوا عليه من الثقافات الأجنبية وخاصّة فلسفة اليونان(٢٠) ومنطقهم فأبدعوا علم النحو آبتداء على ما قاله ليتمان(٢١) الذي أضاف «أنّه لا يوجد في كتاب سيبويه إلّا ما آخترعه هو والذين تقدّموه»(٢١) وعلى ما قاله فايل من أنّ الرواية العربية حفظت لنا «في مجموعات مختلفة من كتب التراجم وصفاً لمسلك نمو هذا العلم الذي هو أجدر العلوم أن يعدّ عربياً محضاً»(٢٢) وما رآه دي بور من أنّ علم النحو أثر رائع من آثار العقل العربيّ يحقّ للعرب أن يفخروا به، وأنّ العرب لم يكونوا يحبّون أن تعكّر عليهم النظريات الفلسفية العامة صفاء اللذة التي يجدونها في دقائق لغتهم وأنّه كثيراً ما نَفَرَ أساتذة اللغة المتشددون من صيغ لغوية أتى بها مترجمو الكتب الأجنبية(٢٣).

ومثل هذا الذي قيل في تطور قواعد النحو يقال في تطور الحركات التي نشأت رموزها كالنحو بسيطة كنقطة فوق حرف أو بين يديه أو تحته، ثم تطورت مثله إلى وضعها الحالي كحركات مأخوذة من الحروف المشابهة لها حين آكتشف الخليل بن أحمد الرابطة بينهما.

وقد عَرَّفَ أهل الصناعة من القدامى وغيرهم النحو وحده بتعريفات متعددة بعضها يفضي إلى بعض وحدّوه حدوداً تشمل الصرف معه ويؤدي بعضها أيضاً إلى بعض نختار منها جميعاً ما قاله ابن جني المتوفى سنة ٣٩٢هـ من أنّه «انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذّ بعضهم عنها ردّ به إليها»[٢٤] وما قاله عبد القاهر المتوفى سنة ٤٧١هـ «وآعلم أن ليس النظم إلّا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها.... فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلّا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاماً قد وصف بصحّة نظم أو فساده أو وصف بمزيّة وفضل فيه إلّا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويتّصل بباب من أبوابه»[٢٥] وما نقله السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ عن صاحب المستوفى وهو أنّ «النحو صناعة علمية ينظر لها أصحابها في ألفاظ العرب من جهة ما يتألّف بحسب آستعمالهم لتعرف النسبة بين صيغة النظم وصورة المعنى فيتوصل بإحداهما إلى الأخرى»[٢٦] وتعريف الأشموني المتوفى سنة ٩٢٩هـ له بأنّه «العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي آئتلف منها»[٢٧] وتعريف الخضري المتوفى سنة ١٢٨٧هـ له بأنه «يطلق على ما يعمّ الصرف تارة وعلى ما يقابله أخرى ويعرّف على الأول بأنه علم بأصول مستنبطة من كلام العرب يعرف بها أحكام الكلمات العربية حال إفرادها كالإعلال والادغام والحذف والإبدال وحال تركيبها كالإعراب والبناء وما يتبعهما من بيان شروط لنحو النواسخ وحذف العائد وكسر إنّ أو فتحها ونحو ذلك وعلى الثاني يخصّ بأحوال التركيب»[٢٨]

وللنحو صلة وثيقة بفروع العربية الأخرى، فهو من هذه الفروع يرتكز وسائرها

على كلام العرب، ويبحث مثلها فيه، ويتعرف بالاشتراك معها على جميع نواحيه من أساليب وتراكيب في مطلق الكلام، وأوزان وقوافٍ في الشعر منه، وبنيات للكلمات وضبط للأواخر وغير ذلك. ولقد كان النحو أسبق هذه الفروع وضعاً وتدويناً لأنّ اللحن تسّرب إلى الإعراب قبل غيره لذلك احتاجوا أولاً إلى ما يعصم اللسان عن الخطأ فيه، ومردّ اللحن إلى آتساع رقعة الدولة الإسلامية وآختلاط العرب بسواهم وتلاقي لغتين أو أكثر في الألسنة، وهذا ـ كما هو المتصوّر ـ يؤثّر فيها، فتُدخِلُ كلُّ لغة الضيم على صاحبتها. وقد خشى المسلمون على القرآن كما خافوا على اللغة من هذا اللحن فبادر علماؤهم إلى وضع القواعد التي تضبط اللغة وتعين على فهمها وأدائها المعاني وتيسّر في الوقت نفسه لغير أبنائها سبل تعلّمها وإجادتها، وقد وصف ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ الأمر كلّه وصفاً دقيقاً شاملاً فقال «لمّا جاء الإسلام وفارقوا الحجاز.... وخالطوا العجم تغيّرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعربين.... ففسدت بما ألقي إليها ممّا يغايرها لجنوحها إليه بآعتياد السمع، وخشي أهل الحلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً ويطول العهد فينغلق القرآن والحديث على الفهوم، فآستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه منها بالأشباه مثل انّ الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع، ثم رأوا تغيّر الدلالة بتغيّر حركات هذه الكلمات فآصطلحوا على تسميته إعراباً وتسمية الموجب لذلك التغيّر عاملاً وأمثال ذلك، وصارت كلّها اصطلاحات خاصة بهم فقيّدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة وآصطلحوا على تسميتها بعلم النحو»[٢٩].

ولقد بدأ اللحن في ألسنة العامة،وآشتهر من أمثلة ذلك قولهم في البادية هذه عصاتي[٣٠]بدل عصاي، وقولهم بالعراق حيِّ على الصلاة بكسر الياء بدل فتحها، وقول أعرابيّ لمؤذن قال أشهد أنّ محمداً رسولَ الله بنصب رسول: ويحك يفعل ماذا؟ وقد ألّفت كتب فيما تلحن به العامة ككتب الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ وأبي عبيدة المتوفى سنة ٢١٠هـ والمازني المتوفى سنة ٢٤٩هـ وأبي حاتم السجستاني المتوفى سنة ٢٥٠هـ، ثم تسرّب إلى ألسنة الخاصة فصنّفت لهم بعد ذلك كتب فيما لحنوا فيه ككتاب

ما تلحن فيه الخاصة لأبي هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥هـ وكتاب درّة الغوّاص في أوهام الخواص للحريري المتوفى سنة ٥١٦هـ الذي وضع الجو اليقي المتوفى سنة ٥٣٩هـ تتمته.

وفي واضع النحو وتاريخ الوضع اضطراب في الأقوال وعماية آتّسعت لتضارب الآراء، فقد زُعِمَ أنّ واضعه نصر بن عاصم[٣١] المتوفى سنة ٨٩هـ وأنّ أوّل كتاب وضع في النحو كان له على التحقيق[٣٢]، أو عبد الرحمن بن هرمز[٣١] المتوفى سنة ١١٧هـ، قال آبن النديم «قرأت بخطّ أبي عبدالله بن مقلة عن ثعلب أنّه قال: روى آبن لهيعة عن أبي النضر قال: كان عبدالرحمن بن هرمز أول من وضع العربية»[٣٣]، أو ابن أبي إسحاق[٣١] المتوفى سنة ١١٧هـ، وزَعَمَ ابن[٣٤] فارس وغيره أنّ النحو قديم في العرب أبلته الأيام وقلّ في أيدي الناس ثم جدّده الإسلام على يد أبي الأسود بإرشاد الامام عليٍّ، وقد غلا ابن فارس في هذا غلواً شديداً إذ نسب للعرب العاربة معرفتهم بمصطلحات النحو بتوقيف مَنْ قبلهم حتى آنتهى الأمر إلى الموقّف الأول وهو الله الذي علّم آدم الأسماء كلّها.

والمختار لا يعدو أن يكون عليًّا المقتول سنة ٤٠هـ لما روي عن أبي الأسود أنّه سئل «من أين لك هذا النحو؟ فقال: لفَقْتُ حدوده من عليٍّ بن أبي طالب»[٣٥] ولقول أبي عبيدة وغيره «أخذ أبو الأسود النحو عن عليٍّ بن أبي طالب»[٣٦] ولما رواه آبن النديم من أنّ محمد بن إسحاق قال «زعم أكثر العلماء انّ النحو أخذ عن أبي الأسود الدؤلي، وانّ أبا الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب[٣٧]» ولما ذكره الأنباري من أنّ الصحيح أنّ أول من وضع علم العربية وأسّس قواعده وحّد حدوده أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب، وأخذ عنه أبو الأسود[٣٨]، ولقول القفطي «الجمهور من أهل الرواية على أنّ أوّل من وضع النحو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب»[٣٩] ولقوله أيضاً «رأيت بمصر في زمن الطلب بأيدي الورّاقين جزءاً فيه أبواب من النحو يُجمعون على أنّها مقدّمة عليٍّ بن أبي طالب التي أخذها عنه أبو الأسود الدؤلي»[٣٩] ولقوله كذلك «وأهل مصر قاطبة يرون بعد النقل والتصحيح أنّ أوّل من وضع النحو عليّ بن أبي طالب

وأخذ عنه أبو الأسود الدؤلي، وأخذ عن أبي الأسود الدؤلي نصر بن عاصم»(٣٩).

أو أن يكون أبا الأسود الدؤلي نفسه المتوفى سنة ٦٩هـ بأمر عليٍّ أو زياد بن أبيه أو ابنه، لما لوضع النحو من خطورة تقتضي التفرغ التام، وهو متاح لأبي الأسود، في حين تقضّت حياة عليٍّ وغيره في الكفاح وسياسة الناس، روي أنّ رجلاً بمدينة الحديثة اسمه محمد بن الحسين كان جمّاعة للكتب وقد آلت إليه خزانة صديق له كان مشتهراً بجمع الخطوط القديمة، قال ابن النديم «فرأيتها وقلبتها فرأيت عجباً إلّا أنّ الزمان قد أخلقها وعمل فيها عملاً أدرسها.... ورأيت ما يدلّ على أنّ النحو عن أبي الأسود ما هذه حكايته، وهي (أربعة) أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها: هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود رحمة الله عليه بخطّ يحيى بن يعمر»(٤٠)وقال محمد بن سلام الجمحي «كان أوّل من أسّس العربية وفتح بأبها وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي»(٤١)وقال ابن قتيبة إنّ أبا الأسود «يعدّ في... النحويين لأنّه أوّل من عمل في النحو كتاباً»(٤٢)، وذهب معاصر إلى أنّ أبا الأسود استعرض طائفة من كلام العرب وتوصّل إلى استنباط بعض القواعد بإرشاد الإمام عليٍّ وأسماها النّحو ودوّنها في صحيفة له عرفت عند النحاة بالتعليقة وهي أول كتاب دوّن في علم اللسان العربي(٤٣).

على انّ أبا الأسود لم يسلم ممّن يشكّك في أولية وضعه النحو بحجة أنّ عصره لم يكن يتواءم مع ما نسب إليه من الاصطلاحات(٤٤)الوضعية المرتبة، فعل هذا الاستاذ أحمد أمين حين ذهب إلى انّ الرواة يكادون يتفقون على انّ أبا الأسود ابتكر شكل المصحف، وإلى أنّ هذا يعدّ خطوة أولية في سبيل النحو تتمشّى مع قانون النشوء، وأنّه من الممكن أن تأتي من أبي الأسود، وأنّ هذا «يلفت النظر إلى النحو، فعمل أبي الأسود يسلم إلى التفكير في الإعراب ووضع القواعد له.... وانّ هذه الأمور لمّا توسّع العلماء فيها بعدُ وسمّوا كلامهم نحواً سحبوا اسم النحو على ما كان قبلُ من أبي الأسود وقالوا: إنّه واضع النحو للشبه في الأساس بين ما صنع وما صنعوا، وربّما لم يكن هو يعرف اسم النحو بتاتاً... إنّما الذي له الفضل الأكبر في ذلك الخليل بن أحمد ذو العقل الجبار المبتكر الذي قلّ أن يوجد له نظير في علماء ذلك العصر، والذي عكف على العلم يخترع فيه ويستنبط أصوله من فروعه على طريقة لم يسبق إليها... وهو

الذي عمل النحو الذي نعرفه إلى اليوم».[٤٥]

وفعل هذا أيضاً الأستاذ إبراهيم مصطفى الذي عَدَّ تقبّل فكرة وضع أبي الأسود للنحو أمراً لا يستساغ وقال «إنّه لا يعقل أن يكون هذا الزمن المبكّر قد تمكّن فيه العرب من الاشتغال بالعلوم ووضع القواعد على هذا الوجه الذي نراه في كتب العربية، وقد أنكر ذلك[٤٦] المستشرقون وعدّوه حديث خرافة، ولقد ساقنا هذا الإشكال إلى أن ننتهج سبيلاً أخرى في البحث فتتبّعنا كتب النحو الباقية بأيدينا لنعلم أقدم عالم نسب إليه رأي نحويّ في هذه الكتب، وكان أول هذه الكتب كتاب سيبويه، ويلاحظ أول ما يلاحظ أننا لم نجد في كتاب سيبويه ولا فيما بعده من الكتب رأياً نحوياً نسب إلى أبي الأسود ولا إلى طبقتين بعده، فنحن أمام حقيقة واضحة أخذت من كتب النحو وهي أنّ أقدم من نسب إليه رأي نحويّ هو عبدالله بن أبي اسحاق الحضرمي[٤٧]، أمّا عمل أبي الأسود فقد كان نقط المصحف كما أشارت إليه الروايات لضبطه على سبيل العرب وسمتها في القول، وذلك ما كان يقصده الرواة من كلمة النحو، وهو عمل طبيعيّ في صدر الدولة الإسلامية، أمّا هذه القواعد النحوية التي كتب لها هذا العمر الطويل فإنّ أول من نهج سبيلها عبدالله بن أبي اسحاق، وقد دخل عامل آخر في الأمر وهو هوى بعض المؤلفين إذ كانوا يحبّون أن ينسب كل شيء إلى عليّ وشيعته، فخفيت الحقيقة حتى آن أن يجلّيها البحث في كتب النحو ذاتها لا في أخبار الطبقات»[٤٨].

في حين ناقش الشيخ محمد الطنطاوي هذه الشكوك فقال «نحن لا ندّعي أنّ أبا الأسود قد وفّق إلى النحو على غرار ما نراه في كتبنا من تعريفات ومصطلحات وتقاسيم فإنّ طبيعة عهده السابق على عصر المقننين تقتضي مجرد آتجاهه إلى أبواب هذا العلم إجمالاً حسبما تقتضيه الفطرة العربية... وذلك كافٍ في اعتباره المؤسس له... إلاّ أنّه مما لا يختلف فيه آثنان أنّ النهضة بهذا العلم... كان عمادها الخليل بن أحمد... ومع هذا فإنّ عناصره الأساسية التي آهتدى إليها أبو الأسود بتعليم وإقرار الإمام عليٍّ لم تتغيّر ولم تتبدّل... على أنّنا لو تمثّلنا شخصية أبي الأسود ونزعته وعصره... لأيقنّا صحة هذه النسبة، فقد كان علويّ الرأي يجاهر بتشيّعه... وقد توالت خلافة الأمويين زمناً ليس بالقصير وهم منطوون على نار من الحقد للعلويين وأتباعهم... فكيف يَدَّعُون



أمراً خطيراً كهذا يمضي على كرّ الزمـان ويخلد في بطـون الأسفار، وهم أحـرص الناس على الغضّ من شأن العلويين وشيعتهم ولاسيمـا في مثل هـذا الشأن ذي البـال والأثر الخالد»[٤٩].

وناقشها أيضـاً مناقشـة مستفيضة بـاحث معاصر آخـر فذهب إلى أنّ مـا دفع الاستاذ إبراهيم مصطفى إلى ما قاله هو عـلى ما يبـدو إنكار المستشـرقين الـذي عدّه حقيقة لا تقبل الجدل على الرغم من أنّ الرواة يكادون يجمعون عـلى أنّ واضع النحـو هو أبو الأسود بأمر عليٍّ، وليس لهم مصلحة تجعلهم يؤثرون عـالماً عـلى غيره ولا واليـاً على آخر، وهم ليسـوا متعصبين لأبي الأسـود وعليٍّ ليـدفعهم تعصّبهم إلى بغض زياد وابن أبي اسحاق، ونحن إن علمنا أنّ في تاريخ زياد ما يدعو إلى بغضه فلسنا نعلم من تاريخ ابن أبي اسحاق ما يدعو إلى كراهيته، بل إنّ الرواة ينسبون إليه أنّه كان الغاية في النحو شديد التجريد للقياس فيـه، وأنه أوّل من علّلـه[٥٠]. وحتى زياد نفسـه فإنّهم أيضاً ينسبون له أو لموافقته فضل فكرة ضبط المصحف لحفظه سليماً، لأنه كما يقولون الذي جمع الرجال الذين اختار منهم أبو الأسود من أعانه على إنجاز عمله.

وقد أضاف هذا الباحث أنّ أحداً لم يقل إنّ أبا الأسود وضع النحو كاملاً، فهـو قد وضـع فكرة أبواب استدعتها الظروف بدون دقـة أو تفريـع ممّا نـراه اليوم في كتب النحو، ولا ينبغي على كل حال أن يستغرب منه التفكير في وضع قواعد عامة تساعد على ضبط اللغة بعد أن عمـل على ضبط المصحف، وإذا كـانت صلة أبي الأسـود بعليّ مـا نعرف، وإذا كان زياد في حياة عليٍّ من أنصاره وقوّاده، فإنّه لن يكون عسيـراً علينا أن نفهم الصلـة التي تربط عليًّـا بهذا المـوضوع، أمـا المنهج الـذي سار عليـه الأستـاذ إبراهيم ليعلم أقدم عالم نسب إليه رأي نحويّ في الكتب الموجودة بين أيدينا ففيـه كثير من القصور لأنّه جعل الكتابة والتقييد معياراً له مع أننا نعلم أنّ الكتابة جاءت متأخرة عند العرب، وأنّ العلماء ظلّوا فترة طويلة يعتمدون على الرواة والحفاظ، وأنّ العنايـة في التـدوين لم توجـه في أول الأمر إلّا للمصحف، فليس بغـريب إذن أن يتأخـر تسجيـل النحـو، وليس بغريب كـذلك ألّا ينسب إلى أبي الأسـود شيء في كتاب سيبـويه، فعـدم نسبة شيء إلى أبي الأسود إذن لا يدلّ على أنّه لم يكن له رأي في النحو، وأمّا ذهابه إلى أنّ مراد الرواة بالنحو الذي نسبوا وضعه لأبي الأسود هـو نقط المصحف فحسب وانّ

الأمر اختلط عليهم فظنّوا أنّه بذلك وضع النحو فهو ممّا لا يستقيم، إذ لا يعقل أن يختلط الأمر على الرواة وهم ينصّون على نقط أبي الأسود للمصحف مرّة وعلى وضعه مسائل من النحو مرّة أخرى، وليس هناك في الوقت نفسه ما يدعونا إلى أن نسيء الظنّ بالرواة وهم أكثر منّا بحثاً في لغة العرب وأقرب منّا زمناً لنشأة العلم، ثم ماذا نقول فيما ينسبه ابن عبد ربّه إلى أبي الأسود من أنّه قال: من العرب من يقول لولاي لكان كذا وكذا، أليس هذا بحثاً في صميم النحو؟ ثم أليس ردّه على بني قشير حين قالوا بعد أن سمعوا أبياته:

يقول الأرذلون بنو قشير ... طوال الدهر لاتنسى عليا
فقلت لهم: وكيف يكون تركي ... من الأعمال ما يجدي عليا
أحبّ محمداً حبًّا شديداً ... وعبّاساً وحمزة والوصيا
فإن يك حبّهم رشداً أصبه ... ولست بمخطيء إن كان غيّا

شككت يا أبا الأسود في قولك: فإن يك حبّهم، فقال أما سمعتم قول الله تعالى: وإنّا وإيّاكم لعلى هدى أو في ضلال مبين؟[٥١]أليس ردّه هذا استدلالاً في مسألة نحوية؟ وإذا كان ذلك لم يذكر في كتب النحو فإنّ ذكره في كتب الأدب لم يخرجه عن طبيعته النحوية، كما لا يستطيع أحد أن يدعي أنّ عالماً ينقط المصحف كلمة كلمة ويلاحظ حركات حروفه حرفاً حرفاً ثم يخرج من عمله هذا دون أن تتكوّن لديه فكرة أولية عن شئون النحو[٥٢].

وأيًّا ما كان الأمر في هذا الموضوع فإنّه من العسير جداً تجليته تجلية تامة وبيان حقيقته على وجه القطع وذلك لكثرة ما فيه من الأقوال المتضاربة والروايات المتعددة والمواقف المتعارضة، فقد رأينا من يقول إنّ نسبة وضع النحو إلى الإمام عليّ دفعت إليها روح التشيّع عند أصحابها كما هو الحال عند القائلين بذلك من القدماء، وأنّها شاعت في البيئات الشيعية كما كان في مصر أيام القفطي، ويرى أنّ انشغال عليّ بمسئولياته الدينية والسياسية يحول في الحقيقة دون ذلك، بالإضافة إلى أنّ ابن سلام وهو أقدم من أثرت عنهم الرواية في هذا الموضوع لم يشر إلى مجهود عليّ في تأسيس النحو.



وهناك من يذهب إلى أنّ شبه الاجماع في جانب أبي الأسود وحده، وانّ أحداً من الرواة حتى من بين من نسب وضع النحو إلى غير أبي الأسود لم يتعرض لنفي نسبة الوضع إليه، وأنّ ما رواه ابن النديم من أنّ عبدالرحمن بن هرمز أول من وضع العربية لا ينهض لأنّه رواية من مصدر واحد لا يوجد ما يدعمها من المنقول أو المعقول فضلاً عن أنّ ابن النديم نفسه ساقها في حديث واحد إلى جانب روايات أخرى تنسب وضع النحو لغيره فلا يعوّل عليها إذن إزاء شبه الإجماع في جانب الدؤلي، هذا بالإضافة إلى مصحف مخطوط(٥٣)عثر عليه في مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط، وهو أثر مادي قديم جمع الشكل الذي وضعه أبو الأسود بمداد أحمر، ونقط الإعجام التي عرفت عن نصر بن عاصم بمداد أسود(٥٤).

وهناك من ينادي بإخراج وضع نصر بن عاصم نقط الإعجام من دائرة النحو لأنّه ليس منه، ويعتقد في الوقت نفسه أنّ تأليفه كتاباً في النحو كما قيل لا يعني أنّه أول كتاب فيه لأنّ أبا الأسود قبله ترك صحيفة في النحو لم يكتب(٥٥)غيرها، ولأنّ المدة التي عاشها نصر بعد وفاة أبي الأسود وهي عشرون سنة تسمح له بتأليف كتاب في النحو بعده، وهذا على كل حال لا يقوى على الطعن في نسبة أولية الوضع في النحو لأبي الأسود.

ومن الواضح أنّ حصيلة هذه الأقوال والمناقشات تؤول بقارئها إلى أن يشعر بأنه لا سبيل إلى تحقيق تاريخ وضع النحو البتّة، وإلى أنّ معرفة واضعه تكاد تكون معضلة، كما أنّها تفضي في الوقت نفسه إلى حقيقة تبدو وحدها مؤكدة وهي أنّ وضع النحو إنما كان في الفترة المحصورة بين عليّ المقتول سنة ٤٠هـ وعبدالرحمن بن هرمز المتوفى سنة ١١٧هـ وهي لا تتجاوز كثيراً سبعين سنة.

وقد أصاب الاضطراب أيضاً الروايات في السبب الذي حمل أبا الأسود على وضع النحو كما هو راجح على ما نطق به جمهور الرواة، فقد روي أنّه سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى «أنَّ الله بريء من المشركين ورسوله»(٥٦)بكسر اللام في رسوله فقال: ما ظننت أمر الناس يصل إلى هذا ووفد على زياد بن أبيه والي البصرة ـ أو على ابنه عبيدالله

واليهـا من بعده ـ وقـال له: إنّي أرى العـرب قد خـالطت الأعـاجم وتغيّـرت ألسنتهم أفتأذن لي أن أضع للعرب ما يقيمون به كـلامهم؟ وقيل إنّ رجـلاً لحن أمام زيـاد ـ أو آبنه عبيدالله ـ فطلب من أبي الأسود أن يرسم للناس العربية، وقيل إنّـه رسمها حـين سمع آبنته تقول ما أحسنُ السماء وهي لا تريد الاستفهام وإنّمـا تريـد التعجب فقال لها قولي ما أحسنَ السّماءَ، وروي أنّه شكا فساد لسانها لعليّ فـوضع لـه بعض أبواب النحو وقال له: انح هذا النحو. إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة المشهورة والمبثـوثة في ثنايا كتب التراجم وأمهات مصنفات الأدب.

ولا ينبغي لنا الشك في جيمع أسباب وضـع أبي الأسود النحـو لتعدد روايـاتها وتنـاقضها وآضطـرابها، والأقـرب أن تؤدّي بالنفس إلى الإطمئنـان والثقة بـأن سبب وضـع النحو لابّـد أن يعود إلى أسبـاب متعددة لا إلى سبب واحـد إذْ الأليق أن يكون الباعث على الوضع التعدد في الخطأ والتنوع فيه وليس الخطأ الواحـد الذي يمكن أن لا يكون حافزاً كافياً للقيام بمثل هذه المهمة الجليلة.

وكما آضطربت الروايات في السبب الذي حمل أبا الأسود على وضع النحو فإنّها آختلفت كذلك في أولّ ما وُضِعَ من أبوابه بصرف النظر عن الواضع، فقـد روي أنّ أبا الأسـود «وضع بـاب الفاعـل والمفعول بـه والمضاف وحـروف الرفـع والنصب والجـرّ والجـزم»[٥٧] وروي أنّ أول من أصّل النحـو وأعمل فكـره فيـه «أبـو الأسـود الـدؤلي ونصر بن عاصم وعبد الـرحمن بن هرمـز فوضعـوا للنحو أبـواباً وأصّلـوا له أصـولاً، فـذكروا عـوامل الـرفع والنصب والخفض والجـزم ووضعوا بـاب الفـاعـل والمفعـول والتعجب والمضاف»[٥٨] وروي أنّ «سبب وضع عليّ لهذا العلم ما روى أبو الأسـود قال دخلت على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب فوجدت في يده رقعـة فقلت ما هـذا يا أمـير المؤمنين؟ فقال إنّي تأملت كلام الناس فوجدته قد فسد بمخالطة هـذه الحمراء ـ يعني الأعاجم ـ فأردتُ أن أضع لهم شيئاً يرجعون إليه ويعتمدون عليه ثم ألقى إليّ الرقعـة وفيها مكتوب، الكلام كلّه آسم وفعل وحرف، فـالاسم ما أنبـأ عن المسمّى، والفعل مـا أُنبيء به، والحرف ما جاء لمعنى، وقـال لي أنح هـذا النحو وأضف إليـه ما وقـع إليك، وآعلم يا أبا الأسود أنّ الأسماء ثلاثة: ظاهر ومضمر وآسم لا ظاهر ولا مضمر، وإنّمـا

تتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهـر ولا مضمر، وأراد بـذلك الاسم المبهم، قال أبو الأسود: فكان أول ما وقع لي إنّ وأخواتها ما خلا لكن، فلمّا عرضتهـا على علـيّ قال لي: وأين لكن؟ فقلت: ما حسبتها منها، فقال هي منها فـألحقها، ثم قـال ما أحسن هذا النحو الذي نحوت، فلذلك سمّي النحو نحواً»(٥٩).

وقد نشأ النحو ونما وآزْدَهَرَ في البصرة والكوفة حيث آستوطنهما العرب والعجم معاً وظهر اللحن فيهما بينهم ظهوراً لا مثيل له في سائر البلاد، قال أبو الطيب «ولا علم للعرب إلاّ في هاتين المدينتين، فأمّا مدينة الرّسول فلا نعلم بهـا إمامـاً في العربيـة، قال الأصمعي: أقمت بالمدينة زماناً ما رأيت بهـا قصيدة واحـدة صحيحة إلاّ مصحفـة أو مصنوعة، وكان بها ابن دأب يضع الشعر وأحـاديث السمر وكـلاماً ينسبـه إلى العرب فسقط وذهب علمه وخفيت روايته.... وممّن كان بالمدينة أيضاً عليّ الملقب بالجمل وكان وضع في النحو كتاباً لم يكن شيئـاً، وأمّا مكـة فكان بهـا رجل من المـوالي يقال لـه ابن قسطنطين يشدو شيئاً من النحو، فأخبرنا جعفر بن محمـد، قال: أخبـرنا إبـراهيم بن حميد قال: أخبرنا أبو حاتم قال: وضع ابن قسطنطـين بمكة شيئـاً من النحو، ثم قـدم البصرة فسمع النحو فطرح جميـع ما كـان عمل ووضـع شيئاً آخـر لا يساوي شيئـاً أيضاً، وأمّا بغـداد فمدينـة ملك وليس بمـدينة علم، ومـا فيها من العلم فمنقـول إليها ومجلوب للخلفاء وأتباعهم ورعيتهم»(٦٠).

ولقد مرّ علم النحو بمراحل تطور متعاقبة كانت في البدايـة سريعـة وذلك بسبب ارتباطه بضبط القرآن والحديث حتى يظلاّ بمنجاة من اللحن والتحـريف ممّا جعلـه في حقيقة الأمر ثمرة من ثمرات الـدراسة القـرآنية، وهـذه المراحـل هي: إعراب القـرآن بوضع رموز لحركات أواخر كلماته وهو العمل الـذي قام بـه أبو الأسـود، ثم إعجامـه لتمييز حروف الهجاء المتشابهة في الصورة بعضهـا عن بعض وهو مـا قام بـه نصر بن عاصم، ثم استبدال ما فعله أبو الأسود بوضع الخليل بن أحمد الحركات التي نعرفها للإعراب مع بقاء نقط الإعجام على ما كانت عليه، وبعد هذا بدأ النحـو يبحث في تأليف الكلام وعلله، ثم آتجه أخيراً عبر أزمان ممتدة طويلـة إلى ما نـراه من أشكال الـدرس فيه على نحو ما هو مشاهد في أمهات كتب النحو عند المتأخرين.

ولقد ظهرت في مراحل التطور المتعاقبة علامات جديرة بالتسجيل، من ذلك: ضرب المثل وسوق الدليل لبيان صحة ما ذهب إليه أهله كما حدث في قصة أبي الأسود[٦١] مع بني قشير، ومنه: إجابة العلماء على ما أصبح يوجّه إليهم من الأسئلة عن ضبط معيّن أو استعمال خاص كالذي روي من قول أبي الأسود «من العرب من يقول لولاي لكان كذا وكذا»[٦٢] فالمظنون أن يكون هذا ردًّا أو كالردّ على سؤال وجّه أو يمكن أن يوجّه إليه عن جواز استعمال الضمير بعد لولا، وكسؤال الحجاج ليحي بن يعمر المتوفى سنة ١٢٩هـ «أتجدني ألحن؟ قال: الأمير أفصح من ذاك، قال: عزمتُ عليك لتخبرني،وكانوا يعظمون عزائم الأمراء، فقال يحي بن يعمر: نعم في كتاب الله، قال: ذاك أشنع له،ففي أيّ شيء من كتاب الله؟ قال: قرأت: قلْ إن كان آباؤكم وآبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال آقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله[٦٣]؛ فترفع أحبّ وهو منصوب، قال إذاً لا تسمعني ألحن بعدها، فنفاه إلى خراسان»[٦٤].

ومن هذه العلامات بدء التعليل والقياس على يد عبدالله بن أبي اسحاق الحضرمي المتوفى سنة ١١٧هـ الذي قال عنه يونس «هو والبحر سواء»[٦٥] أي هو الغاية، والذي تعقب الفرزدق وهو من هو في الفصاحة وخطّأه في قوله:

وعضُّ زمانٍ يا بنَ مروان لم يدع مـن المال إلّا مسحتاً أو مجلّف

إذ قال له: على أيّ شيء ترفع أو مجلف؟ فأجابه: على ما يسوءك وينوءك[٦٦]. فقد كان الحضرميّ يعلّل لما يراه بأنه معطوف على منصوب فينصب. والذي تعقبه أيضاً في مدحه يزيد بن عبدالملك بقوله:

مستقبلين شمال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منثور
على عمائمنا يُلْقَى وأرحُلنا على زواحف تُزْجَى مخُّها رِيرِ

إذ قال له: أسأت إنما هو: مُخُّها ريرُ، وكذلك قياس النحو في هذا الموضع[٦٦].

ولمّا رأى الفرزدق هذا التتبع من الحضرمي ثارت نفسه عليه فقال يهجوه:

فلو كان عبدالله مولىً هجوته ولكن عبدالله مولَى مَوَاليا



ولم يترك ابن أبي اسحاق هذا أيضاً بدون نقد فقال له: لقد لحنت فيه وكان ينبغي أن تقول: مولى مَوَالٍ(٦٦).

ويعدّ من هذه العلامات أيضاً بروز ظاهرة التفسير والشرح والتعليل مما أخرج النحو عن دائرة الرواية وحدها إذ لم يعد النحاة كعيسى بن عمر المتوفى سنة ١٤٩هـ وأبي عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤هـ يكتفون بنقل ما يسمعون ولكنهم أخذوا يحاولون إلى جانب التماس العلل والأسباب لوجهات نظرهم في مسائل النحو التي لم تعد متفقاً عليها فتح باب الحجاج والجدل والتخريج والتأويل ونحو ذلك مما يعني أن الدرس النحوي قد خطا على أيديهم خطوة متقدمة إلى الأمام.

ومن أهم العلامات ظهور علم النحو على يد الخليل بن أحمد المتوفي سنة ١٧٥هـ وسيبويه المتوفي سنة ١٨٨هـ تاماً مكتملاً ناضجاً وضعت قواعده وفرعت مسائله وبسطت قضاياه ومدّت أطنابه وفتقت معانيه والتمست له العلل وآفترضت فيه الفروض، وأوضح فيه الحجاج حتى بلغ أقصى حدوده وأقيم فيه الحوار على أسس دقيقة متماسكة يفضي بعضها إلى بعض على نحو ما كان منهما في كتاب سيبويه بينه وبين أستاذه الخليل مّما يحيط بالنحو ويقف بالنظرة الشاملة على كل صغيرة وكبيرة فيه مع الموازنة والاستنباط.

ويعدّ الخليل وسيبويه أبرز أعلام النحو في جميع المراحل فهما اللذان ملآه بالأصول والفروع والأدلة والأقيسة،وسيبويه هو الذي أخرج كتابه الجامع لقواعد النحو المحيط بمسائله فقد كان الخليل كما يقول أحمد أمين أرقى من أن يعكف على الكتب يدوّنها فهو يخترع العلم.ويتركه لتلاميذه يدوّنونه ولم يكن يرضى أن يؤلّف في النحو حرفاً أو يرسم منه رسماً واكتفى في ذلك بما أوحى إلى سيبويه من علمه ولقنه من دقائق نظره ونتائج فكره ولطائف حكمته فحمل سيبويه ذلك عنه وتقلّده وألّف.فيه الكتاب الذي أعجز من تقدّم قبله كما آمتنع على من تأخّر بعده(٦٧)، لذلك أكثر سيبويه في كتابه من النقل عن أستاذه الخليل، ونقل كذلك عن غيره، بالإضافة إلى رواية ما سمعه والموازنة بين ما يروي وينقل وغير ذلك من الأمور التي تجعل النحو في كتابه

مشارفاً على التمام ممّا مهّد الطريق للتالين لكي يضعوا مسائل النحو في وضعها النهائي الذي نشاهده الآن، ولكي يسمّوا مصطلحاته التسمية الاصطلاحية ويحدّدوها التحديد الواضح الدقيق اللذين نعرفهما في الوقت الحاضر.

وعندي أنّ سيبويه يعدّ أول من فتح باب التفلسف في الدرس النحويّ ليلجه بعد ذلك من وليه من النحاة المناطقة في العصور المتعاقبة وليمعنوا في منطقة النحو وفلسفته بما أخرج أكثر مسائله في النهاية عن دائرة الحسّ اللغوّي والرواية الصافية ليدخلها في دائرة المعقول وذلك عن طريق آفتراضه الأساليب وإتيانه أحياناً بالمعقد منها وعقده الأبواب التي تتضمّن ما جاء به النحويون منها قياساً ممّا لم تتكلم به العرب حتى تكمل لهم الأوجه التي تصوروها[٦٨].

أما المرحلة الأخيرة الطويلة الممتدة فهي مستمرّة إلى عصرنا الحاضر الذي شهد محاولات لا يمكن وصفها بالحاسمة على يد بعض المعاصرين في سبيل نحو ميسّر مبسّط سهل إلى نحو ذلك من النعوت، وأهمّ مظاهر هذه المرحلة تأثّر النحو بالمنطق في البدء تأثّراً لم يلبث أن تصاعد جيلاً بعد جيل، تتضح أوائل ذلك عند المبرّد المتوفى سنة ٢٨٥هـ وذلك على نحو يزيد في الغالب على ما كان منه في نحو سيبويه، فقد شهد المبرّد آتساع نطاق الترجمة للمنطق والفلسفة وسائر العلوم والمعارف، وتأثّر لذلك في نحوه بالمنهج الفلسفي وبطرائق المتكلمين ومصطلحاتهم وأساليبهم، يظهر هذا جليًّا في مثل قوله «فأمّا طلحة فلو قلت في جمعها طلحتون للزمك أن تكون أنثته وذكّرته في حال وهذا هو المحال»[٦٩] وقوله عن الأفعال «كان حدّها ألّا يعرب شيء منها لأنّ الإعراب لا يكون إلّا بعامل، فإذا جعلت لها عوامل تعمل فيها لزمك أن تجعل لعواملها عوامل، وكذلك لعوامل عواملها إلى ما لا نهاية»[٧٠] وقد آفترض المبرد كسيبويه الصيغ وربّما تعّسف فيها وآبتعد بها عن اللسان العربيّ على نحو ما فعل من بنائه مثل جعفر من قلت وبعت ومثل تِفْعِل من القول والبيع ومثل تُفْعُل منهما[٧١] كما افترض مثله الأساليب وربّما بالغ فيها وأغرب وجنح إلى التعقيد اللفظي والتعليل المنطقي كما فعل في باب مسائل أيّ في[٧٢] الاستفهام، وكقوله عن الموصول «فإن قلت: الذي التي اللذان الذين التي في الدار جاريتُهم منطلقون إليهما صاحباها أخته زيد، كان جيداً بالغا»[٧٣].



ومـع انّ التأثـر بالمنطق والفلسفـة والالتزام بهمـا في الدرس النحـويّ كان أهم مظاهر هذه المرحلة منذ بدايتها فإنّ رفض بعض النحاة منذ البداية لهذا الاتجـاه يعدّ أيضاً من أهمّ معالمها، فقد رأينا الجرمي مثلاً المتوفى سنة ٢٢٥هـ يأبي التعقيد ويكره كثرة التقديرات بل يرى أنّ ما لا يحتاج إلى تقديـر خير ممّـا يحتاج إليـه، وكان يـرى أيضاً أن يقتصر في النحو على السماع والقياس على المسموع دون الإتيان بفـروض غير مستعملة وصور ذهنية نظرية لم يرد لها مثيل عن العرب على نحو ما جاء به المبرد ومن بعده لأنّ في ذلك تكلفاً شديداً.

وهذه الفروض والصور إن دلّت على قدم راسخة في العلم وعلى تمرّس أصحـابها الطويل به فإنّها في الحقيقة تبعث الآن على ضيق لا يقلّ عن ضيق بعض المتقدّمين بهـا كالجرمي وكابن مضاء المتوفى سنة ٥٩٢هـ الذي حمل في كتابه «الردّ على النحـاة» على كل ذلك حملة شعواء وكغيرهما.

عـلى أنّ كثرة نـاقدي النحـو ولاسيّما في الـزمان الأخـير لما شـابه من التمنطق والتفلسف ثم غلب عليه منهما في شتّى نـواحي درسه لا يعني بـالضرورة الـدعوة إلى نبذه وإهماله واطراحه، ذلك لا ينبغي أن يخطر على بال منصف، فللنحو فائدته وفضله وللنحـاة منازلهم وأقـدارهم، ويكفي النحو أننـا نبحث فيه عن اللغـة التي تكلمت بهـا العرب ونزل بها القرآن. كلّ ما ينبغي أن نتطلع إليه ونعمل في سبيله بهدوء ورويّة ودون تحامل هو أن يكون النحو خالياً من التعمية والتكلف والتعقيد والافتعال ونحـو ذلك من السلبيات المرفوضة في صيغه وأساليبـه وأفكاره وأمثلتـه. أمّا مـا كان من كـره بعض الناس ـ علماء وغير علماء في الأزمنة المختلفة ـ للنحو ورفضهم له بحجة ما رأوه فيـه، وذلـك كالـذي روي من أنّ اعرابيًـا وقف على حلقـة أبي زيد الأنصـاري المتوفى سنـة ٢١٥هـ فظنّه قد جاء يسأل عن مسألة في النحو فقال له: سل يا أعرابيّ، فقـال له عـلى البديهة:

لسـت للنحـو جئتكـم لا ولا فيـه أرغـب
أنـا مـالي ولامـرىء أبـد الـدهـر يُضْـرَب
خـلّ زيـداً لشـأنـه أينمـا شـاء يـذهـب

وٱستمع قول عاشق قد شجاه التَّطَرُّب
هَمُّهُ الدهرَ طَفْلَةٌ[٧٤] فهو فيها يُشبّب[٧٥]

وما روي من إنشاد عمّار[٧٦] الكلبيّ في هجاء النحويين وقد عيب عليه بيت من شعره فٱمتعض لذلك:

ماذا لقينا من المستعربين ومن قياس نحوهم هذا الذي ٱبتدعوا
إن قلت قافية بِكْراً يكون بها بيت خلاف الذي قاسوه أو ذَرعوا
قالوا لحنت وهذا ليس منتصباً وذاك خفض وهذا ليس يرتفع
وحرّضوا[٧٧] بين عبدالله من حُمُقٍ وبين زيد فطال الضرب والوجع
كم بين قوم قد ٱحتالوا لمنطقهم وبين قوم على إعرابهم طُبعوا
ما كلّ قوليَ مشروحاً لكم فخذوا ما تعرفون وما لم تعرفوا فَدَعوا
لأنّ أرضيَ أرض لا تُشَبُّ بها نارُ المجوس[٧٨] ولا تُبْنَى[٧٩] بها البيَع[٨٠]

أقول إنّ هذا وأمثّاله ينطوي على مبالغات ينبغي أن تردّها أو تحدّ من أثرها مأثورات كثيرة تضادّها في الاتجاه وتتفوّق عليها في القوة، وقصص متعددة تظهر منزلة النحاة وتصّرح باعتزازهم بأنفسهم وتبين صوراً من تكريمهم، فقد كان عبدالملك بن مروان يقول «تعلّموا النحو كما تتعلمون السنن والفرائض»[٨١]، وممّا ٱمتدح به النحو قول الشاعر:

النحو يَبْسُط من لسان الألْكَن والمرء تكرمُهُ إذا لم يَلْحَنِ
فإذا طَلَبْتَ من العلوم أجلَّها فأجَلُّها منها مقيمُ الألسن[٨٢]

وقول ابن شبرمة قاضي الكوفة «إنّ الرجل ليلحن وعليه الخزّ الأدكن فكأنّ عليه أخلاقاً، ويعرب وعليه أخلاق فكأنّ عليه الخزّ الأدكن»[٨٣]، وروي أنّ الرشيد أشرف «على الكسائي وهو لا يراه فَقام الكسائي ليلبس نعله لحاجة يريدها، فٱبتدرها الأمين والمأمون وكان مؤدبهما فوضعاها بين يديه فقبل رءوسهما وأيديهما ثم أقسم عليهما ألّا يعاودا، فلمّا جلس الرشيد مجلسه قال: أيُّ الناس أكرم خدماً؟ قالوا: أمير المؤمنين أعزّه الله. قال: بل الكسائي يخدمه الأمين والمأمون، وحدّثهم الحديث»[٨٤]، وروي أنّ

سليمان بن عليّ والي الأهواز أرسل إلى الخليل يلتمس منه الشخوص إليه لتأديب أولاده ويرغبه، ولكنه كان زاهداً عفيف النفس لا يختار صحبة الملوك والأمراء فلم يستجب له وأخرج إلى رسول سليمان خبزاً يابساً وقال له: ما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة لي في سليمان، فقال الرسول: فماذا أبلغه عنك؟ فأنشأ يقول:

أبلغ سليمان أنّي عنه في سعة   وفي غنى غير أنّي لست ذا مال[٨٥]

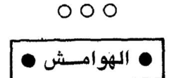
وأراد الواثق أن يستبقي المازنيّ عنده فقال له المازني «يا أمير المؤمنين إنّ الغنم لفي قربك والنظر إليك، والأمن والفوز لديك، ولكنّي ألفت الوحدة وأنست بالانفراد ولي أهل يوحشني البعد عنهم ويضرّ بهم ذلك، ومطالبة العادة أشدّ من مطالبة الطباع»[٨٦] ولمّا آعتذر قال له الخليفة «لا تقطعنا وإن لم نطلبك، فقلت: السمع والطاعة، وأمر لي بألف دينار»[٨٧]. وقال ابن خلدون عن النحو «به يتبيّن أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ولولاه لجهل أصل الإفادة»[٨٨]، وقال أبو بكر بن مجاهد في فضل النحو «قال لي ثعلب يا أبا بكر اشتغل أصحاب القرآن بالقرآن ففازوا وأصحاب الحديث بالحديث ففازوا وأصحاب الفقه بالفقه ففازوا، واشتغلت أنا بزيد وعمرو فليت شعري ماذا يكون حالي؟ فآنصرفت من عنده فرأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم تلك الليلة فقال لي: أقرىء أبا العباس منّي السلام، وقل له أنت صاحب العلم المستطيل»[٨٩]قال أبو عبدالله الروذْباري أحمد بن عطاء «أراد أنّ الكلام به يكمل، والخطاب به يجمل، وأنّ جميع العلوم مفتقرة إليه»[٩٠].

ونحو هذه الأقوال والأشعار والروايات كثير مبثوث في بطون الأسفار، ومبناها جميعاً ومدارها بيان قيمة النحو العظمى والدعوة إلى تعلّمه والكشف عن منزلة أعلام النحاة والحثّ على الاقتداء بهم والاطلاع على آثارهم، فالنحو في حقيقة الأمر أشرف العلوم لأنّ به صلاح الألسنة وسلامة المنطق وسلاسة البيان وآستقامة الأداء، وبه يحسن الناس تلاوة القرآن وعن طريقه يخدمون الدين وبواسطته يرفعون شأنهم، وفصاحة الكلام لا تكون إلّا به وصحة الكتابة لا تتمّ إلّا بعونه، فهو مفتاح العلوم ومعيار الآداب، وبه يسلم كلّ من الكتاب والسنة من عادية اللحن والتحريف ويستبين

سبيل العلوم على تنوّع مقاصدها، وهو الذريعة إلى تحديد المعنى وتقريب التفاهم وإرساء دعائم الحكم الصحيح، وهو في نهاية المطاف المعيار الذي يوزن به الكلام وتحفظ به اللغة خصائصها ومقوماتها وتتقي به الألسن مزالقها، فهو درع اللغة الواقي وقوام الألسنة الحافظ ووسيلة تذوق الفنون والسير فيها على بصيرة.

أمّا أعلام النحاة فإنّ مكانتهم بين علية القوم كانت رفيعة إذ كان منهم المؤدبون الذين يشرفون على تربية أولاد الخلفاء والأمراء والرؤساء كالكسائي والمبرد، ومن لم يستطع من هؤلاء أن يحظى بأحد الأعلام مؤدباً لأولاده كان حريصاً على أن يتّصل به ويستزيره ويخطب ودّه ويجزل عطاءه. كذلك كانت منزلتهم في الحياة العامة، فقد عظمّهم الناس وأنزلوهم من أنفسهم منزل الإجلال والإكبار وضربوا بهم المثل في سعة العقل وحدّة الفهم والإحاطة بمسائل العلم، فما أقرّوه خلد وبقي وما هجنوه سقط وضاع، وكان علية القوم وعامة الناس على حدّ سواء حرصاً منهم على صحة كلامهم يلجئون إليهم إذا خفي عليهم وجه الصواب فيه، فقد استقدم المهديّ مثلاً الكسائي بسبب الرغبة في معرفة كيفية صياغة الأمر من السواك بالاضافة إلى حرصه على وجود نحويّ كبير إلى جانبه يرجع إليه عند اللزوم(٩١) وكان اتصال المازني بالواثق بسبب بيت من الشعر ضَلَّ في توجيهه الحاضرون فأرسل الخليفة إلى المازني أستاذ العربية في عصره فحضر وأنقذهم من حيرتهم(٩٢)

○○○



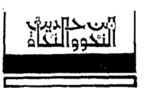
● الهوامش ●

(١) السيوطي، المزهر ١: ٢١٠.
(٢) انظر د/ حسن عون، اللغة والنحو ٤٢ ـ ٤٤.
(٣) من الآية ٧١ من سورة الإسراء.
(٤) من الآية ١ من سورة المؤمنون.
(٥) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران.
(٦) انظر البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ١: ١٧٣.

(٧) انظر ابن هشام، شرح شذور الذهب ١٦، ٣٤.
(٨) ابن جني، الخصائص ٢: ١٢.
(٩) انظر شيئاً من هذه الأمثلة في الثعالبي، فقه اللغة ٣٢٨ ـ ٣٢٩.
(١٠) انظر الثعالبي، فقه اللغة ٣٢٨.
(١١) انظر الشنقيطي، الدرر اللوامع ١: ١٤١.
(١٢) انظر ابن فارس، الصاحبي ٦ ـ ٩، ١٣ والسيوطي، المزهر ١: ٨ ومحمد الطنطاوي، نشأة النحو ١٣.
(١٣) ابن جني، الخصائص ١: ٣٤.
(١٤) انظر ابن منظور، لسان العرب ١٥: ٣٠٩، وابن النديم، الفهرست ٣٥٦، ٣٥٧.
(١٥) الانباري، نزهة الألباء ٥.
(١٦) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية ١: ٢٢١.
(١٧) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية ١: ٢٢٢، ٢٢٣.
(١٨) الرافعي، تاريخ آداب العرب ١: ١٠٢، ١٠٣.
(١٩) انظر أحمد أمين، ضحى الإسلام ٢: ٢٩٣.
(٢٠) انظر د/حسن عون، اللغة والنحو ٢٠٩ ـ ٢٥٠.
(٢١) انظر أحمد أمين، ضحى الإسلام ٢: ٢٩٣.
(٢٢) جو تولد فايل، مقدمة الانصاف ٣ ترجمة د/عبدالحليم النجار نقلاً عن د/عبدالرحمن السيد، مدرسة البصرة النحوية ١٠٤.
(٢٣) انظر دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام ٤٠ ـ ٤١.
(٢٤) ابن جني، الخصائص ١: ٣٤.
(٢٥) عبدالقاهر، دلائل الاعجاز ٦٤ ـ ٦٥.
(٢٦) السيوطي، الاقتراح ٦.
(٢٧) الأشموني، منهج السالك إلى الفية آبن مالك ١٥.
(٢٨) الخضري، حاشيته على ابن عقيل ١٠.
(٢٩) ابن خلدون، المقدمة ٥١٥.
(٣٠) انظر الجاحظ، البيان والتبيين ٢: ٢١٩.
(٣١) انظر الأنباري، نزهة الألباء ١٠.
(٣٢) انظر الرافعي، تاريخ آداب العرب ١: ٢٨٨
(٣٣) ابن النديم، الفهرست ٥٩.
(٣٤) انظر ابن فارس، الصاحبي ٦ ـ ٩، ١٣، ومحمد الطنطاوي، نشأة النحو ١٣.
(٣٥) الأنباري، نزهة الألباء ١١.
(٣٦) الأنباري، نزهة الألباء ٨.
(٣٧) ابن النديم، الفهرست ٥٩.
(٣٨) انظر الأنباري، نزهة الألباء ١١.
(٣٩) القفطي، إنباه الرواة ١: ٤، ٥، ٦.
(٤٠) ابن النديم، الفهرست ٦١.

(٤١)ابن سلام، طبقات فحول الشعراء ١٢.
(٤٢)ابن قتيبة، الشعر والشعراء ٢: ٧٢٩.
(٤٣)انظر طه الراوي، نظرات في اللغة والنحو ٧.
(٤٤)هذا التشكيك ينسحب بالضرورة على الإمام عليّ للسبب نفسه.
(٤٥)أحمد أمين، ضحى الإسلام ٢: ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٩٠.
(٤٦)انظر دائرة المعارف الإسلامية ١: ٤٢٢.
(٤٧)حذا الدكتور شوقي ضيف هذا الحذو فقال «إنّ هناك خطأ شاع وذاع قديماً وحديثاً وهو ما ينسب إلى أبي الأسود وتلاميذه من وضع بعض مباديء النحو، وهي إنّما بدأت توضع مع الجيل التالي عند ابن أبي اسحاق الحضرمي» «د/شوقي ضيف، المدارس النحوية ٥».
(٤٨)نقلاً عن د/عبدالرحمن السيد؛ مدرسة البصرة النحوية ٥٣ ـ ٥٤ بتصرف.
(٤٩)محمد الطنطاوي، نشأة النحو ٢٢، ٢٣.
(٥٠)انظر الانباري، نزهة الألباء ١٨.
(٥١)من آية ٢٤ من سورة سبأ.
(٥٢)انظر د/عبدالرحمن السيد، مدرسة البصرة النحوية ٥٤ ـ ٦٠.
(٥٣)يعدّ هذا المصحف أقدم مصحف مخطوط في العالم وهو موجود بحالته الأولى في دار الكتب المصرية «انظر د/حسن عون، اللغة والنحو ٢٣٦».
(٥٤)يصف جورجي زيدان هذا المصحف بأنه مكتوب بمداد أسود وفيه نقط حمراء اللون، فالنقطة فوق الحرف فتحة وتحته كسرة وبين يديه ضمّة كما وصفها أبو الأسود لمّا أراد التنقيط وأتوه بكاتب فقال له: إذا رأيتني فتحت فمي بالحرف فأنقط نقطة فوقه وإن ضممت فبين يديه وإن كسرت فمن تحته «انظر جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية ١: ٢٢٣».
(٥٥)انظر الرافعي، تاريخ آداب العرب ١: ٢٨٧، وطه الراوي، نظرات في اللغة والنحو ٧.
(٥٦)من آية ٣ من سورة التوبة.
(٥٧)ابن سلام، طبقات فحول الشعراء ١٢.
(٥٨)الزُبيدي، طبقات النحويين واللغويين ١١، ١٢.
(٥٩)الأنباري، نزهة الألباء ٤ ـ ٥.
(٦٠)أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين ٩٨ ـ ١٠١.
(٦١)انظر القفطي، إنباه الرواه ١: ١٧.
(٦٢)ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢: ٣١٣.
(٦٣)من آية ٢٤ من سورة التوبة.
(٦٤)انظر السيرافي، أخبار النحويين البصريين ٢٣.
(٦٥)انظر الأنباري، نزهة الألباء ١٨.
(٦٦)انظر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين ٣٢، والأنباري، نزهة الألباء ١٩، ٢٠.
(٦٧)انظر أحمد أمين، ضحى الإسلام ٢: ٢٩٠، ٢٩١.
(٦٨)انظر مثلاً «هذا باب استكرهه النحويون وهو قبيح فوضعوا الكلام فيه على غير ما وضعت العرب» «سيبويه، الكتاب ١: ١٦٧».





(٦٩)المبرد، المقتضب ٤ : ٨، وانظر في ذلك سيبويه، الكتاب ٢: ٩٥.
(٧٠)المبرد، المقتضب ٤: ٨٠.
(٧١)انظر المبرد، المقتضب ١: ١٠٩ ـ ١١٠.
(٧٢)انظر المبرد، المقتضب ٢: ٢٩٧، وانظر سيبويه، الكتاب ١: ٤٠١.
(٧٣)المبرد، المقتضب ٣: ١٣٢.
(٧٤)الطُّفْلَه: الجارية الناعمة «انظر الفيروزا بادي، القاموس المحيط ٤: ٧».
(٧٥)انظر الانباري، نزهة الألباء ١٢٨.
(٧٦)أو عمرو الكلبي «انظر ياقوت، معجم الأدباء ١٢: ١٠٣ ـ ١٠٤».
(٧٧)أو خَرَّصوا، أي قالوا كذباً «انظر ياقوت، معجم الأدباء ١٢: ١٠٤».
(٧٨)كبلاد فارس.
(٧٩)كبلاد الروم ونحوها. أي لست أعجمياً.
(٨٠)انظر ابن جني، الخصائص ١: ٢٣٩ ـ ٢٤٠.
(٨١)انظر ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢: ٣٠٨.
(٨٢)انظر ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢: ٣٠٨ ـ ٣٠٩.
(٨٣) انظر الزُّبيدي، طبقات النحويين واللغويين ١٣.
(٨٤)انظر ياقوت، معجم الأدباء ١٣: ١٩٣.
(٨٥)انظر السيوطي، بغية الوعاة ١: ٥٥٨.
(٨٦)انظر ياقوت، معجم الأدباء ٧: ١١٦.
(٨٧)انظر ياقوت، معجم الأدباء ٧: ١١٦.
(٨٨)ابن خلدون، المقدمة ٥١٤.
(٨٩)انظر السيوطي، بغية الوعاة ١: ٣٩٧.
(٩٠)انظر القفطي، إنباه الرواة ١: ١٤٤.
(٩١)انظر القفطي، إنباه الرواة ٢: ٢٥٩.
(٩٢)انظر ياقوت، معجم الأدباء ٧: ١١١ ـ ١١٢.

المصادر والمراجع

- أخبار النحويين البصريين، السيرافي، تحقيق فريتس كرنكو، بيروت سنة ١٩٣٦م.
- الاقتراح في أصول النحو، السيوطي، ط٢ حيدر أباد سنة ١٣٥٩هـ.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي، تحقيق محمد أبي الفضل، دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٢م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ط٢ مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٩٦٨م.

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي، تحقيق محمد أبي الفضل، عيسى البابي الحلبي بمصر سنة ١٩٦٤م.
- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، ط٢ بمصر سنة ١٩٦٠م.
- تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، مصر سنة ١٩١١م.
- تاريخ آداب اللغة العربية، جورجي زيدان، دار الهلال بالقاهرة سنة ١٩١٤م.
- تاريخ الفلسفة في الإسلام، دي بور، ترجمة عبدالهادي أبي ريده، ط٤ بالقاهرة سنة ١٩٥٧م.
- حاشية الخضري على ابن عقيل، مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٩٤٠م.
- الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٢م.
- دائرة المعارف الإسلامية، دار الشعب بمصر.
- الدرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع، الشنقيطي، مطبعة كردستان بالقاهرة سنة ١٣٢٨هـ.
- دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق محمد رشيد رضا، ط٢ بمطبعة المنار بمصر سنة ١٣٣١هـ.
- شرح شذور الذهب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق محي الدين عبدالحميد ط ١٠ بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٦٥م.
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٦م.
- الصاحبي، ابن فارس، تحقيق السيد صقر، عيسى البابي الحلبي بمصر سنة ١٩٧٧م.
- ضحى الإسلام، أحمد أمين، ط٧ مكتبة النهضة المصرية.
- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بمصر بدون تاريخ.
- طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، تحقيق محمد أبي الفضل، الخانجي بمصر سنة ١٩٥٤م.



- العقد الفريد، ابن عبد ربه، تحقيق د/مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٩٨٣م.
- فقه اللغة وسرّ العربية، الثعالبي، تحقيق مصطفى السقا وزميليه، مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٩٧٢م.
- الفهرست، ابن النديم، المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٤٨هـ.
- القاموس المحيط، الفيروزا بادي، ط٢ مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٩٥٢م.
- الكتاب، سيبويه، بولاق سنة١٣١٧هـ.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر ببيروت بدون تاريخ.
- اللغة والنحو، دراسات تاريخية وتحليلية ومقارنة، د / حسن عون، مطبعة رويال بالاسكندرية سنة ١٩٥٢م.
- المدارس النحوية، د / شوقي ضيف، دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨م.
- مدرسة البصرة النحوية، د / عبدالرحمن السيد، العراق سنة ١٩٦٨م.
- مراتب النحويين، أبو الطيب اللغوي، تحقيق محمد أبي الفضل، نهضة مصر سنة ١٩٥٥م.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، تحقيق جاد المولى وزميليه، عيسى البابي الحلبي بمصر بدون تاريخ.
- معجم الأدباء، ياقوت، تحقيق مرجليوت، دار المأمون بمصر سنة ١٩٣٨م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي، مؤسسة جمال للنشر ببيروت بدون تاريخ.
- المقتضب، المبرد، تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة، القاهرة سنة ١٣٨٦هـ.
- المقدمة، ابن خلدون، دار الشعب بالقاهرة بدون تاريخ.
- منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، الأشموني، عيسى البابي الحلي بمصر بدون تاريخ.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات الأنباري، تحقيق محمد أبي الفضل، دار نهضة مصر سنة ١٩٦٧م.
- نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، محمد الطنطاوي، ط٢ سنة ١٩٦٩م بمصر.
- نظرات في اللغة والنحو، طه الراوي، المكتبة الأهلية ببيروت سنة ١٩٦٢م.

الأصول التاريخية للم
من الصراع الع
« مرحلة الملك عبد الع

د : عبدالله حسن الأشعل

تكشف الوثائق والدراسات أن مأساة فلسطين كانت أولى شواغل الملك عبد العزيز منذ ظهور بوادر هذه المأساة وأنه أبدى اهتماماً عظيماً بها، كما لعب دوراً مباشراً فيها رغم أن خيوط هذه المؤامرة بدأت تتضح خلال الحرب العالمية الأولى في نفس الوقت الذي كانت بريطانيا فيه تسرف في وعودها للشريف حسين من خلال مراسلات حسين ـ ماكماهون، والتي ثبت أنها كانت تخدع الشريف حسين حتى يشترك في المجهود الحربي ضد الأتراك. ومن المعلوم أن الملك عبدالعزيز كان يخوض في تلك الفترة حروباً شديدة في كثير من مناطق المملكة ضد خصومه فلم يكن بحاجة إلى وعود الحكومة البريطانية حتى يحارب الأتراك، إذ التزم جانب الحياد رغم عدائه للأتراك لانه كان يرى أن كلا من الاتراك والانجليز يقفون في وجهه ويعوقون جهوده.بل إن الملك عبد العزيز رغم ظروف حروبه، وحاجته إلى مصادقة بريطانيا القوية حتى لاتجهض جهوده

وقف السعودي
ـن الإسرائيلي
ـــزيز ١٩١٥-١٩٥٣م»

رفض في اباء ـ كما سنرى ـ أن يكون مقابل اعترافها به في اتفاقية دارين ١٩١٥ م، أن يعترف لها بالهيمنة واليد الطولي في فلسطين.

ونلاحظ أن الفترة الزمنية التي انشغل فيها الملك عبد العزيز بمأساة فلسطين قد امتدت اذن من ١٩١٥م تقريباً حتى وفاته عام ١٩٥٣م ويمكن تقسيم هذه الفترة إلى ثلاث مراحل متميزة:

المرحلة الأولى: الملك عبد العزيز ومرحلة توحيد الدولة: ـ

خلال هذه المرحلة كان هناك خطان متوازيات من التطورات: الأول بالنسبة لتطور المأساة، والثاني بالنسبة للملك وحروبه.



فيما يتعلق بتطور مسألة فلسطين شهدت المرحلة الأولى تبلور خيوط المؤامرة الصهيونية على فلسطين فيما عرف بتصريح بلفور، الذي أصدرة اللورد بلفور وزير خارجية بريطانيا العظمى إلى أحد الرعايا البريطانيين اليهود،هو اللورد روتشيلد في ٢ نوفمبر ١٩١٧ م، وفيه حددت بريطانيا موقفها اذ أيدت الحل الصهيوني للمسألة اليهودية، وتعهدت من جانبها بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين وعندما انتهت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ م وانعقد مؤتمر الصلح في فرساي بباريس حيث أملى المنتصرون شروطهم على المنهزمين فيما عرف بمعاهدة صلح فرساي، أثارت تصريحات الرئيس الأمريكي ولسون في الحرية والاستقلال وتقرير المصير وحقوق الأقليات آمالا كبارا لدى سكان المستعمرات مثلما أثارت آمال الفلسطينيين في العدل الأمريكي ليرد عنهم الحيف البريطاني المتمثل في تصريح بلفور، ولم يكونوا يعلمون أن الفكرة الصهيونية كانت مختمرة هي الأخرى في الولايات المتحدة وأن الرئيس ولسون كان يفخر دائماً بأنه صهيوني[١] أي من أنصار الحل الصهيوني القاضي بأن تكون فلسطين مركز تجمع ليهود العالم في كيان سياسي مستقل، فلم يظفر الفلسطينيون وغيرهم من الولايات المتحدة حتى بالنظر اليهم على أنهم من الأقليات التي تحمس لهم الرئيس ولسون رغم أنهم كانوا أغلبية، ولم يكن اليهود يشكلون سوى ١٠٪ فقط عام ١٩١٨ م. وفاتهم كما فات غيرهم أن الأقليات التي قصدها الرئيس الأمريكي هي الأقليات الأوروبية، وأن الدول الأوروبية كانت لا تزال ترى أن حماية القانون الدولي العام لا تمتد إلى خارج أوروبا حيث الشعوب المتبربرة، ورغم ما أبداه ولسون من تمسك باحترام ارادة الشعوب ومعرفة رغباتها، فقد أغفل توصية لجنة كينج - ١٩١٩ م بإسقاط الخطة الصهيونية وأيد تقرير لجنة أخرى متعاطفاً مع اليهود[٢] وفي ٣٠ يونيو وافق الكونجرس على المشروع الصهيوني[٣].

وتقدمت المأساة خطوة أخرى عندما نص عهد العصبة[٤] - وهو جزء لا يتجزأ من معاهدة فرساى المطولة - على التزامات الدولة المنتدبة على فلسطين، وهي بريطانيا، التي صمم لها دورها في نظام الانتدابات، وتشمل تنفيذ وعدو بلفور، ثم كانت الخطوة التالية في تصاعد مسيرة المأساة خطوات تنفيذية وادارية في فلسطين لتنفيذ هذا الالتزام، تبدأ بوضع برنامج لتنظيم هجرة اليهود إلى فلسطين. وهكذا تزايد عدد

اليهود عن طريق الهجرة، حتى بدأ الميزان الديمغرافي بين العرب واليهود يختل بشدة، وبدأ العرب في فلسطين ينتبهون إلى هذا المخطط، ثم عمدوا إلى مقاومته، وتصاعدت المقاومة فيما عرف بالثورة العربية الكبرى فيما بين عامي ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ م.

أما الخط الثاني المتعلق بالملك عبد العزيز وحروبه، فقد كان هو الآخر في تقدم مستمر انتهى بنجاح إلى ترسيخ دعائم الوحدة في شبه الجزيرة، وتوج بإعلان المملكة العربية السعودية عام ١٩٣٢ م.

ولا شك أن استقرار الأمور للملك عبد العزيز منذ عام ١٩٢٦ م واعتراف العالم بما فيه بريطانيا بسلطانه الجديد،قد مكنته من أن يلعب دوراً أكبر في القضية.

هذه المرحلة هي أخطر مراحل القضية الفلسطينية حيث تبلورت فيها معالم المأساة. بحيث لم يبق سوى تدشينها بقيام اسرائيل عام ١٩٤٨ م. ولذلك نجد تزايد اهتمام الملك بها خصوصاً وأنها صادفت استقرار الأمور له في الجزيرة، ففي هذه المرحلة حدثت الثورة الفلسطينية الكبرى احتجاجاً على موجات الهجرة اليهودية القادمة من أوروبا تطاردها نقمة هتلر منذ توليه الحكم عام ١٩٣٣ م، كما شهدت هذه المرحلة الانتهاء إلى أن التقسيم هو الحل الوحيد للمشكلة، وبدأ يبرز فيها دور الولايات المتحدة المباشر الذي لم يقف عند حد الضغط على بريطانيا لتسهيل هجرة اليهود، وإنما بلغ أيضاً حد السعي لدى الملك عبد العزيز للسماح بهذه الهجرة ومحاولة اقناعه، واستمالته مرة أخرى للموافقة على ذلك. كذلك شهدت هذه المرحلة انتقال فكرة التقسيم من الاطار البريطاني الأمريكي إلى الاطار العالمي،وهو ما تمثل في قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة لتقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ م وأخيراً قيام اسرائيل في العام التالي.

المرحلة الثانية : الملك عبد العزيز والثورة العربية الكبرى في فلسطين : ـ

ليس معنى قولنا أن الثورة الفلسطينية ٣٦ ـ ١٩٣٩ م هي التي أبرزت دور الملك عبد العزيز، أنه لم يولي تطور المشكلة اهتمامه من قبل، بل كانت رغم مشاغله

العديدة ـ محور اهتمامه. ويشير المؤرخ أمين سعيد إلى اهتمام الملك بأعمال اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطيني في القاهرة عام ١٩٢٩ م وهو يناقش تطورات المشكلة في ضوء حوادث حائط المبكي، حيث استنكر الملك اعتداء اليهود على المصلين المسلمين في المسجد الأقصى في أكتوبر ١٩٢٩ م وينقل أكرم زعيتر عن عوني عبدالهادي صورا من مظاهر اهتمام الملك بالقضية(٥)، كما يشير إلى زيارة ولى عهده، الأمير سعود بن عبدالعزيز ١٩٣٥م للاطلاع على الوضع في فلسطين(٦).

وتكشف دراسة حديثة لأحد الباحثين اليهود(٧) تعالج جذور العلاقة بين الدول العربية والقضية الفلسطينية، أن الملك عبد العزيز قد تابع الثورة وأبدى حرصه الشديد على نتائج النضال الفلسطيني، وحرص على أن تؤتي ثمارها ويجنبها الاخطار، كما يشير إلى نقطة هامة يكشف عنها لأول مرة، وهي أن الحكومة البريطانية اتجهت إلى توسيط الملك عبد العزيز، وبعض الزعماء العرب مع الفلسطينين لوقف الثورة مقابل تعهد بريطانيا بوقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين باعتبار أن هذه الهجرة هي سبب هذه الثورة، وكان وقفها هو مطلبها الرئيسي. ولكن الدوائر الصهيونية عملت على عرقلة هذا الخط، وكشفته في الصحافة وفي البرلمان. وكذلك توضح هذه الدراسة أن الملك عبد العزيز هو الزعيم العربي الوحيد الذي لم توعز له بريطانيا بالتدخل فضلاً عن أن الملك عبدالعزيز تدخل اما بمبادرة منه، أو بعد استنجاد الفلسطينيين به لمساعدتهم.

وفي دراسة عن الثورة الفلسطينية، يتضح لنا من الوثائق البريطانية أن الشيخ كامل القصاب مبعوث الملك عبد العزيز قد قرأ على اجتماع اللجنة العربية العليا رأى الملك الذي ترك للجنة وقف الاضراب أو استمراره على ضوء مصالح البلاد وقدرات الثوار، وأنه وعد في الحالتين بمساعدتهم ومساندتهم، وصارحهم بأنه اتصل بالحكومة البريطانية عدة مرات لكي تتعهد بوقف الهجرة مقابل تعهد الملك بوقف الاضراب، ولكنها لم تمنحه هذا التعهد. وهذا يصحح ما رددته اللجنة من أنه لولا الوساطة العربية لاستمرت الثورة ونجحت في وقف الهجرة.

ورغم ضعف وسائل الاتصال والاعلام، فإن الثورة الفلسطينية وجدت تجاوباً وتأييداً واسعاً للثوار في المملكة وتشكلت لجان لمساعدة المنكوبين، وصارت صحيفة صوت الحجاز تنشر أسماء المتبرعين وتهيب بالمزيد.

وكان الملك عبد العزيز حريصاً على سبرغور الانجليز بعد الثورة فاستمر في حواره مع الحكومة البريطانية املا أن يعدل في سياستها تجاه القضية الفلسطينية، وأبرز لها دوره في تهدئه الثوار، واقناع الفلسطينيين باستقبال لجنة التحقيق الملكية (لجنة بيل)، ولكن بريطانيا كانت عازمة على تنفيذ وعد بلفور وفقاً لصك الانتداب، وهو السبب الذي جعل الملك عبد العزيز يرفض الدعوات المتكررة له لشغل المقعد المخصص للشريف حسين في عصبة الأمم المتحدة.

وتشير الوثائق البريطانية[٩] إلى أن الملك عبد العزيز أرسل للحكومة البريطانية في ٦ فبراير ١٩٣٧ م مقترحات خاصة بالقضية الفلسطينية وذلك في رسالة يشير فيها إلى أن اهتمامه الكبير بقضية فلسطين هو في نفس الوقت استجابة لموقف الشعب السعودي إذ يقول "ولقد عانينا الشيء الكثير من الضغط على رعايانا كي لا يظهر أي أمر يزيد تعقيد المشكلة، وكثير مما علمناه لم نخبر به الحكومة البريطانية". وفي هذه المقترحات السعودية نقطتان هامتان هما : "ايقاف الهجرة اليهودية وتقرير شكل الحكومة في فلسطين بالتفاهم مع أهلها"[١٠].

وأحس الملك أن مقترحاته لم تلق الاهتمام الكافي من الحكومة البريطانية، فوجه تحذيراً، "هادئاً" اليها، بأنه استطاع حتى الآن أن يتحكم في مشاعره لتكون متمشية مع المصالح السياسية، لكنه وقف وحده، وانه مالم يمكن ايجاد بعض الوسائل لارضاء عرب فلسطين فلن يستطيع أن يفعل أكثر من هذا من أجل بريطانيا" وعكف الملك على القضية يوليها كل اهتمامه واتصاله بالحكومة البريطانية. مثال ذلك أنه أرسل اليها في ٢٨ مارس ١٩٣٧م. مضيفاً إلى مقترحاته فيذكرها بأن وعد بلفور يقضي بمنح اليهود وطنا قومياً في فلسطين. وليس بمنح فلسطين كلها لهم كوطن قومي، كما أن هذا الوعد

تعهد بعدم الاضرار بالعرب الأصليين، وأن اليهود الذين هاجروا حتى الآن يمكن اعتبارهم تحقيقاً للوعد، وأنه اذا عقدت حكومة وطنية معاهدة يمكن أن تتضمن حماية الأقليات بشرط ألا يسمح ليهود آخرين بالهجرة إليها، وألا يسمح بانتقال الأرض العربية إلى أيدي اليهود، وأنه شخصياً مستعد دائماً للمساعدة في اقناع عرب فلسطين بأن يكونوا راضين عن أي شيء لا يهدد بانقراضهم في النهاية أو بايجاد أغلبية يهودية في فلسطين تعرض للخطر مصالح العرب والمسلمين وبريطانيا، وأنه يأمل أن يجد هذا الموضوع ما يستحقه من الاهتمام وأن يعامل عرب فلسطين بعداله ورحمة".

وفي أبرايل ١٩٣٧ م أبرق المبعوث البريطاني في جدة إلى حكومته بما يردده الملك عبدالعزيز في جلساته الخاصة من أن السياسة الصهيونية خاطئة وأنه يخشى أن تؤدي ـ ونذر الحرب العالمية بادية ـ إلى ارتكاب العرب لمذبحة ضد اليهود، وأن وجود اليهود في فلسطين ليس في مصلحة بريطانيا ونقل مبعوثو بريطانيا إلى حكومتهم صلابة موقف الملك ومتابعته اليومية للمشكلة، واعتقادهم أنه إذا أدت سياسة بريطانيا إلى أن يصبح العرب أقلية في دولة يهودية فسوف ينقلب عدوا خطيراً لبريطانيا. وانزعجت الحكومة البريطانية من هذه التحذيرات، فحاولت المراوغة علّها تحتوي موقف الملك، اذ وجهت مبعوثها في جدة لمحاولة ايهام الملك أنها مهتمة بموقفه ومقترحاته، وأن يحاول المبعوث التركيز على نقاط الالتقاء بين موقف الملك وبعض نقاط تقرير لجنة بيل.

وقد أورد خير الدين الزركلي(١١) بعض نصوص المراسلات العديدة بين الملك عبد العزيز والحكومة البريطانية حول المشكلة الفلسطينية.

والواقع أن رسائل الملك كانت مفصلة وواضحة لا تترك لبسا أو سوء فهم أو اجتهاد في شيء يتعلق بها. ففي مذكرة سلمتها الخارجية السعودية إلى المفوضية البريطانية في جدة في سبتمبر ١٩٣٧ م يعبر فيها الملك عن دهشته لدى ابلاغه بتقرير اللجنة الملكية بالتقسيم، قبل اذاعته، ويوضح في صراحة تامة أربعة أسباب تجعله يهتم هذا الأهتمام الشديد بقضية فلسطين، هي:

١ ـ أن وعود بريطانيا للعرب الاستقلال أعطيت في الأساس باسم الحجاز الذي أصبح قسما مهما من المملكة.

٢ ـ أن عدم حل القضية على وجه مقبول قد يؤدي إلى إيجاد هوة سحيقة لا يمكن اجتيازها بين بريطانيا والعرب، بما في ذلك من أخطار.

٣ ـ أن قضية فلسطين قضية عربية اسلامية، ولا يمكن لأى حاكم عربي مسلم أن يغفلها دون أن يعرض نفسه للانتقاد والتخطئة.

٤ ـ مسئولية الملك مع زملائه الملوك العرب عن التوسط لتهدئه الثوار الفلسطينين.

ويروى خير الدين الزركلي(١٢) الدبلوماسي الذي رافق الملك مدة طويلة أنه كان يغلبه التأثر وتخنقه العبرة وهو يتكلم إلى المبعوثين البريطانيين عن مأساة عرب فلسطين.

ولقد كان الملك عبد العزيز عنيدا في موقفه ولا يقبل المساومة عليه على الاطلاق. فقد رفض مقابلة بن جوريون للتحدث في المشكلة الفلسطينية عام ١٩٣٨ م ويروى الشيخ حافظ وهبه أنه هو أيضا رفض عرضاً آخر من هذا الزعيم الصهيوني وأقره الملك على ذلك، لأنه كان قد رفض عرضاً من فيلبي لنفس الغرض.

وقد حاول الانجليز الضغط على الملك خلال المراحل الصعبة من تكوين الدولة، فيذكر خير الدين الزركلي(١٣) أن بريطانيا طلبت من الملك عام ١٩٢٦ م في اجتماعات وادي العقيق التي أسفرت عن عقد اتفاقية جدة، وضع مادة خاصه للاعتراف بمركز خاص لبريطانيا في فلسطين، ولكنه رفض ذلك.

وتحينت بريطانيا فرصة مطالبة الملك بإلغاء معاهدة ١٩١٥م التي فرضت على نجد لتأخذ ثمن الغائها منه «بالمركز الخاص» لها في فلسطين، واستمرت المحادثات نحو عشرين يوماً ولكنها توقفت، ولم تستأنف إلا بعد أن تنازلت بريطانيا عن هذه المادة، وبعض المواد الأخرى التي سبق وأن طلبت اضافتها(١٤).

ويـروى جون فلبيي[١٥] أن بعض الـزعماء الصـهـانية انتهـزوا فرصـة حاجـة الملـك عبد العـزيز إلى المـال في حروبـه، فاتفقـوا فيما بينهم عـلى وضع خطـة لتقسيم فلسطين وتوطين أعداد كبيرة من اليهود فيهـا، مقابـل دفع مبلـغ عشرين مليون جنيـه استـرليني للملك من المصـادر الصهيونيـة في شكل قـرض، لأنهم كانـوا يتوقعـون أن يصبح الملك زعيم الزعماء، Bossof Bosses. عـلى حد تعبـير تشرشل للـزعيم الصهيوني حاييم وايزمان. واعتقد فيلبي أن الحاجة سوف تلجىء الملك لقبول هذا العرض، ولكنه فوجىء بثورة الملك العارمـة بمجرد أن فـاتحه هـو فيه، فقـد عظم عليه فكـرة أن يبيع فلسطين[١٦]. وكبر في نفسه هذه الإهانة التي وجهها الصهاينة له إلى حـد أن تساومـه الوكالة اليهودية وزعماء الصهيونية[١٧]. ويقول بيتر مـانسفيلد[١٨]. إن رئيس البعثـة الدبلوماسية الأمريكية في الرياض كرر العرض عام ١٩٤٣ م ولقي نفس المصير.

المرحلة الثالثة : موقف الملك عبد العزيز من اتجاهات التقسيم :

فور إعلان توصيات اللجنة الملكية البريطانية بتقسيم فلسطين في يـوليو ١٩٣٧ م قـامت المظاهـرات الغاضبـة في جميع أنحـاء المملكة العـربيـة السعـوديـة، وأرسـل المتظاهرون برقيات للملك استنكاراً للتقسيم، ويؤيدونه في موقفه من رفض هـذه الفكرة تماماً[١٩]. وكذلك أرسل علماء نجد رسالة للملك اعتبرها بمثابة فتوى دينية، مما يظهر الطابع الديني لموقف الملك من قضية الصراع العربي الصهيوني. وتقول هذه الرسالـة إن تمكين اليهود من بسط ولا يتهم في بلاد الاسلام أمر باطل ومحرم، وطلبـوا من الملك في هذه الرسالة أن يقوم بالتصدى لهذا الخطـر، وأعلن علماء نجـد أنهم سينادون هم وعلماء الحجاز بالجهاد المقدس إذا طبقت سياسة التقسيم، وقد تشكـل في مكة المكتب الرئيسي للدفاع عن فلسطين، حيث أخذ هذا المكتب يتصل بالمكاتب المناظـرة له في مصر وسوريا والعراق للتنسيق معها للتصدى لسياسة التقسيم وإعانة الفلسطينيين[٢٠].

ورغم هذا الاهتمام الدؤوب من الملك عبدالعزيز بالقضيـة الفلسطينية، فـإنه قـد حرص في رسائله لعرب فلسطين ولجنتهم العليا ألا ينعكس ذلك الاهتمام في رسائله بـل

بدت هذه الرسائل فاترة، وسبب ذلك أنه كان لا يحب أن يعلن ويفاخر بأعماله، فضلاً عن أنه كان يفضل المعالجة الهادئة(٢١). وقد اشار في رسالة إلى الحكومة البريطانية في ١٩٣٨/٤/٥ م إلى أن صمته قد يستغل لتجريح مركزه في العالم العربي والاسلامي.

وقد أدت هذه الطريقة بالفعل إلى إساءة البعض فهم موقف الملك عبد العزيز وأخفق المراقبون في التكهن بموقفه، فحيث توقعوا أن يقبل فكرة التقسيم، فاذا هو أول من يعارض التقسيم ويستنكره ويتصدى له ويحذر من مخاطرة، وحاول بكل السبل أن يحارب قرار التقسيم، من ذلك مانقل عن الشيخ يوسف ياسين مبعوث الملك قوله للمبعوث الألماني في بغداد في ١٩٣٧/١١/٥ م أن الملك يتوقع من ألمانيا أن تقوم بخطوات للحيلولة دون قيام دولة يهودية في فلسطين(٢٢).

وتشير بعض المصادر(٢٣). إلى أن الفترة من ٣٧ ـ ١٩٤٠ م شهدت قيام الملك عبد العزيز بالتراسل مع الألمان للحصول على شحنات من الاسلحة لصالح المناضلين الفلسطينيين، كما أنه عمل على مساعدتهم مالياً بقدر استطاعته حينذاك.

الملك عبد العزيز وقبول أمريكا لفكرة التقسيم :

أدى قبول الولايات المتحدة لفكرة التقسيم التي اقترحتها اللجنة الملكية البريطانية إلى غضب الملك عبد العزيز فأرسل خطاباً(٢٤). مطولاً إلى الرئيس الأمريكي روزفلت في ١٩٣٨/١١/٢٩ م (شوال ١٣٥٧هـ) أوضح فيه أن مناصرة أمريكا لليهود تعكس اغفالها لوجهة النظر العربية،وتأثرها بالدعاية اليهودية التي صورت سحق العرب على أنه عمل انساني، وأن هذا لا يتفق مع تقاليد الديمقراطية الأمريكية المؤسسة على تأييد الحق والعدل ونصرة الأمم الضعيفة.

وفند الملك عبدالعزيز في خطابه هذا بالتفصيل جميع أسانيد اليهود وهي الحجة التاريخية: أنهم مشتتون في بلاد العالم، وأنهم يريدون مجتمعاً في فلسطين يعيشون فيه أحراراً، وأنهم يعتمدون في تنفيذ ذلك على وعد بلفور.

ثم يوجز ما فصله في "مرافعته القيمة" قائلاً: من ذلك يتبين لفخامتكم أن حجة اليهود التاريخية باطلة، ولا يمكن اعتبارها، كما أن حجتهم من الوجهة الانسانية قد قامت فيها فلسطين بما لم يقم به بلد آخر، ووعد بلفور الذي يستندون إليه مخالف للحق والعدل ومخالف لمبدأ تقرير المصير، والمطامع الصهيونية تجعل العرب في جميع الأقطار يوجسون منها خيفة وتدعوهم لمقاومتها..

ثم راح يؤكد بعد ذلك على حقوق العرب في فلسطين "فهي عربية عرقاً ولساناً وموقعاً وثقافة وليس في ذلك أية شبهة أو غموض، وتاريخ العرب في تلك البلاد مملوء بأحكام العدل والأعمال النافعة".

وأوضح الملك أن عرب فلسطين قدموا للحلفاء في الحرب الأولى أفضل المساعدة ولم يجدوا منهم سوى النكران والجحود. وختم رسالته مؤكداً على أنه "ليس من العدل أن يطرد اليهود من جميع أنحاء العالم المتمدن وأن تتحمل فلسطين الضيقة المغلوبة على أمرها هذا الشعب برمته".

وقد رد روزفلت على الملك بخطاب موجز بتاريخ ٩ يناير ١٩٣٩ م ولم يعد فيه بشيء.

المرحلة الرابعة : مساعي الملك عبد العزيز لدى الولايات المتحدة وبريطانيا:

أدرك الملك عبد العزيز التحول الذي طرأ على الدور الأمريكي في القضية اذ شعر أن الولايات المتحدة تكاد تحل محل بريطانيا تدريجياً في تبني القضية مثلما أخذت تحل محلها في مسئوليتها العالمية في جميع أنحاء العالم. كذلك علم الملك باستقرار النية في هذا الاتجاه مما كشف عنه المؤتمر الصهيوني في بليتمور ١٩٤٣ م. ولذلك أرسل في ٣٠ أبريل ١٩٤٣ م رسالة إلى الرئيس روزفلت(٢٥) الحاقاً بكتابه السابق إليه عام ١٩٣٨ م ينبه فيه إلى مساعي اليهود ودعاياتهم لاغتصاب فلسطين مستغلين ظروف الحرب، وأبدى خشيته من أن يقترن نصر الحلفاء في هذه الحرب العظمى بتحقيق جور فادح وذلك عند تمكين اليهود من فلسطين. ويؤكد الملك في كتابة على عدم أحقية اليهود

في فلسطين ويقول بشأن دعوى اليهود في فلسطين "تكاد السموات يتفطرن، وتنشق الأرض. وتخر الجبال، من كل ما يدعيه اليهود في فلسطين ديناً وديناً".

ويشير الملك إلى تزايد نسبة اليهود من ٧ ٪ عام ١٩١٨ م إلى ٢٩ ٪ عام ١٩٣٩ م، ويؤكد أنه لا يريد محو اليهود، ولكنه يطالب بألا يمحى العرب من أجل اسكان اليهود، ويقترح توزيعهم على دول الحلفاء. وناشد الملك الرئيس الأمريكي أن يعمل على انصاف العرب حتى يشاركوا الحلفاء نصرهم. وقد سبقت الاشارة في هذه الدراسة إلى أن تشرشل طلب من الملك خلال لقائهما عام ١٩٤٥ م في مصر قبول عدد من اليهود المضطهدين في بلاده، ولكن الملك رفض حتى مناقشة الموضوع، ونحن نرى أنه ربما كان هذا الموضوع وغيره مما تناوله هذا اللقاء سبباً في توتر اللقاء وعدم ارتياح الملك لتشرشل.

وبعد أن استقبل الملك عبد العزيز هو سكينز مبعوث الرئيس الأمريكي الذي سلمه رد الرئيس في يوليو ١٩٤٣ م، حمله الملك رسالة أخرى [٢٦] إلى الرئيس يؤكد فيها على موقفه من القضية.

ورأى الرئيس روزفلت من المفيد أن يلتقي بالملك عبد العزيز ليقنعه بالتخلي عن موقفه المتشدد لعرب فلسطين والمناهض للهجرة اليهودية إلى فلسطين، فالتقى الزعيمان على ظهر المدمرة الأمريكية كوينسي في فبراير ١٩٤٥م في قناة السويس.

وينقل .Benoist Mechin في كتابه "ميلاد مملكة" [٢٧] تفاصيل هذا اللقاء مستعيناً بأقوال نجل روزفلت، ومذكرات روزفلت نفسه، ومعلومات مدير أرامكو، وفيه أعاد الملك موقفه من العرب واليهود ورأيه في تسوية المشكلة واصراره على هذا الموقف مما ترك علامات الإعجاب بصلابته وصراحته ووضوحه في نفس روزفلت، واعترف بأنه أفاد كثيراً بمعرفة جوانب المشكلة من هذه المقابلة، ووعده بألا يتخذ موقفاً ضاراً بالعرب في المستقبل.

ويروى المؤلف(٢٨) عن هذه المقابلة أن الملك لم يبتسم وينفرج في النقـاش إلا بعد أن انتهى من القضيـة الفلسطينيـة. وقـد طلب الملـك من الـرئيس تعهـد الـولايـات المتحدة ـ في اطار صيغـة لتعاونهمـا ـ بمسانـدة كل المبـادارت السعوديـة الخاصـة بتحرير الشعوب العربية الموضوعة تحت الوصايات الأجنبية..

ويشير المؤلف(٢٩) إلى أن من أسباب اعجـاب روزفلت أيضاً بـالملك عبـد العزيـز قبوله بالتعاون مع الولايات المتحدة مـع تمسكه الصـارم باستقـلال بلاده، وحـريته في القرار. وقال روزفلت في الكونجرس في مارس ١٩٤٥ م "لقد وعيت عن مشكلة المسلمين ومشكلـة اليهود في حـديث دام خمس دقائق مـع ابن سعود أكثـر مما كنت أستطيـع معرفته بتبادل ثلاثين أو أربعين رسـالة(٣٠)".

وفي مارس ١٩٤٥ م عاد الملك يذكرّ الرئيس روزفلت بوعود الحلفـاء للعرب، وراح يكرر في كتاب مفصـل(٣١) متانـة الحقوق العـربية وفسـاد المزاعم اليهـودية عـلى نحو ما فعل في مـراسلاتـه السابقـة مع روزفلت، وتنبـأ الملك بـأن تكوين دولـة يهوديـة في فلسطـين سيكون ضربـة قاضيـة للكيان العـربي ومهددة للسلم بـاستمرار وقـد حدد الرئيس روزفلت تأكيداته بالعدل في القضية، وذلك في رده على الملك(٣٢) بتاريخ ٥ أبريل ١٩٤٥ م.

ومما يذكر أن الملك عبـد العزيـز التقى بتشرشل أيضـاً خلال وجـوده بمصر للقاء روزفلت في فبـراير ١٩٤٥ م، ويقـول حافظ وهبـه إن مشادة وقعت بـين عبد العـزيـز وتشرشل بسبب تمسك تشرشل بموقف بريطانيا من اليهود وفقاً لوعد بلفور. ويبدو من رواية أمين سعيد(٣٣) لمقابلة الملك وتشرشل أن الأخير أثار الملك وأغضبه عندمـا افتتح حديثه بـأنه أول واضـع لسياسـة ايجاد وطن قـومي لليهود. ولكن الملـك لم ييأس من اقناع تشرشل بالقضية فكتب إليه شارحاً وموضحـاً في ١٠ مارس ١٩٤٥(٣٤) كمـا أن تشرشل سجل بمذاكرته اعجابه بالملك(٣٥).

ترومان و عبد العزيز : ـ

في ١٦ أغسطس ١٩٤٦ م نشرت جـريـدة أم القـرى بيـانـاً سلمتـه المفـوضيـة

الأمريكية في جدة إلى وزارة الخارجية السعودية صادر عن البيت الأبيض يؤكد أن الحكومة الأمريكية لم تتقدم بأية فكرة من جانبها لحل مشكلة فلسطين بل رحبت بحلها بالتشاور بين الدول العربية وبريطانيا. ولكن مما أذهل الملك عبد العزيز صدور بيان آخر مناقض للأول بتاريخ ٤/ ١٠/ ١٩٤٦ م يظهر تأييد أمريكا لتوصية اللجنة الأمريكية ـ البريطانية بفتح باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين وتحمسها لتنفيذ الفكرة. فكتب الملك للرئيس ترومان[٣٦] في ١٥/ ١٠/ ١٩٤٦ م بهذا المعنى، وذكره بوعود روزفلت، وحثه على اقرار الحق والعدل والانصاف لعرب فلسطين.

ورد الرئيس ترومان[٣٧] بتاريخ ٢٨/ ١٠/ ١٩٤٦ م مؤكداً على تأييد بلاده للحل الصهيوني وفقاً لوعد بلفور منذ صدوره، وتمسكه بأن تحقيق هذا الحل هو السبيل الوحيد لمواجهة كارثة اليهود في أوروبا واضطهادهم.

والواقع أن المراسلات بين عبد العزيز وترومان لم تنقطع أملا من الملك في اقناع الرئيس بعدالة القضية العربية، واثنائه عن تأييده لليهود، ونشير إلى بعضها[٣٨]: منها رسالة الملك إلى ترومان في ٢٣/ ٨/ ١٩٤٥ م، ورسالة في ٤ يناير ١٩٤٦ م، ورسالة ٢٤ مايو ١٩٤٦ م، ورسالة ترومان في ٨ يوليو ١٩٤٦ م، ورسالة الملك في ١٥/ ١٩٤٦٩ م .... الخ. وهكذا كانت الرسائل المشار إليها بعض ما سبقها ومالحقها من مراسلات يدافع فيها الملك عن حقوق العرب في فلسطين.

ولقد أفزغ الملك عبد العزيز رجوع ترومان عن وعود سلفه روزفلت، وكان ذلك صدمة كبيرة له في مصداقية الولايات المتحدة. ويفسر دافيد هوارث ذلك بأن الملك لم يفطن إلى أن النظام الأمريكي يفرق بين الوعود الشخصية للرئيس، والوعود الرسمية، لأن الوعد بمقاييس الملك البدوية أمر يتعلق بالشرف، وأنه وفق مفهومه حيث هو الدولة والحكومة، لا فرق بين وعد شخصي و آخر رسمي، ولنا على ذلك ملاحظتان : أولاهما: أن الملك أوضح صراحة لروزفلت أنه يود أن يفهم الجانب الانساني من المشكلة بوصفه انساناً، وأن يلتزم بموقف بوصفه

رئيساً. وهذا يدل على تمييز الملك وادراكه لهذا الفرق . والملاحظة الثانية. أن الخطة الصهيونية كانت أكبر من روزفلت وغيره وأنها كانت ماضية في طريقها، ولذلك فأن وعود روزفلت لعبد العزيز إما أن تنم عن غفلة بما يجري، أو قصد به تخديره وتهدئته، أو أنها كانت آمالا عند روزفلت.

المرحلة الخامسة : جهود الملك في الاطار العربي : -

يلفت النظر اشارة الملك عبد العزيز في لقائه بوفد اللجنة العربية العليا التي زارته خلال زيارته للقاهرة في ١٣ يناير ١٩٤٦م، أربعة أمور تشكل جوهر السياسة السعودية حتى الآن، وهي تأكيده على أن قضية عرب فلسطين "وكانت ولا تزال في قلبه"، وأن طريقته في معالجة القضية ليست الأقوال وإنما العمل الصامت، ثم وصيته لعرب فلسطين بالتضامن والوحدة وأن يكونوا "كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً". والأمر الرابع هو أن أساس مناصرة قضية فلسطين هو الإسلام والعروبة، إذ أكد أنه "لا يخدم قضية فلسطين حبا في فلسطين بل بدافع الإيمان بالدين الحنيف، فضلاً عن أنها قضية العرب كلهم".

وفي مؤتمر إنشاص في ٢٩ مايو ١٩٤٦ م أكدت المملكة مع شقيقاتها العربيات على حق العرب في فلسطين، وناشدت انجلترا وأمريكا وقف باب الهجرة اليهودية. كذلك سارعت المملكة إلى مؤتمر الجامعة العربية في **بلودان عام ١٩٤٦م** الذي اتخذ عدداً من القرارات لدعم عرب فلسطين ومناوأة اليهود، ورفض تقرير لجنة التحقيق البريطانية الأمريكية التي أيدت اليهود ضد العرب. وقرر السعي لدى بريطانيا لإنهاء انتدابها وتمكين شعب فلسطين من تقرير مصيره. ثم اشتركت المملكة **في مؤتمر الاسكندرية في ١٢ أغسطس ١٩٤٦ م** لتنسيق الموقف العربي في مؤتمر المائدة المستديرة في لندن **في ١٠ سبتمبر ١٩٤٦ م**.

وعندما نظرت الجمعية العامة للأمم في سبتمبر سنة ١٩٤٧ م تقرير لجنة

فلسطين التي أوصت بتقسيمها، انتهت بقرار من الجمعية بهذا المعني، وقد أرسل الملك وزير خارجيته الأمير فيصل إلى اجتماعات الجمعية حيث ناشد الشعب الأمريكي ألا يوافق حكومته على فكرة تقسيم فلسطين التي تؤذن باضطرابات لا تنتهي في الشرق الأوسط(٤٠). وتقدم الوفد السعودي باقتراح مع العراق وسوريا يقضي بإنهاء الانتداب على فلسطين، والاعتراف باستقلالها كدولة واحدة، وكان هذا الاقتراح ضمن المقترحات الأخرى التي أحالتها الجمعية على اللجنة الخاصة بالقضية الفلسطينية لدراستها(٤١).

ورفضت المملكة قرار التقسيم، وأصدرت الخارجية السعودية في مايو ١٩٤٨م بيانا(٤٢) أيدت فيه القرارات العربية التي تتخذ للدفاع عن فلسطين والمحافظة على عروبتها والحيلولة دون تقسيمها، وقيام الدولة اليهودية، كما قررت المملكة بالاشتراك مع شقيقاتها الدخول إلى فلسطين في الموعد المتفق للدفاع عسكرياً عنها.

هكذا نلاحظ أن الملك عبد العزيز كان يدرك بحسه الفطري السليم جميع أبعاد المأساة في فلسطين منذ بدايتها وطوال مراحل تطورها.

هكذا كان توقعه لتغليب اليهود على العرب، ولرؤيته في الحل الصحيح للمشكلة، وواقعيته في تقدير جوانب الموضوع بأكمله، اذ كان يقدر مدى التزام بريطانيا بوعدها والقوى السياسية الصهيونية التي رسمت هذا الالتزام وحدوده ووسائل تنفيذه، في نفس الوقت الذي فهم فيه بشكل عميق أن الصهاينة نجحوا في اقناع بريطانيا بأن مصلحتها في مصر تقتضي تواجد النفوذ اليهودي في فلسطين. وكان الملك يصر على أن الظلم والاظهاد الذي حاق باليهود في أوروبا سببه سوء عاداتهم وخياناتهم لأوطانهم، وأن ظلمهم هذا المزعوم في أوروبا لا يجب أن يتحمله عرب فلسطين الأبرياء وأن يدفعوا هم ثمنه بلا جريرة وأن يشردوا من أوطانهم، بل يطالب بتوطين اليهود في البلاد التي طردوا منها بعد زوال الظروف التي طردوا فيها وأسباب طردهم، أو توطينهم في دول الحلفاء.

وكان الملك يدرك أبعاد المؤامرة الكبرى بين بريطانيا والولايات المتحدة وبين الاستعمار والصهيونية والشيوعية خصوصاً بعد تحمس الاتحاد السوفيتي لقيام

اسرائيل، وادخاله الموضوع في نطاق الحرب الباردة الجديدة، كما كان يدرك أن المؤامرة تستهدف العرب جميعاً ولا تقتصر على عرب فلسطين.

ولقد غضب الملك لاعتراف واشنطون بإسرائيل نكثا بوعد روزفلت للملك حتى أنه رفض وقتها قبول مبلغ ١٥ مليون دولار كقرض من بنك التصدير والاستيراد الأمريكي[٤٣].

المرحلة السادسة : مرحلة المواجهة وقيام اسرائيل (١٩٤٨ ـ ١٩٥٣ م)

لم يتردد الملك عبد العزيز في أن يشترك الجنود السعوديون مع اخوانهم المصريين وبقية الدول العربية التي قررت التصدى عسكرياً لليهود، وهذه الدول هي سوريا والعراق ولبنان والأردن.

وأدرك الملك عبد العزيز في تلك المرحلة أن الصراع قد انتقل من كونه صراعاً داخلياً أو حرباً أهلية بين العرب واليهود المدعومين من بريطانيا وأمريكا في فلسطين، إلى دائرة الصراع ذي الطابع الدولي. كذلك لابد أنه قد أدرك أن فرضيات المشكلة قد تغيرت بعد زرع اسرائيل في قلب المنطقة العربية غير بعيد عن الحدود السعودية خصوصاً وأن اسرائيل بدأت تطالب منذ قيامها واغتصابها لموطىء قدم لها على خليج العقبة بحرية المرور في مضايق تيران وفي الخليج نفسه على أساس أنه ممر مائي دولي. وقد نجحت اسرائيل بالفعل في مؤتمر جنيف لقانون البحار عام ١٩٥٨ م في اقرار هذا الزعم في المادة ١٦ / ٤ من اتفاقية الجرف القارى.

ويدل استقراء فكر الملك عبد العزيز أنه كان يدرك بعدا استراتيجياً واضحاً في الصراع العربي الاسرائيلي بوضعه الجديد، كما كان يستشعر بعدا أمنياً ملحوظاً للمملكة أفصح عن نفسه بعد ذلك في القول والفعل.

وقد أوضح في رسالة بعثها للرئيس ترومان[٤٤] في ٤ يناير ١٩٤٦ م " أن برامج

الصهيونية .. لا تعتبرها الحكومة السعودية موجهة لفلسطين وحدها، بل هي في نفس الوقت تعتبر خطرا مهددا للمملكة ... وقد أوضحت هذا بكل جلاء لسلفكم ... روزفلت". وقال إن الصهيونية تهدد أمن الشرق الأوسط والمملكة العربية السعودية.

ويتصل بهذه النقطة أن الملك عبد العزيز ظل على قناعة كاملة من أن تخاذل العرب وتهاونهم وتناحرهم هو السبب في ضياع فلسطين بما في ذلك هزيمة العرب أمام اسرائيل عام ١٩٤٨ م[٤٥]. وكان الملك لا يوافق على أن يطلب العرب مناصرة غيرهم قبل أن يتحدوا ويخلصوا ويتساندوا، وكان يحلو له أن يردد قول الشاعر[٤٦] :

إذا خانك الأدنى الذي أنت حزبه فواعجبا إن سالمتك الأباعد

وهناك نقطة أخرى سبق للملكة أن اعربت عنها في مراسلات الملك عبد العزيز مع الحكومة البريطانية مما سبقت الاشارة إليه، وهي أنه لا يستطيع ـ وهو يتعامل مع اليهود ـ أن يغفل التجربة المريرة التي عاناها الرسول منهم[٤٧] وأنه لا يثق فيهم ولا يأمن غدرهم ومكرهم، وأنه يخشى على الأماكن المقدسة منهم، ولذلك كانت المملكة هي الدولة العربية الوحيدة التي لم تسمح بدخول أي يهودي إليها.

وتجدر الاشارة إلى أن الملك فيصل عندما كان يمثل المملكة في الأمم المتحدة في دورة الجمعية عام ١٩٤٩م التي قبلت فيها اسرائيل في الأمم المتحدة، قد عاد بقناعة أكدت نظرة والده الملك عبد العزيز، وهي التواطؤ بين الاستعمار والشيوعية والصهيونية، وأن العرب هدف لهذا التواطؤ، وأن تقرب أيهم للعرب إنما بهدف خدمة مصالح هذه الأطراف.

المملكة العربية السعودية وحالة الحرب مع اسرائيل.

اشتركت المملكة العربية السعودية عام ١٩٤٨ م بكتيبة ضمن مواقع القوات المصرية ولما انتهت الحرب بقيت هذه الكتيبة مؤقتاً في مصر. كذلك كان للمملكة بعض

القوات في الجبهات الأردنية والسورية. فهل هذا القدر من المشاركة العسكرية يدعو إلى القول بأن المملكة دولة محاربة Belligerent State تربطها بإسرائيل علاقة حرب من الوجهة القانونية، أم أن السعودية تعتبر في حالة حرب بحكم علاقة التضامن بينها وبين بقية الدول العربية المحاربة في اطار ميثاق الدفاع العربي المشترك، والتزاما منها بالقرارات العربية بشأن التكاتف السياسي وغيره ضد اسرائيل.

الواقع أنه تطبيقاً للقواعد العامة لقانون الحرب فان الدولة تكون في حالة حرب قانوناً State of war إذا هي أعلنت الحرب حتى لو لم تشترك في العمليات الحربية، بل لا تعد في حالة حرب بغير هذا الاعلان، حتى لو اشتركت في هذه الأعمال، والدولة المحاربة قد تنظر إلى مساعدة دولة ثالثة لخصمها على أنها مجرد أعمال غير ودية un-friendly أو أعمال عدائية Hostile تخل بحيادها وتعرضها للعقوبات الانتقامية، ولكن الدولة الثالثة تظل في مرتبة أقل من الدولة المحاربة، وذلك في نظر الدولة المحاربة الأخرى المتضررة.

وعندما أبرمت اتفاقيات الهدنة عام ١٩٤٩ م تم توقيعها مع سوريا ومصر ولبنان والأردن. وقد حلت الأردن محل العراق الذي كانت له قوات في مواقع خاصة بها في فلسطين، وبذلك استبعد العراق من عداد الدول الموقعة على اتفاقيات الهدنة(٢٠).

وواقع الأمر أن اسرائيل تكيف اتفاقيات الهدنة بالطريقة التي تخدم مصالحها حسب الظروف والفرص. فعندما تواطأت فرنسا وبريطانيا مع اسرائيل في عدوان ١٩٥٦ م أوضحت مصر أن اشتراك اسرائيل في العدوان واحتلالها لسيناء يعد انتهاكاً صارخاً لاتفاقيات الهدنة المعقودة بينهما، ولكن رئيس وزراء اسرائيل أكد أن اتفاقية الهدنة " قد ماتت ودفنت ".

ومن ناحية أخرى قامت اسرائيل في ٨ يونيو ١٩٨١ م بعدوانها على العراق ودمرت المفاعل النووى العراقي وتذرعت اسرائيل بحجتين غريبتين وهما : أن الهجوم عمل من أعمال الدفاع الوقائي عن النفس Pre-emptive Self-Defence وقد أظهرنا في دراسة سابقة فساد هذا الزعيم.

وزعمت اسرائيل من ناحية أخرى أن عملها العدواني هذا امتداد للأعمال الحربية التي تسوغها حالة الحرب التي تزعم أنها تأسست بحكم اشتراك القوات العراقية في جميع المواجهات المسلحة مع اسرائيل على جبهات مختلفة وبحكم عدم قبول العراق لقرارات الأمم المتحدة بشأن تسوية الصراع العربي الاسرائيلي بما في ذلك اتفاقيات الهدنة.

ooo

الهوامش

(١) Mohamed Shadid, The United States and the Palestinians, London, 1981, P.27

(٢) وهي لجنة الشرق الأدنى في المخابرات الأمريكية التي أوصت بأن يضمن مؤتمر السلام الاعتراف بالدولة اليهودية حال قيامها حيث قالت "فمن العدل والانصاف أن تصبح فلسطين دولة يهودية" راجع د. نجيب صدقة، قضية فلسطين، بيروت ١٩٤٦ م ص ٦٥.

(٣) نص القرار المشترك لمجلس الكونجرس الأمريكي في: محمد شديد، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٤) المادة ٢٢ كم عهد العصبة، التي تصمنت التزام بريطانيا بتنفيذ صك الانتداب في ضوء وعد بلفور.

(٥) يوميات. أكرم زعيتر، بيروت ١٩٨١م، ص ٢٥٦.

(٦) المرجع السابق، ص ٤ ـ ٥ جاء فيه أن الملك عبدالعزيز قام برفقته فؤاد حمزه وخير الدين الزركلي بزيارة نابلس في ١٥ أكتوبر ١٩٣٥، وصور الشاعر عبدالرحيم محمود أمام الملك أبعاد المأساة بقوله:

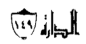
ياذا الأمير أمام عينك شاعر	ضمت على الشكوى المريرة أضلعه
المسجد الأقصى أجئت تزوره	أم جئت من قبل الضيع تودعه
وغدا، وما أدناه لا يبقى سوى	دمع لنا يهمى وخد تقرعه

لكن الحقيقة: أن الذي قام بتلك الزيارة هو الأمير سعود بن عبد العزيز، وليس الملك نفسه. انظر مذكرات الشاعر عبدالله بلخير المنشورة بجريدة الشرق الأوسط، العدد ٢٥٨٩ بتاريخ ١٩٨٥/١٢/٣٠م، وما نشره الاستاذ محمد حسين زيدان لرسالة الاستاذ محمد شراب، بجريدة عكاظ، العدد ٧١٣٥ وتاريخ ١٩ ربيع الثاني ١٤٠٦هـ، حول هذا الموضوع.

(٧) M.J. Cohen,: Origins of The Arab States involvement in Peiestine Palestine, Middle East¡, ern Studies 1983, pp. 244 etSq,

(٨) د. عادل غنيم، الحركة الوطنية الفلسطينية من ثورة ١٩٣٦م حتى الحرب العالمية الثانية، القاهرة ١٩٨٠، ص ٦٨ ـ ٧٠.

(٩) المرجع السابق، ص ٤١٠.



(١٠) يتلخص مشروع الملك عبد العزيز في الدعوة إلى إقامة حركة دستورية يمثل فيها سكـان فلسطين حسب النسبة الحالية لأعدادهم وبضمانات كافيه لحماية الأماكن المقدسة والأقليات والمصالح البريطانية في المنطقة، واشترط المشرع الحد من بيع الأراضي وتنظيم الهجرة بصورة تضمن الإبقاء على النسبة الحالية للسكان. راجع مقال د . عبد الوهاب احمد، «بريطانيا والبحث عن حل سلمى للمشكلة الفلسطينية إبان ثورة عرب فلسطين ٣٦ ـ ١١٣٩»، **مجلة العلوم الاجتماعية**، العدد الرابع ديسمبر ١٩٨٢ ص ٢٣.

(١١) الزركلي شبه الجزيرة، مرجع سابق، ص ١٠٧٩ وما بعدها.

(١٢) نفس المرجع.

(١٣) خير الدين الزركلي، شبه الجزيزة، مرجع سابق، ص ١٠٧٣.

(١٤) المرجع السابق.

(١٥) أورد جون فيلبي هذه الرواية في كتابه .Arabian Jubilee طبعة نيويورك ١٩٥٣ م ص ٢١٢ ـ ٢١٣. كما أورد الرواية حافظ وهبه سفير الملك في لندن، ويذكر أنها حدثت مرة أخرى عام. ١٩٤٠ م أنظر ص ١٧٩ من كتابه "خمسون عاماً في جزيرة العرب"، القاهرة ١٩٦٠ م.

(١٦) Peter Mansfield, The New Arabians, U.S.A, 1981. P.71

(١٧) قال الملك عبد العزيز في حديثه للكولونيل هارى هو سكينز المبعوث الشخصي للرئيس روزفلت في يوليو ١٩٤٣ م أنه لا يوافق على اقتراحه باستقبال حاييم وايزمان بصفة خاصة لأنه أرسل شخصاً أوربيا معروفاً (يقصد فيلبي) "يكلفني أن أترك مسألة فلسطين وتأييد حقوق العرب والمسلمين فيها ويسلم إلى عشرين مليون جنيه مقابل ذلك، وأن يكون المبلغ مكفولاً من طرف فخامة الرئيس روزفلت نفسه، فهل من جرأة أو دناءة أكبر من هذه؟ وهل من جريمة يتجرأ عليها هذا الشخص بمثل هذا التكليف، ويجعل فخامة الرئيس كفيلاً لمثل هذا العمل الوضيع؟

أنظر ذلك في : أحاديث ومقابلات الملك التي جمعها محي الدين القابسي ص ١٧٢.

(١٨) بيتر مانسفيلد ص ٧٢.

(١٩) يوميات أكرم زعيتر، بيروت ١٩٨١ م ص ٣٠٢.

(٢٠) خيرَ الدين الزركلي، الوجيز، مرجع سابق، ص ٢٥٤.

(٢١) يروى د . أمين رويحة في رسالة لأكرم زعيتر بتاريخ ١٩٣٦/٢/١ م أنه سأل الشيخ يوسف ياسين عن أنه رغم اهتمام الملك الكبير بالقضية الفلسطينية، فإنه لا يظهر ذلك، ففسر له ذلك بأن الملك يخشى الفشل أمام الرأى العام إذا لم يكترث الانجليز لمطالباته، ولذلك يفضل أن تبقى مساعيه صامته".

يوميات أكرم زعيتر، الحكومة الوطنية الفلسطينية ٣٠ ـ ١٩٣٩ م بيروت، ١٩٧٩ م.

(٢٢) د. عادل غنيم مرجع سابق، ص ٤١٥.

(٢٣) Sheikh Rustum Ali, Saudi Arahia and Oil Diplomacy, U.S.A, 1976,p.68.

(٢٤) محيي الدين القابسي، المصحف والسيف، ص ١٩٢ ـ ١٩٧ نقلاً عن أمين سعيد،.

(٢٥) نص الرسالة في الزركلي، ص ٢٦٣.

(٢٦) النص في الزركلي الوجيز الثانية، ص ٢٦٤.

(٢٧) ترجم رمضان لاوند ص ٥٠٠ وما بعدها وأنظر دافيد هوارث ص ٢٠٥ وما بعدها.

(٢٨ ميشوا، مرجع سابق، ص ٥٠٢ ـ ٥٠٣.
(٢٩) المرجع سابق، ص ٥٠٤.
(٣٠) الزركلي ـ الوجيز ـ ص ٢٧١.
(٣١) النص في أمين سعيد، ص ٢٣١.
(٣٢) النص في المرجع السابق، ص ٣٤٨.
(٣٣) أمين سعيد، ص ٣٤١.
(٣٤) الزركلي ـ الوجيز ـ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٦.
(٣٥) يقول تشرشل في مذكراته أنه أعجب بعبد العزيز لاخلاصه للانجليز. ولكن الدراسات تجمع على أن عبد العزيز لم يكن يخلص إلا للاسلام ومصالح المسلمين والعرب، David Mawarth, The Desert King,
(٣٦) نص الرسائل في الوثائق الفلسطينية لاتي نشرتها الجامعة العربية، ص ٤٦٥ ـ ٤٦٦.
(٣٧) نص الرد في المرجع السابق، ص ٤٦٧ ـ ٤٧٠ باللغة العربية وفي ص ٤٧١ ـ ٤٧٤ باللغة الانجليزية.
(٣٨) نصوص هذه الرسائل في الزركلي ـ الوجيز ـ ص ٢٨١ وما بعدها.
(٣٩) دافيد هوارث، ص ٢٠٧.
(٤٠) أمين سعيد، ص ٣٥٧.
(٤١) أحمد فراج طابع، صفحات مطوية عن فلسطين ـ القاهرة ـ ص ٤٢.
(٤٢) نص البيان في أمين سعيد، ص ٣٥٨.
(٤٣) شيخ رستم علي، مرجع سابق، ص ٦٩.
(٤٤) نص الرسالة في الزركلي ـ الوجيز، ص ٢٨٢.
(٤٥) راجع .H. St. John Philby, Saudi Arabia, Beirut 1968, pp. 348-349
(٤٦) من خطاب الملك عبد العزيز في موسم الحج عام ١٣٦٥ هـ/ نوفمبر ١٩٤٦، محيي الدين القابسي ص ١٣٦.
(٤٧) راجع على سبيل المثال حديث الملك مع أعضاء لجنة التحقيق الأمريكية البريطانية في الرياض في ٩ مارس ١٩٤٦ م في الزركلي ـ الوجيز، ص ٣٨٤.
(٤٨) تشير اتفاقية الهدنة بين الأردن واسرائيل في مادتها السادسة إلى أن القوات الأردنية تحل محل القوات العراقية في مواقعها، وأن الحكومة العراقية فوضت الوفد الأردني للتفاوض مع اليهود نيابة عن القوات العراقية.
راجع أيضاً في ظروف هذا الاحلال، مذكرات عبد الله التل، كارثة فلسطين، القاهرة ٢٩٥٩ م.
(٤٩) راجع مقال د. عبد الله الأشعل بجريدة الأهرام القاهرية بتاريخ ١٠ يونيو ١٩٨١ م، ودراسته حول نفس الموضوع بمجلة السياسة الدولية، القاهرة، عدد يوليو ١٩٨١ م.

أطرف شعراء زمانه

للأستاذ / أحمد عبد السلام البقالي

كان من حسن حظي أن أدعى إلى الحفل الأول لجائزة الدولة التقديرية في الآداب لعام ١٩٨٢م. وكان الحفل المهيب الضخم الذي سلم فيه جلالة الملك فهد الجوائز للفائزين تجربة فريدة لجميع الحاضرين تركت أثرا عميقاً وباقياً في نفوسهم جميعاً.

كانت كلمة جلالة الملك فهد التي أشاد فيها بالعلم والعلماء، والأدب والأدباء، ورجا الحاضرين أن يُعرِّفوه، لا بـ " صاحب الجلالة " ولا بـ " الملك " بل " بخادم الحرمين "، ذات مفعول سحري نفاذ، ودخول مباشر إلى القلوب.

كان الحاضرون جميعاً يشعرون بأنهم هم المكرمون في شخصيات " السباعي " و" الجاسر " و" ابن خميس " الذين كان جلالة الملك فهد يسلمهم جوائزهم، وفي كلماته، وعلى وجهه السمح، علائم الاعتراف العميق بجميلهم على المملكة والعالم العربي.

واعترف، وبكثير من الخجل، انني لم أكن أعرف، إلا القليل، عن هؤلاء الثلاثة الكبار الذين أفنوا حياتهم في خدمة الفكر. بل إن أحدهم وصل إلى منصة التكريم مدفوعاً على كرسي دارج ...

وأثناء تلك الزيارة فقط، استطعت أن أطلع على بعض أعمالهم، وسير حياتهم العامرة بالكفاح والمنجزات، فأدركت مبلغ الخسارة التي تتكبدها الأمة العربية من جراء انقطاع التواصل بين أطرافها، وعدد الكنوز الفكرية، والعلمية، والأدبية التي تعمل في صمت دون أن تسعدنا فرصة كهذه لاكتشافها، ووضعها على قائمة مفاخرنا في زمن أصبح العربي فيه متهما بالبلادة، والتخلف، وقصر النظر، والعجز حتى عن توحيد كلمته للدفاع عن نفسه، وبأنه لا يملك عقلاً علمياً يؤهله للعيش في القرن العشرين !

● عكاظ عصرى ●

ولو لم يكن لهذه الالتفاته الكريمة من جلالة الملك فهد، وسمو الامير فيصل بن فهد، الرئيس العام لرعاية الشباب، من أثر إلاَّ إيقاظ هذا الشعور بالاعتزاز، والفخر، والنخوة العربية المفترى عليها لكفى.

إن هذا الجمع الهائل من رجال القلم في مكان واحد، وفي وقت واحد، ما كان ليذهب دون أن يترك أثراً .. كان تَجَمُّعهم أشبهَ ما يكون " بسوق عكاظ " عصرية لم تُقَم بالعراء، أو تحت الخيام، ولكن في أفخم الفنادق، وأضخم القاعات، وأحدث الأندية الأدبية .. وكان تعرف بعضهم على بعض، شخصياً، يتم على موائد الطعام، أو في قاعات الفنادق، أو داخل الطائرات ...

ولم يكن التعارف والتعرف يجرى بين أدباء بلد عربي وآخر فقط، بل كان

يتم كذلك بين أدباء البلد الواحد الذين لم يسبق لهم أن جالسوا بعضهم البعض، أو تعاشروا لمدة كافية تتيح للواحد أخذ صورة جيدة عن الآخر .. وأعترف هنا، مرة أخرى، أنني جالست (الدكتور المهدي بن عبود) والاستاذ (عبد العزيز بن عبد الله)، وهما من بلدي، في (المملكة العربية السعودية)، أطول مما جالستهما في (المغرب) وعدنا من المملكة، ونحن أشد قرابة، وأوثق مودة ..

● حتي على الأموات ●

ولم يتح للحاضرين التعرف على الأدباء الاحياء فقط، بل تجاوزه إلى بعض الأموات، وقد كان من حسن حظي شخصياً، أن سمعت لأول مرة أشعاراً للشاعر المغربي الراحل، (محمد بن ابراهيم) شاعر الحمراء ..

جمعتني الصدفة في قاعة (فندق البحر الأحمر) بجدة بجماعة من الأدباء فجرى الحديث عن الفكاهة في الشعر العربي الحديث فكان الاجماع على أن أظرف الشعراء في هذا الفن كانوا مصريين، وذلك بحكم أن (مصر) بلد النكتة الأصيل منذ عهد الفراعنة ..

إلا أننا فوجئنا بأكبر الجالسين سنا، وكان أديبا مصرياً كبير السن والحجم، فتوجهت عيون الجميع اليه منتظرين تبرير الاعتراض، فقال :

" في الواقع، أظرف شعراء العربية في هذا القرن، كان بلا منازع، هو الشاعر المغربي المراكشي الراحل (محمد بن ابراهيم) شاعر الحمراء .. "

وكنت أول من فوجيء بهذا التصريح، فلم أكن أعرف أن سمعة (ابن ابراهيم) وصلت إلى (مصر)، وتركت هذا الصدى كله. كنت أعرف عن طريق ما يتناقله أهل (مراكش) من طرائف عن زيارته الأدبية التاريخية إلى (مصر) في الثلاثينات، من مثل أن السيدة (أم كلثوم) أرادت مداعبته مرة، فقالت له : " رأيت وجهك في اللطائف المصورة "- وهى مجلة كانت تصدر آنذاك - فرد عليها في الحال : " وأنا رأيت اللطائف المصورة في وجهك ".

وحكايته مع أهل مجلس من

الظرفاء ترك فيه عباءته السوداء ـ السلهام المغربي ـ وقام للوضوء، فرسم أحدهم عليها وجه حمار بالطباشير. وحين عاد شاعر الحمراء، ورأى ذلك، والجميع ينتظرون رد فعله، سأل ببراءة : " من مسح وجهه في هذه العباءة ؟ ".

وكنت أعتقد، مما وصل إليّ من شعر (ابن ابراهيم) أنه شعر مهلهل تقليدي، لا يستحق الاهتمام ... وأرهفت سمعي، وفتحت مسجلتي استعداداً للاستفادة والاستمتاع.

وأخذ الأديب الحافظ يحكي عن نوادر (ابن ابراهيم)، وينشدنا من أشعاره من الذاكرة أبياتاً ورباعيات وقصائد قصيرة في غاية الظرف ورقة الحس الفكاهي، وكان الشعر الذي يذكره يضحك له، وكأنه سمعه اللحظة يذكر أبياتاً في التشنيع والتنكيت على موظف من أصل أجنبي، جاهل فارغ ثقيل الدم، سريع الكلام، يخلط العربية بالتركية والفرنسية، فرضته على الشاعر ظروف زياراته (لمصر) في ذلك العهد ليتجسس عليه لحساب الانجليز وليعطيه صورة مشوهة عن مصر والمصريين وكان اسمه (مفضل).

قال الأديب الكبير :

" أول ما سمعته من (شاعر الحمراء)، هو هذه الأبيات التي عبر فيها عن ضيقه بسرعة كلام الرجل وفراغ ما يقوله :ـ

(مفضل) مستعجل
في الحكم والكلام
يقول في دقيقة
ما قلته في عام
كأنما يعيش في
ضيق وفي زحام
لكنّ ما يقوله
أقوى من الأوهام
كأنما كلامه
نفخ على الأنام
لا تعجبوا فجسمه
زمر بلا لجام
كقربة منفوخة
تداس بالأقدام

وانطبعت ابتسامة استحسان واستزادة على وجوه الحاضرين، فشجعه ذلك على الاستمرار قال :

" وبعد مأدبة عشاء أجبره الموظف على حضورها في بيته، خرج الشاعر مغتاظاً من سخف الرجل، وأنشدني :

أراد أن يحظى مفضل بما
يرفع رأسه أمام العلما
فجمع الناس على مأدبة
وصار يفخر بما تعلما
فقرر المجتمعون أنه
أثقل خلق الله ظلاً ودماً

واستدرك قائلاً :

" ليس كل ما قاله الشاعر المراكشي في المتجسس عليه هجوا مباشراً .... ولم يكن يهجو لمجرد الهجو الصادر عن كراهية تشفٍ، بل كان هجاؤه ذكيا، هدفه النكتة والفكاهة، والرغبة في الاضحاك والإمتاع .. انظروا كيف ينزل في هذه الأبيات، بالرجل، بالتدريج إلى حضيض الجهل :

(مفضل) طلبوا منه أن يخط مقالة..

فلم يجبهم، فقالوا :
" بالله اكتب رسالة "
فلم يجبهم فقالوا :
" اقرأ علينا حوالة "
وحين لم يدر، قالوا :
" تبًا لَهُ ! لا أباله "
وعندها عينوه
أستاذ كرسي الجهالة "

وعلا ضحك الجماعة هذه المرة، وأقبلوا عليه، فقال :

" كان شاعر الحمراء يستطيع احتمال كل شيء الا ثقل الدم، وتفاهة العقل فكان أغلب ما قاله في مرافقه ينصب على هذه الأوصاف ... مثلا :

أتى محلل دم (مفضلا)
. فشكه بالمحقن المصاص
فانكسر المحقن في عروقه
فدمه أثقل من الرصاص

وانظروا إلى هذه الصورة الكاريكاتورية العجيبة في وصف ثقل ظله :

" لو أن ظله على
رأس مصارع سقط "
لسحق الرأس فظله
" كوابور الزلط "

وعلت القهقهات .. فقال الرجل السمين وبطنه يهتز طربا :

"لم تسمعوا شيئاً بعد ! انتبهوا إلى الحبكة القصصية الحوارية في هذه الأبيات الخمسة :

وجدته منبطحا
بباب بعض الأبنية
فقلت : " ما تفعل ؟ " قا
ل : " خدمتي هذي هيه "
فقلت : " ماهي ؟ " فقا
ل : " أن أكون زربية "
يمسح في الداخلو -
ن للمكان الأحذية
قلت : " هنيئا قد وجد
ت " الحرفة المواتية "

وبعد عودة الهدوء استأنف :

" أرأيتم كيف أن مقاطيعه تكون وحدة متكاملة متماسكة، ولا تقوم على وحدة البيت. بل على وحدة الكلّ، ولا يمكن الوصول فيها إلى بيت القصيد إلا بقراءتها كاملة .. فالنكتة تأتي في البيت الأخير ، مثلا :

مفضل، بالرغم من خواه
وجهله ينفع من سواه
فكم من الأولاد في حارته
تعلموا الصفع على قفاه

وانتظر حتى تمر العاصفة، وأضاف :

" ولكنني لا أعتقد أن العرب في جميع عصورها جاءت بمثل هذه الصورة الرائعة في وصف رجل فارغ .. ولابد أن أذكر هنا أن "مفضل" هذا كان يلبس نظارة .. قال (ابن ابراهيم) :

وحين غاب مرة
وصفه بلاغ
بأنه نظارة
وخلفها فراغ

وفي نفس هذا المعنى قال :

وأنصتوا لرأسه
فسمعوا صفارة
تنم عن فراغها
كأنها مغارة

وحين كان يشبهه بحيوان بليد فقد كان قصده الأول والأخير اصطياد النكتة في التشبيه، لا الإهانة والتحقير

مثل قوله :

قال : " اسمه " مفضل
" وفضله كبير ... "
قلت : " على من فضلوا
" أيها الخبير ؟ "
قال : " على حميرهم ..
فاحتجت الحمير "

" وكما في هذا البيت اليتيم

ظننت الحمار بليدا، فلما
عرفت «مفضّلا» غيرت رأيي

" وعن سرعته في الكلام يقول في نفس الخط " :

عجبت لسرعته في الكلام
وما ليس يفهم من ثرثرة
الى ان عرفت من العلماء
وأهل الحجى أنه حشرة !

وأخذه السعال، واحمر وجهه وهو يضحك حى أشفقنا عليه ـ وما كاد يسترجع أنفاسه، حتى أخذ يسكتنا ليقول :

" هذه آخر واحدة .. وقد قالها في أواخر أيام زيارته حين بلغت روحه التراقى ضيقا بسخف المرافق :

ويـوم عجـن جسمـه
لكـي يصـير بشرا
لـم يجـدوا في السـوق ملــ
ــحـا يشتـري أو سكـرا
فجـاء لا طـعـم لـه ..
كقطـعـة مـن .... "

وتوقف، فطلبت منه الجماعة اتمام البيت، ولكنه رفض ضاحكاً وهو يمسح عينيه : " كلكم شعراء، فكملوا من رؤوسكم ".

وفعلاً أتم البيت أحد الحاضرين ....

وبعد عودة الوقار الى المجس عقب الأديب الكبير :

" بقي الكثير مما لا يسمح المقام ولا يتسع المجال لذكره .. فهناك قصائد جميلة للشاعر (ابن ابراهيم) في الغزل، والتصوف، والحكمة، والوصف، والاخوانيات ... ولكن موضوع حديثنا كان الفكاهة في الأدب والشعر.

"وقد احتفظت لشاعر الحمراء بهذه الأشعار علما مني أنه لم يكن يسجلها استهتاراً منه بها ـ كان ينظمها في طريقه إليَّ للتنفيس عن ضيقه أولا، ولإشراكي في محنته وتسليتي، لما لمسه فيَّ من ولع بالشعر الفكاهي واستعداد لتذوقه.

" وقد عبر عن ضيقه بهذا النوع من الشعر بقوله " :

أخـرجنـي (مفضـل)
عـن عـادتـي المفضلـة
قد كنت أهجو النابهين من عتاة الجهلة
مثل (أبي جهل) وجيش المشركين السفله
فصرت أهجـو تـافـهـا
نكـرة لا وزن لـه

وحضر وقت العشاء، فوقف الأديب الكبير، وقال :

" لن أذهب قبل أنشدكم أهجي ما قالته العرب في العصر الحديث، وأقسى ما سمعته ـ كمصري ـ تجري الفكاهة والخفة في دم شعبه :

لـو قطـرة مـن دمـه
سـالـت في مـاء (النيـل)
لثقلـت دمـاء أهـــ
ــل (مصر) ألـف جيـل !

وهمـا للشـاعـر (محمـد بـن ابراهيم) ....

ولم يقم أحد من ذلك المجلس دون أن يسلم بأن (محمد بن ابراهيم)، شاعر الحمراء، كان أظرف شعراء زمانه !..

من أدب الرحلات

للأستاذ عبد الله حمد الحقيل

يحرص كثير من الرحالة الذين تتاح لهم الظروف على التجول في الأرض لمشاهدة البلدان والآثار والمعالم والسهول والجبال والأنهار والبحار والطرائف والأحداث والعمران واللغات والعادات والتقاليد والثقافة والعلم والمعرفة بحيث يصفون مشاهداتهم ومعلوماتهم عن خبرة ودراية.. فلا يخزنونها لأنفسهم فقط ويضنون بها على القراء..

لذا فإن أدب الرحلات أدب شهي لذيذ بما يقصه من ذكريات وأخبار ومعلومات عن أحوال الأمم وما يتميز به من عادات وتقاليد.. ولقد كان أسلافنا يهتمون به ويحرصون عليه ويدونون ذكرياتهم وانطباعاتهم ورحلاتهم ويقصون ما يحدث لهم من مشاهدات ومشقات وضياع وما يعترضهم من قطاع الطرق، وكثيراً ما وقعوا في قبضتهم.. فقد كانت الأسفار قديماً مشقة وعناء ونصباً وكان

السفر من بلد إلى بلد يستغرق أياماً وشهوراً بل أعواماً.. حيث كانت المواصلات هي الإبل والدواب والسفن الشراعية التي تمخر عباب البحار وتسيرها الرياح وتتعرض للعواصف والرياح والأرزاء..

وقد استأثر أدب الرحلات باهتمام كثير من طبقات مثقفي العالم قديماً وحديثاً وعني به أعلام بارزون عبر أطوار التاريخ فتركوا لنا منه ثروة تعتبر من أهم روافد الثقافة على اختلاف مناهج الرحّل من أجناس العالم..

لقد كانت الرحلات فيما مضى عملاً شاقاً وأسلوباً مضنياً كما يقول أحدهم:

نشق الفيافي فدفدا بعد فدفد
جبالاً وأوعاراً وأرضاً وطية

ورحم الله أسلافنا الذين سلكوا فجاج الأرض وجابوا الأمصار وركبوا متن البحر وصارعوا هياجه وتحملوا اضطرابه وواجهوا أعاصيره وتكبدوا العنت والإرهاق في جوب القفار والسير في الفيافي والمفاوز ..من أمثال ابن جبير وابن بطوطة والسيرافي وياقوت الحموي والهمداني والبكري والمسعودي والأصمعي والأصفهاني والزمخشري وابن وهب القرشي وابن فضلان.. ولقد كان لإخواننا المغاربة نشاط كبير في هذا الميدان؛ فلهم كتب كثيرة ولم يطبع إلا القليل منها وما تزال موجودة في خزائن دور المخطوطات. وخلال زياراتي لبعض المكتبات في فاس والرباط رأيت الكثير مخطوطاً، وبعضها مصور على شريط (ميكروفيلم).

وهكذا فإن لأدب الرحلات شأناً كبيراً. ولقد حفل تراثنا العربي الإسلامي بنماذج عظيمة، وترك أسلافنا ثروة كبيرة تعتبر من أهم روافد الثقافة والتاريخ والأدب. وإذا كانت الرحلات بالأمس ممارسة شاقة فإن الرحلات في هذا العصر أصبحت ممتعة بفضل تطور وسائل المواصلات. والرحلات بطبيعتها سبيل من سبل المعرفة ومعين ثر للفائدة والاطلاع والمشاهدة ولذا نرى البعض يحرص على الاستفادة منها كما قال أبو تمام:

كأن به شوقاً إلى كل جانب
من الأرض او ضغنًا على كل جانب

ولكم آثار هذا البيت اهتمام الدكتور طه حسين حيث قال لا أعرف بيتاً تتسع آفاقه وتبعد آماده ويجمع الأرض كلها في كلمات معدودة مثل هذا البيت.

واستجابة لرغبة أخي رئيس التحرير فإنه يسعدني أن أقدم جانباً من هذه الرحلة التي قمت بها إلى اليمن.

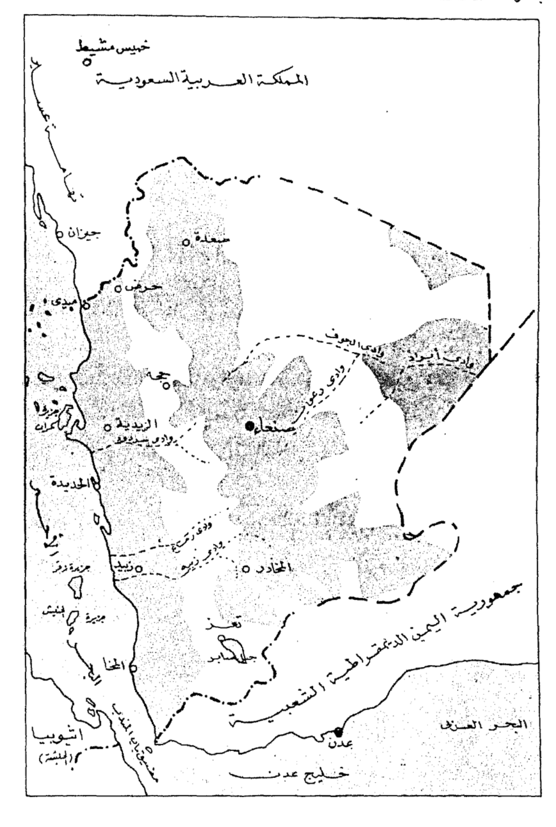
منذ مدة والنفس تحدثني بزيارة اليمن والوقوف على معالمها وأخبارها وآثارها.. ولكم قرأت الكثير من كتابات المؤرخين اليمنيين ممن لهم باع في التاريخ تأليفاً وتحقيقاً ودراسات ولقد تتبعت كتابات مؤرخ اليمن المعروف أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني صاحب الاكليل وصفة جزيرة العرب الذي تبعه واعتمده الكثير من المؤرخين والمحققين من قدامى ومعاصرين وكذا صاحب معجم البلدان «ياقوت بن عبد الله الحموي.. وغيرهم فقد أحاطوا بأوصاف تلك البلاد وتاريخها ومعالمها وآثارها وما يتعلق بأوصافها وآدابها وشعرائها. وقد سميت بالخضراء كما يقول الهمداني لكثرة أشجارها وزروعها وثمارها، ولقد كانت حفاوة العلماء والمؤرخين والباحثين كبيرة في هذا المجال كل ذلك شدني إلى الوقوف على تلك المعالم فتطلعت إلى الفرصة المناسبة للقيام برحلة إلى تلك الربوع.. فصادف أن تلقيت دعوة كريمة من مدير جامعة صنعاء ورئيس مركز البحوث والدراسات اليمني بالحضور للمشاركة في أعمال الدورة الثامنة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية فتوجهت يوم الجمعة الموافق ١٧/١٠/١٤٠٥هـ على متن إحدى طائرات البوينج، وقد أقلعت بنا الطائرة من الرياض في رحلة استمرت زهاء ثلاث ساعات حيث مررنا بمدينة تعز ولقد كنت أشاهد من عال جبال السروات ثم جبال اليمن الشامخة[1] حتى وصلنا إلى صنعاء المدينة التاريخية والتي كتب عنها المؤرخون كثيراً، فهي من أقدم المدن، نعم ها هي صنعاء والتي قال فيها أبو محمد الحسن الهمداني:

أرض تخيرها سام وأوطنها
وأسى غمدان فيها بعدما احتفرا
أم العيون فلا عين تقدمها
ولا علا حجر من قبله حجرا

وقال أيضاً أحمد الرداعي وما أكثر ما

(١) مردداً قول الشاعر:

إذا مضى علم منها بدا علم ∴ وإن مضى علم منه بدا علم



« خريطة الجمهورية العربية اليمنية »

قال الشعراء ولعله يؤرخ هنا لها:

صنعاء ذات الدور والآطام
والقدم القدام ذي الأقدام
والعز عن ذي السطوة الغشام
أست بعلم لابن نوح سام
يعلم رب ملك علام
إذا رادها سام بلا توهام
ورادها من قبل ألفي عام
ما بين سفحي نقم النقام
وبين عيبان العبير السام
فأسها في سالف الأيام

ويقول الهمداني:

ما زال سام يرود الأرض مطلبا
للطيب خير بقاع الأرض يبنيها
حتى تبوأ غمدانا وشيدها
عشرين سقفاً يناغي النجم عاليها

فلقد كانت معشوقة الشعراء وما أكثر ما قرأنا من أشعار رقيقة يتغنون فيها بقصائد مفعمة بالحنين والشوق لهذه المدينة وكنت أتلفت يمنة ويسرة في ربوع هذه المدينة، وأنا في طريقي إلى فندق «سبأ» فأرى فيها تاريخ الحياة لأمم عديدة تذكرت خلالها عرش بلقيس وسد مأرب وسبأ وحمير ومعين والتتابعة وسيف بن ذي يزن... الخ

وحضارة مأرب ومدنيتها. وهي حضارة رواها القرآن الكريم في سورة سبأ وأطلق عليها المؤرخون اسم أرض (الجنتين)..

مدينة «مأرب» هي العاصمة التاريخية لليمن، وتقع على بعد ١٧٠ كيلا شرق العاصمة صنعاء وتربطها بالعاصمة طريق مرصوفة..

وهي مدينة مشهورة عاشت حضارات دول غابرة هي دول معين وسبأ وحمير، وبها آثار تلك الحضارات من منشآت ومعابد مثل معبد الشمس، وطرق وسدود لا تزال أطلالها شاهدة. وقد حظيت هذه المدينة الأثرية - وخصوصاً منذ مطلع هذا القرن - باهتمام الباحثين وعلماء الآثار العرب والأجانب، كما شدت إليها السواح من كثير من بلدان العالم، وكتبت عنها عدة مؤلفات وأبحاث، كما حظيت اللغة اليمنية القديمة وأبجديتها التي توجد نصوص منها منحوتة على الصخور والكهوف والجبال في مدينة مأرب وما جاورها باهتمام كثير من الدارسين اليمنيين الذين أخرجوا عدداً من هذه النصوص التي تسمى (خط المسند)

وقاموا بترجمة مفرداتها التي لا يزال البعض منها ينطق حتى اليوم ضمن بعض اللهجات اليمنية..

وفي اليمن معالم تاريخية كقصر غمدان الشهير ومسجد الصحابي الجليل معاذ بن جبل وجامع صنعاء والهمداني والزبيدي وعمرو بن معد يكرب وغير ذلك مما هو موضع اهتمام الباحث والمؤرخ والأثري والأديب.

وتذكرت الرحالة المعروف أمين الريحاني وهو يدخل صنعاء مبهوراً بزحمة التاريخ وجلال الزمن. حقاً إن الحديث عن هذه البلاد وما فيها له نكهة تاريخية تستهوي القاريء والمؤرخ والرحالة بل وعلماء التاريخ والآثار.

إن صنعاء مدينة محاطة بالجبال تمتد شرقاً وغرباً كأنها وهي كلها بيضاء سلسلة من التلال في سهل مخضر جميل وعن شمالها وجنوبها هضاب وآكام وأودية.. وهكذا نزلنا في صنعاء مردداً قول الإمام الشافعي رحمه الله الذي سار سير الأمثال:

«لا بد من صنعاء وإن طال السفر».

وقول الشاعر:

يا حبذا أنت يا صنعاء من بلد
وحبذا واديك الظهر والضلع

وما أكثر ما بكى شعراء اليمن بين يديها ومن ذلك قول أحدهم:

إني إلى صنعاء يحملني
وجه النهار وترحل الأصل

فمتى تظللني مآذنها
ويضيء من احضانها الجبل
اأموت يا صنعاء مغترباً
لا الدمع يدنيني ولا القبل

لقد اطلعت خلال الزيارة على الكثير من المعالم والآثار التاريخية حيث تمكنت من التجول بين عدد من المدن والقرى .. ولقد قمت بزيارة لجامع صنعاء الكبير والذي بناه ابان بن سعيد وقيل أيوب بن يحيى في السنة السادسة للهجرة وقد بنى بأحجار كبيرة ضخمة متقنة النحت به زخارف ونقوش وسقفه تحفة من تحف الفن الإسلامي النادرة ويحيط بالسقف من جميع جنباته حزام خشبي محفور عليه آيات من القرآن الكريم بالكتابة الكوفية.

وفي هذا الجامع مكتبة ضخمة تحتوي على مجموعة كثيرة من

المخطوطات والمصاحف المكتوبة على الرق بالخط الكوفي والحجازي على مختلف الأحجام. وقمت بزيارة لدار الكتب والمخطوطات المجاورة للجامع حيث استقبلنا الأخ عبده حسين صلاح حيث قام يشرح لنا المعدات الفنية لترميم المخطوطات وتجليدها وتصويرها وفرز كل نوع على حدة.. ثم دخلنا قاعة معرض المخطوطات الحافلة بشتى المخطوطات المكتوبة بالخط الكوفى والحجازي والنسخي. وكذا بعض النقوش وحروف المسند.

والواقع أن الجامع يزخر بثروة كبيرة من المخطوطات في شتى العلوم والمعارف. ومن جامع صنعاء خرجنا نتجول في وسط المدينة القديمة ومشاهدة بيوتها وآثارها فزرنا قصر غمدان ومسجد صلاح الدين وغرفة القليس وسوق الملح وغير ذلك من أحيائها القديمة وحواريها وتراثها المعماري والأثري وأبوابها العشرة. أما مبانيها فهي تضم أنماطاً من المباني أولاً المباني العربية والتي كانت شائعة قبل الإسلام ثم النمط الإسلامي الذي انتشر وشاع بعد ظهور الإسلام ثم النمط العثماني وكل صنعاء القديمة مازالت تحتفظ بكل هذا التنوع مع ملاحظة الزخرفة وتعدد الطوابق.

حقاً إن صنعاء لمدينة قديمة يقال إنها أول مدينة عمرت بعد الطوفان وسميت باسم بانيها سام بن نوح. ولكم حفلت كتب التاريخ والأدب بأخبارها. وهناك عدد جم من الشعراء والمؤرخين والأدباء عنوا بوصفها وآثارها ومعالمها ونقوشها وأنسابها وتاريخها وأخبارها.

دار الكتب والمخطوطات:

قمت والصديق الدكتور عبد الله الغنيم عميد كلية الآداب بجامعة الكويت ورئيس تحرير مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية بزيارة لهذه الدار الحافلة بخزائن المخطوطات وقد استقبلنا رئيسها القاضي اسماعيل بن علي الأكوع وهو من المحققين والمشتغلين بكتب التراث وله اهتمام وخبرة بالمخطوطات والتقينا عنده بكل من مدير المتحف الأستاذ زيد بن علي عنان وبعض الأخوة العلماء فكان الحديث عن الكتب والمخطوطات والوثائق ودور مراكز البحوث والمخطوطات في نشر ذلك

وأهمية الحفاظ على التراث ودور العلماء والباحثين.. وجهود البعض من المستشرقين في هذا المجال وأهمية تسهيل الحصول على المخطوطات للباحث والاستفادة منها بأسهل الطرق.. ولقد أمضينا وقتاً ممتعاً انغمسنا خلاله في أغوار التاريخ والتراث والعلم. حقاً إن واجب جامعاتنا ومراكز البحوث الاهتمام بالتراث وتحقيق المخطوطات كما أن الكثير من المخطوطات مهدد بالضياع ما لم نبادر إلى صيانته وتعقيمه وحفظه خاصة ما كتب منه على الرقوق والجلود كما أن الاهتمام بالوثائق ناحية مهمة باعتبارها مصادر مهمة في البحث والدراسة.

زيارة السفارة السعودية:

قمت بزيارة لسفارتنا وقد وجدت من سعادة السفير الأستاذ علي القفيدي كل حفاوة وتقدير ولقد حرص/أكرمه الله على إكرامي فدعاني للغداء وألح ولكني اعتذرت فقال لي لابد من ذلك فقبلت دعوته على الغداء حيث دعا الأخوة السعوديين فكان لقاء أخوياً ودياً وفي أثناء وجودي هناك رغبت في زيارة مكتب الملحق التعليمي السعودي ولقد سررت بما يقدمه المكتب من خدمات جليلة حيث أن هناك بعثة تعليمية سعودية كبيرة تقوم بالتدريس في مختلف المناطق. وحكومتنا الجليلة تأتي في مقدمة الأمم بذلاً وعطاء حيث بناء المدارس والمستشفيات والطرق والمساجد.. ثم خرجت من مكتب الملحق التعليمي بعد أن زودني بمجموعة من صحف بلادنا..

زيارة مدينة تعز:

وفي الصباح الباكر ذهبنا إلى مدينة تعز وانطلقت بنا السيارة شطرها وكان الطريق مائتين وخمسة وستين كيلاً جنوب العاصمة ومررنا بمناطق خضراء وجبال مجللة بالجمال والخضرة وسهول تغطيها المزارع ومررنا بعشرات البلدان والقرى كذمار، والتي سبق أن تعرضت لكارثة الزلزال حيث شاهدنا آثاره وكذا اب ويريم وغيرها من القرى والبلدان وهي أجمل مناطق هذه البلاد، ولقد صعدنا جبالاً شامخة فارعة فكنا نرتفع تارة ونهبط أخرى إنها لقمم شامخة خطرة كجبل سمارة الشهير وكان

مـرافقي الأخ محمـد المعلمي يشرح لي أسماء هذه الأمـاكن والجبال والـوديان وكـان السائق مـاهراً حـاذقاً بـالطريق فعندما رآني مكتئباً من وعورة الطـريق قـال لي لا تخف فقـد تـرددت مـع هـذا الطريق عدة سنوات ومازلت أتـردد بين جنبـاته فهـو شيء سهل فقلت زادك الله نشاطاً وقوة ومهارة فعليـك بالـرفق ففي التـأني السلامـة وفي العجلة النـدامة. ولقد تعودت على صعود واجتيـاز مناطق جبلية أصعب منها.

ثم لاحت لنـا تعز المـدينـة الخضراء يحتضنهـا الجبـل الأشم «صبـر» وهي مدينة جميلة تقع على الربوات المتناثـرة هنـا وهناك تغـريك خضرتهـا وجبـالهـا وجمـال مبانيهـا. وقـد زرنـا أسـواقهـا القـديمة وجـامعها وحصـونها القـديمة وجبالها الجميلة وقمت بزيـارة للمتحف الوطني.

ثـم غـادرنـاهـا إلى بعض القـرى والأريـاف حتى عـدنـا إلى العـاصمـة بعـد أن مـررنـا بـالعـديـد من قصـور اليمن ومعـاقلهـا الكثـيرة والأثـريـة وهي غـاية في فن العمـارة والنقش ومن القصور التاريخيـة التي لا زالت باقيـة قصر غمدان وصرواح وناعط وفيـه يقول الهمداني:

فمن كـان ذا جهـل بـأيـام حمـير
وآثـارهـم في الأرض فليـأت نـاعط
يجـد عمدا تعلـو الفنـا مـرمـريـة
وكـرسي رخـام حـولـهـا وبـلائط
مـلاحقـهـا لا ينفـذ المـاء بينـهـا
ومبـهـوقـة مثـل الفـراخ خـرائط
تـرى كـل تمثـال عليهـا وصـورة
سبـاعاً ووحشـاً في الجبـال وبـاسط

وفي قصر صرواح يقول الشاعر:

ابـونـا الـذي كـانت بصرواح داره
وفي جبـل النـعمـان عـز تمكنـا
ونحن ورثنـا عز خـولان ذي النـدى
مـاثـر عـز مثلـهـا لـم يـدم لنـا

وقبـل أن نعـود للعـاصمـة لاحت لنـا قصورها فتذكرت قول الشاعر:

إذا طلعنـا جبـال السـود لاح لنـا
من أرض صنعـاء معطاف ومـرتبـع
يـا حبـذا أنت يـا صنعـاء من بلـد
وحبـذا واديـاك الظهـر والضلـع

وطلبـت من مـرافقـي أن نـعـرج لمشاهدة هذين الواديـين ثم عدنـا إلى الفنـدق بعـد رحلـة حـافلـة بـالأدب والتـراث والمعـرفـة والآثـار والمشي والبـرد وهطول المطـر واستغرقت في نـوم عميـق حتـى الفجـر حيـث الاستعداد للسفر مردداً قول القائل:

نـزلنـا هـاهنـا ثـم ارتحلنـا
فـدنيـانـا نـزول وارتحـال

○○○○

المواكب السلطانية ورسوم الإعلام في الدولة الحفصية

د. صالح محمد فياض أبو دياك

ملخـــــص

يتضمن هذا البحث اشارة موجزة عن رسوم المُلْكِ عند المرابطين ثم الموحدين، وينتقل بالحديث إلى المواكب السلطانية، ورسوم المُلْكِ في الدولة الحفصية، مشيراً إلى رسوم الملك، مع بيان أهمية الأعلام ، وألوانها، مميزاً بين أنواعها ودلالات كل نوع، كما يتحدث عن لباس الأمير، وما يميزه عن غيره من الأمراء المجاورين له، بوضع التاج على رأسه تشبهاً بملوك الفرنجه، مع الاشارة إلى التأنق باللباس واختياره للنادر منه، عكس غيره من سلاطين الدول المجاورة له كالمرينيين وبنى الأحمر وهذا دال على ماكان عليه السلاطين من رفاهية العيش.

ونوه البحث بالحراسة المشددة التي يتخذهـا السلطان عنـد خروجـه للصلاة، أو السفر، أو التنزه، قصد الحيطة والحـذر، فقد زادت في هـذه الآونة حـركة الاغتيـالات وبخاصة في غرناطة المجاورة لهم.

كما أشارت هذه المواكب إلى الأُبَّهـة السلطانيـة التي كانت في الـدولة الحفصيـة بينما اتسمت بالبساطة عند جيرانهم المرينيين في بداية عهدهم، وفي الدولـة الغرنـاطية لم تظهر بعض مظاهرها إلا في سنة ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م.

وذيل البحث بقائمة تحمل أسماء السلاطين، وسني التولية، والعزل أو الوفاء لكـل سلطان.

اذا نظرنا إلى مواكب وأعلام الـدولتين الســابقتين للـدولة الحفصيـة، وجدنـا أن الرسوم والمواكب لم تكن ذات بال عند أربابها، ولعل هذا راجع إلى ما اتسمت به هاتان الدولتان من بساطة في الحكم، والميل للتقشف، خاصة الدولة المرابطيـة بالإضــافة إلى الحروب التي شغلتهم عن ذلك سواء في الداخل أو الخارج.

فقـد عمد المـرابطون جـاهدين عـلى توحيـد المغرب الكبـير تحت رايتهم، وبذلـوا قصارى جهدهم في تحقيق هذه الرغبة، كما بذلها من بعدهم الموحـدون لكن انجازاتهم كانت أقل من طموحاتهم، يضاف لذلك حروبهم المستمرة مع الفرنجة بالأندلس بهـدف انقاذها مما هى فيه من فتن داخليـة، ورد هجمات الأسبـان عنها، والمـلاحظ أن ألوان الأعلام بين الـدول المغربيـة الموحـدية والحفصيـة والمرينيـة قد تمـاثلت عدا الـدولة المرابطية التي اتخذت السواد شعاراً لها سواء في أعلامها أو لباسها الرسمي تأدباً مع حضرة الخلافة العباسية ببغداد، حيث أرسل الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين[١] إلى الخليفـة العباسي عبـد الله القائم بـأمـر الله وفـداً لهـذا الغـرض، وكـان عـلى رأسـه عبد الله بن محمد العربي المعافرى الأشبيلي وولده القاضي أبـو بكر، ونتـج عن مقابلـة الوفد للخليفة أن عقد للأمير يـوسف بن تاشفـين على إمـارة المغرب[٢]، وبعـد وصول العقد، اصدر مرسوماً لجميع ولاته طالبهم فيه بان ينعتوه بلقب (أمير المسلمين وناصر الدين) وأن يدعوا له به على منابر ولاياتهم.

وكان قد بنى مدينة مراكش سنة ٤٥٤ هـ ـ ١٠٦٢ م واتخذها عاصمة لملكه، ونقش اسمه على السكة، وسك الدينار المرابطي المدور الشكل، وكتب على أحد وجهيه (لا اله إلا الله محمد رسول الله) وتحت ذلك (أمير المسلمين يوسف بن تاشفين)[٣] ونقش في مداره (ومن يبتغ غيرَ الإسلام دِيناً، فلن يُقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين)، وفي هذا المدار ـ أيضاً تاريخ الضرب وموضوع السك.

وكتب على الوجه الثاني (الامام عبد الله أمير المؤمنين العباسي) وأخذ يرسل مراسلاته للخليفة ولغيره باسم (أمير المسلمين وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين)، كما اثبت اسمه على ما ينسج من الكساء والفرش والبنود والأعلام.

أما الموحدون، فكان الشعار الرسمي لدولتهم سواء في الأعلام أو اللباس، البياض وإلى جانبه اللون الأخضر، إلا أن البياض هو الغالب على لباسهم خاصة القضاة والفقهاء الذين كانوا يعرفون به[٤].

وكان من أهم هذه الأعلام العلم الأبيض الذي كتب على أحد وجهيه « الواحد الله، محمد رسول الله، المهدي خليفة الله » وكتب على الوجه الثاني : (وما من إلّه إلا الله، وما توفيقي إلا بالله، وأفوض أمرى إلى الله)[٥] وأصدر عبد المؤمن[٦] الدينار الموحدى، المربع الشكل ونقش اسمه على السكة واتخذ حاضرته مراكش.

رسوم الملك عند الحفصيين

كان شعار الملْك عند بني حفص، العلم المسمى (بالمنصور)[٧] وهو لواء[٨] أبيض ويسمى أحياناً بالعلم الأبيض[٩]، حيث يحمل في المواكب الرسمية ومعه سبعة أعلام يتوسطها وإلى جانبه علم أحمر، وأصفر، وأخضر، أما بقية الأعلام فإن ابن قويع[١٠] ناقل الخبر لم يتحقق من ترتيبها.

أما أعلام القبائل التي تسير مع الخليفة، فلكل قبيلة علم تعرف بـه حسـبما عليه من كتابة تميزه عن غيره، وجميع الأعلام مكتوب عليها عبارة «الشهادتان».

امـا لباس الأمـير[١١] فقد تميـز عن لباس الأمـراء المجـاورين لـه، بـوضـع التـاج[١٢] على رأسه تعظيماً وتفخيماً فوق عمـامة كبـيرة مصنوعـة من الصـوف، مفرطة بالكبر يتحنك[١٣] بطرفها السلطان ولها عذبة صغيرة[١٤].

وقد يتعمم بعمامة تماثلها بالحجم، ولكنها تختلف بالصنع، حيث تصنع من الكتان ـ والحرير إلى جانب الصوف، ولا يتعمم من رجال دولته أحد، حيث يرسل عَذَبَة صغيرة منها نحو أذنه اليسرى، وهي مخصوصة به وبأقاربه، ولـه جلباب يلبسـه مصنوع من قمـاش يسمى السفارى منسـوج بخيـوط من الحـريـر ومن القطن، أو من الحرير الخالص.

أما ملابسه، فهي مصنوعة من الخَزّذات اللون الأخضر الضارب للسواد، ويسمى عندهم بتسميات متعددة منها، الجوزى، والغيار، والنفطى. ويستخرج عادة من البحر بالغرب من صفاقس[١٥]، ويسمى في بلاد مصر والشام بوبر السمك وتعتبر هذه الثياب من أفخر ثيابـه لندرتهـا وجودتهـا[١٦]. وقد يلبس إلى جـانبها الثيـاب الصوفيـة ذات الالوان الجميلة، وعلى الأخص المختم[١٧] منها، المصنوع من خيوط الصوف والحريـر معا، حيث ينتهي كل ثوب بكمين طويلين ضيقـين عند الـزندين، ولا تشـد ثيابـه إلا في الحرب، حيث يتحزم ويلبس الأقبيـة وله طيلسـان من الصوف متقن الصنـع، يرتـديه دون أن يضعه على رأسه، ولا يلبس الخف، ولا أحد من أشيـاخه أو جنـده إلا في أيام السفر والحرب.

وفي موكب خروجه لصلاة الجمعة

يروى لنا ابن سعيد[١٨]، أن من عادته أن لا يجتمع في هذا اليوم بأحد، بل يخرج عنـد اقتراب الآذان من قصره، يشق رحبتـه مابـين خواصـه وحراسـه من المـاليـك

والأتراك، وعندما يشاهدونه قادماً ينادون بصوت واحد وبنداء عـال (سلام عليكم)، بحيث يسمعه من كان بالمسجد الجامع المزمع إقامة الصلاة فيه، يتقـدمه وزيـر الجند يسير في ساباط[١٩] يتصل بالجامع، حيث يفتح وزير الجند البـاب السلطاني المـذهّب، الذي يخرج منه السلطان وحده حيث يكون في استقباله جماعة من أعيان الدولة يقفون عند قدومه ولا يقوم سواهم من المصلين وليس لـه مقصورة مخصصـة للصلاة بعكس سـلاطين بني الأحمـر الذين اتخـذوا مقصورة خـاصة[٢٠] بهم عنـد الصلاة، وبعـد الصلاة يجلس في قبة كبيرة معدة له في صدر الرحبة، حيث يحضر عنده أقاربـه للسلام عليه، ثم ينصرفون ويدخل قصره.

وفي ركوبه لصلاة العيدين أو السفر

كان من عادته أن يركب، وعن يمينه فارس وعن يساره فارس من أكـابر أشيـاخه العشرة، ويسـير إلى جانبـه رجلان مقلـدين بسيفين، أحـدهما ممسـك بركـابه الأيمن والثاني ممسك بركابه الأيسر ويليهما جمـاعة يمشـون خلفهما من أكـابر دولتـه : مثل الثلاثة أصحاب الرأى والعشرة الـذين يلونهم ومن يجـرى مجراهم من أعيـان الجند، وتسمى هذه الجماعة عندهم (ايربان) حيث يحفـون به، وهم متمنطقـون بأسيـافهم وبأيديهم العكاكين، وربما كان معهم قاضي الجماعة المسمى في المشرق بقاضي القضـاة، وأمـام هؤلاء الجماعـة أعداد كبـيرة من أقـارب السلطـان - المـوحـدين - متمنطقـين بالسيوف أيضاً، ومعهم الهراوات يسمون بالمشائين، وأمام هؤلاء الجماعة عبيد سـود يقال لهم (جفاوة) بأيديهم حراب في رؤوسها رايـات مصنوعـة من الحريـر، يلبسون جباباً بيضاء، وهم مقلدون بالسيوف وأمام هؤلاء قوم يسمون (بعبيد المخـزن)، وهم عوام البلد وأهل الأسواق وبأيديهم الدرق[٢١] والسيوف ومعهم العلم الأبيض المسمى (بالعلم المنصور)[٢٢]

ومن عادة الخليفة إذا حضر من سفر صلى أول صلاة جمعة بعد عودتـه بالجـامع

الأعظم في الحضرة على غير عادته من صلوات أيام الجمع التي يصليها بمسجد قصبته[٢٣]، حيث يقوم ناظر المسجد بتجهيز مقصورة بالبسط والحصر الجديدة، وحين يدخل موعد الصلاة يحضر سجادة السلطان المصنوعة من السعف الجيد، فتفرش بمكان جلوسه للصلاة، ثم يحضر بأبهة زائدة وبين يديه ولي عهده وجماعة أخرى من إخوته، ومن حولهم الناس يسلمون بالسلطنة، وكلما مرّ على جماعة رفعوا أصواتهم بالعبارة المعهودة (سلام عليك، نصرك الله)[٢٤].

وعند خروجه لصلاة العيد أو الرغبة في السفر، ينادى المنادى في الناس ليلة العيد أو عند سفره، فيخرج أهل كل صناعة، حيث يجتمعون بظاهر البلد لاستقباله أو توديعه ويصحبه صاحب العلامة، وفي نفس الوقت أمير علم يسير خلفه راكباً وتتبعه أعلام القبائل كل قبيلة لها علم خاص بها، ومن ورائهم الأعلام والطبول والبوقات وخلفهم محركو الساقة[٢٥] الذين هم بمثابة النقباء وبأيديهم العصي ويرتبون العساكر، وخلف هؤلاء العساكر فارس على يمين السلطان، والمشاة يمشون ثم يركبون ويحيط بالسلطان جماعة يقرءون حزباً من القرآن الكريم وبعد انتهائهم من قراءته يقف السلطان ويجهر بالدعاء، ووزير الجند يؤمن على دعائه، ويؤمن الناس من ورائه، ويسير السلطان سيرا حثيثا والناس من ورائه[٢٦]، فإن كانوا في أرض واسعة كان سيرهم مرتبا، وإن ضاق بهم الطريق ساروا كيفما شاءوا بسبب ضيق المكان، لكن الجند والناس لا يتقدمون على السلطان في سيرهم فإذا قرب السلطان من منزله، وقف ووقف معه الناس، ودعا وأمّنوا جميعا على دعائه، وإن كان في صلاة العيد سلك طريقاً وعاد من أخرى[٢٧].

وفي خروجه للتنزه

يصف صاحب المسالك[٢٨] خروجه ومعه مائتا فارس من الشبان المعروفين بالصبيان ويبقى وزراؤه[٢٩] الثلاثة في مقر عمله، يقومون بمراقبة أعماله واطلاعه عليها بعد عودته، ليبدى رايه فيها.

أما إن أراد الذهاب إلى بستانه، انتقل إليه في زقاق محجوب عن أعين الناس بالجدران، ممتداً من قصره ومنتهيا بالبستان[٣٠].

بيـــان مفصل لأمراء بني حفص

اسم الخليفة	سنة التولية	سنة العزل أو الوفاة
١ - أبو زكريا يحيى الأول	٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م	ت ٦٤٧ هـ/ ١٢٧٦ م
٢ - أبو عبد الله محمد الأول (المستنصر بالله)	٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م	ت ٦٧٥ هـ/ ١٢٧٦ م
٣ - أبو زكريا ابراهيم الأول	٦٧٥ هـ/ ١٢٧٦ م	عزل ٦٧٨ هـ/ ١٢٨٣ م
٤ - أبو اسحاق ابراهيم الأول	٦٧٨ هـ/ ١٢٧٩ م	ت ٦٧٢ هـ/ ١٢٨٣ م
٥ - أحمد بن مرزوق ابي عمارة (الداعي)	٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م	ت ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م
٦ - ابو حفص (الأول) المستنصر	٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م	ت ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤
٧ - أبو زكريا يحيى المنتخب	٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م	ت ٧٠٠ هـ/ ١٣٠٠ م
لاحياء دين الله، انفرد بحكم قسنطينة	٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م	ت ٧٠٠ هـ/ ١٣٠٠٠ م
٨ - ابو عبد الله (ابو عصيدة) محمد الثاني	٦٩٤ هـ/ ١٢٩٤ م	ت ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩
٩ - ابو البقاء، خالد الناصر الأول	٧٠٠ هـ/ ١٣٠٠ م	
حكم بباجية ثم انفرد بالحكم		
١٠ - ابو بكر الأول الشهيد، انفرد بحكم بجاية	٧٠٩ هـ/ ٣٠٩ م	
١١ - ابو البقاء الأول (الناصر)	٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩	ت ٧١١ هـ/ ١٣١١ م
١٢ - ابو بكر الثاني المتوكل حكم قسنطينة وبجاية		
١٣ - ابو يحيى زكريا اللحياني	٧١١ هـ/ ١٣١١ م	عزل ٧١٧ هـ/ ١٣١٧ م
١٤ - ابو خربة (محمد الثالث)	٧١٧ هـ/ ١٣١٧ م	عزل ٧١٨ هـ/ ١٣١٨ م
١٥ - الأمير الشهيد ابو يحيى أبو بكر الثاني بن زكريا	٧١٨ هـ/ ١٣١٨ م	ت ٧٤٧ هـ/ ١٣٤٦ م

اسم الخليفة	سنة التولية	سنة العزل أو الوفاة
١٦ ـ ابو حفص عمر (الثاني)	٧٤٧ هـ/ ١٣٤٦ م	ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م
١٧ ـ ابو العباس، الفضل بن ابي يحيى بن ابي بكر، اميربونة، ثم انفرد، بالحكم	٧٥٠ هـ/ ١٣٤٩ م	ت ٧٥١ هـ/ ١٣٥٠ م
١٨ ـ ابو زيد عبد الرحمن، حكم قسنطينة	٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م	
١٩ ـ ابو عبد الله محمد المنصور انفرد في الحكم ببجاية	٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م	
٢٠ ـ ابو اسحاق، ابراهيم بن ابي يحيى بن ابي بكر	٧٥١ هـ/ ١٣٥٠ م	ت ٧٧٠ هـ/ ١٣٦٨ م
٢١ ـ ابو عبد الله، محمد المنصور بن ابي يحيى (حكم بجاية)	٧٦١ هـ/ ١٣٥٩ م	ت ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٥ م
٢٢ ـ ابو البقاء خالد، ابن ابي اسحاق ابن ابي يحيى	٧٧٠ هـ/ ١٣٦٨ م	ت ٧٧٢ هـ/ ١٣٧٠ م
٢٣ ـ ابـو العباس أحمـد (الثاني) بن ابي عبـدالله بن ابي يحيى	٧٧٢ هـ/ ١٣٧٠ م	ت ٧٩٦ هـ/ ١٣٩٣ م
٢٤ ـ ابو فارس عبد العزيز بن ابي العباس	٧٩٦ هـ/ ١٣٩٣م	ت ٨٣٧ هـ/ ١٤٣٣ م
٢٥ ـ ابو عبد الله محمد (الرابع) المنتصر	٨٣٧ هـ/ ١٤٣٣ م	ت ٨٣٩ هـ/ ١٤٨٧ م
٢٦ ـ ابو عمر عثمان	٨٣٩ هـ/ ١٤٣٥ م	ت ٨٩٣ هـ/ ١٤٨٧ م
٢٧ ـ ابو زكريا يحيى الثالث	٨٩٣ هـ/ ١٤٨٧ م	
٢٨ ـ ابو عبد الله محمد الخامس	٩٠٠ هـ/ ١٤٩٤ م	ت ٩٣٣ هـ/ ١٥٢٦ م
٢٩ ـ الحسن بن محمد الحفصي	٩٣٣ هـ/ ١٥٢٦ م	ت ٩٤٢ هـ/ ١٥٣٥ م
٣٠ ـ ابو العباس أحمد بن الحسن	٩٤٢ هـ/ ١٥٣٥ م	ت ٩٨٠ هـ/ ١٥٣٥ م
٣١ ـ محمد بن الحسن الحفصي	٩٨١ هـ/ ١٥٧٣ م(٣١)	

الهواش والتعليقات

(١) هو يوسف بن تاشفين بن ابراهيم بن واركوت اللمتوني، حارب القبائل المغراوية واليفرنية وغيرها من القبائل الزناتية، وتمكن من احتلال مدينة فاس، وتوجه بعدها إلى بلاد غمارة وأخضع الكثير من احوازها ووصل إلى طنجة التي كان فيها يومذاك الحاجب سكون البرغواطي مولى بني حمود في الاندلس، **راجع القلقشندى، ابو العباس أحمد بن علي، المتوفي سنة ٨٢١ هـ، صبح الاعشى في كتابة صناعة الانشا، جـ ٢ ص ٢٢ السيلاوى أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا في دول المغرب الأقصى جـ ٢ ص ٢٢.**

(٢) **القلشقندي، صبح الاعشى، جـ ١٠ ص ٣٢ ومابعدها.**

(٣) **محمود، حسن أحمد، قيام دولة المرابطين، ص ٣٥٤، نقلاً عن Lavoix.**

(٤) الملاحظ أن هذا اللون من اللباس، كان بمثابة حصانة لمن يلبسه، يكسبه اجلالا وهيبة، ويحميه من اعتداء المعتدين ونقمتهم، فقد حدث في القرن التاسع للهجرة إبّان الغزو البرتغالي على المغرب، ان تهادنت جماعة من المغاربة مع المستعمر وتزلفوا له، فقام العامة بالثورة عليهم، وقتلوا عددا منهم إلا القاضي أبا نعيم، لم يجرؤ أحد على إهانته بسبب لباسه الأبيض الذي أنقذه من هذا المأزق، **راجع، الجزنائي، على (جني زهرة الآس في بناء مدينة الفاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ص ٦٢ ».**

(٥) **صبح الاعشى، جـ ٦ ص ٥١ ـ ٥٥.**

(٦) هو عبد المؤمن بن علي الكومي من قبيلة كومية البترية الزناتية، والتي اتخذت من الجبل المطل على هنين بالقرب من تلمسان موطناً لها. بويع بالخلافة في ربيع الأول سنة ٥٢٠ هـ/ ١١٢٦ م بجامع تيمثل من جبال درن المراكشية، استطاع أن يقضي على المرابطين ويستخلص المهدية والبلاد الساحلية من النصارى الذين استولوا عليها، **راجع، صبح الاعشى جـ ٥ ص ١٩١، السلاوى، الاستقصا جـ ٢ ص ١٠١.**

(٧) سمي لدى المرنيين بسعد الدولة، أو العلم المنصور، **راجع، (رحلة البلوي نسخة خاصة) المنوني، مجلة البحث العلمي عدد ٤ و ٥ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦.**

(٨) اللواء في العادة غير الراية، فاللواء ما يعقد في طرف الرمح، ويلوى عليه، والراية ما تعقد فيه وتترك حتى تصفقها الرياح، واللواء علامة لحمل الأمير يدور معه حيث دار والراية يتولاها صاحب الحرب. راجع، الكناني، التراتيب الأدارية جـ ١ ص ٣١٧ ـ ٣١٨.

(٩) روى الترمذي عن ابن عباس قال، كانت راية رسول الله سوداء ولواؤه أبيض فهل يكون لهذا السبب اتخذ الحفصيون والمرينيون ومن سبقهم من الموحدين لون البياض شعاراً لهم، لأننا نرى أن سلاطين بني الأحمر بغرناطة قد خالفوهم، فاتخذوا اللون الأحمر شعاراً لهم وأصبح لوناً مميزاً لهم في قصورهم وقبابهم وخيامهم حتى الورق الذي يكتبون عليه ظهائرهم ورسائلهم السلطانية، وكذلك الحال اتخذوه في زيهم، فنرى أن السلطان محمد السادس الملقب (البرميخو) كان يرتدي تنورة حمراء. عندما أمر بدرو القاسي بقتله في طاطة (Talada) من ظاهر اشبيلية سنة ٧٦٣ هـ/ ١٣٦٢ م. **راجع، المقرى شهاب**



الدين أحمد بن محمد التلسماني من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٨ ص ١٨٤ ـ ١٨٥، ازهار الرياض في أخبار القاضي عياض جـ ٢ ص ١٦٤، ابن عذارى أبو العباس أحمد بن محمد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب جـ ٣ ص ٢٧٩، ابن الخطيب لسان الدين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد السلماني ديوان الصيب والجهام والماضي الكهام تحقيق ـ محمد شريف قاهر ص ٤٠٧.

(١٠) هو أبو عبد الله زكي الدين محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف شهير بابن القويع الجعفري التونسي، ولد بتونس في رمضان سنة ٦٦٤ هـ/ ١٢٦٥ م، قرأ النحو على ابن زيتون، والأصول على محمد بن عبد الرحمن قاضي تونس، ارتحل إلى المشرق فزار الشام،وسمع ممن بدمشق من العلماء والفقهاء كابن القواس، وابي الفضل بن عساكر، ودرس بالناصرية وقرأ الطب بالبيمارستان، وهناك التقى بابن فضل العمري (مؤلف مسالك الأبصار) الناقل عنه كتابه، ثم رحل إلى مصر وغيرها من الأقطار، راجع، **العمري بن فضل الله شهاب الدين احمد بن يحيى الدمشقي، وصف افريقية والمغرب والأندلس أواسط القرن الثامن للهجرة، مقطتف من كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأنصار، تحقيق ـ حسن حسنى ـ عبد الوهاب، ص ١١**

(١١) هو الأمير ابو زكريا يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن ابي حفص، وهو أول سلاطين بني حفص الذي أعلن الاستقلال عن الدولة الموحدية ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ هـ.

(١٢) لقد ابطل سلاطين بني حفص، لبسه زمن السلطان اللحياني سنة ٧١٧ هـ/ ١٣١٧ م، لأن لبسه مخالف للشريعة الاسلامية أما سلاطين بني مرين، فلم يلبسوه قط وكذلك سلاطين بني الاحمر الذين رفضوا لبسه، فكان السلطان محمد الأول، يسير حاسر الرأس، راجع الحجوى محمد المهدى، حياة الوزان واثاره، عوائد القصر ص ٩١ ـ ٩٨، ابن الخطيب، لسان الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن سعيد السلماني اللمحة البدرية بالدولة النصرية، ص ٧٤

(١٣) ورد في **كتاب التراتيب الادارية، ص ٣١٨ ـ ٣١٩**، عن التحنك قوله : (وصار العلماء يتميزون بالتحنك، قال القرافي، لان التحنك، هو اللثام بالعمائم تحت الحنك، والتحنك من شعار العلماء

(١٤) راجع، صبح الاعشى، جـ ٥ ص ١٤٣. ومابعدها.

(١٥) **يغوص** الغواصون في البحر فيخرجون كمائم شبيهة بالبصل في اعناقهم زبورة، تنشر في الشمس فتتفتت كمائمها عن وبر، يمشط ويؤخذ صفوه، ويغزل، يعمل منه طعمة لقيام الحرير عليه وينسج منه ثياب مختمة وغير مختمة ويبلغ ثمن الثوب مائتى دينار بقيمة النقد يومذاك، راجع المسالك، تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب، ص ٢١.

(١٦) يبدو أن السلطان محمد الأول الغرناطي الملقب بالشيخ لشدة ورعه، لم يكن متأنقا كما هو الحال عند سلاطين بني حفص، حيث كان يلبس الثياب الخشنة والنعال البسيطة، وشابهه في ذلك، السلطان محمد الخامس الذي كان يسير مع حاشيته في ملابس متواضعة عارى الرأس، مشمراً عن ساعديه

احياناً يتجـول في الشوارع ممـا حبب الناس إليـه لكثرة تـواضعه، راجـع المقرى، نفـح الطيب جـ ١ ص ٤٧.

(١٧) **راجـع، صبح الاعشى، جـ ٥ ص ١٤١، ١٤٣، ١٤٦، ١٤٧، العمـرى، ابن فضل الله شهـاب الدين أحمـد بن يحيى الدمشقي، وصفى افـريقية والمغـرب والاندلس، أواسط القـرن الثامن للهجـرة ص ٢٣، (مقتطف) نشر وتعليق عبد الوهاب حسن حسنى.**

(١٨) هو نور الدين أبو الحسن على بن موسى بن محمد بن سعيد، الأديب المؤرخ الرحالـة الاندلسي الشهـير من ذرية عمار بن ياسر الصحابي، ولد في غرناطة سنـة. ٦١٠ هـ/ ١٢١٣ م، درس في أشبيلية ورحـل إلى المغرب وأقام في تونس على عهـد الأمير المستنصر بـالله الأول، ونال منـزلة عنـده، ثم رحل إلى مصر والشام والعراق وتجول في الآفاق، وحظي برعاية حسنة من أمراء وعلماء هذه الاقطار، دوّن مـاشاهـده من مؤلفات عديدة، فُقد أغلبها، ثم رجع إلى تونس وعاش في كنف أمرائها الحفصيين إلى أن مات سنـة ٦٧٢ هـ/ ١٢٧٣ م، ودفن في مقبرة الزلاج بتونس، من أشهر مؤلفاته كتاب (المغرب في حلي المغرب)، في خمسـة عشر مجلدا تـوجد نسخـة منه بخط المؤلف في المكتبـة السلطانيـة بمصر، راجـع، **مسـالـك الابصار، وصف افريقية، ص ٢، ١١ نشر حسنى عبد الوهاب.**

(١٩) الملاحظ أن الحرس الحفصي كـان شديـد التيقظ في حراسـة هذا المكـان خاصـة أثناء مـرور السلطان لسهولة اغتياله، فقد اغتيل السلطان أبو الوليد اسماعيل الغرناطي ووزيره يسير بـين يديـه **راجع ابن الخطيب، اعمال الاعلام، فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام، تحقيق أحمد مختار محمـد ابراهيم الكتانى ص ٢٩٥.**

(٢٠) **راجـع، ابن خلدون، عبـد الرحمن بن محمـد بن الحسـين الحضرمي التـونسي، المقـدمـة جـ ٢ ص ٢٦٩، تحقيق عبد الواحد وافي.**

(٢١) المصنوعة من جلد حيوان اللمط المتواجد في الصحـراء المغربيـة والذي يمتـاز بمتانتـه وقد استخـدمه المرابطون في تصنيع أدواتهم الحربية، **راجع، ابـراهيم ـ حركـات، النظام ـ السيـاسي والحربي في عهد المرابطين، ص ٢٠٣.**

(٢٢) **راجع، صبح الاعشى، جـ ٥ ص ١٤٦.**

(٢٣) يرجع السبب في ذلك خوفاً من الاغتيال، فقـد اغتيل السلطـان يوسف الأول الغـرناطي أثنـاء السجدة الأخيرة من صلاة عيد الفطر أول شوال عام ٧٥٥ هـ/ ١٩ تشرين أول ١٣٤٥ م، راجـع ابن الخطيب، اللمحة البدرية ص ٩٧.

(٢٤) **راجع الباسط عبد الخليل، في رحلته في القرن الخامس عشر الميلادي ص ٣١، ٣٢.**

(٢٥) حدث هذا عند سلاطين بني الاحمر وعلى وجه التحديد سنة ٧٥٥ هـ/ ٣٤٥ م حيث كان يرافق الموكب السلطاني حرس خاص يسمى بالساقة ترافقه الطبول والبنود، **راجع ابن الخطيب، الاحاطة في اخبار غرناطة، جـ ٢ ص ٣.**

(٢٦) **صبح الاعشى جـ ٥ ص ١٤٥.**

(٢٧) **صبح الاعشى جـ ٥ ص ١٤٧.**

(٢٨) هو أحمد بن يحيى بن فضل الله بن المجلي بن دعجان بن نصر القرشي العدوى الدمشقي الشافعي شهاب الدين ابو العباس، ولد سنة ٧٠٠ هـ ووفي سنة ٧٤٩ (١٣٠٠ ـ ١٣٤٨) اديب، ناظم، ناثر، مؤرخ دمشقي المولد تولى القضاء في دمشق وتوفي بها يوم عرفة من مؤلفاته، مسالك الابصار في ممالك الامصار تزيد عن عشرين مجلدا، فواصل السمر في فضائل آل عمر، في أربع مجلدات ومن مؤلفاته أيضاً دمعه الباكي ويقظة الساهي، عرف التعريف بالمصطلح الشريف، رتب المكاتبات وصبابة المشتاق في المدائح النبوية، **راجع معجم المؤلفين جـ ٢ ص ٢٠٤.**

(٢٩) **وزير الجند، ووزير الاشغال وصاحب العلامة.**

(٣٠) **صبح الاعشى، جـ ٥ ص ١٤٧**

(٣١) راجع، ابن منقذ، ابو العباس أحمد بن الحسين بن على بن الخطيب القسنطيني، الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي، عبد المجيد التركي، الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، الجيلالي عبد الرحمن تاريخ الجزائر جزءان، حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس.

● المصادر والمراجع ●

١ ـ الجزنائي، على

* جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور الرباط سنة ١٩٦٧.

٢ ـ جيلالي ـ عبد الرحمن.

* تاريخ الجزائر العام جزءان. الجزائر ١٩٥٢ م

٣ ـ الحجوي، محمد المهدي.

* حياة الوزان الفاسي، واثاره، الرباط ١٩٣٥.
٤ ـ حركات ـ ابراهيم.
* النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، المغرب (بدون تاريخ).
٥ ـ ابن الخطيب (لسان الدين، أبو عبد الله بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني، الملقب بذي الوزارتين).
* أعمال الأعلام، فيمن بويع قبل الاحتلام، من ملوك الأسلام، تحقيق د. أحمد مختار العبادي والأستاذ / محمد ابراهيم الكتاني، الدار البيضاء، المغرب، سنة ١٩٦٤ م.
* مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس. تحقيق أحمد مختار العبادى، الأسكندرية ١٩٥٨ م.
٦ ـ * اللمحة البدرية بالدولة النصرية، بيروت ١٩٧٨ م.
* ديوان الصيب والجهام، والماضي الكهام، تحقيق محمد شريف قاهر، ط ١ ـ الجزائر ١٩٧٣ م.
٧ ـ ابن خلدون (عبد الرحمن محمد بن الحسين الحضرمي التونسي)
* المقدمة، جـ ١، جـ٢، تحقيق، عبد الواحد وافي، القاهرة ١٩٥٨ م، ١٩٦٥ م.
* تاريخ الدول الأسلامية بالمغرب، تحقيق البارون رسلان، الجزائر ١٢٦٧ هـ/ ١٨٥١ م.
٨ ـ الزركشي : ابو عبد الله محمد بن ابراهيم.
* تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق، محمد ماضور تونس سنة ١٩٦٦ م.
٩ ـ السلاوي (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري).
* الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. جـ ٢، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٥٤ م.
١٠ ـ عبد الوهاب ـ حسن حسني.
* خلاصة تاريخ تونس، تونس ١٩٦٨.
* مجمل تاريخ الأدب التونسي، تونس ١٩٦٥.
١١ ـ العبادي، أحمد مختار.
* (دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الأسكندرية، ١٩٦٨ م.
١٢ ـ ابن فضل الله العمري (شهاب الدين، أحمد بن يحي الدمشقي)
* وصف افريقية والمغرب والأندلس أواسط القرن الثامن للهجرة، مقطتف من كتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار). تحقيق، حسن حسني عبد الوهاب، تونس (بدون تاريخ).
١٣ ـ ابن عذاري، ابو العباس أحمد بن محمد
* البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب، نشر كولان، بروفنسال، هولندا ١٩٣٠ ـ ١٩٤٨ م
١٤ ـ الكتاني (أبو المفاخر محمد الحسني الكتاني).

* التراتيب الأدارية، والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت علي تأسيس المدينة المنورة الأسلامية في المدينة المنورة العلمية، جزء أن الرباط ١٣٤٦ هـ/ ١٩٢٧ م.
١٥ ـ القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي المتوفي سنة ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م).
* صبح الأعشى في صناعة الأنشا، جـ ٥، جـ ٦، القاهرة بدون تاريخ.
١٦ ـ ابن قنفذ (ابو العباس أحمد بن الحسين بن علي بن الخطيب القسنطيني)
* الفارسيه في مبادىء الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي، عبد المجيد تركي، تونس ١٩٦٨ .
١٧ ـ المقري (شهاب الدين، أحمد بن محمد التلمسي).
* ازهار الرياض في اخبار القاضي عياض ٣ أجزاء القاهرة، ١٩٣٩ م، ١٩٤٠م م، ١٩٤٢، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ ١، جـ ٨، بيروت، ١٩٦٨.
١٨ ـ محمود ـ حسن أحمد.
* قيام دولة المرابطين، القاهرة بدون تاريخ.
١٩ ـ المنوفي ـ محمد.
* مجلة البحث العلمي عدد ٤ ، ٥ السن (١) الرباط ١٩٦٥.
٢٠ ـ Brunschivg, R. Deuxrecits de Voyage Ineditesen Afrique dunord auxsieole Absit Kalil, Paris,
Laberbrieorintal Sous Le hafsides 2 Tomes (Paris, 1917)

○○○

«أتمنى كل خير وسعادة لفلسطين لأنها بلد عربي وفيها ثالث الحرمين الشريفين وفيها المسجد الذي قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيه «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى» ففلسطين بلاد العرب، والذي اتمناه أن يجمع الله كلمة العرب على الاتفاق بينهم ليسلموا من شرور أنفسهم وتسلم نيتهم ويحفظوا انفسهم من الخطأ والأذي، فالعرب بتخاذلهم آذوا أنفسهم أكثر مما آذاهم الأجنبي».

الملك عبدالعزيز

الوظائف الاقتصادية والاجتماعية للحلي الإسلامية



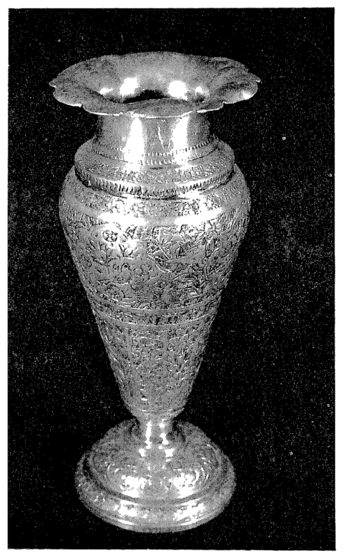
د. سعد محمود الجادر

التزين والتجمل هو الأساس المبدئي لاقتناء الحلي والمصوغات كما أنه ميل إنساني تفرضه عوامل عديدة منها الحاجة إلى تأمين الاستقرار النفسي وضمان المستقبل، حيث تشعر المرأة بشكل خاص بالأمان بما تحرزه من مصاغ. إذ أن صروف الدهر متقلبة وغوائل الزمن غدارة، وكذلك أمزجة الرجال: فالرجل عند المرأة مخلوق لا أمان له، أما الأولاد فإنهم يتفرقون كل في فلكه. كما تظل المرأة في خوف أزلي من الترمل في حالة موت زوجها أو هجرها أو اقترانه بأخرى فتبقى وحيدة مع أطفالها. بالإضافة إلى تجنب مخاطر الإبقاء على العملة الورقية مخزونة في المساكن والمصارف وهي معرضة لانخفاض قيمتها. وعليه فالمعادن النفيسة والأحجار الثمينة تكون غطاءً مادياً

مضمونـاً. كما أن الـذهب والفضة مقياس مهم للثروة وموازنة البضاعة وقاعدة متينة للحياة الاقتصادية منذ عصور ما قبل التاريخ.

فالإقبال علـى حيازة الـذهب والفضة سبيكة وحلية عـادة أزلية نـاجمـة عن الثقة العالية بهذه المعادن عبر العصور، حيث لا تتـأثـر بـالعـوامـل الطبيعيـة، ولا ضريبـة عليها. كما أنه أفضـل مـا يورث للأبنـاء والأحفاد ويمكن تحـويله إلى نقود سائلة في أي وقت من الأوقات. ولازال بعض الأثرياء يضعون جزءاً من أموالهم في المصارف ويشتـرون بالجـزء الآخـر المعـادن النفيسـة والأحجـار الكريمة لمـوازنة ثـروتهم وتجنبا لهبـوط قيمـة النقود أو تغيـيرهـا واستبـدالهـا بشكل فجائي.

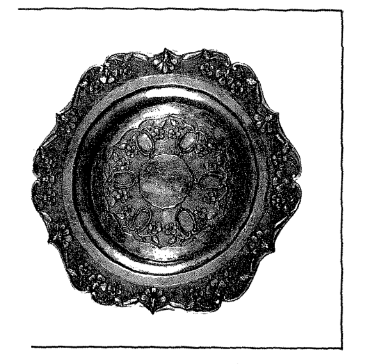
وإذا كان الحكام والأثرياء يفضلـون حيازة الأحجار الكريمة والثمينة انطلاقاً من معرفتهم بقيمتها وتقديرهم لجمـالها ونـدرتها فـإن عامـة الناس تفضـل مـا تعـرفه وتثق بـه وهو المعـادن النفيسة، التي تحمل دمغة يتعذر غشها وتزويرها إذ يظهر من تجربة محدودي ومتوسطي الدخل في اقتناء الأحجار بأسعار عـالية أنهم لم يستطيعـوا في أوقـات الشـدة بيعهـا حتى بنفس أسعار الشراء. حيث يتـلاعب التجار والمغـرضـون بـأسعـار بعض الأحجار الكريمة كالمـاس، فيبثون لها الدعاية الـزائفة ويقيمـون المزادات لعرضها وتشجيـع الاستثمار فيهـا، وما أن يستثمـر الأهـالي أمـوالهم بشرائهـا



● مزهرية باكستانية ●

حتى يعلن عن تدني أسعارها، ناهيك عن إغراق الأسواق بالماس الصناعي والأحجار المزورة وعرضها على أنها حقيقية. وكان لادخار المصاغ دورٌ مهم في حفظ نماذجه عبر التاريخ الإسلامي سواء كمسكوكات يعثر على كنوزها المطمورة أو على شكل حلي ومواد زينة.

حيث أن إنقاذ وإخفاء الثروات عادة عرفتها الحضارات منذ أقدم العصور، فأول ما ينقذه الناس في أوقات الشدة والخطر هو ما خف وزنه وغلا ثمنه وسهل نقله من نقود وحلي. إذ يحترز الموسرون والأثرياء ضد سرقة ممتلكاتهم من مصاغ ومصنوعات ونقود من الذهب والفضة. وقديماً كانت الحلي تحفظ في صناديق خاصة أو توضع داخل مخابيء مستترة داخل البيت لا يعرفها إلّا صاحبها، فبعضهم يخفيها تحت رأسه كل ليلة. وآخر يصنع لثروته صندوقاً متيناً ذا نظام أقفال معقد، كقاصات اليوم، ويخزنها فيه يستخدم ما يحتاجه بين آونة وأخرى. وآخرون يدفنون ثرواتهم في جرار تحت الأرض بعيداً عن الأنظار، ولازال ذوو الحظوظ من عامة الناس ومنقبو الآثار يعثرون على بعضها هنا وهناك بين وقت وآخر.



● صحن من باكستان ●

والآن وحين يتعاظم شعور الناس بضعف الأمن وتتوارد حوادث السرقة يلجأ الكثير إلى تخزين مصاغهم في صناديق البنوك.

ونتيجة لضعف أو انعدام أنظمة الضمان الاجتماعي في العالم الإسلامي تحل المعادن النفسية مكان هذا الضمان بأشكال متعددة: ففي البلدان التي تمثل الطبقة الوسطى فئة مهمة في المجتمع يتطلع سكانها إلى اقتناء السيارات والأدوات الكهربائية والأثاث والتمتع بحياة جيدة... فإنهم يبيعون مقتنياتهم من الذهب والفضة لشراء

احتياجاتهم. أما في البلدان ذات الحكم الدكتاتوري فإن أفضل ما يفعله الناس هو شراء المعادن النفيسة واخفائها وذلك لعدم ثقتهم بسياسة الدولة النقدية التي ربما تستبدل في يوم واحد كل العملات أو تسيطر عليها. وفي بعض بلدان البترول الغنية يقتني الناس المعادن النفيسة كما يلجأ الموظفون في نهاية كل شهر إلى صرف جزء كبير من مرتباتهم لاقتناء الذهب...

ويمثل المصاغ في المجتمعات الريفية بنك العائلة وثروتها وصندوق توفيرها، مفتاحه عند الرجل الذي يعرف مقدار مدخراته، وهو الذي يبيع ويشتري ويبادل ويغير الموضة، ربما لأن المرأة لا تتعامل مع الرجل خارج العائلة. أو لأن الزوج هو الذي يموّل هذه العمليات. كما أن لمزاج المرأة دوراً مهماً بهذا الصدد: فإذا كان المهم بالنسبة لها أن توجد المال لشراء ما يعجبها من حلي دون أن تفكر بارتفاع ثمنها، فإن الرجل يتربص فرصة هبوط الأسعار يغتنمها في سبيل التجارة أو شراء بعض الحلي لنساء داره. وترتبط أسعار ومدخرات الحلي بمواسم الحصاد، فترتفع الأسعار ويزداد الرصيد المخزون من المصاغ لدى العائلة في الموسم الجيد. إذ يشتري الفلاح قطعاً جديدة من الفضة. ففي مصر مثلاً يبدأ موسم جني القطن في أكتوبر. فإن كان جيداً ارتفع سعر المعدن النفيس واشتد الطلب عليه، وان كان سيئا زاد العرض وحصل العكس. وكذلك الحال بالنسبة إلى محصول الفول السوداني في أفريقيا. وكان بعض صاغة دمشق ينتقلون إلى القرى بعد الموسم الجيد لحصاد القمح لبيع الحلي إلى نساء الفلاحين. كما تتحول قيمة الحلي في حالات القحط والجفاف إلى مواد غذائية واستهلاكية تعين العائلة على الثبات والعيش والعمل بانتظار موسم أفضل. ويذكر أن هجوم الجراد على المغرب في ربيع الأول من عام ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م أتى على المزروعات والمحاصيل مما نجم عنه قحط شديد وارتفاع أسعار المواد الغذائية فاضطر الأهالي إلى بيع أثاثهم ومصاغهم بأثمان بخسة لشراء احتياجاتهم من البضائع. وهذا أحد العوامل التي أدت إلى اضمحلال التراث الصياغي الريفي ونماذجه القديمة في الأقاليم الإسلامية وتدني

مستــواه التقنــي والفني. والعــائلــة الفـلاحيــة التي تبيــع مصــاغهــا لهـذا السبب أو ذاك في الأســواق الاعتياديــة والمــوسمية وإلى دلالي الفضــة، تحصــل عــلى مبالــغ مهمة بــالنسبــة إلى دخــول المزارعين والرعاة وصغار الباعة. ويظهر لهم بأن الأسعار التي يبيعون بها الحلي تتضمن أرباحاً ناجمة عن الفارق الكبير بين ثمن الشراء قبل عقود وسنوات وبين سعرها الحالي. غير أنهم لن يستطيعــوا تعويض ما يباع بمصاغ آخـر مكافيء في المستقبـل إذا ما حصلـوا عـلى المـال في مــواسم الحصاد الجيـدة وذلـك بسبب ارتفــاع أثمــان الشراء نتيجــة زيــادة أسعار المعادن النفيســة والمواد الأوليــة المصاحبة لصياغتها وتصــاعد تكــاليف المعيشــة وأجـرة اليــد العــاملــة التي تتضاعف مع مرور الزمن.

وهذا ينعكس على الصاغة الــذين يعانون من انحسار الطلب المحلي على المصــاغ. فيضطرهم هــذا أو غيره من العــوامل إلى البحث عن سبــل أخرى للــرزق منهــا تغيــير مهنهم وتحــول بعضهم إلى صيــاعة الــذهب انطلاقــاً من أن الجهــد المبــذول في صيــاغــة الفضــة والذهب واحــد ولكن مردوده في الذهب أعلى بكثير.

يعتمــد رواج المصــاغ من المعــادن النفيســة على مستــوى المعيشة ودرجــة تحضر الشعوب وقيمها وتقاليدها. فكلما ازدهر اقتصاد الـدولة وكثــر أغنياؤهــا شــاع استعمال المــواد النادرة والسلــع النفيسة ومنها الحــلي الذهبيــة. وما إن تتــدهــور الأحــوال الاقتصــاديــة التي تصحبها تغيرات هامة في المجتمــع حتى يتبعهــا استخدام مــواد أرخص ومنهــا الفضــة. ويــلاحظ بشكــل عــام أن متوسطي الدخل في الأقاليم الإســلامية هم أكثر فئات المجتمــع الذين يتــزينون بالحلي من الذهب أولاً والفضة ثانياً.

وفي بــعض المجتمعــات الأفــريقيــة الــرعــويــة تقــاس الثــروة الحيــوانيــة بالماشية، والزراعية بالأرض. فالبقرة أو الحصــان تســاوي عــدداً محــدداً من الأطــواق النحــاسيــة أو الفضيــة أو الــذهبية التي تــوضــع في عنق المــرأة أو حول ذراعها أو تغطي ساقيها.

ومن الأعراف القبلية لدى العرب هو افتــداء القتيل بــالمال أو المصــوغات من المعادن النفيسة.

وتمثل الحلي بالنسبة للتونسيات والموريتانيات مجالاً مهما للتباهي كما هو الحال لدى الطوارق والبدو وغيرهم في المجتمعات الإسلامية. فيتزّينّ بعدة قطع منها في آن واحد يحملنها في حلهن وترحالهن. فالكرديات والسوسيات والصحراويات مولعات بحمل كميات كبيرة من الحلي، وكأنهن خزائن متحركة. وتظهر الحلي خلال حركتهن من تحت الحجاب تارة ومن ثنايا الخمار تارة أخرى، خاصة بالنسبة للمسنات اللاتي يتمسكن بالتقاليد والتراث بقوة فيسرْنَ عليه ولما لديهن من ذكريات ومناسبات لاقتناء وحوزة الحلي جعلتهن في نفس الوقت يدخرن كميات كبيرة منها. كما تنظر المرأة إلى مصاغها كواسطة للفت انتباه الرجل وجذبه لطلب يدها. وما يقوله المثل (قدمت بلباس) فإنه يشمل زينة الحلي كذلك، إذ بقدر ما تحمل المرأة حليا كثيرة وجميلة وثمينة بقدر ما تستقبل جيداً ولو للوهلة الأولى.

تجمع العوائل مصوغاتها بالإرث. وتستخدم الحلي كهدايا بشكل واسع. فالفتاة تحمل حلية أمها التي أهدتها لها سلفا... هذا بالإضافة إلى الهدايا التي تقدم في المناسبات سواء في إطار العائلة، من الأب والأم إلى الإبنة أو من الزوج إلى الزوجة، دليلاً على اعتزازهم بها وحبهم لها. أم خارج العائلة، من الحبيب إلى حبيبته. ونفس الشيء بالنسبة إلى الهدايا المتعارف على تقديمها بين الأقارب والأصدقاء في الأفراح كالولادة والختان، والمناسبات الدينية، إذ تحصل الفتاة المغربية على سوار أو قرط أو خاتم في ليلة ٢٧ رمضان حين تبدأ أول صيام لها. وكذلك في اليوم السابع من عيد المولد النبوي الشريف. إضافة إلى ما تقتنيه المرأة مما يعجبها وتتلذذ بشرائه. وتكون الحلي حاضرة في مسيرة الزواج في وقت مبكر جداً... فحين تولد الفتاة يبدأ أهلها بتكوين رصيد لها ينفعها للزواج والمستقبل، فما إن يعلم الأقارب والأصدقاء بالنبأ السعيد حتى تنهال الهدايا على المولود الجديد. فمنهم من يفتح لها حسابا في المصرف، ومنهم من يشتري لها حلياً. وتفهم الفتاة هذه التحضيرات جيداً منذ صغرها. ويظل هذا الرصيد يكبر ويكبر مع الزمن.

ويزداد بشكل نوعي عند الخطوبة والزواج حين تتسلم الفتاة صداقها

مصاغا وهدايا من أهل وأقارب وأصدقاء العائلتين المتصاهرتين. (فالشبكة) هي هدية العمر ورمز «وقيمة» العروس في نظر أهلها وتقدير الخطيب لخطيبته، ويتضخم الرصيد بعد الزواج حين تجر المرأة زوجها طوعاً أو قسرا إلى أسواق الذهب تختار وتقتني وهو يدفع ويتذكر عادة. فالمرأة لا تكل من تكرار طلبها للحلي خاصة بعد زياراتها للأهل والأصدقاء حيث تشاهد ما اشترته النساء وتتشبه بهن مهما كان وضعها الاقتصادي والمالي ضعيفاً. فالمهم بالنسبة لها أن تشارك الأخريات الحديث عن الذهب وتتباهى بما لديها من حلي. وتحب غالبية النساء الظهور بمظهر الأناقة والغنى في آن واحد. وتنعكس رغبة المرأة في الفخر والتباهي بثروة زوجها أمام المجتمع وخاصة النسائي، عن طريق لبس الذهب والماس والأحجار الثمينة في المدينة. أما في القرية فتتم هذه المباراة بحمل مجموعة كبيرة من الحلي الفضية التي تتسم بالضخامة وثقل الوزن. ولا غرابة أن نجد بعض النساء يستعرضن أحيانا حلي صديقاتهن وأقاربهن لإظهار الثراء والغنى في المناسبات الاجتماعية والاحتفالات. فبعض النساء يشعرن بالخجل وكأن لباسهن ناقصا بدون حلى جديدة ومتميزة. وتتزين النساء بكل حليهن في مناسبات محددة مثل الزفاف وعيد الفطر وعيد الأضحى والولادة والختان.... بينما لا تتزين المرأة المسلمة في جل الأقاليم الإسلامية في حالة الحداد على فقيد أو في شهر رمضان. وتتزين أغلب النساء ببعض الحلي بشكل دائم مثل القرط وقلادة وزوج من الأساور.

وتعتز الطوارقيات مثلاً بما يهديه لهن أحبابهن من مصوغات. فلا يمكن شراؤها منهن رغم حاجتهن الملحة للمال. وترفض بعض المغربيات بيع حليهن لاعتزازهن به، لأن الحلية «صداقي» أو «هدية لا تباع» أو «زينة وزوينة».. مقرونة بذكريات عاطفية حميمة. وإذا ضايقت بعضهن ظروف الحياة وتضطرها لبيع قطعة ما فإنها تطلب سعراً عالياً مقابل التخلي عنها، ولا شك فإن «الحدايد للشدايد». وترفض الريفيات في العراق بيع خزامهن لأن الخزامة حق الكفن عند الموت. وفي بعض المجتمعات الإسلامية كما في النوبة وفزان

وسوس يعتبر بيع الحلي الشخصية نوعاً من العيب أمام الأهل والأصدقاء.

إذ جرت العادة والتقاليد على اعتزاز المرأة بحليها والاحتفاظ به وتوارثه والتزين به في الاحتفالات والمناسبات والحياة اليومية.

رهن الحلي وإيجارها :

وثمة ظاهرة أخرى تتمثل برهن الحلي الشخصية لدى الصاغة أو الأثرياء والتجار نتيجة العوز والحاجة وتفادي الأزمات المالية، وتنتهي العملية بإرجاع النقود إلى التاجر وفك الرهن أو شراء التاجر للحلي المرهونة وإكمال دفع ثمنها لصاحبها. وقد كانت الحلي ترهن منذ غابر الأزمان، ولنا من التاريخ بعض الأمثلة التي استمرت ظاهرتها في مختلف العهود الإسلامية، فيذكر صاحب الأغاني عن جارية مطربة رائعة الجمال اسمها خنث كان لها خال فوق شفتها العليا ولذا عرفت بذات الخال. اشتراها الرشيد ثم وهبها إلى حمويه الوصيف، فاشتاق الرشيد يوما لسماع غنائها، وأخبر حمويه بهذا الشوق، فاستعد الآخر لذلك واستأجر لها من بعض الجواهريين بدنة وعقودا ثمنها اثنا عشر ألف دينار، فأخرجها إلى الرشيد لسماع غنائها، وسرعان ما عرف الخليفة حقيقة الأمر فبعث إلى أصحاب الحلي فأحضروهم واشترى الجوهر منهم ووهبه إلى الجارية.

ولا زالت عادة استئجار الحلي شائعة في عموم العالم الإسلامي. إذ يعلن الصاغة وباعة الفضة والذهب في دكاكينهم عن ايجار الحلي للأعراس وغيرها من المناسبات. ولكل موقع من الجسم حلية، ولكل حلية وزنها واسمها وسعر ايجارها مثبتة في «عقد كراء المجوهرات». وهذه طريقة عملية خاصة بالنسبة لذوي الدخل المتوسط والمحدود الذين لا يستطيعون شراء الحلي فيقومون باستئجارها للتزين بها لمدة يوم واحد، وذلك نظراً لظروفهن الاجتماعية.

وقف الحلي:

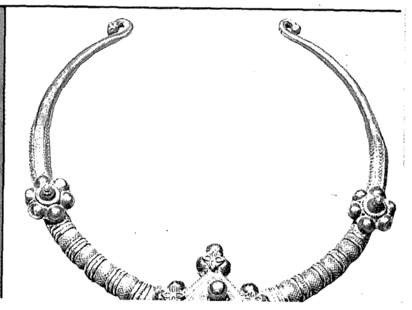
لقد أسبغ الإسلام على مجتمعاته علاقات إنسانية نجم عنها عادات وتقاليد حميدة حتى أضحت أحيانا بمثابة الواجب الديني، حيث يساهم الحكام والموسرون المسلمون في التنمية الاقتصادية والاجتماعية عن طريق

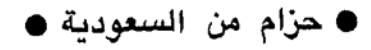
استغلال الموقوفات من أموال منقولة وغير منقولة في شؤون الخير والمعروف. وبواسطة نظام الوقف الطوعي تم تشييد العديد من المنشآت الدينية والتعليمية والثقافية والصحية في جميع رحاب الإسلام. إضافة إلى الخدمات المتعددة الجوانب التي تنفذ باستخدام الأموال الموقوفة مثل مساعدة المسلمين المعوزين وإيواء الفقراء والمساكين واطعامهم.... حتى بلغ الأمر ببعض الأتقياء كما في تونس، والمملكة المغربية إلى وقف الحلي، حيث يوقفون قطعاً من المصوغات تستخدم لتجهيز وتزيين الفقيرات يوم زواجهن بدون مقابل، مما يرفع معنوياتهن ويجعلهن بمصافِّ غيرهن من العرائس فلا يحرجن أو يظهرن بمظهر العوز والفاقة في يوم مهم من أيام حياتهن. كما كانت في المدن والقرى الإسلامية القديمة عادة إعارة العوائل الغنية حليهم إلى العرائس الفقيرات ليلة الزفاف. ويستمر هذا التقليد حتى الآن في بعض المجتمعات الإسلامية مثل وادي ميزاب في الجزائر حين تتعاون مجموعة من الناس على توفير ما تقتضيه حفلات الزواج من تجهيز العروس اليتيمة أو الفقيرة باللباس والحلي وإقامة حفل العرس..

الوظيفة الرمزية والسحرية:

ربما كان الإنسان القديم يتحلى بسن الذئب للدلالة على قتله، وبناب الفيل رمزاً لسيطرته وغلبته على الحيوانات القوية... فزينة الإنسان الأولى تعني القوة والبأس، وقد تواصلت مسيرة الحلي مع تطور الإنسان

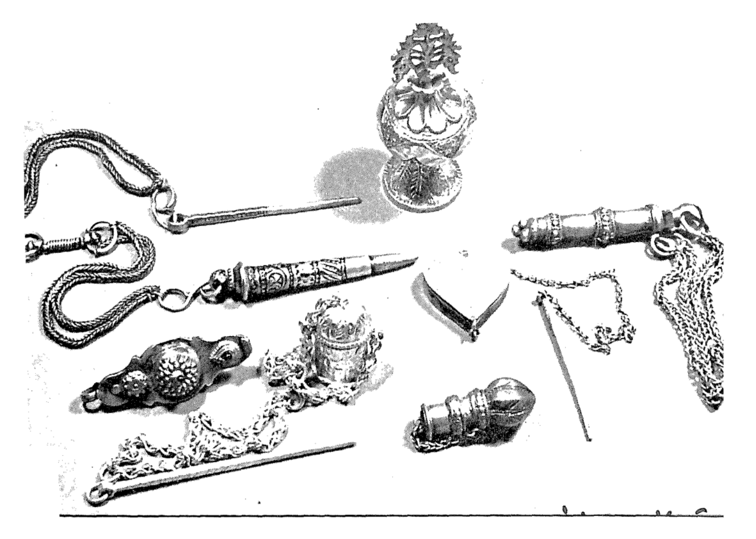
● طوق من افغانستان ●





● حزام من السعودية ●





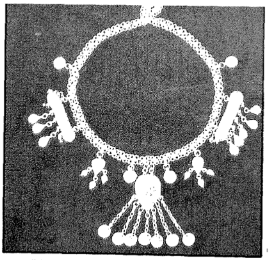
● مجموعة مكاحل عمانية ●

وتكوينه للحضارات الأولى حيث تطور المصاغ نوعياً فصار منه طلاسم وأحجبة وتمائم سحرية للدفاع عن الإنسان ضد المخاطر والشرور، أو طلباً لحاجات إنسانية كالحب والخصوبة والولادة.... فتعددت النماذج والأشكال والعلامات المميزة. كما تنوعت وظائفها الاجتماعية، فصار قسم منها يقتصر حمله على الملوك أو الحاشية أو الجنود الخ.... ونجم عن ذلك تنوع في الحلية الواحدة، فبعض الملوك مثلاً يتزين بالتاج ويحمل الصولجان، أما القائد فيحمل أكليلاً، وأضحت الحلية إشارة للمركز كأن يحمل الكاهن في المجتمع المسيحي، نطاقاً خاصاً وهذا بدوره ينعكس على زوجة كل منهم حيث تحمل هي الأخرى حليا معينة تدل على مركزها مما لا تتزين به سواها من السيدات. كما صار للحلية وظيفة رمزية أخرى لتحديد ظاهرة معينة، كالحجل للدلالة على الزواج والطوق رمزا لامتلاك عدد من الغنم.... وبتطور المجتمعات حضارياً وتصاعد منتجاتها الثقافية والفنية صار للحلي قيماً جمالية تتغير

تبعاً للظروف والزمن والموضات، مما نجم عنه انفجار هائل في النماذج الصياغية حتى أضحى من المتعذر تحديد أصولها فضاعت نتيجة لذلك المعاني الحقيقية لرموز كثيرة أصيلة في الحلي.

المصاغ علامة انتساب:

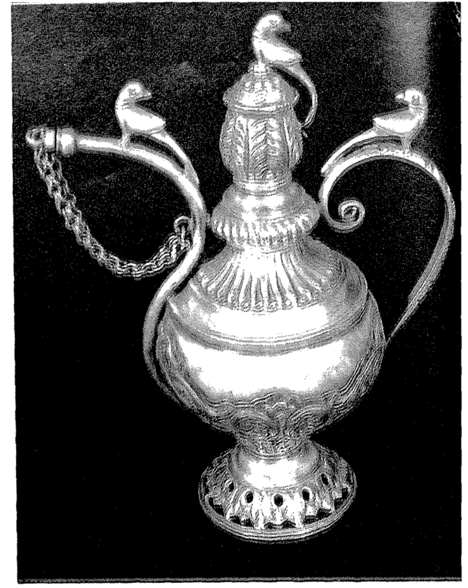
ان المناطق الريفية والمستوطنات القروية ظلت غنية تاريخياً بتراثها الثقافي الشفهي المتمثل بالفلكلور والعملي المتجسد بالصناعات والحرف اليدوية والفنون الزخرفية مثل الحلي. فيها تمَّ الابتكار وعنها صدر الرمز المعبر عن قيم ومفاهيم خاصة والهادف إلى تحديد انتساب الجماعة وطبع القبيلة والقرية بطابع خاص من علائمه العناصر الزخرفية واللغة والمفردات الصياغية التي تحدد وتوجه انتاج الحلي المحلية، وتميزها عن مصاغ الجماعات والقرى الأخرى التي قد لا تبعد عنها سوى بضع كيلو



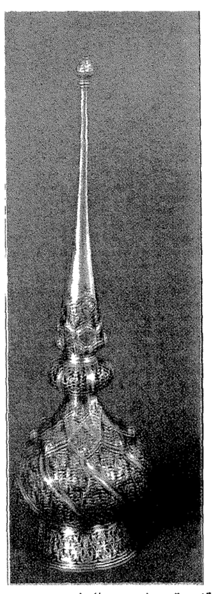
● قلادة من العراق ●

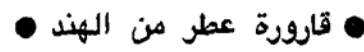
مترات. وتصنع كل قبيلة احتياجاتها الضرورية غالبا من مواد أولية محلية مثل المنازل والأثاث والألبسة والزرابي والصناديق والأواني والأوعية والسلاح وأدوات الزينة والمصاغ ومنهم من يتخصص بذلك كالحرفيين، ومنهم من يعمل خارج الأوقات اللازمة لمتطلبات البذر والحصاد وتنمية الثروة الحيوانية.

ويلاحظ أن هؤلاء الفنانين الموهوبين يجعلون من المواد الضرورية ذات الاستخدام اليومي سلعاً جميلة وذات طابع متميز يكسبها سمة العمل الفني الموسوم بلغة زخرفية موحدة تنقش مفرداتها على جميع المنتجات. فالعلاقات الجمالية التي تطبع البنية الاقتصادية والاجتماعية للقبيلة تجمع بدورها شمل الناس وتوفر لهم نوعا من الطمأنينة المادية والروحية.



● أبريق من الهند ●





● قارورة عطر من الهند ●

تتمايز المفردات الصياغية أحياناً بهذه الدرجة أو تلك حتى بالنسبة لفروع القبيلة الواحدة كما لدى الطوارق. فلكل قبيلة أعرافها ونظمها المقننة. وللحلي مكانة خاصة ودور متميز تعتز به القبيلة كإحدى الواجهات الثقافية التي تعكس أصالتها وتفرد شخصيتها وخصوصيتها فهي كالعلم الذي تعرف به الدول يسهل معرفة الانتماء القبلي عبر نماذج الحلي. فهي بذلك بمثابة ضرورة اجتماعية وجزء من التقاليد التي لازالت قائمة في الأقاليم الإسلامية. إذ تحافظ المجموعات العرقية على تراثها الصياغي، رغم توسع علاقاتها مع العالم الخارجي. ويتكون مصاغ القبيلة من مجموعة محددة من قطع الحلي تحملها نساء القبيلة، بحيث إذا اجتمع حشد منهن في



● صندوق من الهند ●

حفل أو عرس فإنهن سيكونن مزينات بنفس أطقم الحلي. ولدى الموسرات منهن تتجمع نماذج كاملة من حلي القبيلة وكذلك يكون بحوزتهن أكثر من قطعة لنموذج واحد. ويلاحظ أن الثرية في القرية ربما يكون لها عدة أطقم من نفس النموذج. فهي تنتمي إلى هذه القبيلة فلا تخرج بذلك عن مصاغها. لكن ما تفعله هو أن تزيد على سبيل المثال من عرض السوار أو سمكه أو كمية الأساور التي تحملها. لذلك لدينا أساور متشابهة بدور واثنين وثلاثة، رفيعة ومتوسطة العرض وعريضة، خفيفة ومتوسطة الوزن وثقيلة.... وبذلك فقد لعب الوسط الريفي المعزول وتقاليده المتميزة دوراً كبيراً في الحفاظ على الطابع القديم للمصاغ وتوازن نماذجه وزخارفه ونقوشه ورموزه.

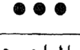
هكذا كان في الماضي، وهكذا استمرت الأصول التاريخية حينما كانت المستوطنات محمية من التأثيرات الخارجية. أما الآن فقد اختلط الأمر حتى وصل إلى درجة يصعب معها أحيانا إعطاء تحديد دقيق لبعض القطع. كما اختفت مراكز عديدة لإنتاج الحلي التقليدية التي كانت تمد القبيلة بالمصاغ وتزوّد غيرها من القبائل خاصة أولئك الذين لا يوجد بينهم صاغة.

وتقسم المجتمعات التي لازالت تعتز بمصاغها بسمات أهمها كونها زراعية وجلّ منتسبيها من الريفيين ذوي المستويات الاقتصادية المتدنية والفقيرة. والطارئ الجديد هو وقوعها تحت تأثيرات البيئة المعاصرة وتحولات العصر. وهو محيط قاس بالنسبة للمجتمعات التقليدية حيث تنسلخ عنها

شرائح تذوب تدريجياً في مؤثـرات المدن وأجـوائهـا. بينمـا تبقى فئـات أخــرى تـدافع عن أصـالة نفسهـا بتقاليـدهـا وأعرافها ومنها توارث الفنون الزخـرفية ونماذجها وأشكالها اصراراً عـلى تثبيت الانتسـاب والخصـوصيــة والعـلامــة المميزة.

هذا إلى جانب بقاء هذه الفئات من المجتمـع على مثلهـا الفنية والـذوقية المنجـذبـة نحــو هــذه الأحــاسيس الفنيــة ولا غـرابــة في أن تبقــى أسعار المصاغ المغربي القديم عـالية بسبب إقبال البعض على استخـدامه حتى الآن وخـاصة النمـاذج الجيدة منــه. وهـذا عـامـل مهم في استمــرار بـعض نمـاذج التـراث الصيـاغـي بأشكاله وزخارفه القديمة ممّا يشجع الصاغة التقليديين ويحفـزهم للمضي قـدما في استيحـاء التراث الصيـاغي وتطويره على أسس معاصرة.

●●●



المراجـــع

- أبو الفرج الاصفهاني
  الأغاني

- علي زين العابدين
  المصاغ الشعبي في مصر
  الهيئة المصر العامة للكتاب ١٩٧٤م

- علي زين العابدين
  وظائف الحلي الشعبية ودورها في الحياة
  التراث الشعبي
  العدد ١٢ السنة الثامنة ـ ١٩٧٧م

- عبدالرحمن زكي
  الحلي في التاريخ والفن
  المكتبة الثقافية ١٢٦
  القاهرة ١٩٦٥

- فريدة بن ونيش
  الحلي في الجزائر
  الجزائر ١٩٧٦

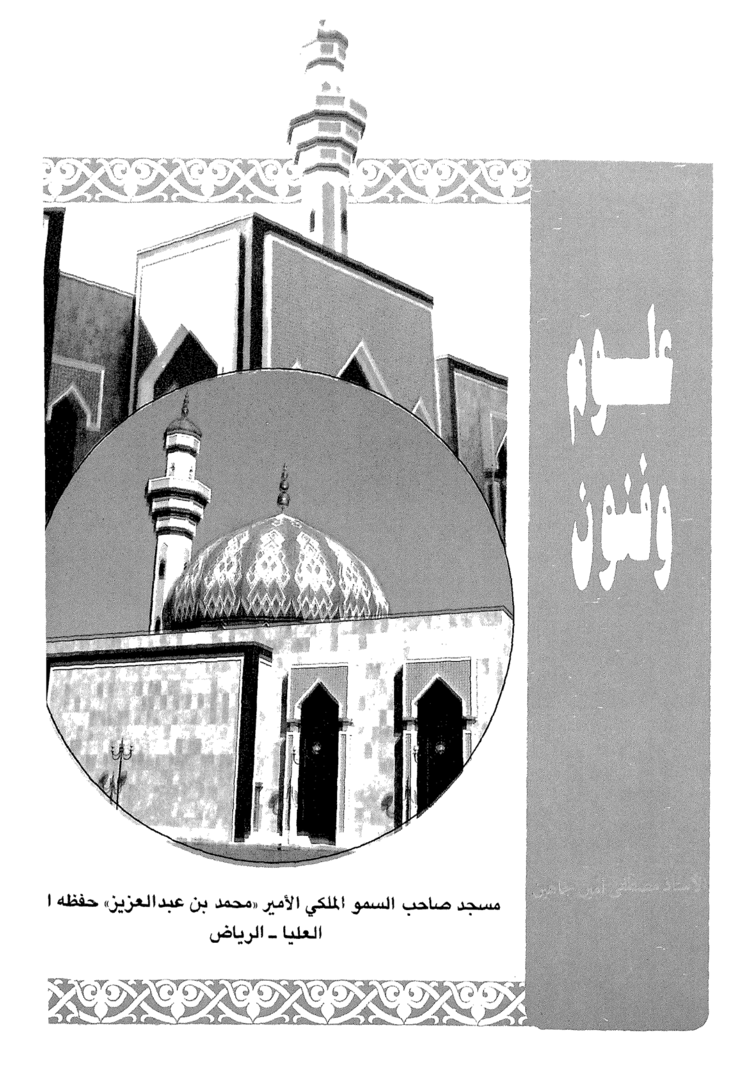
- عبدالكريم الملا
  المعلقات الشعبية
  التراث الشعبي
  العدد ٤ ـ ١٩٧٤م

- Saad Al-Jadir
  Arab and Islamic Silver
  Stacey International. London-1981.

- M.P. Saint Yves
  Amulettes et talismans; les amulettes et leur valeure magique Revue Antropologique, Janvier-mars 1930
  No 13. P. 177-196

«من بحوث الأعداد القادمة»

- ● هجرة السكان إلى مدن جنوب غرب المملكة العربية السعودية.
د. عبدالرحمن صادق الشريف
- ○ مع آخر رحالة أوربي يعبر الجزيرة العربية على ظهر بعير.
أ. السيد أحمد مرسي
- ● الأمير مودود بن التونتكين أتابك الموصل ودوره في حركة الجهاد الإسلامي. .... د. عفاف سيد صبره
- ○ كمال الدين بن يونس الموصلي ٥٥١ ـ ٦٣٩هـ. .... أ. فاضل خليل إبراهيم
- ● تطور علم التاريخ الإسلامي حتى نهاية العصور الوسطى.
د. أحمد رمضان أحمد
- ○ ذكريات من البادية. .... أ. روكس بن زائد العزيزي
- ● جدوى الوزن والقافية في الصياغة الشعرية. .... د. السعيد عبدالله
- ○ الجيش الإسلامي.. «نشأته.. وتطوره..» .... د. محمد ضيف الله بطاينة
- ● حاجتنا الماسة لتنسيق عمليات تحقيق مخطوطات التراث العربي واختيار الرسائل الجامعية. .... د. سامي خماس الصقار
- ○ مختصر شرح أمثلة «سيبويه» للجواليقى «عرض وتحليل».
د. دفع الله عبدالله سليمان
- ● مفهوم العلم عند الإمام الغزالي. .... د. محمد فاروق النبهان
- ○ وقفة بين يدى سيد الشهداء «الحسين بن علي» «شعر». .... د. عاتكة الخزرجي
- ● الوجه الفلكي للمؤرخ «عثمان بن بشر». .... أ. عبدالرحمن حمد السنيدي
- ○ الحياة الإجتماعية في مدينة مراكش في عصر المرابطين والموحدين. .... د. سليمان عبدالغنيّ مالكي
- ● الكشف عن مدافن من خمسة آلاف عام في جنوب الظهران.
أ. عبدالعزيز النفيسة،
أ. عبدالله الهدلق
- ○ جغرافية موقعة اليرموك. .... د. طه عثمان الفراء



مسجد صاحب السمو الملكي الأمير «محمد بن عبدالعزيز» حفظه ا
العليا ـ الرياض



نيابة عن جلالة الملك:

سمو ولى العهد رعى احتفال مؤسسة الملك فيصل الخيرية.

نيابة عن جلالة الملك فهد بن عبدالعزيز المفدى، رعى صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد، ونائب رئيس مجلس الوزراء، ورئيس الحرس الوطني، مساء الأحد ٢٨ من شهر جمادي الآخرة ١٤٠٦هـ، الموافق ٩ مارس ١٩٨٦م، حفل توزيع جائزة الملك فيصل العالمية في مجالات خدمة الإسلام، والدراسات الإسلامية، والأدب العربي، والطب والعلوم، إلى جانب احتفالات المؤسسة الخاصة بمرور عشر سنوات على إنشائها، كما افتتح سموه قاعة الملك فيصل التذكارية، وتفقد مقتنيات الملك فيصل الخاصة.

هذا وقد فاز بجائزة الملك فيصل العالمية لعام ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م،

« سمو ولي العهد يوزع جوائز مؤسسة الملك فيصل الخيرية على الفائزين »

● جائزة خدمة الإسلام:

١ ـ الأستاذ/ أحمد حسين ديدات .... «من جنوب أفريقيا»
٢ ـ الدكتور/ رجاء جارودي .... «فرنسي»

● جائزة الدراسات الإسلامية:

(أ) أ.د./ عبدالعزيز عبدالكريم الدوري .... «عراقي»

● جائزة الأدب العربي:

١ ـ الشيخ/ محمد بهجة الأثري .... «عراقي»

● جائزة الطب:

١ ـ د./جيان فرانكو بوتاتزو .... «إيطالي»
٢ ـ البروفيسور/ ألبرت رينولدز .... «سويسري»
٣ ـ البروفيسور/ ليليو أورشى .... «إيطالي»

● جائزة العلوم:

ـ د./مايكل جون بيردج .... «بريطاني»

وفي نهاية الحفل، عرض فيلم «مولد دولة» وهو بأشعة الليزر ويتناول قيام الدولة السعودية وتطورها منذ عهد الملك عبدالعزيز «رحمه الله»، وحتى العهد الزاهر لصاحب الجلالة الملك فهد بن عبدالعزيز «حفظه الله».





جلالة الملك فهد افتتح المهرجان الوطني الثاني للتراث والثقافة

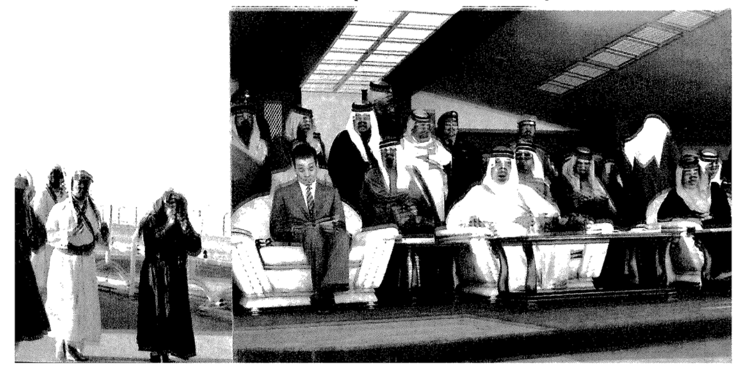
كان يوم الأربعاء ٢ رجب ١٤٠٦هـ الموافق ١٢ مارس ١٩٨٦م من أروع وأمتع الأيام التي ربطت الماضي الحافل بكل إشراقاته وموروثاته الرائعة، بالحاضر السعيد، وكان لقاء بين القيادة والمواطنين في «الجنادرية».

فلقد تفضل جلالة الملك «فهد بن عبدالعزيز» المفدى بافتتاح المهرجان الوطني الثاني للتراث والثقافة، الذي نظمه الحرس الوطني.

وقد سجل جلالة الملك المفدى كلمة في سجل الزيارات قال فيها:

- لقد سررت بما لاحظته في هذا الحفل الشعبي والمنبثق من تراثنا الوطني، وأرجو أن نحافظ على هذه الأمور لكي يعيها أبناء هذه البلاد في المستقبل القريب والبعيد.

« جلالة الملك فهد بن عبد العزيز المفدى، وسمو الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد الأمين، وسمو الأمير محمد بن الحسن الثاني ولي عهد المغرب في حفل افتتاح المهرجان الثاني »



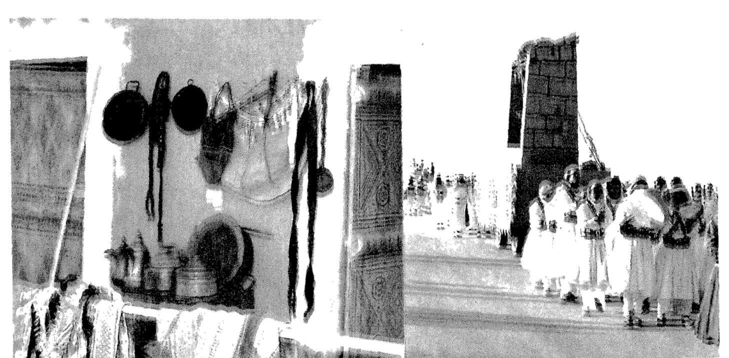
وكان في استقبال جلالته صاحب السمو الملكي الأمير «**عبدالله بن عبدالعزيز**» ولي العهد الأمين، ونائب رئيس مجلس الوزراء، ورئيس الحرس الوطني، وصاحب السمو الملكي الأمير «**بدر بن عبدالعزيز**» نائب رئيس الحرس الوطني، ورئيس اللجنة العليا للمهرجان الوطني للتراث والثقافة، وصاحب السمو الملكي الأمير «**سلمان بن عبدالعزيز**» أمير منطقة الرياض، وصاحب السمو الملكي الأمير «**فيصل بن فهد بن عبدالعزيز**» الرئيس العام لرعاية الشباب ونائب رئيس اللجنة العليا للمهرجان، وأصحاب السمو الملكي الأمراء والمعالي الوزراء وكبار المسئولين.

وقد حضر الحفل صاحب السمو الملكي الأمير «**محمد بن الحسن الثاني**» ولي عهد المملكة المغربية الشقيقة، وسمو الشيخ «**حمد بن عيسى آل خليفة**» ولي عهد دولة البحرين الشقيقة، وعدد كبير من أصحاب السمو الملكي الأمراء وأصحاب الفضيلة العلماء والمشايخ والمعالي الوزراء، وأعضاء السلك الديبلوماسي المعتمدون لدى المملكة، وعدد من كبار الأدباء والمفكرين من داخل المملكة وخارجها.

وبعد عدد من الكلمات والقصائد، بدأ سباق الهجن. ثم جرى عرض لأوجه التراث والعروضات؛ وبعدها تفضل جلالته وضيوفه الكرام بافتتاح القرية الشعبية التي تجسدت فيها العراقة والأصالة.

« لقطات من المهرجان »

« من التراث الشعبي »



افتتاح أعمال الدورة السابعة والعشرين للمجلس التأسيسي للرابطة

افتتح سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، رئيس المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي والرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، صباح السبت الخامس من شهر رجب ١٤٠٦هـ - الموافق ١٥ مارس ١٩٨٦م أعمال الدورة السابعة والعشرين للمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وذلك بمقر الرابطة بمنى.

وقد بدأ حفل الافتتاح بتلاوة آي من الذكر الحكيم، ثم ألقى سماحة الشيخ ابن باز، كلمة أوصى فيها الجميع بتقوى الله، واتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأكد على ضرورة تحكيم كتاب الله وسنة نبيه، وأن يتولى أهل العلم النصح والإرشاد لعامة المسلمين واتباع ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه، وأن يوضحوا للمسلمين الحكم بكتاب الله، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وأوضح أنه يجب أن يكون الداعية إلى الله على بينة من العلم والمعرفة، حتى يستطيع أن يكشف الشبهة، وأن يبين الحق، وحذر سماحته من مكائد أعداء الإسلام، الذين يثيرون الفتن وينشرون أفكارهم الهدامة، ومذاهبهم الإلحادية.

وقال سماحته إن المجلس التأسيسي للرابطة، قد مضى له أكثر من خمسة وعشرين عاماً، وأنه قد حقق في هذه الفترة الكثير من الدعوة إلى الله، وإصدار القرارات والتوصيات

التي يرجى منها نفع العباد وإيضاح مشاكلهم، ودعوتهم إلى الحق وتحذيرهم من الانحلال في كل صوره و أشكاله.

كما ألقى معالي الدكتور «عبدالله عمر نصيف» الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي الكلمة التالية:



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الغر الميامين ومن اهتدى بهداهم واتبع سبيلهم إلى يوم الدين، أما بعد:

صاحب السماحة رئيس المجلس التأسيسي للرابطة

أصحاب المعالي والفضيلة والسعادة أعضاء المجلس الأفاضل وضيوفنا الأكارم،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

يسرني ونحن نفتتح أعمال الدورة السابعة والعشرين للمجلس التأسيسي للرابطة أن أرحب بكم في مهبط الوحي ومنبع النور ومنطلق الدعوة الإسلامية ونشكر لكم تلبيتكم لدعوتنا رغم مشاغلكم وتحملكم مشاق السفر من أجل حضور هذه الدورة، سائلاً الله جل شأنه أن يتولانا جميعاً بتوفيقه وعونه حتى نحقق ما نصبوا إليه من نتائج طيبة تخدم قضايانا الإسلامية المصيرية.

نجتمع اليوم أيها الأخوة الأعزاء والمسلمون يمرون ـ كما لا يخفى عليكم ـ بمرحلة تعتبر من أدق المراحل في تاريخهم، فهم على الرغم من كثرة عددهم البالغ قرابة ألف مليون نسمة وانتشارهم في جميع أنحاء المعمورة، يعيشون حالات من الضعف والتشتت بسبب بعدهم عن النهج القويم الذي ارتضاه لهم رب العالمين، حتى تكالبت عليهم قوى الشر والعدوان وسيطرت عليهم مذاهب شتى مخالفة للإسلام.

إن هذه الأوضاع المؤلمة للمسلمين قد شجعت أعداء الإسلام على التمادي في غيهم وإحكام قبضة الصهيونيين على القدس وفلسطين المحتلة واضطهاد سكانها،



ودفعت الشيوعيين لمواصلة استيلائهم على أفغانستان المسلمة وتقتيل ابنائها وتشريد الملايين منهم، وحملت أعداء الإسلام إلى اضطهاد الأقليات المسلمة في أنحاء شتى من العالم، وذلك كله لعدم وجود رادع يردعهم في غيهم ولعدم وجود قوة إسلامية موحدة تمنعهم من الظلم.

واضافة إلى ما ذكر فإن ثمة قضايا أخرى يعاني منها المسلمون في هذا العصر مثل التخلف الحضاري والثقافي والعلمي، وانتشار الفقر بين الكثير من مجتمعاتهم، وسقوط الملايين منهم ضحايا للمجاعة والكوارث الطبيعية وويلات الحروب والاضطهاد التي ألمت بالعديد من مناطق المسلمين في آسيا وأفريقيا، كل هذه القضايا أصبحت اليوم حجر عثرة في مسيرة المسلمين من أجل استعادة مجدهم وعزتهم وسؤددهم.

والمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي الذي يضم نخبة من علماء المسلمين ومفكريهم وقادتهم ويمثل الشعوب الإسلامية التي تعاني ويلات هذه القضايا والمشاكل، وتعيش مآسيها، ولعقت ومازالت تلعق مرارتها، حرى به أن يكون في مقدمة الهيئات والتنظيمات الإسلامية التي تعني بها، وتبذل أقصى الجهد المستطاع من أجلها، وتوضح وجهة النظر الإسلامية فيها، وتقدم التوصيات والنصائح لقادة المسلمين ليسهموا في تجنيد الطاقات الهائلة التي تمتلكها الأمة الإسلامية اليوم وتوجيهها إلى الوجهة الصحيحة التي يتحقق من خلالها النصر والتأييد إن شاء الله.

● جانب من أعضاء الرابطة





● أعضاء المجلس التأسيسي للرابطة

أيها الأخوة أعضاء المجلس الأفاضل:

إن علينا في هذه الدورة وفي غيرها من الدورات اللاحقة بإذن الله بحث هذه القضايا من جميع جوانبها بحثاً متعمقاً ومستفيضاً، وان استطعنا حتى الآن بفضل الله أن ننجز بعضا من واجبنا تجاهها فالطريق أمامنا مازال طويلاً، وسيظل محفوفاً بالصعوبات، وعلينا أن نتخطى كل ذلك بالعزم الأكيد والتمسك الصادق بأهداب عقيدتنا السمحة وبالثقة الكاملة في الله جلت قدرته وبنصره المبين للمؤمنين مصداقا لقوله تعالى **﴿وكان حقا علينا نصرُ المؤمنين﴾** وقوله سبحانه **﴿إن تنصروا الله ينصرْكم ويُثبِّتْ أقدامكم﴾** وقوله جل شأنه **﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾** صدق الله العظيم.

ويسر الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي أن تضع بين أيدي حضراتكم تقريراً مفصلاً يمثل نتاج جهود أمانتكم خلال العام المنصرم، ومتابعتها المتواصلة لتنفيذ القرارات والتوصيات التي أصدرتموها في الدورة (٢٦) لمجلسكم الموقر، إضافة إلى ما استجد في ساحة القضايا الإسلامية وجهود الأمانة العامة للرابطة في تبنيها والدفاع عنها، وما يعترض العمل الإسلامي من تحديات وتيارات فكرية هدامة تمثل تهديداً وخطراً داهماً على كيانه ووجوده.

وبما أن الدورة السابقة لمجلسكم الموقر قد أوصت بأن يتم خلال هذه الدورة الحالية التركيز على موضوع **(الدعوة والدعاة)** فقد جرت الكتابة لكم في وقت مبكر كما هو معروف لكم، بهدف استطلاع ما لديكم من معطيات ومعلومات ومرئيات في هذا المضمار، فاستجبتم مشكورين لطلب الأمانة العامة التي تلقت بحوثكم ودراساتكم القيمة في الوقت المناسب، وها هي ذي معروضة على مجلسكم الموقر.

أيها الأخوة في الله:

بمناسبة الحديث عن موضوع الدعوة والدعاة أود أن أسهم معكم بإلقاء الأضواء على أهم النقاط التي من المناسب التطرق إليها وإصدار تصورات المجلس وتوصياته فيها، في ضوء نتيجة التقويم والتحليل الموضوعي للأوضاع الراهنة للمسلمين وغيرهم، والجهود القائمة في مجال الدعوة، والتحديات والمشاكل التي تواجهها، والإمكانات المادية والمعنوية المتوفرة، وذلك بالاستفادة مما لديكم من علوم ومدارك واسعة في مختلف التخصصات، ومن تجارب - مباشرة لعملية الدعوة كل في موقعه. فإن أهم النقاط التي علينا بحثها وهي تمثل أبرز متطلبات الدعوة في هذا العصر إذا أريد لها النجاح والتوفيق بعون الله هي:

١ - تنظيم وتنشيط البحوث العلمية والدراسات الخاصة بالدعوة.

٢ - الاستفادة من الأساليب العلمية الكفيلة بإنجاح أي عمل ونشاط بعون الله بدءاً بتحديد الأهداف البعيدة والقريبة والتخطيط السليم والأداء المتقن والتقويم المستمر للنتائج أولاً بأول.

٣ - الاستفادة من إمكانات الهيئات والمنظمات القائمة بأعمال الدعوة ومساندتها مادياً ومعنوياً وتهيئة فرص التشاور وتنسيق الخطط والجهود فيما بينها.

٤ - بحث سبل توفير مصدر تمويل للدعوة سواء من التبرعات العينية والنقدية من الحكومات أو المؤسسات أو الشخصيات الإسلامية أو الاستثمارات أو الأوقاف أو تنشيط التطوع للدعوة.

٥ ـ **تجنيد الطاقات البشرية القائمة بعملية الدعوة إلى الله تعالى سواء في نطاق العلماء والمفكرين المتخصصين أو غيرهم من مختلف طبقات الأمة الإسلامية. فإن تطوير أساليب تعليم وتدريب الدعاة عند تخرجهم من متطلبات الدعوة في العصر الحديث.**

٦ ـ **بحث سبل الاستفادة القصوى من وسائل الإعلام والتقنية الحديثة عامة في مجال الدعوة.**

٧ ـ **بحث سبل النهوض بالدعوة الإسلامية من خلال تنفيذ شتى الأنشطة والمشروعات في مختلف المجالات المتاحة.**

أيها الأخوة:

ختاماً لا يسعنى سوى رفع الشكر لله تعالى ثم تقديمه لجلالة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز ولسمو ولي عهده الأمين الأمير عبدالله بن عبدالعزيز على الجهود الموفقة في تقديم الدعم المادي والمعنوي الكامل لرابطة العالم الإسلامي ولمختلف الهيئات الإسلامية في سائر أنحاء المعمورة خدمة للإسلام والمسلمين، فجزاهما الله وجميع أعوانهما عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

ونسأل الله تعالى أن يتولانا جميعاً بدوام عنايته وعونه وان يكلل مجلسكم الموقر بالتوفيق والنجاح في حمل الأمانة الملقاة على عاتقه امتثالاً لقول الحق تبارك وتعالى ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**﴾.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.،،،

○ ○ ○

بعد ذلك، تم تشكيل اللجان المنبثقة عن المجلس وهي:

(أ) اللجنة السياسية.

(ب) اللجنة الفقهية.

(جـ) اللجنة العامة.

(د) لجنة الصياغة.

(هـ) لجنة الدعوة.

(و) لجنة النظافة.

(ز) اللجنة المالية.

«توصيات وقرارات هامة في ختام الدورة»

وبعد أن عقد المجلس خمس جلسات، بحث خلالها القضايا والموضوعات المدرجة في جدول الأعمال، اتخذ المجلس في ختام دورته القرارات والتوصيات التالية:

١ ـ **قضية القدس وفلسطين:**

قرر المجلس استمرار دعم الحملات الإعلامية، لمساندتها بكل الوسائل الممكنة بالتعاون مع الجهات الإسلامية.

٢ ـ ناشد المجلس الحكومات العربية والإسلامية، بعدم إلزام منظمة التحرير الفلسطينية قبول القرارات التي لا تحقق رغبة الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره.

٣ ـ **دعا إلى عقد دورات تدريبية للوعاظ والأئمة، لتقوية معلوماتهم، وتبنّي عدد من الأئمة والوعاظ في المناطق المحتلة.**

٤ ـ ضرورة تحرك منظمة المؤتمر الإسلامي، والجامعة العربية، والدول المنضوية تحتها، ورابطة العالم الإسلامي، لبذل قصارى الجهد لإنهاء الصراع اللبناني، ووضع حد له، ودعم المقاومة الإسلامية، وإنقاذ المواطنين المسلمين من هيمنة العدو الإسرائيلي.

٥ ـ **التأكيد على قادة المجاهدين الأفغان بالتمسك بوحدة صفوفهم، وتضامنهم حتى يتحقق النصر، والحث على تنبيه الحكومات العربية والإسلامية، إلى مخاطر إقامة علاقات دبلوماسية مع النظام الشيوعي العميل في «كابول»، أو مع «الاتحاد السوفيتي»، إلا بعد انسحاب القوات الشيوعية، وتمكين الشعب الأفغاني المسلم من ممارسة حريته الكاملة في وطنه وتقرير مصيره.**

ودعا المجلس إلى بذل الجهود من أجل تقديم المساعدات

الطبية والعينية والغذائية للمجاهدين والمهاجرين الأفغان، ودعم المؤسسات التعليمية المتعددة في أفغانستان، لتحصين أبنائهم من خطر الشيوعية.

٦ - أوصى المجلس بإرسال برقيتين باسم المجلس إلى كل من الرئيسين العراقي، والإيراني، يناشدهما وقف الحرب الدائرة بينهما.

٧ - **ناشد المجلس الأطراف المعنية الاستجابة إلى قرار الأمم المتحدة، وسرعة إجراء المفاوضات لإحلال السلام في جزيرة «قبرص» بما يحقق المصالح المشروعة للطرفين ودعا المسلمين للتعاون مع القبارصة الأتراك.**

٨ - وبخصوص التفرقة العنصرية في جنوب إفريقيا، أوصى المجلس بضرورة الوقوف إلى جانب أهل البلاد الأصليين، ودعم المسلمين هناك، كما أوصى بالاستمرار في دعم ومساعدة المراكز والجمعيات الإسلامية القائمة في جنوب أفريقيا.

٩ - **وعن قضية المسلمين في «بلغاريا»، قرر المجلس مناشدة هيئة الأمم المتحدة، ولجنة حقوق الإنسان بالتدخل لوقف هذه الاعتداءات، وحث الحكومات الإسلامية على الاتصال بحكومة بلغاريا، لوقف هذه الممارسات.**

١٠ - وبخصوص الأقليات الإسلامية في أوربا الشرقية، فقد دعا المجلس حكومات الدول الإسلامية إلى الاهتمام بأمر المسلمين هناك، للحفاظ على من بقي منهم من الذوبان، والعمل على منحهم حقوقهم المشروعة.

١١ - **وعن المسلمين في «فطاني، وتايلاند»، أوصى المجلس بتخصيص عدد من المنح الدراسية لأبناء المسلمين في تايلاند، ووضع برامج لإصلاح نظام التعليم في «فطاني» يتضمن التعليم الديني الإسلامي، على أساس صحيح، وتقديم الدعم المادي الممكن للمؤسسات التعليمية الإسلامية وللمساجد، وتزويد**

المكتبات الإسلامية بالكتب الإسلامية النافعة.

١٢ ـ أكد المجلس على قرار الأمم المتحدة لعام ١٩٤٨م، لضمان توحيد شطري كشمير، ومطالب وزراء الهند بتنفيذ هذا القرار.

١٣ ـ **أعرب المجلس عن ارتياحه للإجراء الذي اتخذه الحزب الحاكم في الهند، بإدخال تعديل في قانون الأحوال الشخصية يتفق مع تعاليم الشريعة، ويأمل المجلس أن ينال تعديل المشروع موافقة البرلمان الهندي.**

١٤ ـ رأى المجلس تحديد مفهوم الدعوة وحكمها وموضوعاتها وأهدافها وصفات الداعية، والشروط المتوفرة فيه وإعداده وتحديد منهج الدعوة وأساليبها ووسائلها والإشراف والمتابعة لنشاط الدعوة والدعاة والدعم المادي والمعنوي لذلك.

١٥ ـ **دعم صندوق الدعوة القائم بمقر الأمانة العامة للرابطة لتمويل مشاريع الدعوة، وحث الأمانة العامة على مواصلة إقامة الندوات والمؤتمرات والمشاركة في المناسبات التي تدعي إليها بما يحقق رسالتها وأهدافها في الدعوة إلى الله.**

١٦ ـ التوسع في إقامة الدورات التدريبية للأئمة والدعاة القائمين بأعمال الدعوة في بلدانهم.

١٧ ـ **وفي مجال التعاون والتنسيق بين الرابطة والجمعيات والمراكز الإسلامية في العالم، فقد حث المجلس على الاستمرار في دعم ومساندة تلك الهيئات لمواصلة مسيرتها الإسلامية لخدمة الإسلام والمسلمين في العالم.**

١٨ ـ دعا المجلس الجامعات الإسلامية إلى فتح أبوابها أمام الشباب المسلم للالتحاق بها ومناشدة الحكومات الإسلامية عدم إرسال أبنائها إلى الجامعات غير الإسلامية إلا عند الضرورة القصوى.

١٩ ـ **دعا المجلس إلى دعم مشروع الجامعة الإسلامية بإسلام أباد بباكستان، لاستكمال**

تنفيذ هذا المشروع الإسلامي.

٢٠ ـ حث المجلس الأمانة العامة على الاستمرار في نشاطها في مجال الاغاثة والأعمال الخيرية في بعض الدول الأفريقية والآسيوية للتخفيف من حدة الكوارث والمجاعة.

٢١ ـ أوصى المجلس بضرورة التنبيه على الشباب المسلم عبر وسائل الإعلام بمخاطر الانسياق وراء التقاليد التي تتنافى مع ديننا الحنيف، وتوعيتهم وتحذيرهم من أخطار المسكرات والمخدرات، وإبراز مساوىء السفر إلى البلاد غير الإسلامية، لقضاء العطلات الصيفية في البلاد التي تشيع فيها العادات السيئة والانحرافات الخلقية.

٢٢ ـ قرر المجلس مضاعفة الجهود في متابعة الفئات الضالة، وقطع دابرها من بلاد الإسلام ومتابعة الحملات الإعلامية ضد الإسلام والتصدي لها بالتعاون مع بقية الجهات الإسلامية المعنية.

وفي نهاية الجلسة، ألقى سماحة الشيخ ابن باز، كلمة أعرب فيها عن شكره للأعضاء المشاركين في هذه الدورة، وأوصاهم بتقوى الله والتمسك بتعاليم الدين الحنيف، وتبني قرارات المجلس في هذه الدورة.

ووجه الشكر لخادم الحرمين الشريفين، على دعمه المستمر للرابطة، ولكافة المؤسسات الإسلامية.

كما ألقى معالي الأمين العام للرابطة كلمة نوه فيها بالسياسة الحكيمة التي تنتهجها حكومة المملكة لإعلاء كلمة الله في الأرض، ودعم المؤسسات الإسلامية في العالم، وعلى رأسها رابطة العالم الإسلامي، وأشاد بما اتخذ من قرارات وتوصيات خلال هذه الدورة، مؤكداً على أن الأمانة العامة للرابطة ستتابع سعيها الجاد لتنفيذ القرارات والتوصيات وفق الإمكانات المتاحة.

• • •

نيابة عن خادم الحرمين الشريفين:
سمو الأمير ماجد بن عبدالعزيز
يفتتح الدورة التاسعة لمجلس مجمع الفقه الاسلامى

نيابة عن خادم الحرمين الشريفين جلالة الملك فهد بن عبدالعزيز المفدى، افتتح صاحب السمو الملكي الأمير ماجد بن عبدالعزيز أمير منطقة مكة المكرمة، يوم السبت ١٢ من شهر رجب ١٤٠٦هـ، الموافق ٢٢ مارس ١٩٨٦م، أعمال الدورة التاسعة لمجلس المجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي بمبنى الرابطة بمنى.

وقد بدأ حفل الافتتاح بآى من الذكر الحكيم ثم ألقى صاحب السمو الملكي الأمير ماجد بن عبدالعزيز كلمة صاحب الجلالة الملك فهد بن عبدالعزيز المفدى، قال فيها:

- **الاسلام أقدر النظم التشريعية لاصلاح أمراض العالم.**
- **الانسانية تعيش عصراً مادياً مظلماً يتنكر للدين والقيم والفضائل.**
- **المسلمون يتطلعون للاجتهاد بالرأى الجماعي لتفهم القرآن والسنة.**

كما ألقى سماحة الشيخ ابن باز، رئيس مجلس المجمع الفقهي كلمة أشار فيها إلى الدور المطلوب من فقهاء المسلمين، لإيضاح الأمور واستبيان الحقائق في جميع الأمور.

كما ألقى الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي ونائب رئيس المجمع الفقهي معالى الدكتور عبدالله عمر نصيف كلمة قال فيها:

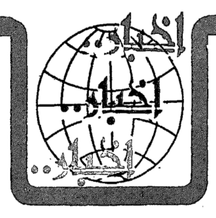
- **الفقه الاسلامى كفيل بحل كافة قضايا المسلمين.**

ثم ألقى الشيخ عبدالله عبدالرحمن البسام عضو مجلس المجمع الفقهي، كلمة نيابة عن أعضاء المجلس قال فيها:

- **علماء الاسلام يستمدون من الشريعة مناهج الاصلاح.**

• • •





● السبت ١٣ جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ الموافق ٢٢ فبراير ١٩٨٦م، نيابة عن جلالة الملك المفدى، رعى صاحب السمو الملكي الأمير «**سطام بن عبدالعزيز**» نائب أمير منطقة الرياض، افتتاح معرض الرياض بين الأمس واليوم، والذي أقيم على مركز المعارض بالرياض.

ثم تجول سموه ومرافقوه داخل أرجاء المعرض وقد بدأت جولتهم بزيارة لجناح جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز «رحمه الله»، وشاهدوا مقتنياته من ملابس وأدوات وأسلحة، ثم الجناح الخاص بالتراث الشعبي الذي يضم نماذج من الآثار والتراث الشعبي القديم، ونموذجا لبيت الشعر ولبيت من البيوت القديمة، إضافة إلى جناح التطور التعليمي والعلمي والتكنولوجي وغيره من الأجنحة والمجسمات والمشاريع والفضاء... الخ.

● السبت ٥/ ٧/ ١٤٠٦ هـ الموافق ١٥/ ٣/ ١٩٨٦ م، إلى ١١/ ٧/ ١٤٠٦ هـ الموافق ٢١/ ٣/ ١٩٨٦ م، عقد في تونس المؤتمر العالمى الثاني للدراسات العثمانية حول الحياة الاجتماعية للولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني.

وقد مثل الدارة في هذا المؤتمر الأستاذ **عبد الله الحقيل** الأمين العام للدارة، والأستاذ **حمد العمرو** مدير الوثائق بالدارة.

وقد حضر هذا المؤتمر عدد كبير من المؤرخين والباحثين والعلماء من مختلف أنحاء العالم، ومن المتخصصين في حقل الدراسات العثمانية، وقد قام مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني، في تونس، بتنظيم هذا المؤتمر بجهود موفقة.

● الإثنين ١٤ رجب ١٤٠٦هـ الموافق ٢٤ مارس ١٩٨٦م، احتفلت أمانة مدينة الرياض بمرور خمسين عاماً



على إنشائها في مسيرة خيِّرة في ظل القيادة الأمنية المخلصة، التي يحمل لواءها جلالة الملك «**فهد بن عبدالعزيز**» المفدى، وسمو ولي عهده الأمين، والمتابعة المستمرة من صاحب السمو الملكي الأمير «**سلمان بن عبدالعزيز**» أمير منطقة الرياض، ونائبه سمو الأمير «**سطام بن عبدالعزيز**».

ومدينة الرياض وجدت نصيبها من الارتقاء والتطور والتي توفرت فيها كل مقومات النهضة الحديثة، فاتسعت أطرافها وامتدت مساحاتها خلال فترة قياسية، وتكاملت في كل أحيائها وجوانبها مرافق الحياة من طرق ومدارس وجسور أنفاق وعمران وكهرباء وماء وهاتف وغيرها....

والرياض جمع روضة، وتعنى الحدائق والبساتين، وهي عاصمة المملكة العربية السعودية، وكانت لها أهميتها البارزة لموقعها عند ملتقى طرق شبه الجزيرة العربية.

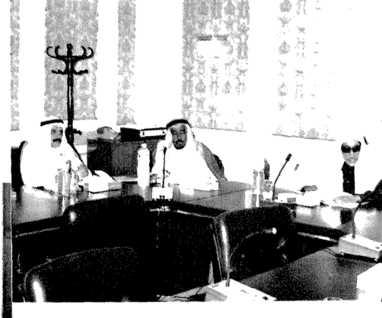
وقد دلت الدراسات التاريخية والأثرية بأنها على مكان مدينة **حجر** القديمة التي كانت مركز اليمامة، والتي وصفها الرحالة العرب بأنها كانت مدينة كبيرة واسعة الأرجاء، كثيرة المباني تحيط بها المزارع والحدائق، وتكثر بها المياه والعيون وكانت مركز التجارة في وسط صحراء الجزيرة العربية وملتقى التجارة بين شرق الجزيرة وغربها.

ثم أطلق اسم الرياض على المحلات القديمة من مدينة حجر «معكال» «ومقرن والعود» وغيرها وما حولها من الأرض الواسعة التي كانت في القديم بساتين وحدائق تتخلل مدينة حجر وتطوف بها، فعمرت، ثم صارت مجمعا للسيول إبان نزول الأمطار، تجود بمختلف النباتات في زمن الربيع، ولهذا صارت تسمى «الرياض».

● الثلاثاء ١٤٠٦/٨/١٣ هـ - الموافق ١٩٨٦/٤/٢٢ م، اجتمع مجلس إدارة دارة الملك عبد العزيز، برئاسة معالي الشيخ « **حسن بن عبد الله آل الشيخ** » وزير التعليم العالى، ورئيس مجلس إدارة دارة الملك عبد العزيز.

وفي مستهل الاجتماع توجه المجلس بالشكر والامتنان وجزيل العرفان لصاحب الجلالة الملك المعظم « **فهد بن عبد العزيز** » المفدى على تلطف جلالته ورعايته واهتمامه بالدارة، والنهوض بها إلى المستوى اللائق باسم جلالة المغفور له الملك عبد العزيز « طيب الله ثراه »، حيث تلطف جلالته فأعلن أمره الكريم بتحويل دارة الملك عبد العزيز إلى مؤسسة الملك عبد العزيز الإسلامية، لتكون رافداً من روافد الخير والعلم والمعرفة ضمن ينابيع الخير والعطاء الذي ارتبط باسمه « رحمه الله ».

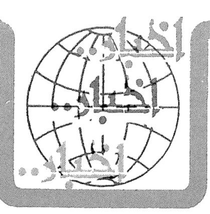
ثم تناول المجلس الموضوعات المطروحة عليه بجدول أعماله، والتي بينها البحوث والدراسات والمشاريع العلمية المطلوب إنجازها والكتب والبحوث المراد طباعتها، ثم ناقش علاقات الدارة والتزاماتها وإرتباطاتها بالهيئات العلمية في الداخل والخارج، وأهمية دعم مجلة « الدارة » لتحتفظ دائماً بسمتها وجوهرها، وتكون في طليعة المجلات الوثائقية والتاريخية والثقافية ذات المستوى الرفيع والمنهج العلمى المتخصص.



● الأمين العام للدارة في اجتماع ● مجلس الادارة.

● يترأس معالي الشيخ حسن بن عبدالله ال الشيخ ● اجتماع مجلس الادارة.





● الأحد ١٨/ ٨/ ١٤٠٦ هـ الموافق ٢٧/ ٤/ ١٩٨٦ م، معالى « **روبر تودى ابريو سودارا** » وزير خارجية البرازيل، والوفد المرافق له الذي حل ضيفاً على المملكة، قام بزيارة الدارة حيث شاهد قاعة الملك عبد العزيز التذكارية، والمركز الوطني للوثائق والمخطوطات والمكتبة.

وفي ختام جولة معاليه عبر عن إعجابه وشكره لما شاهده من مقتنيات وآثار تبرز دور ومكانة مؤسس هذه المملكة جلالة المغفور له الملك عبد العزيز، ودور الدارة كمركز بحث متخصص في التاريخ والجغرافيا والتراث.

عالي وزير خارجية البرازيل وبجانبه سعادة الأمين عام للدارة أثناء زيارته لقاعة الملك عبدالعزيز تذكارية.



● السبت : ٢٠ ربيع الأول ١٤٠٧ هـ الموافق ٢٢/ ١١/ ١٩٨٦ م إلى الخميس ٢٥ ربيع الأول ١٤٠٧ هـ الموافق ٢٧/ ١١/ ١٩٨٦ م يقيم مركز الدراسات الإسلامية بجامعة **اليرموك إربد / الأردن**، ندوة في الاقتصاد الإسلامي وستكون الندوة الأولى عن « **مالية الدولة الإسلامية في صدر الإسلام** » وموضوع الندوة سيعالج:

١ ـ الميزانية
٢ ـ بيت المال ـ نشأته وتطوره.
٣ ـ الواردات.
٤ ـ النفقات.
٥ ـ نظام الأراضي.
٦ ـ الدواوين المالية.
٧ ـ السياسة المالية للدولة في مجالات الصناعة والزراعية والتجارة.
٨ ـ وظائف الدولة الاقتصادية.

وسيشارك فيها العديد من الباحثين المتخصصين..

وللباحث إضافة موضوعات يراها تتعلق بموضوع الندوة، على أن تغطي الدراسة والبحوث في موضوع الندوة **الجانب التاريخي** « العملي والتطبيقي»، «**والجانب النظري، والفكري**».

● الأربعاء ٦ رمضان ١٤٠٦هـ الموافق ١٤ مايو ١٩٨٦م، ترأس صاحب السمو الملكي الأمير «**سلطان بن عبدالعزيز**» النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء، ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام، الاجتماع الأول للجنة المكلفة بوضع مشروع النظام الأساسي لمؤسسة «الملك عبدالعزيز الإسلامية» التي أمر جلالة الملك «**فهد بن عبدالعزيز**» المفدى بإنشائها تقديراً واعترافاً بدور جلالة «**الملك عبدالعزيز**» «رحمه الله» في خدمة الإسلام والمسلمين؛ وتم خلال الاجتماع مناقشة وضع مشروع نظام أساسي للمؤسسة يوضح أهدافها وأغراضها ومجالات عملها مواردها المالية وكيفية ممارسة نشاطها وما يتطلبه عملها من وسائل لتحقيق أغراضها.

وقد تم اختيار صاحب السمو الملكي الأمير «**سلمان بن عبدالعزيز**» أميناً عاماً للجنة، كما تم تشكيل لجنة تحضيرية لوضع هذه الأهداف، ومن ثم عرضها على اللجنة الأساسية.

تاريخ في صور

الكعبة المشرفة في صور تاريخية

FLAG PATTERNS AND THE SULTAN'S CORTEGE IN THE HAFSID STATE

Dr. Muhammad Fayyâdh Abu Diyâk

Abstract

The paper provides a brief survey of the royal insignia used by the Almoravids (Murâbits) and Almohads (Muwahahids). The paper then concentrates on the royal corteges and insignia in the Hafsîd state. The various patterns and types of the Hafsîd ensigns and colors are differentiated, and explanations are provided on the significations of each.

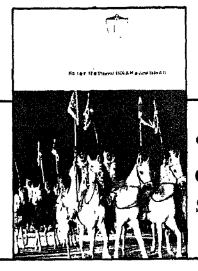
The paper also discusses the ceremonial vestments of the Hafsîd sultan, and how they differed from the robes of the neighboring rulers. The Hafsîd ruler wore a crown similar to those of the European kings, and the fastidious elegance of his garments contrasted with the robes of the neighboring rulers, such as the Marînîds and the Banu al-Ahmar.

The paper also points to the intensity of the cortege which accompanied the Hafsîd sultan to a mosque or during a stroll or campaign. The sultan precautiously kept a large escort of mounted bodyguards in alertness against an assasination attempt which had become a real danger at those times, particularly in the nearby Granada. Nevertheless, the sultan's powerful cortege signified the pomp and splendor of the Hafsîd state, whereas the processions of the early Marînîd rulers were marked by simplicity, and one encounters no evidence of ceremonial processions in the case of Granada until 755 H./1354 AD.

The paper also refers to the various coins minted in different Hafsîd cities. These coins are distinguished by the fineness of their form and the soundness of their weight. The expressions on each coin indicate the name of the reigning sultan and the town where it was minted.

An appendix is provided at the end of the paper to indicate the names of the Hafsîd sultans, the duration of their reigns, and the dates of their death or deposition.





Cover Picture:

Conference Slogan

The writers' views do not necessarily reflect those of the magazine.

Articles are arranged technically regardless of the writer's prestige.

Annual Subscriptions :

- Saudi Arabia : 20 Riyals.
- Arab **Countries :** The equivalent of 4 issues price.
- Non-Arab Countries : US 6 $.

Articles can not be returned to authors whether published or not.

● PRICE PER ISSUE ●

— **Saudi Arabia**	: 3 Riyals
— **U. A. E.**	: 4 Dirhams
— **Qatar**	: 4 Riyals
— **Egypt**	: 35 Piastres
— **Morocco**	: 5 Dirhams
— **Tunisia**	: 400 Milliemes
— **Non-Arab Countries**	: 1 U.S. $

Saudi Arabia : Al-Greisy Distributing Est., P.O. Box 1405. Riyadh. Tel.: 4022564.

Abu-Dhaby : P.O. 'ox 3778, Abu Dhaby, Tel.: 323011.

Dhubai : Dar-Al-Hikma Library. P.O. Box 2007, Tel.: 228552.

Qatar : Dar-Al-Thakafa. P.O. Box 323, Tel.: 413180.

Bahrain : Al-Hilal Distributing Est.,Manama. P. O. Box 224, Tel.: 262026.

Egypt : Al-Ahram Distributing Est., Al-Gataa Street, Cairo, Tel.: 755500.

Tunisia : The Tunisian Distributing Company 5, Nahg Kartaj.

Morocco : Al-Sharifia Distributing Company, P.O. Box 683, Casablanca, 05.



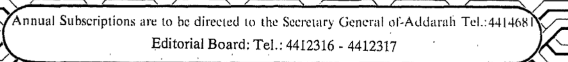


All correspondence should be directed to the Editor-in-Chief. Tel.: 4417020

Editorial Director: Tel.: 4414681

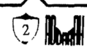






Annual Subscriptions are to be directed to the Secretary General of-Addarah Tel.:4414681

Editorial Board: Tel.: 4412316 - 4412317





IN THE
NAME OF ALLAH.
THE MERCIFUL.
THE BENEFICENT



An Academic Quarterly
Issued by: King Abdul Aziz Research Centre

No. 1 • Y. 12 • Shawwal 1406 A.H. • june 1986 A.D.

King Abdul Aziz Research Centre

— Established by a Royal Decree No. M/ 45 dated 5/8/1392 A.H. as an autonomous body with independent jurisitic identity.

— Run by a Board of Directors vested with full authority to have its objectives materialized.

Objectives:

— To further studies pertaining to the history of the Kingdom, its geography, literature, intellectual and cultural heritage in particular as well as those of the Arab and Islamic world in general.

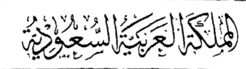
— Issue a cultural magazine carrying its name. **ADDARAH.**

— In accordance with the Royal approval No. 5/12608 dated 20/5/1396 A.H. the Centre has become the home of the National Saudi Archives and Manuscripts.

P. O. Box 2945 Riyadh 11461 Kingdom of Saudi Arabia

Facsimile No.: 00/966/1/4417020







دارة الملك عبد العزيز

✉ ٢٩٤٥ الرياض ١١٤٦١ ☎ ٤٤١٢٣١٦ ـ ٤٤١٢٣١٧
رقم الفاكسيميل ٤٤١٧٠٢٠ ١ ٩٦٦ ٠٠

١٤٠٧ هجرية
1407 H.D

Day	اليوم	محرم SEP. 86		صفر OCT.		ربيع الأول NOV.		ربيع الآخر DEC. 86		جمادى الأولى JAN. 87		جمادى الآخرة FEB.	
FRI.	الجمعة	5	١									30	١
SAT.	السبت	6	٢	4	١							31	٢
SUN.	الأحد	7	٣	5	٢							1	٣
MON.	الأثنين	8	٤	6	٣	3	١					2	٤
TUES.	الثلاثاء	9	٥	7	٤	4	٢	2	١			3	٥
WED.	الأربعاء	10	٦	8	٥	5	٣	3	٢			4	٦
THU	الخميس	11	٧	9	٦	6	٤	4	٣	1	١	5	٧
FRI.	الجمعة	12	٨	10	٧	7	٥	5	٤	2	٢	6	٨
SAT.	السبت	13	٩	11	٨	8	٦	6	٥	3	٣	7	٩
SUN.	الأحد	14	١٠	12	٩	9	٧	7	٦	4	٤	8	١٠
MON.	الأثنين	15	١١	13	١٠	10	٨	8	٧	5	٥	9	١١
TUES.	الثلاثاء	16	١٢	14	١١	11	٩	9	٨	6	٦	10	١٢
WED.	الأربعاء	17	١٣	15	١٢	12	١٠	10	٩	7	٧	11	١٣
THU	الخميس	18	١٤	16	١٣	13	١١	11	١٠	8	٨	12	١٤
FRI.	الجمعة	19	١٥	17	١٤	14	١٢	12	١١	9	٩	13	١٥
SAT.	السبت	20	١٦	18	١٥	15	١٣	13	١٢	10	١٠	14	١٦
SUN.	الأحد	21	١٧	19	١٦	16	١٤	14	١٣	11	١١	15	١٧
MON.	الأثنين	22	١٨	20	١٧	17	١٥	15	١٤	12	١٢	16	١٨
TUES.	الثلاثاء	23	١٩	21	١٨	18	١٦	16	١٥	13	١٣	17	١٩
WED.	الأربعاء	24	٢٠	22	١٩	19	١٧	17	١٦	14	١٤	18	٢٠
THU	الخميس	25	٢١	23	٢٠	20	١٨	18	١٧	15	١٥	19	٢١
FRI.	الجمعة	26	٢٢	24	٢١	21	١٩	19	١٨	16	١٦	20	٢٢
SAT.	السبت	27	٢٣	25	٢٢	22	٢٠	20	١٩	17	١٧	21	٢٣
SUN.	الأحد	28	٢٤	26	٢٣	23	٢١	21	٢٠	18	١٨	22	٢٤
MON.	الأثنين	29	٢٥	27	٢٤	24	٢٢	22	٢١	19	١٩	23	٢٥
TUES.	الثلاثاء	30	٢٦	28	٢٥	25	٢٣	23	٢٢	20	٢٠	24	٢٦
WED.	الأربعاء	1	٢٧	29	٢٦	26	٢٤	24	٢٣	21	٢١	25	٢٧
THU	الخميس	2	٢٨	30	٢٧	27	٢٥	25	٢٤	22	٢٢	26	٢٨
FRI.	الجمعة	3	٢٩	31	٢٨	28	٢٦	26	٢٥	23	٢٣	27	٢٩
SAT.	السبت			1	٢٩	29	٢٧	27	٢٦	24	٢٤	28	٣٠
SUN.	الأحد			2	٣٠	30	٢٨	28	٢٧	25	٢٥		
MON.	الأثنين					1	٢٩	29	٢٨	26	٢٦		
TUES.	الثلاثاء							30	٢٩	27	٢٧		
WED.	الأربعاء							31	٣٠	28	٢٨		
THU	الخميس									29	٢٩		
FRI.	الجمعة												

١٩٨٧/٨٦ ميلادية
86/1987 A.D.

Day	اليوم	رجب MAR.		شعبان APR.		رمضان MAY		شوال JUNE		ذوالقعدة JULY.		ذوالحجة AUG. 87	
FRI.	الجمعة												
SAT.	السبت									27	١		
SUN.	الأحد	1	١							28	٢	26	١
MON.	الأثنين	2	٢	30	١					29	٣	27	٢
TUES.	الثلاثاء	3	٣	31	٢					30	٤	28	٣
WED.	الأربعاء	4	٤	1	٣	29	١			1	٥	29	٤
THU	الخميس	5	٥	2	٤	30	٢	28	١	2	٦	30	٥
FRI.	الجمعة	6	٦	3	٥	1	٣	29	٢	3	٧	31	٦
SAT.	السبت	7	٧	4	٦	2	٤	30	٣	4	٨	1	٧
SUN.	الأحد	8	٨	5	٧	3	٥	31	٤	5	٩	2	٨
MON.	الأثنين	9	٩	6	٨	4	٦	1	٥	6	١٠	3	٩
TUES.	الثلاثاء	10	١٠	7	٩	5	٧	2	٦	7	١١	4	١٠
WED.	الأربعاء	11	١١	8	١٠	6	٨	3	٧	8	١٢	5	١١
THU	الخميس	12	١٢	9	١١	7	٩	4	٨	9	١٣	6	١٢
FRI.	الجمعة	13	١٣	10	١٢	8	١٠	5	٩	10	١٤	7	١٣
SAT.	السبت	14	١٤	11	١٣	9	١١	6	١٠	11	١٥	8	١٤
SUN.	الأحد	15	١٥	12	١٤	10	١٢	7	١١	12	١٦	9	١٥
MON.	الأثنين	16	١٦	13	١٥	11	١٣	8	١٢	13	١٧	10	١٦
TUES.	الثلاثاء	17	١٧	14	١٦	12	١٤	9	١٣	14	١٨	11	١٧
WED.	الأربعاء	18	١٨	15	١٧	13	١٥	10	١٤	15	١٩	12	١٨
THU	الخميس	19	١٩	16	١٨	14	١٦	11	١٥	16	٢٠	13	١٩
FRI.	الجمعة	20	٢٠	17	١٩	15	١٧	12	١٦	17	٢١	14	٢٠
SAT.	السبت	21	٢١	18	٢٠	16	١٨	13	١٧	18	٢٢	15	٢١
SUN.	الأحد	22	٢٢	19	٢١	17	١٩	14	١٨	19	٢٣	16	٢٢
MON.	الأثنين	23	٢٣	20	٢٢	18	٢٠	15	١٩	20	٢٤	17	٢٣
TUES.	الثلاثاء	24	٢٤	21	٢٣	19	٢١	16	٢٠	21	٢٥	18	٢٤
WED.	الأربعاء	25	٢٥	22	٢٤	20	٢٢	17	٢١	22	٢٦	19	٢٥
THU	الخميس	26	٢٦	23	٢٥	21	٢٣	18	٢٢	23	٢٧	20	٢٦
FRI.	الجمعة	27	٢٧	24	٢٦	22	٢٤	19	٢٣	24	٢٨	21	٢٧
SAT.	السبت	28	٢٨	25	٢٧	23	٢٥	20	٢٤	25	٢٩	22	٢٨
SUN.	الأحد	29	٢٩	26	٢٨	24	٢٦	21	٢٥			23	٢٩
MON.	الأثنين			27	٢٩	25	٢٧	22	٢٦			24	٣٠
TUES.	الثلاثاء			28	٣٠	26	٢٨	23	٢٧				
WED.	الأربعاء					27	٢٩	24	٢٨				
THU	الخميس							25	٢٩				
FRI.	الجمعة							26	٣٠				

مع تحيات مجلة الدارة

اليوم الوطني للمملكة .

الإجازات الرسمية .

إفتتاح المؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبد العزيز عا ١٤٠٦هـ، الذي أعلن فيه جلالة الملك «فهد بر عبد العزيز» المفدى، تحويل دارة الملك عبد العزيز إل «مؤسسة الملك عبد العزيز الإسلامية».



No. 1 ● Y. 12 ● Shawwal 1406 A.H. ● June 1986 A.D.



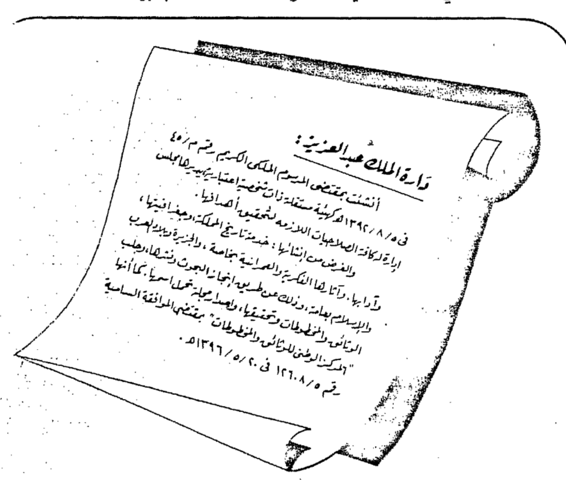




مجلة فصلية محكمة

تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز

العدد	السنة	المحرم ١٤٠٧هـ
الثاني	الثانية عشرة	سبتمبر ١٩٨٦م



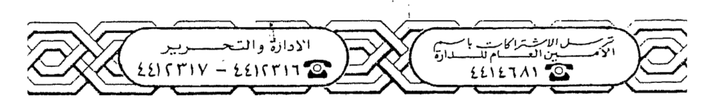
دارة الملك عبدالعزيز:

أنشئت بمقتضى المرسوم الملكي الكريم رقم م/٤٥
في ٥/٨/١٣٩٢هـ كهيئة مستقلة ذات شخصية اعتبارية يديرها مجلس
إدارة له كافة الصلاحيات اللازمة لتحقيق أهدافها.
والغرض من إنشائها: خدمة تاريخ المملكة وجغرافيتها،
وآدابها وآثارها الفكرية والعمرانية بخاصة، والجزيرة وبلاد العرب
والإسلام بعامة، وذلك عن طريق إنجاز البحوث ونشرها، وجلب
الوثائق والمخطوطات وتحقيقها، وإصدار مجلة تحمل اسمها. كما أنها
"المركز الوطني للوثائق والمخطوطات" بمقتضى الموافقة السامية
رقم ٥/٨/١٢٦٠ في ٢٠/٥/١٣٩٦هـ.

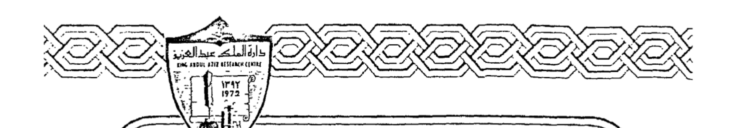
☒ ٢٩٤٥ الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية

رقم الفاكسيملي: ٠٠/٩٦٦/١/٤٤١٧٠٢٠





ترسل الاشتراكات باسم
الأمين العام للدارة
٤٤١٤٦٨١
الادارة والتحرير
٤٤١٢٣١٦ - ٤٤١٢٣١٧



دارة الملك عبدالعزيز
KING ABDUL AZIZ RESEARCH CENTRE
١٣٩٢
1972



ترسل المقالات باسم
رئيس التحرير
٤٤١٧٠٩٠
مدير التحرير
٤٤١٤٦٨١



• آراء الكتّاب لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة •

• ترتيب البحوث داخل العدد يخضع لأسباب فنية لاعلاقة لها بمكانة الكاتب..

• لاتُردّ البحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر..

• ترسل البحوث سرياً إلى محكّمين ويتم نشرها بعد النظر في صلاحيتها للنشر.

* الاشتراكات السنوية *

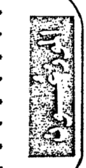
- ٢٠ ريالا للاشتراك السنوي داخل المملكة العربية السعودية.

- وفي البلاد العربية ما يعادل القيمة لأربعة أعداد في كل بلد.

- ٦ دولارات خارج البلاد العربية.

سعر العدد

السعودية : ثلاثة ريالات - الإمارات العربية أربعة دراهم
- قطر : أربعة ريالات - مصر ٣٥ قرشاً - المغرب خمسة دراهم - تونس ٤٠٠ مليم
خارج البلاد العربية : دولار للعدد



• السعودية : مؤسسة الجريسي للتوزيع
ص.ب ١٤٠٥ الرياض - ت ٤٠٢٢٥٦٤

• أبو ظبي : مكتبة المنهل
ص.ب ٣٧٧٨ أبو ظبي - ت ٣٢٣٠١١

• دبي : مكتبة دار الحكمة
ص.ب ٢٠٠٧ - ت ٢٢٨٥٥٢

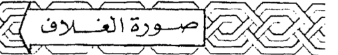
• قطر : دار الثقافة
ص.ب ٣٢٣ - ت ٤١٣١٨٠

• البحرين : مؤسسة الهلال للتوزيع
ص.ب ٢٢٤ المنامة - ت ٢٦٢٠٢٦

• مصر : مؤسسة الأهرام للتوزيع
شارع الجلاء - القاهرة ت ٧٥٥٥٠٠

• تونس : الشركة التونسية للتوزيع
٥ نهج قرطاج

• المغرب : الشركة الشريفية للتوزيع
ص.ب ٦٨٣ الدار البيضاء ٥.





● صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز وسمو الأمير تشارلز ولي عهد برطانيا وقرينته في افتتاح معرض الرياض بين الأمس واليوم في لندن .

في هذا العدد

الدارة .. أول روافد مؤسسـ

وإذ أكتب عن مؤسسة الملك عبد العزيز الإسلامية فإني أتشرف برؤية واضحة لهذه المؤسسة ، وما كان ذلك مني عن انتسابي إليها كأحد أبنائها ، وبالأحرى كأحد خادميها ، وإنما أكتب عنها عفواً في مجلس أمانة «دارة الملك عبد العزيز» وكرئيس تحرير لمجلتها، لهذا لا أكتب من فراغ ، ولا عن تفرغ ، فدارة الملك عبد العزيز ومجلتها نواة لمؤسسة الملك عبد العزيز الإسلامية ، أو هي بالأحرى الرافد الأول لها ، فمؤسسة الملك عبد العزيز جمّاعة ، جامعة ، تسترفد كل الروافد ، لاتفرق ولا تبدد ، بل هي تبني بالتطوير ، ولا تهدم بالتغيير ، فما من مؤسسة إلا وهي رافد بالإتساق والتنسيق ، وحتى الإرتفاق .

الجنادرية رافد ، والآثار ومعالم العمران في مشروع الرياض بين الأمس واليوم رافد ، فالعرض له يعطيه أنه من المؤسسة ولها وبها وعنها ، لأن الملك عبد العزيز كل مافي هذا الكيان الكبير هوله ــ وهوبه ، فالمؤسسة الجديدة إعراب عن الوفاء له. ، لأنه جاهد فإذا الكيان الكبير «المملكة العربية السعودية» هي بكل شيء . . .



بقلم رئيس التحرير

مؤسسة الملك عبد العزيز الإسلامية

وقبل أي شيء . . . وبأي شيء . . . مؤسسة الملك عبد العزيز .

إن مجلة الدارة ، ومجلسها وأمانتها ، ماهي إلا النواة والرافد .

من هنا أرجو أن تكون الدارة الأمانة والمجلة ، قد أعدت نفسها لتكون عطاء للمؤسسة ، لأنها من عطاء المؤسسة .

كل شبر في هذه الأرض لابد وأن تحته تاريخ ، وفوق ترابه مجد ، فكان عمل عبد العزيز ، الإمام ، السلطان ، الملك ، هو الذي قال للتاريخ : تكلم ، وقال للمجد : ارفع رأسك .

يرحم الله الملك عبد العزيز ، أقوى سلاح في يديه ، الأمن والأمانة في ظل كلمة التوحيد . ويحفظ الله جلالة الملك «فهد بن عبد العزيز» الذي يحافظ ويصون تراث الآباء والأجداد . . .

«محمد حسين زيدان»

اليوم الوطني
وجهود الملك عبدالعزيز الاصلاحية

الأستاذ عبدالله حمد الحقيل

حينما تمر بنا ذكرى اليوم الوطني فإننا نتذكر فيه يوماً من أعز أيامنا سجله التاريخ بأحرف من نور على صفحاته الخالدة حيث جاء تتويجاً لعمل خالد عظيم قاده المؤسس البطل «عبد العزيز بن عبدالرحمن آل سعود» رحمه الله ، ولم يكن طريقاً سهلاً ، ولكن بنصر الله وإرادته تحققت الوحدة عملاً وتطبيقاً وتعاوناً وإيماناً ، وكان الهدف إعلاء كلمة الله ورفع راية الحق والقرآن الكريم ، لقد كان عمله رحمه الله انجازاً تاريخياً هائلاً . . كانت له الآثار الكبرى التي امتدت لمختلف أرجاء المملكة العريقة ، وكان النجاح والتوفيق والاستقرار والاصلاح والخير والازدهار واتبع في مساره الفكري والعملي شريعة الإسلام على مثال من الاخوة والعدالة والمساواة ، لقد برز الملك عبد العزيز في حقبة تاريخية مليئة بالظروف القاسية ولكن قوته وصبره ومؤهلاته القيادية ووعيه للتاريخ وشخصيته المتعددة الجوانب مكنته من القدرة على النجاح والاصلاح والوحدة . .

إن كل خصاله العبقرية مكنته من إقامة دولته تحت راية القرآن ومنهج الإسلام الصحيح . .

وإن ذكرى اليوم الوطني لهي انطلاقة خير وإشراقه نهضة وتطور . .

وإن الأمم لتسعد دائماً بأيامها الخالدة وتعي ماتحمله من وقائع وأحداث ، وتقوم بتحليلها وشرح أهدافها وأبعادها ، ومنذ أن توحدت هذه البلاد وهي تخطو بخطى واثقة نحو تحقيق أهدافها النبيلة ، وفي سعيها الحثيث في مضمار الحضارة وميدان الرقي .

وبفضل الله انتصرت المملكة على مختلف التحديات وحققت أعظم المنجزات الحضارية .

إننا ونحن نتذكر اليوم الذكرى الخامسة والخمسين للوحدة المباركة الميمونة التي قادها المؤسس في سبيل جمع شمل هذه الأمة وتوحيد كلمتها في حقبة تاريخية دقيقة . نذكر أن هذه الوحدة لم تكن معجزة بقدر ماهي موهبة وعطاء وإيمان . فقد كانت كلمة التوحيد ونعمة

التوفيق رمزاً عظيماً ونصراً كبيراً حيث رفرفت كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» التي استقرت على مبدأ عظيم ودستور خالد هو القرآن الكريم والسنة المطهرة، ولقد عمل رحمه الله على تركيز الإيمان وترسيخه في النفوس صافياً نقياً كما أوضحه نبي الهدى والرحمة كما عمل على تنقية العقيدة وسلامتها من الوثنية والشرك والانحراف. فلهذا الهدف النبيل كان العمل والتحرك حتى تحقق بفضل الله ما أراد من جمع المسلمين على كلمة التوحيد وإعلاء كلمة الله .

حقاً إن شخصية الملك عبد العزيز ومواهبه ومكوناته التاريخية تحتاج إلى دراسة عميقة وشرح واسع فما أكثر المنجزات التي تحتاج إلى دراسة متأنية وفهم لوقائع التاريخ وأحداثه، ولا ننسى في هذا المجال أن نشيد بدور المؤرخين والكتاب سواء من داخل البلاد أو خارجها الذين تضافرت جهودهم وأقلامهم على تناول تلك الجوانب وخدمتها احتراماً وتقديراً من جانبهم لمكانة الملك عبد العزيز وتاريخه وشخصيته ومنجزاته وخلقه وفضائله.. وذلك من خلال مؤلفات وبحوث عديدة»..

وإن الأمل لكبير في مؤسسة الملك عبد العزيز الإسلامية والتي سيكون لها شأن كبير، بإذن الله ، ثم بفضل جهود وتوجيهات جلالة الملك فهد حفظه الله، الذي تلطف فوضع اللبنة الأولى لبنائها الشامخ ، وغرس النبتة المنتقاة لتنمو منها الشجرة المورقة، وتتفرع عنها الأفرع الباسقة، وتنضج الثمرة اليانعة ولتكون قاعدة راسخة للعلم. ومركزاً مرموقاً للبحث والمعرفة والتأصيل العلمي والمنهجي نحو سيرة الملك عبد العزيز وتاريخ المملكة، ولتكون مركز اشعاع فكري وتراثي، ومعيناً ينهل منه الباحثون والمفكرون والمؤرخون لخدمة المعرفة والبحث التاريخي والعلمي دراسة وفقها واستنباطاً، وكذا جمع الوثائق وحفظ المخطوطات ونشر التراث وغير ذلك من الأهداف الضخمة والطموحات العديدة والأعمال الجليلة لخدمة العلم والمعرفة والإسلام والمسلمين وإعداد موسوعة جغرافية تاريخية ضخمة عن تاريخنا عبر عصوره المختلفة. وإقامة مؤتمرات وندوات وحلقات علمية، وعمل دورات دراسية لإعداد دعاة يخدمون الإسلام والمسلمين، وباحثين يخدمون التاريخ الوطني والإسلامي بصفة عامة.

وإن هذه البلاد التي أكرمها الله برسالة الإسلام، ورفع راية القرآن، مصدر البطولات والعطاء والتاريخ والفصاحة والبيان والعبقريات لجديرة برفع أعلام العلم وإشادة صروح المعالي والمعرفة والتاريخ.

حقق الله الآمال ووفق الجميع لما يحبه ويرضاه

هجرة السكان إلى مدن جنوب غرب المملكة العربية السعودية

دوافعها وآثارها

د. عبد الرحمن صادق الشريف

ملخص البحث :ــ

بدأت المملكة مرحلة التطور الاقتصادي حينما توفرت فرص العمل في مناطق التحديث، فجذبت الشباب من الأقاليم النائية والريفية مثل اقليم جنوب غرب المملكة مما أدى إلى تضاؤل زيادة سكان تلك الأقاليم. ولكن حينما شرعت هذه المناطق في اقامة المشاريع الحكومية والمرافق العامة والخدمات المختلفة والتي تركزت في مدنها تزايدت فيها فرص العمل وتحولت إلى مراكز جذب وطرد للسكان في آن واحد، فكان سكان المنطقة يجتمعون في المدن لاستئناف هجرتهم إلى مدن المملكة الكبرى. فجذبت المهاجرين من منطقتها ومن المناطق الأخرى ومن خارج المملكة فاتسعت مساحتها وتضاعف عدد سكانها في غضون ١٦ عاماً.

وقد أدى استمرار هذه الظاهرة إلى ظهور مشاكل عديدة داخل المدن، وإلى تناقص سكان ريف وبادية المنطقة وما يتبع ذلك من تدهور في انتاج المواد الغذائية. ولا يوقف هذا التدهور سوى تطوير المناطق الريفية بإيجاد فرص أعمال جديدة؛ كتطوير الموارد المائية والانتاج الزراعي، وإنشاء مزارع لتنمية الثروة الحيوانية والداجنة، وتحويل بعض الجهات إلى مصايف بإنشاء القرى السياحية والطرق ونشر الخدمات المختلفة. ويتم ذلك من خلال تخطيط اقليمي شامل يعيد التوازن إلى سكان مدن وقرى هذه المنطقة.

مقدمـــة :ــ

ان قدم استيطان اقليم جنوب غرب المملكة العربية السعودية يعني حدوث دورات عديدة من تبدل السكان وتوازنهم مع الموارد، أو اعادة توزيعهم في الاقليم. غير ان الظروف القديمة بدأت تتغير منذ نحو نصف قرن. بحيث اختفت الحروب والغزوات وتوقفت المجاعات وتم الاستقرار بتبعيتها للحكم المركزي بعد تأسيس المملكة، وأخذت المنطقة سبيلها إلى الازدهار والتحديث. غير ان حركة السكان لم ولن تتوقف، ولكن دوافع حركتهم قد تغيرت وأسباب اعادة توزيعهم قد اختلفت بحيث تطورت أساليب استغلال الإنسان للموارد، وتغيرت التقنية وأساليب الإنتاج كما تغيرت الروابط الاجتماعية والثقافية. وبعبارة أخرى فإن حركة السكان اتخذت مظاهر جديدة تتناسب والتطورات الجديدة.

أهداف البحث :ــ

يهدف هذا البحث إلى دراسة ملامح التغير الناتج عن هجرة السكان من مدن جنوب غرب المملكة العربية السعودية وإليها، وهي مدن صغيرة أو متوسطة الحجم. وسنعتمد في هذه الدراسة ــ وبحذر ــ بالإضافة إلى بيانات احصاء سكان المملكة لسنة ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م) على دراسات الشركات الاستشارية التي استعانت بها الدولة في أمور تخطيط منطقة الدراسة[١]. وقد أجرى كل منهم مسحاً عينياً بنسبة ٥٪ للمناطق المناطه دراستها بهم. ويعود الحذر إلى صعوبة الاعتماد على هذه المصادر بسبب تعددها واختلاف الأسس التي اعتمد كل منهم عليها واختلاف أوقات إجرائها.

تمهيـد :ــ

نالت جغرافية المدن نصيباً لا بأس به من الدراسات الحديثة في المملكة العربية السعودية، غير أن بعض التغيرات المرتبطة بحركة التمدن لم تنل بعد ماتستحقه من بحث، مثل تلك

التغيرات التي تتعلق بمواقع الاستقرار الصغيرة. ولاننكر أن تغير مواقع السكان ظاهرة قديمة ولو اختلفت دوافعها في الزمان والمكان. إذ خرج العرب ــ على سبيل المثال ــ وكما روى النسابون من اليمن على شكل موجات متتابعة، وتجولوا على حالة البداوة إلى أن استقرت جماعات منهم حول موارد المياه. ومن أقدم القبائل العربية التي استقرت لاستنبات الأرض جماعة من الازد سلكوا ابتداء من اليمن الطريق الجبلي باتجاه الشمال والشمال الغربي، فسكنوا الجبال والوديان وآثروا الانعزال فيها وزراعتها.

كانت القبائل القوية تسود في المناطق الزراعية حينها تحكم سيطرتها على المناطق المجاورة، وكانت سيطرتهم تدوم إذا حققت التوازن بين عدد السكان والموارد الغذائية المتاحة، فكانت الجماعة تزدهر ويزداد عدد سكانها في السنوات الخيرة، وتضعف وتتضعضع إذا تعرضت لتقلبات مناخية أو لكوارث طارئة وينتهي الأمر ــ بالضرورة ــ بالتخلص من الزيادة السكانية بالطريقة المالتسية[٢]:

ومع أن الهجرة كعملية نزوح سكانية مستمرة كانت شائعة، فإن الحروب والنوائب الطبيعية وما ينتج عنها من مجاعات أو ابادة حقائق تاريخية. ولذلك كان التحصن في القرى والمدن، والانتقام وحوادث الثأر حقائق تاريخية أيضاً، ينتج عن كل منها حركات ارادية أو قسرية للسكان. ومن ناحية أخرى فإن ازدهار خط التجارة البري أو اضمحلاله أو تغير موقعه وتبدل أهمية الأسواق، أو تقوض الزعامات المحلية، أو حصول تدخل أجنبي، كسيطرة العثمانيين،كل ذلك ومايتبعه من جذب أو طرد للسكان كان يسبب حركات معينة لهم.

منطقة جنوب غرب المملكة :ــ

نقصد بجنوب غرب المملكة ــ خدمه لأغراض هذا البحث ــ المنطقة الواقعة بجوار البحر الأحمر فيما بين خط الحدود السعودية اليمنية جنوباً وحتى نهاية حدود إمارة الباحة شمالاً أي بين

خطي عرض ٢٢ ٣٢ ١٦°ش، ٤٠ ٢٠°ش وتشمل أقاليم تهامه وجبال السروات والهضاب التي تليها شرقاً (شكل ١) وتبلغ مساحتها حسب هذا التحديد نحو ١٣٥٠٠٠كم٢ أي ٦ ٪ من مساحة المملكة.

تتكون هذه المنطقة الواسعة من أربع وحدات إدارية (امارات) هي: جيزان وعسير والباحة ونجران باستثناء الجزء الشرقي من الامارة الأخيرة لوقوعه في اقليم الصحاري الداخلية، وجزءاً من إمارة مكة المكرمة يضم منطقتي البيرك والقنفذة.

يعيش في منطقه جنوب غرب المملكة نحو ٢١ ٪ من مجمل سكانها إذ بلغوا ١,٤٥٠,٠٠٠ في سنة ١٩٧٤م توزعوا في ٩٤٢٥ قرية ومدينة أي ٦١ ٪ من مجمل عدد القرى والمدن في المملكة.

وتشير هذه الأرقام أنه تم توزيع السكان فيها بشكل يفضل توزيعه في المناطق الأخرى وارتفعت فيها الكثافة السكانية، (١١ نسمة/كم٢ سنة ١٩٧٤م بالقياس إلى ٣/كم٢ في المملكة) ويعود السبب في ذلك إلى ظروفها المناخية، والتي انعكست في تفاوت نسب العاملين في مجالات الانتاج إذ يعمل معظم السكان في الانتاج الزراعي أو الحيواني في الريف وفي البادية حيث يتمثل في هذه المنطقة دون سواها تقريباً الريف الزراعي بمعناه الحقيقي، وقد شكل الريفيون حسب أرقام ذلك الإحصاء ٥٧ ٪ من المجموع وشكل البدو ٢٥ ٪ وسكن الباقون (أي ١٨ ٪) في المدن.

فالزراعة تتركز على السفوح العليا للجبال أو في أحواض الوديان. وتعتمد في معظم هذه المساحات إما على الأمطار مباشرة أو بطريقة غير مباشرة بأسلوب ري الحياض من الفيضان. وبذلك تسود فيها الزراعة التقليدية الضعيفة الإنتاجية والضئيلة العائد. ويتركز البدو في الغالب في أحواض الوديان الأخرى أي التي لا تتوفر فيها الشروط الملائمة للاستقرار الزراعي.

أما المدن فقد وجدت مبعثرة في وسط المناطق الريفية، وقد بلغ عددها نحو خمسين مدينة معظمها مدن صغيرة، ولا تزال تحتفظ بالمظاهر الريفية؛ إذ لم يتجاوز تقدير سكان كل من ٣٢ مدينة منها ثلاثة آلاف نسمه في سنة ١٤٠٢هـ. وذلك لأن الدولة تعتبر كل مركز إمارة فرعية مدينة مهما كان عدد سكانها. وفيما يلي جدول بتقدير سكان المدن التسع الأولى في المنطقة فيما بين سنه ١٣٩٤ إلى سنة ١٤٠٢هـ:

جدول رقم « ١ »

تقدير سكان مدن جنوب غرب المملكة (المدن التي يزيد سكانها عن ١٠٠٠٠ نسمة سنة ١٤٠٢هـ).

الرقم	المدينة	١٣٩٤هـ	١٣٩٨هـ	١٤٠٢هـ	معدل الزيادة السنوية ٪	نسبة السعوديين سنة ١٤٠٢
١	خميس مشيط	٤٨١٩٧	٥٥٣٢٠	٦٦٣٤٩	٪ ٤،٦٥	٪٩١,٩
٢	أبها	٣٠٣٠٤	٣٨٦٣٠	٤٧١٣٤	٪ ٥,١	٪٧١,٥
٣	جيزان	٣٢٧٩٢	٣٧٧٧٥	٤٣٥١٦	٪ ٣,٦	٪٨٤,٤
٤	نجران	٢٩٦٠٠	٣٤٨٩٥	٤١١١٤	٪ ٤,٢	٪٧٥,٣
٥	الباحة	١٥٣٠٠	١٩٦٦٣	٢٥٤١٣	٪ ٦,٥	٪٨٨,٤
٦	صبيا	١٣٤٦٢	١٦٠٥٣	١٩١٤٤	٪ ٤,٥	٪٩٠,٠
٧	بيشه	١٠٦٧٨	١٣٥٨٢	١٧٢٧٧	٪ ٦,٢	٪٨٥,٨
٨	أبو عريش	١٢٢٧٢	١٤٣٥٧	١٦٧٩٥	٪ ٤,٠	٪٩١,٥
٩	بلجرشي	٧٠٥٢	٨٥٧٢	١٠٤١٩	٪ ٥,٠	٪٩١,٨
	المجموع	١٩٩٨٠٧	٢٣٨٨٤٧	٢٨٧١٦١	٪ ٤,٤	٪٨١,١

المصدر: اعتمد في وضع أرقام هذا الجدول على تقارير الشركات المشار إليها وعلى احصاء السكان لعام ١٣٩٤هـ

يتضح من تحليل بيانات هذا الجدول الحقائق التالية :ـ

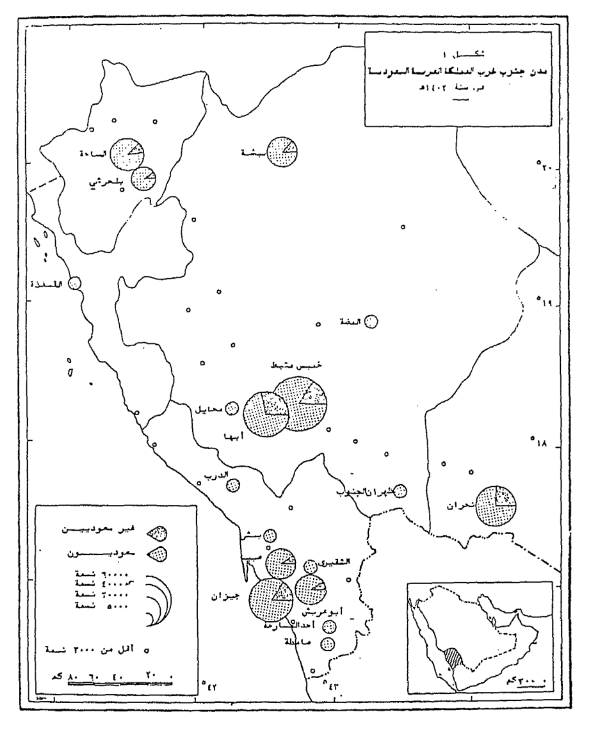
بلغ مجموع سكان أكبر تسع مدن في المنطقة نحو ٢٠٠,٠٠٠ نسمة، ولكن بلغ مجموع سكان جميع مدن المنطقة في سنة ١٣٩٤هـ ٢٦١١١٤ نسمة أي ما نسبته (١٨ ٪) من مجموع سكانها. وللمقارنة بلغت نسبة سكان مدن المملكة وقتئذ ٣٨ ٪ . ومع أن هذه المدن تعرضت لتغير سريع فيما بعد مما جعل تقدير سكانها يرتفع إلى نحو ٤٠٠٠٠٠ نسمة في سنة ١٤٠٢هـ ونسبتهم ترتفع إلى ٢٣ ٪ ، وجعل مدنها المهمة تمثل مراكز جذب قوية من داخل المملكة وخارجها (أنظر شكل ١) إلا أنها لم تضم سوى ١٧ ٪ من مجموع سكان المنطقة لأن حركة التمدن لم تبلغ فيها بعد ما بلغته في مناطق المملكة الأخرى. ومع ذلك فإن هذه الأرقام تشير إلى تنوع دوافع حركة السكان باتجاه المدن أو منها وإلى تباين نتائج تلك الحركات.

الدوافع الجديدة لهجرة السكان من مدن جنوب غرب المملكة وإليها :ـ

تشهد المملكة العربية السعودية تحولاً اقتصادياً كبيراً، من مظاهره تنمية موارد الدولة ومضاعفة امكانياتها على الصرف دون أن تكلف المواطنين بأي نصيب من تلك المصروفات، وصار بإمكانها تخصيص أرصدة كبيرة تصرف على أعمال التطوير والتحديث خاصة في البنية الأساسية والانشاءات الضخمة. وقد نتج عن ذلك حدوث حركات سكانية ذات نوع وكثافة وطبيعة مختلفة لما كان يحدث في الماضي. وقد اختلفت مظاهر الحركات حسب المراحل الإنمائية في المملكة ولذا يمكن أن نفرق بين مرحلتين هما:

المرحلة الأولى :ـ

وقد بدأت مع بداية عهد التطور الاقتصادي الحديث للمملكة العربية السعودية منذ نحو منتصف القرن العشرين، وكان من نتيجتها حدوث هجرة شبه منتظمة من مدن وقرى إقليم جنوب غرب المملكة إلى المناطق أو المدن التي سبقت غيرها في أولوية التطور مثل الرياض وجدة ومكة المكرمة ومناطق الإنتاج الحديث كمواقع الإنتاج البترولي ومراكز التجارة. وكان



شكل (١) مدن جنوب المملكة العربية السعودية في سنة ١٤٠٢هـ.

الدافع الرئيسي لتلك الهجرة، انخفاض مستوى المعيشة في المنطقة بالقياس إلى مناطق التطوير التي توسعت فيها أسواق العمل، بالإضافة إلى أسباب أخرى اجتماعية وتعليمية وغيرها. وكانت هذه الهجرة تنتقي الشباب من الذكور بين سن ١٥ ـ ٣٠ سنة أكثر من غيرهم في الغالب. وهذا يفسر عدة حقائق:

١ ـ زاد سكان هذا الإقليم خلال هذه الفترة بنسبة تقل عن معدل زيادة السكان في المملكة ففي حين بلغ معدل الزيادة السنوية في المملكة خلال الفترة من ١٩٦٢ ـ ١٩٧٤م نسبة ٦١ ٪ فقد بلغت ٥٥ ٪ في إمارة عسير، ٣٧ ٪ في إمارة الباحة و٠٨ ٪ في إمارة جيزان.

وقد حدث ذلك بالرغم من ارتفاع نسبة الزيادة الطبيعية. وهذا يشير بجلاء إلى فقدان الإقليم نسبة كبيرة من سكانه بسبب توجههم إلى مناطق التنمية.

٢ ـ تقهقر الانتاج الزراعي الذي يعتمد على مياه الأمطار مباشرة وذلك في المرتفعات الجبلية أو في سهول تهامة. وقد تبين ذلك من تناقص مساحة الأرض الزراعية إذ قدرت تلك المساحة في سهول جيزان في سنة ١٩٦٨م ١١٠٠٠٠٠ دونما (سوغريسا ١٩٦٩م) وقد تراجعت إلى ٤٣٨٨٠٧ دونما في سنة ١٩٧٤/٧٣م (وزارة الزراعة ١٩٧٧م). وقدرت مساحة الأرض الزراعية في عسير والباحة في السنة الأولى ب ٩١٧٥٠٠ دونما (ايطال كونسلت ١٩٦٩م) وتراجعت إلى ٥٨٣٨٠٩ دونما (بيانات وزارة الزراعة ١٩٧٧م الواردة في الكتاب الاحصائي السنوي). فقد شاعت ظاهرة المصاطب الدامرة في سفوح الجبال واتضحت، كما زادت الأراضي البور في سهول مناطق جيزان. وقد تناقصت الحاصلات الزراعية في هذه المناطق حتى أصبحت تعتمد على الاستيراد حتى في المنتوجات التي كانت لوقت قريب، تفيض عن حاجة السكان.

٣ ـ تقهقر البادية وتناقص عدد وقيمة الثروة الحيوانية التي يمتلكونها واتجاه نسبة كبيرة من البدو إلى الاستقرار في المدن خاصة، واضطرار المنطقة إلى استيراد الحيوانات والمنتوجات

الحيوانية، رغم أنها أغنى مناطق المملكة بهذه الثروة، وكان الفائض من منتوجاتها يجد سبيله إلى أسواق الحجاز. ومن مظاهر تحول البدو إلى سكن المدن وجود أكواخ الصفيح (الصنادق) في المدن وحتى في بعض القرى وجوار محطات الطرق الحديثة، لاشتغالهم في بعض النشاطات الجديدة والخدمات في الموطن الجديد.

٤ ــ تتقهقر الإقليم عامة عن مسايرة الأقاليم الأخرى في مظاهر التحديث والتي يمكن أن نتخذ لتوضيح ذلك عدة مؤشرات: (أ) بالرغم من أن نصيب الإقليم من السكان يزيد عن ٢١ ٪ من سكان المملكة، فإن نصيب الأطفال المسجلين في المرحلة الابتدائية بلغوا في سنة ١٣٩١/١٣٩٢هـ ٢٠ ٪ من أطفال المملكة المسجلين فيها. ولم تبلغ نسبة طلاب المرحلة الاعدادية سوى ١٢ ٪ من طلاب المملكة في تلك المرحلة، وبلغت نسبة طلاب المرحلة الثانوية ٥ ٪ فقط. وقد تدهورت النسبة لدى البنات إلى ٨، ٥، ٤ ٪ من طالبات المملكة في كل مرحلة من تلك المراحل (ايلاكو ارنهايم ١٣٩٣). (ب) وجد أن ٤٠٠٠٠ من أصل ٣٠٥٠٠٠ عامل في هذا الإقليم كانوا يبحثون (في ١٣٩١هـ) عن دخول إضافية وأن ٧٠٠٠٠ عامل هاجروا إلى أقاليم أخرى (ايلاكو ١٣٩٣هـ)، (جـ) بلغت نسبة الأمية لمن يزيد عن سن ٤٠ في جيزان في أواسط العقد الماضي ٦٤ ــ ٨٠ ٪ بين الذكور، و١٠٠ ٪ بين الاناث (كنزوتانج واورتك ١٣٩٨هـ).

المرحلة الثانية :ــ

وقد بدأت منذ أوائل السبعينيات (الميلادية) حينما ارتفعت واردات الدولة ارتفاعات هائلة نتيجة لتزايد استثمار النفط ومضاعفة أسعاره، إذ زادت عائدات النفط في السعودية من ١,٢١٤,٠٠٨ ألف دولار سنة ١٩٧٠ إلى ١٠٢,٠٩٥,٢٠٤ ألف دولار سنة ١٩٨١م. وصار بامكان الدولة تخصيص مبالغ ضخمة للصرف في الأقاليم النائية على البنية الأساسية ومشاريع التنمية، فتوجهت هذه الأرصدة أول ما توجهت إلى بناء الطرق والإنشاءات الحكومية والمرافق العامة، والخدمات التعليمية والصحية والإجتماعية ومشاريع البلدية أو

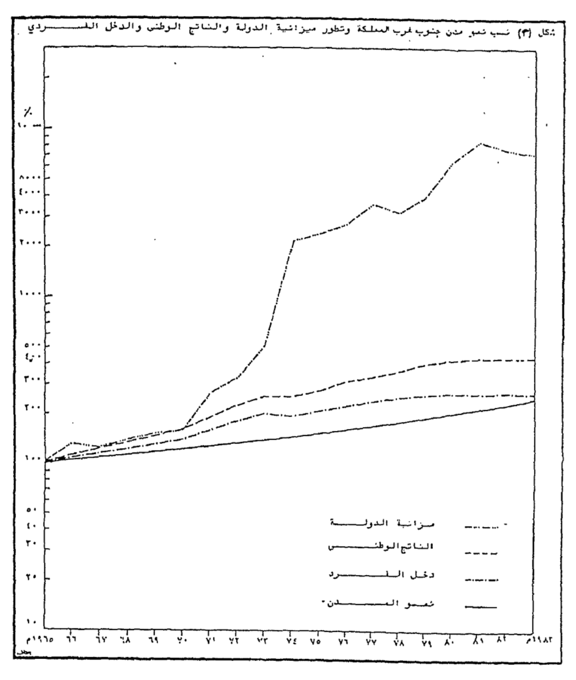
لإنشاء المطارات والموانىء. وقد تركزت هذه المشاريع بطبيعتها في المدن ومراكز الأقاليم ثم صارت تزحف إلى المدن الأصغر بالتدريج.

ولذلك يمكن القول أن دوافع الهجرة تعددت واختلطت ولم يعد التوازن الذي كان سائداً منذ قرون بين عدد السكان والموارد المتاحة قائماً. وقد تسبب هذا التعدد والاختلاط إلى تباين اتجاهات وأحجام حركات السكان وتعدد خصائصها والمشكلات التي تنجم عنها. ويمكن أن نجمل هذه الدوافع الجديدة فيما يلي:

١ ــ دوافع تتعلق بالمناطق الأخرى للمملكة. وهي في الواقع استمرار للدوافع التي ظهرت في المرحلة السابقة وكانت نتيجة لاستمرار توسع القاعدة الاقتصادية وتنوعها في البلاد، والتي اقتضت استمرار التوسع في المشاريع الانشائية وتضخم جهاز الوظائف الحكومية، وما يتبع ذلك من تطور التجارة ونهوض الخدمات التعليمية والثقافية والصحية والاجتماعية والخدمات الفردية والمهنية. وهذا يقتضي تزايد الطلب على الأيديَ العاملة وتواجد أصحاب الأعمال والمصالح لاسيما في مراكز التنمية كالمدن الكبيرة، فاجتذبتها من الأقاليم النائية أو من خارج المملكة. فاستمرت مدن وريف منطقة جنوب غرب المملكة تتعرض لنزوح اعداد كبيرة من سكانها في نفس الوقت الذي بدأت تجتذب فيه أعداداً أخرى.

٢ ــ دوافع تتعلق بظروف مدن المنطقة حيث بدأت تتحول من مراكز صغيرة تقوم بوظيفة الأسواق الأسبوعية أو المحطات على طرق القوافل إلى مراكز جذب للقوى العاملة، لإقامة مشاريع التنمية والإنشاءات والاضطلاع بأعباء الادارة والتوجيه أو للمساهمة في توسيع الخدمات المتنامية. والشكل رقم ٢ يوضح علاقة نمو المدن بتطور الناتج الوطني وتزايد ميزانية الدولة ولكنه يتباطأ عنها.

لم يعد عدد سكان المدن ولا حجم القوى العاملة التي تتضمنها كافياً للقيام بأعباء



شكل (٢) نسب نمو مدن جنوب غرب المملكة وتطور ميزانية الدولة والناتج الوطني والدخل الفردي .

التحديث فيها فتحولت ـ شأن المدن الكبيرة ـ إلى بؤر لجذب المزيد من القوى العاملة. وقد جاءت من مصدرين الأول: من الريف حيث زادت هذه العوامل الرغبة لدى الأفراد لا سيما من الشباب في التوجه إلى المدن المجاورة خاصة وأن بعضها أو بعض أجزائها ذات طابع ريفي. فعملوا على تسويق بضائع ومنتوجات الريف والبادية وتاجروا فيما يحتاج إليه البدو والريفيون من سلع، وقاموا بنشاط الخدمات التي تحتاج إليها تلك الفئات. وعمل بعضهم في المهن والصناعات الخفيفة أو في الوظائف التي لا تحتاج إلى تأهيل. ولذلك لم ينتج عن هذه الهجرة بطالة بمعناها الكامل ولكنها لم تلب تزايد الطلب على الأيدي العاملة في تلك المراكز.

المصدر الثاني: من المدن الأخرى أو من الخارج ذلك لأن الهجرة الريفية لا تملك قدرات وخبرات من نوع معين كالخبرات الإدارية أو خبرة العاملين في مجالات الصحة والتعليم والأعمال الفنية.

شهدت هذه المدن في المرحلة الثانية زيادة كبيرة في سكانها، ولو أن توقيت هذه الزيادة جاء متأخراً بعض السنين عن مثيلاتها في المدن الكبيرة في المملكة.

كما أن للتشريعات التي تتعلق بتنظيم القوى العاملة وخطط التنمية وتوزيع الاستثمارات والسياسيات السكانية، وكذلك بعض الدوافع الترويحية والصحية والنفسية كل ذلك كان له أثر واضح في زيادة تدفق السكان إلى المدن بدرجات متفاوتة. (أنظر شكل ٣).

٣ ـ دوافع تتعلق بالظروف القاسية التي استمرت سائدة في الريف والبادية كمناطق طرد سكاني: كسيادة الأراضي الصخرية والتربات الفقيرة والموارد المائية الشحيحة والأمطار النادرة والأعشاب الهزيلة، وكذلك صغر الملكية الزراعية وتخلف أساليب الانتاج في الزراعة وتربية الحيوان، وانخفاض الانتاج والانتاجية وتدني الأجور وصعوبة التسويق وبطء عملية تطور النظم الاقتصادية الريفية، وتأخر وصول حركة التنمية وعدم توفر

مجالات العمل للشبان المتعلمين.

وهناك العوامل الاجتماعية التي سببت عدم التوازن بين حجم الأسرة الكبيرة والموارد المادية المتاحة بحيث بلغ معدل حجم الأسرة في ريف منطقة عسير ٧,٢ فرد للأسرة الواحدة مقابل ٦,٢ فرد في كل من أبها وخميس مشيط في سنة ١٩٧٩م، (سكان بلان ١٩٨٠م)، وعدم التوازن بين الزيادة الطبيعية لسكان الريف ونسبة الأراضي الصالحة للزراعة، وبين طموحات الشباب في التقدم والرقي لعدم وجود مؤسسات التقدم في البادية والريف. كما ان لخصائص الأسرة وتركيبها والعلاقات الأسرية بين الأقارب أثر في كون الهجرة فردية وأنها تتناول الذكور دون الإناث في أغلب الأحيان.

٤ ـ دوافع تتعلق بالوضع العام خاصة تطور النقل والمواصلات وما يتبع ذلك من سهولة الاتصال وحرية الانتقال أو الاقامة بعد العزلة الشديدة مما ساعد على مرونة الحركة والاستجابة لعوامل الجذب المتنامية وحتى من أماكن بعيدة.

لقد أدى تفاعل هذه العوامل وتباين أهميتها خلال مراحل التنمية إلى تباين كثافة حركة السكان واتجاهاتها من مدن المنطقة وإليها، وعمل على تنوع مصادر الهجرة وتوسعها. ومن الملاحظ أن الوافدين يميلون للاقامة داخل المدن. وزيادة على ذلك فإن الوافدين من الريف أو البادية يميلون للاقامة داخل الأحياء الفقيرة أو في الضواحي، وكان نزوحهم هذا سبباً في ظهور مساكن الأكواخ (الصنادق) التي صارت تشكل نسبة عالية في المدن؛ إذ بلغت نسبة سكان الأكواخ في خميس مشيط على سبيل المثال ٤٢ ٪ من مجموع سكان المدينة في سنة ١٩٧٩م (سكان بلان سويكو ١٩٧٩م)، وفي صامته ٥٠ ٪ (Serete/ CEG. 1969)

ويمكن أن نجمل مصادر واتجاهات الهجرة من وإلى مدن هذه المنطقة كما يلي :ـ

١ ـ من بادية وريف المنطقة إلى مدنها.

شكل (٣) نسب النمو في مدن جنوب غرب المملكة العربية السعودية بين عامي ١٣٩٠هـ ــ ١٣٩٩هـ .

٢ ـ من خارج المنطقة إلى مدنها.
٣ ـ من خارج المملكة إلى مدنها.
٤ ـ من مدن المنطقة إلى مدن أخرى وإلى خارج البلاد.
٥ ـ من مدن المنطقة إلى ريفها.

وقد اختلفت أهمية هذه الهجرات حسب دوافع كل منها وحسب مرحلة التنمية التي بلغتها المدن التي تستقطب الهجرة. ولم تكن هذه الأهمية ثابتة مع الزمن ولو أنها مرتبطة بشكل محكم بالمرحلة الاقتصادية التي تمر بها البلاد عامة وبحجم المشاريع التي تتم بمناطق تلك المدن خاصة.

وقد أدت هذه الهجرات إلى زيادة سكان المدن على حساب سكان الريف والبادية كما أدت إلى استقطاب مهاجرين من مصادر أخرى. وقد أمكن تلخيص هذه المصادر ونسبها في خمس مدن من مدن المنطقة في الجدول التالي (الشكل ٤):

جدول رقم «٢»

نسب توزيع مصادر الهجرة الى مدن المنطقة في سنه ١٣٩٨ هـ.

الرقم	المدينة	هجرة داخلية		هجرة خارجية	
		من المنطقه	من مناطق أخرى	من مناطق عربية	من مناطق أجنبية
١	خميس مشيط	٪ ٤٧،٥	٪ ١٦،٧	٪ ٣٠،٧	٪ ٥
٢	أهبا	٪ ٢٣	٪ ٨	٪ ٥٩	٪ ٩،٥
٣	جيزان	٪ ٥٤	٪ ٢١	٪ ٢١	٪ ٤
٤	نجران	٪ ٥٢	٪ ٣٥	٪ ١٢	٪ ٢
٥	بيشه	٪ ٤٤	٪ ٤٠	٪ ١٦	٪ ٥

المصدر الذي اعتمد في وضع هذه الأرقام هو تقارير سكان بلان سويكو ١٩٧٩م.

لقد قدم نحو نصف المهاجرين الي أي مدينة (فيما عدا - إلى أبها) من المنطقة المحيطة بها أي من ريفها، وذلك للقيام بأعمال كثيرة لا تحتاج إلى خبرة، أو للانتفاع ببعض النشاطات التي لا تتوفر في الريف كالطبابة والتعليم، مما أدّى إلى تناقص عدد الريفيين والبدو في كثير من أنحاء المنطقة خلال المرحلة الثانية أيضاً. أما مدينة أبها فقد مثلت المركز الاداري الرئيسي فشهدت قيام كثير من المشاريع، فاستقطبت مهاجرين تتوفر فيهم مواصفات خاصة يندر توفرها في الريف، فارتفعت نسبة الوافدين من البلاد العربية والأجنبية إلى أكثر من مثلي النسبة في المدن الأخرى لكل من المصدرين (أنظر شكل ٤). ويلاحظ أن مدينة خميس مشيط تلي أبها في هذه الصفات، وهي أكبر مدينة في المنطقة وتبعد عن أبها نحو ٣٠كم في اتجاه الشرق.

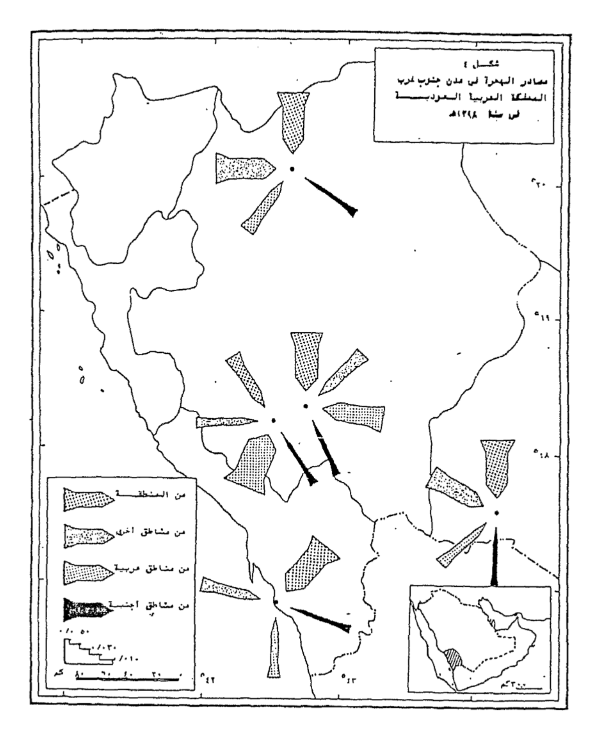
ومن ناحية أخرى فقد استقطبت هذه المدن نحو خمس مهاجريها من مناطق المملكة الأخرى، وهي في الغالب من المدن الكبيرة، وذلك للاسهام في بعض الأعمال الإدارية أو التعليمية أو الدفاع أو التجارة أو أعمال الانشاءات.

الآثار الناتجة عن الهجرة :ـ

يمكن اجمال المشكلات أو الآثار الناتجة عن الهجرة من مدن جنوب غرب المملكة وإليها في النقاط التالية :

١ ـ أدت هجرة البدو والريفيين للمدن إلى نقص في القوى البشرية العاملة في قطاع تربية الحيوان والزراعة، ومن نتائج ذلك ضعف مستوى استغلال الأرض بسبب نقص عنصر الشباب بين العاملين والاعتماد على الشيوخ والأطفال والنساء، وكذلك ارتفاع أجور العمال الزراعين بقدر لا يتناسب مع الانتاجية، وبالتالي ترك كثير من المساحات الزراعية دون استثمار ومن مظاهرها المصاطب الدامرة على السفوح وبالقرب من القرى الزراعية.

٢ ـ ان نقص القوى العاملة في القطاع الزراعي اضطر بعض أصحاب الأراضي إلى استخدام عمال زراعيين بالأجرة. وقد أدى ذلك ـ نظراً لارتفاع الأجور ـ إلى رفع نسبة



شكل (٤) مصادر الهجرة في مدن جنوب غرب المملكة العربية السعودية في سنة ١٣٩٨هـ .

الطلب على الأيدي العاملة الأجنبية كما أدى إلى زيادة تكاليف الانتاج وإلى نقص في الأرباح الصافية من الحاصلات الزراعية.

٣ ـ أدى استمرار تدفق هجرة الريف والبادية إلى تغير نسب الأنماط الاجتماعية في إمارات الإقليم، وكان التغير باستمرار في صالح سكان المدن. فمن الدراسات العديدة عن المنطقة يمكن استنتاج أن النسب المئوية لهذه الأنماط تغيرت على النحو التالي:

السنة	سكان المدن	الريفيون	البدو
١٣٨٢ هـ	١٥ ٪	٦٠ ٪	٢٥ ٪
١٣٩٢ هـ	١٧،٥ ٪	٥٨ ٪	٢٤،٥ ٪
١٤٠٢ هـ	٢٤ ٪	٥٦ ٪	٢٠ ٪

٤ ـ ان تزايد ارتفاع مستوى المعيشة في المدن وزيادة قوى الجذب لعنصر الأيدي العاملة أدى إلى وجود تباين في مستوى الأجور في تلك المدن، كما أدى إلى وجود تفاوت في دخل الفئات العاملة في مختلف فروع الانتاج والخدمات.

٥ ـ أثار الانتقال السريع إلى المدن كثيراً من المشكلات التي لم تستطع المشاريع الحكومية أو الأهلية مقابلتها بما تستحق من حلول سريعة، لقصور أجهزة التخطيط والتنفيذ عن متابعة التطور السريع في تلك المدن، وأن من أبرز المشكلات التي ترتبت على نمو المدن السريع، مشكلات الاسكان والمواصلات والصحة العامة والتعليم ودور الرعاية الاجتماعية وحوادث المرور والحدائق العامة ومؤسسات الخدمة، وعدم التوافق فيما بين توفر الخدمات ودرجة الحاجة إليها. وقد أدى عدم التوافق هذا إلى ظهور البطالة المقنعة في بعض من الأحيان.

٦ ـ أدى تدفق الهجرة الريفية إلى زيادة العناية بالمدن على حساب تطور الريف والبادية وعدم العناية بسكانها وإهمال مصالحها، مما أدى إلى تفاقم ضعف الإنتاج الزراعي، وتدهور الثروة الحيوانية، فازدادت الهوة الثقافية والاجتماعية بين سكان المدن والريف. ووجود مثل هذه الهوة له آثار سلبية على المجتمع.

٧ ـ ومن ناحية أخرى فإن خصائص المهاجرين من حيث الجنس والسن والمستوى التعليمي والمهني والحالة الاجتماعية تؤثر في المدينة تأثيراً تتزايد أبعاده بازدياد نسبة الهجرة، وينتج عنها اختلاف استجابة الجماعات والأفراد في المدن للتطور الحديث ومستوى التعامل ووسائل التكنولوجيا. وهذا يعمق الفوارق بينهم وهم داخل المدينة الواحدة.

تستفيد البلاد من تدفق الوافدين لأنها بحاجة إليهم وإلى خبراتهم لاستغلال الموارد وللمساهمة في مشاريع التنمية، لأنهم يحملون معهم علومهم وأفكارهم وخبراتهم وتقاليدهم. ومع ذلك قد يصعب على هؤلاء التكيف بسرعة مع البيئة الاجتماعية الجديدة. ولذا فإن شعورهم بعدم الانتماء وبأن وجودهم مؤقت، وضعف شعورهم بالمواطنة يخفض من طاقاتهم على العطاء وينقص قدر الاستفادة منهم.

التخطيط لمواجهة مشكلات الهجرة :ـ

يهتم الجغرافيون غالباً بالإجابة على التساؤل عن أنواع هجرة السكان واتجاهاتها وذلك للوصول إلى وضع حلول المشكلات الناتجة عنها. ولا تقتصر هذه الحلول على البرامج والمشروعات والإجراءات العلاجية الآنية، بل تشمل المشروعات الوقائية البعيدة المدى على المستويين المحلي والقومي. وهي جزء من التنمية التي تعتبر من المسائل الوطنية التي تشترك فيها الأجهزة العلمية والتكنولوجية والمؤسسات الحكومية والأهلية وحتى الدولية.

ان الهجرة هي سلوك بشري ينتج عن مجموعة قرارات معقدة عقلانية، وغير عقلانية،

واعية وغير واعية متأنية ومندفعة. ولذلك يجب أن تكون دراستها ضمن تحليل عمليات التطور والتحديث العامة. وأن ضبطها وترشيدها يجب أن يكون ضمن عملية إعادة بناء المكان الجغرافي (Reissman 1967)، فمن أهم الواجبات الآنية تدارك حالة الهجرة الريفية إلى المدن وذلك بإصلاح أحوال الريف والبادية والنهوض بمستوى سكانها.

لقد أدى تحسن المواصلات إلى إزالة العزلة عن الريف القريب وزاد الاهتمام به، مما سبب ظهور «رحلة العمل» اليومية بحيث سكن الريف من يعملون في المدن، كما سبب وجود هجرة معاكسة إلى حد ما، إلا أن هذا الاهتمام وتلك الهجرة المعاكسة لم يصلا إلى المستوى الذي يعيد التوازن بين سكان الجانبين. وهذا يتطلب ايجاد تخطيط اقليمي شامل ينظر إلى كل من الريف والمدن كأجزاء في كل واحد يكمل أحدهما الآخر.

وهذا يقتضي وضع استراتيجية بعيدة المدى تضمن إعادة توازن السكان وتحد من حركة الهجرة، وذلك بتنمية العنصر البشري بتوسيع شبكة المدارس للجنسين، وفتح ونشر المعاهد الزراعية والمهنية والتجارية والصحية والفنية والمعاهد النسوية لتهيئة الخريجين للعمل في الخدمات التي تتطلب مهارات معينة، وتعمل على إعادة توزيع المشاريع الانمائية، بحيث تغطي المدن والقرى مهما كان حجمها، ابتداء من توصيل شبكات الطرق إلى جميع المراكز البشرية، وكذلك شبكات الماء والكهرباء وإقامة المشاريع الزراعية والحيوانية والمشاريع المائية للري ولتزويد القرى والمدن بمياه الشرب حسب وبقدر الحاجة. وتعمل على تشجيع الصناعة وتوزيعها خاصة تلك المتعلقة بالاقتصاد المحلي كمعالجة المنتوجات الزراعية أو الحيوانية والأملاح وتعليب الأسماك وصناعة الاسمنت والجص والجير والصناعات الخفيفة، وأخيراً تعمل على نشر الخدمات بمختلف أنواعها ومستوياتها في أنحاء المنطقة حسب الحاجة إليها.

● ● ●

الهوامش :

(١) ومن أمثلتها: المستشار ايلاكو هولندا (١٩٧٣م)، وفريق المستشار الياباني كنزو تانج واورتك (١٩٧٥م)، والمستشار سيريت سي ى ج (١٩٧٩م)، والمستشار سكان بلان سويكو (١٩٨٠م)، والاستشاري فنبلانكو وأحمد حجار (١٩٨٤م).

(٢) تفسر نظرية مالتوس حدوث التوازن في الماضي بين أعداد الناس والموارد المتاحة لهم، أي بطء تزايد السكان عما تقتضيه الحسابات النظرية بكثرة الوفيات بسبب النوائب الطبيعية والأوبئة والحروب والهجرة.

(٣) تضم الباحة مدينتي الباحة والظفير وإحدى وثلاثين قرية مجاورة.

● ● ●

مراجع البحث

١ ـ المراجع العربية : ـ

١ ـ ايلاكو ارنهايم هولندا (١٣٩٣هـ)؛ خطة التنمية الاقتصادية الاجتماعية للمنطقة الجنوبية الغربية بالمملكة ٩٣/١٣٩٤ ـ ٩٩/١٤٠٠هـ.

٢ ـ حسن حمزة حجرة (١٣٩٣هـ)؛ امكانية التنمية الزراعية في المملكة العربية السعودية، مطابع المطوع بالدمام.

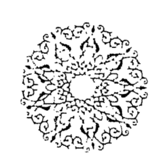
٣ ـ سكان بلان سويكو (١٩٧٩م)؛ مشروع رقم ٢٠٦، المخططات الرئيسية التنفيذية لمنطقة أبها، التقرير الفني من رقم ١ إلى ٩.

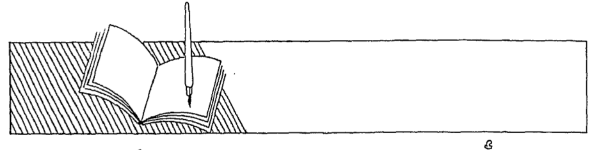
٤ ـ سيريت ـ المجموعة الاستشارية الهندسية (١٤٠٠هـ). مشروع رقم ٢٠٧ تخطيط وتنمية منطقة جيزان.

٥ ــ عبد الباسط الخطيب (١٩٧٤م)؛ سبع سنابل خضر (١٩٦٥ ــ ١٩٧٢). الرياض.
٦ ــ عبد الرحمن الشريف (١٩٨٤م)؛ جغرافية المملكة العربية السعودية الجزء الثاني ــ دار المريخ بالرياض.
٧ ــ عبد الاله أبو عياش واسحاق التطب (١٩٨٠م)؛ الاتجاهات المعاصرة في الدراسات الحضرية، وكالة المطبوعات. الكويت.
٨ ــ فنبلانكو، أحمد الحجار (١٤٠٤هـ)؛ مشروع رقم ٢١٢، منطقة الباحة، مخطط التنمية الشامل، تقرير رقم ١، ٢، ٣، ٤، ٥.
٩ ــ كنز وتانج واورتك (١٣٩٦هـ). مشروع دراسة تخطيط المنطقة الجنوبية. التقييم الأولي للوضع الحالي، نجران.
١٠ــ كنز وتانج واورتك (١٣٩٦هـ)؛ مشروع دراسة تخطيط المنطقة الجنوبية، الوضع الراهن المجلد ١، ٢ المنطقة الجنوبية؛ جيزان.
١١ــ مؤسسة النقد العربي السعودية (١٩٨٣م)؛ التقرير السنوي لعام ١٤٠٢ (١٩٨٢م).
١٢ ــوزارة البترول والثروة المعدنية، الادارة الاقتصادية؛ النشرة الاحصائية البترولية. أعداد دورية ــ آخرها العدد (١٣) سنة ١٩٨٢.
١٣ــ وزارة التخطيط بالمملكة العربية السعودية؛ خطة التنمية الأولى (١٣٩٠ ــ ١٣٩٥هـ) خطة التنمية الثانية (١٣٩٦ ــ ١٤٠٠هـ)، خطة التنمية الثالثة (١٤٠١ ــ ١٤٠٥هـ).
١٤ــ وزارة الزراعة والمياه، ادارة الدراسات الاقتصادية والاحصاء؛ نشرة الاحصاءات الزراعية الجارية (بالعينة)، لعام ١٩٨١/٨٠م.
١٥ــ وزارة المالية والاقتصاد الوطني، مصلحة الاحصاءات العامة. الكتب الاحصائية السنوية حتى العدد ١٨ سنة ١٤٠٢هـ.
١٦ــ وزارة المالية والاقتصاد الوطني، مصلحة الاحصاءات العامة. التعداد العام للسكان لعام ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م). البيانات التفصيلية.

ب ـ المراجع الأجنبية :ـ

1 - Italconsult (1969); Agricultural and Water Resources. Final Report. Agricultural Development Service for area II and III. Rome.
2 - Kenzo Tange & URTEC (1396H); Southern Region, Preliminary Master Plan.
3 - Leszek A. Kosinsk, R. Mansell Prothero (1975); People on the Move. Methuen and Co. Ltd., London.
4 - Ministry of Agricultural and Water (K.S.A.); Hydrology Division; Hydrological Information. 90 Issues till 1983.
5 - Reismann, L. (1967); The Metrics of Migration. pac. Viewp 8.211 - 212.
6 - Serete / CEG. (1979); Planning and Development of Jizan Region, project No. 207. (Several Reports).
7 - Socio Economic Survey of Sogreah (Consulting Engineers) (1969); Water and Agricultural Development Studies, Area IV. (Several Reports).





الأدب العامي ومحاور الاهتمام به

د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك

منذ خمس سنوات ظهرت موجة من التوجه إلى اللغة العامية والاهتمام بأدبها وفنها وجمال تعابيرها، واتخذت هذه الموجة الصحافة المحلية ميداناً، طرح فيه الكثير من الكتَّاب والأدباء والمتأدبين أراء حول انتشار العامية في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، وتحدث كتاب الأدب الشعبي عن قيمة هذا الأدب وعن أهميته الفنية والتاريخية ودافعوا عن وجوده واستمراره معتمدين على نقاط تكوّن مجمل المحاور التي رددها عشاق الأدب العامي. ولأن قضية الاهتمام بالشعر العامي سيكون من نتائجها اهتمام بلغته العامية التي ينظم بها، ولأن ذلك لامحالة سيقود إلى الابتعاد عن الفصحى وأدبها وفكرها بما يمكن أن يصرف أنظار الناس إلى ماتجود به قرائح شعراء العامية. وأمام هذا الاحتمال قام محبو العامية بالدفاع عن وجهة نظرهم وردّوا على القائلين بخطر الأدب العامي على موروث الأمة الحضاري وثقافتها الفصحى. وجعلوا قضية الاهتمام بالعامية قضية قوميَّة فخلعوا عليها الكثير من الوظائف التي لاتتحقق إلا للفصحى، وذكروا في سبيل دفاعهم عدداً من الأمور التي تستحق الدراسة لما لها من صلة بمسار الأدب العربي، ولما لها من آثار ونتائج لايحسن السكوت عنها لما تحمل من مغالطات يجب توضيحها وبيان وجه الخطأ فيها.

وفي هذه الدراسة تتبع لآراء مشجعي الأدب العامي ومحاولة لجمع المقالات والدراسات التي طرقت الأدب الشعبي وتحدثت عن خصائصه ومزاياه واستعراض لمقدمات دواوين الشعر العامي التي زخرت بالثناء والتمجيد لأدب العامية، ومن خلال ذلك يتبين أن الباحثين في

الأدب العامي مجمعون على عدد من الركائز جعلوها مبرراً لاهتمامهم بالعامية.

وقد كانت آراؤهم تدور على ثماني مرتكزات هي محور تبرير الاهتمام بهذا النوع من الأدب، استخلصتْ في هذا البحث من كمٍّ كبير من الكتابات لعدد كبير من الكتاب. وطرحتْ في مصادر مختلفة من وسائل النشر.

وسوف يشار باختصار بعد كل ركيزة إلى عدد من المصادر ويترك استقصَاء الإشارات التي تكررت في مناسبات مختلفة لكثرتها وتكرار معناها لأن إيرادها سيؤدي إلى تكرار عدد من المصادر والأقوال عند أكثر من كاتب.

ورغم وفرة المادة التي جُمعتْ حول هذا الموضوع إلا أن الباحث رأي الاختصار، وجعل معالجة كل ركيزة رصداً للآراء حولها قائماً على الاستقراء الكامل للتثبت من صدق الدعوى التي يدلى بها أنصار العامية أو عدم صدقها.

الركيزة الأولــى :

ننتقل بعد هذا العرض المختصر إلى مناقشة الركائز التى أجملنا الحديث عنها، ونبدأ بالركيزة الأولى التي جمعت الآراء الدارجة التي تطرح في وسائل الإعلام، وهي لماذا يقف الناس ضد الأدب العامي أو الشعبي، ولماذا لايرحب الجميع به ؟[1].

بدأت هذه الآراء بالسؤال لماذا يقف الناس ضد الفكر العامي وصرحت فئة منهم بأنها لاتعرف السبب الذي يجعل الناس يقفون ضده ؟ وهي بسؤالها صادقة كل الصدق ؛ فهي لاتعرف السبب الذي جعل الناس يقفون ضد منهج الطرح الفكري للعامية في الوقت الحاضر. وهي لاتدرك وليس في قدرة بعضهم العلمية مايؤهلهم لمعرفة السبب الذي جعل الناس لايرحبون بالعامية وبثقافتها وأدبها. ومن حق هذه الفئة أن تجاب وتبسط لها الإجابة، حتى تستطيع إدراك معرفة السبب الذي يجعل الناس يعترضون على نشر الأفكار العامية في هذا الوقت في وسط الجزيرة وأطرافها. ومن حقهم أيضاً أن يخاطبوا بما يستطيعون فهمه عقلاً إذا كان ليس لهم حظ من العلم يدركون به هذا الاعتراض.

فالاعتراض على الفكر العامي والوقوف ضده لم يكن بدون مبررات لها وجاهيتها، لاسيما

إذا قبلنا مايقرره مؤرخو الأدب العامي من أن العامية وأدبها كانا موجودين في الجزيرة منذ خمسة قرون(٢)، ولم يقف ضدهما أحد خلال تلك الفترة الطويلة التي عاشاها مع الفصحى، ولايستطيع المتسائلون أن يأتوا باسم واحد وقف ضد العامية في الجزيرة خلال الزمن الذي حددوه. أما اليوم فقد كثر المعارضون لها، وكثر الذين يرون فيها خطراً على ثقافة الأمة الأصيلة، مما جعل رواد العامية والمعجبين بها يستنكرون هذا الموقف. لكن ماالسبب في الاعتراض على الأدب والفكر العاميين في هذا الوقت ولم يظهر في السابق ؟ السبب هو ماجدّ من جديد على منهج الطرح الفكري الذي غيّر وضع الأدب العامي، ونقله من طبيعته التي كانت له منذ كان في الجزيرة إلى وضع آخر وطبيعة أخرى لم تكن له من قبل. وهذا الجديد تمثل في محاولة قوية تهدف إلى استغلاله وتوظيفه فكراً مبرمجاً ومنهجاً متبعاً يرقى به إلى مستوى الاستعمال العام، ويفرضه ويفرض لغته وفكره على الأمة التي لاتقر ثقافة غير الثقافة العربية ولاتعترف بفكر غير فكر الإسلام.

فاعترض الناس على الوظيفة التي أصبحت تناط به وأصبح يؤديها، وهي غير وظيفته الأصلية الأولى التي كانت له، فوظيفته الأولى هي أنه يحتل حيزاً في حياة الناس ويؤدي أغراضاً لاتؤدي بغيره ولم يكن يحمل فكراً وآراءً تناقض الأسس الفكرية لتراث الأمة الأصيل، وليس فيه مدخل لأهواء خارجية. والذين يتعاملون مع الأدب العامي في الماضي هم العاميون أنفسهم الذين لايحسنون غير العامية ولايعرفون أدباً سواها، حين كانت سبل التعليم محدودةً وضرورة استعمال العامية قائمةً، وللضرورة أحكامها.

أما اليوم فقد حمل الأدب العامي فكراً، وبدأ العمل على نشر العامية، ودعا إلى الاهتمام بها وبأدبها علماء ومثقفون على جميع المستويات وهؤلاء لم تعد العامية ضرورة دافعة لهم لكي يختاروها طريقة تعبير. وهم لايرضون أن يوصفوا بالعامية والأمية وأراؤهم التي تدافع عن العامية أراء تحمل فكراً وتدعو إلى سبيل غير السبيل الذي تهيأت واستقرت عليه ثقافة أمة عمرها ألف وخمسمائة عام.

والكلام هنا لا يعني الشعراء المبدعين للشعر العامي، فهؤلاء حتى اليوم لايحمل شعرهم أفكاراً ضارة، إنما يعني منظرى الأدب العامي. والذين يقفون ضد الفكر العامي يعرفون أن

الاهتمام بالفكر الشعبي طاريء لا أصل له. ولديهم من علمهم واستقرائهم وخبراتهم مبررات تجعل وقوفهم في أغلب الأحوال قائماً على أسس متينة. من معرفة خلفية الاهتمام بالتراث العامي، ومصادر هذه الخلفية وملابساتها والدوافع الأولى إليها. وهم يعلمون أيضاً أن استمرارها وإن لم تكن بواعثه هنا هي نفسها الدوافع الأولى التي كانت وراء بعثه في مصر والشام. فهي ستؤدي في النهاية إلى النتائج التي تطلع الاستعمار إليها عندما أعلن مناصرته لحركة العامية(٣). والمعترضون عليه يقرؤون مضامين الفكر العامي ويعرفون نقاط الارتكاز فيه ويلمسون الطرح المنظم والبعد به عن العفوية والانطلاق البريء الذي كان له فيما مضى حين لم يعترض أحد عليه.

الركيـزة الثانيـة :

يتحدث المحبذون للفكر العامي ويدّعون أن هناك أشياء شعبية محلية لايمكن أداؤها باللغة العربية الفصحى، وليس في استطاعة عامة الناس الحديث بالفصحى بين عشية وضحاها. وأن نسبة المتعلمين من أبناء الأمة نسبة منخفضة(٤) وغير ذلك من الآراء والمبررات التي تثار في سبيل الدفاع عن مواقف وأراء محبي العامية، وقد غطت الساحة الأدبية منذ خمس سنوات موجة من التبرير لاستعمال العامية ترتكز كلها على مثل هذه الآراء اللينة الضعيفة.

والرد على الآراء والدعاوى السابقة يحتاج إلى قراءة كل المصادر أو أغلبها التي تناولت قضية العامية منذ بدايتها في مصر حتى وقتنا الحاضر. ورغم أن ذلك فوق طاقة الفرد المحدودة ووقته الذي يشغله كثير من الاهتمامات الأخرى. إلا أن ذلك أيضاً لايمنع من بذل الجهد وتتبع الآراء. وقد قرأت ما استطعت الوصول إليه من الكتب والمصادر التي كتبت عن العامية أو أرخت لها. وتلك التي عارضتها وتصدت لها. وألممت بآراء الطرفين حول القضية، ورجعت إلى الكثير من المجلات والصحف والدوريات التي أشارت إليها المصادر والكتب ونقلتْ عنها لا في الجزيرة العربية فحسب بل في كل أجزاء الوطن العربي الكبير، الذي تعرض لخوض معركة الفصحى والعامية منذ قرن من الزمان. ولم أجد رأياً واحداً لا في صحيفة يومية ولا في مجلة ولا في دورية معروفة ولا في كتاب منشور، يقول بأنه يجب على الأمة العربية أن تتكلم باللغة العربية الفصحى في كل الحالات وأن تحول الحديث إلى الفصحى بين عشية وضحاها، وأن كل فرد فيها يجب ألا يخاطب زوجته وطفله إلا طبقاً لقواعد النحو العربي، ولاسمعت أن

هناك رأياً واحداً يقول إن الرقص والأكلات الشعبية والأغاني وصوت الطبل كل ذلك يجب أن يكون باللغة العربية الفصحى. حسبما ادعت الآراء الكثيرة التي أدلى بها المدافعون عن الفكر والثقافة العامية ونشرنا نماذج منها وأعرضنا عن الكثير.

وهذا ما يجعل المتتبع لأرائهم يتهم الاتجاه إلى العامية بأنه اتجاه فكري يثير قضايا لاوجود لها ويفترض افتراضات ويبنى على هذه القضايا والافتراضات وجهات نظر ثم يأخذ يدافع عن فرضياته ووجهات نظره وكأن الطرف الآخر هو صاحب هذه الآراء والفرضيات. والهدف من ذلك هو تضليل القراء والمتابعين وإيهامهم أن هناك من الناس من يطلب مثل تلك المطالب التعجيزية. لكي يكسب منظرو الفكر العامي تعاطف الرأي العام ويبرروا دفاعهم عن وجود العامية وانتشارها، مدعين أن هناك من يريد أن يفرض على الأميين الحديث بالفصحى وأن هناك من يطالب بتحويل «السامري» و«العرضة النجدية» إلى قصيدة عروضية(٥). وقد عجزت رغم تتبعي لما دار حول قضية العامية في الجزيرة والخليج واهتمامي بما كتب عنها عن العثور على أي شيء يدل على أن هناك من دعا إلى إلغاء العامية الدارجة وفرض إحلال اللغة الفصحى محلها حتى وإن كانت هذه الدعوة مشروعة. فليس هناك من قال بوجوبها. وإذا كانت جهودي محدودة واطلاعي ضيقاً فإنني أطلب من الذين يدَّعون أن هناك من يطالبهم بهذه الأمور إرشادي إلى مصادرهم التي نقلوا عنها حتى تقوم الحجة على تطرف أنصار الفصحى وبعدهم عن الواقع الذي يعيشه الناس إذا طالبوا بذلك.

الركيـزة الثالثـة :

أما الركيزة الثالثة فتقوم على ادعاء مفاده أن التراث الشعبي هو الذي يحدد هويتنا ويميز شخصيتنا، وإن لم نحافظ عليه فسنحتاج إلى تقليد غيرنا. وأن أمجادنا وتاريخنا هو مايحفظه لنا العامي وإن فيه جذورنا ومنابع أصالتنا(٦).

وأزعم أنني تابعت بحرص شديد أكثر مانشر عن العامية منذ ثلاث سنوات في الصحف وبوجه خاص في صحافتنا المحلية وأكاد أجزم أنه لم يخل حديث ينشر أو يذاع أو مقال يكتب إلا ويشير إلى معنى من هذه المعاني التي أجملتْ في الفقرة السابقة، ويكاد يجمع الناس الذين يدافعون عن العامية عليها رغم اختلاف مستوياتهم العلمية وتباين وجهات نظرهم. وقد



حاولت افتراض عدد من الأسباب جعلت الناس يجمعون على أن الأمة العربية في الجزيرة خاصة تتميز شخصيتها في العامية وتكمن أمجادها وتاريخها بما يحفظ لها العامي من نتف الأخبار منذ قرنين فوجدت أنه قد يكون من هذه الأسباب.

أولاً : عدم الدقة في استعمال كلمة «جذور»، وعدم فهم المدلول اللغوي لاصطلاح «منابع الثقافة» عند اطلاقها على الفكر العامي والثقافة العامية. وعدم التفريق بين معاني كلمات «المنبع» و«الرافد» و«الاضافة». واحتمال أن بعضهم يريد أن يقول إن التراث الشعبي رافد من روافد المعرفة. أو ماشابه ذلك، فخانتهم الدقة في التعبير عما يريدون، أو أنهم لايعرفون الفرق بين المنبع والرافد فوقعوا في خطأ غير مقصود قادهم إليه جهلهم بهذه الكلمات.

ثانياً : اندماجهم بالحس العامي وتأثرهم تأثراً قوياً بتميز عامية وسط الجزيرة أو بعض أجزائها عن بقية العاميات في الوطن العربي كله.

ثالثاً : تأثير الماضي القريب أي منذ قرنين على حياة الناس وماجدّ فيه من تكوينات سياسية واجتماعية كادت تقطع الصلة بين حاضر الجزيرة وماضيها وتضع لها تاريخاً لاينطلق من تاريخها العربي والإسلامي ولا يعتمد عليه.

رابعاً : جهل بعض أصحاب هذه الأراء بالدور التاريخي المستمر للعرب منذ الجاهلية إلى عصرنا الحاضر الذي لم يتحول ولم ينقطع وإن ضعف في بعض القرون وتذبذب في قرون أخرى.

خامساً : وربما كان قولهم ذلك أيضاً من قبيل التعميم الذي لايقصد معناه، وإنما أملته الرغبة في الدفاع عن الموقف الذي يلتزم به المحبون للعامية.

كل ذلك تردد في نفسي وجال في تفكيري وأنا أقرأ أحكامهم وآراءهم، وكان من الممكن التماس الأعذار لهم لولا أن بعض من أدلى بدلوه وأطلق هذه العبارات لا يلتمس لمثله عذر، ولايمكن أن يُعدَّ ممن يلقى الكلام جزافاً؛ لأن مركزه السياسي يفرض عليه التأني والدقة بما يقول ولأن موقعه الوظيفي يجعله ملماً بتاريخ الأمة الإسلامية العربية، ويعرف منابع الأصالة وجذور ثقافة الأمة التي انحدر هو منها، ولأن الرجل يلقي كلمة رسمية معدة سلفاً ومكتوبة لتلقى في مؤتمر يحضره بعض العلماء والأدباء وأساتذة الجامعات ورجال الفكر والأدب، وقد

خاطبهم بقوله :

(إن الحرص على رعاية التراث الشعبي لهذه المنطقة هو جزء من اهتمامنا الشامل بالفولكلور العربي، ومن رغبة أكيدة في البحث عن منابع أصالتنا والتعرف إلى جوانب ابداعات أجدادنا لدراستها وتحليلها ذخيرة لأجيالنا المقبلة، وقال إن هذا واجب وطني قومي تضطلع به النخبة المثقفة من أبنائنا الذين يعايشون التطور الاجتماعي والاقتصادي لعالمنا العربي ويحدوهم شعور أصيل في التشبث بالجذور الثقافية لأمتهم[٧].

إذا كان هذا الحديث منسوباً لوزير إعلام عربي يعيش في الجزيرة العربية ويتحدث إلى العرب سكان الجزيرة العربية. فكيف يعلل ترديده لهذه الجمل الخطيرة في معناها ومدلولها وماتلقيه في روع الشباب من معاني وماتخلفه من آثار. وكيف يفترض أن هذا الوزير لا يميز ولا يفرق بين منابع أصالة أمته وجذورها الثقافية وبين ماجدّ في حياتها منذ مئة عام أو تزيد قليلاً. هل يساء الظن به ويقال إنه يعني مايقول، ويريد أن تكون جذورنا الثقافية ومنابع أصالتنا وإبداعات أجدادنا هي ماحفظه لنا التراث العامي الذي يتحدث عنه في مؤتمره الشعبي ؟ أم أنه لايفرق بين المنبع والأصل، وبين الحواشي والأطراف ؟ إنه ليس من السهل إتهامه هو وأمثاله بأنهم يريدون قطع صلتنا بماضي الأمة العربي ثم العربي الإسلامي الذي أشرق منذ خمسة عشر قرناً وسال من منابعه مع البعثة النبوية ليروي أرض الجزيرة والعالم، ثم أغدق واخضرّ في دولة بني أمية وآت ثماره الفكرية والثقافية في القرنين الثاني والثالث الهجريين وهضم ثقافات العالم القديم وحضاراته في القرنين الرابع والخامس حين أصبحت ثقافته عربية إسلامية يمدها النبع الأصيل من القرآن وجذور التاريخ المشرق ـ واستمر في كل العصور ينقل القوة معه للعرب وغير العرب من المسلمين. وعندما تصرمت قوته قبل قرنين من الزمان نشأت على ركام تصرمه عامية ركيكة مبتذلة لا تعبر عن فكر ولاتمثل ديناً ولا تستوعب حضارة ولاتعتمد على تاريخ إلا تاريخ الفرقة والتناحر والمعارك العشائرية، وإذا شئنا أن نلتمس له عذراً ولكلامه محملاً حسناً فالاحتمال الوحيد هو أنه قد وقع تحت تأثير الاتجاه العام إلى الفكر العامي فقال ما قال، وهو لا يعني مدلول هذه الجمل التي يرددها. وإنما انساق مع الشعور الذي يحسه بتميز عادات مجتمعه، وانفعل بمن حوله فقال ذلك ونسي أن يتذكر التاريخ، وأن يتمثل المعنى المحدد للجذور والأصالة والمنبع، وانطلق يقول ماكتب له مروجو العامية من كلام

لايحتمل معنى ولا ينطق عن حقيقة ولايقول حقاً. وقد وجد أعداء الأمة العربية في اللغة العامية ضالتهم عندما لقنوا أبناءها بأن فيها جذورهم الثقافية ومنبع أصالتهم، وتميز شخصيتهم. وليس في العامية شيء يجعل لها هذا المكان في النفوس، وليس هناك جذور أو إنتماء غير الإنتماء إلى حضارة الأمة العربية منذ بداية عهدها الأول في الجزيرة حتى نزل القرآن الكريم بها. فكانت الأصالة وكانت الجذور وكان المنبع الخالد الذي تعجز العامية ويعجز العاميون عن زحزحته عن مكانه مهما أعجبوا بغيره من أنواع الثقافات والأفكار ولابد من تبديد سحابة الاعجاب بأرائهم وأفكارهم وبيان وجه الحق، وخطأ مايرددون من أقوال جوفاء.

والرد على هؤلاء مهما كانت مقاصدهم هو رد واحد، وهو تعليمهم منبع الأصالة وجذور الثقافة والانتماء الكامل للمنبع الأول الذي وجد في دين الإسلام وفي القرآن وفي تاريخ الدولة العربية الإسلامية.

ولا يمكن أن نفترض أن المرددين لهذه العبارات قد اقتنعوا بأهمية الانتقال إلى العامية واتخاذها منبعاً جديداً وأصالة جديدة مالم نفترض أن الفكر الأصيل قد أعجزهم فبحثوا عن فكر وثقافة ضعيفة في مستوى قدرتهم وضعفهم حتى يستطيع الضعاف من البشر التعامل مع فكر وثقافة مثلهم في الضعف لاتعجزهم بضخامة موروثها الحضاري وفكرها الراقي الذي ربا وارتفع خلال القرون وأصبح مروجو العامية لايستطيعون التعامل معه أو تسلق سموقه وارتفاعه.

إن اطلاق منبع الأصالة والجذور التاريخية على أي حقبة من حقب التاريخ بعد القرن الأول للإسلام اطلاق لايقره عربي صادق العروبة ولايعترف به مسلم صحيح الإيمان والإسلام. ولايقول به أحد ولا يقصد معناه الحقيقي إلا من كان يريد بأمة محمد ﷺ شراً وبالعرب عامة ارتداداً وانتكاساً.

ولا نستطيع ونحن نواجه هذا المفهوم والقول الخاطيء إلا أن نحمل مقاصد أبناء أمتنا الذين ينزلقون إلى هذا التعبير الخطير والفكر المضطرب على الغفلة وعدم الإدراك وعدم التنبه لمقاصد الكلمات التي يتورط بها من لايعرف دلالة الألفاظ.

الركيـزة الرابعـة :

الركيزة الرابعة من ركائز تفكيرهم تقول :

إن اللغة العربية التي نخاف عليها من طغيان العامية محفوظة في القرآن الكريم ولاخوف عليها، وقد تكفل بحفظها القرآن وإن لغة القرآن الكريم قد تكفل الخالق بصيانتها وحفظها بقوله تعالى: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون».

واللغة العربية الفصحى باقية لم تشبها أية شائبة وقد ضمن الله لها الحفاظ من الضياع (٨).

فِقـه بُـرْد :

هذه الأقوال التي يرددها الطيبون من محبي العامية فيما يكتبون ويذيعون على الناس فيها مغالطة أخرى وسوء فهم قاتل، فهم يعتمدون في أقوالهم، على أن اللغة العربية الفصحى محفوظة مصونة بالقرآن ويزعمون أنه لا خطر عليها مادام القرآن الخالد تكفل بهذا المعنى الذي يفهمون من نص القرآن. وقد ندب نفسه للفتوى في ذلك أكثر من يكتب عن الفكر العامي. والأدب العامي والثقافة العامية، وأجمعوا على القول بذلك. فمنهم من أورد جزءاً من الآية كما في النص الأول؛ ومنهم من أجمل الحديث وأشار إلى أن القرآن حافظ لها كما في الجملة المقتبسة الثانية.

وفتاوى هؤلاء تذكرني بحديث لأهل البصرة مع برد أبي الشاعر بشار بن برد، فقد كان بشار غلاماً صغيراً يؤذي صبية الجيران وسالكي الطريق المارين بداره، فذهب الجيران إلى أبيه، وشكوا مايلاقون من بذاءة ابنه فرد عليهم بقوله: «ليس على الأعمى حرج» فقال المشتكون هان علينا أذى بشار مع فقه برد، فذهب كلامهم مثلاً.

وأصحاب الأفكار الإقليمية العامية الذي يتصدرون لتفسير القرآن ويدلون بمثل هذه الآراء والحجج يفهمون القرآن مثل فهم برد في حكم الأعمى، فهو لايعنيه من الآية إلا ظاهر معناها الذي يحتاجه للدفاع عن سوء خلق ابنه. وهم كذلك لايعرفون غير ظاهر معنى مايرددون من قول لَوَوْا معناه حتى يفهم الناس أن المعنى للآية التي يستشهدون بها هو ما فهمه كتبة العامية كما فهم برد معنى «ليس على الأعمى حرج».

ومفسرو الآية كلهم من عامة الناس الذين لوحدث لأحدهم سهو في صلاته لذهب يستفتي العلماء ولم يعتمد على علمه في كيفية الإتيان بالسهو، فضلاً عن ادعاء العلم بتفسير القرآن

وتوجيه نصوص الآيات توجيهاً خاطئاً لايعتمد على أدنى حد من العلم في تفسير القرآن ولم يدفع هؤلاء إلا تبرير مواقفهم وفهمهم الخاطىء الذي يظنونه صواباً.

لقد كان للقرآن ولآياته حرمة في نفوس المسلمين، وقد تحرج عن الخوض في تفسيره كبار الصحابة وعلماء المسلمين وكان الصحابي لايفتي بتفسير آية أو يوجه معناها حتى يسمع في ذلك حديثاً أو يسلح نفسه بسلاح العلم، وحتى يقرأ ويطلع ويعرف ماقيل في تفسير القرآن ثم لايقول رأياً إلا مايقوم عليه دليل. يروى عن أحد الصحابة قوله: ماكنا نتجاوز عشر آيات من القرآن حتى نعرف معناها، ومع ذلك كان الصحابة، بل كبار الصحابة وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون الأولون، لايجرأون على القول بالقرآن بغير علم، وقد وقف أبوبكر أمام ذلك وامتنع عن القول بتفسير القرآن بغير علم وقال كلمته المشهورة: أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إن قلت في كتاب الله مالا أعلم، وأعلن عمر بن الخطاب وهو يتلو آية على المنبر أنه لايعرف معناها[٩].

أما كتاب الفكر العامي وحداة الإقليمية وأنصار العامية فلم يكن لديهم حتى مجرد التفكير فيما عسى أن يكون معنى الآية التي يستشهدون بها، قبل الإقدام عليها وصرف معناها ليخدم دعواهم ويؤيد مواقفهم التي يدافعون عنها، ولم يخطر ببالهم أن يقرأوا تفسيراً من عشرات التفاسير الموجودة في كل مكتبة ومسجد ولم يسألوا أهل الذكر كما أمروا بذلك. والسبب أنهم يعتقدون أن قولهم هو الصواب والحق، وأنه لايوجد مايناقض مايذهبون إليه، حتى إن بعض من يدعي المعرفة أو من يظن فيه مثل ذلك شاركهم رأيهم الخاطىء.

لقد سمع مروجو الفكر العامي الناس يقولون: إن سبب خلود العربية هو نزول القرآن بها، ولم يكن أمامهم فسحة من الوقت تسمح بالنظر والتدبر فيما يتحدث الناس، ولم يحاولوا فهم المعنى المراد بحفظ القرآن للغة العربية الفصحى ولكنهم إنما سمعوا القول الذي يقول: إن أسباب خلودها واستمرارها هو نزول القرآن بها، إذ جعلها لغة دينية خالدة، ولم يعرفوا في أي سياق سيق هذا الكلام، وعلى أي مقدمات بنى هذا الاستنتاج فأخذوا من القرآن مايوحى ظاهر معناه بما سمعوا من أفواه الناس دون علم ودون معرفة وبلا تريث ولانظر.

إن الذين قالوا: إن القرآن حفظ اللغة وسبب خلودها وبقاءها حتى يومنا، هذا هم الذين

درسوا تاريخ اللغات وعرفوه ووجدوا أن العربية الفصحى، قد استمرت وقويت وبقيت على مرّ العصور حية، الأمر الذي لم يجدوا مثله لأي لغة أخرى وبحثوا عن سبب ذلك فوجدوا أن هناك تلازماً بين الدين واللغة العربية وأدركوا أن خلود القرآن واستمرار رسالته وفهمه مرتبط بقوة العربية الفصحى وفهمها فوقفوا ضد حركات العاميات وانتشارها وحاولوا وقف زحفها حتى تبقى الفصحى حافظة للقرآن ويبقى القرآن حافظاً لها مفهوماً بها يستعملها الناس في حياتهم وفيما بينهم، فيعلمون دينهم الذي نزل بها ويعلمون فكر العربية وأدبها وكل مافيها، وهذا هو حفظ القرآن للغة وليس المعنى الذي يذهب إليه محبو العامية، وقد فهم المستعمرون هذا التلازم بين اللغة والدين وأنها الوحدة الكبرى الباقية للعرب، فحاولوا نشر العاميات للنفاذ من خلالها إلى مايريدون.

إن الطفل والمرأة والأمي يتكلمون لغة القرآن ويعرفونها ويدركون جمال معناها. والركون إلى العامية نقلة بعيدةً عن اللغة الفصحى وفي استمرار انتشار العامية والفكر العامي صرف للسان وصرف للفهم عن اللغة الحافظة للقرآن وهو عكس مايذهب إليه مفكرو العامية. وترديدهم بأن القرآن حافظ للعربية ترديد لآراء قيلت بوجوب المحافظة على سلامة الفصحى وليس وجوب انتشار العامية والاعتماد على فكرها وأدبها وثقافتها وإهمال الفصحى اعتماداً على زعمهم أن الله تكفل بحفظها لأنها لغة القرآن.

وقلبهم للمعاني واحتجاجهم لما يذهبون إليه ليس دليلاً على عدم الفهم فحسب، لكنه قد يكون محاولة من الأذكياء منهم لإزالة الخوف من نفوس الناس الذي يحرصون على بقاء اللغة وبقاء الدين، فحاولوا إزالة هذا الخوف من النفوس وطمأنوا الخائفين على القرآن زاعمين لهم أنه إذا كان مصدر خوفهم هو الحرص على بقاء القرآن صافياً مفهوماً فإن القرآن على حد تفسيرهم للآية محفوظ من عند الله، وعلى هذا الرأي والتفسير العلمي المتقن فلا معنى للاهتمام باللغة الفصحى ولامعنى للتردد عن استعمال العامية.

ومادام أصحاب الفكر الإقليمي والثقافة العامية ومراسلو الصحف الشعبية وكتابها قد أجمعوا في تفسيرهم على أن القرآن قد تكفل بحفظ اللغة وأن الله قد وعد بذلك في كتابه واستشهدوا بآية من القرآن وحددوها فإن الأمر يقتضي نقل آراء المفسرين الذين فات عليهم

هذا الفهم الجديد الذي فهمه العوام لمعنى القرآن. ولابد من وضع آراء المفسرين القدماء والمحدثين وعرضها أمام مفسري الفكر العامي، لعلهم يعرفون الحق ويعودون إليه. أو تقوم عليهم حجة الإعراض والقول بالقرآن بلا علم.

يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى (**إنا نحن نزلنا الذكر**) رد لإنكارهم واستهزائهم في قوله تعالى: (**يا أيها الذي نزل عليه الذكر**) كذلك قال إنا نحن فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والثبات وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد ﷺ وبين يديه ومن خلفه رصد حتى نزل وبلغ محفوظاً من الشياطين وهو حافظه في كل وقت من كل زيادة ونقصان وتحريف وتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة فإنه لم يتول حفظها إنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيها بينهم بغيا، فكان التحريف، ولم يكل القرآن إلى غير حفظه. فإن قلت فحين كان قوله (**إنا نحن نزلنا الذكر**)، رداً لإنكارهم واستهزائهم فكيف اتصل به قولهم (**وإنا له لحافظون**) قلت: قد جعل الله ذلك دليلاً على أنه منزل من عنده[١٠]، لأنه لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه، وقيل الضمير (له) لرسول الله ﷺ كقوله (**والله يعصمك من الناس**)[١١].

أما الرازي فيقول في تفسير الآية المذكورة: قال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون). وفيه مسائل. ثم ذكر من المسائل مانحن بصدد الحديث عنه وهو معنى الحفظ للقرآن الذي أشار إليه مفسرو الآية وموجهوها إلى أغراضهم وأهوائهم، يقول (إنا نحفظ ذلك الذكر من التحريف والزيادة والنقص). ثم استطرد في تفسير حفظ القرآن وكيف يتم ذلك، فقال: (**فعجز الخلق عن الزيادة فيه أو النقصان عنه لأنهم لو زادوا فيه أو نقصوا عنه لتغير نظم القرآن** فيظهر لكل العقلاء أن ذلك ليس من القرآن... وأعلم أنه لم يتفق لشيء من الكتب مثل هذا الحفظ فإنه لاكتاب إلا وقد دخله التصحيف والتحريف والتغيير، إما في الكثير منه أو في القليل، وبقاء هذا الكتاب مصوناً عن جميع جهات التحريف مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على إبطاله وإفساده من أعظم المعجزات وأيضاً أخبر الله تعالى عن بقائه محفوظاً عن التغيير والتحريف[١٢].

أما سيد قطب في تفسيره في: «ظلال القرآن» فيقول عن معنى الآية التي يتخبط كتاب وفقهاء الأدب الشعبي في معناها: (وقد أراد الله لهم خيراً مما يريدون بأنفسهم، فنزل بهم الذكر يتدبرونه ويهتدون به، وهو خير لهم من تنزيل الملائكة بالحق الأخير: (إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون).

فخير لهم أن يقبلوا عليه. فهو باق محفوظ لايندثر ولا يتبدل، ولا يلتبس بالباطل ولا يمسه التحريف وهو يقودهم إلى الحق برعاية الله وحفظه، إن كانوا يريدون الحق.. لأنه أراد بهم الخير فنزل لهم الذكر المحفوظ)[١٣].

إذن الحفظ الذي يحتج به «الطيبون» من الناس في الآية يعني حفظ القرآن من الزيادة والنقص والتحريف، وقد صدق الله، فقد تم حفظ كتابه قرآناً يتلى، أُحصيتْ آياتُه فلا يستطيع أحد زيادة آية واحدة أو نقصها، وحفظت سوره فلا يمكن زيادة سورة واحدة فيه أو نقص ذلك، وأُحصيتْ حروفه حرفاً حرفاً فلا يمكن الطمع لأحد أن يزيد حرفاً أو ينقص حرفاً. وهذا هو معنى الحفظ الذي فهمه فقهاء العامية ومفسروها فهماً آخر.

وليس هناك في نصوص القرآن ضمان بدوام اللغة العربية الفصحى واستمرارها حية يستعملها كافة الناس ويفهمها القطاع الكبير من المجتمع، إذا لاسمح الله أعرض عنها أهلها، وأحلَّت كل طائفة منهم لهجتها العامية محل لغتها العربية. وأسوق على ذلك مثلاً يعرفه كل من يبحث عن الحقيقة والمعرفة ويريد الصواب وينظر إلى الأشياء كما هي في طبيعتها، وليس كما يريدها هو. إن اللغة العربية الفصحى لغة القرآن كانت هي اللغة التي تكتب بها علوم الدين ويقرأ بها القرآن ويتكلمها العلماء وعامة الناس، وكانت هي لغة الحياة والفكر والأدب والدين في جميع الممالك والدول الإسلامية الشرقية من إيران حتى سد الصين. وكانت الدول الإسلامية التي قامت في تلك الديار تتكلم العربية لغة رسمية ـ كما يصفها عندنا اليوم العوام.. وماكان لها منافس في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة. ولم يستعمل المسلمون في شئون الحياة غيرها لأنها لغة القرآن ولغة الأمة المسلمة، ولغة الوحدة التي تجمع كيان الأمة كلها.

وعندما شعرت تلك الأقاليم الإسلامية بالضعف والتفكك نشأ عندها شعور بقوميتها واقليميتها مثل شعور هواة الفكر العامي والثقافة العامية بأقليتهم وقوميتهم، فاهتم المسلمون في تلك الدول بلهجاتهم المحلية، وزعموا أن اللغة الفصحى لغة القرآن واللغة الرسمية محفوظة ولاخطر عليها مثلما يزعم أخواننا هواة العامية اليوم، وبدأت تظهر إلى الوجود فكرة مدح لغاتهم ولهجاتهم المحلية وربط قوميتهم بها وأصبح لكل قطر لغة محلية مع اللغة الرسمية واستمر الحال تدريجياً بعض الوقت حتى تأصلت في نفوسهم مكانة لهجاتهم المحلية ومالبثت أن أصبحت تلك اللهجات لغات مستقلة لتلك الأمم والأقطار، وبدأ ذلك بظهور شعراء مبدعين باللهجات المحلية العامية مع اللغة العربية الفصحى فتوجهت الأقاليم الإسلامية إلى لهجاتها ولغاتها المحلية ومجدت شعر شعرائها الذي بدأ ينظم بتلك اللغات، وبدأ الابتعاد شيئاً فشيئاً عن لغة القرآن الحافظة له كما يزعم العوام، وقام الشعر والشعراء بدور جلي في تهيئة الفكر واللغة المحلية للانفصال والاستقلال عن العربية الفصحى ولم يمر قرنان حتى استقلت الأقاليم الشرقية بلغاتها المحلية وانتهت العربية من هناك إلى الأبد. ولم يحفظ القرآن اللغة العربية لهم في بلادهم عندما أهملوها، وأحلوا لغاتهم المحلية مكانها.

ونحن واياهم في نظر الإسلام سواء، والقرآن لايميز بين عربي مسلم، ومسلم من غير العرب. ولو كان القرآن قد تكفل بحفظ اللغة العربية الفصحى للمسلمين حتى تبقى لغة لهم لحفظها للمسلمين في باكستان وإيران، وبنغلاديش، وتركيا وغيرها وكلها دول اسلامية وشعوب مسلمة، ماتت اللغة العربية عندها وانحصرت معرفتها في القلة من علماء تلك الأمم مثلما هي حال اللاتينية عند المسيحيين، حتى وإن بقي القرآن متلواً وبقيت الدول إسلامية. أما إن كان لدى مفكري العامية رأي أو دليل بأن القرآن قد تكفل للعرب خاصة بحفظ لغتهم العربية الفصحى وضمان بقائها فليعلُنوا ذلك ويأتوا بشهدائهم إن كانوا صادقين.

والدول التي مثلت بها واقع مشاهد محسوس أمام الأنظار ولا أظن مفكري العامية يستطيعون القول بأن هذه الدول تتكلم العربية وأن القرآن قد حفظ العربية لها. ونحن وتلك الشعوب في حكم القرآن سواء. فلماذا لم يحفظ القرآن العربية الفصحى لهم وهم مسلمون مثلنا عندما لم يحفظوها هم لأنفسهم ؟ وكيف ضاعت العربية التي كانت لغة القرآن

ولغة الأمة عندهم على مدى خمسة قرون عندما أراد أهل تلك البلاد إحلال لهجاتهم محلها ؟

لقد كان دعاة الإقليمية والانفصال منهم يقولون مثلما يقول العوام هنا : إن اللغة العربية لغة القرآن محفوظة به ولاخوف عليها، حتى غرروا بالطيبين الذين صدقوا نبوءاتهم فذهبت لغة القرآن وقامت لغات أعجمية مكانها ولم يستطيعوا العودة إلى الصواب .

إن الدفاع عن اللغة العربية ليس لأنها لغة القرآن فحسب، ولكن لأنها أيضاً لغة الأمة العربية في جميع أقطار الأرض ولأنها عنوان الوحدة التي تجمع هذه الأمة، ولأنها حوت موروث الأمة الفكري والحضاري منذ ألف وخمسمائة سنة، ولأنه لاتوجد عامية يمكن أن توحد العرب أو تجمع تاريخهم وأصالتهم غير العربية، ولأن الاهتمام بالفكر العامي والثقافة العامية سيشغل حيزاً من الأجدى شغله بما يطور الفصحى ويقربها إلى حياة الناس الخاصة والعامة ويجعلها إن لم تكن لغة الحديث اليومي في كل شيء لغة باقية مستمرة كما كانت من قبل يفهمها كل العرب على اختلاف لهجاتهم وتباين أوطانهم، وعلى اختلاف نصيبهم من العلم والمعرفة .

والاهتمام بالعامية كما هو حاصل في الوقت الحاضر سيجعل اللغة العربية الفصحى والقرآن الكريم الذي يزعم أنصار الفكر العامي أنه يحفظها، سيجعلها لغة أخرى، هي وقرآنها، لايفهمها عامة الناس ولايتذوقون جمالها الفني ولايدركون معانيها السامية، ثم تبعد شيئاً فشيئاً حتى تصبح لغة دين ـ وليست لغة حياة ـ يتعامل بها القلة من الناس مثلما هو حال اللاتينية التي أصبحت لغة الكنيسة وليست اللغة الحية للأمم المسيحية ويصبح فهم العرب للقرآن كفهم المسلمين من غير العرب له حيث يقرأونه دون أن يعرفوا معناه أو يتلذذوا بجماله الفني وبلاغته المؤثرة في الألباب والساحرة للفؤاد عند من يدركها ويعرفها دون مترجم أو رجل دين يقف أمامهم يفسر لهم مايقيمون به شعائرهم الدينية ثم تنتهي صلتهم القوية به في ذلك المكان مثل ماهو حاصل في البلاد الإسلامية كلها التي غلبت عليها لهجاتها المحلية فتركت لغة القرآن فبعدت عنه وانغلق فهمه عليها . وقد أردك ابن خلدون خطورة بعد اللسان عن استعمال الفصيح من الكلام وقال : إن ذلك سبباً بانغلاق القرآن والحديث على المفهوم ووصف السمع بأنه أبو الملكات اللسانية(١٥) .

واستمرار لغة العرب ولغة القرآن. لغة دين ولغة حياة ولغة أمة توحد أجزاءها. رغم اختلافاتها السياسية والإجتماعية ورغم تعدد اتجاهاتها هو ماكان يحسدنا عليه أعداؤنا.

وقد تحدث أكثر من عالم أجنبي.وحاضر أكثر من مفكر عن معجزة اللغة العربية. وذكر الذين يهتمون بدراسة اللغة كنشاط انساني استغرابهم لاستمرار اللغة العربية الفصحى في طريق الحياة حتى الآن وخروجها على القاعدة.

وقالوا : إن هذا مالم يحدث لأي لغة من لغات الأمم. واستكثروا بقاءها وصمودها رغم ضعف أهلها وذهاب سلطانها منذ أمد بعيد. وقد حاول الغربيون الذين حتمت مصالحهم عليهم التعامل مع الفكر العربي خلخلة بنيان اللغة وبعث الشك في قدرتها على الدوام والاستمرار القوي الذي يلبي حاجة الأمة حتى يدخلوا من أضعف نقاط الارتكاز في منعطف الفهم الذي يتمتع به عدد غير قليل من العرب ولله الحمد على كل حال.

الركيزة الخامسة :

من الحجج التي تعرض في تبرير استمرار العامية آراء تقول إن ٨٠٪ من سكان الجزيرة يفهمون العامية أدباً وفناً[١٦] وإن الاقبال على صفحاته في الصحف شيء لامثيل له مما يدل على أن أغلب الناس يحبون الأدب العامي[١٧]. وإن التعبير العامي هو الوسيلة المتاحة للكثير من الناس[١٨].

هذه الحجج نماذج حية تدل على استبداد الهوى وميل العاطفة عند أنصار الأفكار الإقليمية وأمثلة أخرى على المغالطة المكشوفة، لأن إيراد النسبة الكبيرة وهي ٨٠٪ لايقوم على أساس صحيح وليس الغرض منه غير التهويل بشعبية العامية وكثرة عشاقها. وهي نسبة غير صحيحة للأسباب التالية :ـ

أولاً : الذين يشيرون إلى هذه النسبة لايعرفون عدد سكان المملكة حتى يحددوا نسبة العوام منهم بهذا العدد ولم يقوموا باحصاء رسمي ولم يعتمدوا على مصادر علمية تحدد الذين يفهمون العامية ويحبونها. ولم يشيروا إلى مصادرهم التي استقوا منها معلوماتهم.

ثانياً : الحديث عن نسبة ٨٠٪ أو أي نسبة كانت، حديث عن الشعر النبطي خاصة وليس

عن كل أنواع الفنون العامية من الشعر وغيره في مناطق المملكة كلها[١٩]. والشعر النبطي شعر إقليمي لايفهمه إلا أبناء القبائل العربية وبعض حاضرة نجد. ونسبة هؤلاء إلى السكان لاتصل إلى هذا العدد على فرض أنهم جميعاً يفهمون الشعر النبطي، وليس الأمر كذلك ففي هؤلاء نسبة لابأس بها لاتفهم الشعر العامي ولا تطرب لـه ولاتعرف معناه وقد سألت في بيت الدكتور سعد الصويان شابين من أساتذة جامعة الملك سعود أحدهما من منطقة القصيم والآخر من اليمامة عن معنى بيتين من الشعر العامي «النبطي» ومعناهما من الوضوح بمكان إذ إن موضوعهما خلق الكرم والمروءة واحترام الجار ومكانته عند العرب. فلم يعرفا مما أقول شيئاً حتى تدخل الدكتور سعد، وترجم لهما معنى البيتين العاميين ترجمة فورية. واحتج لقصر فهمهما بأن ملكة الشعر وفهمه مختلفة لدى الناس حتى وإن كانوا يفهمون لغته التي قيل فيها فأتيت لهما ببيتين من الشعر الفصيح يعنيان نفس المعنى الذي عناه البيتان السابقان فنهما معناهما رغم أنهما لم يسمعا الشعر العربي أو العامي من قبل كما ذكرا لي.

إذاً النسبة مبالغ فيها إذا أريد بها السكان عامة وليست دقيقة، أما الإقبال عليه وعلى ماينشر في الصفحات الشعبية، ممن يفهمه فهي حقيقة لأن الصفحات الشعبية أصبحت هي الوسيلة لكل من يريد أن يقول في العامية رأياً أو يعرف عنها شيئاً.

وإقبال نسبة كبيرة من الشباب المتعلم المثقف على صفحات الأدب العامي تجعل خطورته متحققة للأسباب التالية :

أولاً : إغراؤهم به لسهولته وقرب مأخذه عليهم. وكثرة الاعتناء بالعامية وبأدبها إنْ شعراً وإنْ نثراً تجعل الخوف على فكر الشباب وثقافته وارداً وتجعل الابتعاد به عن لغة دينه وأمته أمراً متحققاً، ولاسيما إذا وجدوا أن العامية مهيأة لهم ووسائل الإبداع فيها ميسرة بل مشجعة مفضلة.

ثانياً: النسبة الكبيرة التي تقبل على العامية في الوقت الحاضر من الشباب الذين لايعرفون العامية التي كانت منتشرة قبل عشرين عاماً وإقبالهم على العامية الآن وإتاحة أسباب تعلمها والاهتمام بها من وسائل الإعلام عامة، يصرفهم عن التعليم ويحول بينهم وبين صلتهم بالثقافة العربية والإسلامية ويحد من نشاطهم الفكري. مع أن مايبدعون من أفكار عامية في

الوقت الحاضر يعد متخلفاً عن العامية التي كانت قبل ثلاثين عاماً . وبناء شعرهم وموضوعاته وصوره وفنونه مختلفة ومتخلفة أيضاً .

الركيزة السادسة :

تقول: إن أغلب مفردات العامية والأدب العامي عربي فصيح ولا يمكن أن يكون فيه خطورة على اللغة العربية(٢٠).

أما أن أغلب مفرداته عربية فصيحة سليمة المبنى والمعنى فنحن لانختلف مع أهل الرأي القائل بعربية أغلب مفردات اللهجات العامية في الجزيرة اليوم . وإن كانت نسبة لابأس بها قد بعدت عن أصلها العربي الفصيح . والكثير من المفردات العربية الفصيحة التي بقيت على ألسنة العوام قد قلب معناها ، واستعمالها اليوم ليس من الضرورة أن يكون هو ماكانت تستعمل فيه . وعلى أي حال فإن المفردات الفصيحة الباقية في العامية توجب علينا عند تحقق صحتها وفصاحتها ، أن يستغل الحريصون على لسان الأمة الواحدة هذه الفصاحة ، ثم يردون مفردات العامية إلى اللهجات القديمة ويقربونها إلى أصلها العربي مادام الأمر ممكناً ومادامت مفردات العامية صحيحة سليمة . بدل تغريب القليل من مفردات اللغة وجرّها إلى مهابط العامية والابتعاد بها شيئاً فشيئاً حتى تنطمس معالم الفصاحة فيها وتبعد القربى بينهما وتوغل العامية بالانتقال التدريجي فتوضع لها الأسس والقواعد ويرسخ استعمالها في مفكر الأجيال وينشر أدبها ويكتب حتى تصبح لغة أخرى جديدة وبعيدة عن الأصل الذي نشأت عنه واستقلت منه .

مع أن أسباب انتشار العامية في الماضي هو ـ كما لايختلف على ذلك كثير من الباحثين ـ نتيجة لندرة المتعلمين وقلة التعليم فيما مضى من فترات مرت بكل البلاد العربية ، ولم يسلم منها أي بلد عربي . أما في وقتنا الحاضر فالأمية مدبرة لاشك في ذلك والثقافة مزدهرة والتعليم يطارد شبح الجهل في جميع البلاد العربية . والاهتمام بالعامية فكراً ولغة وقيمة اجتماعية يناقض الهدف الذي تسعى إليه الأمة العربية كلها ، ويثير السؤال الذي لانجد له إجابة كافية وهو لماذا الاهتمام بالفكر العامي واللغة العامية مع وجود البديل ووجود الثقافة الفصحى وامكانية الرقي بها إلى مستوى أعلى؟ .

لقد امحت في الحاضر اللهجات العامية التي كانت قبل عشرين عاماً عاميات متباعدة ، وكان

في ذلك الوقت لايستطيع أهل إقليم من أقاليم الجزيرة فهم عامية الإقليم الآخر[٢١].

وأصبحت اللغة في طريق الاتصال والتعامل والارتقاء إلى الفصاحة، وهذا الرقي التدريجي يجب أن يكون مشجعاً ودافعاً إلى الاستمرار في استعمال الفصحى، وهجر اللهجات الدارجة واللكنات الإقليمية. ولم يبق إلا أن تقوم مؤسسات التعليم ووسائل الثقافة المساعدة الأخرى مثل التلفاز والصحف والمجلات بالابتعاد عن الابتذال اللغوي حتى تنشط اللغة العربية الفصحى. ولو حدث ذلك فلن يكون هناك شك بأن فترة قصيرة جداً ستعيد للفصحى مكانتها في نفوس الناس وعلى ألسنتهم، وتعيد لها الثقة التي بدأت تفقدها. وستصبح العامية في حيزها الضيق وعلى ألسنة العوام الذين لايعرفون غيرها وعندئذ تصبح لاخطر منها ولاضرر من بقائها حيث هي حتى وإن لم تمح من الوجود. بل إنها لن تمحى وستدوم وتبقى ويبقى من يتكلم بها ويقول الشعر والغناء والرقص بها ولا خطر في ذلك ولا ضرر منه بل هو أمر طبيعي ومقبول ولا ينكره أحد.

الركيزة السابعة:

الركيزة السابعة من الركائز التي برروا بها استعمال العامية واستمرارها، وضرورة الاهتمام بها تتلخص في نقطة واحدة. هي أن الأدب العامي في الماضي حفظ لنا في الحاضر الكثير من الأحداث التي كانت في الجزيرة إبان عصور العامية.

وقالوا: إنه مصدر وحيد لتاريخ الجزيرة السياسي والاجتماعي، وليس هناك مصدر غيره يمكن أن ينقل لنا حقائق الأوضاع التي عاشها أجدادنا في ذلك التاريخ[٢٢].

وعلى صحة القول بأخذ الشعر كشاهد يصور موقفاً من المواقف أو يصف حدثاً من الأحداث أو معركة من المعارك، إلا أن المؤرخين لايعتبرون الشعر مصدراً أساسياً للتاريخ إذا كان وحيداً في نقل الخبر ولايعتبرونه مصدراً للأحداث التي يرصدها التاريخ. يستوى في ذلك الشعر العربي الفصيح والشعر العامي، والشعر في أي لغة من لغات الأمم.

والسبب الذي جعل المؤرخين لايعتمدون الشعر هو أن الشاعر وإن انفعل بالحدث التاريخي ووصفه في شعره وتحدث عنه وذكره إلا أنه يهمل نقطتين أساسيتين يعتمد عليهما التاريخ كل الاعتماد هما الزمان والمكان. وإهمال هاتين النقطتين يفقدان الشعر الكثير من

قيمته التاريخية ويجعلانه قليل الفائدة للاعتماد عليه كمصدر وحيد للتاريخ مالم تتوفر أخبار وروايات أخرى تقرر الحادث الذي يصوره الشعر.

أما إذا توفرت الأخبار من مصادر تاريخية غير الشعر وصاحب تلك الأخبار شعر يشهد لها ويصفها ويصورها فإن بعض المؤرخين يوردون منه مواطن الشاهد حتى يجسم الصورة ويصف الانطباع الذي خلفه الحدث في نفوس الشعراء. وممن استعمل ذلك في تاريخه شيخ المؤرخين ابن جرير الطبري.

ولو تناول المتحدثون عن أهمية الشعر العامي «التاريخية» في الماضي جانباً آخر غير التاريخ وهو أن الشعر سجل ووصف مكارم الأخلاق وأشار إلى بعض الأسر والعوائل من أبناء الجزيرة العربية الذين كان لهم في ماضينا القريب أمجاد وأخلاق عرفت عنهم وسجلها الشعراء وذكروها بالكثير من قصائدهم. لو فعلوا ذلك لكانوا قد أصابوا كبد الحقيقة، ووفقوا في استعمال دلالة الشعر في مكانها المناسب لأن بعض الأسر وشيوخ القبائل العربية الضاربة في غرب الجزيرة وشرقها وفي وسطها وشمالها وجنوبها، وفرسانها وأجوادها كان لهم في الماضي ذكر وفضل ومروءة وصفها الشعر العامي وسجلها الشعراء في تلك الفترة. ولانجد لها اليوم دليلاً في زحمة الادعاء والتبجح غير ماقال الشعراء العوام وماوصفوا.

وأبناء القبائل العربية وبعض سكان المنطقة الوسطى الذين يعرفون الشعر «النبطي» العامي يعرفون أكثر من شاهد يردده الرواة وتتناقله الألسن يجسد القيم الاجتماعية الفاضلة التي عرفت عن الأمة العربية منذ القدم. وهي سجايا ورثها العربي بطبعه وجبل عليها وأداها بلغته العربية عندما كانت لغته مساعفة وطبعه مؤاتياً ولسانه طلقاً، وأدّاها بعاميته التي يحسن عندما بعدت به الحياة عن المنبع الصافي للغة التي كان يتحدثها آباؤه. وقد بقى له الخلق الكريم والجبلة التي جبل عليها، بقيا له في كلا الحالين، ولم تضعفهما الأحداث ولم يتزحزح عنهما العربي إن فصيحاً وإن عامياً. ومن قيم العربي التي حافظ عليها وأبقاها حية في ضميره وعلى لسانه، الكرم، وسخاء النفس والبشاشة للضيف، وطارق الليل، وإطعام الجائع وإكرام الغريب، والدفاع عن المحارم، والغيرة على الحوزة، والتسامح في موضع التسامح، أو الانتقام عندما لاينفع شيء غيره.

كل تلك القيم الاجتماعية كانت سلوكاً وطبعاً جبل عليه العربي ابن هذه الجزيرة، فافتخر بها ومجد الصابرين عليها وتغنى بها وعبر بلسانه الذي يعرف ويحسن وكانت العامية هي لسانه الذي ينطق به خلال القرنين الماضيين لاشك بذلك.

أما القول بأن الشعر العامي هو المصدر الوحيد الذي نقل إلينا أحداث التاريخ الماضي التي حدثت في جزيرة العرب، ولامصدر سواه. فهو قول أقل مايجب أن يوصف به أنه إجمال وتعميم لايسنده شيء من الحقيقة العلمية. وكان الأجدر بمن يقول بهذا القول أو يعتقد هذا الاعتقاد أن يحدد مصدر التاريخ ويعرّفه حتى يميز الباحث إن كان تعريفه ينطبق على الأدب العامي أو لاينطبق عليه.

إن إطلاق القول بأن الشعر العامي هو مايعول عليه في دراسة أحوال سكان الجزيرة في مختلف النواحي أو أنه كل ماسيجده الباحث فهي أقوال وأراء ليس لها نصيب من الحقيقة ولاتعتمد إلا على حسن النية بفهم القارىء. ولو صدر هذا القول عن كاتب واحد لاعتبر زلة قلم أو عثرة لسان. أما وقد قال به أكثر من كاتب وتحدث عنه أكثر من متحدث، وتواطأت على القول به الأراء كلها[٢٣] التي تتحدث عن العامية، حتى كاد يصبح قناعة وأمراً مسلماً به. فلابد والحال كذلك من دراسة حقيقة هذه الأقوال وبيان الخلل العلمي فيها وخطأ استعمالها، استعمالاً لايسنده إلا هوى النفس والضرب بعلم القارىء وعقل الباحث عرض الحائط.

الأمر الأول: هو أن أول نقطة تطرح للمناقشة هي قول القائلين بالرأي السابق حيث عمموا الحكم على الجزيرة العربية كلها ولم يستثنوا منها موضعاً مع أن في الجزيرة مدناً وعواصم إسلامية لم تخبو بها شعلة العلم ونور الإيمان ولو لم يوجد من ذلك غير مكة المكرمة والمدينة المنورة ومن فيهما من العلماء وأهل الذكر وحلقات الدرس لوجب على من يرسل القول بلا دليل التروى قبل إصدار الحكم. فالجزيرة لم ينقطع تاريخها كلها[٢٤]، ويكفى أن حُجاج الأمصار الإسلامية كانت تفد كل عام ويصحب قوافلها العلماء والمؤرخون وكتاب الرحلات الذين يصفون أحوالها ويصفون الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة التي تسلكها قوافل الحجاج من جهات الجزيرة الأربع ويصفون كل جزء من هذه الجزيرة وكل رحلة ومنزل، ثم يصفون الحياة في الحجاز وفي الطرق المؤدية إليه ومسالكها من نجد واليمن

وغيرهما. وسأشير إلى بعض الرحلات التي فصلت الحديث عن أحوال الجزيرة في القرون التي بدأت فيها العامية تنتشر وينظم فيها الشعر، وقد وصف كتابها حياة السكان وحرفهم وعددهم وطرق معيشتهم وتكوينهم السياسي وتركيبهم الاجتماعي والظروف التي تسود في كل عام وتحدثت هذه الرحلات عن واقع الجزيرة وسجلت أخبارها، ومنها :ـ

٠١ رحلة القاصدين، ورغبة الزائرين ـ عبد الرحمن بن أبي القاسم النساوي، حج عام ١١٤١هـ.

٠٣ رحلة الوزير الاسحاقي ـ أبو محمد الشرقي الاسحاقي، حج عام ١١٤٣هـ.

٠٤ بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام ـ عبد المجيد بن علي الملقب بالزيادي، حج عام ١١٤٨هـ.

٠٥ رحلة إلى الحرمين ـ أحمد اللكوس الحفيكي، حج عام ١١٥٢هـ.

٠٦ الرحلة الحجازية ـ أبو مدين محمد بن الصغير الدرعي، حج عام ١١٥٢هـ.

٠٧ الرحلة الكبرى ـ محمد بن عبد السلام الناصري، حج عام ١١٩٦هـ.

٠٨ احراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام ـ محمد بن عبد الوهاب بن عثمان، حج عام ١٢٠٠هـ(٢٥).

٠٩ مرآة الحرمين إبراهيم رفعت ـ حج عام ١٣١٩هـ.

نورد هذه الرحلات مجرد تمثيل ونماذج لما كان يكتب كل عام عن الجزيرة وعن أهلها وقد اخترنا القرن الثاني عشر الهجري، وعرضنا ماكتب به وهو القرن الذي وصل إلينا به الشعر العامي، الذي يزعم الزاعمون أنه مصدر وحيد لتاريخ الجزيرة كما سبقت الاشارة. أما إذا افترضنا أنهم يعنون بالجزيرة وسطها «نجداً» ولم يقصدوا الجزيرة كلها عندما رددوا أقوالهم السابقة. فلا بد إذن على أساس هذا الفرض أن ينظر الباحث إلى وسط الجزيرة «نجد» ويعرف أحوالها، وبداية الشعر العامي الموثق الذي اعتمدوا عليه وعدّوه مصدراً وحيداً لتاريخ الجزيرة. وتاريخ الشعر العامي قد خدمه وتصدى لدراسته دراسة علمية تاريخية عدد كبير من الكتاب (٢٦) تواترت آراؤهم على أن الشعر العامي الذي عرف شعراؤه وحفظ شعرهم ونسب إليهم، بدأ في القرن الحادي عشر الهجري، ومنهم الأستاذ عبدالله بن خميس الذي يقول في

بحثه الأدب الشعبي: (وأقدم من دُوِّنتْ أشعارهم، راشد الخلاوي، وأبو حمزة العامري من أهل الأحساء. وقطن بن قطن من أهل عمان ورميزان وجبر بن سيار من أهل سدير، في نجد، وقد عاش هؤلاء في القرنين العاشر والحادي عشر من الهجرة، وكانوا ينظمون الشعر النبطي على أوزان الشعر الفصيح وتفاعليه وبحوره ولايقيمون الإعراب لفساد اللغة).

ورأي الأستاذ ابن خميس هو أقرب الأقوال إلى الصواب، ومعه أكثر الباحثين الذين حددوا بدايته في هذه الحدود. أما أبو عبد الرحمن بن عقيل وهو أحد الدارسين لتاريخ هذا الشعر فقد تلمس بداية الشعر العامي بلغة أهل نجد كما يسميه، فحاول مدّ الزمن أمام بدايته وجعل لها احتمالاً في القرن السابع الهجري مفترضاً افتراضاً بأن راشد الخلاوي ـــ الذي يعتبر شعره نمطاً خاصاً في بناء القصيدة العامية ـــ من أهل ذلك القرن. ولم يلبث إلا قليلاً حتى افترض افتراضاً آخر أنه ـــ أي راشد الخلاوي ـــ ربما يكون من أعيان القرن الحادي عشر أو الثاني عشر الهجريين واضعاً لوجوده احتمالاً في كل قرن مرّ به من السابع حتى الثاني عشر.

واحتمال يدور في بحر ستة قرون جدير بباحث مفكر مجتهد مثل أبي عبدالرحمن رفضه والشك في صحة الاعتماد عليه. وتحديد زمن شخصية موجود في أيدينا أهم نتاجها وخصائصها وهو شعرها لايمكن أن يدور الباحث بها هذه الدورة الطويلة في سلم الزمن بهذا البعد. والاختلاف فيه لايجوز أن يتجاوز الباحث في تحديده قرن أو قرنين من الزمان. ولايرضى بافتراض ستة قرون لشخصية نحفظ جلّ مانسب لها من شعر ومانسب لها من علم فلك، باحث يود أن يؤخذ رأيه مأخذ الجد والقبول. والأجدر بأن يحاول تحديد أي القرنين الحادي عشر أو الثاني عشر الهجريين يمكن أن يكون هو عصر راشد. أو ينضم إلى الافتراض الذي تقاربت حوله أراء الباحثين في تاريخ العامية. وهما القرنان العاشر والحادي عشر، ويد الله مع الجماعة. ومادام الخلاوي مشكوكاً في شعره وعصره وفي شخصه أيضاً، فلا يمكن الاعتماد على المشكوك في وجوده أصلاً، ولايمكن الاعتماد على شعره كمصدر للتاريخ، مع أن الباحثين لم يتفقوا على عصره ووجوده فضلاً عن الاستدلال بشعره.

أما أول ماحفظ من شعر عامي صحيح النسبة إلى شاعر بعينه عرف عصره ووثق ونسب

إليه نسبة صحيحة، فهو شعر حميدان الشويعر. وشعره يمكن أن يعتمد على صحة نصه وتوثيقه ونسبته إليه وهو ذات معروفة. وماسبق ذلك من شعر عامي فلا يمكن أن يعتمد عليه: إما لأن قائله مجهول الذات(٢٧)، أو لعدم تحقيق نسبة الشعر المحفوظ إلى قائل معين(٢٨) أو أن زمن الشعر وزمن قائله لايزالان مجهولين(٢٩) أو لأن النص نسب إلى عدة شعراء عاشوا في فترات تاريخية متفاوتة. مع مايصاحب النص السائب والرواية الشفوية من حذف وتعديل واضافة(٣٠).

وحميدان الشويعر كان معاصراً لظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. ومنذ ظهور تلك الدعوة وحتى اليوم و«نجد» موضع اهتمام المؤرخين من أهلها ومن الأمصار الإسلامية. سواء تلك التي انضمت إلى الدعوة وأيدتها أو تلك التي وقفت منها موقف المعارضة. وحاولت تفنيد آراء الشيخ الإصلاحية التي نادى بها. ومع حركة الشيخ وقيام الدولة السعودية في مراحلها الأولى والثانية والثالثة، والمؤرخون من أهل نجد ومن العالم العربي والإسلامي يتابعون أحداث وسط الجزيرة وأطرافها ويسجلون تاريخها يوماً بيوم وأشهر مؤرخي نجد بن بشر وتاريخه «عنوان المجد في تاريخ نجد» مطبوع محقق منشور ومنه ننقل هذه الجملة التي تظهر منحى ابن بشر واهتمامه في كل صغيرة وكبيرة تحصل في الجزيرة «نجد» وفي غيرها وتؤرخ لأحداثها، وتنقل لنا كل المعلومات الموثقة المحققة التي توفر فيها عنصر الزمان والمكان، يقول: (ثم دخلت السنة العشرون بعد المائتين والألف وفي هذه السنة اشتد الغلاء والقحط على الناس في نجد ومايليها، وسقط كثير من أهل اليمن، ومات أكثر إبلهم وأغنامهم وفي آخرها في ذي القعدة بلغ البر ثلاثة آصع بالريال، وبلغ التمر سبع وزنات بالريال وبيع في ناحية الوشم والقصيم خمس وزنات بالريال، وأما مكة فالأمر فيها أعظم مما ذكرنا بسبب الحرب والحصار وقطع الميرة والسابلة عنها)(٣١).

هذه أسطر معدودة من حوادث عام واحد حدثنا المؤرخ فيها عن كل شيء في نجد وأقاليمه وأحداث الجزيرة كلها، في الحجاز واليمن والشام والعراق ووصف القضايا الداخلية والخارجية وتحدث عن الحياة بعامة وفصل كل ذلك في ثماني صفحات من تاريخه ولم يفته أن يخبرنا بأسعار الطعام والمؤنة وكم ثمن الصاع وقيمة الوزنة وعن موت الماشية وانحباس الغيث الشيء الذي لم يلتفت إليه أكثر المؤرخين في الماضي البعيد ولا في الحاضر ومع ذلك كله يقول محبو العامية: إن

الشعر العامي هو المرجع الوحيد لأحوال سكان الجزيرة ولا مرجع غيره. ويريدون من القاريء أن يصدق ذلك ويؤمن به ويعض على العامية بالنواجذ وإلا ضاع تاريخه وضاع ماضيه. وقد لانحتاج إلا إلى هذه الإشارة من مصدر واحد. ومن أراد مزيداً من المعلومات الدقيقة المفصلة عن تاريخ الجزيرة كله فليرجع إلى كتب المؤرخين من أهل نجد ومن غيرهم التي سيشار إلى أسمائها في هذه الصفحات حتى يتأكد إن كانت الجزيرة غفلاً إلا مما يسجل العامي من أحداث أو كانت أحداثها التي واكبت انتشار العامية مسجلة موثقة محفوظة.

ولم يكن تاريخ ابن بشر الذي نقل منه النص السابق هو المصدر الوحيد الذي أرخ للأحداث في وسط الجزيرة في العصور التي انتشرت فيها العامية بل سبقه وجاء بعده عدد كبير من المؤرخين من أهل نجد خاصة، منهم على سبيل المثال لا الحصر :

١) أحمد بن بسام توفي عام ١٠٤٠هـ.
٢) أحمد بن محمد المنقور أرخ لنجد من عام ٩٤٥ ـ ١١٢٥هـ.
٣) ابن يوسف، أرخ لنجد حتى عام ١٠١١هـ.
٤) عبدالله بن عضيب، أرخ بعض الحوادث وتوفى عام ١١٦٠هـ.
٥) حسين بن غنام أرخ لنجد وحوادثها وكتب عن تاريخ الدعوة الإصلاحية فيها حتى عام ١٢٢٥هـ.
٦) محمد بن بسام، كتب عن القبائل العربية وأنسابها في نجد عام ١٢٣٣هـ.
٧) محمد بن عمر بن حسن الفاخري، توفي عام ١٢٧٧هـ، وتاريخه محقق منشور.
٨) حمد بن لعبون أبو الشاعر العامي محمد بن العبون.
٩) عثمان بن سند، أرخ حوادث نجد في القرنين الثاني عشر والثالث عشر.
١٠) عثمان بن بشر الذي اطلع على أغلب ماسبقه من كتب المؤرخين وضمن تاريخه كل الحوادث التي ذكرها المؤرخون النجديون السابقون له مما جعل لتاريخه قيمة مهمة.
١١) راشد بن جريس، كتب تاريخاً عن نسب آل سعود، وتعرض لتاريخ نجد وقد ألف تاريخه عام ١٢٩٤هـ بناء على طلب الأمير عبدالله بن ثنيان ابان ضعف الدولة السعودية الثانية واضمحلالها.

١٢) محمد بن عبدالله بن حميد توفي عام ١٢٩٥هـ ذكر تاريخ الحنابلة ومنهم أهل نجد.

١٣) ضارى بن فهيد الرشيد أملى في عام ١٣٣٢هـ تاريخ القرن الثالث عشر الهجري في نجد.

١٤) ابراهيم بن صالح بن عيسى، توفى عام ١٣٤٣هـ له تاريخ (عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في القرن الثالث عشر والرابع عشر). [وقد بدأت من حيث انتهى ابن بشر حيث تكتمل سلسلة تاريخ نجد في العصور التي ذكر محبو العامية أن الشعر العامي هو المصدر الوحيد لتاريخه][٣٢].

١٥) مطلق بن صالح بن مطلق وله تاريخ (شذى الندى في تاريخ نجد) وشاركه ابنه في ذلك.

١٦) عبدالله بن محمد بن بسام، توفى عام ١٣٤٨هـ.

١٧) ابراهيم بن محمد القاضي عاش حتى عام ١٣٤١هـ.

١٨) ابراهيم بن ضويان توفى عام ١٣٥٣هـ.

١٩) سليمان بن صالح الدخيل، كتب أحداث نجد وتاريخها، وتوفي عام ١٣٦٤هـ.

٢٠) مقبل الذكير، أرخ لنجد منذ بداية دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب حتى عام ١٣٥٣هـ واعتمد على الوثائق والمعلومات الحديثة.

٢١) محمد بن مانع كتب عن أمراء عنيزة وكتب عن أعيانها توفى عام ١٣٨٥هـ.

٢٢) ابراهيم بن عبيد بدأ تاريخه عام ١٣٦٧هـ، وانتهى به عام ١٣٥٢هـ.

٢٣) سعود بن هذلول كتب عن تاريخ الأسرة السعودية منذ بدايتها حتى عام ١٣٧٣هـ)[٣٣].

أضف إلى ذلك جهود الرحالة الغربيين الذي جابوا الجزيرة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً أثناء القرون التي انتشر فيها الشعر العامي، وقد وصفوا الحياة فيها وتحدثوا عن أحوال سكانها وحياتهم السياسية والاجتماعية، وتحدثوا عن النظم القائمة فيها وعن الشخصيات ذات النفوذ المؤثر في وسط الجزيرة وأطرافها. ورحلاتهم مطبوعة موجودة محفوظة[٣٤] وليس غرض هذا البحث جمع النصوص والإشارة إليها ونقلها فلو حصل ذلك لاحتاج الباحث في هذا الموضوع إلى أجزاء متعددة. وكتب تاريخ نجد وجهود

مؤرخيها مشهورة يعرفها أقل الناس اهتماماً في تاريخ الجزيرة وليست الاشارة إليها إلا ردّاً على الأقوال التي تكرر في الصحف والمجلات والوسائل الإعلامية الأخرى فيقرؤها من لاصلة له ولامعرفة عنده بما كتب عن تاريخ الجزيرة، فيظن ذلك صحيحاً وهو ليس بصحيح.

الأمر الثاني : على فرض أن الشعر العامي هو المصدر الوحيد الذي يعتمد عليه الباحث، وعلى فرض أننا ألغينا كل ما نعرف وأن مؤرخي نجد الذين تحدثنا عنهم قبل قليل، لم يوجدوا وأن المنقور والفاخري وابن بشر وابن غنام لم يوجدوا ولم يكتبوا حرفاً واحداً في تاريخ الجزيرة. وأن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وقيام الدولة السعودية الأولى لم يوجدا في الجزيرة معاصرة للبداية الحقيقية للشعر العامي الذي سجلت فيه أحداث الجزيرة التاريخية كما زعموا. وأن دعوة الشيخ والدولة السعودية لم يكن لهما علماء ومؤرخون ولم يكتب عنهما شيء. ولم تتخذ الدول الإسلامية والعربية منهما موقفاً سجلت فيه كل الأحداث في نجد، ولاسيما مايتعلق بقيام الدولة السعودية الأولى.

هب أن هذا كله لم يحدث حتى يصح رأيهم وحتى يكون الأدب العامي هو المرجع الوحيد لتاريخ الجزيرة ولا مرجع غيره. إذاً تكون قيمة الأدب العامي قيمة تاريخية ويكون الاهتمام به محدد بزمن معين لايتجاوزه إلى غيره. ومحبو العامية متفقون على ذلك ويرددون القول بأن تعلقهم به من أجل قيمته التاريخية ليس إلا.

ومادامت قيمة الأدب العامي قيمة تاريخية فقد مضت أهميته عندما كانت الجزيرة على رأيهم ليس فيها من يكتب تاريخها، وعلى هذا يكون تمسكهم به لقيمته التاريخية. إذن تكون هذه المرحلة منتهية لانتهاء ماسجل فيها من الشعر الماضي ولاحاجة بهم إلى الجديد منه والذي ينشرونه اليوم ويدونونه ويدافعون عنه، وهو لايسجل تاريخاً ولا يصور ماضياً. فلدينا الآن علماء ومؤرخون وكتاب يسجلون تاريخ حاضرنا لحظة بلحظة، ولسنا بحاجة إلى العامية التي تنشر في الوقت الحاضر حتى تكون مرجعاً وحيداً لأحوال الجزيرة في القرن العشرين، وفي زمن التعليم وفي وجود سبع جامعات تنتشر في مناطق المملكة، وأخرى في بقية أجزاء الجزيرة.

ولا معنى للتوسع الآن في العامية فكراً وأدباً وتاريخاً، وليس ثمة ضرورة لعقد المؤتمرات وإقامة الندوات من أجلها حيث تهدر عليها الأموال التي يذهب أكثرها إلى أيـد أجنبية وجامعات غربية، وكل مايقال ويعالج بهذه المؤتمرات والندوات هو حاضر العامية وليس ماضيها.

وهذا لايحدث من أجل أن يكون مرجعاً يعتمد عليه الباحثون في تاريخنا في المستقبل.

والأهم من ذلك أن ماقيل في الماضي من الشعر العامي الذي يحتج به مناصرو العامية قد أصبح محفوظاً مدوناً. أحصي كله وجمع من مظانه، ودُوِّن من مصادره الأساسية وحفظ في المكتبات العامة والخاصة وفي مراكز البحوث، وأصبح التحكم فيه ميسوراً وسهلت دراسته دراسة علمية، وهي الاطلاع عليه ليستفيد منه الباحثون الذين يحتاجون إلى الرجوع إليه لدراسة فترة مضت من تاريخ الجزيرة، ويطلعون على مافيه من أشياء قد يحتاجها الباحث.

وقد تم واكتمل ماقيل في الماضي من الأدب العامي ودوّن وانتهى تدوينه واحتوته كتب منشورة محفوظة ومخطوطات لدى الذين يهتمون به أو لدى الأسر التي مدحتْ به أو قاله بعض أفرادها وقد بلغت قيمة بعض مخطوطاته مئات الآلاف.

ولم يشذ من قديم الشعر العامي والأدب العامي إلا القليل عن بطون الكتب والمصادر والمراجع التالية(٣٥):

٠١ روضة الشعر، جمعت للشيخ سلمان بن حمدان آل الخليفة.
٠٢ الشوارد، الجزء الثالث، جمع عبدالله بن محمد بن خميس، دار اليمامة ١٣٩٤هـ.
٠٣ شعر شلويح العطاوي لأبي عبدالرحمن بن عقيل في ١٣٩٤/٨/١١هـ.
٠٤ شعر النبط، صدر عن ديوانه شعر النبط بالكويت.
٠٥ الأنباط والشعر النبطي، لصادق محمد بخيت.
٠٦ شاعرات من البادية، عبدالله بن محمد بن ردَّاس.
٠٧ من آدابنا الشعبية، منديل بن محمد بن فهيد.
٠٨ خيار مايلقط من شعر النبط، عبدالله الحاتم.

٠٩ راشد الخلاوي، عبدالله بن خميس.
١٠ ٠أساطير شعبية، عبد الكريم الجهيمان.
١١ ٠أبطال من الصحراء، محمد أحمد السديري.
١٢ ٠الأزهار النادية من أشعار البادية، جمع محمد سعيد كمال، ١٥ جزءاً.
١٣ ٠شعراء الرس النبطيون، فهد الرشيد، جزءان.
١٤ ٠من البادية على الصفراني فيها نتف من الشعر العامي القديم، ٩ أجزاء. أول خلطة من شعر القلطة(٣٦).
١٥ ٠الأدب الشعبي في الحجاز عاتق غيث البلادي.
١٦ ٠ديوان النبط خالد الفرج، جزءان.
١٧ ٠الأنوار الهادية من أشعار البادية، محمد البادي، جزءان.
١٨ ٠منتخبات من الشعر النبطي، لم يبين الجامع اسمه.
١٩ ٠ديوان الدرر اليتيمة من أشعار النبط القديمة، لم يبين الجامع اسمه.
٢٠ ٠من فنون البادية نايف بن زابن الحربي فيه نتف من الشعر العامي القديم.
٢١ ٠الفنون الشعبية في الجزيرة العربية، محمد بن أحمد الثميري، رواية محمد بن عبدالله الضيوحي.
٢٢ ٠الشعر العامي في نجد، عبدالله الفرج.
٢٣ ٠ديوان حمود ناصر البدر، عبدالله الدويش.
٢٤ ٠الأزهار الشادية في صحراء البادية، ناصر المحمد الحميد.
٢٥ ٠ديوان ابن جعيثن والعوني، جمع محمد اليحي، تحقيق عبدالله الحاتم.
٢٦ ٠بين الغزل والهزل، (شعر هويشل بن عبدالله)، سعد الجنيدل.
٢٧ ٠الكنوز الشعبية محمد بن مشعي الدوسري، فيه نتف من الشعر العامي القديم.
٢٨ ٠الأمثال العامية في نجد، محمد العبودي، ٥ مجلدات.
٢٩ ٠الأمثال الشعبية في قلب الجزيرة العربية، عبدالكريم الجهيمان، ٦ مجلدات.
٣٠ ٠ديوان حمد بن علي المدحوس المري.
٣١ ٠الشعر عند البدو، شفيق الكمالي.

٣٢ ـ الأدب الشعبي في جزيرة العرب، عبدالله بن خميس.
٣٣ ـ من أحاديث السمر، عبدالله بن خميس.
٣٤ ـ حكم وأشعار ليس فيها شيء مستعار، محمد بن سليمان الفوزان.
٣٥ ـ ديوان شعراء من الجزيرة العربية، محمد الهاجري جزءان.
٣٦ ـ رياض الصيد، زايد بن سلطان آل نهيان.
٣٧ ـ ديوان قاسم بن محمد آل ثاني وقصائد أخرى نبطية.
٣٨ ـ شاعرات من البادية، عبدالله بن محمد بن ردَّاس، مجلدان.
٣٩ ـ مقارنة الشعر العربي الفصيح بالشعر النبطي المليح، عبدالله العلي الزامل.
٤٠ ـ من الأدب الشعبي، عبدالله الزامل.
٤١ ـ المجموعة البهية من الأشعار النبطية، عبد المحسن أبا بطين.
٤٢ ـ التحفة الرشيدية من الأشعار النبطية، مسعود بن سند سيحان، ٤ مجلدات.
٤٣ ـ من شيم العرب، فهد المارك، ٤ أجزاء.
٤٤ ـ ديوان حميدان ومحيسن وعيون الشعر النبطي، عبدالله الخاتم.
٤٥ ـ أضواء النجوم في أشعار البقوم، حسين عائض.
٤٦ ـ روائع من الشعر النبطي، عبدالله اللويحان، معظمه من شعره وفيه نوادر من الشعر القديم.

وفي مجلة العرب، ج ١١، ص ١٣٩ ـ ٨٨٣ مقالة نفيسة للدكتور العثيمين عن هذا الشعر ومصادر تاريخ نجد وفي ج ١، س ١، ص ٨ ـ ١٣ مقالة للشيخ ابن خميس عن هذا الشعر ومعالم الجزيرة.

قال أبو عبد الرحمن بن عقيل:

ومالايوجد في مكتبتي من هذه القائمة وهو قليل استفدته من الأخ محمد الحمدان[٣٧].

وهناك بعض الكتب تحفل ببعض النتف والومضات لاسيما كتب معاجم البلدان الحديثة ابتداء بصحيح الأخبار لابن بلهيد، ثم أسرف الشيخ سعد الجنيدل في الاستشهاد بالشعر العامي. ومثل ذلك كتب التاريخ كتاريخ مقبل الذكير، وكتاب الزبير ليوسف حمد البسام

وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ونبذة ضارى الفهيد.

وبعض كتب الرحلات ككتاب مارأيت وماسمعت للزركلي. وبعض كتب الأنساب كنسب حرب للبلادي وقبيلة العوازم لعبد الرحمن العبيد والحويطات لعدنان عطار، وكنز الأنساب ومجمع الآداب لحمد الحقيل، والعرينات لفهد الربيعان، وبعض الدواوين كابتسامات الأيام لابن بلهيد وديوان مرشد البذالي ففيه مايفيد عن الشاعر سليمان بن شريم.

وبعض الكتب المؤلفة في موضوعات خاصة كرسالة الملك عبدالله بن الحسين عن الخيل الملحقة بكتاب الصافنات الجياد، وكتاب تحفة العقلاء في القهوة والثقلاء لعبد العزيز الأحيدب. وبعض كتب التراجم ككتاب عبد العزيز في التاريخ للحقيل، والأمير عبد العزيز المساعد لحسن حسن سليمان، وكتاب الشيخ ابن بسام عن علماء نجد. وبعض كتب القصص والحكايات.

وهناك مجموعات لاتزال محفوظة منها مجموعة سليمان الصالح الدخيل بمكتبة الآثار العراقية، ودواوين جمعها محمد الحمد العمري وهي الآن مودعة بجامعة الرياض. ولدى الربيعي بعنيزة عدة دواوين وأشار ابن خميس في ثبت مراجعة إلى مجموعات خطية وقد أعد فهد المبارك رحمه الله دراسة حافلة عن العوني لاتزال محفوظة ولدى الشيخ سعد الجنيدل مجموعات لم تطبع بعد. وديوان عبد الكريم الجويعد رحمه الله ـ مخطوط ضخم انتقل إلى حوزة بعض الفضلاء ولدى الأستاذ محمد الطويل مجموع خطي عن شعر البواريد وأهل شقراء. والأستاذ عبد الرحمن بن عقيل المحمد يجمع ديواناً حافلاً يضم طائفة من أشعار أهل عنيزة، كما أشار إلى ذلك الشيخ محمد العبودي في كتابه بلاد القصيم ١٦٤١/٤.

قال أبو عبدالرحمن: وقد علمت أن سمو الأمير عبدالله الفيصل يعد العدة لنشر هذا الشعر في عشرات الأسفار.

قال أبو عبد الرحمن هذا مايتعلق بالشعر العامي القديم، أما الشعر العامي الحديث فليس من منهج دراستي في هذه الأسفار(٣٨).

هذه المصادر التي أوردها وتحدث عنها أبو عبدالرحمن بن عقيل في كتابه تاريخ نجد في

عصور العامية أو ديوان الشعر العامي بلهجة أهل نجد جمعت ماقيل عن الشعر في الجزيرة العربية في الماضي. وهذه المصادر إما منشورة محفوظة بين أيدي الباحثين أو محفوظة في مكتبات الجامعة، أو المكتبات الخاصة ومكانها معروف والعودة إليها سهلة في حالة البحث عن المعلومات التي يتضمنها الشعر العامي. وقد جمعت أدسم مادة من الأدب العامي في الجزيرة في الماضي وغطت كل أجزائها التي نما فيها شعر العامية وهي محفوظة، وأكثرها منشور ومطبوع منه آلاف النسخ منتشرة بين أيدي الباحثين.

وهناك عدد من مجموعات الشعر العامي لدى بعض المهتمين به غير ما أشار إليه أبو عبدالرحمن.

وعلى ضوء هذا الاهتمام الذي تمّ يكون ماضي الجزيرة الذي سجله الشعر العامي عندما كانت قطعة من سيبريا أو جزءاً من سطح القمر حسبما يزعم محبو العامية محفوظ مدوَّن. ولاخوف عليه من الضياع وليس هناك خطر ولاتفريط به إن شاء الله.

إذن الدعوى بأن اهتمامنا بالفكر العامي في الوقت الحاضر وتركيزنا على الثقافة العامية ومحاولة نشرها هو من أجل المحافظة على الماضي وحفظه دعوى لاحقيقة لها، لأن ما في الماضي سجل وحفظ. لكن لماذا الاستمرار والعطاء الجديد المتزايد من العامية الذي تحول إلى فكر منظم وتنظير لثقافة عامية معاصرة وليست من الماضي بشيء. وإنما هو تكريس لمفهوم الفكر والثقافة العاميين حتى أصبحت ثقافتنا ومميزات حضارتنا هي الثقافة العامية. وأصبح الفكر العامي هو المفضل الذي يقرؤه الناس ويهتمون به ويعتنون بنشره وحفظه. ولم يكن فيهم واحد من المؤرخين الذين يبحثون عن حقائق التاريخ.

الركيزة الثامنة:

تقول الركيزة الثامنة التي استخلصناها من مجمل الأراء المطروحة التي تدافع عن وجود العامية واستمرارها: إن الأدب العامي والشعر منه خاصة لايختلف كثيراً عن الشعر الفصيح، وهو سليلة وفرع من فروعه، وفي استطاعة الشاعر العامي أن يأتي بما يطابق الشعر الفصيح وزناً ومعنى إذا أراد(٣٩).

الذين يدعون تشابه الشعر العامي والفصيح ويزعمون أن الاختلاف بينهما ليس اختلافاً كبيراً لم يحددوا أوجه الشبه ولاضروب الاختلاف، حتى يستطيع الباحث مناقشة آرائهم أو يتفق معهم.

فإن كان المراد اللغة: فالاختلاف بلغة كل منهما كبير وإن كان المراد طريقة النظم والإنشاد فلكل من هذين الفنين أصول ونظم مختلفة. وكذلك البناء في كل منهما والوزن والبحر والمفردات والقافية وطريقة الإنشاد مختلفة أيضاً بالرغم من أن للشعر العامي وزناً وقافية وللشعر العربي الفصيح وزناً وقافية. لكن التزام كل منهما بوزن وقافية لا يحقق الشبه بينهما. والشعر الفارسي والشعر التركي ينظمان على أوزان الشعر العربي الفصيح إلى يومنا هذا ويصاغان في قالب الشعر العربي باللغة الفارسية واللغة التركية ولم يزعم أحد أن هذين الشعرين في لغتيهما الفارسية والتركية فرع من الأدب العربي أو سليلين له أو متطورين عنه مع أنهما ينظمان على قوالب الشعر العربي وأشكاله(٤٠).

والشعر العامي له أوزان كثيرة منها ماقد يوافق وزناً من أوزان الشعر الفصيح ومنها مالايوافق شيئاً من ذلك. وأوزان الشعر العامي لازالت في علم الغيب لم تحدد ولم تعرف ولم تكتشف وإلى أن تعرف جميع أوزان الشعر العامي التي ينظم عليها يؤجل الحديث عن المشابهة التي تتحدث عنها الأقوال السابقة إن كان المراد بها الوزن والقافية.

أما الفارق الكبير المميز للشعر الفصيح عن العامي فهو اللغة. فقد فقدت لغة الشعر العامي خصلتين مهمتين من خصائص الشعر العربي الفصيح:

الأولى: الإعراب.. والثانية: التركيب..

فالإعراب هو أساس الشعر الفصيح وإذا أخلّ الشاعر بإعراب كلمة واحدة في بيت الشعر الفصيح أفسده واحتاج إلى الاتيان بالكلمة معربة صحيحة حتى يستقيم شعره. وإلاسقط في عثرات وعجز يؤاخذ عليه ولايعتبر الشعر في هذه الحال شعراً فصيحاً. أما العامي فقد أشار بعض الباحثين إلى وجوب الابتعاد به عن اللغة العربية الفصحى حتى يستقيم وزنه ومنهم الأستاذ عبدالله بن خميس حيث يقول «لاتحاول وأنت تقرأ هذا الشعر أن تسلك جادة اللغة

الفصيحة، فتسلط العوامل على معمولاتها، وتحاول الرفع أو النصب أو الجر أو السكون بالعلامات الأصلية، أو الفرعية أو الحذف أو السكون أو تحاول أن تقول عن هذا الفعل إنه مثال أو عن الآخر إنه أجوف أو عن ثالث إنه ناقص أو مهموز أو واوى أو يائي الخ. . ولاعن هذا الاسم إنه مقصور أو منقوص أو مؤنث حقيقي أو معنوي ولاعن هذا الجمع أو هذه التثنية أنهما صحيحان أو غير صحيحين. لاتحاول أن تقرأ الشعر وأنت مرتبط بشيء من هذا ولا أن تقول إذا جئت تقرؤه لم هذاهكذا، أو ليس هذا بصحيح. فالشاعر النبطي يريد أن يخضع كل شيء من أجل استقامة وزن بيته وكفى»[٤١].

ويقول في مكان آخر: (ينفرد هذا الشعر بخصائص تنأى به عن الشعر الفصيح ونظراً لأنه لم تقعد له قواعد ولم يوضع فيه دراسات يفهم على ضوئها وقد جانب كثيراً من قواعد اللغة العربية واصطلاحاتها: نحوية كانت، أم صرفية أم إملائية أم عروضية، لذا فإنه من العسير على الدارس لهذا الشعر وهو بعيد عن بيئته ومحيطه أن يركز فهمه فيه أو يخرج منه بكبير فائدة، مالم يؤده الأداء الصحيح بلهجته الخاصة به)[٤٢].

أما نظم الجملة العربية الفصيحة فكلنا يعرف أنه يرد على وجوه أقلها أن يتألف من اسمين أو من فعل واسم أو من جملتين أو من فعل واسمين، أو فعل وثلاثة أسماء أو من فعل وأربعة أسماء. .

والمؤلف من اسمين له أربع صور؛ لأن الاسمين إما مبتدأ وخبر نحو «زيد قائم» وإما مبتدأ وفاعل سدَّ مسد الخبر نحو «أقائم الزيدان»، وإما مبتدأ ونائب فاعل سد مسد الخبر نحو «أمضروب زيد» وإما اسم فعل وفاعله نحو «هيهات العقيق» وإما مؤلف من فعل واسم وله صورتان، لأنه وإما أن يتكون من فعل وفاعل نحو «قام زيد» وإما من فعل ونائب فاعل نحو «قطع الغصن» وأما المؤلف من جملتين فله صورتان لأن الجملتين وإما جملتا القسم وجوابه نحو (أقسم بالله لأكرمنك) وإما جملتا الشرط وجوابه نحو «ان تجتهد تنجح» والمؤلف من فعل واسمين له صورة واحدة وهي (كان) أو إحدى أخواتها مع اسمها وخبرها نحو قولك «كان الجو حاراً» «وأصبح الجو بارداً»[٤٣] وهذا أقل مايمكن أن يفيد معنى من المعاني في اللغة العربية الفصحى ويسمى كلاماً ولايخرج الشعر الفصيح عن هذا النظم إلا في حالة الضرورة.

أما نظم الجملة العامية فليس له قاعدة معروفة حتى الآن وقد يوافق حالاً من أحوال بناء الجملة العربية ونظمها في بعض الحالات وفي بعض التعبيرات وقد يخالف ذلك ولا أعرف حداً لأقله ولم أطلع على تحديد لنظم الجملة العامية يمكن الاعتماد عليه حتى يمكننا أن نقارن بين الجملة الفصيحة والعامية، ويعرف وجه التشابه بينهما، وليس الغرض من هذه الدراسة هو مقارنة الجملة العامية في الجملة العربية إنما الغرض بيان الاختلاف بين نظام الجملتين وبعد كل منهما عن الأخرى وانتفاء التشابه بينهما.

أما الأراء التي تقول: إن الأدب العامي والشعر منه خاصة فرع من فروع الأدب العربي وأنه سليله ومتطور عنه فهي لاتعني مايريد محبو العامية.

وأول من قال هذا الرأي ــ على حد ما أعرف ــ هو الأديب الشاعر خالد الفرج رحمه الله في مقدمته لديوان النبط، الذي يعد أول مجموع عامي صدر في الجزيرة العربية وإن سبقه ديوانان في كل من قطر والكويت. أحدهما بعناية خالد الفرج نفسه. ورأى خالد لايسر مروجي الفكر العامي في الوقت الحاضر، وهذا نص ماقال: (ولكنه في البادية تطور بحكم ــ يعني الشعر العامي ــ التطور الطبيعي إلى لغة ممسوخة مشوهة عن الأصل ولكنها محتفظة بكل عناصر أمها القديمة)[٤٤]. هذا حكمه على لغة الشعر العامي الذي نتحدث عنها في هذا البحث. أما عناصر أمة التي أشار إلى أنه احتفظ بها فهي لاتعني لغته وإنما مضمونة، وهذا تمام الجملة التي تبين مايعني الكاتب بالفرع والأصل عندما زعم أنه فرع من الشعر العربي الفصيح: (فالشعر العامي النجدي توجد فيه جميع العناصر والمميزات التي كانت موجودة في الشعر الجاهلي من بلاغة وايجاز وسرعة خاطر ودقة وصف واتحاد موضوع)[٤٥].

إذن خالد الفرج يعني وظيفة الشعر الفنية ولا يعني لغته وليس هناك خلاف في ذلك. فالشعر العامي يعبر عن مضمون تتوفر فيه العناصر التي ذكرها المؤلف. وقد تبع رأيه آراء أخرى ودراسات تذهب هذا المذهب. وهي لاتعني غير وظيفة الأدب العامي الفنية وقيمته الأدبية.

أما أنه فرع من فروع الأدب العربي الفصيح فلاشك بذلك وهو في حقيقته فرع انحدر من الأدب العربي الفصيح وبعد عنه واتخذ مساراً غير مسار الأدب العربي وتميز بخصائص

ومقومات لغوية غير خصائص ومقومات أصله وانحداره من أصل العربية لايقلل من خطورته عليها وعلى أدبها وابتعاده عنها سيجعله منافساً لها ثم لايلبث أن يحل هو ولغته محل اللغة الفصحى. ودارسو اللغات وعلماء تاريخها يعرفون أن كل مجموعة لغات قائمة اليوم رغم اختلافها وتباينها في الوقت الحاضر فإنها تعود في أصلها إلى لغات أقدم منها وتعتبر فروعاً متطورة عن أصل واحد ويجمعون كل عدد منها وينسبونها إلى مجموعة لغوية واحدة، ويعرفون أن كل لغة مع مرور الزمن يصيبها التحلل والانفكاك فتنمو فروعها حتى يصبح كل فرع لغة قائمة لاصلة لها بأخواتها الأخر التي كانت تشركها في أصلها الأول. حتى تصبح اللغات ذات الأورمة الواحدة لغات منفصل بعضها عن بعض لايربطها إلا الجذور، وصيغ التراكيب التي يستدل بها الباحثون على صلة القربى بينها. مثال ذلك مايقولون عن اللغة الفصحى، حيث يجمعون على أنها فروع من فصيلة كبيرة يطلق عليها فصيلة «اللغات السامية»... كما يقول الدكتور رمضان عبد التواب «تنقسم اللغات السامية عموماً إلى شرقية وغربية، كما تنقسم السامية الغربية إلى غربية شمالية وغربية جنوبية. أما السامية الشرقية فهي الأكادية بفرعيها البابلية والآشورية.. وأما السامية الغربية الشمالية فتنقسم إلى اللغتين: الكنعانية والأرامية أما الأولى فتنقسم إلى الكنعانية الشمالية والكنعانية الجنوبية ومن الكنعانية الجنوبية اللغة العبرية واللغة المرابية والافنيقية... ونصل إلى القسم الغربي الجنوبي من اللغات السامية ويضم لغتين هما العربية، والحبشية، أما العربية فتنقسم إلى قسمين هما: اللغة العربية الجنوبية، واللغة العربية الشمالية... أما الأولى فهي ماتعرف عند اللغويين العرب باللغة الحميرية وموطنها اليمن وجنوبي الجزيرة العربية وتنقسم إلى لهجتين السبئية والمعينية... أما العربية الشمالية فهي لغة وسط الجزيرة وشماليها، وهي التي تسمى في عرفنا اللغة العربية الفصحى»[٤٦].

ومثل هذه الصلة يقال عن اللغات الأوربية وعن اللغات الهندية الايرانية والقرابة بين اللغات المذكورة وتفرع بعضها عن بعض[٤٧] لم يمنع أن تصبح كل منها لغة يستغلق فهمها على غير أهلها.

ومابالنا نذهب بعيداً في تاريخ اللغات ونحن نعرف ماهو أقرب زمناً وأصدق تمثيلاً. فاللغات الأوربية الحية مثل الأسبانية والفرنسية والايطالية الحديثة كلها كانت قبل أقل من

أربعة قرون لغة واحدة هي اللاتينية فتفرعت وأصبحت لغات مستقلة.

وتشجيع العاميات في الوطن العربي وتفضيلها في بعض الأحوال ونشرها والحديث عن ميزاتها وفضائلها وتقريبها للناس سيبعد بها عن أصلها ويحولها في نهاية المطاف ومع مرور الوقت إلى لغات مستقلة تنفصل وتبعد عن أصلها العربي وأمها اللغة ويستغنى بالعامية عن غيرها وقد راود هذا الاحتمال ـ احتمال انفصال اللهجات العامية العربية اليوم إلى لغات مستقلة لايفهم من يتكلم واحدة منها للهجات الأخرى ـ كبار الفكرين العرب والأدباء وأهل العلم بتطور اللغات ومنهم الدكتور طه حسين الذي استشهد العوام بثنائه على أدب العامية في الجزيرة، يقول طه حسين: (فلنحذر من أن نشجع الكتابة باللهجات العامية فيمعن كل قطر في لهجته وتمعن هذه اللهجات في التباعد والتنافر ويأتي يوم يحتاج فيه المصري إلى أن يترجم لهجته إلى كتب السوريين واللبنانيين والعراقيين، ويحتاج أهل سورية ولبنان والعراق إلى مثل مايحتاج إليه المصريون كما يترجم الفرنسيون عن الايطاليين والاسبانيين)(٤٨).

وقد تحقق ماحذر منه في اللغة غير المكتوبة في لهجات الجزيرة وهي إقليم واحد يربط أهلها روابط تاريخية واحدة وجغرافية واحدة وليس بينهم فاصل جغرافي أو عرقي أو غير ذلك، وهذا الأستاذ عبدالله بن خميس يقرر حقيقة الاختلاف بين العاميات الدارجة في الجزيرة العربية فيقول إن المتكلمين بلهجة خاصة لبعض أطراف الجزيرة العربية كانوا لايعرفون اللهجات الأخرى التي كانت تستعمل في الجزيرة نفسها ولايتفاهم أهل هذه اللهجات إلا بالاشارة وفحوى القول. هذا إذا كان الحديث كما يقول الكاتب. عن الأمور المشتركة. أما إذا كان عن خصائص كل لهجة عامية فلا سبيل إلى معرفة ذلك(٤٩).

وعلى حد وصف الكاتب فلو كانت تلك اللهجات العامية التي أشار إلى بعدها عن بعضها وهي لأهل الجزيرة العربية. لو كانت مكتوبة ومكتوب أدبها وفنها وشعرها ونثرها لكانت الجزيرة اليوم كأوروبا الغربية تتكلم عدة لغات رسمية يجمعها أصل واحد ولايتفاهم الناس بها إلا بالاشارة وفحوى القول كما ذكر في حال العاميات في الجزيرة العربية في الماضي. أما الحاضر فلا نجد صعوبة في فهم أي متحدث بأية لهجة من لهجات العالم العربي وماذاك إلا

بفضل العلم والوسائل الحديثة التي حطمت السدود أمام اللغة العربية الفصحى وخففت من الانغلاق الذي كان سائداً من قبل.

● ● ●

الحواشي والتعليقات:

(١) جريدة الجزيرة، عدد ٤٧٦٨ في ١٤٠٦/٣/٤هـ.
جريدة الجزيرة، عدد ٤٧٠٨٢ في ١٤٠٦/١٢/١٨هـ.
جريدة الرياض، عدد ٥٩٩٢ في ١٤٠٥/٢/٢٥هـ.

(٢) مقدمة ديوان التميمي، عبدالله بن علي بن صفية، شرح أبي عبد الرحمن بن عقيل، الجزء الثاني عام ١٣٩١هـ.

(٣) جريدة الرياض، عدد ٥٩٩٢ في ١٤٠٥/٢/٢٥هـ.
جريدة الرياض، عدد ٥٨٧٤ في ١٤٠٤/١٠/٢٥هـ.

(٤) الأدب الشعبي، شعر أم زجل،
توفيق علي وهبة، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م. الصفحات ٦٥، ٧١، ٩٥، ٩٨.. الخ.
والجزيرة، عدد ٤٤٤١ في ١٤٠٥/٣/٣هـ.

(٥) جريدة الجزيرة، عدد ٤٤٤١ في ١٤٠٥/٣/٣هـ.
جريدة الرياض، عدد ٥٩٩٢ في ١٤٠٥/٢/٢٥هـ.

(٦) الأدب الشعبي شعر أم زجل. ص ٩٨ ـ ١٠٤
وجريدة الجزيرة. عدد ٤٣٤٨، في ١٤٠٤/١١/٢٧هـ
جريدة الجزيرة، عدد ٤٣٤١ في ١٤٠٤/١١/٢٠هـ
جريدة الرياض، عدد ٥٨٧٤ في ١٤٠٤/١١/٢٥هـ
جريدة الرياض، عدد ٤٤٤١ في ١٤٠٥/٣/٣هـ
مجلة الدوحة، ديسمبر عام ١٩٨٤م.

(٧) مجلة الدوحة، عدد ديسمبر عام ١٩٨٤م.

(٨) الشعر الشعبي، شعر أم زجل؟، ص١٠٣، ١١٥، ٢٤١.
جريدة الرياض، عدد ٥٩٩٢ في ١٤٠٥/٢/٢٥هـ
جريدة الرياض، عدد ٦٣٥٢ في ١٤٠٦/٣/١هـ
جريدة الجزيرة، عدد ٤٤٤١ في ١٤٠٥/٣/٣هـ.
وغير ذلك عدد كثير من المقالات التي نشرت في الصحافة المحلية.

(٩) وكان سعيد بن المسيب إذا سئل عن معنى آية من القرآن الكريم يقول: لا أقول بالقرآن شيئاً، تحرجا من الاقدام على تفسير شيء منه بغير معناه وخوفاً من الوقوع في الزلل.
انظر عن ذلك تفسير الطبري، الجزء الأول، صفحة ٨٥، تحقيق الشيخ محمود محمد شاكر.

(١٠) يعني دليلاً تقوم به الحجة على صدق النبوة.

(١١) تفسير الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل.
جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت بدون تاريخ.

(١٢) التفسير الكبير للفخر الرازي، تحقيق عبدالرحم محمد، المطبعة البهية المصرية، تاريخ ١٣٥٧هـ.

(١٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار احياء الكتب العربية، بدون تاريخ الطبعة الأولى.

(١٤) جريدة الرياض، عدد ٥٧١٠ في ١٤٠٤/٥/٩هـ.

(١٥) المقدمة، مقدمة ابن خلدون، نشر بيروت، بدون تاريخ.
(١٦) الشعر الشعبي، شعر أم زجل؟ ص ٩٥.
(١٧) الشعر الشعبي، شعر أم زجل؟، ص ١٥١.
وجريدة الندوة، عدد ٧٤٤١ في ١٤٠٣/١١/١٦هـ.
(١٨) جريدة الرياض، عدد ٥٩٩٢ في ١٤٠٥/٢/٢٥هـ.
(١٩) الشعر الشعبي، شعر أم زجل، ص ١١٢
(٢٠) الشعر الشعبي شعر أم زجل؟، ص ٧٦.
مقدمة ديوان النبط، جمع خالد الفرج.
جريدة الجزيرة، عدد ٣٩٧٨ في ١٤٠٣/١١/١٢هـ.
وجريدة الجزيرة، عدد ٤٣٧١ في ١٤٠٤/١٢/٢١هـ.
جريدة الندوة، عدد ٧٤٤١ في ١٤٠٣/١١/١٦هـ.
جريدة الجزيرة، عدد ٤٤٥٣ في ١٤٠٥/٣/١٥هـ.
(٢١) الأدب الشعبي في جزيرة العرب. عبدالله بن محمد بن خميس، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ، مطابع الفرزدق. الرياض.
(٢٢) مقدمة شاعرات من البادية، عبدالله بن محمد بن ردّاس، دار اليمامة للنشر، بدون تاريخ.
ـ الشعر النبطي مصدراً لتاريخ نجد، الدكتور عبدالله بن صالح بن عثيمين، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الجزء الأول، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ منشورات جامعة الرياض، (الملك سعود حالياً).
ـ مقدمة ديوان التميمي، عبدالله بن علي بن صقيه، طبعة عام ١٣٩١هـ.
ـ جريدة الرياض، عدد ٥٩٩٢ في ١٤٠٥/٢/٢٥هـ.
ـ جريدة الجزيرة، عدد ٤٤١٤ في ١٤٠٥/٢/٥هـ.
ـ جريدة الرياض، عدد ٦٣٥٢ في ١٤٠٦/٣/١هـ.
ـ الشعر الشعبي، شعر ام زجل، الصفحات ٤٢، ٦٦، ٩٣، ٩٦، ١٣٨، ١٨٥.
ولا أستطيع حصر كل الأقوال التي تزعم أن الشعر العامي مصدر لتاريخ جزيرة العربية وهي مبثوثة في الدواوين العامية والمقالات والمؤلفات والدراسات التي تتناول موضوع الشعر العامي.
(٢٣) ماعدا الدكتور عبدالله بن صالح بن عثيمين الذي حاول أن يحترز من اطلاق القول وتعميمه، انظر الشعر النبطي مصدراً لتاريخ نجد، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الجزء الأول، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.
(٢٤) الحجاز واليمن من الجزيرة العربية وتاريخها متصل لم ينقطع ولم يمس.
(٢٥) بلاد الحجاز في المخطوطات المغربية، عبد الكريم كريم،
مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الجزء الأول، الطبعة الأولى، منشورات جامعة الرياض، عام ١٣٩٩هـ.
(٢٦) منهم خالد الفرج في مقدمة مجموعة ديوان النبط، وعبدالله بن محمد بن خميس في كتابيه الأدب الشعبي في جزيرة العرب، وراشد الخلاوي وأبو عبدالرحمن بن عقيل في كتابه نجد في عصور العامية أو الشعر العامي بهجة أهل نجد، وعبدالله خالد الحاتم في كتابه خيار مايلتقط من شعر النبط، والدكتور عبدالله بن صالح عثيمين في مقالة نشرت في مصادر تاريخ الجزيرة العربية بعنوان «الشعر النبطي مصدراً لتاريخ نجد».
(٢٧) مثل شعر راشد الخلاوي.
(٢٨) مثل شعر بني هلال.
(٢٩) البدايات الأولى للشعر النبطي العامي.
(٣٠) انظر مثلاً، اعتراف أبي عبدالرحمن بن عقيل بتعديل وزن بعض الأبيات في بعض القصائد في كتابه ديوان الشعر العامي بهجة أهل نجد، صفحة ٩٢، مع أنه عالم باحث وصاحب منهج، فمابالك بمن لايعرف عن أمانة النقل وحرمة النص

نبيذ.

(٣١) عنوان المجد في تاريخ نجد.
عثمان بن عبدالله بن بشر.
تحقيق عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ. منشورات دارة الملك عبد العزيز بالرياض، الطبعة الرابعة ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م

(٣٢) مابين القوسين المعقوفين من كلامي وليس من كلام الشيخ حمد الجاسر.

(٣٣) مؤرخو نجد من أهلها، ثلاث مقالات، ربيع الأول والثاني، وجماد الأولى، عام ١٣٩١هـ
مجلة العرب، م ١ السنة الخامسة، عام ١٣٩١هـ.

(٣٤) منهم ولن، WALLEN زار نجدا ووصفها، وبالجريف PALGRAVE خاض الجزيرة وخصوصاً وسطها نجدا، دوتي DOUGHTY زار نجدا وتجول مع القبائل العربية ووصف حياتها، ولفرد WILFRID تجول في نجد ووصف حياة العرب وعاداتهم وتقاليدهم، وهوبر HUBER زار حائل وتيما والقصيم ومثله BARON NOLDE وموزل والليدى بلانت.
هؤلاء جميعاً تحدثوا عن وسط الجزيرة، وأرخوا في رحلاتهم لمشاهداتهم وذكروا أمراء الجزيرة ووصفوا الحياة العامة، وكتبوا عن الأوضاع السياسية فيها إبان عصور نشاط العامية.
أنظر: الجزيرة العربية في كتب الرحالة الغربيين، مصادر تاريخ الجزيرة العربية الذي مضت الاشارة إليه فيما سبق.
وأنظر: نشأة إمارة آل رشيد، حيث استعان المؤلف بالمعلومات التي أوردها الرحالة الغربيون عن نجد واتخذها مصدراً للمعلومات التاريخية عن الجزيرة في تلك الفترة. نشأة إمارة آل رشيد، الدكتور عبدالله بن صالح بن عثيمين ــ منشورات جامعة الرياض، ط ١، عام ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م.

(٣٥) الشعر العامي بلهجة أهل نجد، أبو عبد الرحمن بن عقيل.

(٣٦) لم يذكر أبو عبد الرحمن بن عقيل مؤلفه.

(٣٧) زرت مكتبة الأستاذ محمد الحمدان واطلعت على مالديه من دواوين الشعر العامي ومجموعاته.

(٣٨) ديوان الشعر العامي بلهجة أهل نجد، ص ٣٣.

(٣٩) الشعر الشعبي: شعر أم زجل، ص ٤٠، ٤٢، ٥٧، ٦٧، ٧٦، ١٦٧، مقدمة شاعرات من البادية، عبدالله بن ردّاس.
مقدمة مايلتقط، خالد الخاتم،
الأدب الشعبي في جزيرة العرب، ص ٢٥، عبدالله بن خميس.

(٤٠) الأدب الشعبي في جزيرة العرب، ص ٨٦، عبدالله بن خميس.

(٤١) الأدب الشعبي في جزيرة العرب، ص ٨٢.

(٤٢) الأدب الشعبي في جزيرة العرب، ص ٨١.

(٤٣) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام، ج ١، ص ١١
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٨٦هـ ــ ١٩٦٧م.

(٤٤) مقدمة ديوان النبط، جمع خالد الفرج.

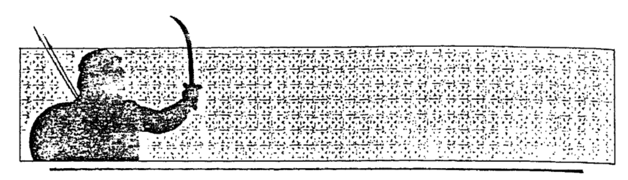
(٤٥) مقدمة ديوان النبط، جمع خالد الفرج.

(٤٦) فصول في فقه اللغة العربية، الدكتور رمضان عبد التواب، دار الخانجي القاهرة ١٩٧٣م.

(٤٧) فقه اللغات السامية
الدكتور كارل بروكلمان،
ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض (الملك سعود حالياً) تاريخ ١٣٩٧ ــ ١٩٧٧م).

(٤٨) الشعر الشعبي، شعر أم زجل؟ ص ٢٤٦.

(٤٩) الأدب الشعبي في جزيرة العرب، ص ٨١.



الجيش الإسلامي
نشأته وتطوره

د. / محمد ضيف الله بطاينه

ملخص البحث :

نزلت آية الاذن بالقتال في ظروف بيعة العقبة الثانية، وصار القتال من بعد ذلك فرضاً مكتوباً على المسلمين، ولكن لم ينبثق عن ذلك مؤسسة «الجيش» بمفهوم الجيش النظامي وما يتطلبه من رواتب وأسلحة وغير ذلك، وظل المسلمون في عهد الرسول ﷺ وعهد أبي بكر، إذ استنفروا نفروا، وإذا وضعت الحرب أوزارها رجعوا إلى مألوف حياتهم، فلما كان عام ٢٠هـ، أمر عمر بن الخطاب باتخاذ ديوان الجند، وصار الجيش منذ ذلك الحين، مؤسسة ذات كيان وشخصية واضحة تعتمد في تمويلها على الدولة.

اهتم ولاة المسلمين بأمور هذه المؤسسة، وعملوا ــ على تفاوت بينهم ــ على تطويرها في مجال الإنفاق، والرواتب، والتسليح، وإعداد مايلزم من القوة، وأساليب القتال، والعروض العسكرية، وفتح باب التجنيد للعناصر القوية على اختلاف أجناسها، والاهتمام بأسر الجند في حياة عوائلهم وبعد وفاتهم.

وقد حرص ولاة الأمر وبخاصة في الأيام الأولى من قيام دولة الإسلام على إبقاء نيات الجند معقودة على اعلاء كلمة الله، والجهاد في سبيله، والابتعاد عن الاضرار بالناس، والالتزام بالإسلام والامتثال به قيادة وجنداً، مما أكسب الجيش الوحدة في الصف، والإخلاص في النية، والصدق في الجهاد، والتغلب على الأعداء.

ولكن الجيش لم يلبث أن انغمس في الحروب الأهلية، ثم اقترب من حمى السياسة، وصارت له في فترة تالية اليد الطولى في تولية الخلفاء وعزلهم، وتوجيه سياسة الدولة، فارتبكت مؤسساتها السياسية والإدارية، وتقطعت الدولة أجزاء ودويلات متنافسة حيناً ومتحاربة حيناً آخر، مما شجع الأعداء ومكنهم من احتلال أجزاء كثيرة من ديار المسلمين.

نشــــوء الجيـش

يطلق لفظ الجيش على الجند، كما يطلق على جماعة الناس في الحرب، أو السائرين إلى حرب، أو غيرها[1]، وقد بدأت مؤسسة الجيش مثل غيرها من مؤسسات الدولة الإسلامية بداية متواضعة، ثم نمت حتى بلغت مرحلة متقدمة في جميع جوانبها.

ففي الفترة المكية، لم يقم المسلمون بعمل عسكري ضد من خالفهم من قريش أو من غيرهم فضلاً عن إنشاء تنظيم عسكري فيها، وخلت حياة المسلمين في هذه الفترة من جميع مظاهر العنف المادي حتى هاجروا إلى المدينة.

وفي بيعة العقبة الثانية، تناولت الاتفاقية مسألة حماية الرسول ومنعه من الأعداء، وذكرت الإتفاقية أن نقباء أهل المدينة بذلوا للرسول ما أراد من الحماية والمنعة، وبايعوه على حرب الأحمر والأسود[2]، ونزلت في هذه الظروف آية الاذن بالقتال، قال تعالى: ﴿أُذِنَ للذين يُقَاتَلُون بأنهم ظُلِمُوا، وإن الله على نصرهم لقدير﴾ الحج آية ٣٩. وعندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة نظّم فيها اتفاقية لحماية المدينة، أشرك فيها إلى جانب المسلمين من المهاجرين والأنصار جماعة اليهود، وجعل عليهم مع المسلمين النصر على من دهم المدينة[3]، وبعد أن كان الأنصار حسب بيعة العقبة الثانية ملزمين بحماية الرسول ومنعه من الأعداء فحسب، صار منذ معركة بدر، واجب الجهاد دفاعاً وهجوماً حظاً مشتركاً بين جميع المسلمين مهاجرين وأنصاراً[4]، ثم صار فرضاً مكتوباً عليهم وعلى المسلمين من بعدهم مطلقاً.

وقد تناول الشيباني وابن تيمية وغيرهما قضية القتال بين المسلمين وأعدائهم ومراحله ومشروعيته، فقالوا[5]: أمر الرسول في الابتداء بتبليغ الرسالة والإعراض عن المشركين قال تعالى: ﴿فاصدعْ بما تُؤمرُ وأعرِضْ عن المشركين﴾ الحجر آية ٩٤. ثم أُمر الرسول بالمجادلة بالاحسن، قال تعالى: ﴿أدعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلْهُم بالتي هي أحسن﴾ النحل آية ١٢٥، ثم أُذِن للرسول بالقتال، قال تعالى: ﴿أُذن للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلِمُوا. . .﴾ الحج آية ٣٩. ثم أمروا بقتال الأعداء إن كانت البداية منهم، قال تعالى:

﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ البقرة آية ١٩٠. وقال تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾ البقرة آية ١٩٤. ثم أمروا بالقتال بشرط انسلاخ الأشهر الحرم، قال تعالى: ﴿فإذا انسلخ الأشهرُ الحرمُ فاقتلوا المشركين﴾ التوبة آية ٥. ثم أُمِرُوا بالقتال مطلقاً، قال تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله، واعلموا أن الله سميع عليم﴾ البقرة آية ٢٤٤. وقال الشافعي بخصوص فرض القتال على المسلمين: لما مضت لرسول الله ﷺ مدةمن هجرته أنعمَ الله فيها على جماعة باتباعه حدثت لهم بها مع عون الله قوة بالعدد لم تكن مثلها، ففرض الله تعلى عليهم الجهاد بعد أن كان إباحة لا فرضاً، قال تعالى: ﴿كُتبَ عليكم القتالُ وهو كُرْه لكم وعى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعى أن تُحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم﴾ البقرة آية ٢١٦. إلا أنه لم ينبثق عن ذلك مؤسسة عسكرية، ولم يؤد الحال إلى ظهور مؤسسة الجيش بمفهوم «الجيش النظامي» وما يتطلبه من رواتب، وملابس، ومأكل، ووسائل نقل، وأسلحة وغيرها، وظل الجيش في عهد الرسول ﷺ يتكون نظرياً من جميع المسلمين، وكانوا إذا استنفروا نفروا، وإذا وضعت الحرب أوزارها رجعوا إلى مألوف حياتهم. واستمر الحال في عهد أبي بكر، فلما كان عهد عمر بن الخطاب وكثرت الأموال، قام عمر بتأسيس ديوان الجند عام ١٥هـ (٦)، وقيل عام ٢٠هـ[٧]، وجعل للجند رواتب مخصصة، وإعاشة مفروضة لأولادهم[٨]، وحظر عليهم مزاولة الأعمال الأخرى، ومنذ ذلك الوقت، صار الجيش مؤسسة ذات كيان وشخصية مستقلة، تعتمد في تمويلها على الدولة.

قيــادة الجيــش:

كان الخليفة بحكم ولايته العامة قائداً للجيش، ولكن الخلفاء لم يكونوا يقومون بهذه المهمة إلا نادراً، وكانوا ينيبون عنهم من كانوا يتحروْنَ فيهم الرأي والشجاعة والنجدة والتريث والأمانة والاستقامة، وغيرها من الصفات اللازمة للقيادة العسكرية.

فلما خرج أبو بكر بالمسلمين إلى حرب القبائل التي اجتمعت في ذي القصة، قال المسلمون: ننشدك الله يا خليفة رسول الله ألا تعرّض نفسك. فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام، ومقامك أشد على العدو، فابعث رجلاً، فإن أصيب أمّرت آخر[٩]).

وفي حروب العراق، وفي ظروف حرب القادسية، نادى عمر الصلاة جامعة، وأخبر الناس الخبر فقال العامة: سر، وسر بنا معك، ثم بعث عمر إلى أهل الرأي وإلى وجوه أصحاب النبي ﷺ واعلام العرب فقال: احضروني الرأي فإني سائر، فجتمعوا جميعاً، وأجمع جمعهم على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، ويقيم ويرميهم بالجنود، وفي ذلك ما يغيظ العدو، وقال عبد الرحمن بن عوف: بأبي وأمي، اجعل عجزها بي وأقم، وابعث جنداً، فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك قبل وبعد، فإنه إن يهزم جيشك ليس كهزيمتك، وإنك إن تقتل أو تهزم في آنف الأمر خشيت الا يكّبر المسلمون والا يشهدوا أن لا اله إلا الله[١٠].

وعلى ذلك سار الخلفاء، وكانوا يقيمون ويبعثون الجيوش يولون عليها الأمراء ويمدونهم بالعساكر، وكان خروجهم على رأس الجيوش قليلاً، ولا يحدث إلا لأمر عظيم. فقد قاد علي ابن أبي طالب الجيش في حروب الجمل وصفين، وقاد عبد الملك الجيش في حربه مع مصعب ابن الزبير، وقاد مروان بن محمد الجيش في حربه مع الخوارج والعباسيين، وقاد الرشيد الجيش لحرب رافع بن الليث، وقاد المعتصم الجيش لحرب الروم. وعندما أمرّ عمر بن الخطاب أبا عبيد بن مسعود على الجيش في حرب العراق، قال له يوصيه: فإنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث ـ الرزين الذي لا يعجل ـ، وقال في عدم تأمير سليط بن قيس على الجيش: إنه لم يمنعي من أن أؤمر سليطاً إلاّ سرعته إلى الحرب، وفي التسرع إلى الحرب... ولكن الحرب لا يصلحها إلا المكيث[١١].

أما في الولايات فكانت قيادة الجيش تعود إلى الولاة، أو من كانوا ينيبونهم عنهم، ولم تكن على أية حال، أخبار الجيوش تغيب عن الخليفة، وكانت توافيه باستمرار منذ أن تخرج إلى ساحة القتال، وحتى تعود القافلة إلى قواعدها.

اهتمام الدولة بالجيش:

كان اهتمام الدولة وولاة الأمر بالجيش كبيراً، وكان يدور في الغالب حول عدد أفراد الجيش ورواتبهم، وأمور معاشهم، وجهازهم في الحرب، ونظامهم في القتال، وسيرتهم في الناس قبل



القتال وفي أثناء القتال وبعده.

ومنذ أن اتخذت الدولة ديوان الجند، صارت تسجل أسماء المقاتلة وترتيبهم فيه على قدر النسب المتصل بالرسول ﷺ، وكانت تذكر حيث يلزم، اسم الجندي وسنه وقدّه وصفة وجهه ووصف ما يتميز به عن غيره، وأما العطاء فقد راعت عند تقديره في أول الأمر القربي من الرسول ﷺ، والسابقة في الإسلام وحسن الأثر في الدين، ولما انقرض أهل السوابق راعت في تقدير العطاء التقدم في الشجاعة والبلاء في الجهد، كما راعت عدد من يعولهم الجندي من أفراد العائلة والمماليك، وراعت عدد ما يرتبط من الخيل والظهر، وراعت البلد الذي يحله من حيث الغلاء والرخص وكان إذا حدثت بالجندي زمانة ــ علة مستديمة، مرض عضال ــ أبقت الدولة وحيث تسمح ظروفها المالية على راتبه، وأما إذا قتل، أو مات فإن راتبه يصير من حق ورثته، ويظل راتب عائلته قائماً تقبضه من ديوان الجند، أو تحال نفقتها على ديوان العشر والصدقة، وذلك حسب الأوضاع المالية للدولة.

وقد تحدث الماوردى عن ترتيب الجند في ديوان الجند، فذكر نوعين أحدهما الترتيب العام الذي يتناول ترتيب القبائل والأجناس قبيلة بعد قبيلة، وجنساً بعد جنس، وفي هذا الترتيب العام، يبتدىء بقريش الأقرب فالأقرب إلى الرسول ﷺ حتى تستوعب جميع قريش، ثم يليهم من مضر، ثم بمن يليهم من ربيعة، ثم بمن يليهم من قحطان، حتى يستوعب جميع العرب، ثم بمن يليهم من غيرهم حسب أنسابهم، أو أجناسهم، أو بلدانهم، ويرتبون في الديوان حسب السابقة في الإسلام، وإن لم تكن لهم سابقة، ترتبوا حسب القرب من ولي الأمر، أو حسب السبق إلى طاعته. وثانيهما الترتيب الخاص الذي يتناول ترتيب الجنود الواحد بعد الواحد. وفيه يراعي إلى جانب القرابة من الرسول ﷺ، السابقة في الإسلام، والأثر في الدين، والشجاعة، وفي حال تساوي هذه الأسس، يصار إلى رأي ولي الأمر واجتهاده(١٢).

فئـــات الجيش :

كان الجيش بعد إنشاء ديوان الجند يضم في حروبه وغزواته الجند النظاميين، الذين يتقاضون لقاء الجندية رواتب معلومة من الدولة، ويضم المتطوعة. والمتطوعة فريقان، فريق

كان يأخذ من الدولة مبلغاً من المال للنفقة في كل مرة كان يخرج فيها للقتال، وفريق كان يخرج للقتال متطوعاً بنفسه وماله[13]، والشواهد الواردة بخصوص الجيش في المصادر التاريخية تشير إلى فئات أخرى كانت تشترك في القتال، منها أبناء المقاتلة الذين أدركوا، وموالي المقاتلة، ومماليكهم، وعبيدهم[14]، إضافة إلى النساء اللواتي كن حتى فترة متأخرة من عهد بني أمية يصحبن الجيش برفقة أزواجهن وأولادهن يشجعنهم على القتال، ويداوين الجرحى، وقد يقاتلن على نحو ما جرى في معركة اليرموك إذ امتشقن السيوف يقاتلن بها الأعداء حين دخلوا العسكر عليهن[15].

ومع أن المسلمين كانوا يشكلون مصدر إمداد الجيش بالجنود والمقاتلين، وعليهم كتب القتال، فإن ولاة الأمر ابتداء بالرسول ﷺ، كانوا يستعينون بغير المسلمين عند الحاجة في القتال، فقد استعان الرسول ﷺ في غزوة خيبر بعدد من يهود بني قينقاع كانوا أشداء، واستعان في غزوة حنين بصفوان بن أمية وهو مشرك[16].

وكتب عمر بن الخطاب عام ١٧هـ إلى سعد بن أبي وقاص قائد الجيوش الإسلامية في العراق، أن يستعينوا بمن احتاجوا إليه من الأساورة، ويرفعوا عنهم الجزية ففعلوا. واشترك أقباط مصر مع المسلمين في غزوة ذات الصواري عام ٣١هـ أو عام ٣٤هـ[17]، ونصّت بعض عهود الأمان واتفاقيات الصلح مع أهل البلاد المفتوحة على أن ينفروا مع المسلمين، ويشتركوا معهم في قتال الأعداء، لقاء إسقاط الجزية عنهم، أو مقابل أجر مقدر لهم، فنص الأمان الذي أعطى لأهل تفليس على أن ينصر أهل تفليس المسلمين على الأعداء ونص أمان أهل شهر براز وسكان أرمينية والأرمن أن عليهم ومن حولهم فدخل معهم أن ينفروا كل غارة على أن توضع الجزية عمن أجاب إلى ذلك، وأما إذا تعرض المسلمون للخطر فللمسلمين أن يحشروهم للقتال معهم، ويكون اشتراكهم في القتال عوضاً من الجزية المفروضة عليهم[18]، وسار قتيبة ابن مسلم الباهلي عام ٩٣هـ نحو سمرقند بأهل خوارزم وبخاري حتى قال له صاحب سمرقند: إنما تقاتلني بإخوتي وأهل بيتي من العجم. ولما غزا قتيبة عام ٩٤هـ بلاد الشاش وفرغانة فرض على أهل بخاري وكسا ونصفاً وخوارزم عشرين ألف مقاتل فساروا معه إلى

السغد[١٩]، وعقد الشافعي في كتابه «الأم» فضلاً بعنوان «الاستعانة بأهل الذمة على قتال العدو» انتهى فيه إلى القول ان لابأس أن يستعان بهم في القتال على الأعداء ويعطوا أجرهم[٢٠].

وكان إذا أسلموا، بمعنى الإيمان والولاء للفكر والنظام والانتماء للحضارة، زالت الأوضاع السابقة المتعلقة بهم قبل إسلامهم، وصارت الحال الجديدة سبباً لإجراء الأخوّة والمساواة بين الجميع، مما يشير إلى اتجاه حضاري متسامح وودي. فقد نص الأمان الذي كتبه حبيب بن مسلمة لأهل تفليس من بلاد أرمينية على: ـ ..... فإن أسلمتم وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، فإخواننا في الدين وموالينا[٢١].

أعـــداد الجيش :

بدأت أعداد الجيش متواضعة لا تتجاوز المئات في بداية قيام الدولة الإسلامية، ثم صارت تكبر وتزداد بازدياد الداخلين في الإسلام، فبلغ العدد في غزوة حنين عام ٨هـ اثني عشر ألفاً[٢٢] وكان عدد الجيش في معركة اليرموك في بلاد الشام يصل في بعض الروايات إلى ستة وأربعين ألفاً[٢٣] وغزا يزيد بن المهلب عام ٩٨هـ جرجان وطبرستان في مائة ألف مقاتل من أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل خراسان وأهل الري، سوى الموالي والمماليك والمتطوعة[٢٤]، وسار هارون الرشيد عام ١٦٥هـ في خلافة أبيه محمد المهدي في الصائفة إلى بلاد الروم في خمسة وتسعين ألفاً وسبعمائة وثلاث وتسعين رجلاً[٢٥]، على أن هذه الأرقام الواردة في هذه الشواهد لا تمثل مجموع أعداد الجيش بكامله، وإنما يدل بعضها على ضخامة الحملة العسكرية وأهمية أغراضها من جهة وإلى وفرة اعداد المقاتلين من جهة أخرى، فقد كان الجيش موزعاً بين الشام ومصر وأفريقية والأندلس والعراق وخراسان والثغور الإسلامية المختلفة، وعلى سبيل المثال كان ديوان الجند في مصر يضم في زمان معاوية بن أبي سفيان أربعين ألفاً[٢٦]، وكان عدد المقاتلين المرابطين من أهل البصرة بخراسان في عهد بني أمية وأواخر القرن الهجري الأول أربعة وخمسين ألفاً[٢٧]، وعندما ترك مروان عام ١٢٧هـ مكانه في ثغور أرمينيا واذربيجان والجزيرة مخالفاً على الخليفة يزيد بن الوليد، خلّف ابنه في الثغور

بأربعين ألفاً وسار في ثمانين ألفاً. والتقى عند حمص بسليمان بن هاشم مرسلاً من جانب الخليفة يزيد في عشرين ومائة ألف[٢٨]. وعندما التقى مروان عام ١٣٢هـ بجيوش العباسيين في معركة الزاب كان عسكره عشرين ومائة ألف[٢٩].

والشواهد السابقة للأعداد المشتركة في الحملات العسكرية المختلفة، تساعد على تكوين صورة أولية عند إجراء حساب كلي لمجموع الجيش، كما تساعد بنوعيها النظامية والمتطوعة، ورغم بعض الحالات التي تدين بعض أفراد الجند النظامية بالتقاعس عن القتال والتذمر، وإرسال البدل حينا، وحشر الجند طوعاً وكرهاً، وبذل الأموال لهم وإفاضتها عليهم، وإسقاط الأسماء من ديوان الجند حيناً آخر[٣٠]، تساعد مع ذلك على بيان مدى احترام الجندية والاعتزاز بشرفها والإيمان برسالتها وبخاصة في العهود الإسلامية الأولى. ومما يجدر ذكره، أن الأوضاع المالية والاتجاهات السياسية، كانت تؤثر في أعداد الجند، وفي اختيارهم أحياناً[٣١].

عناصر الجيش وأجناسهم :

كانت الأعداد التي تشكل منها الجيش ابتداء، تنتمي في الغالب إلى العنصر العربي، فلما انطلقت حركة الفتوحات الإسلامية خارج الجزيرة العربية في عهد الراشدين واتسعت رقعة الدولة الإسلامية، صارت بعض العناصر المختلفة من أهل البلاد المفتوحة تشارك في الجيش، وكانت إذا أسلمت تسجل غالباً في ديوان الجند وتصرف لها الرواتب، فقد انفصل، على سبيل المثال، أربعة الآف جندي عن رستم في معركة القادسية وانضموا إلى المسلمين وأسلموا، ففرض لهم المسلمون في العطاء ألفاً لكل واحد منهم، وهم الذين كان يطلق عليهم «حمراء ديلم»[٣٢].

وانضم سياه أحد قادة يزدجرد في عدد كبير من الأساورة إلى المسلمين عام ١٧هـ، وأسلموا، فكتب أبو موسى الأشعري فيهم إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه عمر: أن ألحقهم على قدر البلاء في أفضل العطاء وأكثر شيء آخذه أحد من العرب، ففرض لمائة منهم في ألفين، ولستة منهم في ألفين وخمسمائة. فقال الشاعر.

ولما رأى الفاروق حسن بلائهم ∴ وكان بما يأتي من الأمر أبصرا
فسنّ لهم ألفين فرضاً وقد رأى ∴ ثلاثمئين فرض عك وحميرا[٣٣]

وتشير المصادر التاريخية إلى هذه العناصر بأسماء مثل الفرس، والحمراء، والأساورة، والسيابجة، والزط، والبخارية، والأتراك، والبربر وغيرهم[٣٤].

ومنذ العهد العباسي أخذت أعداد هذه العناصر تزداد كثافة لأسباب تتصل بمهد الدعوة العباسية، وظروف قيام دولتهم وتخوفهم على سلطانهم من جهة، ثم ضعف دولتهم وذهاب سطوتها وقيام الإمارات المستقلة من جهة أخرى. فقد كثرت العناصر الخراسانية في الجيش منذ قيام الدولة العباسية، وحاول المعتصم لذلك أن يوازن بين العناصر المختلفة في الجيش وبخاصة الخراسانية، فاستقدم الأتراك وأكثر منهم، ثم اصطنع قوماً من أهل الحوف بمصر وسماهم المغاربة، وجمع خلقاً من سمرقند وأشروسنه وفرغانه وسماهم الفراغنة فكانوا من أصحابه وبقوا بعده[٣٥]، وعندما أخذت الإمارات المستقلة في الظهور، وبخاصة منذ منتصف القرن الثالث الهجري، أقبل حكام هذه الإمارات يكوّنون جيوشاً خاصة بهم، وكانوا يستقدمون بعض الأعداد اللازمة لها من البلدان المختلفة، يستخدمونهم في الجيش مقابل المال، ويتعززون بهم، ويعتمدون عليهم في حفظ سلطانهم وتوسيع إماراتهم.

تمويل الجيش وتموينه :

كان الجيش قبل تأسيس ديوان الجند، يعتمد في تمويله وتجهيزه على ما يعدّه الأفراد من عدّة، إضافة إلى ما كانوا يقدمون من نفقة وصدقة يتطوعون بها للإنفاق على من كانت الحاجة تقصر بهم عن النفقة وتقعدهم عن الخروج إلى القتال، وكان الأفراد يتدبّرون المال مما كان بين أيديهم من زراعة، أو تجارة، أو إبل، أو ماشية، أو حظهم من الغنائم، وكان يعتمد من جهة أخرى على ما تقدمه الدولة من سلاح وخيل كانت تشتريها من حظها من خمس الغنائم وما تأخذه من أهل الذمة على سبيل الجزية، وما كان يصرف من أموال الزكاة في هذا السبيل[٣٦]

وبعد تأسيس ديوان الجند، صار الجند يصرفون قسماً من رواتبهم في تجهيز أنفسهم وإعداد ما يلزمهم في السفر والقتال، وورد على سبيل المثال، أن كثير بن شهاب الحارثي الذي عينه والي الكوفة المغيرة بن شعبة الثقفي على الري ودستبى وقزوين في خلافة عمر بن الخطاب، كان إذا غزا أخذ كل امرىء ممن معه بترس، ودرع، وبيضة، ومسلة، وخمس إبر، وخيوط كتان، وبمخصف ومقراض ومخلاة[٣٧]، وكان الرجل من الجند يحتاج عندما طالت خطوط القتال، على نحو ما جرى في غزوة تبوك، إلى بعيرين: بعير يركبه وبعير يحمل ماءه وزاده[٣٨]، وعندما صارت خطوط القتال تمتد إلى ما وراء العراق وما وراء خراسان وغيرها من المناطق الجبلية والوعرة، صار الجند يستخدمون إضافة إلى الإبل، البغال في حمل أمتعتهم وموادهم[٣٩]، ولذلك كان القادة يتخيرون فصول الخصب والدفء من السنة تخففاً من حمل الزاد والمئونة، وتخلصاً من متاعب البرد والحاجة إلى الإدفاء[٤٠]، وكانت الجيوش تخرج أول الأمر من مدينة الرسول ﷺ، فلما فتحت العراق والشام ومصر أمر عمر بن الخطاب بتمصير الأمصار واتخاذ المدن لإقامة الجند فيها، وصارت الجيوش تنطلق هذه المرة من الكوفة والبصرة والفسطاط وأمثالها من مدن العسكر في هذه البلاد، ولما فتحت خراسان وأفريقية، أخذت الجيوش وبخاصة في عهد بني أمية تنطلق من مرو في خراسان، ومن القيروان في أفريقية وغيرها من المراكز العسكرية الأقرب نحو ميادين القتال، وكانت الطرق التي تسلكها الجيوش في الغالب هي طرق التجارة لما قد يتوفر في هذه الطرق من الخدمات، وبخاصة الماء الذي كانوا ينزلون عليه، فيستقون ويملأون القرب لحاجتهم منه في الطريق. وكان الجيش في منازله على الطريق يتخذ الخيام[٤١] للراحة، ويعجن ويخبز، وكان يأكل في طريقه من الثمار التي يمر بها، فقد ذكر الصنعاني أنهم كانوا يرخصون للجيش في الطعام والعلف من الغنيمة بأرض العدو، وقيل للحسن البصري: ما كنتم تصيبون في الطريق، قال: التبن، والحطب، وقيل له: الرجل يمر بالثمار قال: يأكل ولا يحمل[٤٢]، حتى إذا بلغ الجيش غايته، صار يعتمد إضافة إلى مامعه من المئونة على ما يحصل عليه من طريق الغارات والحرب[٤٣]، وكان الجيش يأكل مما يغنم، فيصيب الطعام بأنواعه، ويذبح البقر والغنم لأغراض الأكل للحاجة الماسة إلى ذلك، وعدم استطاعته على استصحاب الكفاية منه معه من دياره[٤٤]، وإذا طال به المقام كان يزرع

ويأكل . إلا أن سياسة الدولة كانت تقوم أساساً على أن لا تجمّر الجيوش في ساحات القتال، وأن لا تترك لفترة طويلة بعيدة عن أوطانها وأهلها، وإذا وقع ذلك، كان استثناء، وكان سبباً إلى السخط والفتنة، ومما جاء في خطبة الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك: «...... ولا أجمّركم في ثغوركم فأفتنكم وأفتن أهليكم»(٤٦).

وإلى جانب قيام الجند بتجهيز أنفسهم، كانت مساهمة الدولة في الإنفاق وإعداد القوة كبيرة، فقد ورد عن عمر بن الخطاب، أنه كان يحمل في كل عام على أربعين ألفاً من الظهر(٤٧)، وأنه جعل ثلاثين ألف بعير وثلاثمائة فرس ووسم في أفخاذهن حبيس في سبيل الله(٤٨)، وبلغ مقدار ما أنفق الحجاج على الجيش الذي سيّره بقيادة ابن الأشعث إلى سجستان ألفي ألف سوى أعطيات الجند حتى دعي الجيش بجيش الطواويس(٤٩)، وبلغت نفقات الجيش الذي قاده هارون الرشيد في خلافة أبيه محمد المهدي إلى غزو الروم مائة ألف دينار وأربعة وتسعين ألفاً وأربعمائة وخمسين ديناراً ومن الورق أحداً وعشرين ألفا وأربعمائة ألف وأربعة عشر ألفاً وثمانمائة درهم(٥٠)، وهي نفقات تشير إلى مركز الدولة الكبرى الذي كانت تحتله الدولة الإسلامية آنذاك في العالم.

وظيفة الجيش ومهامه:

كان القتال المهنة الطبيعية للجيش، ويعدّ كل منهما ظلالاً للآخر، ولم تستطع البشرية حتى يومنا الحاضر أن تستغني عن القتال في علاقاتها، وعدّه ابن خلدون أمراً طبيعياً لا تخلو عنه أمة ولا جيل، وردّه إلى ارادة انتقام بعض البشر من بعض غيرة ومنافسة أو عدواناً أو غضباً للملك والحكم أو غضباً لله ولدينه(٥١)، وبتعبير آخر صراع من أجل السيادة وضمانها، وجلب المصالح وحمايتها، ونشر المبادىء والأفكار وسيطرتها، وبخصوص القتال في الإسلام، فإن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية حددت بواعثه ودواعيه، قال تعالى: ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هُمُ الصادقون**﴾ الحجرات آية ١٥. وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا، هل أدلكم على تجارة**

تُنْجيكم من عذاب أليم، تُؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون﴾ الصف آية ١٠ ــ ١١ .

وقال تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله، واعلموا أن الله سميع عليم﴾ البقرة آية ٢٤٤ . وقال ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصمُوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابها على الله»(٥٢).

وفي بحث قمت به وجدت لفظ القتال يرد في خمس وثلاثين آية موزعة بين إحدى عشرة سورة وفي خمسة وسبعين حديثاً، وتفيد جميعها أن القتال قد شرع ليكون في سبيل الله ولتكون كلمة الله هي العليا(٥٣).

وقد روى أن رسول الله ﷺ بعث إلى ملوك ورؤساء وأمراء البلاد المجاورة كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام، ومما جاء في كتابه إلى أمبراطور الروم: «إني أدْعوك إلى الإسلام، فإن أسلمت فلك ما للمسلمين وعليك ما عليهم، فإن لم تدخل في الإسلام . . . . فلا تَحُلْ بين الفلاحين والإسلام أن يدخلوا فيه»(٥٤).

وكان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش، أو سرية، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ويمن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: اغزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، لا تغُلُوا، ولا تغدِرُوا، ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيتَ عدوكَ من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال ــ أو خلال ــ فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم: ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا، فإن لهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذي يجرى على المسلمين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم(٥٥).

فلما توفي الرسول ﷺ، وجه أبو بكر الجيوش لقتال الخارجين على وحدة الأمة ممن أسمتهم المصادر التاريخية بالمرتدين، وكتب إليهم مع أمراء الجيوش كتباً جاء فيها: . . . وإني بعثت إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته ألاّ يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له وأقرّ وكفّ، وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك. . . ولا يقبل من أحد إلا الإسلام فمن اتبعه فهو خير له، ومن تركه فلن يعجز الله(٥٦).

ولما فرغ أبو بكر من حروب الردة سيّر الجيوش خارج الجزيرة ليفتح البلاد المجاورة وكانت وصيته إلى أمراء الجيوش، أن لا يغلوّا، ولا يغدروا، ولا يمثلّوا ولا يقتلوا وليداً، ولا يقتلوا امرأة، وأن لا يقاتلوا الا من قاتلهم، وأن يدعوا الناس إلى إحدى ثلاث خصال، فأيتهن أجابوا إليها قبل منهم: الإسلام أو الجزية أو القتال(٥٧).

كان المسلمون يعرضون هذه الخصال على الخصوم عن طريق من كان يحسن التحدث بلسان الخصوم ممن يرافق الجيش.

وكان كثير من العرب يتقنون لغات أهل البلاد المجاورة من الفرس، والروم، والأحباش، وكانوا استفادوا الحديث بلغات هذه الأقوام عن طريق المجاورة والمخالطة والتجارة، وذكر الطبري على سبيل المثال أن خالد بن الوليد كتب إلى الفرس يدعوهم إلى الإسلام أو الذمة والجزية أو القتال وبعث كتاباً من كتبه مع رجل من أهل الحيرة، وكتاباً آخر مع رسول صلوبا، وأن المسليمن اتخذوا في معركة القادسية هلالا الهجري ترجمانا(٥٨).

وإضافة لما سبق، فإن الخلفاء وبخاصة في العهد الراشدي كانوا حريصين على بقاء نيات الأمراء ونيات جيوشهم معقودة على إعلاء كلمة الله في سبيله، وكانوا يرون تأخر الجيوش في الفتح وابطاء نزول النصر عليهم إشارة على تغيّر النيّات وتعلقهم بالمنافع المادية، تلك المنافع التي عبروا عنها باسم «الدنيا» وحذروهم منها.

قال أبو بكر: الا أنه لا دين لأحد لا إيمان له، ولا أجر لمن لا حسبة له، ولا عمل لمن لا

نية له، ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله لما ينبغي للمسلم أن يحب أن يخصّ به، هي التجارة التي دل عليها، ونجّى بها من الخزى وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة، وكتب إلى خالد بن الوليد وعياض بن غنم أمراء جيش العراق: وآثروا أمر الآخرة على الدنيا يجتمعا لكم، ولا تؤثروا الدنيا فتُسلبوهما(٥٩).

وكتب عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص: أما بعد، فتعاهد قلبك، وحادث جندك بالموعظة والنية والحسبة، ومن غفل فليحدثهما، والصبر الصبر، فإن العون يأتي من الله على قدر النية، والأجر على قدر الحسبة(٦٠).

ولما أبطأ على عمر بن الخطاب فتح مصر، كتب إلى عمرو بن العاص: أما بعد فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، إنكم تقاتلونهم منذ سنتين وما ذلك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ماكنت أعرف إلا أن يكونوا غيرهم فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم، ورغبهم في الصبر والنية، وقدّم أولئك الأربعة في صدور الناس ومر الناس جميعاً أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فإنها ساعة تنزّل الرحمة ووقت الإجابة وليعجّ الناس إلى الله ويسألوه النصر على عدوهم... وأمر عمرو الناس أن يتطهروا، ويصلّوا ركعتين، ثم يرغبوا إلى الله، ويسألوه النصر، ففعلوا، ففتح الله عليهم(٦١)، وكان من السنة التي سنّها الرسول ﷺ بعد معركة بدر، أن تقرأ سورة الجهاد عند اللقاء، وهي سورة الأنفال، وسار المسلمون من بعد ذلك على هذه السنة(٦٢).

كانت المنافع المادية في سياسة الدولة تالية على الأسباب، وهي في الغالب، نتيجة لازمة للفتوحات وثمرة مترتبة عليها، ولكن بعض الإشارات الواردة من عهد بني أمية تدل على امتزاج الأسباب والنتائج عند الدولة في حركة الفتح أحياناً، وأن بعض الولاة اتخذ حجم الغنائم المرتقبة وسيلة لإقناع ولاة الأمر بتوجيه الجيوش إلى ساحات القتال أو عدم توجيهها، فضلاً عن اتخاذ مقادير الغنائم مادة للإعلام والأخبار ابتغاء المباهاة والتفاخر في الإنجازات،

قيل إن الحجاج بن يوسف كتب إلى يزيد بن المهلب: أن اغز خوارزم، فكتب إليه يزيد، أيها الأمير، انها قليلة السلب، شديدة الكلب[٦٣].

وكتب يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك: أما بعد، فإن الله، قد فتح لأمير المؤمنين فتحاً عظيماً، وصنع للمسلمين أحسن الصنع، فلربّنا الحمد على نعمه وإحسانه، أظهر في خلافة أمير المؤمنين على جرجان وطبرستان، وقد أعيا ذلك سابور ذا الاكتاف وكسرى بن قباذ، وكسرى بن هرمز، وأعيا الفاروق عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومن بعدهما من خلفاء الله، حتى فتح الله ذلك لأمير المؤمنين، كرامة من الله له، وزيادة في نعمه عليه. وقد صار عندي من خُمس ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار إلى كل ذي حق حقه من الفيء والغنيمة ستة الآف ألف، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله.

ولما طالب عمر بن عبد العزيز يزيد بالمبلغ قال يزيد: «... وإنما كتبت إلى سليمان لأسمّع الناس»[٦٤].

التنائج المترتبة على موقف البلاد من الخصال المعروضة عليهم:

كان إذا أسلم أهل البلاد عند عرض الخصال الثلاث المذكورة سابقاً عليهم وقبل أن يقع القتال، صار لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وأما إذا رضوا الصلح واعتقدوا الذمة والعهد، فإن المعاهدات المعقودة تصبح أساس العلاقة والمطالبة بين الجانبين، فكان عمر بن الخطاب على سبيل المثال، حريصاً على أن يتم الجيش عهوده ومواثيقه لأهل العهود والمواثيق، ولما كان من المعقول أن يتعرض أهل البلاد لبعض تعديات الجند من غير إرادة من القادة والأمراء، فإن عمر بن الخطاب أوصى الأمراء أن يبرأوا من هذه الحالات في العهود التي يعطونها حتى لا ينسبوا إلى غدر أو خيانة، قال عمر: إذا عاهدتم قوماً فابرؤا إليهم من معرّة الجيوش[٦٥]، (ومعرة الجيوش هو الأذى الذي تلحقه الجيوش بدون علم وإذن الأمير).

ولما كان المسلمون بالجابية وفيهم عمر بن الخطاب، أتاه رجل من أهل الذمة وأخبره أن الناس قد أسرعوا في عنبه، فخرج عمر حتى لقي رجلاً من أصحابه يحمل ترساً عليه عنب

فقال عمر: وأنت أيضاً؟ فقال: يا أمير المؤمنين أصابتنا مجاعة فانصرف عمر، فأمر لصاحب الكرم بقيمة عنبه[٦٦]، أما إذا وقعت الحرب بين الجانبين، فإن العدوان والفساد وقتل النساء والصبيان والعسفاء ـ المستخدمون ـ والوصفاء ـ المماليك ـ ورجال الدين وغيرهم ممن لم يقاتل كانت أمواله محذورة، وكانت وصايا الرسول ﷺ ووصايا الخلفاء إلى الجيوش، أن يتمسكوا بالتقوى والصلاح ويبتعدوا عن الفساد، قال ﷺ، انهوا جيوشكم عن الفساد، فإنه ماغلّ جيش قط إلا سلط الله عليهم الرّجلة، وانهوا جيوشكم عن الزنا، فإنه مازنا جيش قط إلا سلط الله عليهم الموتان[٦٧] فإذا انجلت الحرب، وأحرز المسلمون النصر، صار الأسرى إلى القتل، أو الفداء، أو المن، والعفو عنهم، أو الاسترقاق[٦٨]، وأما سكان البلاد، فكانوا يتركون على ماكانوا عليه من قبل، لقاء ضريبة أطلق عليها الجزية، أو خراج الرأس، وضريبة على الأموال أطلق عليها الخراج[٦٩]، وبالمقابل كانت الدولة تتولى حماية مواطنيها من أي اعتداء داخلي، أو خارجي، وتقوم برعايتهم، سواء أكانوا من أهل الملة، أم كانوا من أهل الذمة والعهد.

فقد جاء في وصية عمر بن الخطاب: أوصى الخليفة من بعدى بكذا أو كذا. وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ خيراً: أن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم، . . . وإذا وقع أهل الذمة والعهد في الأسر صار على الدولة أن تفديهم وتستنقذهم من الأسر وكانت تدفع فداءهم من بيت المال[٧٠].

وذكر الماوردي أن من واجبات الخليفة، أن يحصن الثغور بالعدة المانعة، والقوة الدافعة، حتى لا تظفر الأعداء بغرة ينتهكون فيها محرما، أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دما[٧١].

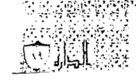
دور الجيش في صيانة البلاد من الفتن الداخلية:

وإضافة إلى قيام الجيش بجهاد الأعداء، وقتال الجيوش التي كانت تقف في طريق امتداد الإسلام ونشره بين الناس من أهل البلاد المجاورة، كان الجيش ـ منذ الخلاف على عثمان بن عفان، والخلاف بين علي بن أبي طالب ومعارضيه ـ يباشر القتال في الساحات الداخلية،

ويخوض غمار الحروب الأهلية، وقد كانت المنافسة على السلطان، والخروج على الحكام والولاة من الأسباب التي أدت إلى استمرار هذه الحروب الداخلية في عهد بني أمية وعهد بني العباس وعهود غيرهم من حكام المسلمين، وجعلت مهمة الجيش أكثر صعوبة وتعقيداً، واقتضت أن تشمل مسئولية الجيش حماية الساحة الداخلية مثلما تشمل حماية الأطراف والحدود الخارجية، وقد أدى ذلك إلى اقتراب الجيش من حمى السياسة لما صارت تصيبه مباشرة آثاره، وشجعه ذلك على التدخل أحياناً وبالتدريج في شئون الخلافة والحكم، فقد ثار على سبيل المثال، عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بالجيش على الحجاج ثم تعداه إلى الخليفة عبد الملك، وثار يزيد ابن المهلب على الخليفة يزيد بن عبدالملك، وتحرك مروان بن محمد بالجيش نحو دمشق واستولى على الخلافة، ثم تحرك بنو العباس بمن انضم إليهم من الجيش واجتمع إليهم من الأنصار ضد بني أمية وأخذوا الخلافة منهم، وإن بدا أن تدخل الجيش في شئون الدولة في العهد العباسي الأول كان بسيطاً نسبياً، فإن تدخله في العهود التالية كان واضحاً وقوياً ولا حاجة إلى تكرار ما نوّهنا عنه من قبل بخصوص سيطرة الجيش على مؤسسة الخلافة وتحكمه بالخلفاء. وخلاصته أن الجيش تحول إلى مؤسسة تدير دفة السياسة، وهو وإن كان بطبيعته من مؤسسات الدولة السياسية، فإن الفارق أن الجيش صار القابض على مقاليد السياسة والمسيطر على مؤسسات الدولة المختلفة، الأمر الذي جعل التنافس على السلطان يسير دوماً في طريق العنف المادي، مما أدى إلى ضخامة الخسائر المادية والبشرية، إضافة إلى قيام الكيانات المستقلة وإضعاف قوة الدولة أمام أعدائها، وقد هزت هذه الحال التي انحدرت إليها الجيوش محمود بن سبكتكين، فقام عام ٣٩٢هـ بغزو الهند ليكون ذلك كفارة لما كان منه من قتال المسلمين[٧٢].

أساليب القتال وأسلحة الجيش:

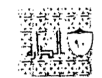
كان الجيش أول الأمر قد اتبع نظام الصف في القتال[٧٣]، ثم اقتضت الضرورة المتعلقة بزيادة العدد، وتنوع الأسلحة، وتقدم نظام الحرب، وفن القتال اتباع نظام حربي آخر عرف بنظام التعبية[٧٤]، وقيل إن مروان بن محمد الذي كان قائداً عسكرياً للجيوش في جبهة أرمينيا وأذربيجان قبل أن يكون خليفة، هو الذي اتبع هذا النظام، وأبطل منذ ذلك الوقت نظام



الصف[٧٥]، وإلى جانب هذه الأنظمة التي كان يتبعها الجيش في القتال، كان الجيش يتألف من وحدات، وذكر المسعودي بعضها قال، ان الجند ما بين الثلاثة نفر إلى الخمس مائة يطلق عليهم سرايا، وهي التي تخرج بالليل. وإذا كانت تخرج بالنهار فهي السوارب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ هو مُسْتَخْفٍ بالليل وساربٌ بالنهار﴾ سورة الرعد آية ١٠، وما زاد على الخمس مائة إلى دون الثمان مائة يطلق عليهم المناسر، وأما الجيش فأقله ثمان مائة إلى دون الثمان مائة، وإذا كان ما بين ٨٠٠ إلى ١٠٠٠ فهو الخشخاش، وإذا بلغ ٤٠٠٠ فهو الجيش الجحفل، وإذا بلغ ١٢٠٠٠ فهو الجيش الجرار أو الخميس، وإذا افترق الجيش بعد خروجه، فدون ٤٠ يدعى جرائد، ومن ٤٠ ــ ٣٠٠ مقانب، ومن ٣٠٠ ــ ٥٠٠ جمرات، والكتيبة ما جمع فلم ينتشر، والعشرة فمن دونهم كان يطلق عليهم الحضيرة[٧٦].

وذكر الطبري أن خالد بن الوليد قسم الجيش في اليرموك إلى كراديس، وجعل على كل كردوس رأساً، ووزعها ما بين الميسرة والميمنة والقلب[٧٧]، وكانت وحدات الجيش تتمايز بالرايات، وكان لكل منها قائد، وتتسمى بأسماء تدل على فعالها وصبرها في قتال الأعداء، مثل: كتيبة الأهوال، وكتيبة الخرساء[٧٨]، وكانت تتمايز أحياناً بالأسلحة، ومما يذكر في هذا المجال، أن عدة الجيش وأسلحته كانت تضم الإبل والبغال للركوب وحمل الأمتعة والمواد، وتضم الخيل للقتال.

وقد حض الإسلام على إعداد العدة ورباط الخيل في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾ سورة الأنفال آية ٦٠. وروى عن الرسول ﷺ: «من احتبس فرساً في سبيل الله ايماناً بالله وتصديقاً بوعده فإن شبعه، وريّه، وروثه، وبوله، في ميزانه يوم القيامة» صحيح البخاري باب فضل الجهاد. وحض الرسول على اتخاذ السهام فقال: «ان الله يدخل ثلاثة نفر الجنة بسهم واحد، صانعه يحتسب في صنعته الخير والرامي ومنبله»، وقال الرسول ﷺ في قوله تعالى: «وأعدوا لهم.. ألا إن القوة الرمي.. يذكرها ثلاثاً» صحيح مسلم باب حكم الفيء. ولذلك كان هذا من أسباب الاهتمام بإعداد عدة الجيش وتسليحه على مستوى الدولة والأفراد، وقد روى عن ابراهيم النخعي وعامر الشعبي



وغيرهما أنهم كانوا يحبسون خيلا وسلاحاً في سبيل الله[٧٩].

وقد بلغت العناية بالخيل، بهذا السبب، درجة كبيرة، فحفظت أنسابها وأعطيت الأسماء والألقاب مثل: الخطّار، والأشقر، والأبلق، والذائد، والفرقد، وذو الريش[٨٠]، وكان حظ صاحبها من الغنائم مثلي حظ الراجل وأحياناً يصل إلى ثلاثة أمثال حظ الراجل[٨١]، حملت أسلحة الجيش الدروع والحراب والقسي والسهام والسيوف للرجالة، كما استخدموا الطبرزينات ـ آلة تشبه الفأس ـ والتروس والخوذ، والضبور[٨٢]، والدبابات، والمنجنيقات، واستعملوا النفط أو النار الاغريقية[٨٣]، ولا ريب أن جميع هذه الأسلحة، كانت تخضع للتطوير، والتهذيب حتى تكون فعاليتها أحسن، وفائدتها أكبر، وكان الجيش نفسه يؤخذ بالتدريبات، وكان عرض الجيش واحداً من أساليب العناية به، ورفع مستوى فعاليته القتالية.

فقد اتخذ المسلمون في مصر فضاء كانوا يدربون فيه خيولهم، جعلوه مابين نهر النيل وحتى منطقة نزولهم وسكناهم[٨٤].

وذكر الطبري أن أبا جعفر المنصور عرض جنده في السلاح والخيل على عينه في مجلس اتخذه على شط دجله، وأمر أهل بيته، وقرابته، وصحابته يومئذ بلبس السلاح، وخرج وهو لابس درعاً وقلنسوه تحت البيضة سوداء لا طئة مضرّبة[٨٥].

ومن المناسب أن نذكر في هذا المجال أن الفتوحات التي حققتها الجيوش الإسلامية، والسرعة التي تمت فيها هذه الفتوحات، كانت مدعاة للاستغراب والتساؤل، وقد عزا بعض المؤرخين انتصارات الجيش الإسلامي وسرعة فتوحاته إلى عاملين هما: أولاً أحوال البلاد المفتوحة قبل الفتح الإسلامي، وثانياً أحوال المسلمين الفاتحين.

أما بخصوص أحوال البلاد المفتوحة، فقالوا إن بعض هذه البلاد كان يتبع لفارس، وكان الآخر يتبع لبيزنطة، وكلتا الدولتين كانتا في غاية الضعف، فالحروب التي نشبت بين الدولتين وتكاليفها الباهظة، والطواعين والأوبئة الفتاكة التي حصدت الأعداد الكثيرة من شعوبهما، والخلافات الدينية التي فصمت عرى الوحدة بين الناس من شعوب الدولتين، وبينهم وبين

حكامهم من الفرس والبيزنطيين، جعلت الدولتين عاجزتين مادياً، واجتماعياً، عن اتخاذ التدابير الكافية لصد الجيوش الإسلامية من جهة، ويسرت مهمة الفاتحين من جهة أخرى.

أما بخصوص الفاتحين، فقالوا إنهم كانوا شعباً يمتلىء حمية ونشاطاً، وأمدهم الإسلام بحماسة قوية، وهيأهم لخوض القتال بنفوس تسخر من الموت وتحتقر الحياة، وأنهم أحسنوا استخدام الأسلحة، واختيار الأساليب القتالية التي تلائم طبيعة البلاد التي فتحوها، وقالوا إن مما ساعدهم أيضاً أن من كان بهذه البلاد من بني جنسهم انضموا إلى صفوفهم وحاربوا معهم جيوش الفرس والبيزنطيين(٨٦).

ومما لاشك فيه أن القدر الجائز من هذه الأقوال ينفع عند تقدير أو حساب العوامل التي ساعدت على تحقيق الغلب والنصر للمسلمين.

وبحث ابن خلدون قضية النصر والغلب، فرد أسبابها في الأكثر إلى عوامل مجتمعة من أمور ظاهرة: تتمثل في الجيوش ووفورها، وكمال الأسلحة واستجادتها، وكثرة الشجعان، وفنون الحرب وخططها، وصدق القتال، وما يجرى مجرى ذلك، وإلى أمور خفية: أطلق عليهم اسم «البخت والاتفاق»، وعزا إليها الدور الأكبر في الغلب والنصر، وهي إما أن تكون من خدع البشر وحيلهم في الإرجاف والتشانيع التي يقع بها التخذيل وما إلى ذلك من الشهرة والصيت، وأما أن تكون أموراً سماوية تلقى في القلوب، فيستولي الرعب عليهم، فتختل مراكزهم، وتقع الهزيمة والخذلان(٨٧).

ومما ينفع في هذا المقام، أن نذكر ـ الحاقاً بما ورد ـ أن العنصر الجديد الذي دخل الحياة العربية كان هو الإسلام، وقد تحقق في ظله أن ولاة الأمر من حملة الإسلام ورسله، قدموا مثالاً رائعاً للقيادة التي تسهر تحرس الأمة حين تنام، وتجوع حين تجوع الرعية، وتلبس الخشن من الثياب، وقد يرفل بعض الناس بالناعم الرقيق منها، وتأكل الجاف الغليظ من الأكل وقد ينعم الأفراد بالطرى اللذيذ منه، وتزهد الزهد كله في الذهب والفضة وحتى في تاج كسرى و سواريه، وتستظل في بيوت لا تفضل عن بيوت الآخرين، وقد تكون بيوت غيرهم أفضل منها، ولم تسابق أحداً إلى اكتساب المنافع واصطياد اللذات والشهوات، بل كانت عن ذلك في

شغل، ولم يزل هذا الخلق دأب هذه القيادة حتى سرت هذه الروح في نفوس من يليها من القادة والجند، فاطمأنت به القلوب وخلصت النيات، وغمرت الثقة النفوس، وصار الولاء للنظام والجماعة، وتوارى من القوم من به فساد أو استتر عليه، وأصاب الجيش من ذلك خيراً عميماً فغذا عصبية واحدة، يقاتل جيوشاً ذات عصبيات متعددة، ومتنازعة، فصغرت أمامه، وهانت رغم أعدادها الكثيرة، ولما أخذ هذا الحال يتغير، وصار الخلف واقعاً بين الأمة وبين الأمة وولاة الأمر، وانتشرت الأهواء والميول، وتعددت العصبيات، وتنوعت الأغراض، وضعف الولاء للنظام والجماعة، تراجعت قدرة الجيوش الإسلامية عما كانت عليه من قبل، وتناوبت النصر والهزيمة مع الأعداء.

● ● ●

الهوامش:

(١) انظر مادة «جيش» في تاج العروس ولسان العرب.
(٢) ابن هشام/ السيرة النبوية جـ١ ص٢٨٢.
(٣) ابن هشام/ السيرة النبوية جـ٢ ص ١٤٩.
(٤) محمد بطاينة/ الجيش وتمويله في صدر الإسلام، مجلة دراسات العلوم الإنسانية، المجلد الثامن العدد الثاني عام ١٩٨١ ص ٥٣ ـ ٥٨.
(٥) الشافعي/ كتاب الأم جـ ٤ ص ٨٥ كتاب الجزية ـ أصل فرض الجهاد.
الشيباني/ شرح السير الكبير ج ١ ص ١٨٨.
ابن تيمية/ السياسة الشرعية ص ١١٨ وما بعده فصل جهاد الكفار
الخضري/ تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ٩٣.
(٦) أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبري جـ٣ ص ١٦٣.
(٧) ابن خلدون/ المقدمة ص ١٨٣.
(٨) أبو عبيد القاسم بن سلام/ الأموال ص ٣٤٣.
(٩) أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبري جـ٣ ص ٢٤٧.
(١٠) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٨١.
(١١) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٤٥.
(١٢) الماوردي/ الأحكام السلطانية ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(١٣) أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبري جـ٨ ص ١١٦.
(١٤) أنظر: أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبري جـ ٥ ص ٧٤، جـ ٦ ص ٥٣٢.
(١٥) أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبري جـ٣ ص ٥٧١، جـ ٦ ص ٤٤٣.

الشافعي/ الأم جـ ٤ ص ٨٨.

(١٦) الشافعي/ كتاب الأم ج ٤ ص ١٧٧.

(١٧) أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٩.

(١٨) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٥٧، ١٦٢ - ١٦٣، ٢٩١.

(١٩) المصدر نفسه ج ٦ ص ٤٧٣، ٤٨٣.

(٢٠) الشافعي/ كتاب الأم ج ٤ كتاب الجزية فصل «الاستعانة بأهل الذمة على قتال العدو» ص ١٧٧.

(٢١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٦١.

(٢٢) ابن هشام/ السيرة النبوية جـ ٤ ص ٨٣.

(٢٣) أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبري، جـ ٣ ص ٣٩٤ - ٣٩٥.

(٢٤) المصدر نفسه جـ ٦ ص ٥٣٢.

(٢٥) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٥٢.

(٢٦) ابن عبد الحكم/ فتوح مصر ص ١٠٢.

(٢٧) أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبري جـ ٦ ص ٥١٢.

(٢٨) المصدر نفسه جـ ٧ ص ٣٠٠ - ٣٠١.

(٢٩) المصدر نفسه جـ ٧ ص ٤٣٧.

(٣٠) نجد، اعتماداً على الإشارات الواردة في تاريخ الطبري/ ان أكثر هذه الحالات وقوعاً كانت في أثناء الحروب الأهلية ومنها تقاعس بعض الناس عن الخروج مع علي بن أبي طالب في حربه مع معاوية، وتقاعسهم عن الخروج مع المهلب بن أبي صفرة في حربه مع الخوارج في أثناء ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق.

أنظر تاريخ الطبري جـ ٥ ص ٧٩، جـ ٦ ص ٢٠٥ - ٢١٠.

وورد أن الوليد بن عبد الملك ضرب بعثاً على أهل المدينة عام ٨٨هـ كان عداده ألفين، فخرج ألف وخمسمائة وتجاعل خمسمائة فلم يخرجوا أي دفعوا مالاً بدل خروجهم إلى القتال، وفي عام ١٠٦ في أثناء ولاية أسد ابن عبدالله القسرى، طلب أسد من توبة بن أبي أسيد أن يحلّف الجنود بالطلاق فلا يتخلف أحد عن مغزاه، ولا يدخل بديلاً.

أنظر: تاريخ الطبري جـ ٦ ص ٤٣٤، جـ ٧ ص ٣٥.

ويقول الماوردي: «. . . وإذا أراد بعض الجيش اخراج نفسه من الديوان جاز مع الاستغناء عنه ولم يجز مع الحاجة إليه، الا يكون معذوراً، وإذا جرد الجيش لقتال فامتنعوا وهم أكفاء من حاربهم سقطت أرزاقهم، مما يشير إلى استمرار وقوع هذه الحالات.

الماوردي/ الأحكام السلطانية ص ٢٠٦.

(٣١) أنظر: اليعقوبي/ تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٩٠ - ٢٩١.

(٣٢) البلاذري/ فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٤٤.

(٣٣) أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبري ج ٤ ص ٩٠ - ٩١.

(٣٤) الحمراء: تسمي العرب العجم الحمراء، وانضم منهم يوم القادسية أربعة الأف إلى المسلمين فأنزلهم المسلمون حيث أرادوا، وجعلوا عليهم نقيباً منهم يسمى ديلم فقيل حمراء ديلم.

السيابجة: قيل أن أصلهم من الهند، وكانوا جنوداً في الجيش الفارسي ثم دخلوا مع المسلمين.

الزط: قيل أن أصلهم من السند، وكانوا من جنود الفرس ثم انضموا إلى المسلمين.

الأساورة: منهم أساورة البصرة، وأساورة كانوا يقيمون قرب بحر قزوين فلما غشيهم المسلمون دخلوا مع المسلمين على

مادخل عليه أساورة البصرة وسكنوا الكوفة.

البخارية: أتراك من بخاري قيل أن عددهم كان ألفين يجيدون الرمي والنشاب أحضرهم عبدالله بن زياد وأسكنهم البصرة.

أنظر: تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٩١. جـ ٥ ص ٢٩٧، ٢٩٨. جـ ٨ ص ١١٧.

البلاذري/ فتوح البلدان جـ ٢ ص ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٩٥.

صالح العلي/ التنظيمات الإجتماعية والإقتصادية في البصرة ص ٨٣ ــ ٨٧.

(٣٥) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ جـ ٥ ص ٢٣٦.

(٣٦) محمد بطاينه/ الجيش وتمويله (بحث) نشر في مجلة «دراسات» العلوم الإنسانية/ الجامعة الأردنية، المجلد الثامن ــ كانون الأول، العدد الثاني لعام ١٩٨١، ص ٦٦ ـ ٦٧.

(٣٧) البلاذري/ فتوح البلدان جـ ٢ ص ٣٩٠.

(٣٨) القرطبي/ تفسير القرطبي. أنظر تفسير آية ٥٣ من سورة التوبة.

(٣٩) أنظر: ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٢٣٨.

(٤٠) أنظر: أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٤٣٢.

(٤١) المصدر نفسه ج ٧ ص ٣٤.

(٤٢) الصنعاني/ المصنف ج ٥ ص ١٧٩ ـ ١٨١.

(٤٣) أنظر: البلاذري/ فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٠١، ٣٠٢، ٣١٢، ٣١٤.

أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٨٥.

(٤٤) الشيباني/ شرح السير الكبير ج ٣ ص ١٠١٧ ـ ١٠٢١ ومواضع أخرى متفرقة، ج ٤ ص ١١٨١.

(٤٥) أنظر: أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبري جـ ٦ ص ٣٣٥، ٥٣٠.

(٤٦) أنظر: المصدر نفسه، جـ ٤ ص ٢٤٦، جـ ٦ ص ٣٣٦، جـ ٧ ص ٢٦٩.

(٤٧) أبو عبيد/ الأموال ص ٤١٩.

(٤٨) الشيباني/ شرح السير الكبير جـ ٤ ص ٢٠٨٥.

(٤٩) أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبري جـ ٦ ص ٣٢٩.

(٥٠) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٥٢.

(٥١) ابن خلدون/ المقدمة ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٥٢) أنظر: أبو عبيد/ الأموال ص ٢٧.

(٥٣) أنظر: محمد بطاينه/ الفتح الإسلامي، بحث نشر في مجلة العرب ج ٣، ٤ س ١٣ عام ١٣٩٨هـ دار اليمامة للبحث والنشر ــ الرياض، ص ٢٢٥ ـ ٢٤٩.

(٥٤) أبو عبيد/ الأموال ص ٣٢ ـ ٣٤.

(٥٥) المصدر نفسه ص ٣٤ ــ ٨٣٥

(٥٦) أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٥١.

(٥٧) الواقدي/ فتوح الشام مخطوط ــ استانبول ــ اياصوفيا رقم ٣٣٢٩.

(٥٨) أنظر: الطبري/ تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠، ٤٨٩.

(٥٩) أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٢٣٧٠، ٣٩٠.

(٦٠) المصدر نفسه جـ ٣ ص ٤٩١.

(٦١) ابن عبد الحكم/ فتوح مصر ص ٧٩.
(٦٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبري ج٣ ص ٣٩٧.
(٦٣) أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبري ج٦ ص ٣٩٦.
(٦٤) المصدر نفسه/ ج٦ ص ٥٤٤، ٥٥٧.
(٦٥) أبو عبيد/ الأموال ص ٢٢٢.
أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبري ج٣ ص ٥٩٠.
(٦٦) أبو عبيد/ الأموال ص ٢٢١ ــ ٢٢٢.
(٦٧) أبو عبيد/ الأموال ص ٥١.
الماوردي/ الأحكام السلطانية ص ٤١.
(٦٨) أبو عبيد/ الأموال ص ١٥٧ ــ ٢٠٩.
الماوردي/ الأحكام السلطانية ص ٥٠.
(٦٩) أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبري جـ٣ ص ٤٤٠، ٤٤٤.
(٧٠) أبو عبيد/ الأموال ص ١٨٧ ــ ١٨٨.
(٧١) الماوردي/ الأحكام السلطانية ص ١٦.
(٧٢) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ جـ٧ ص ٢١٣.
(٧٣) يقول ابن خلدون أن العرب كانوا انما يعرفون الكر والفر، ولكن روح الجهاد عند المسلمين ورغبتهم فيه ثم قتالهم مع الأعداء الذين كانوا يقاتلون زحفاً جعل المسلمين يتبعون أسلوب الصف وجاء في التنزيل: «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص» أنظر: مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٣ - ٢٠٥.
(٧٤) يقوم نظام التعبية على أساس تقسيم الجيش إلى مقدمة وقلب وميمنة وميسرة وساقة. أنظر: مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٣ - ٢٠٤.
(٧٥) ابن خلدون/ مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٥.
(٧٦) المسعودي/ التنبيه والاشراف ص ٢٧٠ - ٢٧١.
(٧٧) أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبري ج٣ ص ٣٩٦ - ٣٩٧.
( ) المصدر نفسه ج٤ ص ١٠.
(٧٩) أنظر تفسير القرطبي من قوله تعالى: واعدوا لهم ما استطعتم.
ابن تيمية/ السياسة الشرعية ص ١٠.
(٨٠) ابن عبد الحكم/ فتوح مصر ص ١٤٤ - ١٤٥.
(٨١) أبو يوسف/ الخراج ص ١٨ ــ ٢٣، باب قسمة الغنائم.
(٨٢) الضبور كالدبابة يصنع من الخشب المغطى بالجلد، ويكمن فيه الجنود بعد تقريبه من الحصن يتقون نبل العدو استعداداً للهجوم على الحصن.
(٨٣) أنظر كلود كاهن/ تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ص ١٦٦ ــ ١٦٧.
(٨٤) ابن عبد الحكم/ فتوح مصر ص ١٣٢.
(٨٥) أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبري ج٨ ص ٥٢.
(٨٦) أنظر على سبيل المثال: فيليب حتي/ تاريخ العرب مطول ج١ ص ١٩٤ - ١٩٥.
(٨٧) ابن خلدون/ المقدمة ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

حاجتنا الماسة لتنسيق عمليات تحقيق مخطوطات التراث العربي واختيار الرسائل الجامعية

د. سامي خماس الصقار

من حق الأمة العربية أن تفخر بين أمم الأرض بأمور كثيرة يأتي في مقدمتها أن الله سبحانه وتعالى ـ قد خصها بالرسالة المحمدية التي جعلها آخر رسالات السماء، وهو أمر تنفرد به دون غيرها من الأمم. وإلى جانب ذلك فمن حقها أن تفخر بالانجازات التي حققتها في مختلف العلوم والفنون والآداب، وبما قدمته للعالم من علماء وأدباء أناوروا طريق الإنسانية قروناً عديدة. ومن حسن حظنا وحظ العالم، أن العلماء المسلمين قد أودعوا نتاج أفكارهم في كتب قيمة وموسوعات ضخمة، سلم قسط لا يستهان به منها من الضياع، رغم عوادي الزمن وقسوة الظروف. وقد تمثل هذا في التراث المخطوط الموزع في مختلف أنحاء العالم وتضمه خزائن الكتب العامة والمكتبات الخاصة، وهو تراث ضخم يقدره البعض بثلاثة ملايين مخطوطة[1] تتناول كل ما عرفه الإنسان في الماضي من علوم وآداب وفنون، وهي بحق مفخرة من مفاخر الأمة العربية التي قل نظيرها لدى أي أمة من أمم العالم، بل ليمكننا القول ـ بكل اطمئنان ـ ان ما من أمة على وجه الأرض ملكت مثل هذه الثروة الضخمة من التراث !!

ولا حاجة بي إلى القول إن أمة بهذا الغنى الفكري والأدبي من حقها أن تتبوأ المكانة السامية التي تستحقها، بل هي ـ ولا شك ـ موضع حسد أمم العالم التي لم يكن لها في التاريخ نصيب، وبالتالي فليس لديها ماتقدمه للإنسانية، ولا مايذكّرها بالماضي ويقيدها إليه !! ولذا فقد دأبت الأمم على جمع تراثها وحفظه وصيانته باعتباره اللبنة الأولى في بناء صرح نهضتها الجديدة. وإننا لو تتبعنا بدايات النهضة الأوربية الحديثة، لوجدنا جذورها قد نبتت في حركة إحياء التراث الكلاسيكي القائم على جمع مخلفات اليونان والرومان وبعثها إلى عالم الوجود

لتكون الأساس الذي تبنى عليه النهضة الأوروبية الجديدة، وهذا هو دأب كل أمة تريد النهوض. وهكذا فإن الترابط بين نهضة الأمة وبعث تراثها ترابط وثيق. ولاريب أن أمتنا العربية لاتختلف بحال من الأحوال ــ بالنسبة لهذا الأمر ــ عن غيرها من الأمم، بل هي أشد ارتباطاً بتراثها، إذ هو مصدر غناها والطابع الذي يمنحها شخصيتها المتميزة. ومن هنا جاءت أهمية التراث بالنسبة لنا، وبالتالي نشأت الضرورة لجمعه وحفظه وصيانته ونشره. ولقد أدرك الدكتور صلاح الدين المنجد المدير السابق لمعهد المخطوطات العربية عندما أكد على ضرورة بذل العناية اللازمة لمعرفة مايحقق ومايطبع من مخطوطات التراث، فالعملان ينبغي أن يسيرا معاً خدمة لتراثنا وتيسيراً على العلماء والباحثين في الرجوع إلى مابقي من مخطوطات أو ماظهر منها مطبوعاً «لأن الرجوع إلى التراث هو السبيل الوحيد لمعرفة أنفسنا وماضينا، وهو السبيل الأوحد لانتاج دراسات أصيلة فيها جدة وعمق. ولقد آن لنا أن نبتعد في دراستنا حول ماضينا وتاريخنا، عن السطحية والنقل، وأن نعتمد على المصادر الأولى»(٢).

والآن، وبعد هذه المقدمة الموجزة، دعونا نلقي نظرة سريعة على المشاكل المتعلقة بهذا الموضوع، مع محاولة إيجاد بعض الحلول لها:

أولاً: تحقيق التراث ونشره:

لا أريد في هذه المقالة أن أتصدى لعمليات جمع التراث وحفظه وصيانته وفهرسته، على الرغم من الأهمية البالغة لتلك العمليات، والسبب أن هناك أجهزة كثيرة قائمة ــ والحمد لله ــ بهذه المهمات، وتأتي في مقدمتها دور الكتب الوطنية والجامعات والمجامع العلمية والمتاحف وكثير من المؤسسات الثقافية والأفراد، وإن كان الأمر يتطلب مضاعفة الجهود لإنجاز تلك العمليات بأقرب وقت ممكن خشية تعرض المخطوطات إلى التلف والضياع إذا مابقيت مبعثرة في أيدي من لا يقدر قيمتها ويعرف حقها!! أقول إنني في هذه المقالة لا أريد التصدي لهذه الأمور، وإنما أقتصر على ناحية واحدة تتعلق بتحقيق التراث ونشره، بالنظر لما لاحظته من فوضى تعرضت لها أعمال التحقيق فأدت بدورها لبعثرة الجهود وإضاعة الأموال!!

إن التراث مهما كان غنياً فإنه يبقى عديم الفائدة إذا ظل قابعاً في الخزائن، حتى ولو

بلغت العناية بحفظه وصيانته أعلى الدرجات. وأقصى ما يمكن الانتفاع به هو أن يرجع إليه بعض الأفراد ممن عرفوا أماكن وجوده، ولديهم الصبر والقدرة على قراءة الخطوط القديمة وما يعتريها من نواقص وشوائب تجعل قراءتها أشبه بفك الطلاسم !! ولذا نشأت الحاجة إلى التحقيق لاستكمال تلك النواقص وإزالة تلك الشوائب، لكي تصبح الخطوط مفهومة سهلة القراءة. ولكن التحقيق بحد ذاته غير كاف، إذ لابد من إيصال الكتب المحققة إلى أيدي القراء من أيسر سبيل، وهنا يأتي الدور الذي تلعبه دور النشر. ولذلك فإن التحقيق والنشر توأمان لا ينفصلان، يكمل أحدهما الآخر. والحق أن عملية التحقيق والنشر في البلاد العربية قائمة على قدم وساق، وإن المطابع تقذف إلى الأسواق بأعداد كبيرة جداً من كتب التراث في كل يوم. فالمؤسسات الرسمية ودور النشر، بل والأفراد أيضاً، كل قائم بقسطه في هذا المجال، إلا أن المؤسف حقاً أن أعمال التحقيق في بلادنا لازالت يعوزها التنظيم والتنسيق، ولازلنا نرى كتاباً واحداً يتم تحقيقه من قبل شخصين أو أكثر دون أن يدري أحدهم بما يفعله الآخرون !!

وكثيراً مايظهر التحقيقان أو التحقيقات في بلد واحد وفي آن واحد أو في أوقات متقاربة !! وقد سبق أن رأينا كيف أن كتاب «المغرب في حلي المغرب» لابن سعيد الأندلسي الذي حقق عام ١٩٥٥ في كل من مصر والسودان، وكتاب «الجمان في تشبيهات القرآن» لابن ناقيا البغدادي، قد حقق في عام ١٩٦٨ في كل من العراق والكويت في وقت واحد !! وهناك «كتاب المحن» لأبي العرب التميمي الذي حققه الدكتور يحي الجبوري (من العراق) ونشرته دار الغرب الإسلامي في بيروت في سنة ١٩٨٣، وإلى جانبه تحقيق الدكتور عمر العقيلي (من السعودية) الذي نشرته دار العلوم في الرياض في سنة ١٩٨٤ !!

والحق إنه لمؤسف جداً أن يتكرر هذا الأمر، فيحظى كتاب واحد بالتحقيق أكثر من مرة وتبقى عشرات الألوف (بل مئات الألوف) من المخطوطات العربية مكدسة في الخزائن دون أن يمسها إنسان !! وكم كان حرياً بنا أن نوجد الوسيلة التي من شأنها أن تجنبنا تكرار هذه الظاهرة المؤسفة التي صرنا نلمسها باستمرار، إذ تحمل إلينا «نشرة أخبار التراث العربي» التي يصدرها معهد المخطوطات العربية مثل هذه الأنباء على

الدوام. ولئلا يظن القارىء الكريم أنني أبالغ في وصف هذه الظاهرة الخطيرة، فإنني أنقل إليه ماورد في العددين ١٨، ١٩ من «نشرة أخبار التراث العربي» آنفة الذكر الصادرين في أواسط عام ١٩٨٥م، من أمثلة صارخة ليقف بنفسه على مدى ما وصلت إليه الفوضى في هذا المجال:

١ ـ نشر الدكتور محمد رضوان الداية «ديوان يحيى بن حكم الغزّال» في دمشق في سنة ١٩٨٢م، في حين أن الدكتور حكمت على الألوسي سبق له ذلك، ونشر الديوان في بغداد في عام ١٩٧١م، كما أن الأستاذ محمد صالح البنداق نشره في بيروت في عام ١٩٧٩م.

٢ ـ يقوم الأستاذ محمد عبد الجليل (من المغرب) بتحقيق كتاب «محاسن المجالس» لابن العريف الذي سبق للمستشرق الأسباني بلاسيوس أن حققه ونشره في سنة ١٩٧٥م، وتبعه نهاد الخياط في سنة ١٩٨٠م. كما أن المستشرق الأمريكي وليم إليوت، نشر هذا الكتاب مع ترجمته الانكليزية في بريطانيا بالتعاون مع الدكتور عدنان خالد (من العراق) في سنة ١٩٨٠م نفسها.

٣ ـ يقوم الأستاذ محمد بن ناصر العجمي بتحقيق كتاب «الأوائل» للحافظ ابن أبي عاصم، في حين أن هذا الكتاب حققه الدكتور عبدالله الجبوري (من العراق) ونشره المكتب الإسلامي في بيروت. وقد علقت «نشرة أخبار التراث العربي» على ذلك بقولها[٣]، أن تحقيق الدكتور الجبوري ممتاز وعلى مستوى عال والكتاب غير محتاج إلى إعادة تحقيق!! وأضافت النشرة قائلة: «أن الأستاذ العجمي قد نشر عدداً من الكتب سبق أن حققت تحقيقاً علمياً جيداً ونشرت قبل نشره لها بسنوات، وقد أشرنا إلى ذلك في أكثر من عدد من نشرة أخبار التراث العربي»[٤].

٤ ـ أنهى الأستاذ محيي الدين مستو بالمدينة المنورة تحقيق كتاب «رياض الصالحين» للإمام النووي، علماً بأن الكتاب سبق تحقيقه ونشره في القاهرة في سنة ١٩٨٣. وقد علقت على ذلك نشرة أخبار التراث العربي[٥] قائلة بأن الكتاب قد صدر في أكثر من طبعة في دمشق وبيروت. كما أن الأستاذ محيي الدين نفسه يعمل على تحقيق كتاب «الاذكار» للنووى نفسه، بينما سبق وحقق هذا الكتاب الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، ونشر في بيروت في عام ١٩٧١، كذلك سبق ونشر هذا الكتاب بمصر عدة مرات.

٥ ــ يعمل الدكتور بير محمد حسن من باكستان في تحقيق كتاب «الباب الزاخر» للحسن الصاغاني، وكان المجمع العلمي العراقي ووزارة الثقافة العراقية قد قاما بنشر الكتاب بتحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين.

٦ ــ انتهى الدكتور صبيح التميمي وكامل شهوان من العراق، من تحقيق كتاب «المسائل البصريات» لأبي علي الفارسي، في حين يعمل الدكتور علي المنصوري من العراق أيضاً في تحقيق الكتاب المذكور، بل وإن طالباً في جامعة دمشق يعمل على تحقيقه كجزء من رسالة الماجستير.

٧ ــ أنهى الدكتور على المنصوري (من العراق) تحقيق كتاب «العضدبات» لأبي علي الفارسي، بينما يعمل طالب في جامعة دمشق على تحقيقه كجزء من رسالة الماجستير.

٨ ــ أنهى الدكتور يحيى الجبوري (من العراق) تحقيق كتاب «الفاضل في أدب الكامل»، بينما سبق للأستاذ يوسف مسكوني من العراق أيضاً، أن حقق الكتاب نفسه وطبعه في بغداد في سنة ١٩٧٢م.

٩ ــ أنهى الدكتور علي زوين (من العراق) تحقيق كتاب «الفرق بين الحروف الخمسة» لابن السيد البطليوسي، بينما سبق ونشر الكتاب مرتين، الأولى في القاهرة في سنة ١٩٨٢م بتحقيق حمزة النشرتي، والثانية في دمشق بتحقيق عبدالله الناصر، ونشر في سنة ١٩٨٤م.

١٠ ــ تعمل الأستاذة كلستان محمد سعيد في جامعة غرناطة بتحقيق «الترجمانة الكبرى» لأبي القاسم الزياني كجزء من رسالة الدكتوراه، في حين سبق وحقق الكتاب من قبل الأستاذ عبد الكريم الفيلالي ونشر في الرباط في عام ١٩٦٧م.

١١ ــ أنهت الدكتورة دورتيا كرافولسكي من ألمانيا الغربية بتحقيق القسم الجغرافي من كتاب «مسالك الأبصار» لأبي فضل الله العمري، وباشرت في طباعته، في حين شكلت لجنة في دار الكتب المصرية لتحقيق الكتاب، كما أن جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض تعمل على جمع نسخه تمهيداً لتحقيقه ونشره !!

١٢ ــ يعمل عادل الشيخ حسين من العراق في تحقيق كتاب «الملاحة في علم الفلاحة» لعبد الغني النابلسي، بينما سبق وصدر الكتاب المذكور في أكثر من طبعة، وكان آخرها في بيروت في سنة ١٩٧٩م[٦].

١٣ ــ صدر عن المركز الحضاري في الكويت كتاب «المطالب العالية» للرازي

بتحقيق الدكتور أحمد السقا، في حين سبق وكان تحقيق هذا الكتاب كجزء من رسالة للدكتوراه التي قدمها أحمد الشريف إلى الجامعة الأزهرية في سنة ١٩٧٣م.

١٤ ــ أنهى الدكتور رضوان السيد من لبنان، تحقيق «مختصر تاريخ دمشق» لابن منظور، وباشر في طباعته في ١٥ مجلداً، في حين أن احدى دور النشر في دمشق قد أصدرت سبعة أجزاء منه، وهي مواظبة على اصدار بقية الأجزاء.

١٥ ــ صدر كتاب «الكنى والأسماء» للإمام مسلم في المدينة المنورة بتحقيق الدكتور عبدالرحيم القشقري في عام ١٩٨٤م، في حين صدر الكتاب في السنة نفسها في دمشق بتحقيق الأستاذ مطاع الطرابيشي.

١٦ ــ أوشك الدكتور حسين خربوش من الأردن، على أنهاء تحقيق كتاب «قلائد العقيان» لابن خاقان، بينما سبق وحقق هذا الكتاب من قبل الأستاذ محمد العناني، ونشر في تونس في سنة ١٩٦٦م.

١٧ ــ صدر في بيروت في عام ١٩٨٥م كتاب «أيها الولد» للإمام الغزالي بتحقيق الشيخ علي محيي الدين القره داغي، في حين سبق وصدر هذا الكتاب في سنة ١٩٨٤م ببغداد، بتحقيق جميل ابراهيم حبيب.

هذه نماذج قليلة من كثير، أردت أن أبرهن من خلالها على مدى الفوضى التي بلغتها عملية التحقيق والنشر للتراث العربي، حتى أصبح الكتاب يحقق وينشر في بلد واحد مرتين دون أن يدري أحد المحققين بما يفعله الآخر. وسبب ذلك واضح وضوح الشمس، وهو غياب التنسيق والتنظيم، مما ترك المجال واسعاً لكي تسود الفوضى وتتبعثر الجهود.

ولقد تشكى قبلي الدكتور صلاح الدين المنجد[٧] من اهمال تسجيل النتاج الفكري المطبوع سواء كان ما ألفه المعاصرون أو خلفه القدامى. وعلى الرغم من اصدار مجلس جامعة الدول العربية قراراً قبل أكثر من عشر سنوات بإنشاء مركز لتسجيل المطبوعات في البلاد العربية، فإن هذا المركز لم يظهر إلى حيز الوجود. وإننا وإن كنا نقدر الجهود التي بذلت في اعداد «معجم سركيس للمطبوعات العربية»، فإنه جهد فردي مضى عليه زمن طويل يزيد على نصف قرن ومثله كتاب «اكتفاء القنوع بما هو مطبوع» للمستشرق الأمريكي (فان دايك)، كما نقدر جهود «معهد المخطوطات العربية» الذي أسلفنا ذكره، وجهود القائمين على

«مجلة معهد الدراسات الشرقية للآباء الدومنيكان في القاهرة» التي اعتادت على التنويه بما يصدر في مصر وحدها من مخطوطات مطبوعة، ومثلها السجل الثقافي الذي تصدره وزارة التربية ووزارة الإرشاد المصريتان، وفيه تنويه بالمخطوطات المطبوعة، فإن ذلك خاص بمصر وحدها. ومع ذلك فإن هذا السجل لايصل إلى أيدي العلماء والباحثين لصعوبة الحصول عليه بسبب الاجراءات الإدارية المعقدة في اقتنائه(٨). أما المخطوطات العربية التي تنشر في البلاد الأجنبية، فمعرفتها أكثر صعوبة من تلك التي تنشر في البلاد العربية، والسبب أن دور النشر هناك متناثرة في عدد كبير من الأقطار والحصول على كشوف منشوراتها ليس متيسراً دائماً. ثم إن المجلات الاستشراقية التي تنشر أخبار التراث ليست كلها معروفة لدى الباحثين العرب، بل إن بعضها تنشر بلغات ليست مألوفة كثيراً لدى أولئك الباحثين، ولاسيما المهتمين بالتراث منهم خاصة، مما حال دون امكان استفادتهم منها.

وفي ظني أن معالجة المشكلة هي في غاية السهولة إذا ماالتزمنا بتقليد بسيط جداً، هو ألا يقدم المحققون على تحقيق أي مخطوط قبل الاستفسار من معهد المخطوطات العربية (ومقره في الكويت)، وهو من مؤسسات جامعة الدول العربية التي تمثل جميع الأقطار العربية، أقول ينبغي على كل من يرغب في تحقيق مخطوطة ما، أن يستفسر من هذا المعهد عما إذا كان هناك أحد قد سبقه إلى تحقيقها، أو هو بصدد تحقيقها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنه من واجب كل من يقوم بتحقيق مخطوطة من المخطوطات، أن يبادر بإبلاغ ذلك إلى المعهد ليتولى بدوره نشر النبأ في النشرة آنفة الذكر. وعلى دور النشر أن تقوم بعمل مماثل تجنباً لازدواجية الأعمال، ومنعاً لبعثرة الجهود وتبذير الأموال، وخدمة للتراث الذي ينتظر المحققين. فبدلاً من اضاعة الجهد والمال في تحقيق مخطوطة واحدة مرتين أو أكثر، بوسعنا أن نخصص ذلك الجهد والمال لتحقيق مخطوطتين أو أكثر!! ولكن هذا لايعني صرف النظر عن إنشاء مركز تسجيل المطبوعات الذي سبق وقرر مجلس جامعة الدول العربية إنشاءه، بل على العكس، فإن إنشاء هذا المركز ينبغي الاسراع فيه وتعزيز صلاحياته ودعمه بما يحتاج من موظفين متخصصين وتزويده بالأجهزة والمعدات، ولاسيما أجهزة

الحاسب الآلي، ليتسنى له أداء مهمته على أحسن وجه، وليس هذا على همة الغياري بعزيز! كما انني لا أدعو إلى منع اعادة تحقيق مخطوطات الكتب التي سبق وحققت إذا ماستجدت أمور تستدعي إعادة التحقيق، كأن تكتشف مخطوطات جديدة لتلك الكتب هي أكثر صحة وكمالاً، أو أن تكون النسخة المكتشفة هي نسخة المؤلف أو أكثر قرباً إليها.

ثانياً: الرسائل الجامعية:

والآن، فلننتقل إلى موضوع آخر لايقل أهمية عن موضوع إحياء التراث، بل إن الصلة بين الموضوعين وثيقة كما سنرى ـ إن شاء الله ـ وأعني به ازدواجية العمل في اعداد الرسائل الجامعية (الاطروحات) بشكل يشبه إلى حد بعيد مارأيناه بالنسبة لتحقيق المخطوطات، فالأخبار تطلع علينا من حين لآخر عن قيام الباحثين باعداد رسائل وأطروحات عن موضوعات سبق طرقها والكتابة عنها. وهكذا تحظى موضوعات قليلة باهتمام الباحثين في حين تبقى موضوعات مهمة أخرى مهملة لايمسها أحد!! والحق أن تاريخنا سواء الإسلامي منه أو القديم أو الحديث، لايزال في أغلب نواحيه بحاجة لمن يدرسه دراسة علمية متأنية قائمة على تطبيق مناهج البحث وقواعد مصطلح التاريخ، إن المجال فيه واسع لمن يريد أن يختار، سواء أكان ذلك في النواحي السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية، أو أي جانب من الجوانب الحضارية. ولذلك فليس هناك مايضطر إلى التهالك على موضوعات محدودة نعيد بحثها بدون مبرر، ونكرر الكلام فيها بدون سبب وجيه، ونهمل جوانب مهمة من تاريخنا لم تمسها يد إنسان، فتبقى يلفها الغموض ويغرقها الظلام!!

وهنا أيضاً أخشى أن يتهمني القارىء بالمبالغة، ولذلك سوف ألجأ مرة أخرى إلى إيراد الأمثلة، لكي أبرهن على أن المشكلة قائمة فعلاً، بل وانها تستشري ـ كلما افتتحت أقسام جديدة للدراسات العليا في الجامعات العربية ـ إن لم نبادر إلى وضع حد لها. وسوف أكتفي هنا بالرجوع إلى «نشرة أخبار التراث العربي» التي تتناول عادة أخبار الرسائل الجامعية التي لها علاقة بالتراث فقط. ولذا فإن ظاهرة التكرار التي نتحدث عنها هنا، تتعلق بالرسائل الجامعية ذات العلاقة بالتراث دون غيره من الموضوعات. وفيما يأتي نماذج منها:

١ ـ سجل الطالب أحمد أبو الطيب تحقيق

كتاب «السحر والشعر» تأليف لسان الدين ابن الخطيب، لنيل دبلوم الدراسات العليا من جامعة محمد الخامس بالرباط، بينما سبق وكان تحقيق هذا الكتاب رسالة للماجستير قدمها السيد عمار ابراهيم قدور إلى جامعة عين شمس في سنة ١٩٧٥م.

٢ ــ كتاب «المسائل البصريات» لأبي علي الفارسي الذي أنهت تحقيقه في آن واحد جماعتان منفصلتان في العراق، كان تحقيقه في الوقت نفسه موضوع رسالة ماجستير لأحد طلاب جامعة دمشق هو السيد محسن خرابة.

٣ ــ كتاب «العضديات» لأبي علي الفارسي الذي أنهى تحقيقه أحد أساتذة جامعة بغداد، كان تحقيقه أيضاً موضوع رسالة ماجستير لأحد طلبة جامعة دمشق هو السيد شيخ الراشد.

٤ ــ كتاب «الترجمانة الكبرى» لأبي قاسم الزياني الذي سبق وقام الأستاذ عبد الكريم الفيلالي بتحقيقه ونشره في الرباط في عام ١٩٦٧م، تعمل على تحقيقه إحدى طالبات جامعة غرناطة كرسالة للدكتوراه، هي كلستان محمد سعيد.

٥ ــ كانت «دراسة شعراء بني يشكر» موضوع رسالة الماجستير التي قدمها محمود أحمد اسماعيل إلى الجامعة الأردنية في عام ١٩٨٠م، هي الآن موضوع رسالة للماجستير سجلها الطالب راشد بن سعد القين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض.

٦ ــ تحقيق كتاب «شرح قواعد الاعراب» للكافيجي هو موضوع رسالتين للماجستير يتم اعدادهما في كل من الجامعة المستنصرية ببغداد وجامعة دمشق في آن واحد!!

٧ ــ تحقيق مخطوطة كتاب «أنباء الجليل المؤيد مراد خان ببناء بيت الوهاب الجواد» لمحمد بن علان الصديقي، كان موضوع رسالة للماجستير يوشك الطالب خالد عزام الخالدي على تقديمها إلى كلية الآداب بجامعة الملك سعود، في حين أن طالباً هو عبدالله بن سليمان اللهيب قد سجل تحقيق المخطوطة نفسها رسالة للماجستير في كلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز بجدة!!

وهكذا نجد هنا أيضاً مثلاً آخر على الفوضى، فنرى رسائل كثيرة تسجلها جامعاتنا دون النظر إلى سبق تسجيلها في جامعات أخرى، أو أنها تكلف طلابها بتحقيق بعض المخطوطات كجزء من اطروحاتهم دون أن تنبه إلى أن تلك المخطوطات قد سبق تحقيقها. وهكذا تضيع

الجهود وتبقى عشرات الألوف من المخطوطات قابعة في رفوفها لاتمسها يد انسان !! كما تبقى الوف الموضوعات التي تستحق البحث والدراسة ولا يتصدى لها أحد من الطلاب فيتخذها موضوعاً لرسالته الجامعية، بينما يقبل الكثيرون منهم على إعادة دراسة موضوعات سبقت دراستها، بل واستنفدت، أو يكررون تحقيق مخطوطات سبق وأن حققت !!

وعلاج هذه المشكلة سهل يسير، يمكن تلخيصه بما هو آت :

١ ـ تكليف مؤسسة عربية ذات صفة دولية كمنظمة التربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية، أو اتحاد الجامعات العربية، باصدار نشرة شهرية تنشر فيها عناوين الأطروحات والرسائل الجامعية التي تسجل في جامعات الدول العربية، مع محاولة الحصول على عناوين الرسائل التي تسجل في الجامعات الأجنبية ممالها علاقة بالتراث العربي والدراسات العربية على الأقل. والحق أن «معهد المخطوطات العربية» قائم بهذا الواجب تطوعاً، إذ يتناول في نشرته التي تصدر مرة كل شهرين، عناوين الأطروحات التي تسجل في الجامعات العربية، إلا أن ماينشر فيها ليس شاملاً، حيث أن الجامعات العربية غير ملزمة بإرسال مثل هذه المعلومات إلى المعهد. ولذلك اقتصر الأمر على الجامعات التي تتعاون مع المعهد، وهي قليلة جداً. وعليه فإن من الضروري استصدار قرار من مجلس وزراء التربية والتعليم في الدول العربية، يلزم الجامعات بإبلاغ المعهد بعناوين الأطروحات التي تسجل فيها ليتسنى له نشرها أولاً بأول، وبذلك نوفر على طلبتنا مؤونة التورط في تحقيق مخطوطات سبق تحقيقها، أو في تكرار دراسة موضوع سبقت دراسته.

٢ ـ إصدار التعليمات إلى معاهد الدراسات العليا في الجامعات العربية، بضرورة الإتصال بالمؤسسة المذكورة في الفقرة السابقة، عندما يتقدم إليها طلاب الدراسات العليا لتسجيل عناوين أطروحاتهم، للتحقق من عدم وجود التكرار، إذ يخشى أن يكون الموضوع قد سجل ولم يصل خبره إلى تلك المعاهد بسبب عدم وصول النشرة ذات العلاقة إلى أيدي المسؤولين.

٣ ـ تكليف الجامعات العربية بإصدار دليل سنوي ـ إن أمكن ـ يتضمن قوائم الأطروحات التي سجلت فيها. وفي الحقيقة

فإن بعض الجامعات تصدر مثل هذا الدليل، إلا أنها لاتصدره بانتظام مما يضيع الفائدة المرجوة منه. ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الدكتور محمد عبد الحميد عيسى من جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض، يعكف الآن على إعداد دليل للاطروحات الجامعية التي تتعلق بالدراسات الأندلسية المغربية[9]، وقد وجه نداء إلى الباحثين والمتخصصين في تلك الدراسات ــ ولاسيما في بلاد المغرب ــ لموافاته بما لديهم من معلومات عن تلك الأطروحات فعسى أن يلقى نداؤه الإستجابة التي يستحقها ليتسنى له أداء مهمته. كما نأمل أن يكون الدكتور عيسى قدوة لباحثين آخرين يتصدرون لصنع دليل للاطروحات التي تتناول حقولاً أخرى غير الدراسات الأندلسية والمغربية، وبذلك يساهمون مساهمة مشكورة في إزالة الفوضى التي يعاني منها طلبة الدراسات العليا عند اختيار موضوعات أطروحاتهم.

ثالثاً: الترجمة:

ومما له علاقة بموضوع مقالنا هذا، تكرار ترجمة بعض الكتب المؤلفة بلغات أجنبية، لا شك أن المشكلة هنا ليست كبيرة كتلك التي شهدناها في تحقيق المخطوطات، أو في اختيار الموضوع للأطروحات الجامعية، إلا أنها موجودة، ولربما أخذت طريقها إلى التفاقم إذا لم نتدارك أمرها من البداية. والذي حملني على تناول هذه المسألة هو مالمسته شخصياً عندما قمت بدراسة كتاب «وصف إفريقيا» للحسن الوزان المسمى «ليو الافريقي» المتوفي حوالي سنة ١٥٥٠م[١٠]، فوجدت أن جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض قد قامت بترجمة هذا الكتاب ونشره في سنة ١٩٧٩م بمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول في تلك السنة، وهو كتاب ضخم يقع في ٦٧٥ صفحة، تمت ترجمته من اللغة الفرنسية المنقولة بدورها عن اللغة الإيطالية التي صنف بها الوزان كتابه هذا عندما كان مقيماً في كنف الفاتيكان. ولكن هذا الكتاب مالبث أن ترجم في المغرب مرة أخرى، ويبدو أن من ترجمه هناك لم يصل إلى علمه وجود ترجمة عربية منشورة!!

وحصل شيء مماثل بالنسبة لرحلة ناصر خسرو والمسماة «سفر نامه» التي سبق للدكتور يحيى الخشاب أن ترجمها إلى العربية منذ مدة طويلة، وقد طبعت عدة مرات، وآخرها طبعة سنة ١٩٧٠، ألا أن الدكتور أحمد خالد البدلي الأستاذ في جامعة الملك سعود قد قام بترجمتها مرة أخرى، وقامت

الجامعة المذكورة بنشرها في سنة ١٩٨٣م.

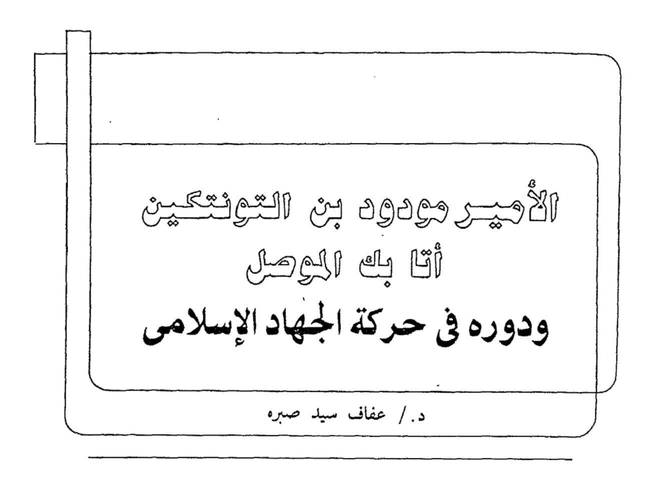
ولايفوتنا في هذه المناسبة ذكر كتاب «العربية ـ دراسات في اللغة واللهجات والأساليب» تأليف المستشرق الألماني «يوهان فك Johan Fuck» الذي نقله من اللغة الألمانية إلى العربية قبل حوالي ٤٠ عاماً الدكتور عبد الحليم النجار وراجعه الدكتوران أحمد أمين ومحمد يوسف موسى، ونشر في القاهرة آنذاك. ثم صدر هذا الكتاب مؤخراً بعنوانه المشار إليه آنفاً بتمامه حرفاً بحرف، ولكن ترجمته جاءت في هذه المرة منسوبة إلى الدكتور رمضان عبد التواب. وقد أثار ذلك موجة من النقد نقلت جانباً منها جريدة «الرياض» في عددها ٥٩٨٤ الصادر يوم ١٤٠٥/٢/١٧هـ الموافق ١٠/ ١١/١٩٨٤م، فقد اتهم الدكتور عبد التواب بالسطو على ترجمة الدكتور النجار، وما إلى ذلك مما هو خارج عن نطاق هذا المقال. لكن الذي يهمني هنا هو تكرار ترجمة كتاب واحد مرتين.

وعلى أي حال، فإن من المستحب، إن لم يكن من الواجب، أن تتولى إحدى الجهات الثقافية العربية ذات الصفة الدولية أمر الاعلان عن الكتب التي ترجمت وتلك التي يتصدى لترجمتها الباحثون، لئلا يتورط غيرهم في إضاعة وقته وماله في تكرار الترجمة بدون مبرر. ومن الطبيعي فإنه يتوجب على كل من يزمع ترجمة كتاب ما أن يبلّغ عزمه هذا إلى الجهة الثقافية المشار إليها آنفاً، لتنشر ذلك النبأ على الملأ في الوقت المناسب.

هذه بعض الملاحظات التي عنّت لي، وقد رأيت من واجبي تسجيلها ونشرها، لعلها تجد آذاناً صاغية من جانب المعنيين بموضوع التراث العربي والدراسات الجامعية وأمور الترجمة. وإنني لا أزعم بأن مقترحاتي المتواضعة هذه ستكون كفيلة بالقضاء على الفوضى والازدواجية، ولكنها ربما كانت حافزاً لغيري على الإدلاء بدَلْوِهم في هذا الموضوع وتقديم مقترحات أخرى من شأنها معالجة الوضع وتدارك مافاتني ذكره من علاج، والله الموفق.

الهوامش :

(١) د. صلاح الدين المنجد: معجم المخطوطات المطبوعة، بيروت ١٩٧٨، ج ١ ص ٧.
(٢) المنجد: المرجع السابق، ص ٧.
(٣) العدد ١٨ من النشرة، ص ٨.
(٤) المرجع السابق، في الموضع نفسه
(٥) المرجع السابق، ص ١٩
(٦) المرجع السابق، ص ٣١.
(٧) المنجد المرجع السابق ج ١ ص ٥ ـ ٦ كما أن الدكتور أكرم ضياء العمري له شكوى مماثلة. حيث دعا إلى ضرورة تنسيق الطاقات في هذا المجال، وذلك في كتابه «التراث والمعاصرة» المطبوع في قطر ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ص ٨٣ ـ ٨٤.
(٨) المنجد: المرجع السابق، ص ٦.
(٩) أنظر: نشرة التراث العربي. العدد ٩ لشهر ايار وحزيران ١٩٨٥م، ص ١٤.
(١٠) نشرت الدراسة في «مجلة كلية الآداب» بجامعة الرياض ـ العدد ٨ لسنة ١٩٨١ ص ٤٣٩ ـ ٥١٨.



الأمير مودود بن التونتكين
أتابك الموصل
ودوره في حركة الجهاد الإسلامي

د./ عفاف سيد صبره

حظيت حركة الجهاد الإسلامي ضد الغزاة الصليبيين، باهتمام المؤرخين المسلمين الذين سطروا عنها صفحات مجيدة، وأرخوا لشخصيات هامة برزت وتألقت فيها، كان من أبرزهم أفراد البيتين الزنكي والأيوبي.

وكذلك أرخوا لسلاطين المماليك الذين كان لهم شرف الإسهام في حركة الجهاد الإسلامي ضد هؤلاء الغزاة.

وقد أخذت على عاتقي أن أبرز للقارىء المسلم شخصيات كثيرة وفئات لعبت دوراً كبيراً في هذا المجال. لكنها لم تحظ بالاهتمام بل مر عليها المؤرخون مرور الكرام. وقد ألفت كتاباً يعرض لبعض هذه الفئات[١].

واليوم أقدم للقارىء الكريم شخصية إسلامية لعبت دوراً قيادياً كبيراً في حركة الجهاد الإسلامي. والشخصية التي عكفت على دراستها وبيان دورها الذي لعبته وما سببته للصليبيين من عجز ووهن، والتي ظهرت على مسرح الأحداث في السنوات من ٥٠٠هـ/١١٠٦م إلى ٥٠٧هـ/١١١٣م هي شخصية مودود ابن التونتكين ـ اتابك الموصل

والذي كان لمقدمه إلى بلاد الشام أثر كبير. بل كان مقدمه نقطة تحول في تاريخ حركة الإفاقة الإسلامية لما ترتب عليه من تطلع مودود لمهاجمة الصليبيين بالشام ذاتها، وإلى تفكيره في عزل الصليبيين بالشام عن الصليبيين الذين كانوا بإمارة الرها.

لقد كان وصول مودود إلى السلطة في الموصل في تلك الآونة بداية خير لتبلور حركة الجهاد الإسلامي التي وضع مودود لبناتها الأولى ثم أكملها بعده عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، ووصلت إلى ذروتها على عهد صلاح الدين الأيوبي، أي أن مودوداً كان ممهداً لصلاح الدين[٢].

ويحق لنا قبل أن ندخل في تفاصيل الدور الذي لعبه الأمير مودود أتابك الموصل أن نعرِّف به.

الحقيقة أن معظم كتب التراجم الإسلامية قد أغفلت تحقيق شخصية مودود، فأصله غير معروف، إلا أنه من الأتراك، حتى أن تاريخ مولده لم يحقق أيضاً، وهناك أقوال ذكرها بعض المؤرخين حول نسبه، فبعضهم يرجح أنه أحد أخوة السلطان محمد السلجوقي (٤٩٨هـ/١٢ ٥هـ ـ ١١٠٤م/١١١٨م)[٣]، وبعضهم يرجح أنه ابن أخ قوام الدولة كربوقا حاكم الموصل (٤٩٠ ـ ٤٩٦هـ/ ١٠٩٦ ـ ١١٠٢م)[٤]، ولكنهما لم يقيما أدلة على أقوالهما، أما ابن الأثير وأبو الفدا فيشيران إليه تحت اسم مودود بن التونتكين أو التونتاش، وكلاهما غير معروف[٥].

الموصل قبيل ظهور مودود :

ولعل الدور الذي لعبه موقع مدينة الموصل في هذه المرحلة، يعتبر ذا أهمية كبيرة أيضاً؛ لأنها تقع في شمال العراق فهي بذلك مفتاح إلى إمارة الرها، وكان على الشخصية التي تتقلد حكمها أن تتحمل تبعة الجهاد الإسلامي.

كانت أتابكية[٦] الموصل في بداية الربع الأول من القرن الثاني عشر الميلادي أتابكية مستقلة، يعين حاكمها من قبل السلطان السلجوقي، وكان عليه تبعة القيام بالحرب المقدسة

ضد الصليبيين إلى جانب اضطلاعه بمهمة القضاء على حركات التمرد والعصيان، التي تقوم بها قبائل التركمان في أعالي دجلة وفي الولايات الشامية(٧).

وقد كلف أتابك الموصل أيضاً بمهمة جمع أمراء العراق وغرب فارس تحت إمرته، وكان يحكم بصفته أسباسلارا للسلطان السلجوقي(٨).

تتابع على أتابكية الموصل في ذلك العهد مجموعة كبيرة من الحكام كان من المفروض أن يبلغوا شأواً كبيراً في حركة الجهاد الإسلامي. لكن للأسف، فقد اتصف سلاجقة فارس وأتابكتهم في بداية الحروب الصليبية بالجمود، بحيث أنهم لم يتحركوا للحد من «توسع الفرنجة على الأقل في شمال العراق والشام وشرق آسيا الصغرى، ولم يحاولوا الاستفادة من الموقف السيء الذي بات فيه الصليبيون عقب أسر بوهمند أمير أنطاكية(٩).

بل إن النزاع احتدم بين الأخوين بركياروق ومحمد ابني ملكشاه، واستمر النزاع من سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م إلى سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م.

وقد أدرك بركياروق النتيجة التي تؤدي إليها هذه المنازعات، فقرر تسوية المشاكل مع أخيه فانعقد الصلح بين الأخوين سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م وبمقتضاه احتفظ بركياروق بالسيادة على ممتلكاته بفارس والعراق وتخلى لأخيه عن الأطراف الغربية، وتشمل ديار بكر والجزيرة والموصل وسلطنة الشام(١٠).

وقعت مهمة تعيين أتابك الموصل على عاتق السلطان محمد السلجوقي وكانت الموصل بعد وفاة أتابكها كربوقا سنة ٤٩٦هـ/١١٠٢م مصدر نزاع وصراع بين الأمراء الترك والتركمان(١١).

كان كربوقا مسيطراً على الموصل وماحولها مثل نصيبين وماردين وآمد وقام بإيواء عماد الدين زنكى بن قسيم الدولة أقسنقر وكان قسيم الدولة آقنقر قد «قتل تاركاً زنكى وهو لايزال صبياً، له من العمر نحو عشر سنين»(١٢).

ظل عماد الدين زنكى مع كربوقا حتى وفاته في سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م، واستمر مقيماً

بالموصل مع الأتابكة اللاحقين.

تولى موسى التركماني الذي كان يحكم حصن كيفا نائباً عن كربوقا، فكاتبه أهل الموصل ونجح في دخول المدينة فتصدى له جكرمش حاكم جزيرة ابن عمر وتقابلت قواتهم عند نصيبين، وهناك غدر جنود موسى التركماني به «وقام عليه عدة من الغلمان القوامية فقتلوه حيث رماه أحدهم بنشابه فقتله»[١٣]. لذلك نجح جكرمش في الاستيلاء على الموصل بدلاً من موسى التركماني. لكنه لم ينعم بزعامته زمناً طويلاً، إذ كان لزاماً عليه أن ينغمس فيما وقع في السلطنة السلجوقية بالشرق من منازعات.

حينما تحتم على بركياروق أن يقتسم أملاك أخيه محمد كانت الموصل من نصيب محمد بن ملكشاه. فحاول جكرمش أن يستقل بالموصل فأعلن أنه لايدين بالولاء إلا لبركياروق وحده وناوأ قوات محمد، غير أنه حدث في سنة ٤٩٩هـ/يناير ١١٠٥م أن توفي بركياروق، فانتقل ارثه كاملاً إلى أخيه محمد. ولما لم يعد لدى جكرمش عذر يتذرع به بادر بالإذعان واعلان الخضوع لمحمد الذي اكتفى في ذلك الوقت بإعلان صداقته، وانسحب بجيوشه صوب الشرق دون أن يغامر بدخول الموصل في موكب النصر[١٤].

تبدلت العلاقات بين السلطان محمد السلجوقي وجكرمش، مما دعا السلطان إلى انتزاع الموصل منه سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م ومنحها مع امارتي الجزيرة وديار بكر إلى مغامر تركي يدعى جاولي سقاوة الذي كان يسيطر على البلاد التي بين خوزستان وفارس[١٥]. كما قام السلطان محمد السلجوقي بتوليه جاولي سقاوة على كل بلد يفتحه، فاستولى على كثير من البلاد والأموال ولكنه لم يرسل شيئاً للسلطان محمد. كما امتنع عن الرد على رسله من أجل ارسال قواته لمساعدته في محاربة سيف الدولة صدقة بن مزيد[١٦]. وأصر جاولي على موقفه خوفاً من الالتقاء بالسلطان.

وتشير المراجع إلى إساءة جاولي سقاوة لأهل الموصل، «حيث قد أخرج أهلها منها وأساء أصحابه السيرة فيها وارتكبوا كل محرم»[١٧]. كما قام بالاتصال بالفرنج منتهزاً فرصة رغبة الأمراء الصليبيين في نداء بلدوين دي بورج الذي كان أسيراً في الموصل من أيام جكرمش وطلب من جوسلين ـــ صاحب تل باشر ـــ دفع مبلغ ستين ألف دينار والافراج عن الأسرى

المسلمين المعتقبين بالرها، لكن القدر لم يمهل جاولى ليحصل على هذه الغنيمة[18].

بداية ظهور مودود في الموصل :

كان شرف الدين مودود يعمل تحت إمرة السلطان محمد السلجوقي وعندما سمع السلطان محمد بسوء سيرة جاولى سقاوة في الموصل، أرسل إليه مودود ابن التونتكين ليرى أمره «فخاف جاولى من وصول مودود الذي قام بحصار جاولى مدة ثمانية شهور فأرسل جاولى إلى السلطان يقول له: «إنني لا أنزل إلى مودود فإن أرسلت غيره نزلت فأرسل إليه خاتمه مع أمير آخر فنزل جاولى»[19].

وقد كان هذا أول دور يظهر لمودود بن التونتكين، الذي بدأ نجمه يلمع بعد ذلك.

وعندما تمادى جاولى سقاوة في إساءته لأهل الموصل، قرر السلطان محمد عقب الانتهاء من قتال صدقه بن مزيد ضرورة تجهيز قواته للقضاء على جاولى وأسند هذه المهمة إلى مودود بن التونتكين على أن يساعده بعض القواد، منهم سكمان القطبي حاكم ميافارقين وأقسنقر البرسقى ونصر بن مهلهل بن أبي الشوك الكردى، وأبو الهجاء صاحب إربل[20].

وصلت هذه القوة إلى الموصل، وعلى رأسها مودود في شهر رمضان سنة ٥٠١هـ . حيث كان جاولى في حروب خارجية «تاركاً زوجته بالمدينة المحصنة المحاطة بسور كبير حيث أسكنها القلعة ومعها ألف وخمسمائة فارس من الأتراك سوى غيرهم وقد استعدوا بالميره والأدوات والآلات»[21].

والعجيب أن زوجة جاولى قد أساءت هي الأخرى معاملة من معها مما دعاهم جميعاً إلى الخروج عليها. ووصف ابن الأثير هذا الموقف بقوله «فتمادى الحصار بأهلها من خارج والظلم من داخل حتى آخر المحرم»[22].

وأخيراً اتفق الجميع على تسليم المدينة «فتعاون جماعة من الجصاصين على تسهيل المهمة لقوات مودود التي تحاصر المدينة حتى تم لهم دخولها، فنادى الأمير مودود بالسكون والأمن وأن يعود الناس إلى دورهم وأملاكهم».

وقد أمّن مودود زوجة جاولى، ثم تولى حكم مدينة الموصل أتابكا من قبل السلطان محمد السلجوقي سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م.

كان وصول مودود إلى السلطة في الموصل في تلك الآونة بداية خير لتبلور حركة الجهاد الإسلامي التي وضع لبناتها الأولى ثم أكملها بعده عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود، حتى وصلت غايتها على عهد صلاح الدين الأيوبي.

وقد أمضى مودود السنة الأولى من حكمه يعمل على تثبيت أقدامه في إمارة الموصل.

والحقيقة أن المراجع العربية والأجنبية أغفلت ذكر أية أخبار عنه إلا عندما أمره السلطان محمد بالخروج لجهاد الصليبيين في جمادى الأولى سنة ٥٠٣هـ/٢٦ نوفمبر سنة ١١٠٩م[٢٣].

مودود وإمارة الرّها الصليبية :

بدأ دور مودود في حركة الجهاد الإسلامي بإمارة الرها الصليبية، ومن المفيد أن نعطي لمحة قصيرة عن نشأة هذه الإمارة وحكامها حتى تلك الفترة.

المعروف من دراستنا أن هذه الإمارة قد تأسست عام ٤٩٢هـ/١٠٩٨م على يد بلدوين البولوني الذي أسند إليه فيما بعد حكم مملكة بيت المقدس، لذلك قام بتولية صهره بلدوين دي بورج على الرها[٢٤]. وقد قام الأخير بإحكام قبضته على هذه الإمارة بطرق كثيرة، فقد تزوج أميرة أرمنية تدعى مورافيا، وهي ابنة جبريل المليتاني الحاكم الثري السابق، كما قام باستقبال باسيل بطريرك الكنيسة الأرمنية بحفاوة بالغة وتكريم شديد في عام ١١٠٣م وقام باختيار أحد أتباعه الكبار هو ابن خالته جوسلين كورتناي ــ الذي وصل في ذلك الحين من فرنسا ــ وسلمه إقطاعية تل باشر التي تقع بين الفرات وحدود انطاكية، وأخيراً وفي عام ٤٩٧هـ/١١٠٣م ساعد بلدوين دي بورج في تدبير الفدية اللازمة لفداء بوهمند حاكم انطاكية[٢٥] الذي تصور أنه من الممكن أن يتعاون معه في عملياته الصليبية ضد المسلمين، بدلاً من تانكرد الذي استحال التعاون معه[٢٦].

وكان من نتيجة هذا التحالف الهجوم الذي قاموا به على رضوان حاكم حلب سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م، وحملتهم على حران سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م والتي تقع على الطريق الموصل إلى بغداد قلب العالم الإسلامي، وكان معنى استيلاء الصليبيين على حران أنهم سيتمكنون من قطع الصلة بين المسلمين في الشرق وفارس وإخوانهم في الشام، فضلاً عن أن سقوط حران كان سيعطي للصليبيين فرصة لمهاجمة الموصل نفسها وتأمين طريق الرها، والسيطرة على إقليم الجزيرة[٢٧].

هزم الصليبيون هزيمة نكراء في هذه المعركة ووقع أمير الرها ومعه جوسلين كورتناي حاكم تل باشر أسيرين في قبضة المسلمين[٢٨].

توالت الأحداث بالنسبة للأمراء الصليبيين خلال عام ٤٩٨هـ/١١٠٤م أولاً بتعيين تانكرد وصيا على إمارة الرها، وثانياً سفر بوهمند إلى أوربا، ثم وصاية تانكرد الثانية على إمارة انطاكية وبعدها قام تانكرد بمنح إمارة الرها إلى ابن عمه ريتشارد سالرنو الذي كان أقل منه قدرة فلم يحسب حساباً لأطماع أتباعه من الفرنجة، كما أنه فقد ولاء الأرمن، حتى أن سلطة الفرنج أصبحت تعتمد على الحاميات الموجودة بالمدن. لذلك بدأ المسلمون خاصة أمراء الموصل يقومون بحملات متتالية على إمارة الرها[٢٩].

ومن هنا يتضح لنا أن أولى الإمارات الإسلامية التي بدأت تتصدى للإمارات الصليبية، هي إمارة الموصل، فقد قام جكرمش حاكم الموصل بغزو حدود الرها سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م وحذا حذوه قلج أرسلان سلطان قونيه، فقام بحملات مماثلة سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م، وسنة ٥٠١هـ/١١٠٧م[٣٠].

لذلك يعتبر حكم ريتشارد سالرنو على إمارة الرها فترة ضعف الإمارات الشمال الصليبية.

وبينما كان رتشارد سالرنو يحكم الرها كان بلدوين دي بورج يقيم أسيراً في الموصل في حين انتقل ابن خالته جوسلين كورتناي بعد وفاة سنغمان إلى ايلغازي الدانشمندي الذي أطلق سراح جوسلين سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م مقابل الحصول على فدية تقدر بحوالي عشرين ألف دينار، ووعد ببذل المساعدة الحربية له[٣١].

سعى جوسلين بعد ذلك إلى إطلاق سراح بلدوين دي بورج الذي حمله جكرمش حاكم الموصل ضمن متاعه وآل بعد ذلك إلى جاولي سقاوة بعد سيطرته على المدينة.

نجح بلدوين بعد جهد شاق في أن يعود إلى إمارة الرها، وقام تانكرد بسحب ابن خالته ريتشارد سالرنو منها(٣٢)، ثم حدثت حرب داخلية بعد ذلك بين جبهتين إحداهما إسلامية تناصرها جبهة صليبية مع أخرى مثلها.

فقد تألف حلفان من جاولي حاكم الموصل مع بلدوين دي بورج حاكم الرها لذلك خاف رضوان أمير حلب هذا التحالف لأن جاولي يهدد ممتلكاته على نهر الفرات ورد رضوان على هذا التهديد والتحالف بمثله، فتحالف مع تانكرد حاكم أنطاكية وقامت الجبهتان بالاستعداد للمواجهة العسكرية(٣٣).

قام رضوان بالاستيلاء على قافلة تجارية، كان من بين ماتحمله جزء من المال الذي افتدى به بلدوين نفسه، وكان مرسلاً من تل باشر إلى مقر جاولي بالموصل. لذلك قام جاولي سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م بشن هجوم على مدينة بالس الواقعة على نهر الفرات(٣٤).

انتهت المعركة في البداية بتمكن قوات جاولي وبلدوين من رد فرنج أنطاكية، وتكبيدهم خسائر فادحة، لكن عندما خرج الجند الأتراك من جيش جاولي يبحثون عن الغنيمة، خلت ساحة المعركة إلا من القواد فقط؛ لذلك هرب بلدوين دي بورج، وجوسلين وخسرا المعركة، لكنهما نجحا في العودة إلى الرها(٣٥).

توجه تانكرد بعد ذلك إلى الثغور الشامية فملك طرسوس وأذنه، ونزل على حصن الأكراد، فسلمه أهله إليه، وتوجه إلى شيزر، فقرر عليها عشرة آلاف دينار، وملك الفرنج مدينة بيروت التي كانت ضمن ممتلكات الفاطميين(٣٦)، وقد طلب الصليبيون من إخوانهم النازلين على ثغر بيروت النجدة من عسكر الأمير مودود التي بدأت تتجهز من الموصل للوقوف في وجه الصليبيين في الرها.

مودود وإمارة الرّهـا :

أمر السلطان محمد السلجوقي مودوداً أتابك الموصل بإعداد العدة لمواجهة إمارة الرها، وقد أبرز لنا المؤرخون المسلمون أن مودوداً كان أبرز من رفع راية الجهاد الديني ضد الصليبيين على أساس الوحدة الإسلامية في مواجهتهم، فقد جهز جيشاً ضخماً للتوجه إلى الرها شاركه فيه مسعود ابن السلطان محمد، كما شاركهما الأمير أيلغازي بن أرتق حاكم ماردين والأمير سكمان القطبي حاكم ميافارقين والمعروف بشاه أرمن[٣٧]. ويعلق ابن القلانسي على أعداد الذين شاركوا الأمير مودوداً في جهاد الصليبيين «بأنه قد وصل إليهم خلق كثير من المتطوعة»[٣٨] وقد قرر المجتمعون في جزيرة بني نمير الاتجاه صوب الرها، وذلك لما ذكرناه عنها وعن حكامها وأهميتها، وموقعها بالنسبة للمسلمين وبالنسبة للموصل بوجه خاص.

والعجيب أن التناحر والتباغض الذي لمسناه بين القادة الصليبيين في تلك الفترة ــ وعرضنا له ــ مالبث أن تلاشى عندما شعروا بقوة المسلمين ووحدتهم أمام الرها.

فقد أحكم بلدوين دي بورج أميرها سيطرته على المدينة «وشرع في تحصينها وخزن الميرة والطعام فيها»[٣٩] في الوقت الذي قام مودود وإخوانه المسلمون بحصار المدينة من جميع جهاتها، ومنعوا الداخل والخارج من المسير إليها حتى غلت الأسعار بالمدينة وطالت مدة الحصار. ويعلق الأستاذ Fink على ذلك «بأن مودوداً قد قام بتدمير القرى وأتلف المزارع والحدائق والبساتين لذلك قام بلدوين دي بورج بطلب المساعدة من الصليبيين»[٤٠] فاجتمع إليه تانكرد حاكم انطاكية وبرتراند حاكم طرابلس والملك بلدوين حاكم بيت المقدس، وغيرهم[٤١] «وتعاهدوا وتعاقدوا على الثبات في الحرب والمصابرة واللباث»[٤٢] لذلك توجهت قواتهم صوب الرها فلما وصلوا إلى الفرات بلغتهم كثرة المسلمين، فلم يقتربوا منهم وأقاموا على الفرات ــ رغم أن عدد جيشهم كان يزيد على خمسة عشر ألف رجل.

أراد المسلمون استخدام الحيلة وقرر مودود أن يرحل إلى حران ــ التي سبق أن استولى عليها ــ على أساس أن يسهل للفرنج عبور الفرات، ويتمكن من لقائهم في المنطقة الفضاء

شرقي الفرات لذلك توقفوا عن مقاتلة الصليبيين حتى يعبروا، لكن الصليبيين أدركوا هذه الخطة وشعروا بما يدبر لهم، وأن الهلاك والخذلان نصيبهم؛ فقد تلقى بلدوين التحذير في الوقت المناسب وعرف أن خطة مودود هي اجتذابهم إلى أرض معادية كيما يطوق جناحهم، لذلك توقف عن حصار قلعة شناو التي تقع شمال غرب حران(٤٣).

لحق مودود بمجموعة من الصليبيين ومعهم جمع من الأرمن الذين بدأوا في مغادرة البلاد بناء على خطة بلدوين دي بورج ـ التي تقضي بالاتجاه إلى البلاد الواقعة على الضفة اليمنى لنهر الفرات، والتي تعتبر أكثر أمناً واستقراراً، وتتبعهم المسلمون فغنموا منهم «سوادهم وأثقالهم» وتتبعوا رجالهم قتلاً وأسراً، وأغرقوهم في نهر الفرات وامتلأت أيدي المسلمين بالغنائم والأسلاب والسبى والدواب وترك المسلمون فلول الصليبيين ورفضوا اللحاق بهم وعبور الفرات لرغبتهم في العودة إلى الرها مرة أخرى(٤٤).

ظهرت نواة قوة إسلامية جديدة تمثلت في الأتابك طغتكين أتابك دمشق، الذي سمع بما حدث للقوات الإسلامية في الرها، لذلك تحرك طغتكين بقواته «إلى ناحية الرقة وقلعة جعبر وقطع الفرات»، وتلوم هناك إلى أن عرف خبر الإفرنج، وأنهم قد أحجموا عن العبور»(٤٥) وانضم إلى بقية جيش مودود. ولعل استياء طغتكين يرجع أولاً إلى استيلاء الصليبيين على ميناء بيروت في ١٣ مايو سنة ١١٠٩م، وميناء طرابلس قبل ذلك، وكان هذان الميناءان أهم مرفأين لدمشق على البحر المتوسط(٤٦).

بلغ الحقد أشده ببلدوين دي بورج على مودود، لذلك قرر الانتقام، فقاد كتيبة من العسكر واجتاز بها النهر غير أن تفوق مودود في العدد والعدة، جعل اليأس يدب في نفوس الصليبيين، حتى أن بلدوين دي بورج كاد يتعرض للهلاك على يد مودود شخصياً لولا نجدة الملك بلدوين وتانكرد.

عاد بلدوين أولاً إلى سميساط، ومنها اتجه جنوباً، بينما اتجه تانكرد ناحية بلاد الشام لإنزال العقوبة برضوان حاكم حلب الذي هاجم بلاد تانكرد أثناء غيابه، وقد اعتقد تانكرد أن هذا

العمل خيانة وخروجاً على الاتفاق المعقود بينهما من قبل، فاستولى تانكرد عنوة على قلعة النقره الواقعة على الحدود ثم زحف على حصن الأثارب وهو بالقرب من مدينة حلب وحاصره، «ومنع الميره عنه فضاق الأمر على من به من المسلمين فنقبوا في القلعة نقباً، قصدوا أن يخرجوا منه إلى خيمة صاحب انطاكية فيقتلوه»[٤٧]، لكنه نجح في التحايل على المسلمين حتى امتلك تانكرد الحصن عنوة، وقتل أهله، ثم توجه إلى زردنا فحصره، وفتحه وفعل به مثلما فعل في حصن الأثارب فلما سمع أهل منبج بذلك خافوا من الفرنج وشاركهم أهل بالس. لذلك توجه الفرنج نحو صيدا فطلب أهلها الأمان فأمنوهم واستولوا عليها، وطلب المسلمون الهدنة فرفض الصليبيون «إلا على قطيعة يأخذونها إلى مدة يسيرة[٤٨]، لذلك صالحهم رضوان وصاحب صور وابن منقذ وغيرهم بعد أن تعهدوا بدفع أموال طائلة للصليبيين.

كان لهذا الموقف الصليبي رد فعل عنيف في العالم الإسلامي، فقد أثار الاستياء العام لدى جميع المسلمين مما أدى إلى «تجمهر أعداد كبيرة منهم يرؤسهم رجل من الأشراف الهاشميين من أهل حلب، وجماعة من الصوفية والتجار والفقهاء توجهوا إلى جامع السلطان ببغداد فاسغاثوا، وأنزلوا الخطيب عن المنبر وكسروه وصاحوا وبكوا لما لحق الإسلام من الفرنج وقتل الرجال وسبى النساء والأطفال»[٤٩] وقد عاود المسلمون فعل ذلك في الجمعة التالية لذلك أوعز السلطان محمد السلجوقي إلى الأمراء والمقدمين بالعودة إلى أعمالهم والتأهب للمسير إلى جهاد أعداء الله الكفار»[٥٠].

وصل في نفس الفترة رسول من قبل الامبراطور البيزنطي لاستثارة الخليفة والسلطان ضد الصليبيين «مضمونها البعث على جهاد الافرنج والإيقاع بهم والاجتماع على طردهم من هذه الأعمال وترك التراخي في أمرهم واستعمال الجد والاجتهاد في الفتك بهم قبل اعضال خطبهم واستفحال شرهم»[٥١].

وبين لهم كذلك بأنه منع الصليبيين من العبور إلى البلاد الإسلامية؛ لذلك أمر السلطان السلجوقي قواته بالتحرك صوب الصليبيين.

كان مودود أول من استجاب لنداء سيده واستعد وجهز قواته لتحقيق هدفين: أولاً ليستكمل الدور الذي بدأه ناحية الرها، وثانياً الانتقام من الصليبيين الذين أساءوا لأهل الشام.

كانت هذه الحملة تحت قيادته وساعده مسعود ابن السلطان محمد السلجوقي والأمير سكمان القطبي والأميران الكرديان أحمد يل صاحب مراغه وأبو الهيجاء صاحب إربل، فضلاً عن بعض أمراء فارس بزعامة برسق بن برسق أمير همدان(٥٢). والأمير أيلغازي صاحب ماردين والأمراء البيكجيه ـ وقد تخلف بعد ذلك أيلغازي وبعث بابنه إياز»(٥٣).

توجه مودود بعسكره أولاً إلى سنجتان، فافتتح تل مراد وعدة حصون، وهناك وصل إليه أحمد يل وعساكره، ثم قطب الدين سكمان القطبي، وكان تجمعهم في حران، وكتب إليهم سلطان بن علي بن منقذ صاحب شيزر يخبرهم بنزول تانكرد صاحب انطاكية أرض شيزر وشروعه في بناء تل ابن معشر في مقابلة شيزر وحمل الغلال إليه وطلب منهم مساعدته(٥٤).

وعندما أحس بلدوين دي بورج أمير الرها بتلك التجمعات الإسلامية على حدود امارته، خاف أن يتعرض مرة أخرى لهجوم مودود، فشرع في تحصين إمارته وخزن الميرة والطعام فيها مما جعل مودوداً ينصرف عن حصارها ويتجه إلى ثاني مدن تلك الإمارة الصليبية وهي مدينة تل باشر غربي الفرات ومفتاح مدينة الرها. انتظر مودود وهو محاصر لتل باشر وصول الأمير برسق ابن برسق، فوصل في عسكره وهو مريض بالنقرس، وكان سكمان القطبي مريضاً أيضاً وقد ظل مودود والقوات الإسلامية محاصرين لتل باشر مدة خمسة وأربعين يوماً، وهناك وصلتهم رسالة من رضوان بأنه يستعد لمساعدتهم؛ لأنه لم يعد بوسعه أن يصمد طويلاً أمام تانكرد، وقد تأثر مودود لتغير سلوك رضوان وأنه سيشارك الجمع الإسلامي، وبناء على اقتراح أحمد يل الذي كان بينه وبين جوسلين حاكم تل باشر مودة وملاطفة حيث «قدم له جوسلين مالاً وهدية، وبذل الكون معه والميل إليه، وكان أكثر العساكر مع أحمد يل وسأله الرحيل عن الحصن»(٥٥).

طلب أحمد يل من مودود الرحيل. فوثق به مودود وظنه صادقاً في غرضه ورفع الحصار عن تل باشر وتوجه صوب حلب. وخاب أمل مودود في رضوان أمير حلب. فما إن وصلت القوات الإسلامية إلى حدود حلب حتى أغلق رضوان في وجهها أبواب المدينة «وأخذ أهله رهائن إلى القلعة، ورتب الجند وأحداث الباطنية والطائعين لحفظ الأسوار ومنع الحلبيين من الصعود إلى السور. فأطلق الحرامية في أخذ من يظفرون به من أطراف العسكر»(٥٦) معنى ذلك أن عساكر رضوان كانوا أخطر على مودود من الصليبيين.

أما عن موقف القواد المسلمين الملازمين لمودود فقد مرض سكمان القطبي، وعاد مريضاً وتوفي في بالس، أما برسق بن برسق فكان يُحمل في محفة، ولايتمكن من فعل أو قول، وأما أحمد يل فكان يرغب في العودة لطمعه في الاستيلاء على بلاد سكمان القطبي(٥٧).

مودود وطغتكين:

لعل إفرادنا عنواناً لطبيعة العلاقة بين مودود وطغتكين لدليل على أهميتها عن غيرها.

فالمعروف تاريخياً أن طغتكين كان أتابكا على دمشق لأولاد دقاق، وقد ظل بيته يتوارث هذه الأتابكية طوال فترة الحروب الصليبية إلى أن نجح نور الدين محمود في الاستيلاء على دمشق.

وقد بدأ اتصال طغتكين بمودود عندما كان الأخير محاصراً للرها سنة ٥٠٣هـ. وأكد ابن القلانسي على أنه قد وصل الرقة وقلعة جعبر وعبر الفرات، وبعدها بدأت الصلات تتوثق بين الإثنين، وكثرت المراسلات إلى أن أفضت إلى استحكام المودة بينهما، واتفاق الكلمة وتأكيد أسباب الألفة»(٥٨).

ويؤكد المؤرخون الغربيون على أهمية اتصال طغتكين بمودود واتحادهما معاً، فقد كان نجاح الحملة الصليبية الأولى يرجع إلى الفرقة بين الأمراء الترك حكام الأقاليم أما الاتحاد بين دمشق والموصل فسيؤدي إلى ضعف جبهة الصليبيين(٥٩). وعندما خرج مودود بحملته على تل باشر

ومنها إلى حلب حضر طغتكين على رأس قوة عسكرية من بلاد الشام «للاعتضاد على الجهاد وتقوية النفوس»(٦٠) فوصل إلى حلب، وهناك استقبله المسلمون خاصة مودود بالمودة والترحاب «وقويت بوصوله النفوس، واشتدت الظهور» وفي هذه الفترة علم طغتكين أن رضوان صاحب حلب بدأ يدس الدسائس، ويوغر الصدور ليوقع بين طغتكين ومودود والقوات الإسلامية، حتى أنه راسل بعض الأمراء في هذا الشأن، لذلك قرر طغتكين الاتفاق مع مودود «على التعاهد والتصادق فيما بينهما، وتقوية النفوس من أجل مجاهدة الصليبيين، حتى أنه بدأ يوزع كل مايحمله من هدايا على الجنود المسلمين منها التُحف والحُصن العربية والسُبق والأعلاق المصرية(٦١) «ولم ينكر مودود عليه أعماله هذه، بل قابلها بالمثل وتجددت العهود بينهما»(٦٢).

وقد طلب منهم طغتكين أن يتوجهوا معه صوب طرابلس، لأنه يمر في دمشق بظروف سيئة بعد استيلاء الصليبيين على ميناء طرابلس سنة ١١٠٩م، لذلك اقترح أن تبدأ الحرب المقدسة بطرابلس. لكن للأسف فإن القادة الذين كانوا يرافقون مودوداً لم يرغبوا في القتال من أجل مصلحة طغتكين ولا أن يمكثوا بعيداً عن أوطانهم أكثر من ذلك، لذلك تركوهم جميعاً كما ذكرنا(٦٣).

قرر طغتكين لمودود في حالة مساعدته منحهم كل مايحتاجونه من مؤن من دمشق وفي حالة حلول فصل الشتاء سيرحل بهم إلى دمشق، وللأسف الشديد فإننا قد رأينا اختلاف الرأي بين القواد المسلمين الذين كانوا في جيش مودود وكيف أنه فوجىء بأن كل واحد من هؤلاء القواد قد اتخذ موقفاً معيناً، كما سبق أن ذكرنا، فلم يكن أمام مودود إلا أن ينفذ رغبة طغتكين بنفسه دون الاعتماد على غيره، وأن يرحل معه هو وجنوده متجهين إلى نهر العاصي(٦٤).

وصل إلى هذه الجموع سلطان بن منقذ أمير شيرز ومعه جنوده، وأوضح لهم موقف الصليبيين، لكنه هون عليهم أمرهم وشجعهم على مواصلة الجهاد على أن تنضم إليهم جنود شيرز. لذلك بدأ يظهر الدور الإيجابي لطغتكين مع مودود، وتوطدت صلاتهما، مما جعل

المؤرخين يحللون هذا الموقف، وهل كانت هذه العلاقات من قبل طغتكين أم أنه شعر بقوة مودود، فخاف نفوذه، وأراد أن يستقطبه إلى جانبه، لكن العبرة ستتضح في النهاية، والحقيقة الكامنة في نفس طغتكين يعلمها الله وحده، رغم دفاع بعض المؤرخين عنه.

مودود وقوى الصليبيين ببلاد الشام :

رأينا خيبة أمل مودود في رضوان أمير حلب، وتحالف طغتكين وسلطان شيزر معه، لذلك نفذ خطتهم في الاتجاه صوب شيزر جنوباً فدخل عسكر مودود حول شيزر وأكرمهما سلطان بني منقذ واحتفى بقادة الحملة وهما مودود وطغتكين «بأن أصعدهما إلى حصن المدينة وباشر خدمتهما بنفسه»[٦٥].

وفي هذه الآونة كان الصليبيون بزعامة تانكرد يعسكرون أمام شيزر وعندما علموا بوصول قوات مودود انسحبوا إلى أفاميه واستنجدوا بالملك بلدوين ملك بيت المقدس، فاستجاب لهم، وأرسل إلى سائر الفرسان بالشرق ليلحقوا به، فتقدم معه البطريرك جبلين وكبار الأتباع بالمملكة أمثال جارنييه سيد صيدا ووالتر صاحب حبرون، وبرتراند كونت طرابلس، ومن الشمال جاء بلدوين كونت الرها يصحبه تابعاه الكبيران جوسلين سيد تل باشر، وباجان صاحب سروج، واستدعى تانكرد أتباعه من سائر جهات أنطاكية فقدم إليه جاي الملقب بالمعزة من طرسوس والمصيصة، وريتشارد صاحب مرعش وجاوي المعروف بالزانة سيد حارم، وروبرت صاحب السويدية وروجر صاحب هب ومارتن صاحب اللاذقية، وبونا بلوس صاحب سرمدا وآل روبين فصيله أرمنيه، بل إن أوشين صاحب لامبرون بعث بجماعة من جنده، والراجح أن عملهم اقتصر على التجسس لحساب الامبراطور[٦٦].

وتقدر جميع هذه القوات بما يقرب من ستة عشر ألف مقاتل»[٦٧] ويعلق ابن القلانسي على هذا الجمع الهائل من الصليبيين الذين برزوا أمام مودود وقواته الإسلامية أنهم قد استفادوا من حروبهم ضد المسلمين «فبعد التباين والمنافرة والخلف صاروا يداً واحدة وكلمة متفقة على الاسلام وأهله»[٦٨] ومن هنا نرى كيف أن ابن القلانسي قد أوضح لنا أن المسلمين خرجوا

متناحرين، وكل قائد منهم اعتذر بحجة معينة وتركوا الأمر لمودود ليحمل على عاتقه هذه المهمة الصعبة، في حين أن المحنة صلبت عود الصليبيين، فاجتمعوا علينا وتكاتفوا بعد أن كانوا متباغضين متناحرين.

اتجه الصليبيون إلى منطقة تسمى تل ابن معشر، وبدءوا في تجهيز قواتهم، وتحصين مواقعهم، لكن المسلمين كانوا قد نجحوا في تثبيت خيولهم من جميع الجهات، لكي تكون في مواجهة الصليبيين، وعسكروا عند معرة النعمان، وكان موقعهم يمنع وصول الماء والمؤن إلى الصليبيين، كما سيطر المسلمون أيضاً على شاطىء نهر العاصي، ومنعوا أي جندي صليبي من الاقتراب منه وكل من حاول ذلك تعرض للقتل، وهاجم المسلمون التل الذي يعسكر عليه الصليبيون، فارتد الصليبيون، واختبأوا ثلاث ليال لم يخرجوا خلالها للقاء المسلمين، ثم عادوا إلى أفاميه مرة أخرى، وتتبعهم المسلمون الذين حملوا أعداداً كبيرة من الأسرى الصليبيين الذين كانوا يتخطفونهم، ثم عادوا إلى شيزر ومنها إلى حماة[٦٩].

توطدت العلاقات عقب هذه الحملة بين مودود وطغتكين، فمن المؤرخين من يحاول إبعاد الحقد الداخلي والخوف من نفس طغتكين. ويمثل هؤلاء ابن القلانسي، أما ابن الأثير فله موقف آخر مخالف لموقف زملائه المؤرخين[٧٠].

غادر مودود بلاد الشام إلى الموصل ليستعد لهجوم جديد يوجهه صوب مدينة الرها التي تعتبر الهدف الأساسي لحكام الموصل، فجهز نفسه وتوجه في عام ٥٠٦هـ/١١١٢م إلى الرها «فنزل عليها ورعى عسكره زروعها، ومكث بها ثمانية أيام»[٧١] ثم رحل عنها إلى سروج وفعل بها كذلك، ويبين ابن الأثير أن مودوداً لم يأخذ حذره من الفرنج، وفجأة انقض عليهم جوسلين صاحب تل باشر، وهجم على الدواب التي كانت منتشرة في المراعي، وعندما تجهز مودود للثأر منه كان قد رحل إلى بلاده بعد أن قتل كثيراً من المسلمين واستولى على الدواب[٧٢].

لذلك نعتبر أن حملة الرها لم تكن ذات أهمية بل إن مودوداً بعدها اكتفى مؤقتاً بمراقبة حدود الجزيرة، ومسالك الشام تحقيقاً لرغبة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي[٧٣].

ويعلق الأستاذ Fink عن حصار مودود للرها بقوله «إذا كان مودود قد نجح في الاستيلاء على الرها لكان قد سبق عماد الدين زنكي الذي استولى عليها سنة ١١٤٤م وكان استيلاؤه عليها نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية»(٧٤).

وخلال هذه الفترة تعرضت مدينة صور في بلاد الشام لعدوان الملك بلدوين الصليبي ملك بيت المقدس الذي بدأ يجمع الصليبيين حول رايته بعدما رآه من الهجوم الإسلامي المتكرر على بلاد الشام، وبعد حملة مودود على شيزر، وقد جمع بلدوين ملك بيت المقدس جنوده وحشدها نحو مدينة صور، لذلك استنجد أهلها بطغتكين حاكم دمشق والتمسوا منه الحماية، فقام طغتكين بالاتصال بالأفضل بن بدر الجمالي الوزير الفاطمي في مصر، وبين له «أن من يتولى أمرها ويذب عنها ويحميها، بادرت بتسليمها إليه، وخروج نوابي منها»(٧٥).

وعندما تقاعس الفاطميون عن إرسال النجدة إلى مدينة صور، التي تعتبر رسمياً ضمن ممتلكاتهم في بلاد الشام، كما أنها من المدن التي استعصت على بلدوين الأول، لذلك قرر طغتكين تعيين وال عليها يدعى مسعود، «فرق عليهم المؤن والأموال، فطابت نفوس أهل البلد»(٧٦) وقد قام بلدوين بعد ذلك وفي عام ٥٠٥هـ/١١١١م بحصار لصور، لكنه كان حصاراً غير تام لعدم وجود أسطول صليبي قوي يحبس المدينة من ناحية البحر(٧٧).

وقد هزم بلدوين أمام المقاومة الإسلامية التي برزت في صور وبعدها تسلم طغتكين المدينة رسمياً. لذلك احتدم الصراع رسمياً بين طغتكين وبلدوين الأول، مما دفع طغتكين إلى مراسلة مودود، وطلب منه القدوم لنجدته «للاعتضاد به على دفع المرَدَة الأضداد، والفوز بفضيلة الجهاد»(٧٨).

والسبب الثاني لهذه الحملة هو الاعتداءات المتكررة التي كان يقوم بها بلدوين على مدينة دمشق، «حتى ندرت الأقوات بها وتعذرت»(٧٩).

والحقيقة، كما هو ثابت أن مودوداً لم يكن في حاجة إلى تحريض، بل إنه كان يمثل أولاً

سلطة السلطان السلجوقي، في كل أمور الشام والجزيرة، لذلك كان عليه أن يمضي في جهاد الفرنج[٨٠].

وثانياً، فإن استمرار قدومه إلى بلاد الشام لمحاربة الصليبيين، وان لم تؤد إلى نتيجة ما، فهو يعتبر نقطة تحول في تاريخ حركة الإفاقة الإسلامية لما ترتب عليه من تطلع مودود إلى مهاجمة الصليبيين بالشام ذاتها، وإلى تفكيره في القطع بينها وبين الرها، وبذا انتقل مسرح النضال إلى أرض الشام[٨١].

ورغم ذلك، فقد تعرض مودود شخصياً في هذه الفترة الحاسمة التي كان يمر بها العالم الإسلامي لوشايات وأباطيل نقلت عنه، وكلها مصدرها الحقد والغيرة والخوف من زعامة العالم الإسلامي «فقد شُنع عليه عند السلطان غياث الدنيا والدين بشناعات من المحال، لفَّقَها الحسدة والاعداء»[٨٢].

لذلك اضطر «أن يبعث إبنه وزوجته إلى السلطان محمد السلجوقي للاعتذار وإثبات صدق نيتهم وعزمهم على مواصلة الجهاد».

وقد قام مودود بإعداد جيش ضخم خرج به إلى بلاد الشام في شهر ذي القعدة، لذلك انزعج بلدوين انزعاجاً شديداً لقدوم هذا الجيش[٨٣].

والواقع أن موقف الصليبيين في هذه الآونة كان يشهد تغييرات جديدة بشمال بلاد الشام، وأعالي الجزيرة، إذ مات ريتشارد النورماندي وبرتراند أمير طرابلس فتوثقت العلاقة بين بونز ابن برتراند وتانكرد، غير أن تانكرد مالبث أن مات سنة ١١١٢م فتولى الوصاية على انطاكية روجر بن ريتشارد حتى يقدم بوهمند الثاني وانتزع بلدوين دي بورج اقطاع تل باشر من جوسلين، فارتحل إلى بيت المقدس سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م، وحاز الجليل «طبرية» اقطاعاً له[٨٤].

وتذكر المراجع أن أخبار تحركات مودود من الموصل إلى الشام وصلت إلى بلدوين دي بورج

كونت الرها، فبادر بإبلاغها إلى بلدوين ملك بيت المقدس، لذلك قام باستدعاء أميري انطاكية وطرابلس.

خرج طغتكين من دمشق للقاء مودود وجيشه، وتم اللقاء عند مرج سلميه جنوبي شرق حمص. واتفق الإثنان على ملاقاة جيش بلدوين، وصحبتهم في هذه الحملة جيوش من حمص وحماه، ورفنيه ثم توجها إلى قدس ومنها إلى عير الحبر بسهل البقاع ثم إلى وادي التيم ونزلا بانياس(٨٥).

ويحاول ابن القلانسي أن يركز على حسن معاملة طغتكين لمودود وتكريمه وإعظامه «وماحمله إلى متقدمي عسكره وخواصه من أنواع الملبوس والمأكول والمركوب»(٨٦).

موقعة الصنبرة سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م :

انضمت إلى قوات مودود وطغتكين قوات تمبرك صاحب سنجار، والأمير أياز بن أيلغازي الأرتقي، وقد اتجه الجميع صوب طبرية، وقاموا بحصارها، وعندما استعصت عليهم أخذوا يدمرون وينهبون الممتلكات الصليبية المجاورة حتى جبل الطور(٨٧).

اتجهت القوات الإسلامية بعد ذلك إلى الاقحوانة في حين قرر الصليبيون بزعامة بلدوين أن ينزلوا غربي جسر الصنبرة وهي قرية قديمة تقع على المجرى الأعلى لنهر الأردن ثم يقطعونه إلى الاقحوانة للقاء المسلمين، وقد شدد الحراسة على أمتعتهم وأسلحتهم خلف الجسر(٨٨).

نجح المسلمون في قطع جسر الصنبرة، ووقفوا أمام الفرنج في ثلاث جولات حربية انتصروا فيها وقتل من الإفرنج «تقدير ألفي رجل من الأعيان ووجوه الأبطال والشجعان، وملكوا ماكان نُصِب من خيامهم»(٨٩). ويعدد فولشر قديس شارتر عدد القتلى بثلاثين ألف فارس، واثني عشر ألفا من المشاة(٩٠). وقد تم أسر بلدوين «وفر هارباً، وحصل معسكر مودود على غنائم وفيرة»(٩١) وقد غرقت أعداد كبيرة من جيش بلدوين في البحيرة، واختلط الدم والماء حتى أن الناس امتنعوا عن الشرب منه، وهرب من نجا من الصليبيين إلى طبرية.

عندئذ وصلت بقية الجيوش الصليبية إلى بلدوين، وقد لاموه على تسرعه في لقاء المسلمين، أما المسلمون فقد استأنفوا جهودهم فاتجهوا ناحية طبرية وقرروا مهاجمة الصليبيين مرة أخرى فصعدوا الجبل المطل عليهم غربي طبرية، وبعد أن عاد المسلمون إلى معسكرهم، صعد الصليبيون الجبل، وتحصنوا به، ومع ذلك استمر المسلمون في مجابهتهم وقرروا في النهاية عدم الصعود إلى الصليبيين لصعوبة الجبل[٩٢]. وقاسى الصليبيون من ندرة الماء، واستمروا فوق التل لمدة ستة وعشرين يوماً، وخلال هذه الفترة وصلت قوات من قبل رضوان أمير حلب تقدر بحوالي مائة فارس، وهو أقل من العدد المتفق عليه، لذلك توترت العلاقات بينه وبين طغتكين ومودود اللذين قررا عدم إقامة الخطبة له.

ظلت العساكر الإسلامية تطارد القوات الصليبية، بعد أن أدركوا عجز ملك بيت المقدس عن الدفاع عن إمارته، فاستمروا في إغارتهم على المناطق بين عكا وبيت المقدس، فأضحى الإقليم تحت رحمتهم، فهرب سكان المدن والقرى والفلاحون ولحقوا بالقوات الإسلامية، وأصاب الفرنج من الذلة والانكسار والخوف، ماجعلهم لايجرؤون على مغادرة الاستحكامات والحصون[٩٣] ويعلق فولشر قديس شارتر على ذلك بقوله «إن العرب اتجهوا جماعات، والتفوا حول إخوانهم في الدين وأن الصليبيين لم يجرؤوا على مغادرة أسوار مدنهم، فلم يتمكنوا من الاتصال بالملك بلدوين، كما لم يتمكنوا من حصد المحاصيل التي جادت بها الأراضي في ذلك العام[٩٤]. ثم كان أن زاد موقف الصليبيين حرجاً في ذلك الوقت عندما قامت حامية عسقلان بهجوم على بيت المقدس ذاته، مستغلة فرصة وجود الملك بلدوين الأول والجيش الصليبي قرب طبرية، وهكذا تقدم الجيش الفاطمي من عسقلان يدمر وينهب، ويقتفي أثر الصليبيين حتى وصل إلى أسوار بيت المقدس، لكن حامية المدينة ومن بقي فيها من الفرسان ظلت متيقظة تماماً في الوقت الذي كان الجيش الفاطمي الذي خرج من عسقلان صغير العدد لا يستطيع القيام بعمل حربي ضخم ضد المدينة، مما جعل المسلمين يشرعون في العودة إلى عسقلان في الليلة نفسها التي بلغوا فيها أسوار بيت المقدس[٩٥].

وقد تبدلت الظروف بالنسبة لبلدوين حيث وفدت عليه جموع من انطاكية وطرابلس

لمواساته في مأساته، كما شاركهم مجموعة من الحجاج الغربيين القادمين من أوربا، وقد تجمعوا في مجموعات كبير واتجهوا إليه[٩٦] على أن مودوداً أذن للعساكر في العودة إلى بلادهم والاستراحة على أن يتجمعوا في الربيع القادم لمواصلة الغزو، وذلك بعد أن ألح عليه عساكر العراق، وحلفاؤه، وعزم مودود على المقام بالشام والقرب من العدو[٩٧] لذلك عاد طغتكين ومودود إلى دمشق في الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٠٧هـ، وقد بالغ طغتكين في إكرامه واحترامه وخدمته بنفسه[٩٨].

ويعقد الأستاذ «فنك» Fink مقارنة بين حملة سنة ١١١٣م/٥٠٧هـ، التي قام بها مودود وبين موقعة حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م التي قام بها صلاح الدين الأيوبي، فبين أن هاتين المعركتين متشابهتان في أكثر من شيء، أولها أن الوحدة الإسلامية في كلتاهما كانت سبباً في قهر المسيحيين، وفي كلتاهما بدأ المسلمون بمهاجمة طبرية كما أدى هذا الهجوم إلى تجنيد عام في كل العالم الإسلامي وانتهى بانتصار المسلمين على الفرنج وألقوا بهم على تل قليل الماء[٩٩].

أما عن وجه الاختلاف بين الاثنتين، فإن جيش بلدوين انهزم في حملة مودود وهرب بلدوين أما جيش جاي لوزجنان في حطين فانهزم وتم أسر الملك نفسه.

ثانياً: أن الملك بلدوين في الأولى كان يعاني وهو على التل المرتفع من نقص المياه وقلتها في حين أن جاي لوزجنان في الثانية لم يجد الماء نهائياً.

ثالثاً: أن بلدوين كان يحظى باحترام رفاقه رغم الأخطاء التي وقع فيها، في حين أن جاي صدر ضده قرار من المجلس الصليبي العام يقضي بعزله، وأخيراً فإن بلدوين وصلته إمدادات ومساعدات خارجية، في حين أن جاي لوزجنان تم أسره مباشرة وقبل وصول الإمدادات إليه[١٠٠] والواقع أن مودود بعد عودته إلى دمشق شعر بأنه قد قام بتأسيس وبناء الأسس واللبنات لحركة الجهاد الإسلامي، فقد نجح في أن يكوّن تحالفاً بين الأتراك في العراق، وبين إخوانهم في دمشق التي تعتبر أقوى قطر إسلامي في بلاد الشام[١٠١].

مقتل مودود :

تعرض مودود المجاهد المسلم بعد هذا الجهد الجهيد لطعنات غادرة قام بها أحد رجال الشيعة الباطنية فأثناء توجهه برفقة طغتكين من مخيمه بمرج باب الحديد إلى الجامع، وبعد الصلاة خرج هذا الباطني وطعنه طعنات قاتلة تعرض بعدها الباطني لضربات الحراس المحيطين بهم فمزقوه إرباً ثم حرقوه فلم يعرفه أحد في الوقت الذي أصبح مودود يترنح من الألم(١٠٢).

ويذكر ابن الأثير أن مودوداً كان صائماً، فطلب منه طغتكين أن يفطر فرفض وقال «لا لقيت الله إلا صائماً ومات يومه»(١٠٣) ولعل مقتل مودود أثار وجهات نظر متعددة بين المؤرخين والغريب أن معظم الآراء اتهمت طغتكين بتدبير قتله ومن المؤرخين المسلمين يَبْرُز ابن الأثير، الذي يتهم طغتكين في تدبير مقتل مودود «لأنه خافه فوضع عليه من قتله»(١٠٤).

ولعل ماقام به طغتكين من قطع رقبة القاتل وإحراق جثته ما يدلل به على رغبته في طمس معالم الجريمة والتخلص ممن قام بها، حتى أنه تحالف فيما بعد مع الصليبيين.

أما المؤرخون المسلمون الذين أبعدوا التهمة عن طغتكين، فعلى رأسهم ابن القلانسي وهو صديق طغتكين ومعاصره فذكر أنه «قلق لوفاته، وتزايد حزنه، وأسفه وانزعاجه»(١٠٥) وشاركه في ذلك سِبط بن الجوزى الذي ذكر أن طغتكين قد صدم على قتل مودود وحزن حزناً شديداً. وشاركه في هذا الرأي أبو المحاسن ابن تغرى بردى(١٠٦).

أما المؤرخون الغربيون أمثال البرت آخن ومتى الرهاوى، فقد اتهما طغتكين بقتل مودود، أما فوشر قديس شارتر فقد أبعد عنه التهمة(١٠٧) والحقيقة أننا لانستطيع أن نتهم أو نبرىء طغتكين، فالحقيقة يعلمها الله وحده، ولكن هناك حدثاً سياسياً وهو أن طغتكين استقل بدمشق عن السلطنة السلجوقية حتى وفاته سنة ١١٢٨م وكما ذكرنا فإن اتصاله بالصليبيين ــ فيما بعد ــ أدى إلى ترسيخ الشكوك فيه.

تقييم عام لمودود بن التونتكين :

وبعد أن استعرضنا هذا الدور الإيجابي لمودود حاكم الموصل الذي قاد حركة الجهاد الإسلامي، وأبرز أهمية الموصل بالنسبة لإمارات الشمال وأنه أول من بدأ توحيد الجبهة الإسلامية في الحروب التي دارت بين إمارات العراق والشام وبين الصليبيين، فقد أثبت أهمية هذه الوحدة في مجابهة الصليبيين، والتي بدونها لم ولن تقوم للمسلمين قائمة. ويعتبر مودود هو الذي أضاء الطريق الذي لم يغلق، فقد أشرت أن عماد الدين زنكى، وهو الشاب الذي تربى في هذه الإمارة وخاض مع مودود معاركه في بلاد الشام، لمع فيما بعد، وحمل نفس المشعل الذي أضاء به مودود طريق حركة الجهاد. وقد توطدت العلاقات بين مودود وزنكى وأحبه حتى أنه أطلق اسمه على ابنه قطب الدين مودود الذي تولى الموصل سنة ١١٤٩/ ١١٧٠م.

وقد نجح عماد الدين زنكى كما نعلم في توحيد الموصل، وحلب وهي الخطة التي كان يعمل من أجلها مودود، كما نجح في استرداد الرها سنة ١١٤٤م وهو الأمل الذي بذل من أجله النفس والمال وكاد يحققه، واكمل هذه المسيرة نورالدين محمود بن زنكى الذي ضم دمشق إلى الوحدة الإسلامية، حتى كان صلاح الدين الأيوبي الذي تحققت على يديه الوحدة الإسلامية الكاملة بدخول مصر فيها حتى سقوط بيت المقدس، وعودتها إلى أحضان الإسلام.

أما عن آراء المؤرخين الغربيين فمنهم فولشر قديس شارتر الذي يصفه بأنه «كان قوياً وعظيماً حقاً وقائداً بارزاً من القواد الأتراك يتمتع بذكاء حاد ومكر كبير»[١٠٨]، أما ألبرت آخن فيذكر «أن اسم مودود وشهرته قد تعدت وفاقت جميع القادة الأتراك لأنه حارب الصليبيين أكثر من غيرهم»[١٠٩] حتى أن متى الرهاوى الذي هاجم مودود بلاده والذي كان يعرفه أكثر من غيره حتى أنه لقبه بلقب «مصاص الدماء» قد وصفه بأنه كان محارباً مغواراً[١١٠].

أما آراء المؤرخين المسلمين في مودود فيذكر عنه ابن الأثير، أنه كان خيراً عادلاً كثير الخير»[١١١] أما ابن القلانسي فيقول «انه لزم التدين والصدقات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فشاعت بالجميل أخباره وبحسن الارتضاء آثاره[١١٢].

ويذكر د/ العريني «أن الفرنج فرحوا لما حدث من مصرع مودود لاختفاء عدو اعتبروه من أشد الخصوم كفاية وقدرة وصلابة»(١١٣).

أما د/ حبشي فيذكر أن مقدم مودود إلى حلب يعتبر نقطة انتقال هامة في تاريخ حركة الإفاقة الإسلامية، اذ يبدو أنه أدى إلى تطلع مودود لمهاجمة الصليبيين بالشام ذاتها وإلى تفكيره بالقطع بينها وبين الرها، ومن ثم أخذ مودود في التقرب إلى بعض الأمراء الشاميين(١١٤).

ويذكر د/ حسين مؤنس «أن أعظم نتائج جهاد مودود أنه أعاد إلى المسلمين الثقة بأنفسهم، فانقلبوا من الدفاع إلى الهجوم، واستخفوا بالصليبيين وأخذ المسلمون في الاتحاد، فأصبح الأمراء منهم أميل إلى الاتحاد ومحالفة بعضهم بعضاً، وتبينوا فضائل الاتحاد، ولم تعد جماعة منهم لتخرج إلى القتال إلا متحدة مع جماعة أخرى فكتب الله لهم الانتصار.

إن ميلاد حركة التوحيد في الموصل جعلت امارة بيت المقدس تهتم بالدفاع عن نفسها، فلم يعد بلدوين يهاجم مابقى للفاطميين من سواحل الشام، فاستفاد الفاطميون، وهددوا بيت المقدس سنة ١١١٥م، فبذل بلدوين جهداً في دفع هذه الغارة، وأن مودوداً من غير شك هو من الطبقة الأولى مثل نور الدين وصلاح الدين يستحق أن يكون من الظاهرين من أبطال الإسلام(١١٥).

وإذا كانت هذه هي الأحكام التي أصدرها المؤرخون على مودود، لذلك فلا أقل أن يحظى باهتمامنا واهتمام من بعدنا.

جزاه الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء ،،،

● ● ●

الهوامش:

(١) انظر د/ عفاف صبره – «دراسات في تاريخ الحروب الصليبية» ومن أهم الموضوعات «دور الفقهاء وعلماء المسلمين في جهاد الصليبيين» «التركمان وجهاد الصليبيين».

(٢) عن الموضوع انظر

«Fink» Mawdud I of Mosul, Precursor of Saladin» PP. 18 - 28.

(٣) Stevenson «Crusaders in the east» PP. 64 - 84 - 87.

(٤) Gibb. Damascus Chronicle of the crusades P.99 N.40

(٥) Fink Mawdud of Mosul. Precursor of Saladin P.18 «The Muslim World» XIII - 1953

(٦) الأتابكية، يحكمها الأتابك وهو الأمير الوالد وهي من مقطعين هما «بك» وهو الأمير و«تا» أي الوالد، وهذا اللقب كان يعطي لمن يفوضه السلطان بتربية أحد أولاده الصغار، وكان الأتابك يدير باسم الوالد المدينة التي كانت العادة أن يوليها السلطان لابنه ثم توسعوا في معنى هذا اللقب ومنحوه لأول المتوظفين لأمير الجيوش، ثم صار السلطان يعطيه للعظماء كلقب شرف.

انظر ــ ابن العبري جرجريوس الملطي «تاريخ مختصر الدول» ص١٩٨ حاشية ١.

(٧) Cahen «The Turkish invasion» P.169

(٨) Fink «op-cit» P.19

(٩) المعروف أن يوهمند قد وقع في كمين دبره له الأمير الدانشمندي غازي كمشتكين سنة ١١٠٠م فتم أسره وذبح رجاله ــ انظر Matthiew of Edessa «R.H.I. ARM. Vol.I P.52.

(١٠) Grousset «Histoire des les Croisades» T.I. P.402.

(١١) رنسمان «تاريخ الحروب الصليبية» ج ٢ ص ١٧٣ ترجمة د/الباز العريني.

(١٢) ابن الأثير «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية» ص ١٦.

(١٣) ابن الأثير «الكامل في التاريخ» ج ٨ ص ٢١١ حوادث سنة ٤٩٥هـ.

(١٤) رنسمان «تاريخ الحروب الصليبية» ج ٢ ص ١٧٧.

(١٥) Fink «The Foundation of the Latin States» P.393.

(١٦) أحد زعماء العرب يطلق عليه أمير العرب كان حاكماً على الحلة وواسط بالعراق انظر عاشور «الحركة الصليبية» ج ١.

(١٧) ابن القلانسي «ذيل تاريخ دمشق» ص ١٦٠.

(١٨) احتاج جاولي هذه الفدية لمواجهة الأمير مودود بن التونتكين الذي وجه إليه السلطان محمد السلجوقي لانتزاع الموصل منه. انظر رنسمان «المرجع السابق» ج ٢ ص ١٨١.

(١٩) ابن الأثير «الكامل» ج ٨ حوادث سنة ٥٠٠هـ.

(٢٠) ابن الأثير ــ نفسه ج ٨ حوادث سنة ٥٠٢هـ.

(٢١) ابن القلانسي «الذيل» ص ١٦٠.

(٢٢) ابن القلانسي ــ نفسه.

ابن الأثير ــ نفسه.

(٢٣) ويذكر ابن الأثير في «التاريخ الباهر» أن عماد الدين زنكى كان يخدم مع جاولي سقاوة. فلما سمع بما حدث في الموصل تركه مع غيره من الأمراء. انظر ص ١٦.

عن الموضوع نفسه «Fink» Mawdud of Mosul.

Precursor of Saladin PP.18 - 28.

(٢٤) Fink «The Foundation of the Latin States» P.392.

(٢٥) لقد تم أسر بوهمند حاكم انطاكية على يد غازي كمتكين الدانشمندي سنة ١١٠٠م أثناء توجهه لنجدة ملطية من سيطرة الأتراك.

انظر عاشور «الحركة» ج ١ ص ٣٧٧.

(٢٦) Fink «The Foundation of the Latin States» P. 393.

(٢٧) Grousset «op-cit» P. 401.

(٢٨) ابن الأثير «الكامل» حوادث سنة ٥٠٤هـ.

(٢٩) Fink «The Foundation of the Latin States. P. 393.

(٣٠) Ibid.

(٣١) Michael Le. Syrian «op-cit» T. PP. 195-196.

(٣٢) طبقاً لما أورده متى الرهوي «فان بلدوين كان يرفض أن يستلم حكم الرها كأقطاع ممنوح له من قبل تانكرد حتى لايصبح تابعاً له، ويذكر أن أنانية تانكرد قد أعمته عن حقيقة هامة وهي أنه إذا تحالف هو وبلدوين دي بورج مع جاولي المنشق على السلطنة السلجوقية، فسيتمكنوا جميعهم من توجيه ضربة قاصمة للسلطنة السلجوقية» Matthew of Edessa «op-cit» PP.85, 86.

(٣٣) Fink «op-cit» P, 394.

(٣٤) Ibid.

(٣٥) رنسيان «المرجع السابق» ج ٢ ص ١٥١.

(٣٦) ابن القلانسي «ذيل تاريخ دمشق» ص ١٦٧.
ابن العبري «تاريخ مختصر الدول» ص ١٩٩.

(٣٧) ابن القلانسي «نفسه» ص ١٦٩.

(٣٨) نفسه.

(٣٩) ابن الأثير «الكامل» حوادث سنة ٥٠٥هـ.

(٤٠) Fink «Mawdud I of Mosul» P.20

(٤١) لقد تأخر وصول بلدوين الأول لأن انتقاله من بيت المقدس إلى الرها استغرق شهر وانتظر كذلك حتى تمكن من حشد قوى الصليبيين وشاركهم أيضاً كوغ باسيل الأرمني حاكم كيسون. Fink «Ibid» P.20.

(٤٢) ابن القلانسي «نفسه».

(٤٣) رنسيان «المرجع السابق» ص ١٨٩.
وقد حدثت نفس الخطة في الماضي عندما قام جاولي سقاوة بتدبيرها لبوهمند الأنطاكي وبلدوين دي بورج حاكم الرها وفي نفس المكان سنة ١١٠٤م، وكما حدث في الماضي السحيق عندما دبر البارثيون ذلك للقائد الروماني كراسوس سنة ٥٣ ق.م انظر Fink «Mawdud» P.20.

(٤٤) ابن العديم «زبدة الحلب» ج ٢ ص ١٥٤.

(٤٥) ابن القلانسي «نفسه» ص ١٦٩.

(٤٦) Fink «Mawdud» P. 20.

(٤٧) ابن الأثير «الكامل» حوادث سنة ٥٠٤هـ.

(٤٨) نفسه.

(٤٩) ابن القلانسي «نفسه» ص ١٧٣.

(٥٠) نفسه.

(٥١) نفسه.

(٥٢) ابن الأثير «نفسه» ج ٨ ص ٢٦٣ حوادث سنة ٥٠٥هـ.

(٥٣) نفسه.

(٥٤) ابن القلانسي «ذيل تاريخ دمشق» ص ١٧٤ يذكر ابن الأثير في «التاريخ الباهر» ـ أن عماد الدين زنكي قد رافق مودوداً في

حملة الرها، ويذكر أن مودوداً لم يتمكن من فتحها حيث كان فتحها عقيلة ومكرمة وفضيلة قد ادخرها الله سبحانه وتعالى للشهيد زنكي.

فاستوضحت سبل الآمال حايدة ** عن الملوك إلى أعلاهم حسبا
أبهرهم فضلاً أغمرهم بذلاً ** أفخرهم أبدا فعلا ومنتسبا
أشم أشوس معتد وباسرا دقه ** على الممالك مرخى دونها الحجبا
ممتنع الغر معمور الفناء به ** مظفر العزم والآراء منتخبا
من معشر طالما شبوا بكل وغي ** نارا يظل أعاديهم لها حطبا

(٥٥) ابن القلانس «نفسه» ص ١٧٥. Matthew of Edessa «R.H.C.» A.R.M. Vol I P.97.

(٥٦) يذكر Fink أن أهم نتيجة لهذه الحملة هي أنها أضعفت امارة الرها الصليبية انظر «Mawdud» P.21
ويذكر المؤرخون أن رضوان خاف من وصول مودود حتى لايفقد استقلاله بإمارته المحلية، لذلك تحالف مع الباطنية الشيعة، ولم يعبأ بالوحدة الإسلامية وشعور المسلمين السنة الذين يمثلهم مودود. Fink «Ibid» P.22.

(٥٧) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٦٣ حوادث ٥٠٥هـ.
ابن القلانس ص ١٧٦.

(٥٨) ابن القلانس «نفسه» ص ١٧٠.

(٥٩) Fink «Mawdud» P.21.

(٦٠) ابن القلانس «نفسه» ص ١٧٥.

(٦١) نفسه ص ١٧٧.
ابن الأثير ج ٨ حوادث سنة ٥٠٥هـ.
ابن العديم «زبدة الحلب» ج ٢ ص ١٦٠.

(٦٢) ابن القلانس «نفسه» ص ١٧٧.

(٦٣) Fink «Mawdud» P.22
ابن العديم «زبدة الحلب» ج ٢ ص ١٦١.

(٦٤) ابن الأثير ج ٨ حوادث سنة ٥٠٥هـ.
ابن القلانس «نفسه».

(٦٥) ابن القلانس «نفسه».
ابن الأثير «حوادث سنة ٥٠٥هـ.
ابن العديم «زبدة الحلب» ج ٢ ص ١٦٠.

(٦٦) رنسيان «المرجع السابق» ج ٢ ص ١٩٨. Matthew of Edessa P.275.
Michael le Syrien «op-cit» Vol III P.205.

(٦٧) Albert of Aix R.H.C. occ IV. P.683.

(٦٨) ابن القلانس «ذيل تاريخ دمشق» ص ١٧٧.

(٦٩) نفسه ص ١٧٧، ص ١٧٨.
ابن الأثير «الكامل» حوادث سنة ٥٠٥هـ.
ابن العديم «زبدة الحلب» ج ٢ ص ١٦١.

(٧٠) يهاجم ابن الأثير طغتكين بقوله «أنه عندما اجتمع بالأمير مودود اطلع من الأمراء على نيات فاسدة في حقه، فخاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع في مهادنة الفرنج سراً» ويبين كذلك أن هذه الحملة قد باءت بالفشل في حين أن ابن القلانسي يؤكد على العلاقة الوطيدة بين القائدين ويصف المؤرخ الفرنسي جروسيه طغتكين بأنه الحليف غير الوفي لمودود. Grousset «op-cit» T.I. P.266.

(٧١) ابن الأثير «الكامل» ج ٨ حوادث سنة ٥٠٦ هـ.

(٧٢) ابن العبري «تاريخ مختصر الدول» ص ١٩٩.

(٧٣) عاشور «الحركة» ج ١ ص ٣١٠.

(٧٤) Fink «Mawdud» P.23

(٧٥) ابن القلانسي «ذيل تاريخ دمشق» ص ١٨٢.

(٧٦) ابن الأثير «نفسه» حوادث سنة ٥٠٤هـ.

(٧٧) عاشور «الحركة الصليبية» ج ١ ص ٣٠٤.

(٧٨) ابن القلانسي «نفسه» ص ١٨٤.

(٧٩) Matthew of Edessa R.H.C. ARM. T.I P.106.

(٨٠) Grousset «op-cit» P.484.

(٨١) ابن العديم «زبدة الحلب» ج ٢ ص ١٦٠.

حبشي «نور الدين والصليبيون» ص ١٧.

(٨٢) ابن القلانسي «نفسه» ص ١٨٤.

من التهم التي لفقت على مودود أنه سيخرج عن طاعة السلطان السلجوقي ويعمل لحسابه الخاص، وأنه تحالف مع الأتابك طغتكين «وانهما أصبحا يداً واحدة وآراؤهما متوافقة، واهواؤهما متطابقة».

(٨٣) ابن الأثير «الكامل» حوادث سنة ٥٠٧هـ.

(٨٤) العريني «الشرق الأوسط والحروب الصليبية» ص ٤٦٢. Grousset «op-cit» T.I. P.487.

(٨٥) ابن القلانسي ص ١٨٤. Fink «Mawdud» P.23.

(٨٦) نفسه.

(٨٧) عاشور «الحركة الصليبية» ص ٣١١.

(٨٨) عاشور «الحركة الصليبية» ص ٣١١.

الأقحوانة شبه جزيرة يصنعها نهر الأردن مع نهر اليرموك جنوبي بحيرة طبرية ويعلق الأستاذ Fink على الأقحوانة التي اختارها مودود، بأنها هي نفس المكان الذي اختاره بعده صلاح الدين الأيوبي، وكسبت شهرتها بعد أن تمكن عن طريقها من دخول مدينة بيت المقدس في حملته المظفرة «حطين» سنة ١١٨٧م, Fink «Mawdud» P.23,

(٨٩) ابن القلانسي «نفسه» ص ١٨٥.

ابن العديم «زبدة الحلب» ج ٢ ص ١٦١.

(٩٠) Fulcher of Charter. «op-cit» P.568-569.

(٩١) Grousset «op-cit» P.484-494.

(٩٢) ابن القلانسي «نفسه» ص ١٨٦. Albert of Aix «R.H.C.» occ. IV P.696.

٩٣) العريني «الشرق الأوسط ص ٤٦٣.

(٩٤) Fulcher of Charter «op-cit» PP. 572-574.

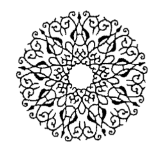
(٩٥) عاشور «الحركة الصليبية» ج ١ ص ٣١٣.
(٩٦) Fink «Mawdud» P.24.
(٩٧) ابن القلانسي «نفسه» ص ١٨٦. Fulcher of charter «op-cit» P.575.
(٩٨) ابن القلانسي «نفسه» ص ١٨٧.
(٩٩) Fink «Mawdud» P.25.
(١٠٠) Fink «Mawdud» P.25.
(١٠١) Ibid.
(١٠٢) ابن القلانسي «نفسه» ص ١٨٧.
(١٠٣) ابن الأثير «نفسه» حوادث ٥٠٧هـ.
(١٠٤) ابن الأثير «نفسه».
(١٠٥) ابن القلانسي «نفسه» ص ١٨٧.
(١٠٦) سبط بن الجوزى «مرآة الزمان» ج ١ ص ٤٢.
أبو المحاسن «النجوم الزاهرة» ج ٥ ص ٢٠٧.
(١٠٧) Fink «Mawdud» P.26,
(١٠٨) Fulcher of Charter «op-cit» P.578.
(١٠٩) Albert of Aix, R.H.C. occ. 10. P.700,
(١١٠) Matthew of Edessa R.H.C. ARM. I PP.91-100-104,
(١١١) ابن الأثير «الكامل» حوادث سنة ٥٠٧هـ.
«التاريخ الباهر» ص ١٨.
(١١٢) ابن القلانسي «نفسه» ص ١٨٨.
(١١٣) العريني «الشرق الأوسط» ص ٤٦٤.
(١١٤) حبشي «نور الدين والصليبيون» ص ١٤٠.
(١١٥) حسين مؤنس «نور الدين» ص ١٣١ - ١٣٢.

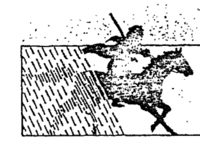
قائمة المصادر و«المراجع العربية»

(١) ابن الأثير الجزرى «أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الملقب بعز الدين ت. ٦٣٠هـ/١٢٣٢م.
ـ الكامل في التاريخ ـ بيروت سنة ١٩٨٠م.
ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ـ تحقيق عبد القادر احمد طليمات. القاهرة سنة ١٩٦٣م.
(٢) ابن الجوزى «أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي» ت. ٥٩٧هـ/١٢٠١م ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج ٨ - ٩ ط. حيدر اباد ـ ١٣٥٩هـ.
(٣) ابن العبري «جرجريوس الملطي» أبو الفرج بن هرون. ت. ٦٦٠هـ/١٢٨٦م.
ـ تاريخ مختصر الدول ـ بيروت سنة ١٨٩٠م.

(٤) ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله) ت. ٦٦٠هـ/١٢٦٢م.
- زبدة الحلب في تاريخ حلب، جزآن - تحقيق سامي الدهان.
دمشق ١٣٧٠هـ/١٩٥١م
(٥) ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة بن القلانسي) ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م
- ذيل تاريخ دمشق - بيروت ١٩٠٨م
(٦) أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغري بردي. ت. ٨٧٤هـ/١٤٦٩م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة القاهرة سنة ١٩٣٠م.
(٧) حبشي (حسن).
- نور الدين والصليبيون - القاهرة سنة ١٩٤٨م.
(٨) رنسيمان (ستيفن).
- تاريخ الحروب الصليبية - ج ٢ بيروت سنة ١٩٦٧م.
(٩) صبرة (عفاف) تحت الطبع
- دراسات في تاريخ الحروب الصليبية - القاهرة سنة ١٩٨٦م
(١٠) عاشور (سعيد عبد الفتاح).
- الحركة الصليبية، جزآن - القاهرة سنة ١٩٧٨م.
(١١) مؤنس حسين.
«نور الدين» - القاهرة سنة ١٩٥٩م.

1) Albert. of Aix. "Liber Christianae expeditione ereptione. emundatione. restitutione. sanctae hierosoly mitanae, ecclesiae."
2) Cahen C. The Turkish Invasion. in Setton "A History of the Crusades." Vol. I. Wisconsin. 1969.
3) Fink. H.S. The Foundation of the Latin States. in Setton, 1969. Mawdud I of Mosul, precursor of Saladin. The Muslim World XLIII. 1953.
4) Fulcher of Charter. Historia. Hierosoly mitanae ecclesiae. Edited by Heinrich Hagenmeyer Heidelberg. 1913.
5) Gibb. A.R. The Damascus Chronicle of the Crusades. London, 1932.
6) Grousset. R. Histoire, des Croisades. 3 Vols. Paris, 1936.
7) Matthew of Edessa. Extraits de la chronique de Matthew d'Edesse. R.H.C. Arm. I.
8) Michel les Syrien. Chronique. Edited and Translated by J.B. Chabat. 4 Vals. Paris, 1899-1910.
9) Stevenson. W.B. Crusaders in the east. Cambridge, 1907.





ذكريات من البادية !...

كيف اتجهت إلى البادية ؟

للأستاذ روكس بن زائد العزيزي



إذا أراد الله أمراً، هيأ أسبابه. صدق من قال هذا! لم يخطر لي على بال أن أتجه يوماً إلى ارتياد البادية، أو أن أطوف فيها، أو أكتب عنها حرفاً.

لكن اتفق أني كنت في يوم ممطر، يصاحب مطره شآبيب من البرد، في شهر شباط سنة ١٩٢٢م منحدراً من المدرسة حيث كنت أعمل، فألفيت عند دار الحكومة التي يسمونها (السرايا) رجلاً بدوياً، قد أحاط به أربعة من جباة الضرائب، التي يدعونها (رسوماً)، وهو يصرخ بأعلى صوته: «يا رجال أعتقوني لوجه الله، ذبحني البرد».

* كان أحدهم قد نزع عنه عباءته،
* والثاني أخذ خنجره ــ الشَّبْرِيّة ــ كما يسميه الأرادنة ــ
* والثالث أخذ الحبل.
* والرابع أمسك بتلابيبه،

فلما رآنى، رفع صوته وقال «أنا إبْوَجْهكْ».

قلت: «وصلت !».

دفعت لهم ما يطالبونه به. وصحبت الرجل إلى الدار، في طرف مادبا الجنوبي، وهي أقصى البيوت يومذاك. غيرت ثوبه المبلل، وبعد أن أصطلى ودفىء وطَعِم، بات ليلته ناعماً، دفعت له في الصباح ثمن كيس الفحم، وسامحته بما دفعت عنه، فإذا هو يملي قصيدة يثني فيها عليّ لموقفي. ليس هذا مكان ذكرها! . . .

أعجبني ما يتحلّى به هذا الرجل من الوفاء. في النهار التالي سجلت الحادثة بمقال ــ وهو أول مقال ينشر لي ــ وبعثت به إلى جريدة أسبوعية كانت تصدر في (القدس) لا (بطريركية اللاتين) أسمها (رقيب صهيون*)، فلما نشر المقال، وقرأه المسئولون في عمان أوفدوا مفتشاً يطلع على حقيقة الأمر، فلما ثبت عنده صدق ما ورد في المقال، الغيت ثلاث ضرائب، ولم تبق على الفحم سوى واحدة، لا تزيد على غرشين عن كل كيس من الفحم. ــ

يومذاك ــ لقد شجعني ذلك على أمرين: ــ

١ــ مواصلة الكتابة للجرائد ــ من غير أن يذكر اسمي ــ
٢ــ دراسة أحوال البدو.

ذهب الرجل إلى أهله، وصار من عملاء والدي[1] في متجره الذي كان يتسلى به هو ومن هم في مثل سنه من رجالات العشيرة، قلت عملاء على حد تعبير الأرادنة ولا أقصد العمالة السياسية لأن المرحوم والدي كان شديد الإبتعاد عن السياسة.

وصرت كلما أقبل البدو إلى الأرض القريبة من (مادبا)، توجهت إليهم، راجلاً أحياناً، وممتطياً فرسي أحياناً، وقد لقيت منهم تجهماً في بادىء الأمر، ولاسيما يوم صرت أسأل من ألقى منهم عن اسم عشيرته، وزاد تجهمهم يوم رأوني أصور وسوم[2] الإبل والغنم، لأن بعضهم تصور أني أمهد لتعداد إبلهم وأغنامهمْ، وقد كان البدو ينفرون من كل شيء له علاقة بالحكومة، ويسمونها (الدولة)، ومن أقوالهم المأثورة «الله يجفينا شر الدولة !»

فلما عرف شيوخهم ووجهاؤهم غرضي، تلقيت ترحيباً منقطع النظير، وعرفت بينهم باسم (رودس ولد زايد العزيزات) ولم أحاول أن أفهمهم الفرق بين (رودس و (روكس)، ومنهم من سماني (دوكس)[3]. وهو لقب أذينه بن السميدع.

وأول ما اتجه إليه نظري هو الإهتمام بعلاقة الأبناء بالوالدين لأني وصلت إلى فريق من البدو في رحيلهم، فرأيت شاباً في نحو الخامسة والعشرين يتمتع بجمال بدوي ساحر، يحمل عجوزاً ضاوية الجسم، غطت زخارف الوشم وجهها، يشبه جمالها صاحب منصب معزول.

أستوقفته وسألته: ـ «عسى الخالة ما تشكو من مرض؟» أجاب حيشاها[٤] الحمد لله، ما بها مرض!» وليه تحملها؟ أجاب: ـ «والده يا النشمي[٥] أحملتني ابطنها تسع تشهر، وأنا أحملها على ظهري! يوم الرحيل!»

سألته عن اسمه، فأجاب «ليه يا النشمي لك عندي أطلابه؟»

واصل سيره ولم يلتفت، سألت رجلاً لقيني بعده عن هوية هذا الشاب، فقال: «هذا شراري قصيراً[٦] لنا. ما تسمع يقولون افلان أبوه أبو شراري يحمله على ظهره يوم الرحيل؟

تعجبت من هذه الظاهرة، ولما تتبعتها، وجدت احترام الوالدين عند البدو عجيب، ولا سيما احترام الأم، والأخت فالأخت مجال الفخر والاعتزاز، فإذا ضيم أحدهم، هتف قائلاً «لحّد أنا أخو فلانة!» أي دون اذلالي اللحد، وأنا أخو فلانة!»

وأردت أن أعرف، هل تظل المرأة تتمتع بهذا الاحترام إذا زالت عنها صفة الأمومة والأخوة؟ . . عدت فذكرت للمرحوم أبي ما رأيت وما سمعت، فقال لي «ليت الحضر يتعلمون احترام الوالدة والأخت من هؤلاء البدو. قلت: ـ لكني سمعت رجال العشيرة عندنا يقولون: «لحّد أنا أخو فلانة» قال «أكثرهم يقولها باللسان، ولا يمارسها عملياً.»

لم يرد القدر أن يبقيني في حيرة من أمري، فقد جاء أحد عملاء والدي وزوجته معه، وبعد أن اشترى ما يحتاج إليه حان وقت الغداء فقدم الوالد للرجل طعاماً وألح عليه أن يدعو زوجته للأكل معه. ويبدو أن الرجل خجل فدعا زوجته للأكل معه. وقد فعلت على مضض.

وبعد أسبوع عاد الرجل، ولم تعد زوجته معه، فلما سأله والدي عن زوجته قائلاً «وين أم فلاح؟» أجاب «طلقتها»، فلامه والدي فكان جوابه «ماهي صارت أختي كلت معي!»

ثم صرت اسمع الكنايات عند ذكر الزوجة: ـ

أ ــ حرمتي الله يكرمك من هالطاري،
ب ــ المرة الله لا يمرمر لك ريق،
ج ــ العورة ميشاك. الله لا يعور لك عين.
د ــ الامعزبه وأنت أكبر قدر.
هـ ــ أم الأعيال الله لا يعل لك أمر. والمستورة. إلى غير ذلك من هذه الكنايات.

وسمعت ما هو أشنع من ذلك. إنه لا يحق للزوجة أن تذكر اسم زوجها، فهي تناديه هكذا «يا هاضا»[٧]، «يا هضاك»، يا هوه. ليس هذا فقط في البادية وحدها، بل شمل الحواضر، واعتبر ذهابي مع زوجتي ١٩٢٣م للنزهة ثورة اجتماعية، وسمعت من يقول «روكس تمدن خلص، خسرناه!»

وعلى سبيل الاستطراد، بأسلوب الجاحظ، فإن الزواج خارج العشيرة كان أمراً مستهجناً. وأول رجل من العزيزات تزوج بامرأة من (بيت جالا) من أسرة العَلَمْ، سُمي أبناؤه (أعيال العلمية) وفيما بعد (العلمات) وكانت شبه ثورة اجتماعية عندما تزوج ثلاثة من (مادبا) بفتيات من الضفة الغربية. وتمت الثورة عندما حلق أحدهم لحيته تنفيذاً لرغبة زوجته فصار الأمر من المعاير له إذ صاروا يلقبونه بـ «امزين دقنه». فإذا فقد أحد الرعاة نعجة وسألوه «وين حد علمك في النعجة» أجاب «حد علمي فيها عند دار امزين دقنه». ولم يسقط عنه هذا اللقب إلا بعد أن أصبح أكثر الناس يحلقون لحاهم.

ثم اتجهت إلى دراسة العلاقة بين البدو والتجار لأرى ما عند البدو من الأمانة والإعتراف بالحق، فيشاء الله أن يمهد لي الأمر من أقرب السبل، ففي أمسية من الأمسيات زرت تاجراً معروفاً ووجهاً كنت أحبه. فدخل أحد الشيوخ، وسلم. فنهض التاجر اكراماً له، وجدد الفراش والقهوة، وبعد أن تعشى الضيف وكان العشاء خروفاً ــ لأنه كان من العار أن يذبح لتكريم رجل جليل، جدي، أو عنز. فإلى ذلك الحين كان بيع ذكور الغنم من المعايب، حتى السمن كان ينظر إلى من يبيعه باحتقار! . . . أذكر أني سمعت رجلاً يسأل بدوياً عما إذا كان يبيعه سمناً، فأجابه بجفاء «ليه حنا صايرين امن الفلان وقبيلته بنبيع السمن؟ السمن الله أخلقه ينْصَبّ على إيدين أجاويد الله، اكرامين اللحي:» فخجل الرجل وانصرف.



بعد العشاء قال الشيخ للتاجر «وش[٨] حسابك اللي على العشيرة؟» وكان تسديد الديون له موسمان: ــ

أ) الربيع، للبدو.
ب) والبيدر، للذين يفلحون أراضيهم.

أحضر التاجر دفاتره ــ وهي كبيرة الأوراق ليس فيها أي تسطير، ورقها ضارب إلى الصفرة، وقلبها وجمع وطرح فقال: «ثلثمية نيرة بينتوه»[٩] أي ثلاثمئة ليرة فرنسية. التفت الشيخ إلى التاجر بهدوء وقال: ــ «ما هو چثير ياأوْلدي؟» أجاب التاجر بشيء من الحده والإنفعال «الدفاتر موجودة» اما أنت تحلف وأنا عوضي على الله، أمزع دفاتري، واما أنا أحلف وتدفع، أنت وجماعتك المطلوب. واللي أطلبه ماهو چثير، أنت تعرف چم خذوا عربانك؟»

أجاب الشيخ بهدوء أكثر: «لا والله يا أبو فلان ما أعرف! قال التاجر» لعاد أنا أحلف» ازداد الشيخ هدوءاً ورشف رشفة من سبيله[١٠] وقال «لا يا أبو فلان[١١] جِنّا نشتري بخت ما نبيع بخت، لا أنا أحلف ولا أنت تحلف، ياويل حالفّ، ياويل محلف: اللي تطلبه يجيك» ونهض ساعته ولم يقبل أن يبيت عنده. وكنت أظن انه صمم على أن لا يدفع من الدين شيئاً. لكن الذي حدث كان نقيض ذلك، لأنه أحضر ما طلب الرجل، ولم يعد إلى التعامل معه!

وكان حساب بعض التجار عجيباً، إذ لم يكن هناك قيد لوحدات ما يُشترَى، بل يسجل التاجر «عند فلان قهوة بليرة!» وعند فلان قماش بنت[١٢] بثلاث ليرات، ويبارم[١٣] بأربع ليرات وهكذا بلا تحديد. ولما صار يباع السمن، صارت حجارة الجدران غير المثبتة بالطين كلها مقاييس وأوزان! ــ

وأذكر مرة أن بعض التجار وزن السمن الذي في المداهن، ولما جاء يطرح ثقل تلك المداهن الخسافة[١٤] لم يجد من السمن شيئاً، فلما ضج البدو قال أحدهم «واقومكم، هن المداهن ما بهن سمن؟» صالحوه مصالحة على الذمة؟» ....

ومما عرفته من أمانة البدو، أن رجلاً وهو ينتظر ورود الصيد على العين ليلاً، سمع حركة فأطلق النار في الظلام. فإذا هو يسمع الصرخة، فلما وصل إلى مكان الصوت، وجد رجلاً

مقتولاً، فلفّه ووضعه في مغارة قريبة، وأخذ بندقيته. وبعد أيام مرّ أبو القتيل وهو ينادي: «يا من علم يا من سمع عن فلان وهو يصلي على المحمد أو يذكر الله!» فسمع القاتل. ولم يتحرك، إلى أن انصرف والد القتيل، فتبعه وقال له، «أحلف بالله وبمحمد رسول الله، انك ما تطرد[15] القاتل، طرد قاتل العمد، وأنا أدلك على قتال ابنك» . . .

أجاب «لك الله ومحمد رسول الله أني ما أطرده طرد قاتل العمد، مادام القتل وهمه! . . .» فلما حلف قال له «يا آمحيي صلاة محمد، أنا قتلت ابنك خطأ» وهذة بارودته! «فأخذ الوالد البارودة، ولما ذهبت الجاهة للعطوة قال الوالد المفجوع» لا عطوة ولا غيرها، الله انطي أو هو أخذ، والقدر ما يشاور، واللي قتل فلان هو عوض عنه! «وقال لي رجل صادق أن حفيد القاتل بعد حين ينكر يريزه أضاعها شراري ثم أخذ يصرخ «يا من شاف البريزة اللي وقعت مني أو هويصوم ويصلي على محمد.» فظل البائس واضعاً قدمه على البريزة، إلى أن ذهب الشراري فأخذها حفيد الذي أعترف بالقتل اكراماً لصلاة النبي.

● الفتاة البدوية قبل الزواج والحرية ●

كنت في زيارة لفريق البدو الذي يقيم معه فريق النصارى، وجماعتنا ورعاتنا معهم، فدعاني جار لنا، وبعد لحظات سأل الوجيه عن ابنته، فقالت له أمها (فلانة تعلل)[17] والغرض من هذه السهرة التي يسمونها التعلية، منح الحرية للفتاة لتختار الزوج الذي يناسبها. لأن البدو الأصلاء لا يُكرِهون فتاة على الزواج بغير الذي تحب، على شرط ألا يثرثر. وإذا اتهم أحد المتعللين بأنه قبّلَ هويته، يحاسب هو وعشيرته كما يحاسب المجرم، لأنهم يقولون «من باس[18] داس» وأذكر أن رجلاً كان يحب فتاة اسمها (رخية) اتهمه بعض خصومه بأنه قبلها وهو يسهر معها، فساقوه للقاضي، ففرض عليه أن يجتاز البشعة[19] وبعضهم يدعوها البلعة. فلما ذهب إلى المبشع، برأه من التهمة فخاطب شقيقا من أشقائه قائلاً:

يـارَيْتَنا[20] يـآخُـوي مَـا آحْنـا بـِريِّـينْ   عَسَـاهـا مَـا هِي لَلمبلِّغْ فِضِيّـهْ[20]

أَللِّي بَرَّانا آمنَ آريشَ آلعَين يآحسينْ   يِحْـرِقْ لسـانَـه بَـالنَّـارِ آلمَضِيَّةْ[21]



والله ما غيرَ آلنظرْ وَاللَّغى آلزَّينْ وآعلومَنَا يَظْهَرْ على الظَّاهْرِيَّةْ[٢٢]
لو قَطَّعوني إوْ قَطَّعُوهَا أبْسِفينْ لأعُودْ حَياً يَومْ تِنْدَهْ (رخية)[٢٣]
صُورَ السَّما لو رَتَّبُوهِنْ إبصفَّينْ لَو خَيَّرُوني قِلتْ أبْغي رِخيةْ[٢٤]

مع كل هذا فقد زوجوها برجل لا تحبه، من غير أن تستشار على خلاف عادة البدو وهو لون من العقوبة، وبعد أن ولدت من زوجها ثلاثة أبناء ذكور، توفي الزوج، وجاءت غارة استولت على ما تملك العشيرة، وقتل أبوها وأخوها في المعركة، فلم تجدلها ملجأ. فاستشارت أمها بما يجب أن تصنع، ابقاء على حياة أطفالها، فأشارت عليها أن تلجأ إلى حبيبها السابق، فذهبت معها وقالت له: «(رخية) وأعيالها أوداعة لك» كتم دموعاً كادت تفيض من عينيه، ولعل الحبيبة المحروقة كتمت جراحاً في قلبها!... ودموعاً فاضت من قلبها!...

توجه الحبيب المفجوع وذبح ذلوله التي لا يملك غيرها. وكأنما هو يذبح وحيداً له، وخاطب أخاً له اسمه (علي) قائلاً: بألم: ـ.

يا (علي) يا مَشْكَايْ حَقّقْ (رِخيةْ) عَطْهَا لَحَمْ لأعيالْها لا يجُوعُونْ[٢٥]
لَصَار أهْلَهَا وَدَّعُوها آمعيَّهْ إوْ هِم قَبلْ بِيْها عِنْ جَنَابي يفِضُّونْ[٢٦]

تكريم الضيف بـ (العداية)[٢٧]:

من التقاليد المعروفة في البادية أن الضيف العزيز، أو المكرم، يعجل بقراه، وإذا لم يكن عند المضيف ــ بضم الميم وكسر الضاد ــ ما يقري به ضيفه، أو كانت أغنامه ليست في متناول اليد، اعتدى على أول غنم يجدها في طريقه، وأخذ منها ما يكرم به ضيفه، وقام فيما بعد، بأرضاء صاحب الشاة ببديلة لها يسمونها (سنيتها)[٢٨] أي في مثل سنها ومواصفاتها. أو دفع له الثمن. وإذا خاف (العدّاي) كما يسمونه ــ من المعارضة قال للراعي، أو لصاحب الأغنام إذا كان موجوداً «أذكر الله بالمضيوف أو ماله حيلة غير الاعدادية لبيضا وجهه» فيسمح له عادة.

وكان صاحب (قرية المريجمة) جنوبي (مادبا) الشيخ (قفطان الحامد) من بني صخر من الغبين فارساً كريماً، يقري ضيوفه (عداية) فحل به ضيوف فامتطى فرسه، واعتدى على أغنام

(حنا الفرح) ولما لم يجد حطباً، أخذ القماش الذي لتاجر الأقمشة الجوال الذي حل بالقرية، وكان يبلها بالسمن ويشعلها إلى أن انضج اللحم، وقرى ضيوفه.

فلما علم (حنا الفرح) بالأمر، ركب هو وأربعة من العشيرة وأخذوا من غنم (قفطان) خمس نعاج، وقالوا للراعي «أخبر (الشيخ قفطان) أنه مردود[٢٩] عليه الفقا، هو يذبح لضيوفه من غنم (حنا الفرح) يكرم ضيوفه من غنم (قفطان) والعيب على اللي يزعل أو يجض[٣٠] ! ! . . .

فلما علم (قفطان) بالأمر، زار (حنا الفرح) معتذراً.

ومن نوادر هذا الشيخ (قفطان) أن زاره مرة قاضي مدينة (السلط) فكرمه ـ على حسب العادة بذبيحة عِداية، فلما قدم الطعام للقاضي، امتنع القاضي من أن يمد يده إلى الطعام قائلاً: «هذا مال حرام منهوب، وأنا لا آكل الحرام». فامتشق (قفطان) سيفه وهزه فوق رأس القاضي قائلاً: «هذا ما هو حرام أنا أرَضّي أهله، أما الحرام فهو البراطيل اللي تأكلها من دم الأرامل واليتامى الضعوف، والله ان ما مديت أيدك لأخلي[٣١] رأسك يدخل مع البطين، تأكله الچلاب، كِلْ بلا چذب !».

فاضطر القاضي أن يأكل ! . . .

أحب شيخ معروف من شيوخ الأرادنة، فتاة جميلة، فخطبها فأشترطت لقبولها به، أن يكون لها شِقّ مثل شِقّه (مضيف)[٣٢] لاستقبال الضيوف وأن تكون حشمتها سبع ليال. فقبل بهذين الشرطين ونفذهما. وفي أحد الأيام كان جمهور من وجهاء مادبا يمرون بالقرب من مضيف الشيخة. ولم يحلوا به، فوقفت ونادت بصوت عال: «يا أعيال[٣٣] !! عقيدتكم ما هو نمشي ليه[٣٤] ما تحولون للغدا». فخجلوا وترجلوا، فأرسلت أحد عبيدها، وأحضر من أغنامها شاة، وبعد أن تغدوا، قالت ما معناه، «لو حللتم من غير توبيخ، لكان تكريمكم واجباً، واذبح لكل واحد منكم ذبيحة، أما وقد تجاوزتم آداب الضيافة، فأنتم تأكلون أحساناً لا تكريماً. فأخذ كل واحد من الوجهاء ينظر إلى وجه الآخر، وقال كبيرهم[٣٥]: «إنها محققة في الذي تقول».

وأعتذر القوم لها. فقالت: «لا تعودوها».

ومن ذكريات البادية: زعيمان أحدهما هوايته تربية الخيل الأصلية والبدو يقولون الخيل الأصايل، قال الشاعر :ـ

أشر الأصايل، لا تهاب الفصايل   لو هنّ هزايل، لا تغالي بالاثمان !..[٣٦]

والثاني هوايته اقتناؤها، ولنُسَمِّ الذي يربي الخيل (فاضلاً)، والذي يهوي اقتناءها (فالحاً).

حل (فالح) ضيفاً على (فاضل)، وبعد أن أكرمه سأله عن غرض هذه الزيارة، فأجاب «سمعت أن عندك صقلاوية[٣٧] تريد تبيعها» أجاب (فاضل): ـ «ما حرم المأمون مالاً على البيع، سمه». أخذ (فالح) يساوم إلى أن أوصل الثمن إلى مائة وثمانين ليرة. فأصر فاضل على مائتين. فنهض (فالح) (وأعطى المعازيب الخلف)[٣٩]. وبعد أن مضى ساعتين رفع (فاضل) الفراش، الذي جدده لِضيفه (فالح) ومديده في (العلو)[٤٠] الذي كان قد وضع فيه مائتي ليرة ذهباً. فلم يجد الصُرَّة، فلم يشك في أن ضيفه قد سرق الصرة، فتبعه، فوجد عنده ضيوفاً. رحب بمعزبه (فاضل) صاحب الفرس، وظن أنه قدم لكي يبيعه الفرس بمائة وثمانين ليرة، الثمن الذي فرضه هو فلم يكلمه. وفي الصباح أفطر الضيوف وأفطر (فاضل) معهم. لكن الضيوف انصرفوا وبقي (فاضل) وحده، فسأله (فالح) عما يريد. قال له «إلْحَقْ»[٤١] (فالح) اقترب منه وهمس في أذنه قائلاً «ياشيخ، أنا أدري أنك خذيت[٤٢] صرة النيرات من العلو حتى أتبعك، وأبيعك الفرس. الفرس ما هي للبيع بأقل من ميتين نيرة بينتوه»!...[٤٣].

تبسم (فالح) وقال «اللي قلته صحيح، امهلني حتى أجيب لك المصاري». خرج (فالح) وأخذ يدور على عَرَبِهِ بيتاً وبيتاً إلى أن جمع له ما طلب بالليرة والاثنتين. فلما جمع المبلغ قال له «أعذرني ترى بعض المحتاجين استقرض مني ذهبات أوردهن علي مجيديات.. أو مانيتي أنك تفطن للمصاري حالاً بالعجل».

عاد (فاضل) فوجد عنده في المراح ابلاً لا عهد له بها، فسأل ابنه (نشمي) عن مصدر هذه الإبل، فأجاب أنا أخذت (الذخرة) اللي في العلو واشتريت هذه الإبل بها..»

صفق (فاضل) كفاً بكف، وعاد حالاً إلى (فالح) معتذراً، وعاتبه قائلاً: «كيف اعترفت بالتهمة وأنت بريء؟ ودفعت المبلغ؟ «أجاب: «لو أنكرت لقال منافسي – إني سرقت مال مضيفي، والناس مستعدون لقبول أية إشاعة، ولاسيما إشاعات السوء. والعامة لا تمحص خبراً، ولا تفكر فيه، وما أصدق من قال :–

«قد قيل ما قيل، ان صدقا وان كذبا   فما أعتذارك في قول إذا قيلاً؟!...»

فأنا دفعت لك المبلغ، لأشتري تاريخي الطويل، ولا أُعَرِّضه لقالة السوء، أعاد إليه المبلغ وأقسم بالطلاق أن لا يعود إلى أهله وهو يركب الفرس التي سببت هذه المشكلة. وسلمها لفالح، فقبل الهدية والهدية لها جزية.

البحث عن كنوز الأدب في البادية :

كنوز الأدب في البادية كثيرة، ومن هذه الكنوز ما اهتديت إليه وأنا أبحث عن شواهد لمؤلفاتي الخاصة بالبادية وأهمها (قاموس العادات واللهجات والأوابد الأردنية) الذي طبع لأول مرة بهمة معالي أمير اللواء المتقاعد (معن باشا أبو نوار) في مطابع القوات المسلحة الأردنية ١٩٧٣م، ١٩٧٤م بهمة أبو سطام المشير حابس المجالية. ثم أعيد طبعه في المطبعة نفسها بهمة سيادة الشريف الفريق الأول الركن (زيد بن شاكر) فَقَدَّمْتُه هدية لأبناء الشهداء ١٤٠١هـ ١٩٨١م. وكتابي (معلمة للتراث الأردني) المؤلف من خمسة أجزاء ظهر منها أربعة وسيتم طبع الجزء الخامس بهمة وزارة السياحة، وقد تشرفت بأهدائه إلى جلالة الحسين المفدى.

ومن تلك الكنوز القصيددة التي رواها لنا السيد (محمد الصقور) والصقور من أقرباء العزيزات ينتمون إلى صقر أخي عبدالرحمن جد العزيزات الذي تروى تقاليد البادية انه ساعد (خالد بن الوليد) رضي الله عنه في (واقعة مؤتة)(٤٥) فقدر له (خالد) صنيعه وكرمه تكريماً ما يزال البدو يذكرونه لهذه العشيرة فيقولون: «چسبك يا أعزيز طيب» «چسبك يا اعزيز امبارك». وَعَدَّل في رواية القصيدة المرحوم (سالم القنصل) والمرحوم (سلمان العلمات) وقصة

هذه القصيدة هي في سنة ١٨٣٦ تقريباً كان يعيش في البادية الأردنية شاعر بدوي اسمه (علي الرميثي) نسبة إلى (الرميثة) في شمالي المملكة العربية السعودية، عصر الآلم قلبه وألح عليه الفقر على الرغم مما وهب له الله من جمال النفس وروعة المظهر والشمم والنجدة ــ وكان لهذا الشاعر ابن عم يدعى (سالما) فكأن الله ــ جلت قدرته ــ قد اقتطع لعلي من الشعور الفياض وجمال الجسم والنفس من رزقه. فعاش معدماً إلا من فضائله. أما ابن عمه (سالم) فكان من الأغنياء المشهورين ومن الوجهاء. وفي أحد الأيام غزا (سالم الرميثي) عقيداً لعصبة في عِدادها (ابن عمه علي) وفي أثناء الغارة، قتلت فرس (سالم) وجرح، وفر عنه رفاقه، إلا ابن عمه (عليا) فأنه ــ ردّ عنده[٤٥] كما يقول الأرادنة والبدو عامة وحمله على فرسه وهرب به إلى أن أوصله إلى منجاته، وعولج (سالم) فشفي من جراحه فكان يعد نفسه مديناً بحياته لابن عمه (علي). فلم يكن يرد لي (علي) طلبا، إلى أن لعب القدر لعبته، فأحب الرجلان فتاة معروفة في الحي بجمالها، فتنازعا بسببها، وكما قال نابوليون: «فتش عن المرأة» ولما سئلت الفتاة أختارت (عليا) ــ على خصاصته وفقره ــ فلم يستطع أبوها إلا القبول، لأن البدو الأصلاء لا يرغمون فتاة علي الزواج بمن لا تحب. فهم يقولون «المغصوبة مالها عرض». وكل ما استطاع أبوها أن يفعل، انه اشتط في طلب السياق فساعد (عليا) كل من عرفه، وجمع السياق حالاً، فتزوج (علي) فحقد (سالم) على الفتاة وعلى ابن عمه وتنكر لهما.

ولما توفيت زوجة (علي) أملق إملاقاً شقياً، فرأى أن سبب الخصام بينهما قد زال لأن الفتاة واجهت ربها. وفي ليلة كثر ثلجها، لم ينتبه (سالم) إلا وابن عمه (علي) في الشق ــ القسم المخصص بالضيوف من بيت الشَّعَر ــ فلم يلتفت إليه، على خلاف ما توجبه تقاليف البادية، ولم يقدم له طعاماً، فأثر ذلك في نفس (علي) أعمق تأثير وعاتب ابن عمه عتاباً تطرق فيه إلى الهجاء المر، بلا وقاحة وذكره بخاتمته في الحياة، فكانت قصيدته من أروع ما رأينا في شعر البادية، على طول مدارستنا له، وقد التزم فيها قافيتين واحدة في الصدر، وواحدة في العجز، على عادة فحول الشعراء في البادية. وكم كانت دهشتنا يوم رأينا هذه القصيدة ــ على ايجازها تشتمل على أكثر معاني قصيدة (الطين) للشاعر المحلق (ايليا أبو ماضي) وهذه هي القصيدة : ــ

[آثرنا أن نروي قصيدة (الرميثي) ونذكر بعد كل بيت ما يناسبه من قصيدة (الطين) ضاربين صفحاً عن اختلاف الروايات في قصيدة (الرميثي) التي ذكرها الرواة لأنه ليس هذا مكانها !! بعد أن ذكرناها في كتابنا (فريسة أبي ماضي) المطبوع في (مطبعة الاتحاد) في عمان ١٩٥٦م].

١ ــ قال الرميثي : ــ

يآخوي ما آحنا فَجِمْةً ما آبها سنى ولا آنْت شمساً تِلْهِبْ آلدَّوْباضياهْ !(٤٦ع٢)

ويقول المرحوم أبو ماضي :ــ

يا أخي، لا تمل بوجهك عني   ما أنا فحمة، ولا أنت فرقد !

٢ ــ لَصَارْ مَا تَأكِلْ ذَهَبْ يومٍ تَبْلَى   يا آخُوي وِشْ نَفْعَ آلذَّهَبْ يوم تَقْنَاهْ؟(٤٧)

ويقول المرحوم أبو ماضي :

انت لا تأكل النضار إذا جعت ولا تشرب الجمان المنضد !

٣ ــ مَلْبُوسك آمَنَ آلبَزّ تِبلاهْ بَلْوَى   مِثْلَ آلاچفانِ آلمِيِّتِ طَالْ مَشْحَاهْ !(٤٨)

ويقول المرحوم أبو ماضي:

انت في البردة الموشاة مثلي   في كسائي الرويم تشقى وتسعد

٤ ــ أَلِمْنَوه آللِّي بِضِمِيرَكْ آوْ هَقْوَى   لي مِثِلْها يَاشَينْ، بآلقلب نَهْوَاهْ(٤٩)

٥ ــ نِحْلَمْ آحلوماً حِلوَةً يَومِ نَرْضَى   وِآتِمِرّ يَومَ آلسَّعِدْ مَابَانِ مَطَاهْ !(٥٠)

أما المرحوم أبو ماضي، فقد عبر عن هذين البيتين بأربعة أبيات هي :

لك في عالم النهار أماني   ورؤى والظلام فوقك ممتد،
وبقلبي كما بقلبك أحلام حسان، فأنه غير جلمد،
أأماني كلها للتلاشي ؟   وأمانيك للخلود المؤكد ؟
لا، فهذي، وتلك تأتي وتمضي   كذويها، وأي شيء يؤبد !...

ويقول الرميثي معرضاً بجبن ابن عمه، ونقص في رجولته : ــ

٦ ــ يَومَ آلرِمَاحِ آتنا وِشْكْ لَيهْ تَلوّى؟ وَآلترفْ يَومِ آيفَارْقَك لَيهْ تِشَهّاه؟(٥١)

والمرحوم أبو ماضي يعبر عن شطر من بيت الرميثي بيت تام قال :ــ

وإذا راعك الحبيب بهجر ودعتك الذكرى الا تتوجد؟

٧ ــ ويقول الرميثي : ــ

وآدمُوعَنا وَآلضِّجِيج لَنابية سَلْوَى مِثِيلةْ، ياشَين لَصارْ تَلقَاهْ !(٥٢)

ويقول المروحوم أبو ماضي : ــ

أدموعي خلّ ودمعك شهد؟ وبكائي ذلّ ونوحك سؤدد؟
وأبتسامي السراب لاريَ فيه وابتساماتك اللآلي الخرد؟

ونلاحظ أن الشاعر المتفوق قد عقد بيتين كاملين لما عبر عنه الشاعر البدوي ببيت واحد، فوق هذا لم يحسن أبو ماضي الطباق. إذ قال «ادموعي خل ودمعك شهد؟ والصواب أن يقول للمطابقة: ــ أدموعي خلّ ودمعك خمر؟ لكنه لم يوفق.

٨ ــ وقال الرميثي :ــ

كِلّيتنا نمْشي آوْ نحْيَا لا تُوهْمَكْ ياآلضَّبعْ نَفْسَك إِبْمَشَهاهْ !(٥٣)

والمرحوم أبو ماضي يقول :ــ

أنت مثلي من الثرى وإليه فلماذا يا صاحبي التيه والصد

٩ ــ ونرى الرميثي يقول بيتاً في منتهى الروعة :ــ

هذا آلقِمَرْ وَآلنَّجِمْ وَآلشّمِسْ تِعْلَى وِآنحو مِسَك مِثْلَ آلخَرابِيشْ تِنْصَاهْ(٥٤)

أما المرحوم أبو ماضي، فيعبر عن هذا البيت بثلاثة أبيات :ــ

النجوم التي تراها أراها حين تخفي، وعندما تتوقد

قمر واحد يطل علينا وعلى الكوخ والبناء الموطد
الك القصر دونه الحرس الشاكي ومن حوله الجدار المشيد

١٠ـ ويقول الرميثي :ـ

حِيَّاتك آللِي آسيوفْهَم نُورْ يَلظى ما يمنَعونَ آلموتْ إنْ جاك مِعْداه !(٥٥)

يضطر أبو ماضي سامحه الله لمنظم ثلاثة أبيات للتعبير عن هذا البيت :

ألك القصر دونه الحرس الشاكي ومن حوله الجدار المشيد؟
فامنع الليل أن يمد رواقاً فوقه والضباب أن يتلبد،
مرقد واحد نصيبك منه افتدري كم فيه للذر مرقد؟

١١ ـ ويقول الرميثي :ـ

الله يخُونَك كِنتْ لِلنَّاس مَنْصَى حَتَّى آلعَشافي آخَو مِسَكْ مَا لِقَيْنَاه !(٥٦)
١٢ ـ أَلَثَّلج يِذْري وَالسَّوَاعِيرْ تِضْوي هَبَّيتْ نَنْصى آلعَبِدْ وَالله نَنْساه !(٥٧)

وقد عبر الشاعر المهجري عن هذين البيتين بثلاثة أبيات هي :

زرتنى عنه والعواصف تعدو في طلابي والجو اقتم أربد
بينما الكلب واجد فيه مأوى وطعاماً والهر كالكلب يرقد
فسمعت الحياة تضحك مني اترجي ومنك تابى وتجحد

ويختم القصيدة بقوله ـ أي الرميثي :ـ

إنْتِه إوْ مَا ثَمرتْ تِسْقِطْ آو تَبْلَى وِآتْرَابْ قَبْرِكْ سَافِيَ آلرِّيحِ تَسْفَاه(٥٨)

وهي خاتمة رهيبة جداً.

بقيت قصيدة الرميثي التي رثى بها زوجته، وقد عُبث فيها، لما قدمت الكتاب للمطبعة ـ وهانذا أروي ما سلم من أبياتها من العبث ـ . أما شيخة القصيد فمثبته في كتابنا فريسة أبي

ماضي مع تفسيرها. وقد اخترت لها رواية المرحوم الصديق الشهم (توما الحمارنة) صاحب الفضل في ايصال مياه عيون موسى إلى (مادبا)، يوم كان رئيساً لمجلس (مادبا) البلدي.

وقد سلمت الكتاب لمطبعة الأستاذ الكردي بتوصية من المغفور له سماحة (الشيخ ابراهيم القطان) طيب الله ثراه، وبعد أن كتبنا اتفاقاً يقضي بأن أي اختلاف بيننا يحسمه المغفور له الأديب (شكري باشا شعشاعة)، بدأت المطبعة بطبع الكتاب الذي كان قد توقف طبعه، وأن الأيدي قد لعبت به، فتوجهت إلى المطبعة وإذا الباقي من الكتاب اشلاء، فلملمتها وذهبت بها إلى (مطبعة الاتحاد) راضياً من الغنيمة بالاياب مفلساً ! . . . ولم أرد أن أزعج المرحوم الباشا، فوجدت أن كثيراً من القصائد وتراجم الشعراء كلها قد فقدت، وفي عداد ما فقد رثاء (علي الرميثي) لزوجته، وليس عندي نسخة ثانية، ثم أثيرت زوبعة قيل فيها: ـ

أ ـ أن الرميثي شخصية وهمية.
ب ـ أن العزيزي سخر شاعراً شعبياً ينظم القصيدة التي هي أصول (قصيدة الطين).
جـ ـ وأن العزيزي يستشهد بالموتى من الناس.

فكان علي أن أثبت الحقيقة بشهود أحياء يعرفون القصيدة.

فكان من الشهود الاحياء يومذاك خمسة كتبوا شهاداتهم بأيديهم نشرتها في (مجلة الحكمة) في (بيروت) وتناقلت صحف العالم العربي والمهجر قضية (قصيدة الطين) وأصولها.

وكان الشهود :ـ

١ ـ المرحوم (سلامة الغيشان) الذي يعرفه الجميع شاعراً محلقاً وراوية للشعر الشعبي.
٢ ـ المرحوم (شحادة المصاروة) المعروف بكونه راوية للشعر وشاعراً.
٣ ـ (محمد بن حماد بن آغريز العقيلي) الشاعر والراوية. وكان خصماً لي، كما هو مشهور[٥٩].
٤ ـ المرحوم (يوسف بن سليمان الصوالحة) وهو راوية للشعر.
٥ ـ المرحوم (عيس عودة الله الزعمط) وكان رواية لاشعار البادية.

فلما اسقط في أيدي المتهمين قالوا «ان الأمر توارد خواطر» فثبت أن والد المرحوم (ايليا أبو ماضي) كان يروي قصيدة (الرميثي) نفسها في إدارة مجلة (السائح)[٦٠] في نيويورك في أميركة.

ولم أتذكر من رثائه لزوجته إلا أبياتاً في حين أنها تزيد على الثلاثين بيتاً وهذا هو الجزء الذي ذكرته :

١ ـ أَلبَـارْحَـهْ عَنّي يِجْبِـحْ نِـظِيري	أَوْحَستْ به سَمّ آلافَاعي آو ذَرْنُوحْ٢[١]
٢ ـ وَالقلبْ شَقّه سَيَفْ مِرْهَفْ شِطِيري	خلّى آلرّميثي بَينَ آلاقُبورْ مَـطْروحْ[٢]
٣ ـ يَبْچِي آمَعَ آلدِّيَّانْ طِفْلاً صِغيري	إمْنَ آلحَيا يْخْفِي آدْمُوعَه إوْ لا آيْبُوحْ[٣]
٤ ـ بَلْوى (عَلِيْ) يَا نَاسْ أَمْرَهْ عَسِيري	إغْرابَ آلنِّيا يَغْشَاهْ بآللّيلْ وآجْوحْ[٤]
٥ ـ يَا لَوعِتِي بَآلقلبْ فَارَقْ عَشِيريْ	لَوْ بَاحْ جِزْني صِرت بِآلنَّاس مَفْضُوحْ[٥]
٦ ـ آلصَّبِرْ فَارَقْني آوْ قَلبي چِسِيري	كِصِيْمِ آمنَ آلسَّاقِينْ بَآلقَاعْ شَرْشُوحْ[٦]
٧ ـ مَا آدري آمْنَ (آلِحتِمان) والا (اللضِيري)	إسمي غَدا مِنْ بَابِة آلناسِ مْمسوحْ[٧]
٨ ـ ياناس جيف أعيش من هو نظيري	لا ظَلّ لَه ولِغاً إولا عادبَهْ رُوحْ[٨]
٩ ـ خِشْفاً آوْ بَالزِّيناتْ مَالَه نِظِيري	مِنْ عِقِبْها قَلبي آمْنَ آلحِزِنْ مجْروحْ[٩]
١٠ ـ خِشْفاً شِبِيهَ آلرِّيْم رِيْحَه ذِريري	صِبُورْ لا تِشْكِي آو بالرِّما آتْبُوحْ[١٠]
١١ ـ ما يِنْسِمِعْ لَهْ حِسَّه غَضِـيري	صِفُوحِ آعْنَ آلجيرانْ وَآلبيتْ مَفْتُوحْ[١١]

التفسير :ـ

١ ـ البارحة كان بصري عتيداً مضطرباً شعرت كأن في عيني سم الحيات أو ذر فيهما الذرنوح في لسان العرب ومحيط المحيط وأقرب الموارد الذرنوح من السموم.

٢ ـ واللقب مزقة سيف حاد مسنون جعل الرميثي مطروحاً بين القبور.

٣ ـ يبكي في الصحاري كأنه طفل صغير، ولخجله يحاول أن يخفي دموعه ولا يبوح بحزنه.

٤ ـ بلوى على الرميثي ياناس أمرها عسير وغراب البين يفاجئه في الليل وفي الصباح.

٥ ـ حزني مستقر في قلبي لقد فارقني الحبيب الذي أعاشره، ولو ظهر حزني على حقيقة لفضحت بين البشر.

٦ ـ لقد فارقني الصبر وكسر قلبي كمن كسر ساقاه وطرح كالثوب البالي في الأرض.

٧ ـ لم أعد أعلم من أي العربان أنا، أأنا من هتيم أم من اللضيري الضائعين اسمي أضحى ممسوحاً من بين الناس.

٨ ـ أيها الناس كيف أعيش من الذي تشبه مصيبته مصيبتي ؟ لا تبقى لي حبيب ولا يبقى في روح.

٩ ـ فقدت غز الا ليس في جميلات النساء من تشبهها فقلبي بعدها مجروح من الحزن.

١٠ ـ هي غزال يشبه الريم رائحتها زكية صبور على المكاره لا تشكو كتوم للسر لا تبوح بما يلقى إليها من أسرار.

١١ ـ صوتها خافت، لا يسمع لها أحد صوتها، تصفح عن جيرانها ان أساءوا لها وبيتها مفتوح للضيفان.

● ● ● ●

هوامش :

* ـ أي الجريدة التي تراقب تحركات الصهيونية ـ يومذاك ـ.

١ ـ كان والدي من التجار المعروفين، ولما تقدمت به السن، صار متجره للتسلية.

٢ ـ يسمى الأرادنة سمات الحيوانات وسوماً جمع وسيم.

٣ ـ (روكس أورينشس) لقب أزينة الذي لقبته به المشيخة الرومانية ومعناه (نائب الامبراطور على الشرق).

٤ ـ حيشاها ـ حاشاها الله وقاها من كل مكروه.

٥ ـ النمشي هو الفتى الجامع لكل عناصر النبل والاريحية ـ وكانوا يظنون انه ليس للكلمة أصل في اللغة وفاتهم انه من نشم بمعنى رفع وعلّى يقال: «نشم الله ذكر فلان، أي رفعه وعلّاه»، يقول البدو فلان نشمي أي جامع لكل عناصر النبل سريع إلى النجدة، وإذا قالوا نشمية عنوانها جميلة عفيفة سامية الاخلاق.

٦ ـ قصير ـ جار طلب الحماية.

٧ ـ هاضا ـ هذا ـ بقلب الذال ضاراً في حين أن أهل شمالي الاردن يقلبون الضاد ذ الا فيقولون «أذرب» في أضرب.

٨ ـ وش ـ اختصار لكلمة (أي شيء هو).

٩ ـ نيره بينتوه ـ اسم لـ (الليرة الفرنسية الذهب) لأن علي بعضها صورة انثى.

١٠ ـ سبِلُه ـ السبيل هو غليون صغير.

١١ ـ جنّا ـ نحن.



١٢ـ بفت ـ نوع من القماش القطني الأبيض. يتخذ من الرجال ملابس لهم ـ قديماً ـ

١٣ـ بيارم ـ جمع بيرمة، وهي قطعة من القماش، كانت نساء الاردن ـ قبل التطوّر الاجتماعي يتخذن منها ثياباً، وهي من البفت تصبغ باللون الأسود صباغاً خاصاً وهي نوعان.

أ ـ بيرمة مفرد طولها متران.

ب ـ بيرمة مجوز طولها أربعة أمتار.

وقد بطل استعمال هذا القماش لملابس النساء نهائياً ١٩٤٥ وكان المصبوغ منه صبغاً جيداً يدعى (البيتي) أي انه صالح لملابس ربات البيوت الغنيات.

١٤ـ الخسافة ـ هي انقاص وزن الوعاء من الوزن الاجمالي.

١٥ـ طرد المجرم ـ طالبه بالجريمة، هو وأقاربه إلى الدرجة الخامسة.

١٦ـ العطوة المدنة يراجع الجزء الثالث من كتابنا (معلمة للتراث الأردني).

١٧ـ تعلل ـ اصطلاح معناه سهر، والتعليلة والعللة هي سهرة المحبين.

١٨ـ من باس داس ـ أي من قبلّ جامع.

١٩ـ البشمة والبلعة ـ هي الامتحان بالنار ـ راجع الجزء الثالث من كتاب (معلمة للتراث الأردني).

٢٠ـ ريتنا ـ ليتنا ـ وهم يقلبون اللام راء ـ بادرة لغوية.

المعنى ـ ياليتنا لسنا أبرياء من هذا الاتهام أسأله تعالى أن يضيق الحياة على هذا القاضي بحيث لا يرى نوراً.

٢١ـ فالذي برأنا من قبلة ذات الاهداب الطويلة ـ يا حسين ـ أحرق الله لسانه بنار شديدة الالتهاب.

٢٢ـ اقسم بالله أنه لم يكن بيني وبين الحبيبة، سوى النظرات والأحاديث اللطيفة وكل شيء لنا واضح يراه الناس.

٢٣ـ لو قطعوني وقطعوا الحبيبة بسيفين فأني أعود إلى الحياة عندما تناديني (رَخيَّة).

٢٤ـ فلو انهم رتبوا حوريات الجنة بصفين متقابلين، وبعد ذلك جعلوا الخيار لاخترت (رخية) مفضلها عليهن!...

٢٥ـ يا شقيقي يا (علي) الذي أشكو إليه همومي، اعط (رخية) حصة من لحم ذلولي، لئلا يجوع أطفالها.

٢٦ـ ما دام أهلها قد جعلوها وديعة لي، مع أنهم كانوا قديماً يهربون بها خوفاً مني.

٢٧ـ العداية ـ اصطلاح أردني ـ يعني أن ينهب الرجل من مواشي غيره ما يقدمه تكريماً لضيوفه فإذا كان صاحب رأس الغنم المنهوب قوياً عوض عن شاته، وان كان ضعيفاً لم ينل شيئاً.

٢٨ـ سنينتها ـ أي من سنها.

٢٩ـ مردود عليه النقا ـ مهال عليه التراث وهي من اصطلاحات الاردانة، لا شد التحديدات وتشبه اعلان الحرب. أو هي اعلان الحرب حقاً،

٣٠ـ يجض ـ يرفع صوته متألماً وهو مقلوب ضجّ.

٣١ـ لأخلي ـ لأجعلن.

٣٢ـ الحشمة، اصطلاح كان الأردانة يعنون به ملاطفة العروس، وايناسها. قبل الدخول بها من ليلة إلى سبع ليال على حسب منزلة أهل العروس.

٣٣ـ يا أعيال ـ إذا قال الأردانة أعيال نشامى عنوا بذلك انهم رجال طيبون، اما إذا قالوا هذا (عيل) بالمفرد عنوا بدلك انه طفل. أو انسان سفيه.

٣٤ـ ليه ـ لأي شيء وهو.

٣٥ـ لا تعودوها ـ لا تكرروها.

٣٦ـ اشتر الخيل ذات الأصل لا تتهيب المساومة على أثمانها ولا تبخل بدفع الأثمان الغالية ولو كانت تلك الخيول هزيلة.

٣٧ـ صقلاوية ـ الجمع صقلاويات سلالة مشهورة من الخيول العربية الأردنية راجع كتابنا (معلمة للتراث الأدرني)، الجزء

الرابع ــ بحث الخيل.

٣٨ــ (ما حرم المأمون مالاً على البيع) المأمون هو المبارك ويعنون بذلك أن النبي ﷺ، لم يحرم أي مقتني من المقتنيات أن يُباع.

٣٩ــ أعطى المعاريب الخلف ــ اصطلاح عند الأرادنة تعني ارتحال الضيف بعد تكريمه، وعند ارتحاله يقول: «خلف الله على المعاريب» أي أعاض الله المضيفين عما بذلوا. والرولة يكرهون هذا الاصطلاح ويقولون بدلاً منه «أنعم الله عليهم» أو عليكم!...

٤٠ــ العلو ــ وسادة من السيج تضع فيه البدويات ملابسهن وتتخذ وسادة، فإذا كان الضيف كريماً، أو عزيزاً، أعطوه العلو وسادة والجمع أعلاوة. وإذا كان الزوج عزيزاً وضعت ثيابه مع ثياب صاحبة البيت. وقد يتخذ لحفظ ثياب الرجل وحده.

٤١ــ إخْنَ ــ أقبل.

٤٢ــ خذيت ــ أخذت.

٤٣ــ نيره بينتوه ــ ليره فرنسية.

٤٤ــ الذخرة ــ كل ما يدخر لحين الحاجة، يسمونه ذخرة أو ذخيرة.

٤٥ــ رد عنده ــ اصطلاح أردني يعني انه عاد إليه بعد أن يتخلى عنه أعوانه.

٤٦ــ يا أخي لسنا فحمة لا جمال فيها ولست شمساً تنير الكون بنورها!

٤٧ــ ما دمت لا تأكل ذهباً عندما تموت، قل لي ما فائدة الذهب الذي تقتنيه؟

٤٨ــ ملابسك من القماش الفاخر، فتُبلَ، بمصيبة لا تحمل، كما تبلى الاكفان التي على ميت، زمن من زمن بعيد.

٤٩ــ الأماني والطموحات التي في نفسك. لي مثلها يا حقير، مستقرة في قلوبنا نحب الوصول إليها.

٥٠ــ أحلامنا وأمانينا حلوة عندما تكون راضين وان لم يحالفنا الحظ، فهي محزنة.

٥١ــ عندما تطعنك الرماح لماذا تتألم، والحبيبة يوم تفارقك لماذا تحزن وتتلهف شوقاً إليها.

٥٢ــ دموعنا كدموعك، وضحكنا كضحكك، فيها تعزية لنا أيها الجلف. لو تدبرت ذلك لرأيت انك لاتختلف عنا في شيء.

٥٣ــ كلنا ماضون إلى القبر في مسيرتنا، لا تتوهم في كبريائك أيها الخسيس، انك أعلى منا منزلة.

٥٤ــ القمر والنجوم والشمس تزور بيتك ذا الأعمدة الخمسة مثل أصغر العرائش.

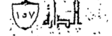
٥٥ــ رجالك، ذوو السيوف اللامعة كأنها النور المتلالىء. لا يستطيعون أن يمنعوا عنك الموت إذا جاء أوانه!..

٥٦ــ قاتلك الله، الست مقصراً لقضاء احتياجات الناس؟ فلماذا صرت حقيراً إلى درك انك لم تقدم لنا طعاما في بيتك الذي هو عنوان الوجاهة والزعامة لانه ذو خمسة أعمدة.

٥٧ــ الثلج يتساقط، والبروق والصواعق تنير، وفي هذه الحالة بخلت بالطعام نقصد عبداً حقيراً وننسى الله الرزاق الأعلى.

٥٨ــ فليمحق الله كل ما جمعت من أموال ويمحقك معها، وليسلط الله العواصف على قبرك لتحول ترابة غباراً تذروه الرياح السافيات.

٥٩ــ كان رحمه الله ــ نائباً للحاكم العشائري في (مادبا) فأرسل زنجياً لاحضار مطلوب المحاكمة فلما لم يجده أخذ طفلاً عمره ثلاث عشرة سنة ومن غير سبب أخذ يجلده بعصا خيزران، فقلت له ماذا تريد من هذا الطفل ولماذا تضربه، فأجاب بطمطمانية: ــ معي أمر أن أضربه مية شوحطة قبل ما يصل إلى (ابن حمّاد)! قلت لكن ماذنبه، وافترض انه مذنب، إذا ضربته مائة عصا، يموت قبل أن يصل، فاتجه نحوي يريد أن يضربني - فعندها قلت للطفل أن يهرب واختطفت العصا منه وأوسعته ضرباً، فلما رأى (ابن حماد) أني أضرب سفيره جاء هاجماً علي ومعه بعض أعوانه شاهراً مسدساً يريد أن يفرغه في رأسي، وأصابتني ضربة سقطت على أثرها، فجاءت عجوز كانت في عداد من حضروا وهم كثروا رأت تصميم (ابن حماد) على ذبحي، فألقت بنفسها علي، وأسمها (سلمى الصوالحة) عندها تنبه زميل لي في المدرسة اسمه (ميخائيل الطوال) فأهاب بالحضور قائلاً: وما هذا الحكم القراقوشي ما الداعي لاغتيال الرجل، فأخذت الاحتجاجات تتوالى. فأغمد مسدسه. وطلب أن أقاد للمحاكمة فلما صرت قريباً من تلك الغرفة، قال وجيه من العشيرة، اسمه (خليل الصوالحة) إذا



دخل العزيزي، فلن يخرج حياً، فثارت العشيرة، فاضطر للدخول في غرفته واغلاق الباب عليه فلما أقمت الدعوى عليه قال القاضي النظامي، وهو صديق لي اسمه (رشيد بن ماضي): «أنصح لك أن تتخلى عن الدعوى لئلا أكون أنا وأنت ضحية الحكم! وهب اني حكمت، فمن الذي ينفذ الحكم. فتنازلت عن حقي وبعثت بترضية عن ضربي الزجي مائة ريال فضة واسقطت دعواي.

هذا الرجل ـ كان شاعراً، وراوية للاشعار كان بين الشهود في قضية الرميثي وكتب شهادته بيده.

٦٠ ـ مجلة السائح أو جريدة السائح، كان يصدرها المرحوم الشاعر (عبد المسيح حداد) في (نيويورك).

ملاحظة ـ تفسير رثاء الرميثي لزوجته منشور مع النص.

أهم ركائز البحث :

١ ـ مجلة لغة العرب للعلامة الكرملي المجلد الأول ١ تموز ١٩١١ ـ ١٢ آيار ١٩١٢ طبعة ثانية.

٢ ـ تاريخ العرب المطول ـ الجزء الأل الطبعة الثالثة ١٩٦١ للدكتور فيليب متي، والدكتور جبرائيل جبور.

٣ ـ لقاءات شخصية بين القبائل من سنة ١٩٢٢ ـ إلى ١٩٨٠

٤ ـ قاموس العادات واللهجات والأوابد الأردنية ـ للعزيزي.
ثلاثة أجزاء. مطبعة القوات المسلحة الأردنية ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤.

٥ ـ معلمة للتراث الأردني خمسة أجزاء أربعة مطبوعة والخامس في طريقه إلى المطبعة. للعزيزي.

٦ ـ فريسة أبي ماضي مطبعة الاتحاد عمان سنة ١٩٥٦

٧ ـ مادبا وضواحيها للأب جورج سابا، orوكس بن زائد العزيزي، مطبعة الآباء الفرنسين القدس سنة ١٩٦١.

٨ ـ خمسة أعوام في شرقي الأردن للارشمندريت بولس سلمان، مطبعة القديس بولس في حريصا لبنان سنة ١٩٢٩.

٩ ـ مذكرات العزيزي من سنة ١٩٤٨ ـ إلى اليوم مخطوطة.

١٠ ـ أدب البادية مخطوط للعزيزي.

١١ ـ المجتمع البدوي سياسته نشر جزء منه في مجلة العرب للاستيام حمد الجاسر.

١٢ ـ فوائد مسجلة مخطوطة للعزيزي.

صلاح الدين الأيوبى وموقفه من القوى المناوئة فى بلاد الشام

«٥٧٠/٥٨٩هـ ـ ١١٧٤/١١٩٣م»

د. /عبد الكريم عبده حتاملة

ملخـــص :

كلنا يعلم ما لصلاح الدين من دور كبير في طرد الصليبيين من القدس وتحرير الوطن الاسلامي العربي منهم، لم يكن صلاح الدين يواجه خطر الصليبيين فحسب بل كانت هناك قوى داخلية تناوئه وتقف ضده بكل قوة وقد عملت على القضاء عليه بشتى الوسائل والأساليب الظاهرة منها والخفية، فتجسمت حينا على شكل معارك حربية وأحياناً على شكل دسائس ومؤتمرات واغتيالات بشتى صنوفها، هذه القوى كانت الفرقة الاسماعيلية (الباطنية) التي حاولت بكل ما أوتيت من حيلة وعزيمة بالانتقام من صلاح الدين لأنه كما كانوا يرون السبب الرئيس في القضاء على دولتهم واسقاطها (الدولة الفاطمية في مصر). فلم يألوا جهداً في تدبير المؤامرات وتكوين القوى المضادة ولو كلفهم ذلك وضع أيديهم في أيدي اليهود أو الصليبيين أو أي عدو آخر لصلاح الدين في سبيل الوصول إلى بغيتهم، واستمر العداء بين الطرفين ما يزيد عن التسعة عشر عاماً انتهى بعقد الصلح بينهما في قلعة مصياف بعد حصارها من قبل صلاح الدين مدة أسبوع.

قمت في هذا البحث المتواضع بتفصيل هذه الأحداث بالعودة إلى المصادر والمراجع التي كتبت حول هذا الموضوع بكل تجرد ومنهجية علمية وقد أوردت أقوال المؤرخين المؤيدين لكلا الطرفين وخرجت بعد الربط والاستنتاج من كل هذه الأقوال بخلاصة دونتها في نهاية هذا البحث.

ظهرت الحركة الاسماعيلية بوفاة الإمام جعفر الصادق في منتصف القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي. وبعد وفاته انقسم اتباعه إلى فرقتين رئيستين[1].

الفرقة الأولى : وهم المعروفون بالاثنى عشرية حيث الإمامة إلى موسى الكاظم فالأئمة من نسله حتى الإمام الثاني عشر (الغائب).

الفرقة الثانية : وهم المعروفون بالاسماعيلية[٢]، حيث جعلت الإمامة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق ثم إلى ابنه محمد بن اسماعيل.

كانت الحركة الاسماعيلية سرية يعمل على ترويجها في الخفاء الإمام اسماعيل في حياة أبيه، وبمساعدة دعاته الأربعة[٣]. وفي زمن ولده محمد انتقل مركز الدعوة إلى (سملا)[٤] ولكنه استقر أخيراً في مدينة تدمر. وعند وفاته سنة (١٩٣/ ٧٨٩) تولى الحكم بعده ابنه أحمد الوافي الذي نقل مركز الدعوة إلى مدينة سلمية في سورية والتي أصبحت في عهده مركز الدعوة والدعاة ودار هجرة للأئمة المستورين[٥]، وبعد وفاته (٢١٢/ ٨١١) انتقلت الإمامة إلى ابنه رضي الدين عبدالله، وفي زمنه انتقلت الدعوة الاسماعيلية من طور التأسيس إلى طور العمل والظهور من أجل بناء دولة اسماعيلية قوية، وبعد وفاته تسلم الإمامة ولده عبدالله الذي ذهب إلى المغرب وأعلن الخلافة الفاطمية هناك وبذلك قامت الدولة الفاطمية التي انتقلت إلى مصر سنة (٣٥٧/ ٩٦٨).

وفي زمن الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧ ـ ٤٨٧/ ١٠٣٥ ـ ١٠٩٤)، ازداد نفوذ الوزراء الفاطميين، فقد استبد الوزير بدر الدين الجمالي بالسلطة في مصر وابنه الأفضل غالي باغتصاب حقوق ولي العهد نزار[٦] والبيعة لأخيه الأصغر المستعلي بالله، وقد انسحب فريق من الناس اثر هذه البيعة وأعلنوا ولاءهم لإمامة نزار وأولاده من بعده، وكان على رأس هؤلاء الحسن بن الصباح[٧]، الذي بدأت في عهده الحركة الاسماعيلية بطور جديد وقد أصبحت الحركة الاسماعيلية الجديدة أكثر فعالية وتنظيماً من الدعوة الاسماعيلية القديمة فقد غدت «جمعية سرية لم يكن واقفاً على أغراضها وطرقها الا زعماؤها الأقلون وقادة أفكارها المقربون بعد أن قطعوا مراحل التكريس واقسموا القسم الغليظ»[٨]. بينما كانت الأكثرية الساحقة من الاتباع لا تعرف عن أمر هذه الجمعية الا الشيء القليل، والذي كان يطلعهم عليه الدعاة وبقدر معلوم[٩].

وقد أطلق المؤرخون على هذه الحركة الجديدة تسميات عديدة منها :

الباطنية. الذين ادعوا أن لظواهر القرآن والأخبار بواطنَ تجري مجرى اللب في القشر، وأنها توهم الأغبياء وتفهم الفطناء رموزاً واشارات إلى حقائق خفية وان من تقاعد عن العرض[١٠] على الخفايا والبواطن تعثر ومن ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكلف واستراح من اعبائه واستشهد بقوله تعالى: «ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم»[١١]. وقد سموا البابكية لأن طائفة منهم شيعوا بابك الخرمي وكان قد خرج من ناحية اذربيجان في أيام المعتصم، فاستحل المحرمات فبعث إليه المعتصم الأفشين فتخاذل عن قتاله[١٢]. كذلك سموا بالمحمرة لأنهم صبغوا الثياب بالحمرة أيام بابك وكانت شعارهم[١٣]. وأيضاً سموا بالتعليمية لأن مبدأ مذهبهم إبطال الرأي وأبطال تصرف العقل، وأنه لا مدرك للعلوم إلا بالتعليم[١٤]. وسموا أيضاً السبعية لأنهم زعموا أن الكواكب السبعة مدبرة للعالم السفلي، أما الغزالي فقد أورد سبباً لهذه التسمية وهو اعتقادهم أن أدوار الإمامة سبعة وأن الإنتهاء إلى السابع هو آخر الدور[١٥]. وهذا ما أميل إلى الأخذبه وذلك نتيجة الحركات الاسماعيلية التي لعبت دوراً هاماً في ذلك الزمن، وبالإضافة إلى ما ذكر فقد سموا بالحشاشين (Assassins) وهو اصطلاح عام للجماعات الفدائية السرية، وقد عني به في معظم اللغات الأوروبية (المغتال) الذي يقتل خلسة أو بالخيانة.

وعلى أية حال فإن حركة الاسماعيلية الجديدة «الحشاشين» ظهرت بشخص الحسن بن الصباح، الذي تمكن من احتلال قلعة الموت سنة (٤٨٣/١٠٩٠) الواقعة في المرتفعات الشمالية الغربية من فارس على شواطيء بحر قزوين الجنوبية[١٧] وأصبحت فيها بعد مركزاً للدعوة ما بين سنة (٤٨٣ ــ ٦٥٤/ ١٠٩٠ ــ ١٢٥٦) وانتهجت أسلوباً جديداً في العمل والتنظيم فاستخدمت الاغتيال وبذلك تحولت من جمعية نظرية تؤمن بالأسلوب السلمي إلى جماعة حركية تؤمن بالاغتيال والتنظيم السياسي الدقيق[١٨]. وعلى هذا الأساس رأى الحسن ابن الصباح نشر دعوته والتوسع نحو الغرب، فكانت بلاد الشام اختياره الطبيعي كي يضعف الدولة السلجوقية القوية (السنية) ويحيطها من الشرق والغرب، ولكي يكون قريباً من إخوانه في العقيدة وهم الفاطميون (الشيعة) في مصر، كذلك إضعاف الخلافة العباسية (السنية) في

بغداد، أضف إلى ذلك عاملاً آخر هاماً يتعلق بالظروف الطبيعية والبشرية في سورية، فهناك سيجدون الدعم والعون من الشيعة والفرق الأخرى المتطرفة الذين كانوا يسكنون المناطق المرتفعة شرقي اللاذقية وجنوبها[١٩]. كذلك فقد كانت سورية نادراً ما عرفت الوحدة السياسية كما أن طبيعة أراضيها المتموجة وجبالها العصية تساعد على اتخاذها مركزاً للدعوة والدعاة[٢٠].
وفي سورية حاول الاسماعيليون بمختلف الوسائل السيطرة على الحصون والقلاع الحصينة لاتخاذها مقراً لأعمالهم واستخدامها «كقواعد لحملة الإرهاب»[٢١] التي شنوها ضد أعدائهم من القادة والأمراء السنيين ومن وجدوا فيه خطراً يهدد دعوتهم ونتيجة لهذه السياسية التي ارتسموها فقد سيطروا على حصن مصياف والقدموس وذامية، وكونوا لهم جمعيات علنية في دمشق وحلب وقاموا بسلسلة من الاغتيالات كان ضحيتها الكثير من كبار رجال الدولة العباسية وأمرائها منهم الأمير جناح الدولة حسين (٤٩٦/١١٠٢)[٢٢] والأمير خلف بن ملاعب سنة (٩٩/١١٠٦)[٢٣] واتابك الموصل مودود سنة (٥٠٧/١١١٣)[٢٤]، كما قتلوا أيضاً سنقر البرسقي اتابك الموصل (٥٢٠/١١٢٦)[٢٥] في جامع الموصل العتيق أثناء تأديته صلاة الجمعة، ولم يكتفوا بذلك فقد تمكنوا أيضاً من دخول عدد من الحصون بأعمال الحيلة كسيطرتهم على مدينة بانياس (٥٢٠/١١٢٦)[٢٦] وبعد اتفاقهم مع الفرنجة سلموا هذا الحصن سنة (٥٢٤/١١٣٠)[٢٧] وفي هذا العام نكب الاسماعيليون حيث ثار عليهم العامة والأحداث بدمشق وفتكوا بهم، بعد أن تكبدوا كثيراً من القتلى والجرحى[٢٨] مما يدل على كثرة أعدائهم في دمشق ولكنهم تعلموا درساً قاسياً بعد هذه النكبة وخرجوا بنتيجة قطعية: وهي أن المدن الكبيرة لا تصلح أن تكون مركزاً لحركتهم.

ترأس الحركة الاسماعيلية في منطقة الشام بعد تلك النكبات راشد الدين سنان[٢٩] الذي قام بنقل مقر عمله من حلب إلى قلعة مصياف وسمي بشيخ الجبل[٣٠]، وكانت مرتبته في الدعوة داعي دعاة ويليه في المقام: الداعية الكبير، ويليه: الداعية العادي، ويليه: الرفيق، وأخيراً الفداوية الذين اشتهروا بطاعاتهم العمياء في تنفيذ أوامر سيدهم شيخ الجبل[٣١].

وتاريخ الاسماعيلية في الشام هو تاريخ الاغتيالات التي قاموا بها ضد المؤسسات السنية

بصورة عامة «فلم يقاتل الحشيشية عادة الإثني عشرية أو الشيعة الآخرين ولم يديروا سكاكينهم ضد النصارى أو اليهود المحليين»[٣٢] وهذا يؤدي إلى التساؤل عن حقيقة التعاون بين الاسماعيلية والفرنجة من جهة، وبينهم وبين اليهود من جهة ثانية، ومن الأدلة التي تثبت حقيقة التعاون مع الفرنجة أنه في سنة (١١٧٣/٥٦٩) أرسل راشد الدين سنان وفداً إلى أملريك ملك بيت المقدس لعقد اتفاق بين الطرفين ضد نور الدين، ولوّح له بأنه وقومه يفكرون بالتحول نحو النصرانية، وطلب منه مقابل ذلك الغاء الضريبة التي فرضتها فرسان الداوية من الفرنجة على بعض القرى الاسماعيلية، لأنه أدرك النتائج الإيجابية التي انطوى عليها ذلك الاتفاق، ولما عاد وفد الاسماعيلية من القدس سقط في كمين لفرسان الداوية دمر على أثره، مما أثار غضب أملريك فبعث بكتاب توبيخ للجناة، وطلب من مقدم الداوية سجنهم، كما أرسل إلى سنان معتذراً وأعلمه أن الجناة نالوا عقابهم، وكان لهذا العمل أثره الطيب مما زاد في ابقاء العلاقات الطيبة بين الطرفين.

وبعد وفاة نور الدين تجدد الاتفاق المعقود بين الفرنجة والاسماعيلية على قتال صلاح الدين والقيام بانقلاب داخل القاهرة للاطاحة بالحكم الأيوبي واعادة الخلافة الفاطمية[٣٤] أما علاقة الاسماعيلية باليهود، فكما يبدو أن عدداً كبيراً من اليهود كان يعمل بين صفوف الحركة الاسماعيلية لخدمة أهدافها، وقد ذكر الرحالة اليهودي بنيامين الذي زار منطقة الشام حوالي سنة (١١٧٣/٥٦٩) بأنه كان يقيم بين الاسماعيلية في الشام نحو أربعة آلاف يهودي «يسكنون الجبال مثلهم ويرافقونهم في غزواتهم وحروبهم، وهم أشداء لا يقدر أحد علي قتالهم، وبينهم العلماء التابعون لنفوذ رأس الجالوت ببغداد[٣٥]. وجد هؤلاء الاسماعيليون في صلاح الدين عدواً كبيراً لهم لأنه قضى على دولتهم الفاطمية في مصر، وتقدم إلى الشام لتوحيده وضمه إلى مصر وبخاصة أنه من القادة السنيين، ومن أجل ذلك قاموا وتعاونوا مع الفرنجة والزنكيين لأجل القضاء عليه، غير أن محاولاتهم فشلت، ففي سنة (١١٧٤/٥٧٠) راسل سعد الدين كمشتكين ــ اتابك الملك الصالح بن نور الدين ــ راشد الدين سنان أثناء حصار صلاح الدين لحلب، وبذل له أموالاً كثيرة وعدداً من القرى ثمناً لقتل صلاح الدين[٣٦]، فأرسل سنان جماعة من فداويه إلى المعسكر الأيوبي، فلما وصلوا رآهم أمير اسمه خمارتكين فعرفهم فقال

لهم، «ما الذي أقدمكم وفي أي شيء جئتم، وكيف تجاسرتم على الوصول وما خشيتم»[٣٧] فهجموا عليه وقتلوه، وحمل أحدهم على صلاح الدين لقتله فقتل دونه، وقاتل الباقون من الاسماعيلية حتى قتلوا جميعاً بعد أن قتلوا جماعة من العسكر الأيوبي[٣٨].

أوضحت هذه المحاولة الخطيرة لاغتيال صلاح الدين أن له أعداء حقيقيين من غير الزنكيين ومن الصليبيين وانه يجب عليه أن يحسب لهم الحساب.

ولم يكتف مقدم الاسماعيلية بهذه المحاولات الفاشلة لقتل صلاح الدين فقد أرسل إليه في ٤ ذي القعدة سنة ٥٧١هـ/٢٢ أيار ١١٧٦م جماعة من أتباعه بزي الأجناد دخلوا بين العسكر الأيوبي وباشروا الحرب معهم حتى امتزجوا بهم انتظاراً لفرصة مواتية ليجهزوا على صلاح الدين فيقتلوه[٣٩].

وفي أثناء محاصرة قلعة عزاز التي كانت أهم حصون حلب، تقدم صلاح الدين إلى خيمة الأمير جاولي الأسدي لتشجيع العسكر على مواصلة القتال، وفي أثناء ذلك قفز عليه أحد الاسماعيلية وضرب رأس صلاح الدين بسكين معه وكاد يقتله لولا المغفر الزرد الذي كان تحت قلنسوة الناصر وكان صلاح محترزاً «لا ينزع الزردية عن بدنه ولا صفائح الحديد من على رأسه»[٤٠] وأمسك السلطان بيد الملحد الباطني، ولم يستطع أن يحول دون ضرباته التي كانت موجهة إلى عنق الناصر المسمى بالكراعتد[٤١] ولما لم يستطع الباطني قتل السلطان مد بالسكينة إلى خد صلاح الدين فخدشه وجرى منه بعض قطرات من الدم، ونتيجة لذلك أسرع حرس السلطان لحمايته من الملاحدة.

ويخبرنا ابن واصل عن هذه المحاولة بقوله: «وأسرع مملوك السلطان وهو سيف الدين بازكوج وأمسك السكين بكفه فجرحه الباطني ولم يطلقها حتى قتل الباطني وجاء آخر ـ أي باطني آخر ـ فاعترضه الأمير داود بن متكلان الكردي فمنعه وجرحه الباطني في جنبه فمات وقتل الباطني وجاء آخر فعانقه الأمير علي بن أبي الفوارس وضمه من تحت أبطيه وبقيت يد

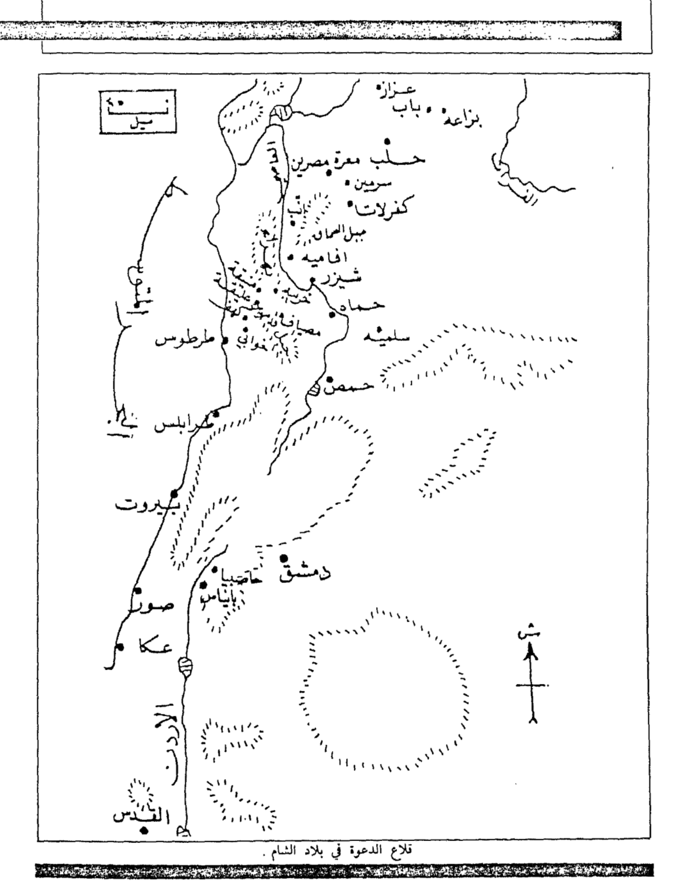
الباطني من ورائه لا يتمكن من الضرب ونادى علي: اقتلوني معه فقد قتلني واذهب قوتي، فطعنه ناصر محمد بن شيركوه فقتله وخرج آخر من الخيمة ـ أي باطني آخر كان في خيمة السلطان ـ منهزماً، فثار عليه أهل سرق العسكر فقطوه»[٤٢].

ارتاع صلاح الدين لهذا الحادث وقد عاد إلى خيمته والدم يسيل على وجهه ثم استعرض جنده فمن أنكره أبعده ومن عرفه أقره، وبعد ذلك أخذ بالاحتراز الشديد حتى أنه ضرب حول خيمته «على مثال خشب الخركاه»[٤٣] وجلس في بيت الخشب وبرز للناس كالمحتجب ورغم هذا تابع حصار مدينة عزاز حتى سلمت له بكرة الاربعاء ١١ ذي الحجة من سنة (١١٧٦/٥٧٢)[٤٤].

كان لهذه المحاولة الفاشلة والتي استهدفت قتل صلاح الدين صدى بالغ الأثر في نفوس العسكر الأيوبي، فقد توقف القتال بسببها ذلك اليوم، وهاج الناس واضطرب الجند حتى خاف بعضهم من بعض «فألجأت الحال إلى ركوب السلطان ليشاهده الناس فركب حتى سكن العسكر»[٤٥].

نستدل من هذه المحاولة على أن الحركة الاسماعيلية كانت دقيقة ومنظمة وسرية في عمليات الاغتيال، فبالرغم من وجود عدد من الاسماعيلية داخل العسكر الأيوبي غير المعروفين فإنهم لم يهجموا على صلاح الدين جميعاً دفعة واحدة، فربما حقق أحدهم هدف مجيئهم فيظل الباقون غير مكشوفين لتنفيذ مهمات أخرى، لذلك فلا داعي لاشتراكهم جميعاً في هذه العملية، ولما لم يحقق الباطني الأول الهدف هجم الثاني ثم الثالث.. وهكذا..

وقد ظلت الاسماعيلية مصدراً للانحلال السياسي والإجتماعي في بلاد الشام طيلة عصر الحروب الصليبية[٤٦] واتخذوا من الاغتيال السياسي والتصفية الجسدية مبدأ ساروا عليه لتحقيق أهدافهم في السيطرة على أجزاء من بلاد الشام وانهاك القوى السنية فيها، حتى أن السلطان صلاح الدين كان هدفاً لمحاولتين استهدفتا اغتياله ولكنه نجا من خناجرهم[٤٧].



قلاع الدعوة في بلاد الشام.

وبالمقابل قام صلاح الدين بالهجوم على قلاعهم وحصونهم الممتدة على طول صفحة جبل لبنان في ٢٠ محرم سنة (٥٧٢/١١٧٦م) بقصد خرابها وقتل الاسماعيلية فيها، وأهم تلك القلاع والحصون: القدموس[٤٨] والكهف[٤٩] ومصياف[٥٠] والعليقة والرصافي والمنيقة والقليعة والرصافة والخوابي وغيرها[٥١]. وقد تمكن صلاح الدين وعسكره من حصار بعضها ونصب عليها المجانيق الكبار ثم أوسع من بداخلها قتلا وساق أبقارهم وخرب ديارهم[٥٢]. كذلك حاصر قلعة مصياف مركز زعيمهم وهي أعظم حصونهم ولكنه لم يتمكن من فتح قلعة مصياف التي قاومت الحصار اسبوعاً، والروايات التاريخية مختلفة فيما حدث ولماذا انسحب صلاح الدين منها قبل أن يتم فتحها ــ ومن الروايات التاريخية التي تذكر ذلك رواية المؤرخ الاسماعيلي أبو فراس جاء فيها: «ان صلاح الدين انسحب من مصياف خوفاً من سنان، وحفاظاً على حياته مما رآه وسمعه من الخوارق التي كان يقوم بها سنان ضده»[٥٣].

وتذكر الروايات الاسماعيلية أيضاً أن صلاح الدين تبادل الرسائل مع سنان وطلب منه التسليم فرد سنان بالرفض فأجابه على الفور بأنه مستعد لقتاله، وفي الليلة نفسها أرسل إليه سنان أحد فدائييه فتمكن من دخول خيمة صلاح الدين ووضع له عند رأسه اشعاراً ينطوي على بعض التهديد[٥٤]، وفي الليلة التي أعقبتها ضرب صلاح الدين حول خيمته نطاقاً من الحراس وأمر بنشر الطحين حواليها، وفي الصباح وجد صلاح الدين سليماً وقد بدل محل مصابيح خيمته، علماً بأن أحداً، من الحراس لم يشاهد أي زائر من البشر يدخل إلى الخيمة، فاستولى على العساكر الرعب سيما وقد هبطت إليهم رسالة بواسطة سهم من مصياف جاء فيها: «ألا فاعلموا أننا نروح ونغدو كما كنا في السابق ولن تعوقونا بحال من الأحوال»[٥٥].

ومن الروايات الأخرى التي تذكر سبب مغادرة صلاح الدين مصياف ماجاء في الرواية التالية: «ما مد صلاح الدين سنان مع اثنين من مساعديه، وعندما أراد التقدم إليهم ببعض أمرائه للقبض عليهم وجدوا أنفسهم غير قادرين على التقدم، لقد سيطرت عليهم قوة مخدرة جردتهم من قدرتهم، وقد انزعج صلاح الدين مما حصل واعتقد أن هناك قوة خفية تعمل لصالح عدوه، لذلك طلب مصالحة سنان وكسب جانبه»[٥٦].

ويبدو من هذه الروايات التاريخية أنها عن مقدرة سنان أنها ضعيفة وغير دقيقة بدليل أن الاسماعيلية حاولت اغتيال صلاح الدين أكثر من مرة ولم تفلح في مسعاها. ولو صح أنها تمكنت منه كما ذكرت هذه الروايات لاستطاعت قتله. وهناك رواية تارخية أخرى تذكر «أن عساكر صلاح الدين لما قتلت الاسماعيلية وضربت ديارهم، شفع فيهم خاله شهاب الدين ــ صاحب حماه ــ إذ كان راشد الدين سنان قد راسله في ذلك لأنه من جيرانه. فقبل صلاح الدين شفاعة خاله فيهم وترك حصار مصياف»(٥٧) في حين يذكر ابن الأثير في كتابه الكامل أن راشد الدين سنان لم يراسل شهاب الدين ويطلب منه التوسط لدى صلاح الدين بالكف عن حصار مصياف من باب الترجي أو التوسل إنما قال له: «إن لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين وأمرائه»(٥٨).

ويستطرد ابن الأثير قائلاً: «ان العسكر الصلاحي ملّ من طول الانتظار لعدم التمكن من فتح مصياف، وكانت أيديهم مملوءة بالغنائم التي كسبوها من عسكر الموصل وبلد الاسماعيلية، فطلبوا العودة إلى بلادهم للاستراحة فأذن لهم صلاح الدين وسار هو إلى مصر»(٥٩) ولذلك انتهى حصار مصياف.

والحقيقة أن فشل حصار مصياف لم يكن لتهديدات سنان لصلاح الدين ولخاله شهاب الدين فحسب وإنما كان هدفه واضحاً للجميع وهو: توحيد الجبهة الإسلامية لمقاتلة الصليبيين وطردهم من البلاد المغتصبة، وخوفاً من هجوم الصليبيين على البلاد الإسلامية، ورغبة في عدم استنزاف المزيد من الوقت، وقد تحقق ذلك. فحين كان صلاح الدين محاصراً لمصياف أغار الفرنجة على بعض البقاع فخرج إليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك ابن المقدم ــ متولي بعلبك ــ فقتل منهم جماعة واسر أكثر من مائتين وأحضرهم إلى صلاح الدين في مصياف، فخاف أن يثور الفرنجة في الشام الأعلى وهو بعيد عنهم فصالح سنان وعاد إلى دمشق(٦٠)، وربما كانت وساطة شهاب الدين قد جاءت في الوقت الذي كان صلاح الدين عازماً على مصالحة الاسماعيلية.

وعلى كل فإن الصلح تم بين الاسماعيلية وصلاح الدين ويبدو أن صلاح الدين اتبع معهم سياسة حكيمة جعلتهم يقفون على الحياد للتفرغ للصليبيين بعد أن قضى على الدولة الفاطمية، وعندما عقد صلاح الدين صلح الرملة سنة (٥٨٨هـ/١١٩٢م) اشترط عليهم دخول بلاد الاسماعيلية في شروط الصلح حتى لا يستخدمهم الفرنجة في مهاجمة أملاكه[٦١]. كذلك فإن الاسماعيلية رغبوا في الصلح قبل أن يسعى إليه صلاح الدين لفشل محاولاتهم المتكررة لاغتياله، وعدم وجود قوة عسكرية اسماعيلية تتمكن من التصدي للقوات الأيوبية، لذلك فضلوا وقوف صلاح الدين على الحياد على أن يكون عدواً مباشراً، لهم وكان صلاح الدين يرغب بمصالحتهم لحصانة قلاعهم وتهديدهم لحياته وأمنه ورغبته في التفرغ إلى الجانب الأكثر خطورة على مستقبل سياسته ودولته، كانت تلك الخطورة متمثلة في تفكك الامارات الزنكية ورغبته بتوحيدها وضمها إليه أولاً والقضاء على الصليبيين في الشام وتحرير القدس ثانياً.

● ● ●

الهوامش :

(١) برنارد لويس، أصول الاسماعيلية، نقله إلى العربية خليل أحمد جلو ورفيقه ط. القاهرة، د. ت. ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٢) يوسف غوانمه غلاة الشيعة الباطنية في بلاد الشام، ط. عمان، ١٩٨١، ص ٤١ محمد جمال الدين سرور، مصر في عهد الدولة الفاطمية، ط، القاهرة، ١٩٦٠ ص ٤. كذلك أنظر هاملتون آ. رجب، صلاح الدين الأيوبي، تحرير يوسف ايش، ط بيروت، ١٩٨٣، ص ١٦.

(٣) ميمون القداح، مبارك بن جعفر، الفضل بن عمر، حمدان بن أحمد، برنارد لويس، أصول الاسماعيلية، ص ١٠٧.

(٤) سملا: اطلق عليها فيما بعد اسم «محمد آباد» نسبة اليه سرور، مصر في عهد الدولة الفاطمية، ص ٥ ـ ٦ وهي مدينة في شمال الهند، محطة اصطياف على سفوح هملايا، كانت عاصمة الهند الصيفية. المنهل دار المشرق، ط ٢٧، بيروت، ١٩٧٣، ص ٣٦٦.

(٥) دريد عبد القادر نوري، سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام وجزيرة، ط. بغداد، ١٩٧٦، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥.

(٦) القلقشندي ت (٨٢١/١٤١٨): أحمد بن علي بن أحمد بن عبدالله، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ط القاهرة، ١٣٣١/١٣٣٨هـ، ج ١٣، ص ٢٤٥ كذلك أنظر أبو شامة ت (٦٦٥/١٢٦٧): شهاب الدين بن محمد عبدالرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المغربي، الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، ط القاهرة ١٩٥٦، ص ٥٢.

(٧) هو الحسن بن علي بن محمد الحميري، ولد في قم وكان كوالده من الشيعة الاثني عشرية، غير أنه وقع تحت تأثير أحد دعاة

الفاطمية واسمه (عمر دراب) وتنقل على عدد من الدعاة الاسماعيلية. وكان رجلاً طموحاً يحب باقامة دولة جديدة وفي رمضان سنة ٤٦٤/حزيران ١٠٧٢م ذهب إلى القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية بعد أن عمل كوكيل لابن عطاش الداعي في مدينة اصفهان مدة سنتين وقد تمكن من العودة إلى فارس ثم تسلل إلى قلعة الموت واحتلها وبعدها تمكن اتباعه من السيطرة على عدد من القلاع الحصينة في جبال فارس. مصطفى غالب. اعلام الاسماعيلية. ط. بيروت. ١٩٦٤ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٨. فايد حماد محمد عاشور جهاد المسلمين في الحروب الصليبية. الطبعة الأولى. بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١، ص ٦٨ ـ ٦٩.

(٨) بندلي جوزي، من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام، ط. الاندلس. ١٩٢٨، ص ٥٢.

(٩) دريد نوري، سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام. ص ٣٣٦. محمد عبد الفتاح عليان، قرامطة العراق. ط. القاهرة. ١٩٠٧. ص ١٨ ـ ١٩.

(١٠) ابن الجوزي ت (٥٩٧/١٢٠١): أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، القرامطة تحقيق محمد الصباغ. ص. بيروت. ١٩٧٠، ص ٣٧.

(١١) قرآن كريم، سورة الاعراف، آية ١٥٧.

(١٢) من المعروف ان الافشين اسر بابك وأتى به إلى سر من رأى ثم قتله. أنظر ابن الجوزي، القرامطة. ص ٤٩.

(١٣) ابن الجوزي، نقد العلماء أو تلبيس ابليس، ط. بيروت، ١٩٦٨، ص ١٠٢ ثم القرامطة، ص ٤٩.

(١٤) ابن الجوزي، القرامطة، ص ٥٠.

(١٥) ابن الجوزي، تلبيس ابليس، ص ١٠٢.

(١٦) دريد نوري، سياسة صلاح الدين في مصر والشام، ص ٣٦٧.

(١٧) عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ط. الاسكندرية ١٩٦٧، ص ٤٧٤، فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ترجمة جورج حداد وكمال اليازجي، ط. بيروت ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦، وليم لا نجر، موسوعة تاريخ الإسلام، أشرف على ترجمتها محمد مصطفى زياده ط. القاهرة، ١٩٥٩، ج ٢، ص ٩٥.

(١٨) محمد كامل حسين، طائفة الاسماعيلية، تاريخها، تنظيمها، ط. القاهرة د.ت، ص ٦٣. دريد نوري، سياسة صلاح الدين، ص ٣٧٠.

(١٩) ابن جبير ت (٦١٥/١٢١٧): أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي، رحلة ابن جبير ط. بيروت ١٣٨٤/١٩٦٤. يوسف غوانمه، غلاة الشيعة الباطنية في بلاد الشام، ص ٢٠.

(٢٠) برنارد لويس، الدعوة الاسماعيلية الجديدة (الحشيشية)، نقله إلى العربية د. سهيل زكار، ط، بيروت، ١٩٧١، ص ١١٥.

(٢١) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٢٢) جناح الدولة حسين صاحب حمص عمدوا سنة (٤٩٦/١١٠٢) إلى اغتياله حيث وثب عليه (ثلاثة نفر عجم من الباطنية) وقتلوه بالسكاكين. ابن الأثير ت (٦٣٠/١٢٣٣) أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، الكامل في التاريخ، ج ٨، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦، ص ٤٩٥.

(٢٣) صاحب حصن افامية الذي استولى عليه الاسماعيلية بعد مقتله. أنظر ابن القلانسي ت (٥٥٥/١١٦٠): أبو يعلى حمزة، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق آمدروز، ط. القاهرة، ١٩٠٨، ص ١٤٩.

(٢٤) ذكرت المصادر انه كان مجاهداً تقياً، قتله الاسماعيلية بعد انتهائه من صلاة الجمعة في شهر ربيع الآخر سنة (٥٠٧/١١١٣) في دمشق، عندما كان عازماً على توحيد الجيوش الإسلامية لمحاربة الفرنجة، كسب مودة أهل بلاد الشام، حتى تبوأ قيادة المسلمين في الدفاع عن أراضيهم ضد الغزاة، غير أن الاسماعيلية اغتالته لأنه هدد مصالحها. المصدر نفسه، ص ٢١٤.

(٢٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج ١٠، ص ٦٣٢.

(٢٧) دريد نوري، سياسة صلاح الدين، ص ٣٧١.

(٢٨) قدر عدد قتلاهم بستة آلاف، ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٦٥٧.

(٢٩) من أهالي عقد السودان (قرية قرب البصرة) ذهب إلى حصن الموت، وهناك أثبت جدارة ونباهة عقل، أرسله صاحب الموت إلى حصون الشام ليتزعم قيادة الاسماعيلية، قاتل السلطان نور الدين محمود في عدة معارك، توفي سنة (٥٨٩/١١٩٣). مزيداً من التفصيلات أنظر: ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢٢٥، اليافعي ت (٧٦٨/١٣٦٦): أبو محمد عبدالله بن أسعد مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ج ٣، ط. حيدر أباد الدكن، ١٩٧٠، ص ٤٤٨.

(٣٠) برنارد لويس، الحشيشية، ص ٢٠٧، كذلك صفحة ٢١٢.

(٣١) Browne (Edward G): A Literary history of Persia Vol. II. Cambridge. 1951. p.209.

(٣٢) برنارد لويس، الحشيشة، ص ١٥٣.

(٣٣) Runciman (Stevan): A history of the crusades Vol. II, London 1957, P.688.

(٣٤) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤١٢، فيليب حتي، تاريخ سورية وفلسطين ج ٢، ص ٢٤٥ ـ ٣٤٦. عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، في التاريخ الإسلامي، ص ٤٧٤، الاسكندرية، دار المعارف ١٩٦٧، يوسف غوانمه، امارة الكرك الأيوبية، ص ١٠٨.

(٣٥) بنيامين ت (٥٦٩/١١٧٣): الربي بن يونه التطليلي، رحلة بنيامين، ترجمة عن العبرية عزرا حداد، ط. بغداد، ١٩٤٥، ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٣٦) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤١٩. أبو شامة ت (٦٦٥/١٢٦٧): شهاب الدين أبو محمد بن عبد الرحمن، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ط. القاهرة، الكامل، ج ١١، ص ٤١٩.

(٣٧) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤١٩.

(٣٨) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤١٩ ـ كذلك أنظر ابن واصل ت (٦٩٧/١٢٩٨) جمال الدين بن سالم، مفرج الكروب في اخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة، ١٩٥٧، ج ٢ ص ٢٦.

(٣٩) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١ ص ٢٤.

(٤٠) المصدر نفسه والصفحة نفسها، كذلك أنظر البنداري ت (٦٤٣/١٢٥٤): قوام الدين أبو علي بن محمد، سنا البرق الشامي وهو مختصر لكتاب البرق الشامي للعماد الاصفهاني، تحقيق د. رمضان ششن. ط. بيروت، ١٩٧١ ج ١، ص ٢١٠.

(٤١) الكراعند: صفائح الحديد. ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢ ص ٢٥.

(٤٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢ ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٤٣) الخركاه: لفظ فارسي معناه نوع من الخيم يتكون من قطع الخشب معقود بينها على شكل قبة ويقال انه أيضاً قبة تركية وتغطيها قطع من اللبد البنداري، سنا البرق الشامي، ج ١ ص ٢١١. دريد نوري، سياسة صلاح الدين في مصر والشام، ص ٣٨٠ ـ ٣٨١ (الهامش رقم ٧).

(٤٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢ ص ٤٥.

(٤٥) ابن كثير ت (٧٧٤هـ/١٣٧٢): عماد الدين بن أبي الفداء اسماعيل، البداية والنهاية، ج ١٢، ط. القاهرة، ١٩٣٣، ص ٢٩٣.

(٤٦) برنارد لويس، الدعوة الاسماعيلية الجديدة، ص ١٢٥.

(٤٧) سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ الحركة الاسماعيلية، ج ١ ط. القاهرة ١٩٧٥، ص ٥٤٦، يوسف غوانمه، علاقة الشيعة

الصليبية في بلاد الشام، ص ٣١.

(٤٨) ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٤٣، ابن كثير، البداية والنهاية ج ١٢، ص ٢٠٤

(٤٩) كان الكهف والقدموس حصنين من الحصون التابعة لمقاطعة طرابلس وهما حصنان منيعان. أنظر الظاهري ت (٨٧٣هـ/١٤٦٨م): غرس الدين خليل بن شاهين كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ط. باريس ١٨٩٣، ص ٤٨.

(٥٠) مصياف: كان من أمنع الحصون ويقع على الساحل الشامي قرب مدينة طرابلس، اتخذه سنان مركزاً لحركته وقد استولى عليه سنة (٥٣٥هـ/١١٤٠م) بحيلة دبرت عليه ومكيدة نصبت له، ودخلوا فيه وقتلوا صاحبه مملوك بن منقذ صاحب شيزر، مزيداً من التفصيلات انظر: ابن الأثير، الكامل، ج ١١ ص ٣٩، سعيد عاشور الحركة الصليبية، ج ١، ص ٤٤٥ دريد نوري، سياسة صلاح الدين في مصر وبلاد الشام، ص ٣٨٢ (الحاشية).

(٥١) برنارد لويس، الدعوة الاسماعيلية جديدة، ص ١٣٥، ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٣٦٩.

(٥٢) ابن الأثير، الكامل، ج ١١ ص ٤٣٦.

(٥٣) ابن العماد ت (١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) عبد الحي الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط. بيروت، د ت ج ٤، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ كذلك أنظر ـ

Runciman (Stevan). A history of the crusades Vol II. London, 1957, p.410

دريد نوري، سياسة صلاح الدين ص ٣٧٣.

(٥٤) ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٤ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٥٥) هارولد لامب، شعلة الاسلام، ترجمة محمود عبدالله، ط، بغداد، ١٩٦٧، ص ٧١ ـ ٧٢.

(٥٦) Rosebault (Charlies J.): Saladin prince of chivlary, London 1930, pp.112-114.

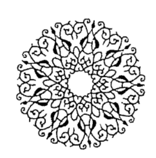
(٥٧) أبو شامه، الروضتين، ج ١ ص ٢٦١.

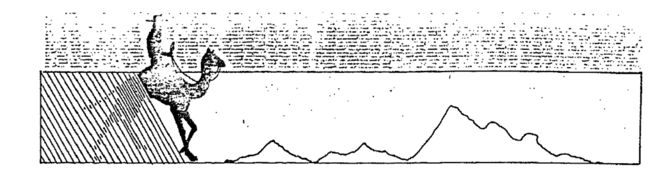
(٥٨) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤٣٦.

(٥٩) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٦٠) ابو شامه، الروضتين، ج ١، ص ٢٦١.

(٦١) المصدر نفسه والصفحة نفسها، كذلك أنظر يوسف غوانمه، امارة الكرك الايوبية، عمان، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ١٦٧.





مع آخر* رحالة أوربي

يعبر الجزيرة العربية على ظهر بعير

رحلة عالم النبات الدنمركي باركلي راونكاير

عام ١٩١٢م الموافق ١٣٣٠هـ

لخصها عن الانجليزية الأستاذ:

السيد أحمد مرسى عباس

آخر رحلة في قوافل الإبل يسجلها أوروبي في وقت لم يكن الملك عبد العزيز قد استكمل سيطرته بعد على جميع أرجاء الجزيرة العربية ــ وكانت حائل ــ بدعم من الأتراك ــ في حرب مستمرة ضده، وكانت الاحساء في قبضة الحامية التركية التي عملت على انتشار الفوضى وانعدام الأمن ــ لقد جاء هذا الأوروبي من الدنمرك مبعوثاً من الجمعية الجغرافية الدنمركية، لكي يبحث عن قاعدة لبعثة علمية دنمركية، تأتي لدراسة الصحراء الجنوبية الكبرى للجزيرة العربية، والتي كانت مجهولة تماماً في ذلك الوقت، وحصلت الجمعية على إذن الحكومة العثمانية بالذهاب إلى الاحساء وزودت مبعوثها الرحالة بالآلات اللازمة للمساحة وأجهزة التصوير، وأجهزة قياس الحرارة والضغط الجوي، وكذلك بإرشادات وتعليمات، تقضي بأن يذهب إلى البحرين ومنها إلى القطيف أو العقير، ومن هناك يسافر إلى الهفوف لدراسة واحة الاحساء ثم يتوغل غرباً وجنوباً بأقصى ما يستطيع لدراسة تلك المناطق.

وصل إلى القسطنطينية وركب قطار الأناضول حتى أولو قشلة على السفح الجنوبي لجبل بلجار، ثم ركب عربة إلى طرسوس ثم قطار مرسينا ــ أضنه حتى وصل إلى مرسينا ومنها أبحر إلى الاسكندرونه حيث استأجر عربة إلى حلب، ومنها في عربة أخرى إلى بغداد عن طريق وادي الفرات وأقام أسبوعين في بغداد استطاع خلالها تدبير خادم عربي مسيحي من الموصل يدعى حنا، سبق له الترحال في خدمة الأوروبيين في كردستان والعراق وايران ولكنه اتخذ اسماً مسلماً ــ علياً ــ في صحبة الدنمركي، وركب معه أحد بواخر شركة لينش العاملة في نهر الدجلة يوم ١٦ يناير ١٩١٢م في طريقها إلى البصرة.

وصل الرحالة البصرة يوم ٢٢ يناير وحظى بعناية حسن رضا باشا والي البصرة العثماني وأسبغ عليه حمايته، واشترك معه في وضع خطط الرحلة المقبلة ــ ولما كانت هناك ظروف سياسية خاصة في شرق الجزيرة العربية سببت متاعب جمة للأتراك في الأحساء فقد لزم إحداث تعديلات في الخطة الأصلية، فبدلاً من السفر إلى الاحساء عن طريق البحرين، بات لزاما أن يسافر إلى الكويت معتمداً على التوصيات التركية، وأن يقنع حاكم الكويت الشيخ مبارك الصباح بالسماح له بالسفر جنوباً وبطريق البر إلى الأحساء وقد تم ترتيب كل شيء لهذه الغاية ــ ثم اتخذ زياً عربياً بناء على نصيحة العديد من الناس.

غادر البصرة يوم ٢٧ يناير سنة ١٩١٢م (٦ صفر ١٣٣٠هـ) مزوداً بخطابات توصية، وجواز سفر تركي لاستخدامه في منطقة الأحساء ــ ووصل إلى الزبير، حيث حظى بكرم ضيافة الثرى العربي عبد الوهاب المنديل وبهرته الزبير بطابعها العربي النجدي، إذ أن أغلب السكان من العرب النجادة وبخاصة العاملون في قوافل التجارة لأن الزبير ملتقى طرق القوافل من شرق ووسط الجزيرة العربية ويمر بها جميع مبعوثي الشيوخ العرب في طريقهم من والى حاكم البصرة التركي، ويتفرع منها طريقان هامان للقوافل أحدهما إلى الكويت حيث يتفرع إلى القطيف وإلى الزلفى والآخر يتخذ مساره في وادي الرمة إلى بريدة ــ فالزبير على اتصال دائم بنجد، والتأثير الوهابي واضح جداً إذ يلاحظ قلة عدد المقاهي وانخفاض عدد المدخنين بعكس البصرة تماماً.

وفي صباح اليوم التالي قام عبد الوهاب المنديل ــ ومن ماله الخاص ــ بتزويد الرحالة بالأرز والخبز واللحم وحملت الخيول واندفعت في طريقها إلى الكويت ــ وصلت القافلة الصغيرة إلى صفوان بعد الظهر حيث توجد قشلة تركية تضم عشرة جنود وهي آخر نقطة تحت الإدارة التركية، وبعد استراحة ملئت خلالها القرب بالماء استؤنفت الرحلة ثم توقفت عند الغروب لإعداد الطعام وإطلاق الخيول لترعى، ثم عاودت المسير حتى منتصف الليل وفي الصباح استؤنف المسير مروراً بمضارب المنتفق[1] على بعد ٢٠ كيلو متراً من الجهراء ــ وصلت القافلة إلى مدينة الجهراء واستراحت في ظل قلعة مبارك الطينية، ولفت الانظار مرور العرب المنتظم فرادى أو جماعات يسوقون دوابهم المحملة بالأثقال مما يدل على استتباب الأمن في هذه البقعة عما هو معتاد في الجزيرة العربية. وصلت القافلة أطراف الكويت بين الثامنة والتاسعة مساءً والمدينة نائمة ومضارب الخيام خارجها كثيرة ويشاهد على وميض نيرانها السكان وهم جالسون يحتسون القهوة وكذلك الدواب الرابضة حولها ــ دخلت القافلة المدينة وأخذت تتحسس طريقها في الظلام حتى وصلت إلى قصر الشيخ مبارك وهو بناء شبيه بالقلعة يبلغ ارتفاعه بين ثمانية وعشرة أمتار يخترقه ممر ضيق كادت الخيول المحملة بالأمتعة تسده تماماً وامتلأ الممر بالرجال المسلحين ورفع بعضهم المشاعل والفوانيس وأخذوا خطابات التوصية الموجهة إلى مبارك وانتظرت القافلة بعض الوقت حتى عاد أحد رجال مبارك الثقات واسمه محمد. فسمح للقافلة بالمرور عبر بوابة منخفضة إلى ممر آخر مظلم بين صفين من الحراس المدججين بالسلاح، فوصلت إلى فناء تحيط به مجموعة مختلطة من الأبنية، حيث نزلت القافلة في إحداها وخصصت لها غرفة فرشت بالسجاد فوق الحصير الذي يغطى الأرض، ثم جاء عبد حبشي يحمل صينية مملوءة بصحاف اللبن والخبز والتمر وجاء معه محمد ليعبر عن الاعتذار نيابة عن الشيخ مبارك[2] عن عدم تقديم وجبة كاملة لأن العشاء انتهى في الساعة السادسة ـ وأخذ محمد أثناء تناول الطعام ــ ومعه رجل آخر من رجال مبارك ــ يمطران الدنمركى بوابل من الأسئلة: من أنت؟ ومن أين أتيت؟ وإلى أين؟ أنت عميل للانجليز أو للألمان؟ لماذا نزلت ضيفاً على الشيخ ولم تنزل على الوكيل السياسي الانجليزي؟ (الكابتن شكسبير وقتئذ) وجميع هذه الأسئلة تجيب عليها خطابات التوصية.

وفي صباح اليوم التالي استيقظ الدنمركي ورفيقه على صوت العبد الذي أحضر طعام الافطار المكون من الشاي واللبن الساخن والخبز والعسل، ثم جاء محمد ليعلن أن الشيخ مبارك مستعد لاستقباله فذهب ورفيقه إلى الشيخ مروراً بقنطرة تصل بين السراى أو بيت الحكومة وبين قصر الشيخ ـ كان مبارك وهو شيخ في الثالثة والسبعين يجلس ونظره إلى البحر ويحيط به حرس من ستين رجلاً مسلحين جيداً، يجلسون على الأرض على مسافة ضئيلة منه بينما جلس الشيخ على كرسي ذي مسندين يرقب منظر الأوروبي القادم في زي عربي والذي ليس هو انجليزياً ولا ألمانياً، وإنما جاء في ظل الحماية الخاصة للحكومة التركية، واستقبل الشيخ ضيفه استقبالاً لائقاً وأخذ يوجه إليه الأسئلة المنعمة بالشك وعدم الثقة. وكانت هي نفس أسئلة الأمس مع تكرارها، وخلطها حتى يقع الدنمركي في أي تناقض وخاصة من ناحية الأمور السياسية إذ لم يستطع أن يتجاهل مشاعره الودية حيال الأتراك وفي نفس الوقت عبر عن ميوله نحو الانجليز مما بذر الشك في نفس مبارك ـ وانتهت المقابلة بأن وعده مبارك بأن يدبر له رجلاً من قبيلة العجمان ليأخذه إلى القطيف والهفوف ثم أصدر أوامره إلى محمد ليكون تحت إمرة الدنمركي في كل شيء وأن يصاحبه في التجوال في المدينة.

وكان قصر الشيخ مبارك مكوناً من ثلاثة أقسام أولها مقر إقامة الشيخ والحريم على مرتفع من الشاطيء وثانيها مساكن الحرس والخدم الذكور والعبيد ومنازل الضيوف على منحدر خلفي وثالثها السراى أو مبنى الحكومة فيقع على الشاطيء نفسه، وكان الشيخ يخرج كل صباح من جناحه إلى السراى حيث يقف على حراسته حوالي ٥٠ حارساً مدججين بالسلاح ويتخذ مقعده في الفرانده المواجهة للبحر حيث يقضي ساعة في إنجاز مراسلاته ويسمع الخطابات تقرأ عليه ويملى ردوده على السكرتير، وبعد الفراغ منها يغادر السراى في عربة سوداء تجرها خيول سوداء ذات أردية حريرية تحمله إلى أحد المنازل في السوق حيث يستقبل الزوار ويفصل في الأمور والقضايا؛ لأن الزيارات في القصر مقصورة على أهل الثقة والحظوة ويسير الحراس أمام العربة أما خلفها فيسير عبد ضخم فوق حصان أبيض ويحمل بندقية موزر جاهزة للإطلاق، ويخرج الموكب مخترقاً أطول شارع في السوق ويتوقف العمل لحظات لكي يسلم كل إنسان على الشيخ، وعند وصول العربة إلى مقر الشيخ في السوق يترجل إلى الد خل وينتشر الحراس في



السوق ، وعند انتهاء الشيخ من أعماله في السوق يعود إلى القصر ليجلس في الفراندة حتى وقت الظهيرة وعند الغداء يسرع العبيد بصواني الطعام يتصاعد منها البخار، يلي ذلك هدوء قد يطول حتى العصر ينام خلاله الشيخ بل قد تنام المدينة بأكملها، ويصحو القصر على طرقات طحن القهوة في الهاون النحاسي وتعود الحركة ويستعد الجميع لخروج الشيخ من الحريم إلى السراى ويتخذ مجلسه على طنفسه في نهاية إحدى غرف الاستقبال بينما يتوافد الضيوف والوجهاء للسلام والتحية ويجلسون على الديوانيات المرصوصة على الجوانب ويدخل عبد أسود يحمل كمية من الفناجيل في يده اليسرى ودلة القهوة النحاسية المصنوعة في الاحساء في يده اليمنى ويوزع القهوة على الجميع بالترتيب ــ وبعد ساعة يخرج مبارك مرة أخرى إلى السوق ولا يعود إلا عند الغروب ويتناول العشاء بعد الصلاة مباشرة وعندما يحل الظلام يشعل الحراس النار عند الأبواب والأركان ــ وهكذا تمضي الأيام والليالي في قصر مبارك .

وموارد شيخ الكويت لا تأتي من الضرائب المباشرة، وإنما من مكوس الجمارك وإتاوات السوق فالسوق والميناء لهما أهمية تجارية وسياسية وحجم المرفأ لا يتناسب مع حجم نشاط السفن فليس هناك سوى الزورق البخاري البريطاني الذي يلقي مراسيه على بعد نصف ميل من الشاطيء وتذهب إليه عشرة قوارب لتفريغ حمولته ويذهب مدير جمارك الشيخ على رأس هذه القوارب ولا يتم التفريغ إلا بإشرافه وعندما تعود القوارب تدخل البضائع في مستودعات الجمارك الملاصقة للسراى ــ ويوجد ثلاثة مدافع كبيرة يرجع تاريخها إلى عهد البرتغاليين عندما كانوا يمارسون التجارة والقرصنة في الخليج ــ وهذه المدافع قائمة بين مستودعات الجمارك والشاطيء، وتستخدم لإطلاق التحية في المناسبات الجديرة بالاحتفال كان آخرها عندما تلقى الشيخ وساماً تركياً عرفاناً بمعونته المادية للحكومة التركية، خلال حربها ضد إيطاليا في طرابلس ليبيا. والكويت غنية بالمراكب البحرية اللازمة لصيد اللؤلؤ في وقت الموسم وتستطيع تلك المراكب أن تصل إلى أماكن تعجز الزوارق البخارية عن ارتيادها وتملك الكويت حوالي ٥٠٠ مركب من ذلك النوع ويعمل في صيد اللؤلؤ مابين ١٠ إلى ١٥ ألف رجل ولما كانت الكويت صغيرة ولا تستطيع توفير هذا العدد من الرجال الأشداء فقد أتى الكثيرون من وسط الجزيرة والعراق، ففي شهر ابريل مع وقت الموسم تصل قوافل الشباب

من واحات نجد إلى الساحل بعد رحلة خطيرة وشاقة في الصحاري ليعملوا في مهنة ليست خالية من الخطر، وبعيداً عن أوطانهم، ويعود كل منهم ـ بعد الموسم ـ بثوبين فقط وهو ثمن زهيد مقابل عمل في عرض البحر بين الصخور والشعب المرجانية تحت وطأة الحرارة الشديدة والرطوبة الخانقة والطعام المتواضع والأجر الأكثر تواضعاً.

لاحظ الرحالة أن الأمن مستتب تماماً في الكويت بخلاف باقي بلاد الخليج، وذلك لأن السلطة في يد رجل واحد يملك الإرادة والقوة لسحق أية معارضة ومن أجل ذلك لا يقتني أهل الكويت الأسلحة، وبالتالي فتجارة الأسلحة لا قيمة لها ـ والتجارة والملاحة في الكويت في أيدي البريطانيين، وتحتكر حركة البواخر شركة الهند البريطانية للملاحة والتي تصل بواخرها أسبوعياً ويدير الهنود وكالتها ـ ولا توجد حدود مرسومة للكويت، إلا عن طريق القبائل التي تعترف بسلطة مبارك. والسكان يتكونون من عنصري العرب والايرانيين الوافدين من بوشهر وما حولها، ويتميزون بزيهم الخاص: السراويل البيضاء والمعطف الأزرق والعمامة السوداء، أما العرب فتتجسد فيهم علامات الوهابية ـ والكويت أهم مدينة تجارية على الساحل الشرقي للجزيرة العربية، لأن أكبر قسم من تجارة داخل الجزيرة العربية يمر بالكويت ـ كما أنها مفتاح ما بين النهرين، ومفتاح وسط الجزيرة العربية؛ لأنها المدينة الوحيدة بين شط العرب ورأس مسندم، كما أنها دولة مستقلة وهي البقعة الوحيدة التي يصل عن طريقها سكان وسط الجزيرة العربية إلى البحر، لأن الاحساء يحتلها الأتراك، وفي الجنوب تمنع صحراء الربع الخالي الحركة التجارية ـ أما شمال الجزيرة وغربها فخاضعان للحكم التركي ويتجنب التجار المرور في الأراضي التركية، لأن السلطات التركية تمنع مرور الأسلحة وهي أدوات لازمة للقوافل لحماية نفسها من هجمات البادية وبذلك أثبتت الإدارة التركية حماقتها وقصر نظرها ـ لذا كانت الكويت مركز تجمع العرب القادمين من داخل الجزيرة العربية، إذ يمكنهم الوصول إليها بدون أن يتحرش بهم أحد، أو يسألهم عما في حوزتهم من أسلحة وذلك يرجع إلى سلطة شيخ الكويت القوية. والسوق في الكويت ليس مجرد مكان لممارسة التجارة، وإنما نقطة انطلاق القوافل فعندما توشك قافلة على الرحيل يبدأ أصحاب الإبل ودوابهم في التجمع في الجزء



الجنوبي من السوق والذي يؤدي إلى الصحراء. ثم يأتي التجار ببالات السلع التي ستحمل إلى داخل الجزيرة العربية ـ ويستقبل السوق البدو القادمين من الداخل لبيع إنتاجهم من الأغنام والخيل وشراء مايلزمهم من المواد الأخرى ـ وقد عين الشيخ مبارك رجلاً يقوم بجباية الضرائب عن كل حيوان يباع في السوق مثل ٤,٥ آنة عن كل خروف ومن روبية إلى أربع روبيات عن كل حمار حسب الحجم ونسبة ١٠٪ من ثمن كل بعير سواء كان بعير ركوب أو بعير أثقال ـ ويجاور السوق الكبير سوق آخر للفحم المجلوب من إيران، وعلى مقربة منه يوجد في الشارع الرئيسي دكان لبيع الانجيل وهو تابع للارسالية الأمريكية، يعرض طبعات عربية من المؤلفات المسيحية ونادراً ما يصادف أن يعبر إنسان عربي عتبة هذا الدكان، ويقع أكبر مسجد في الكويت على الجانب الأيسر من الشارع المتفرع من السوق وعلى منتصف الطريق إلى السراى، وتوجد مساجد أخرى أصغر في جميع أرجاء المدينة، وتقع وكالة البواخر الانجليزية في شارع ينحرف يميناً من الشارع الرئيسي المؤدي إلى السراى، وكذلك تقع الإرسالية الأمريكية في هذا الشارع، وهي بناء جيد كان يشغله مبارك قبل أن يحوز السلطة والثروة التي لديه الآن، أما البيوت فهي من طابق واحد مبنية من الطين الجاف وشبابيكها لا تطل على الشوارع وأبوابها مغلقة.

كان الشيخ مبارك قد وعد الرحالة بتدبير رجل من قبيلة العجمان ليأخذه إلى القطيف ولكنه عاد وقال له إنه بات مستحيلاً العثور على مثل ذلك الرجل ونصحه بركوب القارب البريطاني إلى البحرين، فطلب الدنمركي أن يأذن له بالسفر في صحبة القافلة المسافرة إلى بريدة ثم إلى الرياض والهفوف، فوافق الشيخ على الاذن له بالسفر، وأمكن من خلال مساعي الوكيل السياسي البريطاني في الكويت الكابتن و. هـ . شكسبير أن يتفق مع عبد العزيز بن عثمان (ابن أمير الزلفى السابق) على أن يرافق الدنمركي في رحلته من الكويت إلى بريدة ثم عنيزة فالرياض فالهفوف فالعقير، وعلى أن يضع تحت إمرته ستة جمال لنقله وخادمه على وأمتعتهما، وتم الاتفاق على الأجر وقام الشيخ مبارك من جانبه بتزويد الدنمركي بأقوى خطابات التوصية الموجهة إلى بريدة وإلى ابن سعود في الرياض وأصبح كل شيء جاهزاً للرحيل.

وخلال الانتظار الذي دام أياماً طويلة حتى تسافر القافلة أخذ يمضي وقته في السوق يتحدث إلى البدو ورجال القوافل ويحاول جمع المعلومات عن الكويت والأراضي الداخلية في الجزيرة العربية، ولم يفز بما يشفي غليله، فأخذ يصيغ أسئلته بأسلوب يبتز به المعلومة من زلة لسان المواطن الموجه إليه السؤال ـ وكان يوجد أعداد غفيرة من أبناء داخل الجزيرة العربية في السوق وفي داخل قصر مبارك، الأمر الذي زاد معلوماته بل كان يوجد مجموعة رجال من طرف ابن الرشيد أمير حائل كانوا قد حضروا ومعهم رجل مريض كي يعالج في المستشفى الإرسالي الأمريكي بعد أن حملوه مئات الأميال عبر جبال ورمال وانتظروا بضعة أيام في الكويت دون أن يشفى فعادوا به ـ كذلك نزل في قصر مبارك تاجر لؤلؤ بحريني يدعى جعفر، جاء خصيصاً ليبحث عن زوجة جديدة ولما كانت غرفة الدنمركي مجاورة لغرفة البحريني فقد أحاط الأول بكل تفاصيل مفاوضات اختيار العروس وكانت مدار الحديث في جلسة السمر في المساء أثناء شرب القهوة.

وفجأة ـ أصيب الدنمركي بمرض وانتشر الخبر ـ فجاء عبد العزيز بن عثمان (الذي سيرافقه بجماله في الرحلة) ليخبره أنه إذا تسبب في تعطيل القافلة عن السفر بسبب المرض فعليه أن يدفع جميع نفقات القافلة الممثلة في علف البعير وأجرة الجمالين طوال فترة الانتظار ـ ولكن الرحالة الأوروبي أجابه: إنه سعيد للغاية أن يسمع أن القافلة جاهزة للرحيل ـ وإن كانت لم ترحل فعلاً إلا بعد أسبوع حيث استرد الرحالة صحته وقوته.

أزفت لحظة الرحيل صباح يوم ٢٤ فبراير ١٩١٢م (٦ ربيع الأول ١٣٣٠هـ) وقام بتوديع الشيخ المضياف مبارك وحملت الأمتعة على الجمال في فناء القصر وسارت حتى الجزء الجنوبي الغربي من السوق حيث مكان تجمع القافلة ـ سارت القافلة لمدة نصف ساعة في اتجاه الجنوب ثم توقفت لدى مجموعة من الآبار ثم عادت إلى المسير واستأذن عبد العزيز في العودة إلى الكويت بحجة أنه نسي أن يشتري ملحاً للرحلة ولكي يودع زوجته على أن يعود في المساء ـ وفي صباح اليوم التالي تحركت القافلة نحو قرعة الكويت ومنها إلى تلال معدنيات وتوقفت في الساعة ١٠,٤٠ حتى يصل باقي القافلة وفي اليوم التالي بدأ وصول أعراب مع جمالهم من



الكويت ليلحقوا بالقافلة ولم يعد عبد العزيز وفي وقت العصر وصل رجل موفد من الدويش زعيم قبيلة مطير يطالب بأن تدفع القافلة ريالاً عن كل بعير كضريبة مقابل السماح للقافلة بالمرور في أراضي القبيلة التي تسيطر على جميع الآبار الواقعة بين الكويت والزلفي وبدأت المفاوضات بين المطيري ورجال القافلة صاخبة نظراً لارتفاع القيمة المطلوبة دون الوصول إلى شيء ــ ظلت القافلة في مكانها حتى وصل كل أفرادها ــ وهم ٥٠ رجلاً يصحبون مائة بعير ــ وأخيراً عاد عبد العزيز بعد غروب يوم ٢٨ فبراير (١٠ ربيع الأول) في هيئة المحارب المستعد يحمل بندقية مارتيني وسيفاً.

سارت القافلة في اليوم التالي في الاتجاه الجنوبي الغربي حتى بئر الطويل حيث ملئت القرب بالمياه استعداداً لمسيرة ستة أيام قادمة تنعدم فيها المياه ــ حتى الوصول إلى بئر الصفا، وقد استمر ملء الجلود حتى الليل وقبل شروق شمس اليوم التالي بساعتين أوقظت القافلة على صياح وضجيج إذا اختفت مجموعة من الخيول الواردة من العراق وهي في طريقها إلى نجد حيث تباع بأثمان مرتفعة إذ انشغل أصحابها بملء القرب وشرب القهوة والمسامرة وأهملوا حراسة خيولهم بل لم يفكروا في تقييدها فانتهزت الخيول الفرصة وهربت ربما في اتجاه الكويت فهرع رَكَبة الجمال في كل الاتجاهات فوراً وأمكن استعادة الخيول بعد عدة ساعات.

ازدادت حدة المطيري في مطالبته بالضريبة وأخذ يؤكد كلماته بإثارة تراب الأرض بعصاه في وجه الرجال حوله، ولكن عبد العزيز قرر وضع حد لهذا النقاش بأن رفع بندقيته إلى رأس المطيري وأعلنه أنه سوف يطلق النار إذا استمر في كلامه ــ كانت عملية مسرحية ولكنها أفادت. كان رجال القافلة يكررون أسئلتهم للدنمركي: من أنت؟ وإلى أين؟ البعض يظن أنه انجليزي والآخرون يؤكدون أنه عثمانلى أو فرنساوى أو موسكوى ــ وهذا كله لم يهم ــ بل المهم كلمة «نصرانى» مما أدى إلى صعوبة القيام بأي عمل علمي يستخدم فيه الأجهزة العلمية نظراً لتأثيرها المؤلم على رفاق السفر.

ولما كانت القافلة متوجهة إلى بريدة فسوف يتفرق أعضاؤها كل حسب وجهته، ففريق

سيذهب إلى عنيزة وفريق إلى الزلفي وبعض التجار إلى شقراء.

وصلت القافلة إلى بئر أم قادر الناضبة يوم ٢ مارس (١٢ ربيع الأول) ثم إلى قرعا يوم ٣ مارس ثم قارة يوم ٤ مارس حيث الأرض غنية بالكمأة (نبات الفقع) وجمعت كميات كبيرة منه لطعام القافلة وأخذ خادم الدنمركي يطبخ له الفقع بالكارى مما أدى إلى استهلاك كمية الفحم التي اشتراها من الكويت، فلجأ إلى بعر الجمال كوقود ولكن البعر لا يصلح لإنضاج الخبز ـ وكانت عادة القافلة أثناء إناخة الاستراحة أن تطلق الإبل لترعى في حراسة الرجال وبعد صلاة المغرب تقدم وجبة الطعام الرئيسية وتعود الإبل إلى وسط المخيم وتنيخ فوق الأرض وتربط الساق الأمامية لكل بعير حتى لا يقوى على النهوض أو الفرار، وترتب السروج حول المخيم ويصطف الحراس من رجال القافلة خلفها طوال الليل ـ وفي ليلة ٢٤ مارس ندت صيحة وتلاها ضجيج طويل وهرول كل انسان هنا وهناك بلا هدف أو غرض، فهذا أمسك بندقية، ولكنه نسي الذخيرة والآخر أمسك الذخيرة وليس لديه بندقية ولم يتضح سبب هذه الفوضى، فقد توهم الحراس شيئاً قد يكون هجوماً وتبين أخيراً أن جماعة من الركبان خرجوا من الظلام أوضحوا أنهم بادية من مخيم مجاور.

استؤنف السير يوم ٥ مارس في اتجاه جنوبي غربي قاره وانضم الركبان الجدد إلى القافلة، ولكنهم حرصوا على السير على مسافة بعيدة من الجناح الأيمن، وفي السبعان توقفت وقبل الغروب بساعة وصلت أنباء قدوم راكب نحوهم كما شوهد بدو في الجنوب فأسرع كل فرد إلى سلاحه ووسط الاضطراب ركب ثمانية من أنشط الرجال خيولهم غير المسروجة وانطلقوا بأقصى سرعة ـ ومن بينهم الهمام عبدالعزيز ـ وعاد الرجال بعد الغروب سالمين بعد أن تبينوا أنه بدوى من الجنوب من قبيلة مطير وليس لديه نية عدوان ـ تركت القافلة السبعان يوم ٦ مارس ووصلت الدبدبة الغنية بالفقع فتوقفت وضربت الخيام وانسحب الركبان الجدد إلى اليمين مواصلين سيرهم إلى الصفا مما أثار شكوك عبد العزيز فقد فكر أنهم قد سارعوا إلى الصفا بعد أن اطلعوا على قوة القافلة ليبلغوا بنى قبيلتهم هناك، فأسرع رجال على الخيول عديمة السروج واختفوا في الصحراء في أثرهم وبعد ساعات عادوا يسوقونهم إلى المخيم وتوجب على كل فرد في القافلة أن

يراقبهم وأن يرعى كل شيء قابل للسرقة كما وضعت حراسة على الخيول.

غادرت القافلة الدبدبة يوم ٧ مارس مع إحكام الملاحظة على الأغراب وقام تجار الخيول بقيد خيولهم إلى سروج جمالهم وتركا حصانين يرعيان وفجأة قفز رجل على ظهر أحدهما وهمزه لينطلق بأقصى سرعة ــ إنه المطيري المطالب بالضريبة أراد الفرار وفي نفس الوقت يغوز بحصان فصدرت صيحة فزع عن صاحب الحصان اخترقت القافلة من أقصاها إلى أقصاها فأخذ راكبو الجمال يطلقون الرصاص لغلق طريق الهرب ومضت طلقات البنادق في كل الاتجاهات فجمح الحصان وتقهقر ورمى بالمطيري من فوق ظهره ليسقط على الشجيرات.

وصلت القافلة إلى بئر الصفا وتوقفت وانهالت الخيول على الحشائش النابته حول البئر بشهية وعينت الحراسة على المرتفعات المحيطة بالوادي الذي يقع فيه البئر ورغم هذه الاحتياطات الأمنية فقد ساد القلق وترددت كلمة «جم» أي أتى المهاجمون وجرى ملء القرب بالماء، والرجال يغنون والنيران مشتعلة لإعداد القهوة ــ وفجأة يقف رجل فوق صخرة إلى الجنوب الشرقي وسرت صيحة خوف التقطها الحراس القريبون والبعيدون وفي لحظة هرول الجميع ناحية البئر في اندفاع عنيف وتوقف الغناء، وعلت صيحات الذعر من فم إلى آخر تنقل أخبار قدوم جماعة من الركبان من الجنوب الشرقي وجرى الرجال هنا وهناك بحثاً عن اسلحتهم وصعدوا إلى المرتفعات يحتلونها، وأثناء ذلك وصل قائد الجماعة المقبلة إلى الصخرة راكباً بعيره وفور إلقاء نظراته على أعراب القافلة وهم يجرون في إتجاهه نزع عباءته وأخذ يلوح بها عالياً فوق رأسه علامة أن القادمين ليسوا أعداء ــ لقد كان هؤلاء الركبان أربعة رجال بعثهم الإمام في الرياض إلى الشيخ مبارك في الكويت وإلى والى البصرة والى أمير حائل الذي يشعل الحرب القبلية في صحراء الهجرة شمال بئر الحفر ــ نزل القادمون إلى البئر وأناخوا وربطوا مطاياهم ووضع قائدهم سيفه على الأرض وجلس وتحلق حوله رجال القافلة تشوقاً لسماع الأخبار، وتم تحرير الخطابات وقدمت كميات ضخمة من التمر والقهوة وبعد ساعة رحل الركبان بعد أن انقسموا إلى جماعتين: إحداهما اتجهت إلى الحفر، والأخرى ذهبت إلى الكويت.

خرجت القافلة من وادي الصفا إلى وادي شيري ثم خيمت في وادي جو الثور وهنا استأذن المطيري في الذهاب، واختفى في الفلاة يحمل الضريبة التي جمعها من القافلة ومرتدياً ثوباً جديداً وتنفست القافلة الصعداء أن تخلصت منه ـ وفي يوم ١٠ مارس وصلت القافلة إلى الحد الفاصل بين الصمان ورمال الدهناء، فأناخت وتبين ضياع جمل أخذوا في البحث عنه طوال الليل، وفي الصباح تحركت داخل الصحراء الرملية الحقيقية والكثبان العريضة وصلت القافلة إلى الارطاوية يوم ١٢ مارس (٢٣ ربيع الأول) وأعلن ركبان الاستكشاف الذين يتقدمون القافلة عن تواجد أغراب لدى بئر الارطاوية فأسرع الباقون يشرعون أسلحتهم ويصيحون مما جعل الأغراب يفرون من عند البئر تاركين بعض الحمير فأخذت القافلة تلك الحمير معها لعلها تجد أصحابها في الزلفي ـ وفي اليوم التالي انفصل الفريق المتوجه إلى شقراء عن القافلة بينما استمر الباقون إلى وادي السبلة حيث توقفوا ـ وعند الغروب هبط اثنان من المراقبين يعلنان عن تواجد شيء يتحرك في السبلة فأمسك الدنمركي منظاره وبندقيته وصعد إلى قمة أقرب تل وشاهد شيئاً قاتماً يزحف على سهل السبلة وفي اتجاه القافلة ولكن هذا الشيء بدأ يتفرق إلى عدة أشياء منفصلة فعرف أنه عبارة عن ٢٣ بعيراً فأسرع رجال القافلة يسوقون الجمال إلى داخل المخيم وانتشر حملة البنادق وسط الوادي استعداداً للقتال واقترب الغرباء وصعدوا الصخور المحيطة بالوادي وخفتت الصيحات ترقباً لأول رصاصة تطلق، وبرز أول بعير للقادمين وبمجرد أن أبصر رجال القافلة المسلحين وبنادقهم مصوبة تجاهه حتى نزع عباءته ولوح بها فوق رأسه علامة السلام ووصل القادمون بأكملهم وجرى إعداد القهوة ولكن مظهرهم لا يبعث على الاطمئنان إذ أنهم يحملون أثقالاً وليس معهم عائلات ومسلحون جيداً ويصحبون قطيعاً من الإبل الشابة السمينة غير المسرجة إلى جانب الإبل التي يركبونها ـ كل هذا يعني أن القافلة التقت بواحد من أعتى قادة الغزو القادمين من جنوبي عنيزة والعائدين إلى بلادهم بعد حملة غزو في الدهناء حيث استولوا على هذا القطيع الرائع من الجمال واستشعر الدنمركي الخطر لأن القافلة نقص عدد رجالها بانفصال رجال شقراء صباح نفس اليوم وكذلك غياب القيادة القوية بغياب عبد العزيز الذي سبق إلى الزلفي لزيارة إحدى زوجاته المقيمة هناك ـ لم يمض وقت طويل حتى بدأ الهياج يتحول إلى شجار بين أحد اللصوص من قبيلة مطير

وأحد رجال القافلة وهو من عتيبة بسبب نقاش حول أي القبيلتين تملك الغزاة الأقوى وحول عدد الأنعام المسروقة في العام الماضي من مكان إلى آخر، وتطور النقاش إلى المفاضلة بين الاغتيال وسرقة الأغنام وتفرع إلى أمور أخرى مثل معارك العام الماضي بين القبائل، أو بتفسير أدق قضايا الدين ونشطت القرائح وجلجلت الأصوات عالية متحشرجة مصحوبة بإشهار البنادق، وكادت تنشب معركة لولا أن عاد زعيم اللصوص إلى رشده وعاد الفريقان إلى شرب القهوة، ومضى الليل في سلام مع تشديد الحراسة اليقظة.

استأنفت القافلة مسيرتها يوم ١٤ مارس (٢٥ ربيع أول) وانفصل عنها من يريد طريق بريدة واستمر الباقون إلى الزلفي لكي ينزلوا ضيوفاً على عبد العزيز قائد القافلة الذي سبق إليها في اليوم السابق ، وتم قضاء الليل في منزل عبد العزيز — وفي صباح اليوم التالي تحركت القافلة إلى وادي نقرة سلطان، ثم بستان الحامدية، ثم إلى الصحراء مرة ثانية حتى وصلت إلى واحة الشماسية حيث توقفت لسقي الإبل وملء القرب من البئر.

وفي يوم ١٥ مارس دخلت القافلة وادي الرمة، ليتجه فريق من القافلة نحو عنيزة ويستمر الباقون في اتجاه بريده، ولدى اقترابها من بوابة المدينة جاء أحد رجال أمير بريدة ليقودها.

لقد نقل رجال القافلة الذين سبقوا إلى المدينة أنباء وجود نصراني في القافلة فأثارت استفزازاً ضخماً في المدينة، حتى هرع بعض المتزمتين إلى أسلحتهم لولا أمير بريدة الذي يعلم جيداً أن الرحالة يسافر في حماية أمير الكويت وفي حوزته خطابات توصية إلى جميع أمراء نجد.

نزل الدنمركي ومعه عبد العزيز وعلى في ضيافه الأمير في القلعة، وخصصت لهم غرفة في مكان الضيافة شاركهما فيها رجل من طرف الأمير يدعى فهداً لحراستهما ومراقبتهما في نفس الوقت — ثم جاء مطوع الأمير — أو مستشاره الديني — واسمه مبارك — وحياهم بأدب جم وطلب من على أن يخرج معه، وبعد برهة عاد ليعلن أن الأمير يريد مقابلتهما فخرجوا إلى

السراى ومنها إلى قاعة اجتماعات الأمير حيث أخذوا مجلسهم إلى جواره على الأرض المفروشة بالحصر والسجاجيد ـ كان الأمير فهد بن معمر رجلاً متوسط العمر لا يميزه عن الآخرين أي شيء ـ أخذ يسأل الدنمركي : من أنت؟ من أين أتيت؟ ولماذا أتيت إلى نجد؟ هل معك أية كتب؟ هل أنت انجليزي؟ هل تعرف والى البصرة؟ هل تلتقط صوراً فوتوغرافية؟ هل أنت طبيب؟ هل تجمع أحجاراً أو نباتات من البلاد؟ ماذا تبغى من ابن سعود؟ هل كنت في مكان ما هنا في القصيم حيث يوجد الذهب، هل تدون مذكرات في مفكرة؟ كم لبثت مع مبارك؟ ماأسم المكان الذي يوجد فيه الذهب في القصيم؟ كيف تجرؤ على الحضور إلى بريدة؟ لا يأتي نصرانى إلى هنا ـ فمن أرسلك؟ وغير ذلك واستمر الأمير في أسئلته وقتاً طويلاً يغيرها ويخلطها ويعدّلها لعل الدنمركي يقع في أي تناقض ـ ويبدو أنه لم يفتح رسالة مبارك التي توصيه به خيراً ـ ثم تحول الحديث إلى موضوعات أخرى فاستفسر عن الرحلة وخطتها فلما علم أن الدنمركي يرغب في الذهاب إلى عنيزة ثم الرياض ومنها إلى الاحساء اعترض قائلاً إنه لن يسمح بذلك، وعليه أن يعود إلى الكويت من حيث أتى فأخبره الدنمركي أن الأمر سيكون على مسئوليته شخصياً إذا خالف مباركا أو ابن سعود ثم أطلعه على الرسائل التي معه والموجهة إلى الرياض ـ ثم سأله عما إذا كان يحمل رسالة إلى أمير عنيزة فأجاب بالنفي فوعده بإعطائه خطاباً يقدمه لهذا الأمير ـ ثم أخذ الأمير يستفسر عن أخبار الحرب التركية الإيطالية في طرابلس (ليبيا) ثم سأل عليا عن مجريات الأمور في بغداد وأعطاه مجموعة من الجرائد العربية المطبوعة في القسطنطينية والتي تصل بانتظام إلى بريدة عن طريق المدينة، لأن الأمير مشترك فيها ـ ثم أخذهم فهد إلى حيث تناولوا الطعام فوق سطح القصر في صحبة رجلين من رجال الأمير ثم عادوا بصحبة فهد إلى غرفتهم.

وفي منتصف الليل جاء مبارك مطوع الأمير يسأل عليا عما إذا كان الدنمركي يحمل هدية للأمير ـ وكان الدنمركي قد تناقش مع أمير الكويت في هذا الموضوع ولكن حاكم الكويت أخبره أنه ضيف نفسه ـ أي ضيف حاكم الكويت وضيف ابن سعود وليس شيوخ نجد من يبيعون كرم ضيافتهم بالهدايا ـ غير أن أمير بريدة له رأي آخر في هذه المسألة ـ وقدم



الدنمركي مسدساً وذخيرته للمطوع مبارك ليوصلها إلى الأمير ولكن الأمير رفض قبوله بحجة أنه مسدس رديء وغير مزخرف فلا يستحق أن يكون هدية لأمير بريدة وتمت ترضية الأمير بإهدائه المنظار الذي كان الدنمركي ينوي أن يعطيه لأمير عنيزة (والذي أرسل يعلن رفضه دخول الدنمركي أرض بلاده).

كلف الأمير فهدا أن يصحب الدنمركي ورجاله إلى الرياض، وفي صباح ١٧ مارس (٢٨ ربيع الأول) تجهزت القافلة الصغيرة للسفر وقام الدنمركي وعلى بوداع الأمير وخرجت الجمال إلى الصحراء وفي صحبتهم بعض رجال من أهل الزلفي العائدين إلى بلدتهم بعد أن اشتروا بعض الأشياء التي لا تباع عندهم مثل روافع سحب المياه ــ خرجت القافلة إلى وادي الرمة وحرص الدنمركي على التقاط بعض الصور بالكاميرا المخبأة تحت العباءة وفجأة هبت ريح رفعت طرف العباءة حيث توجد الكاميرا فومضت أجزاؤها اللامعة في ضوء الشمس مما آثار دهشة أهل القافلة بل وهياجهم. واحتد النقاش بين الرجال حول أيسر الطرق الموصلة إلى الزلفي سالمين وزاد عناء رفاق الدنمركي ــ على وعبد العزيز ــ أن فهدا استطاع أن يكتشف نقاط الضعف لديهما فالأول مسيحي متنكر في اسم مسلم والثاني كان قد قتل أحد رجال ابن سعود منذ عدة سنوات فأخذ يبذل كل ما في استطاعته ليحطم روحهما المعنوية وخاصة عبد العزيز إذ ينتهز كل فرصة ويسأله عما ينتظره عندما يصل إلى الرياض ويقول لعلى إنه لا يعرف ماذا سيحدث له في الرياض. وأثناء السفر في الصحراء اختفى فهد فجأة فزاد قلق عبد العزيز وعلى وأخذا يلحان على الدنمركي أن يلغى رحلته إلى الرياض ولكنه رفض وعندما وصلوا الشماسية ليلاً وجدوا فهدا هناك وأمضوا الليل فيها بعد أن جلب فهد أرزاً ولحماً من لدى أميرها ــ وفي الصباح استأنفوا السير حتى الزلفى حيث نزلوا في بيت عبد العزيز وكانت فرصة للدنمركي لإعادة ترتيب المتاع: المذكرات اليومية والرسومات والخرائط والكاميرا فقد وزع هذه الأدوات في حقيبتين (خرجين) منفصلتين ليحملا فوق بعيره الذي يركبه حتى يضمن عدم ضياعها ــ ذهب عبد العزيز يطلب حراساً من أمير الزلفيي يصحبونهم إلى الغاط، ولكن الأمير رفض ــ غادرت القافلة الزلفي يوم ٢١ مارس (٢ ربيع الثاني) متجهين جنوباً وأثناء السير

لمحوا شخصين يركبان نحوهم فتوقفوا يترقبون ظهور آخرين ولما لم يظهر أحد ذهب فهد ليقابلهما فسلماه خطاباً ثم عادا أدراجهما، لقد كان الخطاب من أمير الغاط يأمر عبد العزيز ومن معه بألا يأتوا إلى الغاط وإذا أصروا على الذهاب فعليهم تحمل ما قد يحدث ولكن القافلة مضطرة إلى اللجوء إلى الغاط نظراً لنفاد الماء فنهض فهد وقد أحسّ بخطورة الموقف وذهب ليجهز لدخولهم الغاط وأثناء غيابه تمرد علي وعبد العزيز على الدنمركي وأصرا على عدم الذهاب إلى الرياض واقترح عبد العزيز العودة إلى الكويت ثم يرسل رسالة من هناك إلى الرياض يستفسر عن إمكان السماح لهم بالقدوم إليها، فإذا وصل الإذن سافروا من هناك، ولكن الدنمركي لم يعط موافقته النهائية على ذلك وأخذ يسوّف كسبا للوقت حتى يتم اجتياز المجمعة وبعدها يستطيع أن يقرر إما أن يتوجه من المجمعة إلى الصفا أو يخترق الصحراء إلى الاحساء.

وصلت القافلة إلى خارج الغاط مباشرة، حيث كان فهد في انتظارهم وضربت الخيام وزودهم الأمير بالطعام وفي اليوم التالي غادروا الغاط إلى جبل طويق ومنها إلى الرويضة ولما أصبحوا على مشارف المجمعة تقدم فهد ليجهز لاستقبالهم ـ نزلوا في منزل للأمير ملاصق لسور البلدة وزارهم الأمير عبدالله بن عسكر الذي أخذ يتحدث مع فهد حول الأمن في الطريق لأن رجلين قتلا منذ يومين بين المجمعة وجلاجل.

غادرت القافلة المجمعة يوم ٢٣ مارس (٤ ربيع الثاني) ومرت في طريقها بواحات التويم والحوطة والجنوبية والعطار ثم واحة العودة الصغيرة، حتى وصلت إلى ثاج حيث اضطرت إلى التوقف كي تغلف بالقماش الأدوات المعدنية من المتاع والمدلاة من الجمال حتى لاتحدث أصواتاً إذا ما اصطدمت بعضها البعض فينكشف مكان مرور القافلة بين الصخور ولكن الجمال لم تتوقف عن الرغاء وفشل الجميع في تكميم أفواهها ـ استمر المسير حتى ثادق وذهب فهد ليجلب حراساً من عند أميرها وعاد ومعه عشرون راكباً وبعد مسيرة يوم آخر وصلت القافلة إلى مشارف واحة حريملا.

تحركت من حريملا صباح يوم ٢٦ مارس (٧ ربيع الثاني) في اتجاه الجنوب حيث واحة



سدوس المحصنة جيداً بالأسوار والأبراج. وتسلل الحراس واحداً فواحداً إلى داخل البلدة تاركين الدنمركي ورفاقه وحدهم ـ وبعد الظهر وصلوا إلى وادي حنيفة الذي مازال يحمل دلالات النشاط التدميري لإبراهيم باشا ـ واستراحت القافلة في أطلال العيينة التي كانت منازل سامقة جيدة البناء وعند الغروب تحركت شرقاً من الوادي مع الحذر من الوقوع في فوهات الآبار المعطلة المتناثرة في كل مكان مروراً بواحة ملجه وواحة العلب فالدرعية حتى أصبحت على مقربة من الرياض فيترك فهد القافلة ويسارع ليبلغ الامام بقدومهم.

لكن أين الامام عبد العزيز؟ لقد قيل إنه شاب في الثالثة والثلاثين من عمره ـ وقد غادر الرياض منذ يومين متوجهاً إلى جهة الغرب على رأس جيشه كي يؤدب عربان عتيبة الذين نهبوا قوافله ـ إنه حاكم قوى وجندى جسور وفي نفس الوقت يحب الاستمتاع بملذات الحياة في حدود الشريعة ويتحدى التزمت. هذه المعلومات استقاها الدنمركي من أصدقاء الامام المخلصين مما جعله يشتاق لرؤيته ـ ولكن أخبار غياب الامام خارج الرياض أسعدت عبد العزيز (الخائف من دية الدم) ـ وعاد فهد ليقود القافلة إلى بساتين الرياض وقابلهم راكب في زي عربي كامل فحياهم باحترام ـ إنه أحد رجال الامام ـ وقادهم إلى بستان يقع خارج المدينة حيث نزلوا في بيت من بيوت ضيافة الامام ـ والامام عبد العزيز لم يكن موجوداً فعلاً في الرياض وكان على الدنمركي أن يلتقي بوالده الامام عبد الرحمن عصر يوم ٢٨ مارس (٩ ربيع الثاني) وذهب مع رجاله يحيط به الحرس المسلحون إلى بستان نخيل منعزل يحيط به سور قوي يبعد حوالي نصف كيلومتر شرق سور مدينة الرياض وساروا بين النخيل إلى براحة فرشت بالسجاجيد الفارسية واتخذوا مجلسهم على السجادة وبعد برهة دخل الإمام عبد الرحمن مع حاشيته من بين النخيل وبعد التحية اتخذ الجميع مجلسهم على السجادة متكئين على مخدات وجلس رجال الحاشية في مكان بعيد ـ ودار الحديث حول الكويت وحروب الإمام ومصالح انجلترا وتركيا في الجزيرة العربية والحرب التركية الايطالية، وأخيراً حول القوى النسبية للدول الأوروبية في آسيا وأفريقيا وتفوق انجلترا على الجميع ـ وفي نهاية اللقاء وعد الامام ضيفه الدنمركي بعمل اللازم لكي يلحق بقافلة متوجهة إلى الاحساء في اليوم التالي ـ وعندما عاد الدنمركي إلى بيت الضيافة التقى بقائد القافلة المتوجهة إلى الهفوف وعلم أن الإمام أمره بالمحافظة على ضيفه وأن يحضر



من الضيف خطاب تزكية بعد وصوله سالماً وفي المساء أرسل الإمام كميات ضخمة من الأرز والسمن تكفي لأربع رحلات على الأقل هدية لضيفه ورفاقه.

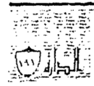
في صباح ٢٩ مارس (١٠ ربيع الثاني) حملت الأمتعة على الجمال وخرجت إلى الصحراء انتظاراً لقافلة الأحساء التي بدأت تخرج في جماعات صغيرة من بوابة المدينة يتبعها الصحاب والمعارف من أهل الرياض (لوداع المسافرين)، وتحرك الركب تجاه الشمال الشرقي ومروا بمضارب بني قحطان ثم العان حيث توقفوا حتى تكتمل القافلة المكونة من ١٧٥ شخصاً ـ منهم ٣٠ يركبون البعير ومنهم ٢٠ يحملون البنادق والباقون من المشاة الفقراء من غير ذوي الأمتعة ومسلحون بالسكاكين والعصى التي اصطادوا بها الضِّباب والفقع أثناء السير ومعظم هؤلاء من الشباب المتوجه إلى البحرين لصيد اللؤلؤ ـ أثناء الانتظار هذا جاء رجلان من رجال ابن سعود إلى المخيم وحيّيا الدنمركي بحرارة واستدعيا كل رجال القافلة ليتحلقوا حولهما وقام أحدهما بإلقاء خطبة قصيرة جيدة خلاصتها أن الدنمركي صديق ابن سعود، وأن أي رجل يجرؤ على إيذائه سوف يقتل ثم عاد الرجلان إلى الرياض ـ ثم غادرت القافلة العان صباح ٢٠ مارس (١١ ربيع الثاني) حتى وادي الشايب ثم العرمة ثم بئر العجفية وهي مصدر المياه الوحيد على الطريق بين الرياض والهفوف واستراحت القافلة بجوار هذه البئر ليوم ونصف يوم تسقى أغنامها وتمت صفقات بيع جمال بين القافلة وبني مرة وبني قحطان المقيمين في نفس المنطقة.

تحركت القافلة من العجفية يوم ٣ أبريل (١٥ ربيع الثاني) متجهة شرقاً وبعد ساعة وصلت إلى كثبان الدهناء العالية ـ تبدل سلوك عبد العزيز بعد الخروج من الرياض إذ أخذ يختلس الأرز والسمن الذي أهداه الامام عبد الرحمن لضيفه الدنمركي وأخذ يبذر في المياه وامتدت يده إلى اللحم المخصص لطعام الرحالة وفوق ذلك فقد تعرف بامرأة من بين المسافرين وأخذ يغدق عليها بكرم وشهامة مما يسرقه من مئونة الدنمركي حتى نفدت بكاملها ـ وصلت القافلة إلى الصمان يوم ٤ أبريل (١٦ ربيع الثاني) ثم الربيضة يوم ٥ أبريل وخيمت في وادي الشعاب وفي الليل اشعل الرجال المتوجهون للعمل في صيد اللؤلؤ ناراً عظيمة وأخذوا يرقصون حولها

ويغنون وفي أيديهم البنادق المشحونة بالذخيرة مما أدى إلى انطلاق الرصاصات كيفما اتفق في جميع الاتجاهات وأصبح المخيم مغلفاً بدخان البارود، تركت القافلة الشعاب إلى وادي فارق الكثيف الاعشاب وعندما خرجت منه إلى تلة رملية قابلتهم جماعة من راكبي الإبل فهرع كل انسان إلى سلاحه ودفعت دواب الأمتعة والنساء وكبار السن والأطفال إلى خلف التلة وتقدم حملة البنادق في اتجاه القادمين وأخذ صيادو اللؤلؤ ينشدون أنشودة حرب واندفعوا شاهرين سيوفهم وسكاكينهم مما جعل الجماعة القادمة تعلن إشارة السلام رغم تفوقها في عدد البنادق ــ وصلت القافلة إلى نائلة ثم وادي باب ثم رأس سيد حيث وجدت بقايا حيوانات وآثار معركة قريبة بين البادية والقوات التركية من الهفوف قتل فيها قائد البادية ودفن في تلة علي اليمين أصبحت القافلة على مشارف الهفوف وأمضت ليلة ٧ أبريل في وادي جو واستأنفت السير في الصباح إلى الهفوف مروراً بأول قشلة تركية وعبرت بوابة البلدة إلى الركن الشمالي حيث تقع مباني الحكومة.

نزل الدنمركي في أحد الأبنية الحكومية وهو في حالة إعياء تام وعامله الجنود الأتراك بعناية وكرم فائقين، بينما ذهب عبد العزيز وأخوه إلى منزل القوافل ــ قام بجولة في الواحة في صحبة عباس حلمى بك الحاكم العسكري للأحساء وتمتع بكرم ضيافته، وزار السجن الذي يضم اللصوص والقتلة وقد ثبتت الاغلال في أعضائهم ذلك لأن الهفوف وما حولها تغص بالعصابات التي تهاجم الواحة في وضح النهار وتسرق الأغنام والحمير والجمال وفي أوقات السوق بل طوال النهار يجوب الجنود الأتراك السوق ويعرف الجميع أن هذه الهجمات مصدرها الرياض التي لم تنس أن الأحساء تابعة لها.

تحدد رحيل الدنمركي إلى البحرين يوم ١١ أبريل (٢٣ ربيع الثاني) ولم يعلن شيء عن سفره حتى لا يتسرب النبأ إلى اللصوص فيخططوا لمهاجمته وفي الرابعة من مساء ذلك اليوم استدعى خمسون فارساً من الجنود الأتراك ليكونوا حرسا مرافقا له في رحلته ــ وصلت القافلة الجديدة إلى بلدة الحصول ثم الحفر حيث نزلوا ضيوفاً لدى شخصية عربية معروفة هناك.



وفي صباح ١٢ أبريل تحركت إلى الحيسا ثم رأس العلى حيث تناثرت بقايا معركة جرت بين عصابات البادية وقافلة من ٥٠٠ بعير كانت في طريقها من العقير إلى الهفوف وكان يحرسها الجنود الأتراك ورجال من القبائل ورغم ذلك فقد مزقت شر ممزق ونهبت أكثر البضائع وقتل الكثير من العرب والأتراك ــ وصلت القافلة إلى بئر أبي هيل ثم نخيل سواد ثم صعدت قمة كثبان تنحدر منه الأرض انحداراً شديداً تجاه مياه الخليج الزرقاء وتوجد تحت الكثيب مباشرة قلعة مراقبة تركية على مقربة من بلدة العقير ــ أمضت الجماعة ليلتها في القلعة التركية وعكف الأتراك على شرب الراكي (خمر) لدرجة فقدان الوعي وفي الصباح التالي ركب الدنمركي مركباً عربياً ذا شراع إلى البحرين بعد وداع حار من الأتراك.



الهوامش :

* كان فعلاً آخر رحالة أوروبي يعبر الجزيرة العربية على ظهر البعير وإن كان الكابتن شكسبير عبر الجزيرة عام ١٩١٤م (١٣٣٢هـ) على ظهر البعير وكذلك فيلبى عام ١٩١٧م (١٣٣٥هـ). فإنهما لم يكونا رحالتين بل كانا مبعوثين سياسيين من قبل حكومتيهما إلى الملك عبد العزيز، وسافرا في حماية الحراسة المسلحة وفي رعاية الملك عبد العزيز لإنجاز مهام سياسية في ظروف معينة بخلاف الرحالة رونكاير الذي جاء منفرداً في مهمة علمية وسافر في صحبة القوافل العادية التي تتولى حماية نفسها بنفسها ــ إلى أرجاء بعيدة في الجزيرة العربية ومجهولة له تماماً ــ يشاهد ويدون المعلومات الطبيعية والجغرافية والإجتماعية.

(١) من قبائل أهل العراق التي تعيش بين البصرة وبغداد ونظراً لتحسن العلاقات مع شيخ الكويت فقد توغلت إلى قرب أراضيه.

(٢) هو الشيخ مبارك بن صباح بن جابر بن عبدالله بن صباح من عنزة ــ ولد عام ١٢٥٤هـ الموافق ١٨٣٨م ــ تولى حكم الكويت عام ١٣١٣هـ بعد أن قتل أخويه محمداً وجراحا واستمر في حكم الكويت حتى وفاته ١٣٣٤هـ الموافق ١٩١٥م (الاعلام للزركلى) .



الكشف عن مدافن من خمسة آلاف عام في جنوب الظهران

للأستاذين:

عبد العزيز فهد النفيسة، عبدالله سليمان الهدلق

نبذة تاريخية:

كانت دراسة الجزء الشرقي من بلاد العرب والخليج العربي في مراحل عصور ما قبل التاريخ، مجالاً لعدد قليل من المؤرخين، كانوا يستندون على مادة تاريخية محدودة مثل كتابات بعض المؤرخين والجغرافيين الإغريق واللاتين، ومثل الشعر العربي القديم والروايات العربية المعتمدة على الأسانيد التاريخية.

وخلال الفترة الواقعة بين ٣٠٠ قبل الميلاد و ٢٠٠ ميلادية قام الكثير من الكتاب والمؤرخين والجغرافيين والرحالة «الكلاسيكيين» القدامى، بتسجيل دراساتهم ومشاهداتهم، ومن أشهر من كتب عن منطقة الخليج العربي، أو الساحل الشرقي للجزيرة العربية، هما «سترابو وبليني» وقد نقلا عن أسلافهما ومن سبقوهما من الكتاب.

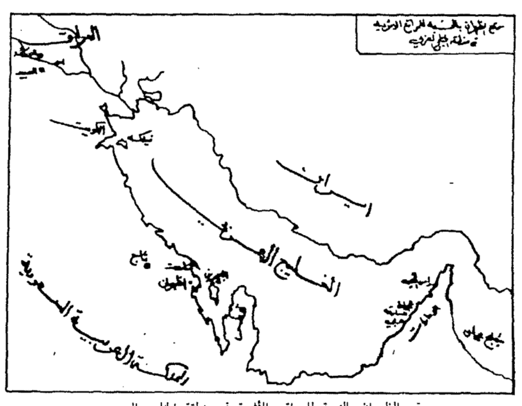
وحين ظهر عِلْم الآثار على مسرح المنطقة في الخمسينات من القرن الحالي، بدأت الاستكشافات والتنقيبات . تمد الباحثين بالمصادر الهامة، وتجيب عن بعض التساؤلات حول حضارة المنطقة في عصورها القديمة وتمكنت البعثات من التنقيب في أجزاء كثيرة من منطقة الخليج.

وقد أثبتت الدراسات الأولية أهمية هذا الجزء من الناحية الأثرية والتاريخية. (أنظر خارطة رقم «١» التي تبين موقع الظهران بالنسبة للخليج)، فلم يكن حقل المدافن في جنوب الظهران معروفاً حتى تم اكتشافه في عام ١٩٤٠م حيث قام الباحث كورنول (CORNWALL) بوصف هذه المنطقة أثناء عمله في منطقة مدافن البحرين، بأن أهم موقع في بلاد الإحساء عموماً هو الظهران وما جاورها، حيث يوجد آثار بناء حجري مدوّر عظيم، تعلو سطوح منحدراته الخارجية آلاف المدافن، من النمط الذي يرجع إلى العهد «البرونزي».

وخلال الفترة الواقعة ما بين عام ١٩٤٠م ـ ١٩٧٥م ألقيت بعض الأضواء على منطقة المدافن في جنوب الظهران؛ حيث تم العثور على عدد كبير من المخلفات الأثرية.

وخلال عملية إنشاء مطار الظهران الدولي ١٩٦٠م تعرض هذا الموقع إلى إزالة عدد كبير من المدافن «التلال» الأثرية.

وفي عام ١٩٦٢م قام بيبي (BIBBY) من البعثة الدنمركية بإجراء مجسات، أسفرت عن الكشف بالتشابه الحضاري، والتزامن



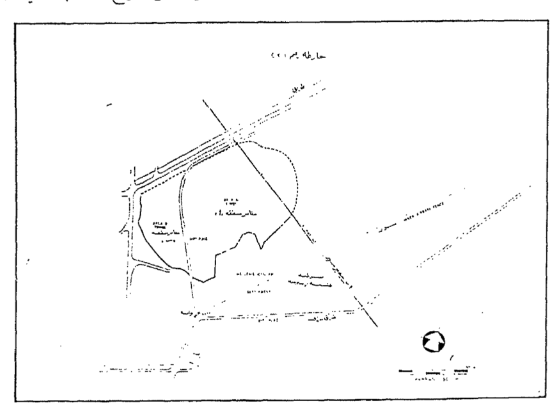
موقع الظهران بالنسبة للمواقع الأثرية في منطقة الخليج العربي.

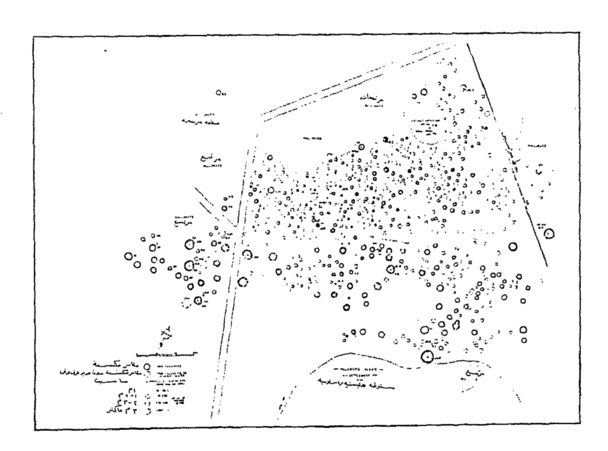
التاريخي، مع المدافن في البحرين في الجهة المقابلة من الخليج العربي.

وفي عام ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م قام فريق الإدارة العامة للآثار والمتاحف بعمل مجسات، أطلق عليها «مشروع مسح الألف الثالث قبل الميلاد»، وتم اختيار عدد من المواقع، كان من ضمنها منطقة جنوب الظهران؛ حيث تم الكشف عن عدد من المدافن.

وفي عام ٢١٣٩٧هـ/١٩٧٧م قام فريق المسح الأثري التابع للإدارة بزيارة المنطقة؛ حيث قام بإعداد خارطة لمنطقة المدافن، وأجرى إحصاء تقريبي لعدد التلال كانت حصيلته ١٥٠٠ تل.

وفي عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م قامت الإدارة بعمل حفرية إنقاذية، لأكبر عدد من المدافن بعد أن أصبح الموقع مهدداً بالزحف العمراني، كذلك تم إجراء عملية إحصاء لتلك التلال كانت حصيلتها ٩٠٠ تل، وقد أمكن خلال هذا الموسم، الذي يعد الموسم الأول حفر وإنقاذ «٢٢» تلاً، كما أنه في هذا الموسم تم تقسيم الموقع إلى منطقتين « أ » في الجهة الشرقية من الموقع، و« ب » في الجهة





الغربية منه، انظر الخارطة رقم «٢ ــ ٣».

وفي الموسم الثاني ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م تم حفر «١٤» تلا من تلال المدافن وفي هذا الموسم اتبعت طريقة مغايرة لما كان متبعاً، حيث تمت عملية إبراز المدفن بكامله لمعرفة حقيقة البناء، واتجاه المدفن وأطواله وحجمه وإظهار الجدار الدائري (RING WALL) وتعتبر هذه الطريقة نموذجية، وقد تمت بالفعل وكان لها نتائج واضحة.

وفي الموسم الثالث ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م تم حفر «٩» تلال، وفي نفس هذا الموسم تم الانتهاء من منطقة « ب » وبعد الانتهاء من هذه المنطقة انتقل العمل بأكمله إلى منطقة « أ »، وفي هذا الموسم تمت عملية وترميم عدد من المدافن، وذلك لتكون نماذج مثالية للزائرين.

وصف عام للموقع الأثري :

تغطى التلال الأثرية في جنوب الظهران مساحة لابأس بها، قدرت بـ

(٩٠٠م × ١٤٠٠م)، وقد تم إحصاء تقريبي لتلك التلال في عام ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م، كما سبق أن ذكرنا، والذي كانت حصيلته ١٥٠٠ تل تقلصت إلى ٩٠٠ تل في عام ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

وبغض النظر عن تلال المدافن المنتثرة، وعلى مايبدو فإن تلك التلال تتواجد على ارتفاع مغاير لماحوله، ويظهر ذلك واضحاً بأن السكان القدامى اختاروا المواقع المرتفعة لدفن موتاهم؛ تجنباً لغرقها وانجرافها. وذلك ناتج عن الزحف العمراني لذلك الموقع.

فكان العمل في تلك المواسم الثلاثة الماضية يأخذ صفة الإنقاذ، وهدفه الحصول على أكبر قدر من النتائج العلمية والتاريخية واللقى الأثرية.

وفعلاً تم العثور على نتائج باهرة وعظيمة الأهمية، من حيث المعثورات المنقولة والثابتة.

التـــــلال :

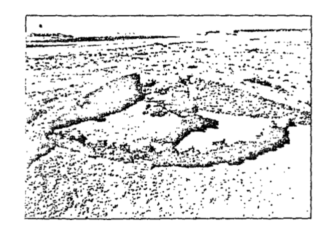
تبتعد التلال عن بعضها في المناطق الكثيفة من ٢ ــ ١٠م ويبلغ ارتفاعها من ١/٢م لتصل أحياناً إلى ٥م. ويتراوح نصف قطرها من ٢م إلى ٢٠م وغالبيتها مابين ٤م ــ ٨م.

وتتخذ التلال عادة شكل قبة، نتيجة لكيفية بناء المدفن داخلها والوضع الذي اتخذه الجدار الدائري، ولعوامل التعرية التي أعطتها سطحاً أملساً، تكسوه حجارة ملساء أيضاً، وتنبت فوق هذه التلال الأعشاب البرية، التي تستمد غذاءها من المواد العضوية الآدمية.

طريقــة الحفـــــر :

كانت الطريقة المستعملة في الحفر بأخذ مجس علوي فوق التل والنزول به حتى الوصول إلى غطاء المدفن (CAPSTONE) ثم فتح المدفن.

أما في عامي ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م و١٤٠٥هـ/١٩٨٥م فلقد استخدمت طريقة نموذجية، وذلك بتقسيم التل إلى أربعة أقسام متساوية، ثم الحفر في أحد أجزائه، ونقوم بتتبع الظواهر المعمارية للمدفن حسب امتداده، صورة رقم «١» مما يجعلنا في بعض الأحيان نقوم بتجسيد



صورة رقم «١» تل رقم ٢٢ب أثناء الحفر والكشف عن الربع الأول من التل.

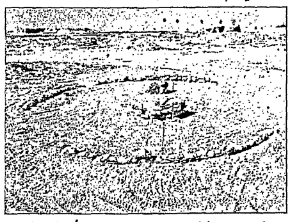
المدفن كاملاً، ثم نقوم بعد ذلك بفتح المدفن، وذلك برفع الغطاء الحجري ثم النزول في المدفن طبقة طبقة.

طريقة بناء المدافن :

يأخذ المدفن عادة الامتداد من جهة الغرب إلى جهة الشرق تقريباً، فبذلك تكون الجهة الغربية هي المدخل الرئيسي للمدفن، والدليل على ذلك وجود القرابين وبعض المدافن الكبيرة التي تمتاز بوجود عتبات ووجود هياكل عظمية آدمية كاملة، أما في الجهة الشرقية فتوجد كميات كبيرة من العظام المتراكمة فوق بعضها؛ وذلك مما يدل على أنهم استعملوا تلك المدافن لعدة فترات، وذلك بإزاحتهم للعظام القديمة، الموجودة في الجهة الغربية، ووضعها في الجهة الشرقية. لكي يتم وضع جثة جديدة، ويتراوح عدد الهياكل العظمية في المدافن الكبيرة من ٥٠ ــ ١٠٠ هيكل.

ومن الملاحظ أن البناء لتلك المدافن يتسع في قاعدته التي يصل عرضها إلى حوالي ١٢٠سم تقريباً، ويضيق في أعلاه عند الغطاء (CAP STONE) وذلك لكي يسهل وضع حجارة الغطاء وتكون الحجارة المستعملة في البناء مهذبة من الداخل، وقد استعمل الطين في الربط بين الحجارة ببعضها.

وبعض المدافن تمتاز بوجود غرف دفن جانبية تابعة للمدفن الرئيسي، ومدافن جانبية تكون عادة صغيرة وملتصقة بالجدار الدائري (RING WALL) الذي يحيط بالمدفن الرئيسي صورة رقم «٢».



صورة رقم «٢» التل ٢٧ب بعد انتهاء أعمال الكشف ويتضح المدفن المركزي وبقايا الجدار الدائري.

وتتخذ تلك المدافن خاصة المدافن الرئيسية عدة أشكال منها شكل (I.U.F.T.L.) وقد تصل إلى ثلاثة مدافن رئيسية في سور واحد.

«المعثــــورات» :

المدافن بشكل عام غنية بالمعثورات الأثرية، مع الأخذ في الاعتبار أن أيدي العابثين ولصوص الآثار لم تسلم منهم تلك المدافن، سواء في العصور القديمة أو الحديثة المعاصرة.

وأهم تلك المعثورات هي الأواني الفخارية، وأواني الحجر الصابوني، وسلال سعف النخيل المطلية بالقار، والأختام والحلى والمجوهرات، كالخرز والذهب والأسورة والخواتم) ورءوس السهام والرماح، والعاج والعظام، والمباخر والأصداف.

وبعد تصنيف هذه المعثورات، وعمل الدراسات اللازمة لها، وجدت أنها تتماثل مع ماعثر عليه في مدافن البحرين، وفيلكا بالكويت، وهذا دليل على الترابط بين مجتمعات الخليج العربي بشكل عام.

الفخـــــار :

الفخار من أهم ماعثر عليه، وذلك لتشابهه مع ماعثر عليه في مدافن البحرين.

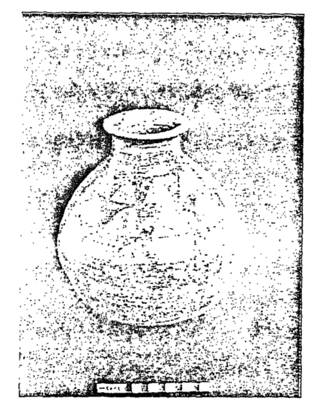
ومن أشكال تلك الأواني :

١ ـ الأنواع الخالية من الرسومات والزخارف.
٢ ـ الأواني ذات الشكل الكمثري.
٣ ـ الأواني ذات الحواف المرتدة.
٤ ـ الأواني ذات الفوهة المتسعة.
٥ ـ الأواني ذات العنق القصير.
٦ ـ الأواني المزججـة.

إن التشابه في المعثورات من الفخار خلال حفريات جنوب الظهران، لم يقتصر على ماعثر عليه في حفريات البحرين فقط، بل هنالك تشابه كبير مع ماعثر عليه في فيلكا بالكويت، وفي الإمارات العربية المتحدة وعمان، وإيران وفي تونس «سوسة» صور رقم «٣-٤-٥-٦-٧».

السلال المطلية بالقـار :

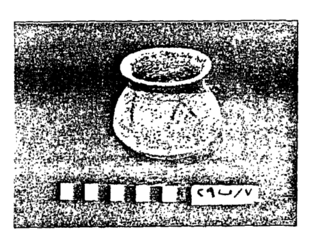
تم العثور على بعض السلال المصنوعة من سعف النخيل، والمغطاة بمادة القار من الداخل والخارج، لتأخذ شكلاً منتظماً،



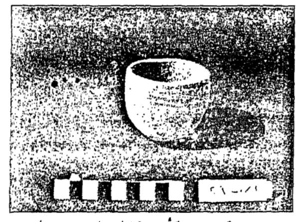
صورة رقم «٣» جرة فخارية ذات عجينة حمراء عليها رسوم هندسية وخطوط متعرجه.



صورة رقم «٤» جرة فخارية ذات عجينة حمراء وعنق ضيق ويلاحظ الحزوز والرسوم الهندسية عليها.



صورة رقم «٥» اناء فخاري ذو فوهة مرتدة.



صورة رقم «٦» كأس فخاري وتبدو عليه خطوط ورسوم هندسية.

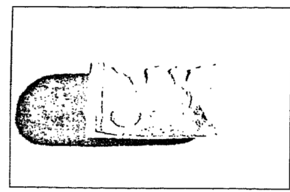
صورة رقم «٧» اناء فخاري اسطواني الشكل.

وليحول ذلك دون تسرب السوائل التي توضع بداخلها.

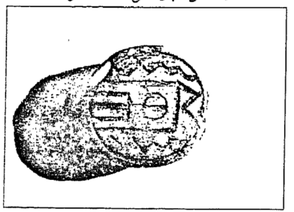
الأختـــام :

تعد الأختام من أهم المعثورات التي لها دلالتها التعبيرية الفنية والدينية، وكذلك وظيفتها التجارية، وهي من الناحية الحضارية أيضاً لها أهميتها الخاصة، كدليل أثري بالنسبة لتأكيد الاتصالات التجارية والحضارية بين المجتمعات الخليجية آنذاك، وذلك لأنها تعطى دلالات هامة عن تاريخ المنطقة، وتلقي الضوء على تاريخ الجزيرة العربية بشكل عام، ومنطقة جنوب الظهران بشكل خاص، وهذه الأختام تتشابه مع ماعثر عليه في البحرين وفيلكة، ولكن حتى الآن لم يتم العثور على انطباعات طينية.

ومن أهم الأختام أختام أسطوانية ودائرية، وأصداف بحرية وجعران صور رقم «٨-٩».

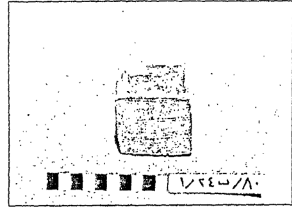


صورة رقم «٨» ختم اسلواني من الجص المحروق عليه نقش عبارة عن أسد غائر.

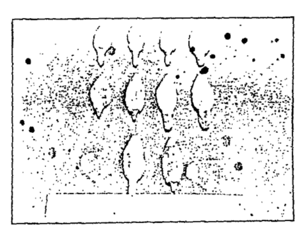


صورة رقم «٩» ختم دائري عليه نقوش حفر غائر قطره ١.٢سم.

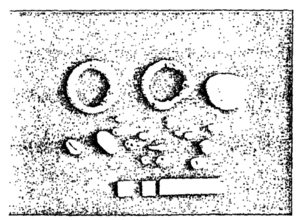
أما بالنسبة للحلى والمجوهرات، ورءوس السهام والرماح، والعاج والأصداف والمباخر، فهي تعود إلى فترات تاريخية، وتضم نماذج مختلفة صور رقم «١٠-١١-١٢-١٣».



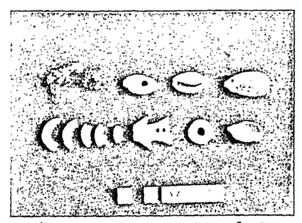
صورة رقم «١٠» مبخرة من الطين المحروق.



صورة رقم «١١» رؤوس سهام نحاسية.



صورة رقم «١٢» بعض أدوات الحلي والزينة.



صورة رقم «١٣» بعض من الصدف والعاج للحلي والزينة.

يظل الأمل معقوداً على ماستكشفه معاول الباحثين، مما تحويه هذه المدافن من كنوز ونفائس مستقبلاً.

■ ■ ■

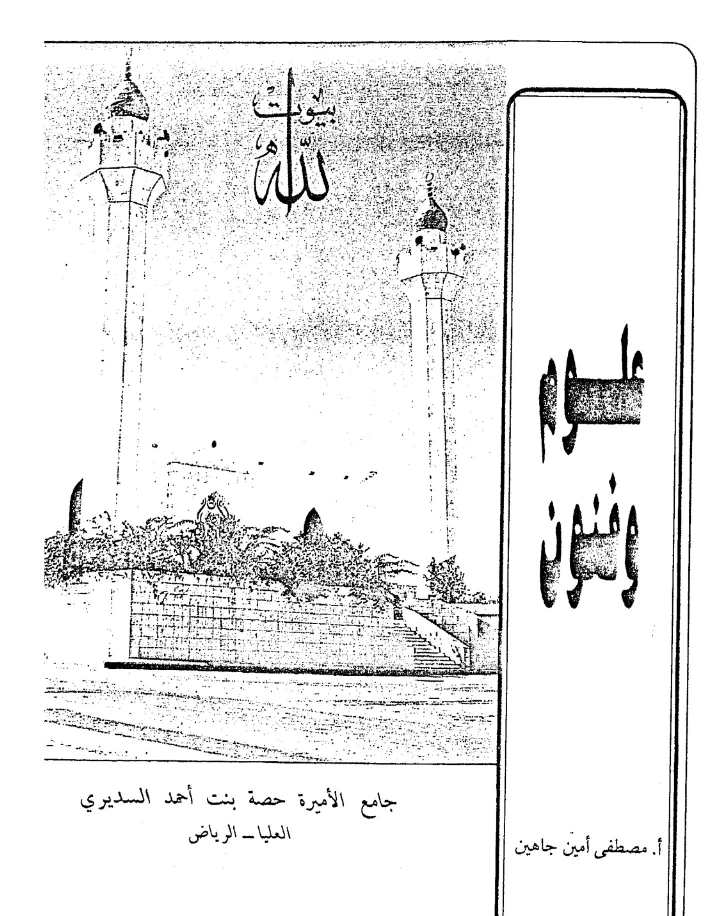
المراجع:

(١) حفريات البعثة العربية د/ معاوية إبراهيم.

(٢) منطقة الخليج العربي د/ سليمان سعدون البدر.

(٣) التقرير المعد من قبل الإدارة لعام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

(٤) المعجم الجغرافي «المنطقة الشرقية» حمد الجاسر.



علوم وفنون

أ. مصطفى أمين جاهين

جامع الأميرة حصة بنت أحمد السديري
العليا ـ الرياض



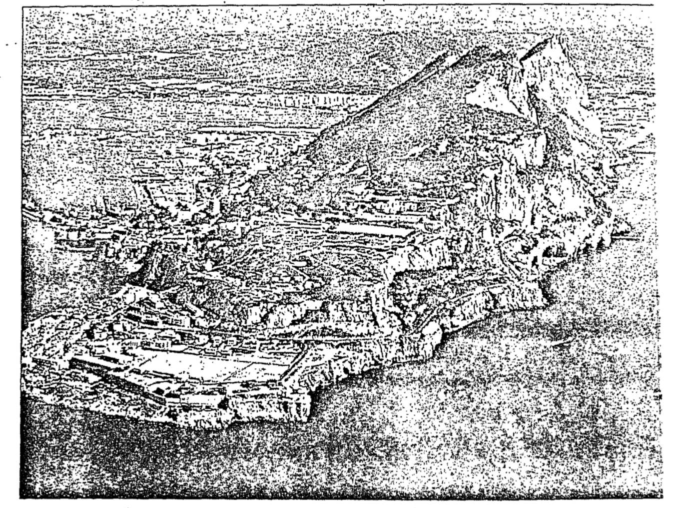
«جبل طارق» شبه جزيرة من الصخر الجيري تابعة لبريطانيا، وهي إلى الجنوب الشرقي من إقليم قادس الأسباني، وتكاد تكون في الطرف الجنوبي الأقصى لأسبانيا، وتمتد ثلاثة أميال من الشمال إلى الجنوب وأقصى مايبلغه عرضها ميلا واحداً، ومساحتها ميلان مربعان، وبها مدينة ومرفأ يحملان الإسم نفسه، وهما يسايران السفح الغربي، وهو أقل من الشرقي إنحداراً، وعدد سكانها أكثر من ثلاثين ألف نسمة من الأسبان والانجليز والمغاربة.

وجبل طارق مفتاح البحر الأبيض المتوسط، ويصله بالمحيط الأطلنطي، ولذلك حصن تحصيناً منيعاً، ولم تستطع سوى ثلاث أمم أن تستولى على هذا المضيق خلال تاريخه، وعلى طول ١٢٥٠ سنة.

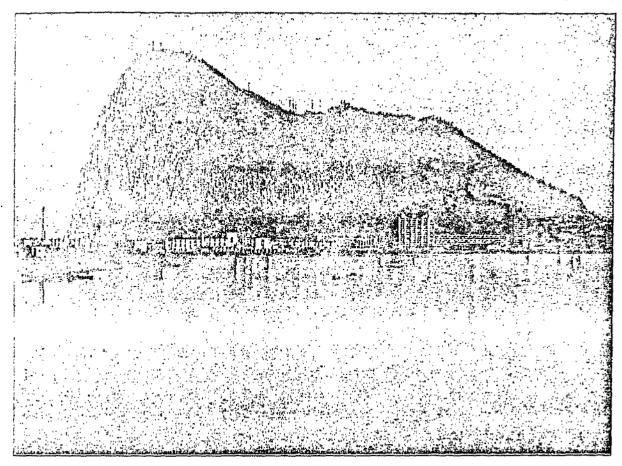
● تاريخه القديم ●

كان القدماء الذين يعيشون في حوض البحر الأبيض المتوسط ينظرون إليه على أنه آخر العالم القديم، وكان الإغريق يسمون الصخرة وجبل أبيلا «Mount Abyla» على الساحل الإفريقي «أعمدة هرقل»، وكانت هذه تحد نهاية فتوحات «هرقل» كما تقول الأساطير، وليس هناك ما يدل على أن قوماً كانوا يعيشون فيه ويستقرون إستقراراً تاماً، رغم أن التجار القدماء اتخذوا منه قاعدة في طرق تجارتهم.

في التاريخ



● جبل طارق من الجو ●



لقطة للجبل في المساء

وقد اجتاحت موجة من الفاتحين العرب هذا المضيق إلى أوربا عام ٧١١م ، بقيادة القائد «طارق بن زياد»، وأطلق اسم هذا القائد على الصخرة، فأصبح «جبل طارق»، وقد اشتق اسمه الحديث منه، إلا أنهم أيضاً لم يستقروا فيه تماماً؛ وأول مدينة معروفة في هذا المكان، أنشئت عام ١١٦٠م أنشأها الحاكم المسلم «عبد المؤمن»، وقد شيدت بهذه المدينة المساجد والقصور، وجداول مائية منظمة، ودفاعات جيدة التصميم .

وقد استولى الأسبان على «جبل طارق» عام ١٣٠٩م ، واحتفظوا به حتى استولى عليه الملك المغربي «أبو الحسن» عام ١٣٣٣م ، ولا تزال هناك بجبل طارق آثار مغربية ترجع إلى ذلك التاريخ .

وأخيراً غادر المغاربة المدينة في ٢٠ أغسطس عام ١٤٦٢م ، وكان هذا يوم القديس برنارد ، ومن ثم أصبح هذا القديس حامي المدينة ، وقد احتفظ الأسبان بالمدينة حتى عام ١٧٠٤م ، عندما ظهر البريطانيون على مسرح الأحداث .

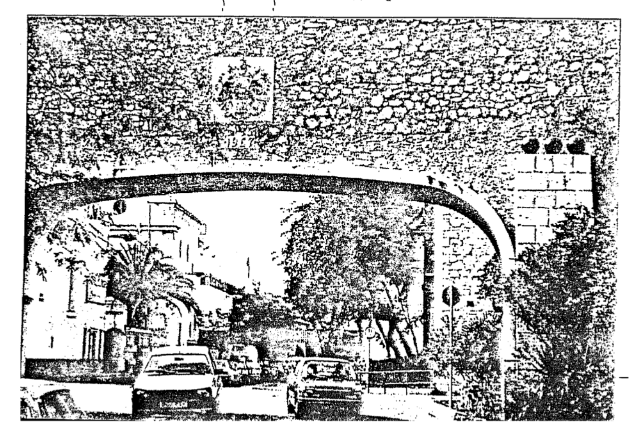
● مجيء البريطانيين ●

عام ١٧٠١م ، تحالفت بريطانيا مع هولندا، والنمسا ، والبرتغال والدانمرك، وبعض الإمارات الألمانية ، وكان هذا التحالف موجهاً ضد فرنسا وأسبانيا ، وسبباً في نشوب حرب الوراثة الأسبانية، وفي عام ١٧٠٤م ، ظهر السيد «جورج روك Sir George Rooke» نائب الأدميرال الإنجليزي في خليج جبل طارق مع الأسطول البريطاني الهولندي، وهبط إلى الساحل نحو ٢٠٠٠ من جنود البحرية البريطانية والهولندية وسلم الأسبان المدافعون عن الصخرة يوم ٢٤ يوليو ١٤٠٧م ، ومن ثم استولى البريطانيون عليها .

ولقد مضى بعض الوقت قبل أن يفقد الأسبان الأمل في استعادة الصخرة ، واستطاع البريطانيون مقاومة الحصار عدة مرات ، وكان أهم حصار هو ماسمى بالحصار الكبير الذي بدأ عام ١٧٧٩م ، واستمر ثلاثة أعوام ونصف ، وكان المحاصر هو الجيش الفرنسي والأسباني ، وكان عددهم يفوق القوات البريطانية وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي حاول فيها أحد أن يستولى على الصخرة من يد البريطانيين.

كان «جبل طارق» قاعدة بحرية عظيمة الفائدة خلال حربين عالميتين وأحواض السفن تعمل بأقصى طاقتها في إصلاح سفن بريطانيا وحلفائها .

● بوابة شيدت عام ١٩٦٧م ●



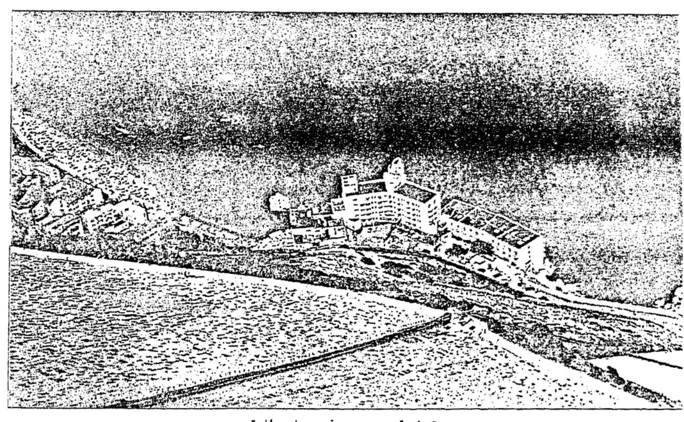
واحتشد الميناء بمئات من الطائرات في مطاره الذي شيد مابين الصخرة ومدينة «لالينيا» الأسبانية قبيل غزو الحلفاء لشمال إفريقيا وأجلى معظم السكان المدنيين عن جبل طارق أثناء الحرب العالمية الثانية فغادروه إلى بريطانيا، مابين يوليو، ونوفمبر ١٩٤٠م .

● جبل طارق اليوم ●

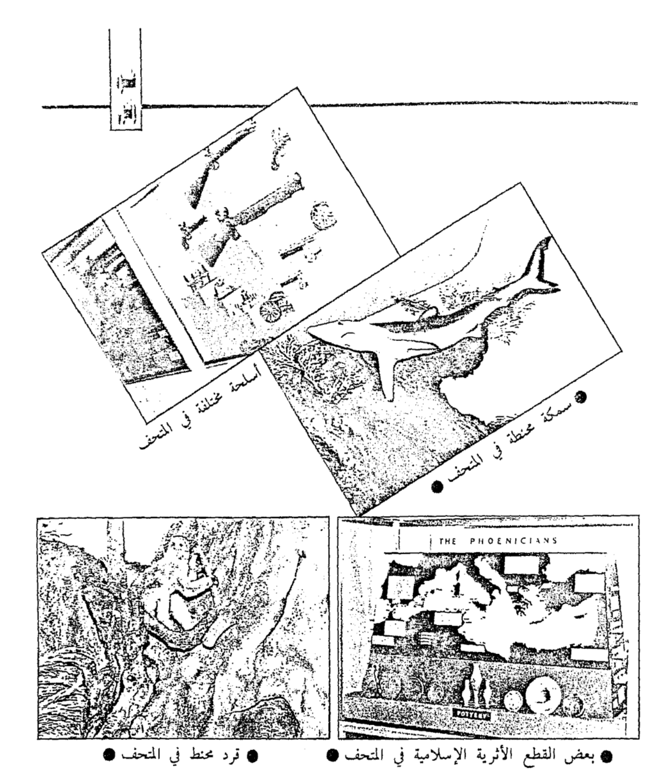
جبل طارق اليوم مستعمرة بريطانية مزدهرة ، ذات مرفأ وأحواض جافة، وخط طيران يومي منتظم من لندن وإليها ، وهو أيضاً قاعدة بحرية ، وحربية ، وجوية .

وقد حلت مشكلة المياه بإنشاء مناطق تجمع مياه فوق قمة الصخرة تتجمع فيها مياه الأمطار ، وتخزن داخل الصخرة ذاتها ، كما يقطر ماء البحر ، ويستخدم في بعض الأغراض .

كما تم حفر أنفاق في الصخرة ، شيدت بداخلها مخازن ، وورش ، وصهاريج زيت ، ومحطات قوى كهربائية ، بل ومستشفيات ؛ كما تم تشييد فنادق فاخرة ، ومطاعم ، ومتحف يحتوي على بعض الآثار الإسلامية والأسلحة والذخائر الإنجليزية ، والأسماك والقردة المحنطة وغير ذلك من المباني الضخمة الحديثة .



● فندق حديث في جبل طارق ●



أسلحة مختلفة في المتحف

● سمكة محنطة في المتحف ●

● بعض القطع الأثرية الإسلامية في المتحف ●

● قرد محنط في المتحف ●

كما أن قردة جبل طارق تعيش بين الناس في الشوارع وعلى سفح الجبل ، وقد أتخذ القرد شعاراً للجبل ، وتقول الأسطورة إذا غادرت القردة جبل طارق ، فسيغادرها الإنجليز .

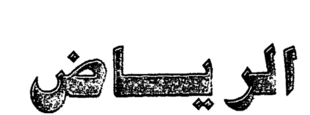
● ● ●

المراجع :

١ ـ دائرة المعارف الإسلامية ـ المجلد السادس .
٢ ـ المعرفة ـ المجلد الرابع عشر ـ اللجنة العلمية الاستشارية للمعرفة. بيروت ـ لبنان ـ ١٩٧٩م .
٣ ـ الموسوعة العربية الميسرة ـ دار نهضة لبنان للطبع والنشر ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٩٨١ م .

أحداث تاريخية

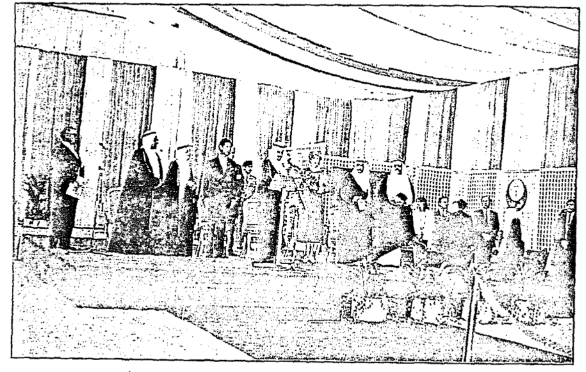




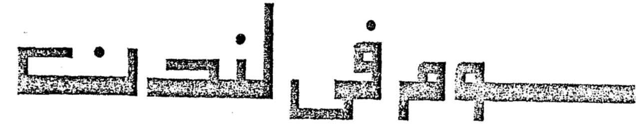


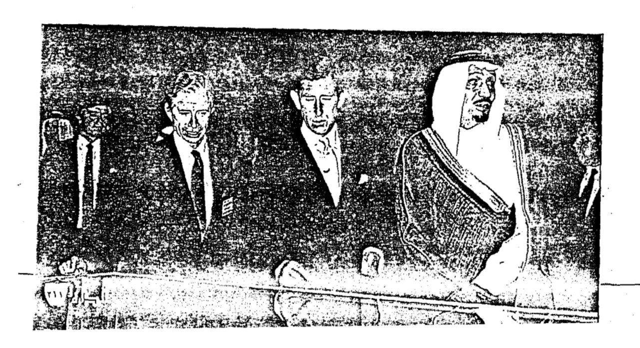
● الثلاثاء «٢١ ذو القعدة ١٤٠٦هـ ــ ٢٩ يوليو ١٩٨٦م» افتتح صاحب السمو الملكي الأمير سلمان ابن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض، بحضور ولي عهد بريطانيا أمير ويلز الأمير تشارلز وقرينته ديانا، وحشد كبير من المسئولين البريطانيين والسعوديين والجاليات العربية، معرض الرياض بين الأمس واليوم في لندن.

وبعد سماع آي من الذكر الحكيم، ألقى سمو الأمير «سلمان» كلمة أكد فيها أن أواصر الصداقة التي تربط بين شعبينا منذ وقت طويل، أصيلة أصالة الشعبين البريطاني



صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز وسمو الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا وقرينته في افتتاح معرض الرياض بين الأمس واليوم في لندن .



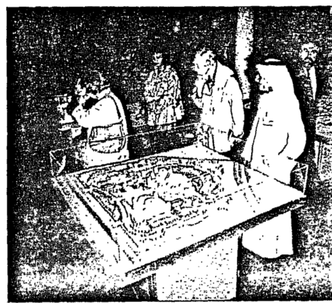


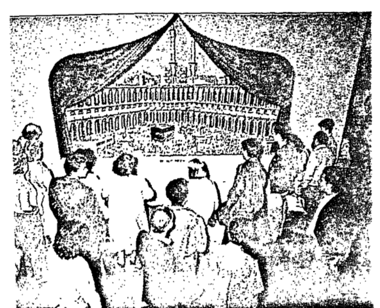


والسعودي ، وسوف تجدون في هذا المعرض الذي شاهدتموه نموذجاً مصغراً لمدينة الرياض التي سوف تسعد بزيارتكم ، وسوف تجدون شعبها صديقاً محباً مخلصاً أميناً صادقاً يستقبلكم بقلوب صادقة وتقدير عظيم .

وقد رد سمو ولي عهد بريطانيا بكلمة شكر فيها سمو الأمير سلمان، على كلمته وأشاد بمحتويات المعرض والمنجزات التي تحققت في المملكة .

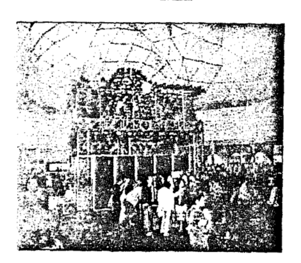
وعقب وداع ولي عهد

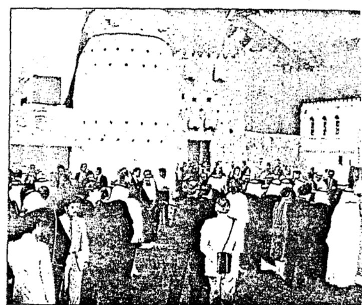


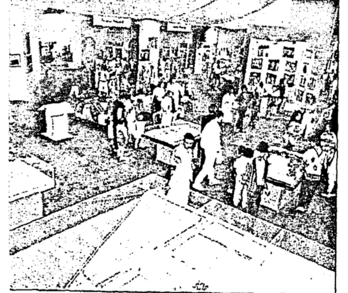




بريطانيا وقرينته وكبار الضيوف بدأ حفل الغداء للمدعوين ، ثم قام سمو الأمير «سلمان بن عبد العزيز» بجولة أخرى داخل المعرض، وخلال الجولة كان سموه يبدى اهتماماً صادقاً برجال الصحافة والإعلام من عرب وأجانب وتبادل معهم الأحاديث عن حضور تراث المملكة وتطورها وبهذه الصورة المشرقة إلى لندن من خلال معرض الرياض بين الأمس واليوم .





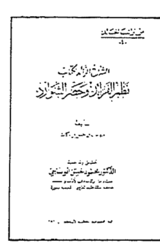




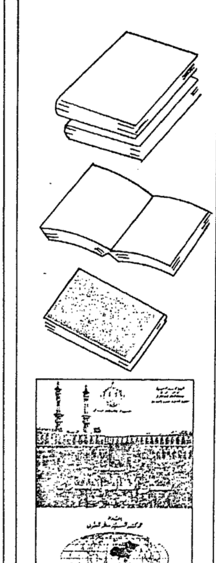
كتب حديثة



* التاريخ السياسي للكويت في عهد مبارك.
د. فتوح عبدالمحسن الخترش
٢٨٨ صفحة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ



* الشرح الرائد لكتاب نظم الفرائد وحصر الشوارد
تأليف: مهلب بن حسن بن بركات
تحقيق ومراجعة د. محمود حسن أبوناجي
٢٠٠ صفحة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ



* دراسات في سكان العالم الإسلامي
د. السيد خالد المطري
٦٧٠ صفحة ـ ١٤٠٥هـ
الناشر: جامعة الملك عبدالعزيز ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية.



* ملامح تربوية في الشعر الجاهلي والإسلامي
د. علي شواخ اسحاق الشعيبي
٧٢ صفحة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ
الناشر: دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع بالرياض.



* القشعم من كبريات القبائل العربية
د. علي شواخ اسحاق الشعيبي
٤٠٤ صفحة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ
الناشر: دار المعارف للطباعة

* عبث الوليد
«شرح ديوان البحترى ـ إملاء أبي العلاء المعري»
تعليق: محمد عبدالله المدني
٢٤٠ صفحة ـ الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ
الناشر: دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع بالرياض .



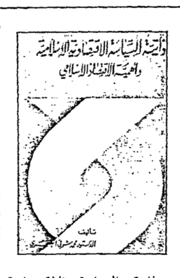
* سيكلوجية التنشئة الإجتماعية
د. عبدالرحمن العيسوى
٢٤٤ صفحة ـ ١٩٨٥م



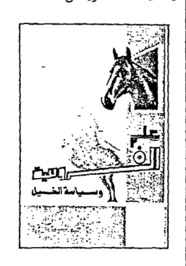
* المدخل إلى لغة الفورتزان
د. سالم أحمد سحاب
د. محمد يحيي عبدالرحمن
٢١٨ صفحة
الناشر: جامعة الملك عبدالعزيز ـ مركز النشر العلمي



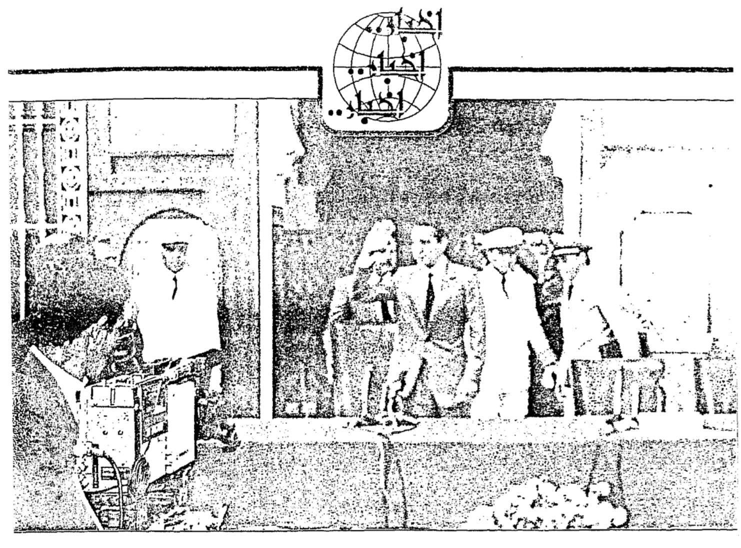
* «بريـدة»
ابراهيم بن عبد العزيز المعارك
الناشر: مؤسسة روابي وهطان ـ الرياض .



* ذاتية السياسة الإقتصادية الإسلامية وأهمية الإقتصاد الإسلامي
د. محمد شوقي الفنجرى
١١٤ صفحة ـ الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ
الناشر: دار ثقيف للنشر والتأليف ـ الرياض .



* علم الفروسية وسياسة الخيل
بكتوت الرماح الخازندار الظاهري
١٥٢ صفحة ـ ١٤٠٦هـ
الناشر: الحرس الوطني ـ الشئون الثقافية والتعليمية.



ولي عهد المغرب سمو الأمير محمد في حفل افتتاح موسم أصيلة الثقافي التاسع .

ولي عهد المغرب سمو الأمير محمد فى حفل افتتاح موسم أصيلة الثقافى التاسع

● السبت «٤ ذو الحجة ١٤٠٦هـ ـ ٩ أغسطس ١٩٨٦م» تفضل صاحب السمو الملكي الأمير «محمد» ولي عهد المملكة المغربية، بافتتاح موسم أصيلة الثقافي التاسع ، بحضور سعادة الأستاذ «محمد بن عيسى» وزير الشئون الثقافية بالمغرب، وكبار المسئولين. وقد ألقى سموه كلمة نوه فيها عن مواسم أصيلة الثقافية السابقة كما وضع حجر أساس فرع جامعة المعتمد ابن عباد في مدينة أصيلة، وقد حضر الحفل لفيف كبير من المسئولين والمهتمين بالثقافة من عدة دول . ،

● ● ●

العلاقات السعودية الألمانية في عهد الملك عبد العزيز

أ. د. هلموت مايشر

تلخيص وترجمة/ الأستاذ عبد السلام عبد المنعم

لم تحظ العلاقة السعودية ـ الألمانية إبّان عهد جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود بالتسجيل والتحليل الجديرة بها؛ إذ لم تتناول هذه العلاقة سوى فصول ثانوية في كتب تعالج موضوعات عن الرايخ الثالث الألماني والشرق العربي، أو هتلر والقضية الفلسطينية، أو ما كتب حول الامبريالية الألمانية في إنشاء خط حديد بغداد الجديد.

وعلى هذا فإن النصوص التاريخية المتعلقة بتحديد وتفسير مجال العلاقات السعودية الألمانية، عادة ما نجدها بعيدة عن البؤرة، هذا فيما يختص بالدائرة السعودية. كما أن المصادر والسجلات الوثائقية، أيضاً، قد تناولت الأحداث والسياسات بعيداً عن واقع محك الأحداث الخاصة بالسعودية.

ويمكن شرح هذه النتائج، إلى حد ما، على ضوء الحقيقة المعروفة التي تقول إن القضايا السياسية في الشرق الأوسط وفاعلية السياسة الخارجية قد استحوذتا على مناحي إقليمية أكبر ولكنها ذات نقاط بؤرية متباعدة. وفي الحالة هذه، فإنه بات من المؤكد أيضاً اعتبار أن العلاقة السعودية الألمانية برمتها قد وُجدت لفترة زمنية وجيزة في عهد جلالة الملك عبد العزيز ـ بيد أننا نجد مثلاً، معاهدة صداقة تتضمن شروطاً تجارية قد أبرمت في ٢٦ أبريل سنة ١٩٢٦م،

مع العلم بأن كلا من المفاوضات وتبادل التصديقات قد أجرى في القاهرة في ٦ نوفمبر. هذا، غير أنه منذ ذلك الحين لم يُسمع سوى القليل عن هذه العلاقة حتى سنة ١٩٣٧م.

وهنا بوسعنا أن نقول أيضاً إن السنتين التاليتين لهذا التاريخ، كانتا حافلتين بما يمكن أن نطلق عليه في وقتنا الراهن التودد السعودي الألماني والذي تمخض عن إرساء قواعد التمثيل الديبلوماسي الألماني في جدة في شهر يناير سنة ١٩٣٩م، ذلك التمثيل الذي ما كادت تمر عليه سبعة أشهر حتى جُمِّد لمدة خمس عشرة سنة ليُستأنف ثانية في شهر نوفمبر سنة ١٩٥٤م. والفترة التي سنتناولها هنا في بحثنا هذا، هي تلك الفترة من عام ١٩٣٧ حتى عام ١٩٣٩م.

١ ــ الشرق الأوسط ودوره في التجارة الألمانية والسياسة الخارجية في الثلاثينات:

يتفق المؤرخون بصورة واسعة على أن الملك عبد العزيز كان بارعاً، بل وذو مهارات خاصة في تكوين وموازنة العلاقات مع القوى الأخرى، وذلك بغية تأمين تأسيس الدولة السعودية.

ومن هذه الزاوية، بمقدورنا أن نَلْمَحَ روح علاقته المفاجئة والنشطة مع ألمانيا في أواخر الثلاثينات، والتي أخذت شكلها المنظم والمماثل لمحاولاته السابقة التي أنتهجها لكسب اعتراف واشنطن الديبلوماسي الكامل والتمثيل القنصلي. وهنا، قيل إن «الملك عبد العزيز قد وجه الأوامر بوقف شراء المركبات من أمريكا عن طريق الحكومة كنوع من الاحتجاج على رفض الولايات المتحدة إيفاد ممثل لها في جدة كاعتراف بحكومته». كان جلالة الملك مصراً إصراراً لا رجعة فيه على «أن يسبق العلم التبادل التجاري وليس العكس». وبهذا المعنى بدأت تُجري الاتصالات مع ألمانيا التي اعتبرت نفسها ــ قبيل استقرار السلطة في يد هتلر ــ كقوة ثالثة أخرى في الشرق الأوسط: في إيران وتركيا والعراق وأفغانستان.

وبطبيعة الحال، فإن الملك عبد العزيز لم يبن تصوراته بالضرورة، عن الدور الألماني في الشرق الأوسط، على تقييم مماثل للمصالح، ولا يمكن افتراض ذلك أيضاً من جانب رجالات الدولة في ألمانيا. لذا، ما الذي حدا بألمانيا بأن تعمل على اجتذابه نحوها؟ وما الأدوار التي يمكن لألمانيا أن تقدمها له «كقوة ثالثة»؟

في المجال التجاري :

تشير الإحصاءات التجارية الألمانية الرسمية خلال سنوات الحرب الكونية الثانية، أن بلدان الشرق الأوسط التي دخلت في علاقات تجارية مع ألمانيا انحصرت في تركيا ومصر وإيران وفلسطين (وفي سنة ١٩٣٧ دخلت أيضاً العراق وأفغانستان والسودان). وكانت التجارة مع أفغانستان والعراق والأردن وجزيرة العرب أي السعودية وعمان والكويت واليمن يطلق عليها، في العملية التجارية، «باقي آسيا».

وبشكل عام، فإنه منذ أوائل الثلاثينات فصاعداً، نرى أن العملية التجارية الألمانية في الشرق الأوسط استفادت من عاملين متحدين: أولهما السياسة المحلية لإيجاد وظائف، وثانيهما السياسة الشرق أوسطية الحقيقية في تطوير الاستيراد وتحديثه والتي تعتمد على تدخل الدولة في الشئوون الاقتصادية. وتدخل في إطار هذا المفهوم كل من تركيا ومصر وإيران والعراق. ووُضع كلّ من هذين العاملين بقصد التغلب على الآثار المحلية المترتبة على الانخفاض الاقتصادي العالمي وبناء اقتصاد قومي.

كانت المملكة العربية السعودية قد عانت بشكل ملموس وخطير، وإن لم يكن بشكل مباشر، من تلك الآثار الناجمة عن الفتور الاقتصادي إبّان تلك الفترة. وتمثل ذلك في الانخفاض الحاد في عدد الحجاج السنوي، مما تسبب عنه تدهور نسبة الدخول السنوية، الأمر الذي أقنع الملك عبد العزيز بأن على دولته الجديدة البحث عن مصادر تمويلية أكثر ثباتاً. ولا يحضرنا هنا سوى عدد قليل من الأرقام الإحصائية التي نعرضها بقصد الإيضاح. ففي عام ١٩٣٠م، كان عائد حكومتي الحجاز ونجد وملحقاتهما يقدر بنحو ٧,٢٢٣,٧٠٠دولار، الذي كان لا يتجاوز الدخل العائد من الحج منه ٢,٩٢٠,٢٠٠ دولار. وقدرت نسبة الدخول العائدة من رسوم الجمارك وكافة رسوم الضرائب الأخرى بنحو ٣,٠٠٠,٠٠٠ (ثلاثة ملايين دولار)، ١,٢٥٠,٠٠٠ دولار، على التوالي ولأنه كان يقدر ما ينفقه كل حاج أثناء فترة مكوثه في الحجاز بمائتي دولار تقريباً، ولأن عدد الحجاج كان يبلغ في السنة نحو ١٠٠,٠٠٠ حاج فإن دخل الحكومة من ذلك كان يقدر بنحو ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار سنوياً.

وعلى أية حال، فإنه في أعقاب فترة الفتور الإقتصادي العالمي، هبط معدل عدد الحجاج السنوي من ١١٦,٠٠٠ في سنة ١٩٣٠م إلى ٢٠,٠٠٠ حاج فقط في عامي ١٩٣٣، ١٩٣٤م ثم أخذ يتزايد العدد حتى بلغ زهاء ٥٠,٠٠٠ في عام ١٩٣٧م، ٤٨,٠٠٠ في عام ١٩٣٩م. وبات هذا التدهور الملموس في الدخول سنة تلو الأخرى ينذر بكارثة قد تُلحق بالدولة والمجتمع ككل. في الوقت الذي أصبحت فيه قوة الدولة الشرائية غير قادرة على مواجهة ما يقدر بنحو ١٣,٠٠٠,٠٠٠ إلى ١٥,٠٠٠,٠٠٠ دولار من الواردات السنوية، والتي كانت تقدر نسبة السلع الغذائية الضرورية والمنسوجات منها بنحو ٧٠٪. ففي عام ١٩٣٢م قام الأمير فيصل، وزير الدولة للشئون الخارجية يومئذ، بإجراء زيارات لكافة العواصم الأوربية الهامة، كما تم عقد المفاوضات في لندن بقصد الحصول على قروض مالية.

وفي برلين، حيث وصل الأمير فيصل بن عبد العزيز في ٢١ مايو عن طريق روما، بيرن، باريس ولندن، عقدت الآمال على تحسين أواصر العلاقات التجارية وإقامة علاقات ديبلوماسية بين البلدين.

وخلال جولته في أوروبا، يبدو أنه قد تم مناقشة تأسيس بنك مركزي بمساهمة كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ومصر.

وفي نهاية المطاف، فإن الملك عبد العزيز لم يجد مخرجاً لتلك الأزمات الاقتصادية إلّا عن طريق اللجوء إلى منح حق الامتياز لشركة الزيت بكاليفورنيا. هذا ولم تكن مبشرات العلاج العاجل لتظهر وتلوح في الأفق إلّا بعد أن اشترط جلالته أن يتم الدفع نقداً.. وكانت تلك هي البداية.

ومما هو جدير بالذكر هنا، أن نقارن قصة نجاح أرامكو بالكفاءة الألمانية الناضبة في سياستها البترولية في العراق المجاور إبّان تلك الفترة ذاتها. ومن هنا، يتضح لنا أنه كانت لدى جلالة الملك عبد العزيز أسباب اقتصادية حملته على رفض العروض البترولية الألمانية الخاصة، مع أن ذلك ينطبق بالمثل على العملية التجارية. ففي عام ١٩٣٧م، اجتازت التجارة الألمانية سنوات الفتور الاقتصادي حتى بدأت تبلغ أوجها في عام ١٩٢٩م. وفي عام ١٩٣٨م شهدت العملية

التجارية بين البلدين طفرة مفاجئة جعلت الصادرات الألمانية للشرق الأوسط ترتفع بمعدل أسرع يفوق، في حقيقة الأمر، صادراتها الإجمالية.

٢ ـ انفصال ألمانيا عن تطور النفط في الشرق الأوسط:

بعض القيود الإقتصادية والنواحي السياسية:

منذ ظهور الآثار المأساوية المحلية التي أفرزها الفتور الاقتصادي العالمي في أوائل الثلاثينات، فقد اعتبر الملك عبد العزيز اكتشاف وتصدير البترول من المتطلبات المطلقة لتمويل الدولة وتطوير اقتصادها، كما قام، أيضاً، جلالته بمنح حق الامتياز لشركات تحظى بأسواقها المتزايدة والرابحة والتي لاتفرض عليه شروطاً سياسية. ومثالاً لذلك شركة «كاسوك» Casoc التي منحها جلالته حق الإمتياز في أوائل الثلاثينات. (شركة كاليفورنيا للنفط).

وبالمقارنة، واضعين في الحسبان هذين المعيارين، فإن أي شركة ألمانية أو أي شركة متعددة الجنسيات وتخضع لألمانيا في نظامها، كانت ستعتبر نفسها بالتأكيد، على الأقل، طرفاً منافساً في مثل هذا العطاء. ذلك لأن الرايخ الألماني الثالث، بالإضافة إلى إيطاليا واليابان، كان من أكثر الأسواق البترولية المبشرة في تلك الفترة، ومرجع ذلك يعزى إلى تفوقه في صناعة السيارات والطيران ومجال التسليح.

ورغم ذلك، وكما تكشف الإشاعات التي سادت إبّان تلك الفترة عن الدوافع الحقيقية وراء زيارة «جروبا» لجدة في أوائل الثلاثينات، فثمة سوء فهم فيما يتعلق بسياسة ألمانية البترولية في الثلاثينات ولسوء الحظ، فإن الدليل الوثائقي لتقييم الملك عبد العزيز لهذه السياسة غير متوفر لدينا. وهنا بمقدورنا أن نجزم أنه ما من شك في أن الحكومة البريطانية كانت تحيك الدسائس والفتن من أجل إفساد العملية التجارية الخاصة بالألمان.

والشيء الذي يبدو أنه غاب عن ذهن الكثيرين من المراقبين في ذلك الوقت، هو أنه منذ منتصف الثلاثينات، أي وقت شروع هتلر في إعلان الحرب، أصبح للبترول والوقود قيمتها الفائقة من الناحية الاستراتيجية، للدرجة التي حتمت عدم تركه عرضة للسقوط تحت أيدي

لنفوذ الخارجي، ففي حالة نشوب حرب في أوروبا والبحر المتوسط مع بريطانيا كواحدة من لخصوم، فإن إمدادات النفط لألمانيا من الشرق الأوسط يصبح من غير الممكن الدفاع عنها. .

كان هذا هو مفهوم السياسة البترولية الألمانية السائد في أواخر الثلاثينات.

٣ ـ الازدواجية في صنع السياسة الخارجية الألمانية :

تسبب النظام الألماني المزدوج في صنع السياسة الخارجية بعد عام ١٩٣٣م في إيجاد أشكال من سوء التفاهم المتكرر إزاء الدوافع والأهداف الحقيقية المتصلة بعمل ألمانيا السياسي والديبلوماسي والدعائي في الشرق الأوسط. ثم جاء هتلر ليتولى السلطة في ألمانيا بالطرق الشرعية، ولكن بهدف تغيير الهيكل السياسي ككل.

في البداية، رأى هتلر أن يسمح لمكتب الخارجية الألماني بمواصلة أعماله نظراً للعجز الحاد في الكفاءات الشخصية بين رجالات حزبه لتعيينهم في هذا المضمار من جهة، ومن جهة أخرى لتأمين الثقة وإحراز الاعتراف الدولي.

لم يفتأ هتلر عن مواصلة جهوده في أن يأخذ الحزب الهتلري القومي مكانه تدريجياً ويبدأ في ممارسة الشئوون الخارجية للدولة وأقام الحزب مكتب سياسته الخارجية برئاسة «روزنبرج».

فيما يتعلق بالشرق الأوسط، وكما سنتناول بالشرح والتعليق في الفصل التالي، فإن السعودية تعرضت لتلك التجربة الألمانية في النظام المزدوج بطريقة خاصة، حيث كان على الملك عبد العزيز أن يتعامل مع فيرز ـ **أوتو ڤون هينتج** الذي كان مسئوولاً عن دائرة الشرق الأوسط في مكتب خارجية برلين وكذلك **فريتز جروبا** Fritz Grobba السفير الألماني في بغداد، الذي عيّن بعد ذلك كمبعوث في جدة، والذي كان مفتوناً بالفرص الجديدة التي كان من شأنها أن تعطي مزيداً من التقدم للسياسة الألمانية في الشرق الأوسط.

(٢) «المرحلة الساخنة» في المفاوضات السعودية الألمانية الخاصة بشراء الأسلحة وإقامة علاقات ديبلوماسية في أواخر الثلاثينات :

في فترة قبيل دخول الثلاثينات، وبالتحديد في خريف عام ١٩٢٩م، وقبل تبادل التصديق

الخاص باتفاقية الصداقة السعودية ـ الألمانية في القاهرة بفترة وجيزة، نقلت الصحف خبراً مفاده أن مجموعة من المدربين العسكريين الألمان قد يوفدون لمساعدة الملك عبد العزيز في بناء جيش حديث. وقبل ذلك بعام واحد، وبالتحديد في مارس سنة ١٩٢٨م، سرت إشاعات عن شحن ذخائر ومعدات حربية من «كيل» الميناء Kiel الألماني إلى جدة. ولو ساند هذا الزعم أي أساس من الصحة، فمعنى ذلك أن المفاوضات الأخيرة التي أجراها الملك عبد العزيز إنما تمت من أجل الصالح العام لتدعيم قوة دولته.

١ ـ مجرى الأحداث:

قد يكون من الممكن تعقب التاريخ الحقيقي لبدء المباحثات الألمانية ـ السعودية حول موضوع الأسلحة، والتي يرجعها بعض المؤرخين إلى تاريخ انعقاد اللجنة المفوّضة بتقسيم فلسطين برئاسة «بيل» Peel التابعة للحكومة البريطانية وقد مارست هذه اللجنة أعمالها في شهر يونية سنة ١٩٣٧م. هذا بينما يرجعها آخرون إلى شهر فبراير من العام نفسه، مشيرين لذلك بمصادر من مكتب الوثائق الخارجية الألمانية.

وطبقاً لما ورد على لسان الملحق العسكري للولايات المتحدة الأمريكية في برلين، فإن القائد «ترومان سميث» والذي يعد واحداً من الشخصيات البارزة في مجال التجارة الخارجية لصناعة الأسلحة الألمانية قد أوضح له أنه «خلال الأشهر الأخيرة فإن المراقبين الأوربيين قد لاحظوا اهتماماً مفاجئاً وظاهراً في عملية تسليح بلاد الشرق الأدنى. هذا كما أن تركيا قد استمرت لسنوات عديدة كمشتر ثابت للأسلحة الألمانية.

علاوة على ذلك، نجد أن كلًّا من أفغانستان وإيران والعراق والحجاز في الوقت ذاته قد قررت تحديث تسليح بلادها بدرجة مدهشة، لدرجة أنه لم يكد يمر أسبوعان دون أن نجد لجنة جديدة مفوضة من إحدى هذه البلاد تظهر في برلين. ففي تقرير سابق، وبالتحديد في **٢٥ مايو ١٩٣٧م**، وأثناء العرض الذي أقامه مصنع رينميتال للأسلحة الألمانية، ألمح الملحق نفسه أنه كان من بين الحضور ممثلين عن الحجاز. كما أوردت الصحف في ذلك الوقت روايات مماثلة عن تحديث الجيش العربي السعودي. وطبقاً للتقارير نفسها تأسست وزارة الدفاع تحت التوجيه

المؤقت لمستشار الملك عبد العزيز المالي عبدالله السليمان .

ومن وجهة النظر الألمانية، رأى المسئولون الألمان، لأول وهلة، أن الإتجاهات السعودية نحو ألمانيا بدت أقل حركة، ففي الخامس من نوفمبر سنة ١٩٣٧م، عقد الدكتور فريتز جروبا، المبعوث الألماني في بغداد، اجتماعاً مع الشيخ يوسف ياسين، سكرتير الملك الخاص. ومع أن المشكلة الفلسطينية قد غطيت أثناء المباحثات، إلّا أن النواحي العسكرية للثورة في فلسطين وطلبات الأسلحة لم تثر خلال الأجتماع. وبدلاً من ذلك، أخذ يوسف ياسين يؤكد على جروبا أهمية إقامة علاقات ديبلوماسية رسمية بين البلدين، كما نقل رغبة الملك عبد العزيز المجددة في أن يرى مبعوثاً سياسياً يتم إعتماده في جدة ويكون هناك تبادل في وجهات النظر في المسائل ذات الإهتمام المشترك.

علاوة على ذلك، فإن الدلائل الوثائقية أفادت بأن المسئولين في إدارة السياسة الخارجية للحزب النازي، حاولوا من جانبهم التأثير على الوسطاء العرب.

يبدو أن هذه العوامل كان لها دورها في إيجاد حلقة إتصال بين إدارة السياسة الخارجية في الحزب النازي وبين بعض رجالات الملك عبد العزيز البارزين من أمثال طبيب جلالته الخاص مدحت شيخ الأرض أو خالد القرقني. وقد أثار الأول سؤالين هامين خلال زيارته لبرلين في خريف سنة ١٩٣٧م. ويختص السؤال الأول بما إذا كانت الحملة النازية المضادة للسامية تستهدف العرب بالمثل. أما السؤال الثاني فكان يتعلق بطلب تسليم أسلحة إلى العربية السعودية. أما فيما يتعلق بالموضوع الأول، فيمكن إيعاز قلق الملك عبد العزيز إزاء ذلك إلى ماقامت به الدعاية البريطانية من دور في هذا الصدد. وربما كانت مناقشة الموضوع الثاني استمراراً لمحادثات بغداد سنة ١٩٣٧م. وهنا يلزم التنويه إلى أن ازدواجية السياسة الخارجية الألمانية قد لعبت دوراً في ذلك، الأثر الذي جعل جلالة الملك عبد العزيز يبدي اهتمامه بذلك التأخير في العلاقة. فعندما وصل خالد القرقني، وزير التجارة السعودي، إلى برلين في يناير سنة ١٩٣٨م فإننا نجده لم يتفاوض في موضوع تكثيف التعاون التجاري والاقتصادي فحسب، ولكنه أيضاً حاول دفع مسألة الحصول على أسلحة مشتملة على ٢٠,٠٠٠ بندقية وإنشاء مصنع خرطوش للبنادق .

وفي واقع الأمر، فإن اتفاقية صفقة الأسلحة، على مايبدو، كانت الغرض الأساسي لمهمة القرقني، رغم أن تلك الجهود لم تؤت ثمارها. وبات من الواضح أن مسألة التوسع في العلاقات التجارية وبخاصة ما يتعلق بصفقات السلاح كان يتطلب إقامة علاقات ديبلوماسية رسمية حتى يمكن ترتيب القروض الحكومية لتمويلها.

وحقيقة فقد اشترط جلالة الملك عبد العزيز، ببعد نظره المميّز واستشرافه العملي في حل المشكلات، هذا المطلب مراراً وتكراراً، بيد أنه قوبل بمكتب الخارجية الألماني الذي كان معارضاً له.

وبصفة أساسية، وكما أظهر سجل الإتجاهات الألمانية ـ السعودية، فإن قضايا العلاقات الديبلوماسية الرسمية وصفقة الأسلحة لم يكونا متصلين بشكل ضروري، ذلك أنه عندما زار وزير الدولة للشئوون الخارجية بالنيابة، فؤاد حمزة برلين في أواخر أغسطس سنة ١٩٣٨م كان لزاماً عليه أن ينقل ذلك إلى «ڤون هونتج» مع أن الغرض من مهمته الحقيقية ظل محل تكهنات.

وأخيراً، وعند نهاية عام ١٩٣٨م، وخلال مجرى المحادثات والمفاوضات التي تلت اعتماد أوراق الدكتور جروبا، كمبعوث ألماني في جدة، بدأ يتراءى للعيان أن مكتب الخارجية الألمانية طلب من المملكة العربية السعودية ثمناً سياسياً لذلك، بيد أن جلالة الملك عبد العزيز كان أفطن من أن يوافق على ذلك دون تحفظات.

ولفهم ما تضمنته المفاوضات ولتقييم وتحديد أهدافها الحقيقية ونتائجها، فإن إعادة بناء التعرجات الدبلوماسية كان لايكفي؛ فثمة ضوء يجب أن يلقى على المحيط الاقليمي والدولي للسياسة الحاضرة واعتبارات الأمان فيما يختص بالملك عبد العزيز والسياسة الألمانية حيال الشرق الأوسط.

٢) المخاطر القائمة وقتها:

أ ـ في الجانب السعودي:

في عام ١٩٣٠م، واجهت حنكة الملك عبد العزيز في إدارة شئوون دولته تحدياً يؤول سببه

إلى بعض المعضلات المحلية التي كان من بينها مشكلات الحدود، وكذلك التغيّرات في القوى المحركة الاقليمية. واستلزم ذلك الأمر، علاوة على المهارات الديبلوماسية الاستثنائية والمرونة قوة رادعة يعتمد عليها مثل القوة المسلحة للدولة.

كما أن العلاقات السعودية مع البحرين والكويت ولاسيما في المجال التجاري. تطلبت أيضاً فحصاً شاملاً. وكان للإشاعات المتعلقة بالمحاولات البريطانية الرامية إلى تشكيل تحالف بين بعض إمارات الخليج، دورها في تحريك دافع الإهتمامات السعودية الخاصة بحدودها الشرقية. وبينما نجد أن مثل هذه المسائل قد تصنع السياسة السعودية في الجانب الدفاعي، فإن أعمالاً أخرى كانت تتطلب من الرياض سياسة أكثر تقدماً، إذ كان عليها أن تتبوأ قيادة العالم الإسلامي بما أوتيت من شرعية الحفاظ على الأماكن المقدسة في مكة والمدينة. ولم تستطع المملكة العربية السعودية أن تنأى بنفسها عن مساندة الكفاح المصري من أجل الاستقلال (١٩٣٦م) ولا عن مساندة الكفاح من أجل فلسطين والقدس.

ب ـ في الجانب الألماني:

كان عام ١٩٣٧م بمثابة الحد الفاصل للسياسة الألمانية الخارجية، مع أن خطة «بيل» **Peel** في تقسيم فلسطين في عام ١٩٣٧م أثارت اهتماماً لدى الدوائر السياسية الألمانية في برلين، إلاّ أنها لم تمس صميم السياسة الألمانية الخارجية. أما فيما يتعلق بأهم الأحداث التي شهدها عام ١٩٣٧م فكان أولها ما أحرزته ألمانيا من وعي ذاتي في تبوء وضع لا يستهان به بين القوى العالمية داخل نظام دولي كان آخذاً في التفكك السريع، ولم يكن هذا الوضع ليتوافق وبصفة أساسية مع المصالح البريطانية.

كان غزو اليابان لشمال الصين، وداخل منغوليا، ثم فشل مهمة هاليفاكس **Halifax** في ألمانيا بغية التوصل لسياسات مشتركة في وسط وجنوب شرق أوروبا ثم تطور الحرب الأهلية في أسبانيا، كان لكل هذه الأحداث إضافة إلى نجاحات ألمانيا سنة ١٩٣٦م والتي تمثلت في التخلص من القيود المتبقية من نظام معاهدة فرساي، أثرها البين في وضع بريطانيا الأمبريالية دولياً في موقف الدفاع.

أما العنصر الأساسي الثاني في واقع الأمر، والذي جعل من عام ١٩٣٧م عاماً له أهميته هو أن إعادة التسليح الألماني قد بلغ أقصى طاقته الإنتاجية ثم إن عملية تحويل الإقتصاد إلى استعداد عسكري أدت إلى مشكلات عويصة في النقد الأجنبي ونقص في الواردات من المواد الخام .

لهذا كانت السياسات الجديدة في إدعاء «المجال الحيوي» في شرق أوربا، وإرهاق محيط الاكتفاء الذاتي الإقتصادي والتي رأت ضرورة جعل ألمانيا مستقلة عن السوق العالمي ، ولهذا أيضاً كانت زيادة تجارة المقايضة مع تركيا وإيران .

من هنا كانت الحرب هي الوسيلة الشرعية في نهج هذه السياسة؛ ذلك لأن نهج هذه السياسة بعينها كان من شأنه حماية وصون الكفاءة الحربية . وعلى عكس هذا الأساس يجب أن يتم تقييم مغامرات ألمانيا التجارية في الشرق الأوسط، ولاسيما فيما يتعلق بالمملكة العربية السعودية؛ ذلك لأن هتلر في عام ١٩٣٧م قد وقع في صدام مع سياسة بريطانيا الخارجية، الأمر الذي حدا به إلى التسليم بأن فكرة الحرب لا مفر منها. هذا، وبينما كان هتلر ينظر إلى منطقة الشرق الأوسط على اعتبارها موضعاً استراتيجياً ثانوياً يمكن توجيهه عن طريق الحليف الإيطالي، فإن صنع السياسة الخارجية الألمانية لم تكن، مع ذلك، معفاة من حماية المصالح القومية .

وعلى أساس هذه النقطة الحاسمة ارتكز النظام الألماني المزدوج في صنع السياسة الخارجية الألمانية في الشرق الأوسط وفي المملكة العربية السعودية واعتقدت إدارة السياسة الخارجية في الحزب النازي أن بوسعها قيادة تيارات القومية العربية، كما اعتقدت أيضاً أنه بات ميسوراً لها اجتثاث جذور الأمبريالية البريطانية في الشرق الأوسط عن طريق إرسال الأسلحة إلى العراق وفلسطين وسوريا .

ولذا، فإن تقدير ڤون هينتج لمهمة فؤاد حمزة في برلين في أغسطس عام ١٩٣٧م جاء ليؤكد توافقاً في الفكر. وأكد نائب وزير الخارجية السعودية على المغزى السياسي للقيودات التي مارستها القوة البريطانية في الشرق على دبلوماسية الملك عبد العزيز .

وكانت ملاحظة فون هينتج الشخصية التي تقول: «هنا أمامنا رجل، رجل عاقل وقور، رجل لا يأخذ بالنواحي اللحظية. والذي قد تكون له أهميته الحاسمة في القريب العاجل بالنسبة لنا» وهذا يكشف لنا في الحقيقة الحد الذي بلغه انقسام الرأي الألماني حيال سياسته في الشرق الأوسط.

ومع المعاقل التجارية المحصنة في تركيا وإيران، فإن القوة البريطانية، وشرايين المواصلات الامبريالية في الشرق الأوسط يمكن احتواءها عن طريق السعودية التي التزمت الحياد، والتي يمكن اتجاهها، حالة اندلاع حرب عظمى، إلى ألمانيا وذلك على سبيل نهج «حياد إيجابي».

وهذا في حقيقة الأمر كان الثمن السياسي الذي عمدت ألمانيا من خلاله لعقد صفقة أسلحة مع الملك عبد العزيز.

٣ ـ القيودات والنتائج :

لقد بلغت المفاوضات السعودية الألمانية في مجال التعاون الوثيق مرحلتها الحاسمة في النصف الأول من عام ١٩٣٩م حيث بدأت المحادثات التحضيرية في شهر فبراير بمناسبة زيارة الدكتور جروبا الأولى لجدة.

وكان اعتماد السفير الألماني في العراق كسفير لبرلين في جدة يعد نجاحاً ديبلوماسياً لألمانيا.

انحصرت لقاءات جروبا مع يوسف ياسين في ثلاثة اجتماعات ومقابلتين مع جلالة الملك عبد العزيز، وأوضحت التقارير المطوّلة التي أرسلها المبعوث الألماني إلى بلاده رأى الملك عبد العزيز ومستشاريه، الذين أعربوا عن استيائهم الشديد إزاء غطرسة وصلف بريطانيا في حضرموت، وعمان، وفلسطين، وكذلك حول قضية الاسكندرية. ولم ير جلالته خياراً آخر غير مسايرة تلك القوة التي كانت تحاصر أيضاً حدود المملكة العربية السعودية، كما أبدى جلالة الملك ومستشاريه وجهات نظرهم حول السياسة الإيطالية في الشرق الأوسط، بشكل تشوبه الحيطة والحذر. هذا مع أن العلاقة مع روما قد وصفت عامة بكونها علاقة طيبة وأقرب ماتوصل إليه جلالة الملك عبد العزيز كان تسليمه بمساورته الشكوك حول السياسة الإيطالية في

البحر الأحمر وأنه توصل لمعالجة هذا الموقف إلى ضرب بريطانيا وإيطاليا معاً. وفيما يتعلق بمستقبل التعاون مع ألمانيا أعرب جلالة الملك عبد العزيز عن استعداده بالتزام حالة الحياد الإيجابي حال نشوب حرب أوربية. أما عن الأمور التي طلبها من ألمانيا في المقابل فقد كان أولها الدعم المعنوي في حالة أي تدخل أجنبي في الشئوون السعودية عن طريق قوة ثالثة. أما المساعدة الثانية فكانت تتعلق بتسليح جيش بلاده حفاظاً على استقلاله.

ومع ذلك، فلم يحظ تفاؤل جروبا لما اعتبره نجاحاً لبعثته بقبول على وجه الإطلاق، لدى مكتب الخارجية في برلين. وراح الملك عبد العزيز يقارن الحياد الإيجابي بفهمه لكارثة أثيوبيا، فلم يأخذ برأي حاشيته عندما دعت بريطانيا وعصبة الأمم المتحدة إلى مقاطعة موسوليني. كان منطقه في ذلك، مع الأخذ في اعتبارنا أنه حامي الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، أنه لا يجب توريط دار الإسلام في مشاكل السياسات الدولية. وعلى النقيض من ذلك فقد بذل مكتب الخارجية الألماني كل مساعيه من أجل التوصل إلى تعهد سعودي يكفل التزام سياسة أكثر فاعلية في الحياد الإيجابي، حالة حدوث حرب. وتلت ذلك حلقة المفاوضات، وكانت حلقة المفاوضات التالية والحاسمة في منتصف عام ١٩٣٩ والتي أفتتحت بحادثة كان المقصود من ورائها شد انتباه العالم وذلك عن طريق إخراج عناوين رئيسة مبهرة لما يحدث في العالم مثل: «مساعي برلين»، و«ذئب الصحراء»، و«هتلر في طريقه إلى العرب» كان الترتيب الحاذق في استقبال هتلر لخالد القرقني في عودته من أُبيرسانربيرج في ١٧ يونيه قد سبقته رحلة ڤون هينتج الخاصة إلى الشرق الأوسط والذي توقف خلالها في بغداد، وكان المقصود من هذه الزيارة موافاة جروبا بالخط الذي ينتهجه مكتب الخارجية فيما يختص بمسألة الحياد السعودي.

وأخيراً، وفي محاولة لجذب الملك عبد العزيز الذي عرف بحرصه وحيطته لخط التفكير الألماني، فقد ووفق على منح خالد القرقني في ١٧ **يوليه ١٩٣٩م** صفقة أسلحة مكوّنة من ٨,٠٠٠ بندقية، بالإضافة إلى إقامة مصنع صغير لخرطوش البنادق في المملكة، كما تم إرسال ٤٠٠٠ بندقية كهدية للملك عبد العزيز ولإثبات حسن المعاملة.

أما عن حقيقة إسقاط الحكومة الألمانية كافة الطلبات في النهاية بقصد إعلان سياسة حياد إيجابي فعال كشرط لبيع الأسلحة، فقد تم شرح ذلك في فترة مؤخر ة، والذي كان الهدف من

ورائه رغبة ألمانيا في تقويم الفهم السعودي للاتفاقية الألمانية السوفيتية المبرمة في صيف عام ١٩٣٩م .

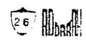
وحقيقة الأمر التي تبلورت مؤخراً أمام الديبلوماسيين الألمان أن سياسة الملك عبد العزيز لم تكن تؤدي إلى إثارة بريطانيا وإيطاليا ضد بعضهما البعض فحسب، ولكنها أيضاً كانت تؤدي إلى إثارة ألمانيا ضدهما في الشرق الأوسط . ولأن بريطانيا وإيطاليا كانتا تنتهجان سياسة المصالح الأمبريالية في الشرق الأوسط ، فقد كان من قبيل المحتمل أن يصلا إلى تسوية تلحق الضرر والأذى بالأراضي العربية ، كما كان الحال بين المصالح البريطانية والفرنسية في المنطقة، ويدل على ذلك إنفراج التوتر في العلاقات بين هاتين الدولتين ، الصادر في الثاني من يناير سنة ١٩٣٧م وكذلك في الإتفاقية الأنجلو - إيطالية في أبريل سنة ١٩٣٨م والخاصة بدائرة المصالح المشتركة في البحر الأحمر .

خاتمـــــة

كما أوضحنا آنفاً، فإن العلاقة السعودية الألمانية إبّان عهد جلالة الملك عبد العزيز قد أملتها بقدر كبير وبصورة مشتركة إعتبارات السياسة الإقليمية، ذلك أنه بينما كانت ألمانيا مقيّدة بنظامها المزدوج في صنع سياستها الخارجية، فقد حاول الملك عبد العزيز بشكل يفوق الحسبان استخراج تعهد محدد من برلين في مجالات العلاقات الديبلوماسية والإقتصادية والسياسية المشتركة، والتي كان يأمل من ورائها زيادة فعالية مناورته إزاء الإعتداءات والإنتهاكات البريطانية والإيطالية في المنطقة. وفي الواقع فإنه قد لا يكون مدركاً تماماً حقيقة أن ألمانيا في أواخر الثلاثينات، وبعزلها عن بترول الشرق الأوسط، وسياسة اقتصادها الذاتي، وانسحابها من عصبة الأمم ، قد آثرت فرض عزلة ذاتية ونهج سياسة دفاع قومي كمقدمة للحرب التي سعى إليها هتلر في أوروبا. ومن الناحية الأخرى ، فإنه من المؤكد أن يكون الملك عبد العزيز قد تفهم تماماً أنه لم تكن لدى ألمانيا سياسة شرق أوسطية محسوبة على الإطلاق. ومجمل القول أن الملك عبد العزيز بالتزامه سياسة الحياد هذه، قد أظهر حرصاً عاقلاً وحذراً غير عادي.

with King 'Abd al-'Aziz and was being considered a partisan of the British. The King, in fact, had told him (Grobba), that Germany should negotiate with nobody else than with Yussuf Yasin and Khalid al-Hud. Grobba to Undersecretary of state Woermann, AA. Baghdad 2.5.1939, D'ji-Nr. 101/39. PA: Pol.Abt. VII Deutschland/Saudisch Arabien (385515-21).

54. The exact wording in German read: "Da ich er Auffasung war, daβ von allen arabischen Verhandlungspartnern, die uns bisher hier besucht haben, Fuad Hamza der nuchternste ist, derjenige, der sich am wenigsten durch Augenblicksgesichtspunkte leiten laβt und vor allem spater einmal fur uns von entscheidender Wichtigkeit sein konnte, so habe ich ihn auch nach Rucksprache mit ministerialdirektor Prufer mit Viceadmiral Canaris in Verbindung gebracht." Canaris was head of the German Counter-Intelligence.
55. Grobba to Undersecretary of State Woermann, AA, 2.5.1939, Dji-Nr. 101/39, p. 3. The wording in German read: "Ich darf ausserdem daran erinnern, dass der Grund meiner Entsendung nach Saudisch-Arabien nicht nur die Anknupfung diplomatischer Beziehungen, sondern vielmehr die Schaffung einer Ausweichstellung fur mich im Falle eines Kriegs war."
56. s. Grobba to AA, 18.2.1939. Nr. Dji-44. PA: Pol.Abt. VII. Saudisch-Arabian/Deutschland. (385522-29). Consutlations with Yussuf Jasin on 12.2.1939, with King Ibn Saud on 13.3.1939, with Yussuf Jasin on 15.2.1939, with King Ibn Saud on 17.2.1939, with Yussuf Jasin on 18.2.1939.
57. Indicative of the importance, which was attached to this statement in Grobba's report is, that it was underlined by the Foreign Office. Cf. Anlage zum Bericht der deutschen Gesandtschaft in Djidda vom 18.2.1939, Nr. Dji-44. PA: Pol.Abt. VII (385535).
58. Ibidem.
59. Woermann (AA) to Grobba (Baghdad), 18.4.1939 P.A.: Pol.Abt. VII (385547-8).
60. Britain herself only halfheartedly observed the boycott. She continued supplying oil, lest her negotiations for purchasing Italy's shares in the British Oil Development Company in Iraq should break down.
61. s. Clive Leatherdale: op.cit., p. 182.
62. Daily Mail, 23.6.1939.
63. Albert Viton in: Asia, July 1939.
64. El-Misri, Cairo 27.6.1939.
65. On this occasion a personal letter from King 'Abd al-'Aziz was handed over. PA: Pol.Abt. VII, (E 590593, 385557-8).
66. Woermann to Grobba. 18.4.1939. PA: Pol.Abt. VII (385547-8).
67. The real motive for giving these arms as a gift had to do with credit restrictions. Germany tried to avoid setting a precedent for other states to demand similar credit facilities, as Germany was willing to offer them to Saudi Arabia. s. PA: Pol.Abt. VII. 1143 Saudi Arabien/Deutschland. Aufzeichnung Herrn von Hentigs, 1.7.1939.
68. Clive Leatherdale: op.cit., p. 309.
69. cf. Royal Institute of International Affairs (Ed.): Political and Strategic Interests of the United Kingdom. An Outline. Oxford 1939, p. 179f.



35. It has to be considered, however, that the B.B.C. did not inaugurate its Arab Service, which was very popular in the Middle East, until 3 January 1938. s. Callum A. Mac Donald: Radio Bari: Italian Wireless Propaganda in the Middle East and British Countermeasures 1934-38. In: Middle Eastern Studies, Vol. 13, No. 2 (May 1977), p. 203.
36. Grobba (Bagdad) an das AA, 20.1. 1938. Nr. 142 Wunsch Ibn Sauds nach Aufnahme diplomatischer Beziehungen mit Deutschland. PA: Pol.Abt. VII (385474-5). F. Grobba: Manner und Machte im Orient. p. 107.
37. s. Footnote 32: Memorandum: Saudi Arabien, p. 3 f.
38. Fuad-bey-Hamza, who visited Berlin on his way from Karlsbad to London, stressed the British factor in King 'Abd al-'Aziz's deliberations. Hentig was much taken in by Fuad-bey-Hamza, of whom he jotted down "that of all Arabs who had negotiated. . . (he) was the most sober one; the one who was least guided by momentary aspects and who might perhaps later on be of crucial improtance to us." Aufzeichnung, von Hentig, 27.8.1938. PA: Pol. Abt. VII (385489-91).
39. John S. Habib: Ibn Sa'ud's Warriors of Islam. Leiden 1978, p. 136ff.
40. A. J. Toynbee: Survey of International Affairs 1934. London 1935, p. 304ff. J.B. Glubb: The Story of the Arab Legion. London 1948, p. 203ff.
41. A.J. Toynbee: op.cit., p. 310ff.
42. Clive Leatherdale: op.cit., p. 221ff. See also F. Grobba (Bagdad) an AA., 4.7.1938, Report No. 1687, annex; Ibn Saud und der Vereinigungsplan der arabischen Furstentumer am Persischen Golf. PA: Pol.Abt. VII (385478).
43. For a background on the constitutional movement in Kuwait cf. Jacqueline S. Ismael: Kuwait. Social Change in Historical Perspective. Syracuse 1982, p. 77ff.
44. s. Ahmed M. Gomaa: The Foundation of the League of Arab States. Wartime Diplomacy and Inter-Arab Politics 1942-1945. London 1977, p. 12ff.
45. cf. Gottfried Niedhart: Deutsche Aussenpolitik und Internationales System im Krisenjahr 1937. In: Wolfgang Michalka (Hrsg.): Nationalsozialistische Aussenpolitik. Darmstadt 1978, p. 360-376.
46. Some British observers saw this tour as the beginning of the German challenge to their "Moment in the Middle East". s. Elizabeth Monroe: The Mediterranean in Politics. Oxford 1938.
47. See Clive Leatherdale: op.cit., p. 301.
48. G. Niedhart: op.cit., p. 362. Reference there is made to a study by H.-E. Volkmann: Aussenhandel und Aufrustung in Deutschland 1933 bis 1939. In: F. Forstmeier/H.-E. Volkmann (Hrsg.): Wirtschaft und Rustung am Vorabend des Zweiten Weltkriegs. Dusseldorf 1975.
49. cf. Dietmar Petzina: Autarkiepolitik im Dritten Reich. Der nationalsozialistische Vierjahresplan. Stuttgart 1968.
50. s. Footnote 48.
51. Concerning the dilemmas invoved for the German admiralty. s. Walter Baum und Eberhard Wichold: Der Krieg der "Achsenmachte" im Mittelmeer-Raum. Die "Strategie" der Diktatoren. Gottingen 1973.
52. s.p.
53. According to strictly confidential reports by Grobba to the AA, Fuad Hamza had lost standing

personal adviser to King Saud bin 'Abd al-'Aziz bin Abd ar-Rahman bin Feisal al-Saud.

21. Dr. Fritz Grobba, like von Hentig a career diplomat with a fairly wide experience of the Middle East, was probably because of his record as a free mason prevented from joining the Nazi establishment. On the impact, which nazism had on him, a report by the British Embassy at Baghdad observed the following: "He went on leave in 1935 for the first time for four years in order that he might get into personal touch with his new masters and acquire something of what he described as the 'atmosphere' of nazism. When he returned he was in many ways a changed man, clearly much impressed by all he had seen and heard and full of the breezes of Nuremberg. Since that time he has pursued a more forward policy than in the past." Report on Heads of Foreign Missions at Bagdad. F.O. 371/23314. PRO London.
22. Rigasche Rundschau, 27.9.1929. The newspaper referred to reports in the British "Daily Mail".
23. Hamburger Echo, 23.3.1928.
24. cf. literature listed in footnote 1.
25. Clife Leatherdale: op.cit., p. 301; L. Hirsowicz: op.cit., p. 33f.
26. The difference in emphasis on these dates, of course, also stems from the fact, that some of the studies do not clearly distinguish the issue of arms deliveries to the Palestinians (via Saudi Arabia) from the arms negotiations with King 'Abd al-'Aziz.
27. Quoted after M. Wolffson: op.cit., (unpublish MS), p. 7f.
28. Ibidem, p. 9.
29. Neue Zuricher Zeitung, 1.4.1937.
30. Grobba an das Auswartige Amt, 9.11.1937. Nr. 2633. PA (Political Archive of the German Foreign Office), Pol. Abt. VII. Saudisch Arabien/Deutschland.
31. Grobba in turn enquired, what King 'Abd al-'Aziz thought of having a Saudi envoy accredited at Berlin.
32. cf. Memorandum: Saudi Arabien. 23.7.1938. Von Herrn Osthus (APA) im Auftrag von Freiherrn von Harder ubergeben. PA, Pol.Abt. VII (385485-8), p. 2. The APA itself was also approached by pro-Hashemite Arab middlemen. In November 1937, for instance, the APA introduced to Grobba at Baghdad a certain young Sharif Seif ibn Nasir, who was the son of the commander-in-chief of King Ali of Hedjaz, who had tried to defend Jedda against King 'Abd al-'Aziz. Seif ibn Nasir, who had been brought into contact with the APA through an Arab merchant, apparently tried to win German sympathy, if not support, for a Hashimite led conspiracy against King 'Abd al-'Aziz. Grobba (Baghdad) an AA, 7.1.1938. Nr. 27. Geplanter Aufstand gegen Ibn Saud. PA, Pol. Abt. VII (385467-73).
33. Midhat Sheikh al-Ard was a Syrian from Damascus. Presumably the Germans were very cautious; cf. L. Hirszowicz: op.cit., p. 48. Khalid al-Hud al-Qarqani was a Tripolitanian and "notoriously pro-German" (cf. Clive Leatherdale: op.cit., p. 305). According to L. Hirszowicz: op.cit., p. 48, al-Qarqani, however had visited Warsaw for a similar purpose early in the 1930's. The fact, that by 1931 Saudi Arabia owed 30,000 pounds sterling to Poland may be evidence, that an arms deal had successfully been concluced on a loan basis. cf. Memorandum: Economic Situation in the Hejaz and Nejd and its Dependencies. s. Footnote 5.
34. M. Wolffsohn: op.cit. (M.S.), p. 16.

same author: The International Petroleum Carten (1928). Arab and Turkish Oil Aspirations and German Oil Policy towards the Middle East on the Eve of the Second World War. In: K.-J. Gantzel and H. Mejcher (Eds.): Oil, the Middle East, North Africa and the Industrial States. Paderborn 1984.

8. A major research project with reference to Turkey, Egypt and Iraq is currently conducted by Camilla Dawletschin at the Department of History in the University of Hamburg. See also: Dietmar Rothermund (Hrsg.): Die Peripherie in der Weltwirtschaftskrise: Afrika, Asien und Lateinamerika 1929-1939. Paderborn 1983.
9. Source: Memorandum, Economic Situation in the Hejaz and Nejd and its Dependencies, 27.1.1931 s. Footnote 5.
10. These figures are taken from Carl Rathjens: Die Pilgerfahrt nach Mekka. Von der Weihrauchstraße zur Olwirtschaft. Hamburg 1948, p. 105. They occasionally vary from the figures given in official Saudi statistics such as Basic Statistics on Hajj. Hajj Research Centre. Jedda 1978, s. Ulrich Fiedler: Der Bedeutungswandel der Hedschasbahn. Eine historisch-geographische Untersuchung. Berlin 1984, P. 269.
11. David Holden and Richard Johns: The House of Saud. London 1982, p. 107f.
12. Atherton (American Embassy, London) to Department of State, 7.3.1932. 890 F. 51/2. Sloan (A.E., Bagdad) to Department of State, 12.3.1932, 890 F. 51/3. Internal Affairs of Saudi Arabia. NA.
13. Nothing came out of this either, s. D. Holden and R. Johns(op.cit., p. 108. Also: W.M. Walmsley (American Vice Consul., Aden) the Secretary of State, 3.8.1932. 890F. 51/6 NA.
14. It is not quite clear, whether this project was ventilated during or immediately after the tour to European capitals. It seems that the Egyptian ex-Khedive had a hand in it. Walmsley to Secretary of State, 12.4.1933 890F. 516 State/3. NA.
15. s. Helmut Reichardt: Der deutsche Aussenhandel mit dem Orient 1938. In: Orient-Nachrichten 5, No. 6., 16.3.1939, p. 83ff.
16. s. Footnote 7.
17. cf. Wallace Murray, Division of Near Eastern Affairs, 2.8.1939. The Struggle for Oil Concessions in Saudi Arabia. FW 890F. 6363 Standard Oil Co./118. NA. In his memoirs Grobba underlines that he was not working for a German oil concession but instead supporting the Japanese to obtain one. Fritz Grobba: Manner und Machte im Orient. Gottingen 1967, p. 94f. There is, on the other hand, some evidence that rumours about alleged German oil interests were spread and made use of by the American oil lobby in its struggle for diplomatic support from Washington, cf. A.D. Miller: Search for Security. Saudi Arabian Oil and American Foreign Policy, 1939-1949. Chapel Hill 1980, p. 27f.
18. s. Footnote 7.
19. s. Meyer-Dornberg: Die Olversorgung der Kriegsmarine. Freiburg 1973.
20. Best evidence on von-Hentig's strong reservations against the Nazi establishment and especially the APA is a summary complaint drawn up by the Reichsleiter Rosenberg himself for submission to Hitler. Reproduced in von Hentig's memoirs: Mein Leben eine Dienstreise. Gottingen 1963, p. 481ff. After the war von Hentig became the Federal Republic's envoy to Indonesia. After his resignation from the Foreign Service in March 1954 he was until 1956 a

that Germany did not have a calculable Middle Eastern policy at all. By sticking to his version of a policy of neutrality he indeed showed remarkable circumspection and wise caution.

Footnotes :

1. cf. Lukasz Hirszowicz: The Third Reich and the Arab East. London 1966. Heinz Tillmann: Deutschlands Araberpolitik im Zweiten Weltkrieg. Berlin (Ost) 1965. This book by an East-German author stresses the continuity from Wilhelmkine Germany's policy towards the Middle East to that by the Third Reich. Suggestive of this thesis, although rather accentuating the Balkan countries is: The Fabian Society (Ed.): Hitler's Route to Bagdad. London 1939. See also: Albert Viton: Hitler goes to the Arabs. In: Asia. July 1939, p. 419-422. Some other well researched works on Hitler and the Middle East are: Mohamed-Kamal El Dessouki: Hitler und der Nahe Osten. Berlin (West) 1963. Bernd Philipp Schroder: Deutschland und der Mittlere Osten im Zweiten Weltkrieg. Gottingen 1975. With special reference to Palestine cf. R. Melka: Nazi Germany and the Palestine Question. In: Middle Eastern Studies 5, London 1969. Francis Nicosia: Arab Nationalism and National Socialist Germany, 1933-1939: Ideological and Strategic Incompatibility. In: Int. J. Middle East Stud. 12 (1980), 351-372. H.D. Schmidt: The Nazi Party in Palestine and the Levant 1932-1939. In International Affairs 28, 1952. On Saudi Arabia and her arms negotiations with Germany in the 30's cf. D.C. Watt: The Foreign Policy of Ibn Saud 1936-1939. In: Journal of the Royal Central Asian Society. London, April 1963. As a recent piece of Zionist propaganda may pass: Michael Wolffsohn: The German-Saudi Arabian Arms Deal of 1936 to 1939 Reconsidered. (The 1930s Dimension of an Issue of the 1980s). In: Uriel Dann (Ed.): The Great Powers in the Middle East, 1919-1939. New York 1984.
2. The negotiations and signatories were the German envoy at Cairon von Stohrer and the Saudi envoy Shejkh Fausan El Sabek together with King 'Abd al-'Aziz's personal adviser Shejkh Hafez Wahba. See : Deutsche Allgemeine Zeitung, 17.5.1929. Kolnische Zeitung, 2.5.1929. Islam Echo, Berlin, 1.6.1929.
3. Clive Leatherdale: Britain and Saudi Arabia 1925-1939. The Imperial Oasis. London 1983, p. 300-306.
4. s. Yves Famchon et Maurice Leruth: L'Allemagne et le Moyen-Orient. Paris 1957, p. 188.
5. Wallace Murray (Division of Near Eastern Affairs, Department of State) to Secretary of State, Washington, 27.1.1931. Enclosure: Memorandum: Economic Situation in the Hejaz and Nejd and its Dependencies. p. 3. National Archives Washington (NA). Records of the Department of State Relating to Internal Affairs of Saudi Arabia 1930-1944. Decimal File. 890F. 01/28, (Roll 1).
6. cf. Y.P. Hirschfeld: Deutschland und Iran im Spielfeld der Machte. Internationale Beziehungen unter Reza Schah 1921-1941. Dusseldorf 1980, p. 53-101. Also: Y. Famchon et M. Levuth: op. cit., p. 16f.
7. For a comprehensive treatment s. Helmut Mejcher: Die Politik und das Ol im Nahen Osten. Bd. 1: Der Kampf der Machte und Konzerne vor dem Zweiten Weltkrieg. Stuttgart 1980. By the



redressing Saudi disenchantment over the conclusion of the German-Sovient Non-Aggression Pact in summer 1939.[98] Be that as it may, the German gesture of an arms deal – which because of the outbreak of war in Europe in September 1939 never materialised – may as well have been a kind of signal to King 'Abd al-'Aziz, that Germany, in case of need would offer her good services to check Italian overbearence. As the latter powers both pursued imperial interests in the Middle East, they were likely to reach a compromise to the detriment of Arab lands as had been the case with British and French interests before. The Anglo-Italian detente as it had been effected by the Anglo-Italian Agreement of April 1938 on the mutual spheres of interest in the Red Sea area[99] testified to this fact. In other words, mastering the art of balancing power relationships in order to safeguard a measure of order for securing stability and survival, King 'Abd al-'Aziz with all his ingenuity had at a propitious moment tried to assign Germany a role on his chessboard of Middle Eastern politics.

Conclusion:

As was shown, the relationship between Saudi Arabia and Germany under the reign of King 'Abd al-'Aziz was mutually dictated in large measure by considerations of regional policy. While Germany, however, was restrained by her predominantly central European orientation and also clearly restricted by her 'dual system of foreign policy making', i.e. the infighting between the APA and AA, King 'Abd al-'Aziz energetically tried to elicit from Berlin a definite commitment in the fields of bilateral diplomatic, commercial and political relations. By it, he hoped to increase his maneuverability in warding off the British and Italian imperial encroachments. He may not always have been fully aware of the fact, that Germany, in the late 30's, by her dissociation from oil development in the Middle East, her economic policy of autarky and her withdrawal from the League of Nations had set on a course of self-imposed "isolation" and a "policy of entrenchment" as a prelude to the war in Europe, which Hitler sought. On the other hand, King 'Abd al-'Aziz surely must have sensed

delivery of "a large number of Mauser rifles" as well as for the construction of a cartridge factory at a preferential price.[58]

Grobba's optimism about what he considered to be a success of his mission was not shared at all by the Foreign Office in Berlin.[59] The crux of the matter was a consent on a clear determination of what positive neutrality should mean. Enclosed was a commitment to its full scope. King 'Abd al-'Aziz had compared positive neutrality with his approach to the crisis on Abyssinia. He had not followed suit, when British admonishments and appeals by the League of Nations called for an economic boycott of Mussolini's Italy.[60] His legitimization was, that as the custodian of the Holy Places of Mecca and Medina he should not entangle the dar-al-islam into issues of international politics.[61] In contrast the German Foreign Office and foremost von Hentig strove for a Saudi commitment to a more active policy of positive neutrality in case of war. The next and decisive round of negotiations in mid-1939 was inaugurated by an event, which was to produce glaring headlines aroud the world, like "Berlin woos 'The Wolf of the Desert'[62] or Hitler goes to the Arabs'[63] or 'Report about Herr Hitler and the Saudi Plenipotentiary'.[64] Khalid al-Hud's skillfully arranged reception by Hitler at his retreat at Obersalzberg on June 17th was however preceded by von Hentig's special trip to the Middle East, in the course of which he also stopped at Baghdad,[66] in order to bring home to Grobba the Foreign office line of thinking as regarded Saudi Arabian neutrality.

Finally, in an all out attempt of winning also the ever cautious King 'Abd al-'Aziz over to the German line of thinking, Khalid al-Hud on July 17th 1939 was "granted" an arms deal consisting of 8,000 rifles, 8 Mil. bullets, and the erection of a small cartridge factory. A special credit of 6 Mil. German Reichsmark was arranged. Furthermore, as a "gesture of goodwill" about 4,000 rifles were marshalled off as a gift to 'Abd al-'Aziz.[67] The fact that in the end the government at Berlin had dropped all demands for a declaration of active positive neutrality as a prerequisite for arms sales has recently been explained by a German desire of



course of "positive neutrality". This indeed, was the political price, which Germany asked for an arms deal with King 'Abd al-'Aziz.

3. Constraints and Results.

The Saudi Arabia - German negotiations for closer cooperation reached their crucial stage in the first half of 1939. A high level round of what may be described as preparatory talks took place in February on the occasion of Dr. Grobba's first visit to Jedda.

The accrediting of Germany's ambassador to Iraq also at Jedda was considered by Berlin as a diplomatic success of its own. In short, the position was regarded as a turn-out in case of major difficulties with the British at Baghdad and a cancellation of diplomatic relations.(55)

Grobba had altogether three meetings with Yusuf Yasin and two audiences with King 'Abd al-'Aziz. The lengthy reports(56), which the German envoy sent to Berlin, portrayed court advisers and a Saudi King, who revealed deep resentments against the arrogance of power displayed by the British in the Hadramaut, in Oman, in Palestine and over the issue of Alexandretta, but who saw no other choice than to try and get on with that power, which beleaguered also Saudi Arabia's borders. The King and his advisers were less outspoken about their views on Italian policy in the Middle East. The relationship with Rome was described as generally good. The nearest that King 'Abd al-'Aziz came to, was his conceding that he did harbour suspicions about Italian policy in the Red Sea and that he was tackling the situation by playing off the British and Italians against each other. Concerning the future cooperation with Germany King 'Abd al-'Aziz, presumably informed by Yussuf Yasin about Berlin's priorities, straightforwardly expressed readiness of promising an attitude of positive neutrality in case of a European war.(57) The things which he in turn requested from Germany were first moral support in case of any interference in Saudi Arabian affairs by a third power and second help with building up and arming his country so that it might maintain its independence. He did not beat around the bush that he was asking for

rather a side-show for strategies to be handled mainly by the Italian ally,[51] German foreign policy making was nevertheless not exempted from safeguarding national interests and approaching the Middle East in a constructive way concomitant with Berlin's more global strategy.

It was on this crucial point, where the dual system of German foreign policy making made itself felt on the Middle East and also on Saudi Arabia. The APA rather dilettantly thought that they could ride the waves of Arab nationalism. By sending arms to Iraq, Palestine and later on to Syria as well as by disseminating slogans, they thought they could erode Britain's imperial position in the Middle East.

In contrast, the AA and foremost von Hentig, who were too experienced in respect to the Middle East to have any illusions about the foundations of British imperial might and interests there, pursued a subtle policy of containment. To them the countries of the Fertile Crescent as well as Egypt were strongholds of British and French dominance in the Middle East. In view of Hitler's priorities for a central European German expansion, they considered that it would be futile and at best dangerously adventurous to undertake to unseat the entente's hegomony in the Middle East in the way, as the APA saw fit.

Therefore von Hentig's high appreciation of Fuad bey Hamza's performance in Berlin in August 1938 in a way testifies to a meeting of minds.[52] The Saudi deputy foreign secretary impressed upon von Hentig the political significance of the restraints, which British power in the East exerted on King 'Abd al-'Aziz's diplomacy.[53] Von Hentig's personal note, that here was a man ". . . the most sober one; the one who was least guided by momentary aspects and who might perhaps later on be of crucial importance to us"[54] is, indeed, revealing for the dichotomy which was developing between the Middle Eastern policies of the APA and the AA. Together with commercially well founded German strongholds in Turkey and Iran Britain's might and imperial arteries in the Middle East might best be contained by a Saudi Arabia, that was neutral and which, in the event of a major war, might even incline towards Germany by pursuing a



policy.(45) What was so decisive about the year 1937 was first the newly won German self-consciousness of having again attained world power status in an international system, that was mainly to the detriment of the British Empire, rapidly disintegrating. Japan's invasion of North China and Inner Mongolia; Italy's accession to the Anti-Comintern Pact on November 6, 1937; the failure of Lord Halifax's mission to Germany to find common ground for mutual policies last not least in central and southeastern Europe; the development of the civil war in Spain; all these events together with Germany's successes in 1936 of having thrown off the shackles that had remained from the Versailles treaty system put imperial Britain globally on a defensive. Germany's self-consciousness, nevertheless, was not Prometheus unbound. In fact the second component, which made 1937 a watershed, was that the German rearmament had reached the limits of its production capacity.(48) The transformation of the economy into a military economy geared to rearmament had let to severe foreign exchange problems and shortages of raw material imports. Hence the new policies of claiming "Lebensraum" in eastern Europe; of pegging out a sphere of economic autarky, which should make Germany independent of the world market;(49) of increasing barter trade with Turkey and Iran.(50)

War was now considered to be a legitimate means for pursuing this policy. In fact a largely dialectical process had been set in motion. For the pursuance of that very policy should also safeguard the capacity for war.

It is against this background, that Germany's stakes in the Middle East and, in particular, with regard to Saudi Arabia have to be evaluated. As Hitler, by 1937, had set on a collision course with British foreign policy, war with the British Empire could no longer be excluded. Still reluctant to precipitate a major clash, the Middle East nevertheless began to commend itself as an area, from which Britain's vital imperial links might be vulnerable or else a certain measure of containment of British power be feasible.

While Hitler himself, however, kept looking upon the Middle East as

late August 1938, he must have conveyed this at least to von Hentig of the AA, although his mission's true purpose had remained subject to speculation.(38) Finally towards the end of 1938 and in the course of the comprehensive discussions and negotiations following Dr. Grobba's accrediting as German envoy at Jedda, it emerged that the German Foreign Office demanded from Saudi Arabia a political price, which King 'Abd al-'Aziz was too shrewd to underwrite without reservations.

To understand the contents of the negotiations and to evaluate and determine their true aims and results a mere reconstruction of the menders of diplomacy is not sufficient. Light must be shed on the regional and international context of the immediate policy and security considerations as they concerned both King 'Abd al-'Aziz and Germany's Middle East policy making.

2. The Stakes at Play.

a. The Saudi-Arabian Angle.

In the 1930's King 'Abd al-'Aziz's statecraft was challenged by an extraordinary range of domestic issues, border problems and vicissitudes of regional dynamics. Appropriate response required not only exceptional diplomatic skills and flexibility but also credible deterrents such as armed state power.

Not enough, the urgency for a credible defence capacity was dramatically underlined by the Italian conquest of the Cyrenaica and Tripolitania, Mussolini's conquest of Abyssinia and further Italian encroachements in the Red Sea. Surely a scenario for dangers incumbent on a state and kingdom, that had only just been founded, could not have been worse. Therefore, pragmatism and armed watchfulness were the needs of the hour. King 'Abd al-'Aziz's approaches to the Berlin government testified to his diplomatic acumen, circumspection and resolution.

b. The German Angle.

The year 1937 constituted a watershed in Germany's overall foreign



campaign was aimed at Arabs as well and second, a request for arms deliveries.[34] As concerns the first topic, it is possible that King 'Abd al-'Aziz's worry may also have been caused by British propaganda.[35] Discussion of the second topic may have been in continuation of the talks at Baghdad in 1937. It has to be observed, however, that at Berlin the "dual system of German foreign policy making" became involved. The ensuing tug of war between the Foreign Office (AA=Auswartiges Amt) and the APA was mainly responsible for the zigzag proceedings of the Saudi-German negotiations in the months ahead. King 'Abd al-'Aziz was concerned about the retardation. When, in January 1938, Khalid al-Hud, the Saudi minister of commerce arrived in Berlin, he did not only negotiate about an intensification of trade and economic cooperation, but he also tried to push the issue of an arms deal including up to 20,000 Mauser rifles and a cartridge factory. In fact, the successful and rapid conclusion of an arms deal seems to have been the sole purpose of al-Hud's mission.[36] At one stage he tried to play the APA off against the AA. However the efforts were of no avail; in fact they may even have been counterproductive. By mid 1938 it was clear, that Khalid al-Hud's mission had failed, much to the dismay and outrage of King 'Abd al-'Aziz.[37]

Notwithstandingly, the mission did have one positive side effect at least. It had become clear that extensive business and especially arms deals required for their loan arrangements on governmental level and also because of the political aspects involved the establishment of formal diplomatic relations. True, King 'Abd al-'Aziz in his remarkable farsightedness and solid pragmatism had stipulated this requirement very early and repeatedly. But he had encountered a German Foreign Office, that somehow was reluctant.

Principally, however and as the record of German-Saudi approaches indeed clearly demonstrates the issues of formal diplomatic relations and of an arms deal were not necessarily linked. When the Saudi Under-Secretary-of-State for Foreign Affairs, Fuad-bey-Hamza visited Berlin in

May 25, 1937, on a weapons demonstration by the German arms manufacturer Rheinmetall the same attache had mentioned among those attending also representatives of the Hejaz(28). Newspapers at the time carried similar stories about the modernization of Saudi Arabia's army and they reported of huge arms deliveries from France. According to the same sources a "ministry of defence" had been founded under the provisional direction of King 'Abd al-'Aziz's financial adviser 'Abdallah al-Suleiman(29).

Seen from the German angle the Saudi approaches to Berlin's officials, on first sight at least, looked less dramatic. On November 5th, 1937, Dr. Fritz Grobba, Germany's envoy in Baghdad had a meeting with Sheikh Yusuf Yasin, the private secretary of King 'Abd al-'Aziz(30). Although the Palestinian problem and its implications for Saudi-British relations were covered in the discussions, military aspects of the "rebellion" in Palestine and arms requests seem not to have been raised. Instead Yusuf Yasin stressed upon Grobba the importance of establishing formal diplomatic relations between Berlin and Riyadh. He forwarded King 'Abd al-'Aziz's renewed wish to see a German diplomatic envoy being accredited to Jedda and to have a regular exchange of views on questions of mutual interest(31).

It has nevertheless to be assumed that Grobba's and Yasin's meeting on a diplomatic level was related to recent Saudi approaches at Baghdad to representatives of the Otto Wolff enterprise, which were engaged in negotiations with the Iraqi Ministry of Defence for the supply of German arms. Furthermore, documentary evidence suggests, that officials of the APA (Foreign Policy Department of the Nazi Party) on their part had already for some time been working on Arab middlemen.(32) These again seem to have been instrumental in bringing the APA into contact with more influential members of King 'Abd al-'Aziz's entourage such as his personal physician Midhat Sheikh al-Ard or Khalid al-Hud al-Qarqani.(33) The former called on the APA during a visit to Berlin in autumn 1937. He raised two points: first, a clarification of whether the Nazi's anti-Semitic

Nevertheless, the by-now well documented Saudi-German arms negotiations in the late 1930's have remained shrouded in mystery as regards their full scope, true motives and actual deliveries. The reasons for this state of affairs and for the current historiographical controversies are manifold indeed. By and large they all have to do with the complexity of the contemporary historical context of the Saudi policy performance[24]. Therefore, while hitherto the constraints upon Germany's Middle East policy have been stressed, in this chapter the specific concerns, dimensions and constraitns of Saudi Arabia's regional policies will be accentuated. Rather than Berlin's sudden anti-British sentiments, the feelers towards Arab middlemen and the wild dreams of the APA (Foreign Policy Department of the Nazi Party) officials, it was waxing security concerns and regional policies of young Saudi Arabia, which provided the background and motive forces for King 'Abd al-'Aziz's arms negotiations.

1. The Course of Events.

The exact date and level of the beginnings of German-Saudi Arabian discussions about an arms deal may be impossible to trace. Some historians have placed them in the context of the Peel Commission's partition plan for Palestine, which was submitted to the British government in July 1937[25]. Others trace them to February of that year and refer to sources from the German Foreign Office archives[26]. This latter date is corroborated by evidence from the National Archives in Washington. According to the United States' Military Attache at Berlin, Major Truman Smith, a prominent figure in the foreign business field of the German armament industry had explained to him, that "in recent months every European arms concern has noticed a sudden and quite remarkable interest in armaments throughout the Near East countries. Turkey for several years has been a steady arms customer of Germany . . . Since February, however, Afghanistan, Persia, Iraq and the Hejaz have all decided simultaneously on a modernization of armaments on a scale which is quite surprising. Hardly a fortnight goes without a new commission from one of these lands appearing in Berlin"[27]. In an earlier report, of



behaviour would not change. Gradually however, Hitler's Nationalist Socialist Party mustered its own rank and file for conducting foreign affairs. The party, in fact, established its own Foreign Policy Office (Außenpolitisches Amt, APA), headed by Rosenberg, which quite systematically at home and abroad set about to usurp functions of the still existent German Foreign Office (Auswartiges Amt, AA) and enforce a party ideological line on issues of foreign policy. There were mounting clashes of loyalties. Many a diplomat, who was dissatisfied with the restraints of the Weimar Republic's foreign policy but who lacked the credentials of the Hitler party, was caught in the middle.

As concerned the Middle East and as will be exemplified in the next chapter, Saudi Arabia came to experience this dual system in a particular way. The opposite protagonists, with whom King 'Abd al-'Aziz had to deal, were Werner-Otto von Henting, who was in charge of the Oriental desk at Berlin's Foreign Office(20), and Fritz Grobba, the German ambassador at Baghdad and later an accredited envoy also at Jedda, who became enthralled by the new chances of a forward policy in the Middle East(21).

II. The "Hot Phase" of Saudi-German Arms Negotiations and Diplomatic Relations in the late 1930's.

Already in autumn 1929, shortly before the documents of the ratification of the Saudi-German treaty of friendship were exchanged at Cairo, newspapers had reported that German military instructors might be assisting King 'Abd al-'Aziz in building up a large modern army(22). A year before, in March 1928, there even had been rumours about shipments of munitions from the German port of Kiel to Jedda(23). Be that as it may, rumours are not easy to discard at least as long as there are dubious circumstances. If the news headlines had any substance at all, they would at best indicate, that King 'Abd al-'Aziz's later arms negotiations also may have primarily been conducted in the interest of state power.

interest in the British Oil Development Company (BOD), which, in the early 30's, had obtained a concession in northern Iraq[18]. True, there was considerable British governmental intrigue of spoiling business for the German shareholders. However, the government at Berlin had not been constructive either. It even had allowed opportunities for a German or combined German-Italian majority shareholding to pass. When governmental support was afforded at all, it was either with the aim of securing export orders for German heavy industries or else to make the German position in the BOD more attractive to major oil companies and exchange it for a share in a concession in Central America.

What seems to have escaped the attention of many observers at the time was that ever since the mid-30's, when Hitler set on the road to war, oil and fuel were considered to be too precious, strategically, to be left vulnerable by outside interference. In the event of a war in Europe and the Mediterranean with Britain as one of the adversaries, German oil supplies from the Middle East would not be defensible. This was the strategic ruling of German oil policy abroad in the late 30's[19]. Hence the poor performance of German shareholders later on in the BOD; hence Iraq's failure, in 1937, of engaging German oil interests in the Basra province; hence the constraints upon Germany's envoy at Baghdad and Jedda, Dr. Fritz Grobba.

3. The Dual System of German Foreign Policy Making.

The frequent misunderstandings over the motives and true aims of Germany's political, diplomatic and later on, propagandistic performance in the Middle East have in no small degree been brought about by the dual system of German foreign policy making after 1933. Hitler had come to power by legal means, but with the aim of altering the entire body politic. Partly to secure credibility and recognition internationally, partly because of a lack of adequately trained personnel among his party ranks for assignments in foreign policy making and diplomacy he allowed the German Foreign Office to continue its work, so as if foreign policy

from Germany's dissociation from Middle Eastern oil development.

2. Germany's Dissociation from Middle Eastern Oil Development. Some Economic Restraints and Political Aspects.

Ever since the dramatic local effects of the global economic depression in the early 30's King 'Abd al-'Aziz considered the exploration and export of oil as absolute requirements for state-financiation and economic development. In view of a glutted world oil market as well as of British prohibitive marketing practices, not to speak of British imperial designs at large, King 'Abd al-'Aziz naturally inclined to grant oil concessions to companies with both an access to profitable markets and no political strings. In this sense CASOC was an obvious choice in the early 30's.

In comparison and also judged by those two criteria any Germany oil company or German dominated multinational oil company would surely also have commended itself at least as a competitive bidder. For the Third Reich, because of its large scale motorisation, aviation and armament efforts, was – besides Italy and Japan – one of the most promising oil markets at the time[16]. Furthermore by geographical distance as well as foreign policy orientations towards central Europe, Germany – despite her pre-1914 imperical legacies – seemed to be trustworthy. Indeer her caution, at least until 1937, of not confronting the British in the Middle East politically made Germany acceptable to those, who had to take British sensibilities into consideration.

Nevertheless, as the wide-spread rumours about the alleged motives of Grobba's visit to Jedda in early 1939 reveal[17], there was considerable ignorance and misunderstanding regarding German oil policy in the 1930's. Unfortunately, documentary evidence for King 'Abd al-'Aziz's personal estimate seems so far not available. Being a shrewed observer of everything that was going on in the Middle East and especially in the oil sector it has, however, to be assumed that he must have pondered over the lack of official backing at Berlin for German oil enterprise in the Middle East. A lesson by itself was the performance – and failure – of German oil

Whereas a diehard British government apparently tried to attach imperial strings such as a British inspectorate of the Saudi financial reorganization as well as exclusive air communication and landing rights,[12] the Soviets were more accomodating. Although in the end not much came out of it either, the latter at least provided King 'Abd al-'Aziz with some leverage against the British[13]. At Berlin, where Faisal had arrived on May 21st via Rome, Bern, Paris, London and Deng Haag, hopes were expressed for a stronger development of commercial relations and the establishment of diplomatic relations. The deflationary policies of the then Reich Chancellor Dr. Heinrich Bruning, the lack of capital and curbs to loss guarantees for export trade were, however, bad starting conditions. Also, at one stage of this tour through Europe a project seems to have been discussed of establishing a central bank with English, French, Italian and Egyptian shareholding[14]. In the end all that 'Abd al-'Aziz could resort to was the granting, in 1933, of an oil concession to the Standard Oil Company of California. In view of a glutted world oil market, the prospects for an immediate remedy were not too bright, but the company had paid cash and that was a beginning.

The success story of what was to become ARAMCO is well known. Of greater significance here is the comparison of the rather poor German performance in oil politics in neighbouring Iraq at about the same time. It also provides the true perspective for Grobba's alleged hunt for oil concessions on the peninsula in the late 1930's. From this angle it can surely be assumed that King 'Abd al-'Aziz had economic reasons as well for not taking German oil interests seriously. This however did not equally apply to German trade. By 1937, German trading with the Middle East had largely recuperated from the depression years and began to surpass the figures of the boom year 1929. The year 1938 showed a further upsurge. Germany's exports to the Middle East, in fact, rose faster than her total exports[15]. The share of the Middle East in German exports amounted to 4% whereas its import share was 5.5%. Although these figures look altogether rather modest, they nevertheless markedly differ



economies.[8]

Saudi Arabia, too, had very seriously although indirectly suffered from the effects of the depression. The sharp decline of the annual pilgrimage and the resultant dramatic loss in revenues taught King 'Abd al-'Aziz, that his newly created state had to look for more stable sources of financiation. A few statistical figures[9] must suffice here to illustrate, how gloomy Saudi Arabia's prospects of state income and financiation of imports had looked in the early 30's. In 1930 the revenue of the government of the Hejaz and Nejd and its Dependencies was estimated at $7,223,700, of which a total of about $2,920,000 were derived from pilgrims. Customs revenues and all other taxes such as tithes accounted for another $3,000,000 and $1,250,000 respectively. As each foreign pilgrim was estimated to spend an average of $200 during his stay in the Hejaz; and as the number of pilgrims in normal years was usually about 100,000, the country's approximate annual income from pilgrimage was about $20,000,000. However, in the wake of the global economic depression the annual number of pilgrims had dropped from 116,000 in 1930 to a mere 20,000 in the years 1933 and 1934; and after an upsurge of 80,000 in 1936 the number again had decreased to 50,000 in 1937 and 48,000 in 1939.[10] Year-to-year losses of revenue of such size forebode calamity for rulership, state and society. The country's purchasing power could no longer meet the estimated worth of $13,000,000 to $15,000,000 of annual imports, of which approximately 70% consisted of essential food products and textiles. As these purchases usually could only partially be paid or else entirely, when a pilgrimage season paid-off, Saudi Arabia, in the 30's and according to Philby, was run more or less on a "rolling credit" or an informal public debt basis.

King 'Abd al-'Aziz, who was only used to a budgetless finance, was compelled to take unprecedented and long-term measures to alleviate the court's distress. In the spring of 1932 his son Faisal, as Secretary of State for Foreign Affairs, paid visits to nearly all major European capitals. Negotiations for loans were conducted at London and Moscow.[11]

Germany could have meant to King 'Abd al-'Aziz, it is, however, indispensable, to screen Germany's overall commercial performance in the Middle East and point out some of the factors, by which trade and politics were conditioned. Some basic tenets of Germany's Middle Eastern oil policy in the 30's also will be elucidated.(7)

Of course, it is not implied, that King 'Abd al-'Aziz necessarily shaped his perceptions of a German role in the Middle East on a similar evaluation of facts and interests nor is it suggested, that all German middlemen acted on such premises. On the other hand, what might be inferred from a brief overview is that King 'Abd al-'Aziz probably harboured no great illusions about the limitations of any immediate German commitment to Saudi Arabia in international politics or in oil development as a cornerstone for state financiation. It is in this latter respect that the roles of Germny and the United States in King 'Abd al-'Aziz's calculations differed fundamentally. However, what made Germany so attractive to him? Which functions as a "third power" could she perform?

1. The Commercial Performance.

In the official German trade statistics of the inter-war years the Middle Eastern countries listed separately were Turkey, Egypt, Iran, Palestine and Syria-Lebanon (since 1937 also Iraq, Afghanistan, Anglo-Egyptian Sudan). Trading with such countries as Afghanistan, Iran, Transjordan, Arabia (i.e. Saudi Arabia, Oman, Kuwait, Yemen) was summarized under the heading 'remaining Asia'.

Generally speaking, from the early 1930's onwards German trading with the Orient benefitted from a combination of two factors: first, a domestic policy of job creation and obtaining supply orders; second, an authentic Middle Eastern policy of import substitution and modernisation based on state intervention. The countries concerned were Turkey, Egypt, Iran and Iraq. Each way in turn was designed both to overcome the local effects of the global depression and to build strong national

recently has been described as Saudi Arabia's courtship of Germany.[3] It finally let to the establishment of the German diplomatic representation at Jedda in January 1939. Hardly seven months later the relations were frozen not to be resumed again until 15 years later in November 1954.[4]

It is those years from 1937 to 1939, which are under survey here. The short period of intensive political relations between the two powers, diverse but both on an ascending line is fascinating for the light which is shed on the stakes at play and the policy restraints as well as on the zeal and circumspection of the prime movers in the corridors of power, last not least of King 'Abd al-'Aziz himself.

I. The Middle East and its Role in German Commerce and Foreign Policy in the 1930's. An Overview and some Basic Tenets.

Historians widely agree that King 'Abd al-'Aziz mastered the skills of building and balancing power relationships and loyalty bonds, both domestically and internationally, in order to safeguard the formation of the Saudi state and rulership. Seen from this angle his sudden and energetic "courting of" Germany in the late 1930's might have proceeded in a systematic fashion similar to his earlier attempts and methods of winning Washington's full diplomatic recognition and consular representation. In this case it had been reported, that "King 'Abd al-'Aziz had given orders that purchases of American vehicles by the government were to be stopped or greatly curtailed as a protest against the refusal of the United States to recognize his government and to send an accredited representative to Jedda".[5] The King's insistence that the flag should precede trade and not vice versa as was the general pattern of commercial penetration clearly was aimed at gaining international standing and enlisting support in checking British imperial ambitions. In this sense contacts were made to a Germany which already before Hitler's coming to power had begun to commend herself as a kind of 'Third Power' elsewhere in the Middle East, e.g. in Iran, Turkey, Iraq, Afghanistan.[6]

Prior to a proper assessment of what this new power performance of

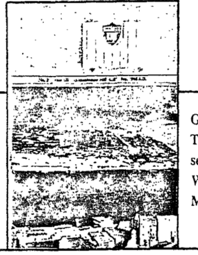
Saudi Arabia's Relationship With Germany Under King 'Abd Al-'Aziz

By Prof. Helmut Mejcher

Introduction

Saudi Arabia's relationship with Germany under the reign of King 'Abd al-'Aziz ibn 'Abd ar-Rahman al-Faisal Al Sa'ud has hardly ever been recorded and analysed on its own merits. Accounts of it usually form sub-chapters in books that tilt to such overriding themes as The Third Reich and the Arab East; Hitler and the Palestine Issue or else Germany's New Baghdad Railway Imperialism.[1] Accordingly the historical context for determining and interpreting the scope and performance of Saudi-Germany relations usually has been somewhat out of focus as far as the Saudi angle is concerned. The consultation of archival sources and documentary records likewise has rather aimed at evidence on events and policies outside the Saudi realm of action.

Partly, these shortcomings might be explained by the well-known fact, that in the Middle East political issues and foreign policy performance usually do have a larger regional configuration with varying focal points. In the present case, however, it surely must also be considered that altogether a Saudi-German relationship existed only for a very short period of king 'Abd al-'Aziz's reign: A treaty of friendship enclosing also some provisions for trade was concluded as early as April 26, 1929. Both the negotiations as well as the exchange of ratifications on November 6, 1930 took place at Cairo.[2] Since then not much was heard of a relationship until the year 1937. The next two years were filled with what



GIBRALTAR
The Rock as seen from the Western Arm Mole Head.
جبل طارق

The writers' views do not necessarily reflect those of the magazine.

Articles are arranged technically regardless of the writer's prestige.

Annual Subscriptions :
- Saudi Arabia : 20 Riyals.
- Arab Countries : The equivalent of 4 issues price.
- Non-Arab Countries : US 6 $.

Articles can not be returned to authors whether published or not.

● **PRICE PER ISSUE** ●

– Saudi Arabia	:	**3** Riyals
– U. A. E.	:	**4** Dirhams
– Qatar	:	**4** Riyals
– Egypt	:	**35** Piastres
– Morocco	:	**5** Dirhams
– Tunisia	:	**400** Milliemes
– Non-Arab Countries	:	**1** U.S. $

Saudi Arabia : Al-Greisy Distributing Est., P.O. Box 1405, Riyadh, Tel.: 4022564.

Abu-Dhaby : P.O. Box 3778, Abu Dhaby, Tel.: 323011.

Dhubai : Dar-Al-Hikma Library. P.O. Box 2007, Tel.: 228552.

Qatar : Dar-Al-Thakafa. P.O. Box 323, Tel.: 413180.

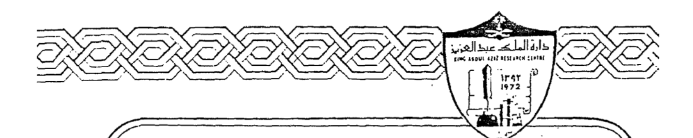
Bahrain : Al-Hilal Distributing Est., Manama, P.O. Box 224, Tel.: 262026.

Egypt : Al-Ahram Distributing Est., Al-Gataa Street, Cairo, Tel.: 755500.

Tunisia : The Tunisian Distributing Company 5, Nahg Kartaj.

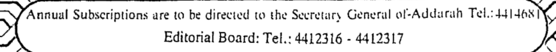
Morocco : Al-Sharifia Distributing Company, P.O. Box 683, Casablanca, 05.



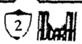


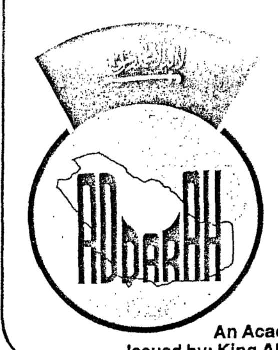






Annual Subscriptions are to be directed to the Secretary General of-Addarah Tel.:4414681
Editorial Board: Tel.: 4412316 - 4412317





IN THE
NAME OF ALLAH.
THE MERCIFUL.
THE BENEFICENT



An Academic Quarterly
Issued by: King Abdul Aziz Research Centre

No. 2 • Year 12 • Al-Muharram 1407 A.H • Sep. 1986 A.D.

King Abdul Aziz Research Centre

- Established by a Royal Decree No. M/ 45 dated [illegible]/8/1392 A.H. as an autonomous body with independent juristic identity.
- Run by a Board of Directors vested with full authority to have its objectives materialized.

Objectives:

Further studies pertaining to the history of the Kingdom, its geography, literature, intellectual and cultural heritage in particular as well as those of the Arab and Islamic world in general.

— To issue a cultural magazine carrying its name ADDARAH.

- In accordance with the Royal approval No. 5/12608 dated 20/5/1396 A.H. the Centre has become the home of the National Saudi Archives and Manuscripts.

P. O. Box [illegible] Riyadh 11461 Kingdom of Saudi Arabia

Facsimile No.: 00/966/1/4417020

